

جيلبرت سينويه

الفرعون الأخير
محمد علي



تقديم: ديروش نوبلكور

ترجمة: عبدالسلام الموذني

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه

الفرعون الأخير

محمد علي

(١٧٧٠ ـ ١٨٤٩)

تقديم: ديروش نوبلكور

ترجمة: عبدالسلام المودني

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه روائي فرنسي، ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر أولاً ثم أكمل دراساته الموسيقية بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا او الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)، **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل**، رواية (٢٠٠٧)، **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨)؛ **أنا يسوع**، رواية (٢٠١٢).

جيلبرت سينويه: **الفرعون الأخير، محمد علي** (١٧٧٠ ـ ١٨٤٩)،
تقديم: ديروش نوبلكور، ترجمة: عبدالسلام المودني
الطبعة الأولى،
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Gilbert Sinoué: **Le Dernier Pharaon**, 1997

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«لم أكرس حياتي كلها لمصر، ولم أقم بأشياء ربما بدت مستحيلة للآخرين لكي أترك متعة لباشا. . .».

«لن أتحمل أبداً بأن تصير مصر إنجليزية، وتركيا روسية».

محمد علي

مقدمة

حول آثار رمسيس ونابليون

من الملائم مع دنو المئوية الثانية للحملة الفرنسية على مصر، أن نتحدث عن واحدة من النتائج الكثيرة وغير المتوقعة التي خلفتها الحملة، فقد وصل إلى شواطئ النيل المصرية، تاجر تبغ تركي ألباني، ولد في كافالا بمقدونيا، وأصبح ضابطاً في جيش السلطان سليم الثالث، وباشا إسطانبول، مع أنه كان أميا. فبتعليمات من السلطان، ألحق بالجيش العثماني، وأرسل إلى المقاطعة المصرية على رأس ثلاثمائة من المرتزقة الألبان للمشاركة في الحرب ضد جيش بونابرت.

وبصفة فجائية، وبعد كارثة أبو قير في شهر آذار من سنة ١٨٠١، سيتولى رئاسة تلك الوحدات العسكرية، وبداية من فاتح حزيران من سنة ١٨٠٣ سيغدو الحكم في مصر مقسماً بين المماليك والألبانيين، ومن صار «بنباشي» والمستمد قوته من اعتماده على الشعب المصري.

أما يسر تواجد القوات الفرنسية، التي كان يخشاها الباب العالي والبريطانيون على السواء، في مصر السبيل لمحمد علي ليستفيد من ذلك في اكتشاف وتبني البلد الذي سيصير باشا فيه منذ سنة ١٨٠٥، ويصبح فرعونه الحقيقي؟

يضاف إلى هذه الأحداث جميعها، الإعجاب الذي كان يحمله للإمبراطور، وانجذابه لحضارة فرنسا، شريكته المتميزة، الذي استلهمه من السيد ليون،

أحد أبناء مرسيليا، وصديق طفولة محمد علي لما كان في كافالا.

كل هذه التقديمات جعلته يعتمد على بلدنا (فرنسا) في كل الميادين تقريبا، كيما يحول مصر من أرض استُعبدت لفترة طويلة إلى بلد منتج وله وعي بهويته الوطنية، وهكذا تمكن هذا «المغامر العبقري» بحسب وصف لامارتين، من مقدرات بلد نصب فيه قواعد أسرته في سنة ١٨٠٨، منذ أن اشتدت قوته، ووضع يده على أرض عدها أرضه، ودافع عنها بقوة أسلحته وبمهارته العجيبة، وبدبلوماسيته المكيافيلية أحيانا.

والواقع أن محمد علي شكل تجسيداً لمعجزة مصر، إذ لايهم المكان الذي يأتي منه المرء إليها، ليصير ابناً من أبنائها البررة، فكل ما يلزمه الرغبة في فهمها، وحبها. ومعلوم أن المصري الذي لم يكن يكره الأجنبي، عرف على مر التاريخ، كيف يفتح قلبه للأجنبي ما دام هذا الأخير لاينوي استعباده. ومحمد علي ينتمي إلى هذه الفئة التي استوطنت البلد، شأنه في ذلك شأن العديد من الفرنسيين، على امتداد التاريخ الطويل، ويبقى أشهرهم العقيد سيف الذي صار فيما بعد سليمان باشا.

وقاد محمد علي مدعوماً بأبنائه، وخاصة إبراهيم الأكثر تميزاً بينهم جميعاً، حرباً من السودان إلى جبال طوروس فاتحاً بذلك سورية والحجاز، ومضعفاً بناءً على أمر من السلطان من قوة الوهابيين الذين كانوا من أوائل «المتطرفين» في شبه الجزيرة العربية، حتى إن ابنه طوسون احتل مكة نفسها. وبما أنه كان مراقباً مراقبة شديدة، خاصة من طرف الإنجليز ومن الروس أيضاً، فإنه لم يستطع أن يحسن من وضع الفلاح المتردي، بيد أنه تمكن من جعله «يرفع رأسه»، وذلك من خلال نهضة بلده عن طريق إصلاح زراعي حقيقي. وشمل الإصلاح كل الميادين، العسكرية منها، والعلمية، والزراعية، والقانونية، والصحية، والمالية، والتجارية، خدمة لمصر التي عدت إلى حدود ذلك الوقت، سجينة مع أنه كان يعتبر سيدها المطلق والمستفيد الوحيد من إصلاحاته.

ولما كان محمد علي ضحية لتوسعه الكبير، فإنه لم يكتف فقط «بامتلاك أرض غارقة تنازع حولها الطامعون لسنين طويلة» كما قال، ذلك أن الإمبراطورية التي أسسها امتدت من الخليج العربي إلى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى البحر الأبيض المتوسط، كانت تعادل عشرة أضعاف مساحة مصر، أو كما يحب جيلبرت سينويه أن يذكرنا، نصف مساحة أوروبا. بيد أن هذه الإمبراطورية أخذت تضيع من بين يديه عندما شارف على الموت. بالمقابل، وبعد أربع وأربعين سنة من الحكم، بدأت هذه الأرض «الغارقة» التي ارتبط بها عضوياً، تخرج من الهوة التي كانت تقبع فيها من قبل، مجسدة بذلك المثال الجيد لنهضة مصر التي كان يخلفها لورثته.

وبما أن جيلبرت سينويه ولد في هذا البلد، ولأنه يعرف الشرق الأوسط معرفة عميقة، فقد تمكن من أن ينفذ بدقة متناهية إلى عقلية بطله، وأن يحلل ردود أفعاله، وأن يعي بشكل جيد الدوافع التي تحركه. زد على ذلك، معرفته الدقيقة التي مكنته من تتبع مغامرة ابن كافالا المدهشة حتى موته، والذي يطالب ورثته بمصر، مثلما فعل أمير مصر في أيامنا هذه، فؤاد الثاني حين اقترن بسيدة فرنسية معلنا أن عروسه تدخل «البيت الملكي لمحمد علي»، كما تذكرنا بذلك بطاقات الدعوة إلى حفل زفافه بتاريخ الخامس من تشرين الأول لسنة ١٩٧٧ (انظر الملحق ص٤١٣)

ويصف لنا جيلبرت سينويه بطله بأنه يملك هيبة الأسد وحيلة الثعلب في الآن ذاته، كما أنه كان شديد الاحترام لزوجته الأولى المثالية أمينة هانم معتنياً بشؤونها، وكان أيضاً أباً حريصاً على أبنائه الثلاثين، عطوفاً عليهم. وقد كان سيداً عظيماً لبقاً يحترم وعوده مع تعطشه إلى السلطة وشدة حذره، إلا أنه متسامح، إذ كان المسيحيون على عهده يعاملون كالمسلمين تماماً، وكان فطناً بشكل رائع، حاضر البديهة في مختلف المواقف، وكان شديد التأثر حد أن يتألم لمذبحة المماليك، وأن يستنكر خلع ملك صديق كما حدث مع لويس فيليب.

ومع أنه كان مشغولاً جداً بالصراعات الداخلية والخارجية على حد سواء،

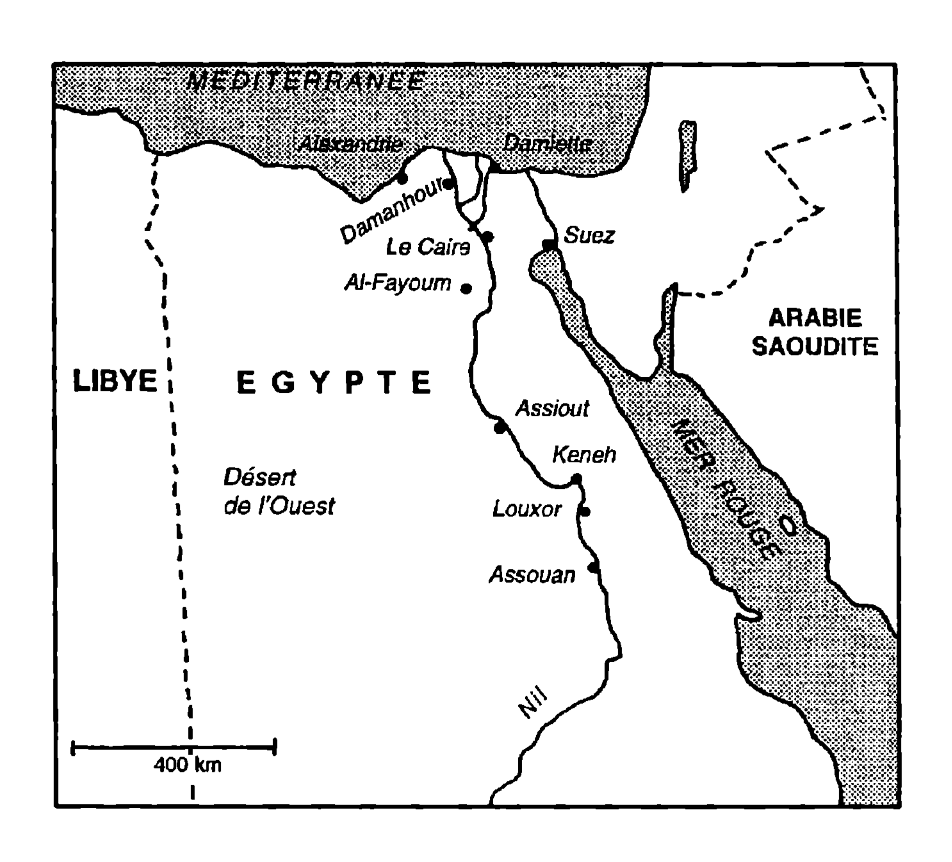
إلا أن ذلك لم يؤثر على حماسه الكبير لتغيير أرض زراعية قديمة إلى عالم جديد. وما كان لإصلاحاته ومبتكراته أن تتحقق دون إلحاق الأذى في بعض الأحيان بالآثار التي عمرت قروناً طويلة. وما يزال علماء الآثار المصرية يلقون باللائمة على اختفاء جدران عتيقة في عهده، مثلما حدث للكنيسة الرائعة والصغيرة لإليفانتين، التي أقبرت تحت مصنع للسكر، وهي صناعة عرفت طريقها إلى مصر على يديه، وما يزالون يشعرون بالكارثة التي كان سيتسبب فيها تدمير أهرامات الجيزة الضخمة التي أنقذت في آخر لحظة، حين كان يزمع استخدامها في إنشاء سد القاهرة.

وعلى الرغم من الإرشادات الملغومة، وخلال الفترة الحرجة التي أعقبت «الكارثة الفظيعة» لنافارين، والتي تحدث عنها ميترنيخ، فإن محمد علي خصص استقبالاً مناسباً لشومبوليون سنة ١٨٢٨، وتمكن من حماية حملته النوبية. وكان معجباً به كثيراً لتمكنه من قراءة الهيروغليفية، وهو ما دفعه إلى أن يطلب منه كتابة التاريخ الأول لمصر الفرعونية، وحين عودته إلى القاهرة، تمكن هذا الأخير من إقناعه بضرورة حماية الآثار القديمة المعرضة لخطر التدمير.

وهكذا، واعتماداً على إحدى مسلتي رمسيس الثاني، الفرعون العظيم، (النموذج مجهول)، حرص محمد علي الذي دأب على السير على خطى نابليون، أن يعترف بالجميل للبلد الذي مكنه أبناؤه من تشييد مصر الحديثة. واستطاعت مسلة ساحة الكونكورد أن تحيي في قلب باريس ذكرى التوأمة بين فرعونين كبيرين، رمسيس ومحمد علي.

كريستيان ديروش نوبلكور

إلى كيفان بشايَ


MEDITERRANEE
Alexandrie
Damiette
Damanhour
Le Caire
Suez
Al-Fayoum
ARABIE
SAOUDITE
LIBYE
EGYPTE
Assiout
Keneh
MER ROUGE
Désert
de l'Ouest
Louxor
Assouan
Nil
400 km

غرس الفرنسيون في مصر بذور هذه الحضارة التي رعاها محمد علي، فعظُم مجد بونابارت، وتسلل شعاع من نور في ظلمات الحياة الإسلامية، وانفتحت ثغرة في البربرية.

شاتوبريون مذكرات ما وراء القبر. المجلد الثالث.

[1]

مصر الممزقة

بدأ كل شيء قبل زمن طويل، في القرن الثالث عشر الذي تزامن وحكم آخر سلطان أيوبي لمصر وكان يدعى الصالح.

ذلك أن الصالح المعرض للتهديدات المتزايدة من هجمات المغول التي كان يقودها أبناء جنكيز خان، قرر أن يرفع من عدد العبيد الذين يُجلبون إلى مصر، كيما يشكل بهم جيشاً قوياً يدافع به عن دولته. وبنهجه هذا، كان يقتدي بسياسة اتبعها السلطان أحمد ابن طولون قبل ثلاثة قرون.

ومضى بسلوكه ذاك الذي لم يكن يؤشر ظاهرياً على شيء، إلى تأسيس دولة جديدة هي دولة المماليك.

جند غالبية هؤلاء العبيد وهم بعد فتيان في مناطق تقع على شواطئ بحر الخزر والناحية الشرقية من البحر الأسود إضافة إلى شمال وجنوب القوقاز. ولم يخضعوا لتدريبات عسكرية صارمة وحسب، بل تجاوزوها إلى تربية عامة تحضرهم إلى الدور الذي سيناط لهم إما في الجيش أو في الإدارة[1].

(١) كان هذا النظام يرتكز على وفاء غير محدود من المملوك إلى البيت العسكري. وكان مصيره من الناحية السياسية، مرتبطاً بقائد يعزل أو يسقط فيتحدد مصير هذا الأخير. فإذا ما كان منتمياً إلى بيت أدرك النجاح، فإن هذا المملوك الذي لم يكن معروفاً من قبل، يمكنه أن يأمل في بلوغ رتبة أمير أو حتى سلطان، وهو ما يفرض تضامناً كبيراً ممزوجاً بشراسة إزاء البيت المنافس. وكان =

وشيئاً فشيئاً، صار هؤلاء العبيد قوة عسكرية وسياسية حقيقية، وفي سنة ١٢٥٠ قاموا باغتيال ابن الملك الصالح. وبعد عشر سنوات من القتال المسلح ضد أنصاره، نجحوا في الاستيلاء على السلطة. وفي سنة ١٢٦٠ صار بيبرس البندقداري[١] أول مملوك في التاريخ يعلن أنه سلطان على مصر. تطورت الأمور بعد ذلك في قلب هذه الأوليغارشية إذ أنه وفي سنة ١٩٣٢ استولى الأمير برقوق على السلطة، ومنح الامتياز إلى الشراكسة أمثاله في التعيينات للوظائف الكبرى، وستحتفظ هذه الفئة الحاكمة المملوكية الثانية والمعروفة باسم البرجية، بالنظام السياسي نفسه الذي عرفته جماعة المماليك البحرية[٢]، غير أنه كان بين الفئتين فرق كبير، ذلك أن الشراكسة أُحضروا إلى مصر راشدين ولم يكونوا أطفالاً كسابقيهم.

وفي سنة ١٥١٧، كانت تقف على حدود مصر الإمبراطورية العثمانية[٣] التي أسست قبل قرنين من ذلك.

وكان سليم الأول على رأس جيش الأتراك، وتمكن من هزم المماليك

= المبدأ الأول الأساسي لهذا التنظيم قريب جداً من التنظيم الذي هيمن على الإمبراطورية الرومانية في منع حق التوريث. وهكذا، فقد كان أبناء المماليك يستبعدون من المراكز السياسية والعسكرية. غير أن هذه القاعدة ستعرف بعض الاستثناءات، وخاصة ما بين سنتي ١٢٩٠ و١٣٨٠، وهي الفترة التي عرفت تعاقب سبعة عشر فرداً من ذرية السلطان قلاون على العرش.

(١) هو ركن الدين بيبرس البندقداري، من أصل تركي ولد حوالي سنة ٦٢٠ هجرية الموافق لسنة ١٢٢٣ ميلادية بمنطقة القبجاج قريباً من نهر الفلوجة بوسط آسيا. وقع بيبرس في الأسر من قبل المغول، وتم أخذه من بلاده حيث بيع في دمشق لرجل يدعى «العماد الصائغ» ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الملقب بالبندقداري والذي أخذ منه لقب «بيبرس البندقداري». المترجم.

(٢) يعود أصل كلمة «بحرية» إلى أول لواء مملوكي، والذي شكل أساساً من الأتراك، وقد أقاموا على ضفاف النيل، وفي البحر والنهر، وتحديداً على جزيرة الروضة، في حين أن «المماليك البرجية» كانوا يقيمون أساساً في مناطق القلعة أو البرج أو القصر.

(٣) بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، امتدت الهيمنة التركية بعيداً إلى شمال البحر الأسود، ووصلت حتى أبواب فيينا والبحر الأدرياتيكي، وحتى أمام مالطا والدول البربرية. وبالتالي على كامل الضفة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط

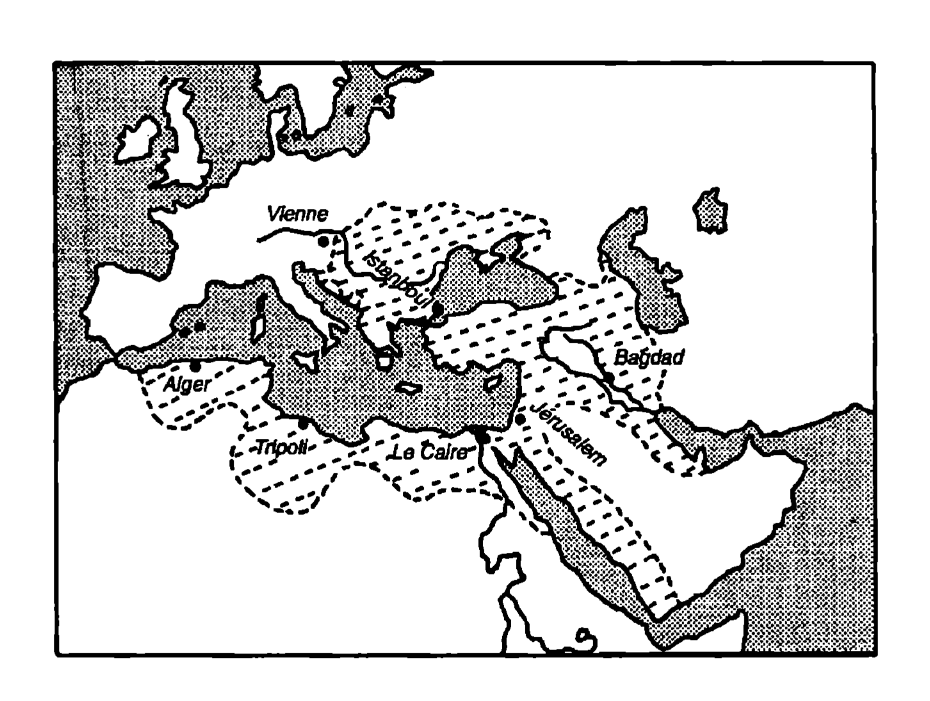
والدخول إلى القاهرة. فصارت مصر منذ ذلك الوقت ولاية عثمانية مثل باقي الولايات العثمانية الأخرى، ولم يشكل كل ذلك فرقاً كبيراً بالنسبة للمصري العادي ابن النيل الذي عاش منذ آلاف السنين قرب ناعورته، إذ أنه كان شاهداً على مرور جيوش كثيرة من قبل، من داريوس إلى الإسكندر فقيصر ثم قسطنطين، إلى الجيوش العربية لعمرو بن العاص. على ذلك، هل كان يهمه أن يصل غاز آخر ليرتع في وادي النهر الملكي؟ بيد أن المحتلين الجدد كانوا منخرطين في جبهات أخرى، ما جعلهم يحجمون عن القيام بمجهود عسكري كاف للقضاء بصفة نهائية على المماليك الذين ألحقوا بقيادات النخبة العثمانية، وسمح لهم بالاحتفاظ بنظام بيوتهم وبالاستمرار في جلب العبيد الشراكسة[1] وإن بأعداد محدودة.

وبدورها، بدأت الإمبراطورية العثمانية شيئاً فشيئاً تتدهور، حيث وُضع منصب الوالي في المزاد، وأخذ يباع في أول مناسبة للذي يضخّ مالاً أكثر في خزينة الدولة المركزية. أما الانكشارية الذين أرغموا على امتهان التجارة نظراً لشح رواتبهم، فقد صاروا أصحاب دكاكين، وأضحوا حرفيين مسلحين، وانزلقت مصر إلى الفوضى.

وفي يوم التاسع عشر من شهر أيار لسنة ١٧٩٨ خرجت من طولون حملة بحرية ضمت في الأساس عشر بوارج وسبع فرقاطات وثماني سفن شراعية وسفن حارقة وست سفن بشراع واحد مسلحة، وأربع سفن حربية مزودة بالمنجنيقات، وكان على رأسها «السلطان الناري»، بونابارت، وكان يبلغ من العمر حينها تسعاً وعشرين سنة.

---

(١) أسست هذه الفرقة من المرتزقة في عهد مراد الأول (١٣٥٩ ـ ١٣٨٩). وكانت تتشكل من أطفال مسيحيين يؤخذون من أسرهم، ويربون داخل الديانة الإسلامية. وقد شكلوا سلاح مشاة مخيف، وجيد التنظيم. وبفضل شدة بأسهم، استطاعت الإمبراطورية العثمانية أن تمتد حتى حصون فيينا. وعندما قرر محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) تحديث جيشه، تمرد الإنكشاريون عليه، فلم يتردد السلطان في تنفيذ مجازر ضدهم. وبالتالي تمكن من القضاء على هذه المؤسسة.


Vienne
Istanboul
Alger
Bagdad
Tripoli
Le Caire
Jerusalem

ماذا حدث؟ وبأي انعطاف من انعطافات التاريخ قررت فرنسا فجأة أن تحتل مصر؟ فلنسمح لأنفسنا بأن نطلق العنان لمخيلتنا، وأن نجعل أنفسنا شهوداً غير مرئيين لحديث كان يمكن أن يدور في الإسكندرية حوالي سنة ١٧٩٧ بين شخصيتين، وذلك حتى نتمكن من فك هذا اللغز. يدعى الشخص الأول شارل ماغالون، وهو قنصل فرنسا[١]، أما الثاني فكارلو روزيتي الذي كان في الآن ذاته، تاجراً وقنصلاً امبراطورياً للنمسا[٢]. ويتحتم علينا هاهنا أن نوضح بأن مصر التي كانت تابعة رسمياً لإسطانبول. أي أنها لم تكن دولة بالمعنى التام للكلمة، حيث لايوجد هناك سفير على أراضيها، في حين يقتصر التمثيل الدبلوماسي فيها على القنصليات التي كان هدفها الأساس الدفاع عن مصالح مواطنيها المقيمين في مصر. ولمزيد من الدقة نضيف أنه حين استقر ماثيو دوليسيبس، والد فردينان[٣] الغني عن التعريف، في القاهرة كمفوض عام

---

(١) ولد شارل ماغالون في مدينة مرسيليا سنة ١٧٤١، وكان الممثل المرسيلي لدار باردون. استقر في القاهرة سنة ١٧٧٥، وكانت زوجته فرنسواز شريكته، إذ كانت تبيع في مصر شارات وشرائط وأقمشة نادرة، المنتجة جميعها في مصانع مدينة ليون. ولما كانت ماهرة في إرضاء رغبات زبوناتها فقد احتلت في الأوساط النسائية في القاهرة، مركزاً فريداً مكنها من الدخول بكل حرية إلى الحريم، إضافة إلى قربها من زوجات الرجال النافذين. وبفضل هذا، تم إعفاء شارل ماغالون من قبل السلطات الفرنسية من قرار المنع الذي يحظر على التجار اصطحاب زوجاتهم وأبنائهم معهم.

(٢) كان روزيتي متزوجاً من أرملة شخص يدعى يوسف البيطار، وهو يوناني كاثوليكي من مدينة حلب. وكان جمركياً في دمياط، ونظم عودة علي باي إلى مصر. ومن خلال زواجه، كان قريباً من طائفة اليونان الكاثوليك الصاعدة، والملقبة أيضاً بـ «مسيحيي سورية ولبنان»، أو الملكيين. وسيكون أحد الأجانب الأكثر عناداً ومعارضة للوجود الفرنسي في مصر.

(٣) ولد في هامبورغ في الرابع من شهر آذار لسنة ١٧٧٤، ولم يكن يبلغ من العمر إلا سبع عشرة سنة عندما حصل على إذن من لويس السادس عشر بأن يرافق السيد ديروشي، ككاتب للبعثة المرسلة إلى ملك المغرب. وكان مستشاراً في سلا وفي طنجة على التوالي، ثم مستشاراً ومترجماً في المغرب سنة ١٧٩٩، وسينقل في السنة الموالية إلى قادس برتبة نائب مفوض في العلاقات =

للعلاقات التجارية، لم يكن عدد التجار الفرنسيين يتجاوز ثمانية تجار من بين مئتين وخمسين ألف نسمة، أما المقيمين منهم فلم يكن عددهم يتجاوز خمسة عشر مقيماً[1]، وكان عددهم ثلاثون مقيماً قبل الثورة. وبلغ عدد المقيمين الأوروبيين في الإسكندرية التي يصل عدد سكانها عشرين ألف ساكن، حوالي ضعف ماكان في العاصمة، بينما في الرشيد فمن بين خمسة عشر ألف ساكن لم تكن هناك إلا مؤسستان للتجارة الفرنسية. ولم يمنع هذا التواجد المتواضع من أن يتعرض الأجانب قبل حملة بونابارت، إلى جملة من المضايقات. لكن لنعد إلى الإسكندرية، ولنستمع إلى حديث الرجلين. يقول روزيتي معبراً عن هواجسه:

ـ هذا أمر خطير. هل تعلم ما يعني ذلك، أليس كذلك؟

يوافق ماغالون بلامبالاة، ويرد قائلاً:

ـ لن ينال بايات المماليك إلا ما يستحقونه، وإذا ما استمر هذا الوضع المتردي على ما هو عليه، فسيكون مشيناً لجمهورية تسن القوانين لأوروبا، والتي يصيب مجرد ذكر اسمها، المستبدين بالذعر.

ـ ومع ذلك يا شارل. . . هل يستحق ذلك قيام حرب؟

ـ ولكن هل تعي تماماً ما نتحمله منذ أزيد من عشر سنوات؟ هل يتوجب علي أن أقدم لك قائمة بما مسنا من «بهدلة»[2] بسبب هذين المستبدين مراد وإبراهيم؟

= التجارية. وبقرار من القنصل الأول، سيتم تعيينه في المنصب نفسه في السابع من شهر آذار لسنة ١٨٠٣ في دمياط بمصر. ويركب البحر إليها في الحادي عشر من شهر أيار، في المركب نفسه (ألسيون)، مع دروفيتي المعين لمنصب في الإسكندرية. ويصل الرجلان إلى مصر في الأيام الأولى لشهر حزيران من سنة ١٨٠٣. (أنظر دوان، ماثيو دو ليسيبس، المندوب العام في مصر، ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤، القاهرة).

(١) وكان أهمهم على الإطلاق التجار جوزيف ديكلو، وفيليكس مونجان، وكاف وكلود روير الذي كان يزاول مهنة الطب في الإسكندرية.

(٢) في لغة تجار الشرق، تشمل كلمة بهدلة، ابتزاز الأموال.

ـ أعلم كل هذا.

ـ تعلم أن نظام الامتيازات الضريبية[1] حدد في أن ندفع ثلاثة في المائة للجمارك. في الشهر الماضي، وعلى الرغم من تدخل يوسف القصاب، فإن رجال الجمارك في القاهرة، زادوا علينا جملة من الضرائب التي لايعرف أحد أسماءها البربرية غير أبناء البلد! وفي كل مرة احتاج هؤلاء البايات إلى المال، يطرقون أبواب التجار مطالبين بخمسة عشر إلى عشرين ألف قرش كقرض لايعيدونه أبداً؟

يتقلص وجه روزيتي كأنما ليعبر عن نفاذ صبره قبل أن يردد:

ـ نعم، أعلم ذلك.

ـ طالبت مراراً في بلدي بأحد أمرين، إما أن يُسقطوا عنا لقب مواطنين فرنسيين أو أن يعيدوا إلينا حقوقنا!

ـ وقد أبلغت هذا بطبيعة الحال إلى جمعيتك التشريعية.

ـ نعم، مثلما أبلغت مندوب الجمهورية في إسطانبول فيرنيناك.

ـ أعلم مضمون الرسالة التي جاء فيها «إن الجمهورية قوية بما يكفي لإعادة العقل إلى هؤلاء الحمقى المتغطرسين دون قوة حقيقية... وإني لأرجوك أيها المواطن بأن لاتهمل الوسائل لتسليم مصر إلى فرنسا. سيكون ذلك أجمل هدية يمكنك تقديمها إلى بلدك، وسيتسنى للشعب الفرنسي الاستفادة من ثروات عظيمة».

---

(١) وقعت المعاهدات بشأن الامتيازات الأجنبية سنة ١٥٣٦ من قبل السلطان سليمان العظيم (القانوني) وفرانسوا الأول. ومنح هذا الاتفاق الفرنسيين إضافة إلى رعايا الدول الموجودة تحت الحماية الفرنسية، الحق في السفر في الإمبراطورية التركية العثمانية، وممارسة التجارة فيها من دون قيد أو شرط. إضافة إلى هذا، شملت هذه الاتفاقيات الحصول على امتيازات خاصة مثل القضاء وذلك عن طريق محكمة قنصلية عوض المحكمة العثمانية، زد على ذلك الإعفاء الضريبي. وسيشمل هذا النظام فيما بعد القوى الأوروبية الأخرى. ويمنح الأوروبيين عامة حصانة، وفي بعض الأحيان عدم القصاص، حد أن المواطنين المتحدرين من هذه الدول، فقدوا أي إدراك بما هو سليم وغير سليم.

يتوقف روزيتي قليلاً، قبل أن يواصل قائلاً:

ـ مهما يكن الأمر يا شارل، فما أزال أعتقد أن غزو مصر من قبل القوات الفرنسية ستكون له عواقب غير محسوبة على باقي دول العالم، دون إغفال ردة فعل إسطانبول. هل نسيت أن فرنسا تعتبر حليفاً للإمبراطورية العثمانية؟ وهل تظن أن الأتراك لن يفعلوا شيئاً وهم يرون إحدى أهم ولاياتهم تلحق ببلاد أخرى؟

ـ لكن، وعلى العكس من ذلك، سيُسر الباب العالي إذا ما خلصناه من هذه الدودة، وأنا أقصد هنا، المماليك!

ـ وهل تعتقد أن شكرهم سيتجلى بالتخلي عن ثروات مصر؟ اسمح لي أن أشك في ذلك.

ـ هل يملكون الخيار؟

يحاول القنصل أن يقوم بمحاولة جديدة إذ يقول:

ـ أخاطب عقلك هنا. عليك أن تقنع حكومتك بالتراجع عن هذا الأمر.

وبصوت محايد، يقول ماغالون كأنه يسر بشيء:

ـ أنا عازم على مقابلة وزيرنا للشؤون الخارجية السيد تاليران، وتقديم مذكرة مفصلة عن الوضع، وسيحدد إن كان عليه التدخل أم لا لدى القيادة، لكني، وأعلم أن هذا سيخيب أملك، أدرك أننا نتقاسم وجهة النظر نفسها حيال القضية[١].

ـ أنى لك مثل هذه القناعة؟

ـ علمت أنه وقبل سنة تقريباً، وفي اجتماع ضم جمهوراً من النخبة في جلسة

---

(١) تم اللقاء بالفعل بعد أشهر من ذلك، أي في شهر كانون الثاني من سنة ١٧٩٨، وقد استلهم الوزير كثيراً من مذكرات ماغالون، حتى إنه ذهب إلى تأويلها في «التقرير المقدم إلى حكومة الإدارة التنفيذية بخصوص احتلال مصر»، والذي وجهه إلى الحكومة في الرابع عشر من شهر شباط لسنة ١٧٩٨ بناءً على طلب بونابارت. ومن دون شك بأن تاليران كان المحرك الأول لسياسة فرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط.

عامة في المعهد الوطني للعلوم والفنون، أشار السيد تاليران إلى فكرة إرسال حملة إلى مصر، وهي فكرتي ذاتها.

يفاجأ روزيتي بما سمعه، فيدمدم قائلاً:

- الأمر محسوم إذن. وإذا ما اقتنع السيد تاليران بجدوى العملية فلن يستطيع أحد معارضته بل على العكس من ذلك تماماً، سيتمكن من إقناع كل الفرنسيين.

- أنت تعلم أنه لا وجود في السياسة لأمر محسوم وقاطع، كل ما أنا مقتنع به هو أن الإساءة التي يتعرض لها الفرنسيون تستحق تصحيحها.

- دعنا من كل هذا يا صديقي، فوضعية التجار بلاشك صعبة، ألا تعتقد أن ذلك يشكل حجة مناسبة لتصلوا إلى غاياتكم؟ في الحقيقة، وأنت على علم أكيد بذلك، ليس شرف فرنسا الذي مس هو ما يضايقك هنا. لا، المسألة تتعلق بشيء آخر، فقد تلقيت رسالة مؤرخة بالثامن عشر من شهر آب أي قبل سنة من الآن. كانت الرسالة موجهة إلى القيادة وموقعة من طرف جنرالكم الصغير بونابارت، وبدت لي جملة فيها تلخص كل شيء. هل تريد أن أذكرك بها؟

يتجاهل روزيتي رفض الفرنسي، ويشرع في استشهاده ضاغطاً على كل كلمة:

- «لن يلزمنا وقت طويل لندرك أنه للقضاء على إنجلترا يتعين علينا الاستيلاء على مصر».

ثم ينهي الدبلوماسي بصوت جاف:

- إنجلترا يا شارل. إنجلترا والطريق إلى الهند التي هي أساس قوة إنجلترا، والاستيلاء عليها يجعل إنجلترا تركع. هذا هو الرهان الوحيد، وتاليران يعلم أن التحالف مع العثمانيين لم يعد ذو جدوى من الناحية السياسية، وأن الحرب البحرية جعلت تجارة الأساكل تفلس. واحتلال مصر يعد الوسيلة الوحيدة لمهاجمة إنجلترا في الهند. وعلى كل حال، فمشروع هذا الغزو ليس وليد

الأمس القريب، فقد عبرت الفكرة ذاتها بال الكثيرين. هل تذكر أن ليبنيز الفيلسوف الألماني كان قد وضع أمام لويس الرابع عشر مشروعاً مماثلاً أثناء زيارته لباريس؟ ألا يقال إن شوازول فكر في الأمر عينه في عهد لويس الخامس عشر[١]؟

يصمت قليلاً، وهو يركز ناظريه على ماغالون قبل أن يضيف:

ـ هناك عامل حاسم آخر.

ـ هكذا إذن!

ـ منذ أن عاد بونابارت من إيطاليا أخذ يشعر بالملل، وليس هناك أخطر من أن يبقى بطل بدون عمل، وحكومتكم تعلم هذا جيداً، وهي ترتعد خوفاً من اقتلاعها من جذورها، لأجل ذلك فأعضاؤها يريدون بونابارت دوماً في مكان آخر، وليس في باريس. وإلا لمَ سلمت إليه قيادة جيش إنجلترا؟ كما لو أن غزو الجزر البريطانية ليس بالأمر الخيالي جداً. ربما كان جنرالكم هذا مستبداً متعطشاً لاستخدام القوة، ولكن الأكيد أنه ليس غبياً.

بدا كما لو أن ماغالون سيقاطعه، بيد أن ابن البندقية يتجاهل ذلك مرة أخرى إذ يضيف:

ـ تظاهر بونابارت بتفتيش القوات المعدة لعملية الإنزال على السواحل الإنجليزية، لكن وفي قرارة نفسه كانت مصر غايته. ألم يقل هو بنفسه «كل شيء يسوء هنا، ولم يتبق لي مجد لأن أوروبا الصغيرة لاتمنح ما يكفي منه. علي أن أقصد الشرق، مصدر المجد العظيم»؟ فلتكن لطيفاً إذن، ولتكف عن ذرف الدموع على مصير أربعين كافازجي[٢]؟

---

(١) طرح الفيلسوف الألماني ليبنيز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) أثناء تواجده في باريس مشروع احتلال مصر إلى لويس الرابع عشر، وقد فعل هذا من دون شك على أمل تحويل تركيزه عن حروبه مع هولندا وألمانيا. وبحسب شهادة تاليران ولوزون، فقد وضع شوازول التصور الكبير نفسه في عهد لويس الخامس عشر دون أن ينفذ المشروع.

(٢) بائع أو تاجر باللغة التركية.

ـ ما أشد الحقد المسلط عليه! لكن كيف أمكنني إسقاط أمر أنك وعلى الرغم من كونك بندقياً إلا أنك قنصل للنمسا أيضاً؟ وشأنك شأن مواطنيك تحتفظون بغصة مرارة وذكرى سيئة من حرب كامبوفورميو.

يتوقف قليلاً قبل أن يضيف:

ـ ولكني معجب بك يا روزيتي. طيب فلنلعب بأوراق مكشوفة. كان هذا أهم ما تضمنته الرسالة التي وجهتها إلى وزارة البحرية، وبغض النظر عن قيمة مصر كدولة يمكنها أيضاً أن تُستخدم كمستودع لسلاح الجيش الفرنسي الذي بإمكانه وصول الهند انطلاقاً من السويس في خمسة وأربعين يوماً، ويمكن لعشرة آلاف جندي فرنسي طرد الإنجليز من البنغال، زد على ذلك ما سيوفره احتلال مصر من فوائد كثيرة يصعب التكهن بها حالياً.

وحقيقة الأمر، أنه من غير المعقول تخيل أن استيلاء فرنسا على مصر كان سيجعل إنجلترا تحت رحمتها، فقناة السويس لم تكن قد حفرت بعد، والطريق إلى الهند كان ما يزال يمر عبر رأس الرجاء الصالح. بالمقابل، فإن النقطة الأساسية التي دفعت الحكومة إلى اتخاذ قرارها ذاك كانت بأن تبعد بونابارت قدر إمكانها.

وهكذا، فقد رسى جيش الشرق على شواطئ الإسكندرية في الفاتح من شهر تموز لسنة ١٧٩٨، ولم يكد يمر شهر واحد حتى فاجأ الأميرال نيلسون الأسطول الفرنسي المسجون في خليج أبو قير ليقضي عليه.

وبذل بونابارت جهداً كبيراً ليحظى بإعجاب السلطان سليم الغاضب جداً من احتلال إحدى ولاياته، بيد أن مشاعر السلطان ظلت ثابتة، ليعلن الحرب على فرنسا بتحريض من إنجلترا. إلى كل هذا، وفي مصر العليا، ظل المماليك الذين فقدوا الكثير من بريقهم، يتحرشون ليل نهار بالجيش الفرنسي الذي مس أفراده الهوان والتخاذل، وتكالب عليهم المرض والشمس وغياب الإمدادت وهو ما أصاب معنوياتهم وأجسادهم على حد سواء. وحاول بونابارت أن يشق لنفسه طريق خروج باتجاه فلسطين بيد أنه أوقف أمام جدران كنيسة القديس

جون داكر فأجبر على التراجع. ولم يجد بداً من العودة إلى فرنسا ليصنع قدراً أخفق فيه بشكل كبير في أرض الفراعنة.

وفي يوم الثالث والعشرين من شهر آب لسنة ١٧٩٩، سيركب البحر إلى فرنسا، متخلياً عن القيادة لسيء الحظ كليبر الذي بدا ان الأمر تجاوزه[1].

«هكذا تم الأمر... ودون أن أستطيع الدفاع عن نفسي، هي ذي مصر كثقل يرزح تحته كتفيّ. فالراتب تأخر... وفقد أهل البلاد عادة الدفع، وفي ظروف مماثلة، يغادر الجندي بعد أن يحرق فراشه، مثل ملازم ملأ مقهى بحامية بضجيج ديونه وطيشه[2]». أو أيضاً «أيها الصدقاء، لقد ترك لنا هذا الزنّاء سراويله الداخلية ملآى بالخراء! سنعود إلى أوروبا ونجعلها في فمه»[3]!

وخلافاً لبونابارت، لم تكن لكليبر رؤية استعمارية، ذلك أنه رأى أن الجيش الذي يقوده والذي كان مفصولاً عن قاعدته، كان عليه أن يدافع عن حدود فرنسا التي تتهيأ دول أوروبية لمهاجمتها، وليس أن يحتل بلداً وراء البحار. وكان يتوقع أيضاً أن شراً يحدق به في هذا البلد العريق، حيث تغلب على أجوائه الإشارات والخرافات، إذا لم يسارع في العودة إلى بلده. وهذا ما أكده له المستقبل.

وبعد شهور فقط من القطيعة مع فرنسا، عمدت تركيا إلى إبرام عقدين دبلوماسيين. الأول كان معاهدة تحالف مع روسيا بتاريخ الثالث والعشرين من

---

(١) في التاسع عشر من شهر آب لسنة ١٧٩٩، أي قبل أربعة أيام من رحيله إلى فرنسا عن طريق البحر، يكتب بونابارت إلى كليبر الذي كان متواجداً في ذلك الوقت في دمياط «ستصلك رسالة في العشرين أو الحادي والعشرين من شهر آب. أرجو ان ترحل فوراً لتكون شخصياً في الرشيد، إذ أن علي أن أبحث معك قضايا بالغة الأهمية...» والواقع أنه لم تكن أبداً في نية بونابارت احترام هذا الموعد. فقد وصل في الحادي والعشرين إلى الرحمانية، وفي الثاني والعشرين إلى بئر الغطاس قرب الإسكندرية. وسيركب البحر صباح يوم الثالث والعشرين.

(٢) نقل بواسطة ديجينيط في كليمون دولاجونكيير، الحملة على مصر، باريس، المجلد الخامس، ١٨٩٩ ـ ١٩٠٧، وهنري لورون، كليبر وبونابارت، القاهرة، المجلد الثالث IFAO 1998.

(٣) لورون، مصدر سبق ذكره.

شهر كانون الأول لسنة ١٧٩٨، ومعاهدة تحالف أخرى مع إنجلترا بتاريخ الخامس من شهر كانون الثاني لسنة ١٧٩٩. وتعهد القيصر للباب العالي بأن يضمن له كل ممتلكاته بدون استثناء كما كانت قبل الهجوم الفرنسي على مصر. والتزم الطرفان المتعاقدان بالمساعدة المتبادلة براً وبحراً أو على شكل مساعدات مالية.

وساهم ممثل بريطانيا في إسطانبول جون سبنسر مساهمة كبيرة في إبرام هذا الاتفاق. وكان وزير الخارجية البريطاني اللورد غرانفيل قد أوصاه عن طريق برقية أرسلها له بتاريخ الرابع عشر من شهر أيلول لسنة ١٧٩٨ بأن يستعمل كافة الوسائل المتاحة له ليمكن روسيا والباب العالي بان يتفقا. وكان هدف بريطانيا من تحركاتها تلك، أن تعلن تركيا الحرب على فرنسا، وأن يظل العداء قائماً بينهما، حتى لو قررت فرنسا التراجع نهائياً عن كل غزو جديد لمصر أو احتلالها.

والتحق وليام سيدني سميث، العميد البحري رديفاً بسبنسر عندما كان يتفاوض مع الديوان[1]. وقاما معاً بتوقيع معاهدة تحالف مع رجال سليم الثالث المعتمدين، تضمنت ثلاثة عشر بنداً. ومما جاء فيها «إن حسن التفاهم الذي قام دوماً بين البلاط الإنجليزي المعظم وبين الباب العالي العثماني، إضافة إلى ظروف حالة الحرب التي وجد الملكان نفسيهما منخرطين فيها نتيجة للعدوان الفرنسي الغاشم والمتكرر، دفع الملكين إلى الرغبة في تمتين العلاقات الودية وتجديد أواصر الصداقة القديمة بينهما[2] (. . .)». وكان البند العاشر بصفة خاصة الأكثر فائدة بالنسبة للبريطانيين حيث جاء فيه «(. . .) سيتشاور الطرفان الساميان المتعاقدان في الإجراءات الملائمة للقضاء على أهداف العدو الضارة

---

(١) الديوان، قاعة مزينة بالوسائد يجتمع فيها مجلس السلطان في عهد الإمبراطورية العثمانية. وعموماً، الحكومة التركية.

(٢) غابرييل هانوتو، تاريخ الأمة المصرية. المجلد السابع. باريس ١٩٣٦.

حيثما تواجدت، وخاصة في مصر، ومن أجل تدمير تجارته في بحار الشرق وفي البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فإن صاحب الجلالة إمبراطور العثمانيين لايلتزم فقط بحظر تجارة العدو على كل مرافئه بلا استثناء، بل يتعهد أيضاً باستخدام جيش من مائة ألف جندي وزيادة عدده إذا ما اضطرت الظروف حتى آخر جندي من قواته للحيلولة دون المشاريع التخريبية للعدو».

«وسيضع جلالته أيضاً قواته البحرية رهن إشارة أي تحرك في البحار المشار إليها أعلاه بالاتفاق مع الحلفاء. وبالمقابل، يلتزم جلالة الملك البريطاني من جانبه، بتحريك قواته البحرية بحسب تواجد قوات العدو لإلحاق الضرر بها، وذلك بالاتفاق مع أساطيل الحلفاء للوقوف مانعاً دون تحقيق أهدافه، وخصوصاً منعه من القيام بأي هجوم على دول أو ولايات الإمبراطورية العثمانية»[1].

هل يستطيع إنسان بأن يحلم بأفضل من ذلك؟ سيضع هذا البند على كاهل إسطانبول كل وزر الحرب. وهكذا، فقد صار التركي جندياً لبريطانيا في الشرق، في حين اقتصرت المشاركة البريطانية على قواتها البحرية فقط.

من جانبه، ولمعرفته بأن المعركة خاسرة، قرر كليبر الجلاء عن مصر بشرف، فوقع مع رئيس وزراء تركيا اتفاق العريش، بيد أن السير سيدني سميث المفاوض شبه الرسمي، وجد أن حكومة لندن تتبرأ منه لجهلها بحالة جيش الشرق الفرنسي، إذ اعتقدت أن بإمكانها إرغام كليبر على الاستسلام. وهكذا قدمت إنذاراً لابن الألزاس بضرورة الاستسلام التام، غير أنه تماسك وألحق بحليف بريطانيا الوزير ناصيف هزيمة نكراء في سهل هليوبوليس في العشرين من شهر آذار لسنة ١٨٠٠.

وللأسف، وبعد ثلاثة أشهر من ذلك، أي في يوم الرابع عشر من شهر حزيران، يسقط كليبر تحت ضربات متعصب حلبي. وهكذا تنتقل قيادة جيش

---

(١) المصدر نفسه.

الشرق إلى مينو الذي عدّ من أضعف جنرالات الجيش الفرنسي. والغريب في الأمر أنه كان المفضل لدى بونابارت.

وكانت الهزائم التي ألحقها كليبر بالجيوش التركية في جبل تابور وفي أبي قير وفي هليوبوليس، جعلت الحكومة الإنجليزية تقف أمام حقيقة لامراء فيها، وهي عجز الأتراك بمفردهم على طرد الفرنسيين من مصر. ولبلوغ ذلك، يتعين على الجيش الإنجليزي أن يقف جنباً إلى جنب مع الجيش العثماني، وأن يتدخل عسكرياً.

وأسندت إدارة العمليات الحربية إلى القائد الأعلى لأسطول البحر الأبيض المتوسط اللورد كيث، في حين أنيطت مهمة قيادة الجيش البري إلى السير رالف آبركرومبي، في وقت سلمت قيادة الجيش العثماني إلى القبطان باشا محمد خسرو...[1].

تطلب الأمر كل هذا، وألف دورة ودورة كيما يصل من مكان بعيد شاب صباح الفاتح من شهر كانون الأول لسنة ١٨٠٠ ويُرسل إلى وادي النيل.

وكان يدعى محمد علي.

---

(١) أميرال.

[2]

كان ياماكان.. مرفأ صغير في مقدونيا

كافالا، كانون الأول سنة ١٨٠٠

تنزلق شمس محتشمة على أطراف بحر الإيجي لتعانق البيوت البيضاء للمرفأ الصغير. في هذه الضاحية المجهولة من مقدونيا، حيث السهول الرطبة لسيريس نثرت زراعة التبغ والقطن، وحيث نساء متشحات بالسواد يقدصن بخطواتهن العجلى وجهة مجهولة. وعلى واجهات البيوت يخفق الغسيل، في حين تسيح نظرات بعض المسنين الطيبين، بقسمات وجوههم المنحوتة، في الأفق وتشرد أحياناً في جزيرة ثاسوس حيث يقال إن القديس بولس أمضى بعض الوقت هناك، إلا إذا تعلق الأمر بالإسكندر الأكبر.

لم يعد القديس بولس موجوداً. والتقى الإسكندر الأكبر بالموت على مشارف إيران. في حين أضحت مقدونيا، أو الروملي عند العثمانيين[١]، منذ سنة ١٣٧١ مقاطعة تركية.

ومثل مسني كافالا، كان محمد علي[٢] في صباح هذا اليوم من فصل الشتاء، بلحيته الناعمة المائلة إلى الحمرة، وعينيه البنيتين المظللتين بحاجبين

---

(١) أطلق العثمانيون هذا الإسم بصفة عامة على مجموع ولاياتهم الأوروبية حتى منتصف القرن السادس عشر، غير أن مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ سينشئ ولاية الروملي الشرعية، والتي ستتوحد مع بلغاريا سنة ١٨٨٥.

(٢) يمكن لاسم محمد علي أن يكتب بالحروف الأجنبية بثلاث طرق، Mohammed ali بحسب =

كثين، يمد بصره تجاه البحر.

تحمل نظراته ألقاً غير مألوف، وحركة تلفت الانتباه إليها كان قد أجمع عليها كل من قابله، فهناك «مسافرون من أصحاب النظرة النافذة، يستطيعون أن يخمنوا كل ما قام به هؤلاء الشيوخ منذ أن رشدوا، وكان بإمكان أي منهم أن يعلن أنه من المستحيل ألا يقرأ أحدهم في نظرة محمد علي أن عليه حتماً أن يصير نائب الملك في مصر وواحداً من الفاتحين»(١).

كان متوسط القامة إذ كان طوله يصل إلى حوالي متر وسبعين سنتمراً مع تقوّس في قامته. وكانت قسمات وجهه واضحة. وبيدين صغيرتين وناعمتين. وكان بالكاد قد أدرك الثلاثين من العمر. وقد رأى النور أول مرة هنا في بيت خشبي صغير، غير بعيد عن القناة الرومانية التي ترخي ظلالها على الحي الإسلامي. وسيخبر المحيطين به فيما بعد، عندما بدأ يكتشف مصيره، أنه ولد سنة ١٧٦٩ وهو ما سيؤكده كتاب سيرته حتى لانقول مقدسيه.

بيد أن بارثيلمي كلو، طبيبه الخاص منذ سنة ١٨٢٥ وحتى موته، سيؤكد أن عمره أقل من ذلك التاريخ بخمس سنوات حين يقول «عند وصولي إلى مصر سنة ١٨٢٥، كان محمد علي في عمر الخمسين تقريباً. وكان يتمتع ببنية متينة»(٢). ورغبة منه في الإسراع في التعديل في مذكراته سيكتب «ولد محمد علي نائب الملك في مصر، سنة ١٧٦٩ في الكافال»(٣). بينما يذهب باسكال كوسط مهندس محمد علي منذ سنة ١٨١٧ وحتى ١٨٢٧ إلى القول في

= النطق العربي، Aly Mohamed، بحسب الاستعمال الإنجليزي أو الفرنسي للأسماء العربية المنتهية بحرف i وذلك بوضع حرف y، ثم Ali ـ Méhémet، وهي الكتابة المستعملة في حياة الباشا، والتي احتفظ عليها في فرنسا حتى يومنا هذا، وهي التي تبدو لنا الأكثر ملاءمة لأنها تتوافق مع النطق التركي.

(١) بول شي، رسائل من شواطئ النيل Lettres des bords du Nil، جنيف، ١٩٠٨.

(٢) كلو باي. مذكرات مختلفة، آخر الذكريات في الأكاديميات والمجتمع الطبي. مرسيليا. ١٨٦٤.

(٣) تاريخ محمد علي، نائب الملك في مصر. مرسيليا ١٨٦٢.

ملاحظات مذكرات رحلاته «ولد محمد علي سنة ١٧٧٣ في الكافال».

لكن التاريخ الجدير بالثقة هو الذي حملته ميدالية سكت سنة ١٨٧٤ لتخليد ذكرى إنشاء سد أقيم في الدلتا شمال القاهرة حيث يمكن قراءة «محمد علي المزداد في الكافال سنة ١١٨٤ هجرية[١]»... «أي ما بين السابع والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٧٧٠ و الخامس عشر من شهر نيسان لسنة ١٧٧١»[٢].

يذكر أيضاً أن محمد علي نفسه لم يكن يذكر جيداً تاريخ ميلاده! فمرة كتب بتاريخ الثالث والعشرين من شهر شباط لسنة ١٨٤٠ رسالة موجهة إلى خسرو باشا جاء فيها «سأحدثك بصراحة وإخلاص يا صاحب السمو. بلغت السبعين من عمري، ولم تعد لي أي أطماع شخصية» [٣].

ويصرح في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٣١ لإدوارد لافيزون، ترجمان القنصل العام لروسيا[٤] بأنه «يدخل عامه الرابع والستين»[٥].

---

(١) من الضروري الإشارة إلى أن تواريخ بعض الأحداث أُرخ لها بحسب التقويم المسيحي والإسلامي. وللتذكير فالسنة عند المسلمين تتكون من اثني عشر شهراً من تسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين يوماً. وقد شُرع العمل بالتقويم الإسلامي منذ السادس عشر من شهر تموز لسنة ٦٢٢ الموافق لفاتح محرم اليوم الذي هاجر فيه محمد من مكة إلى المدينة.

(٢) تسلم الكونت دو بارديو من سليمان باشا نموذجاً من الميدالية التي دُقت بمناسبة هذا التدشين، وقد كتب عليها باللغة العربية «محمد علي، ولد في كافالا سنة ١١٨٤ هجرية. حكم مصر. في السنة الثالثة والأربعين من حكمه، أنشأ من أجل الصالح العام لشعبه هذا السد والذي وضع حجره الأساس شخصياً، يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني للسنة نفسها». إضافة إلى ذلك، وفي سنة ١٩٤٩، أراد الملك فاروق أن يحيي الذكرى المئوية لوفاة جده الأول. وتوضح المراسلات الكثيرة جداً بين القصر والمختصين بارشيف ذاك العصر أنه تم في هذا الوقت محاولة تحديد بدقة سنة ولادة محمد علي. واتضح عجز أفراد العائلة الملكية أنفسهم على الاتفاق حول هذه النقطة. وأخيراً، يخلص المختصون بالأرشيفات إلى أن السنة الأكثر قبولاً تبقى سنة ١٧٧٠. أنظر (رحلات في الشرق سنتي ١٨٤٠ و١٨٥٠. باريس ١٨٥١. هذا وأكدت البروفيسور مارسو التي في رأينا كتبت أحد أهم الكتب جدية حول محمد علي، هذا التاريخ.

(٣) بول موريز. وثائق تاريخية. أنظر تاريخ محمد علي، القاهرة ١٨٥٥ ـ ١٨٥٨.

(٤) الكلمة مشتقة من الكلمة العربية: ترجمة.

(٥) ريني قطاوي. حكم محمد علي، تقارير قنصلية. القاهرة ١٩٣١.

لماذا تم الاحتفاظ في النهاية بتاريخ ١٧٦٩؟ قد يرجع ذلك إلى ما استقر في نفسه بأنه يتحتم عليه الإعلاء من أصوله المتواضعة وذلك بتغذيتها ببعض التفاصيل المهمة التي يمكنها أن تؤثر في النفوس. ألم تكن سنة ١٧٦٩ هي السنة نفسها التي ولد فيها نابوليون بونابارت، والتي توافقت لسخرية القدر، بسنة مولد ويلينغتون؟ وخلاصة القول أنه كان مستعداً أن يغفل عن المنتصر في واترلو، لكن ليس عن عبقري معركة أوسترليتز الذي أُعجب به أكثر من غيره. بونابارت. نابوليون. نابوليون بونابارت. سيتعقبه ظل ابن كورسيكا طيلة مدة حكمه، وسيتمكن منه أكثر من مرة حين تسيح العتمة في ممرات قصوره.

تجر الكذبة البريئة الأولى كذبة ثانية، إذ استمتع محمد علي باختلاق طفولة متخيلة. ذلك أنه من جملة أشياء أخرى، أكد أن والده إبراهيم آغا[1] توفي وهو بعد صغير، وأن عمه طوسون هو من تكفل بتربيته. غير أنه يمكن أن يُقرأ على شاهدة أقيمت لإبراهيم آغا بأمر من الخديوي إسماعيل، حفيد محمد علي، ما يلي: «توفي سنة ١٢٠٥ للهجرة» وهو ما يوافق سنة ١٧٩١ ميلادية، أي عندما كان يشارف محمد علي على سنته الحادية والعشرين. ومن المحتمل جداً أنه أقدم على ذلك ليمنح للأجيال اللاحقة وربما لأقربائه ولأبنائه خاصة، انطباعاً بأنه رجل عصامي ناضل بمفرده حتى يصل القمة.

وراج كثيراً بين الناس في حياته ربما، الحديث عن حلم راود أمه وهو بعد في بطنها، ففسر من قبل بعض الغجر على أنها تحمل في أحشائها بذرة ستثمر الشرف والقوة. ويقال إنه عُقد على الطفل أمل خفي أثر على تكوين شخصيته. ونحن نعلم أن سير المشاهير من الناس تلمع عن قصد بقصص مختلفة. ومن بين هذه القصص ما يجعل السير مظلمة كما أن من بينها أيضاً ما يجعلها مشرقة. وفي حالة الباشا المقبل، جعلت القصص الكثيرة عن حياته

---

(١) لكلمة آغا، وجمعها أغوات معنى غامض بعض الشيء، فيمكنها أن تعني بحسب سياقها القائد (العسكري)، أو رئيس الخصيان. غير أن المعنى الأول هو السائد في استعمالها.

والتي كانت تعاد وتكرر، فقط لخدمة مجده العظيم. ولم يكن يتغير فيها إلا الزمن والكاتب. ومن الأفضل أن نحتفظ هنا بالجانب الرومنسي فقط والسحر الزائل.

فلنعرج الآن عن أصول محمد علي الألبانية، إذ أننا أسهبنا في القول بأنه تركي

ألباني. والواقع أن شجرة نسبه نحيفة، وهي تفرض عليه أجداداً غامضين في إيليكا تلك القرية الأناضولية(١) الصغيرة الواقعة في الجنوب الغربي لإسطانبول(٢). ذلك أن والد جده ولد في كونيا، وبالأناضول دائماً ولد جده عثمان في إديرن. لاشيء من ألبانيا وسط كل هذا، بيد أن كل الشهادات سواء لمساعديه أو لأحفاده تتحدث عن أصله الألباني.

وفي هذا السياق، يخبرنا صديق واسع الاطلاع على تاريخ مصر، وتاريخ الملكية به، بقصة جاء فيها إنه في سنوات الخمسينات، وعندما كان الملك فاروق في اليونان منع من مطعم هناك محرم على العرب والأتراك، فاحتج بهدوء قائلاً «لست تركياً، أنا ألباني». ويبدو أن الأصول شديدة التجذر.

ودعماً لنظرية الانتماء الألباني، تحضر بقوة الصلات المتميزة التي جمعت بين محمد علي والمرتزقة الذين شكلوا على الدوام نخبة الجيش العثماني. ومع أن الألبان مسلمون إلا أنهم كانوا يكرهون أسيادهم الأتراك، ولايتحدث أغلبيتهم إلا لغتهم الخاصة. وبما أنهم كانوا من البدو الجبليين القساة، فقد كان من الصعب إخضاعهم إلى النظام إلا من قبل رجل منهم، يفهمهم ويعرف كيف يغازلهم.

وكونه ولد بأصل مزدوج، فهو يفسر مشاعر الحب والكراهية التي كان

---

(١) إسم أطلقه البيزنطيون على آسيا الصغرى، ومنذ سنة ١٩٢٣ بدأ يطلق بصفة خاصة على تركيا الآسيوية، بما فيها أرمينيا وكردستان.

(٢) عفاف لطفي السيد مارسو، مصر في عهد محمد علي. جامعة كمبريدج ١٩٨٤.

يحملها الباشا المقبل[١] لسادة الباب العالي[٢]. فقد كان يحتقرهم بالقدر نفسه الذي كان يحترمهم به، وهو ما يفسر أنه وطيلة فترة حكمه، كان يتردد في إعلان عصيانه على حكومتهم التي كانت تحت رحمته. وإذا صح ذلك فإنه يمكن تصور فرضية أخرى، إذ أنه في ذلك الوقت، كانت الروملي تعرف تواجد عدد كبير من الألبان ومثلهم من السلافيين، ومن المحتمل جداً أن يكون والده واحداً منهم، استقر حوالي سنة ١٧٦٨ بكافالا حيث تعرف هناك على زوجته زينب ابنة حسين آغا التي لم تنجب منه رسمياً إلا ابنين هما محمد علي وأحمد، وإن كان يعتقد، خلافاً لذلك، أن نسلهما عرف عدداً أكبر من ذلك حد أن بعض الكتاب أجمعوا على إعطاء عدد مقبول جداً وهو ستة عشر بين طفل وطفلة[٣].

وكان إبراهيم آغا يشغل منصب يول آغازي أي أنه كان ضابطاً مكلفاً بأمن الطرق. وبموازاة مع نشاطه هذا، كان مثل غالبية الأهالي يتاجر في التبغ. شخص عادي في بيئة عادية تماماً، ومع ذلك، والتاريخ يشهد على أن الآلهة تصطفي من مثل هذه الأوساط العادية شخصيات غير عادية.

ويستمر محمد علي في النظر إلى البحر. . .

هل كان يعي أنه ينتمي إلى هذه الفئة المصطفاة في شهر كانون الأول من سنة ١٨٠٠؟ هذا غير أكيد تماماً. فحتى هذه الساعة كان ما يزال يساعد والده في أعماله كضابط في المليشيا ومصدر للتبغ. وظل أمياً حتى سن الخامسة

---

(١) في الاستعمال الغربي والاستخدام الشرقي القديم، يمكن استخدام كلمة باشا التي تنطق كما تكتب، من دون استعمال إسم معين. وكانت تستخدم في أغلب الأحيان من قبل المؤرخين للإشارة إلى الحكام العامين للقاهرة، وإلى محمد علي أيضاً. ومثل لقب باي، وأفندي لم يكن لقب باشا يتوارث.

(٢) يرجع هذا التعبير إلى بداية القرن السادس عشر. وكان لبعض ملوك الشرق العادة في ترؤس مجالسهم، ومنح الإذن بالمقابلات في أبواب قصورهم أو خيمهم، وأضحى المصطلح بالتعميم يستخدم للإشارة إلى تركيا نفسها.

(٣) غابرييل إنكيري، إبراهيم باشا ١٨٤٨ ـ ١٧٨٩. القاهرة، ١٩٤٨.

والأربعين حين سيتمكن أخيراً من القراءة والكتابة دون أن يغفل عن الانتقام من ماضيه، وذلك بفرض نظام تعليمي صارم على أبنائه، إذ تمكن ابنه سعيد، حتى لانستشهد بغيره، وتحت إشراف المستشرق الفرنسي الشاب كوينيغ[1] من أن يتقن التركية والعربية والفارسية وهو بعد ابن الحادية عشر فقط.

وعندما بلغ محمد علي الثلاثين من العمر، كانت سمات شخصيته قد تشكلت، فقد أضحى ما سيكون عليه في المستقبل، عنيداً مع مرونته، متمتعاً بقوة جسدية حقيقية.

ومع أن مذكرات الدكتور كلو تفتقر إلى الموضوعية، إلا أن شهادته من هذه الناحية تبقى قيّمة، إذ يكتب «في شهر آب من سنة ١٨٣٩ أصيب نائب الملك بورم في الظهر جعله يتألم ألماً شديداً، إضافة إلى إصابات في الدماغ مثلما يصيب المسنين عادة، وقد تطلب الأمر في اليوم الثاني عشر من إصابته، اجتثات هذا الورم الذي كان ملتهباً ومتضخماً، ذلك أنه كان يتكون من أنسجة سميكة جداً، فأخبرت سموه بأن هذه العملية ستكون مؤلمة قليلاً، على الرغم من قصر مدتها، وأضفت بأنها وسيلة العلاج الوحيدة المتاحة، وأنه سبق لي أن قمت بها من قبل بنجاح مع جنود كانوا قد أصيبوا بالورم ذاته. فأجابني نائب الملك بأنه يملك شجاعة الجندي العادي نفسها، وأنه سيتحمل الألم ولن يشكو منه أبداً. وبالفعل، وعلى الرغم من أني كنت أقوم بقص أساسي يصل عمقه للوصول إلى الأنسجة المتشحمة المشكلة للورم، إلى حوالي أصبعين فإنه لم تصدر عن نائب الملك أية صرخة، بيد أنه اعترف عند انتهاء الأمر أنه لم يختبر مثل هذا الألم طيلة حياته». وأوضح الطبيب «لم يذق النوم إلا ساعات قليلة في الليل، وكان نومه مضطرباً، بيد أنه كان يقف منتصباً عند الساعة الرابعة صباحاً».

---

(١) هو صهر لينان دو بيلفون. وقد وصل كوينيغ بحراً إلى مصر سنة ١٨٢٢ بهدف إتقان اللغة العربية، وكان وراء العديد من الترجمات المهمة التي لفتت أنظار محمد علي إليه ليعينه معلماً لابنه سعيد.

وهناك أيضاً تعليق هامونت المشرف على المدرسة البيطرية بالقاهرة والذي لم يكن يحب الباشا على عكس كلو، إذ قال «يتوفر على قوة معنوية مذهلة، فلاشيء يقهره، وهو يتغلب دوماً على الأحداث مهما كانت درجة سوئها، ويملك عزيمة قوية، ولم يكن الألم الشديد لينزع عنه بشاشته التي طُبع عليها، ولم يسمع أبداً شاكياً أو متذمراً مهما كان المرض الذي أصابه» [1].

بالمقابل، ومهما أذيع حوله، فالأكيد أنه كان رجلاً عاطفياً جداً، لايستطيع إخفاء مشاعره مثلما يشهد بذلك الكونت دو فوربان[2] إذ يقول «المحمد علي مزاج ثابت، فهو عنيف ومن الصعب عليه أن يقبل أية معارضة»، ويقول أيضاً «كثيراً ما يُقطع حديث محمد علي بنوع من الفواق المتشنج، وقد أكد لي أحدهم أن سماً قوياً تمت معالجته في أوانه السبب في ذلك، بيد أنه ترك هذا الأثر الذي عاد من أجله عبثاً أمهر أطباء أوروبا».

ويضيف كلو باي بالقول «له مزاج عصبي ودموي، وهو كثير العصبية، شديد التأثر ويشق عليه إخفاء أحاسيسه». ، ويضيف شارحاً «عند وصولي إلى مصر سنة ١٩٢٥، كان الباشا يعاني منذ مدة طويلة من آلام تسببها له تشنجات عنيفة تدفعه إلى الصراخ. استشارني في هذا الموضوع، فاعتقدت أن اتباع نظام حمية محكم سيكون سبيله الوحيده ليتخلص من آلامه، بيد أنه وللأسف الشديد،

---

(١) بريس وهامون، في كتابهما المشترك باللغة الفرنسية تحت عنوان (مصر أيام محمد علي). المجلد الثاني. باريس ١٨٤٣.

(٢) رسام وعالم آثار. تابع دروس الرسام دافيد، وخدم بعض الوقت في الجيش أيام حكم القنصلية. قصد روما سنة ١٨٠٩ حيث سيكرس حياته إلى الفنون الجميلة، ولما عاد إلى فرنسا، عين مديراً عاماً للمتاحف أيام عودة الملكية، ويعود له الفضل في توسيع متحف اللوفر، وإنشاء متحف اللوكسمبورغ. وصل إلى مصر سنة ١٨١٨ حيث سيخصه محمد علي بعدة لقاءات، حتى إنه حصل على إذن لرسم صورة للباشا طبعت على الحجر فيما بعد بواسطة هوراس فيرني، وأعيدت هذه الصورة من قبل الآنسة هارتلبين في إصدارها (رسائل ومذكرات شامبوليون). المكتبة المصرية ١٩٠٩. ينشر سنة ١٨١٩ قصة مغامراته في كتاب بعنوان (رحلة إلى الشرق سنتي ١٨١٧ و١٨١٨) باريس ١٨١٩.

كان من الصعب على سموه الالتزام بذلك النظام. ذلك أن نائب الملك كان معتاداً على أصناف من الطعام تتكون أساساً من مواد كثيرة الدهون، وفي فترة من الفترات، كان مقبلاً على الشراب، ولم أستطع إقناعه بالالتزام بالحمية التي وصفتها له إلا بعد جهد كبير، وأتت الحمية المعتمدة أساساً على العلاج الفيزيولوجي أكلها في وقت قصير جداً. فتمكن محمد علي أخيراً منذ ذلك الوقت أن يودع تشنجاته وأن يهنأ بنوم مريح حرم منه منذ مدة طويلة حيث كان يسهر عليه مملوكوه، يزجون جل الوقت في تمسيد جسده.

ومنذ ذلك الحين، التزم نائب الملك بنظام تغذية أوروبي بناء على نصائحي، حيث تم جلب طهاة فرنسيين، واعتاد بذلك أن يجلس كل يوم إلى مائدة الطعام لتناول وجباته رفقة نخبة من الأوروبيين. وأنا على يقين من أن هذا النظام الغذائي ساهم كثيراً في تمديد عمر محمد علي حتى سن الثمانين. والواقع أن هذا الأمير لم يتعرض لأي مرض جدي حتى سنة ١٨٣٩».

وتتفق كل الشهادات على وصفه بالرجل المتعطش إلى السلطة وإلى العمل العسكري والمزايدات السياسية التي جعلته المبالغة فيها يتناسى حدوده وإمكاناته، وبهذا سيبدو جديراً بكونه الأخ التوأم لمثاله نابوليون بونابارت.

ويرى فيه السير شارل موراي «هذا الرجل (. . .) ولد من أجل المجد والقوة (. . .) وخلق من أجل القيادة والتوجيه»[١]. من جانبه سيحيي بول ميرو فيه «طبعه الذي كان شديد العزم، ورجل سياسة في الآن ذاته، وهو ما كان يؤهله للقيادة[٢]». في حين سيعبر أنطوان دولاتور عن إعجابه الشديد به إذ يقول «أما أن تكون إرادته شديدة القوة تستهوي الشعوب وتخضع الطبيعة فذلك ليس مهماً بالنسبة له، إذ يلزم هذا الشيخ النبيل المجد»[٣]. ويختم كلو بالقول «لم يكن

---

(١) موراي (السير شارل)، في كتابه بالإنجليزية، بعنوان (مذكرة قصيرة عن محمد علي). لندن سنة ١٨٩٨.

(٢) بول ميريو في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان (مصر المعاصرة. . من محمد علي إلى سعيد باشا ١٨٤٠ ـ ١٨٥٧) باريس ١٨٥٨.

(٣) لاتور في كتابه باللغة الفرنسية (رحلة صاحب السمو الملكي المونسينيور دوق مونبونسيي إلى =

طموحه يتغذى فقط على فرض هيمنته على مصر، بل كان يحلم بأن يخلد اسمه في صفحة من الصفحات المجيدة على نحو ما قرأ عن تاريخ نابوليون» أو القيصر إذا ما جاز القول، ذلك أنه منذ أن وصل إلى الحكم، لم يعد يتكلم عن نفسه إلا بصيغة الغائب.

على أن السمة الظاهرة في شخصيته بكل تأكيد، حذره الشديد، دون إغفال كون كان مصاباً بانفصام الشخصية. إذ كان دائم الحذر من كل شيء ومن كل الناس بما في ذلك من أبنائه الذين كان يراقب كل أعمالهم وتحركاتهم باستمرار. وسيكتب الأمير بوكلير موسكو الذي كان يتميز بدقة الملاحظة في أعقاب زيارته له سنة ١٨٣٧ «وبغض النظر عن مظاهر سلوكه الأليفة جداً، وعن سمات الرضى التي تعلو قسمات وجهه، والتي تمنحك الانطباع أنك أمام أطيب الحكام وأكثرهم رقة ومودة، إلا أن ذلك لايمنع من أن يصدر عن سيمائه تعبير عن الحذر الشديد في اللحظات التي كان يعلم أن جليسه لاينظر إليه فيها... [(١)]».

بيد أن هذا الحذر لم يكن يمنعه من أن يعبر أحياناً بصدق كبير كأن يقول مثلاً «لاتحكموا علي مقارنة بكم. قارنوني بالجهل الذي يحيط بي. لايمكنكم أن تطبقوا القوانين نفسها في مصر وإنجلترا. تلزمنا قرون طويلة لنصل إلى المستوى الذي بلغتموه، ولاتحسب علي إلا سنين فقط. لديكم عدد كبير من الأذكياء الذين يستوعبون إرشادات رؤسائهم، ولاأستطيع إيجاد إلا قلة من الناس يستطيعون فهمي وتنفيذ أوامري. أبحث عن أي شخص يمكنه مدي بالمعلومات، فيخيب الآخرون بسلوكاتهم أملي، وقد يحدث أحياناً أن يخيب أملي حتى في نفسي.

لم أنل شرف الحصول على تعليم مبكر، إذ أني تعلمت الكتابة والقراءة في

= تونس ومصر وتركيا واليونان). باريس ١٨٤٧.

(١) من كتاب بالإنجليزية بعنوان (رحلات ومغامرات في مصر، مع قصص عن محمد علي). المجلد الثالث. لندن ١٨٤٥.

سن السابعة والأربعين، ولم أزر بلداً أكثر حضارة من بلدي، لهذا يتعذر علي الوصول إلى المستوى الذي بلغتموه. تكمن الصعوبة في البداية، وقد كان لدي وتد لتحريك أرض مصر، ولزرعها أتوفر الآن على معول، لكنني أسعى إلى الحصول على كل مزايا المحراث»[١].

ويملك باقتدار أيضاً حس اللغة الدبلوماسية التي تقتضي مهارة الرياء، وهي ميزة تستحق ذكر القصة التي يرويها الأمير بوكلر موسكو، إذ أنه وخلال مقابلة له مع نائب الملك خطر في بال بوكلر أن يسأله عن العوالم تلك الراقصات المحتفى بهن من قبل العابرين للقاهرة، غير أن محمد علي كان قد وقع على قرار يحرم عليهن التعري وعرض مفاتنهن باعتبار أن ذلك قلة أدب من قبلهن. وفي لحظة من لحظات شروده أعرب بوكلر المندهش من قرار المنع، عن أسفه لضيفه وشرع في الدفاع عنهن وهي جريمة في حق الملك إذا ما صح القول، وهو ما كاد يتسبب في مشكلة. أخذ أرتين باي[٢] ترجمان الملك ينقل كلمات الضيف بتأثر جلي، فعم الصمت بينهما كان خلاله محمد علي كقطعة حجر «قبل أن يقول بحياء طفل» لاأفهم ملاحظتك يا عزيزي. من هن هؤلاء العوالم اللواتي تشير إليهن؟ «لم نسمع طيلة حياتنا عن وجود مثل هذه المخلوقات». وبينما حبس المحيطون بالعاهل أنفاسهم، تابع كلامه كما لو أن فكرة اخترقت رأسه فجأة: «آه! بطبيعة الحال! أنت تقصد «الموسيقيين»[٣] لكن هذا الأمر لايخصنا بأي حال من الأحوال. فهو من اختصاص وزير الداخلية والشرطة، وإذا ما بدونا قاسين معهم فلأنهم استحقوا ذلك. ومع ذلك، وللوقوف على حقيقة الأمر، سنأمر بإجراء تحقيق، لأننا لم نسمع أي شيء عن هذا الموضوع».

---

(١) جون بورينغ بالإنجليزية عن (تقرير عن مصر وكاندي موجه إلى صاحب السعادة اللورد فيكونت بالمرستون). لندن ١٨٤٠

(٢) كان لقب باي أو بك يُحمل بصفة عامة من قبل الملوك التابعين للسلطان أو من قبل بعض الموظفين من ذوي الرتب العالية.

(٣) يرافق الموسيقيون عادة الراقصات الشرقيات.

مفارقة أخرى تجعله يقف على طرف النقيض مع سادة الباب العالي، إذ أنه سيحافظ على أذواق الرحل وعاداتهم حتى لما بلغ قمة مجده، إذ أنه وعوض الإقامة في بيت قار، كان يعسكر. وستظل مائدة طعامه بسيطة. وكان يخرج في عربة بسيطة يجرها حصانان عاديان[1]. وعلى سبيل المثال، وصلت نفقة الميزانية الإجمالية لمصر سنة ١٨٣٣ المنشورة من طرف بورينغ إلى أربعمائة وعشرين ألفاً وخمسمائة وخمس بورصات[2] (أي ما يعادل إثنان وخمسون مليوناً وثلاثمائة وثلاثة وستون ألفاً ومائة وخمسة وعشرون فرنك فرنسي) بينما لم تتجاوز نفقات بيت محمد علي أربعة آلاف بورصة أي حوالي خمسمائة ألف فرنك فرنسي[3].

وبدءاً من سنة ١٨١٢ سيقطن بصفة أساسية ببيته في شبرا. ويقدم لينون بيلفون صورة عن الأيام الأولى[4] قائلاً «كان بيتاً قروياً بسيطاً جداً، وقد خلت منه مظاهر الفخامة سواء في المسكن أو في الأثاث أو في الخدمة. وكانت الستائر المثبتة ببعض المسامير فقط، من دون زينة وبالكاد تغطي النوافذ. وكانت قاعة الاستقبال تتكون من بهو واحد مفصول عن قاعة الانتظار بشرفة مكشوفة. وكان الأثاث الوحيد مكون من أرائك عادية، وعلقت على النوافذ ستائر هندية من دون زينة أو رسومات. وعندما يحل الليل، كانت تضاء شمعتان مثبتتان على شمعدانين كبيرين وضعا أرضاً، في حين تنار قاعة الانتظار التي يجلس فيها كتابه الخاصون وكبار الموظفين بقنديل زيتي سيء علق بقفص

---

(١) أنظر بورينغ. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) أي خمسة وعشرون ألف بارة. أنظر نهاية الكتاب في جدول العملات الجارية في ذاك العصر، والنسب التقريبية جداً الموجودة بينها.

(٣) أنظر هنري ديهيران في المؤلف باللغة الفرنسية المعنون بـ(السودان المصرية أيام محمد علي) وهو موضوع أطروحة لنيل الدكتوراة قدمت إلى كلية الآداب بجامعة باريس سنة ١٨٩٨.

(٤) لينان دو بيلفون باي في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان (مذكرات حول الأشغال الأساسية ذات النفع العام المنجزة في القاهرة) باريس ١٨٧٢ ـ ١٨٧٣.

تافه صنع من أغصان النخيل وغلف بالورق. وعندما كان يغادر محمد علي بيت حريمه في ساحة الأزبكية أو في القلعة، كان يحمل معه كل لوازم بيته من سرير وزرابي ومطبخ إلى غير ذلك. . . »[1].

فلنقل الآن أن هذه القلعة ما فتئت تلعب دوراً أساسياً في تاريخ مصر عموماً وتاريخ محمد علي على وجه الخصوص. وكان صلاح الدين الأيوبي هو من أقامها سنة ١١٧٦ ولم تتم أشغال البناء فيها وتسكن إلا في سنة ١٢٠١، وقد أضاف لها المماليك والأتراك عدة بنايات، وسيتوج محمد علي المكان بتشييد قصر الجوهرة الذي بناه من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٤. وكان يقع شرق القاهرة على جبل المقطم، وهو ما كان يمنح سكانها منظراً بهيجاً على كل المدينة.

وكانت ترى من هناك في أيام نائب الملك، أهرامات الجيزة والسلسلة الليبية، بينما كان تُرى من الجبل من جهة الشرق، أرضاً يابسة تبعث الخوف في النفوس. وهنا أيضاً كما في كل مصر تجاور الحياة الصحراء. وسيتطرق شاتوبريون في كتابه «الطريق من باريس إلى القدس» إلى هذا المنظر، إذ سيقصد الكاتب المكان في ثاني يوم وصل فيه إلى القاهرة صباحاً بعد أن وصلها في الفاتح من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٠٦، حيث وفي ظل غياب والده، سيستقبله إبراهيم ابن محمد علي. والأكيد أنه لم يحتفظ من هذا اللقاء إلا بذكرى لاتبعث على السرور إذ كتب «قدمنا احترامنا لسعادته الذي كان ربما

---

(١) لكن وبمضي السنوات أضحى المكان قصراً حقيقياً يضم مكاناً مخصصاً للحيوانات وحدائق تخلب أبصار الزائرين، وخاصة الجناح الخاص بنبات الحوذان الأبيض. ويتعلق الأمر بساحة مربعة مفتوحة على حوض حيث كان يلجها الزائرون من أربعة أبواب، وما يزال يطلق عليها إلى اليوم «كشك النافورة». وكان حول الحوض أعمدة رخامية ورواق، بينما يتربع في الزوايا الأربعة أسود من رخام. وفي قلب جناح الحوذان توجد أربعة أبهاء، يتميز كل واحد منها بطابعه الخاص، وعند وفاة محمد علي، أهمل قصر شبرا وجف الحوض تماماً سنة ١٨٧٥ وسيبقى كذلك.

يبلغ من العمر أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة (في الحقيقة، كان يبلغ إبراهيم آنذاك ست عشرة سنة)، وكان جالساً على بساط في مكتب غارق في الفوضى، إذ أحاط به حوالي إثنا عشر متزلفاً يسارعون إلى الإذعان لرغباته. ولم أر في حياتي كلها منظراً بمثل ذلك القبح. فوالد هذا الصبي كان بالكاد يحكم القاهرة، ولم يكن سيداً على مصر العليا أو السفلى. وفي مثل هذه الظروف، كان اثنا عشر متوحشاً بئيساً يقدمون أبشع أنواع المحاباة لفتى بربري اضطره أمنه بأن يسجن في أحد البروج. هذا هو السيد الذي ينتظره المصريون بعد كل تلك المعاناة»!

وأقل ما يمكن أن يقال هو أنه في ذلك اليوم افتقد شاتوبريون لحدسه. هل كان ليخمن أن هذا «الفتى البربري الشبق» سيصير قائداً عسكرياً عظيماً ومدبراً حكيماً؟ أنى له أن يعرف أنه وفي مصر الغارقة في الفوضى، سيتمكن المراهق ووالده في يوم من الأيام، من جعل الشرق وآسيا يرتجفان؟

«أحب أكثر أن أستمتع من أعلى القصر باللوحة الكبيرة التي كان يرسمها النيل والريف والصحراء والأهرام. كان يخيل لنا أننا نلامسها جميعها مع بعدنا الكبير عنها. وكنت أرى بالنظرة المجردة بوضوح، القواعد الحجرية ورأس أبي الهول الذي يطل من الرمال. وإذا ما وضعت نظارتين مكبرتين أستطيع عدّ درجات زوايا الهرم الأكبر، وتمييز عيني وفم وأذني أبي الهول لفرط الروعة التي كانت تمثلها تلك الكتل...».

هنا أيضاً ينقاد شاتوبريون إلى المبالغة، وهذه المرة ليس بدافع خيبة الأمل ولكن بدافع الحماسة. فلم تكن النظرة الأكثر نفاذاً أن تميز من أعلى جبل المقطم أو من شرفة القلعة هذه التفاصيل. فأبو الهول كما نعلم جميعاً، يقرفص في آخر الوادي، ولتمييز درجات هرم خوفو يتعين التقدم على الأقل حتى مشارف هضبة الجيزة. ولكن هل يمكن منع الكاتب من أن يحلم؟

وكانت إقامات نائب الملك في الأقاليم عبارة عن منازل متواضعة، ولم يوافق إلا بعد جهد مضن، على إقامة أول قصر حقيقي له في الإسكندرية حمل

اسم رأس التين[١]، انتهت الأشغال به في شهر آب من سنة ١٨١٧.

وكان الإيطالي فورني من بين أوائل الرحالة الذين قدموا وصفاً موجزاً للقصر إذ كتب «دخلنا القصر الذي وإن كان بني بذوق أوروبي إلا أنه لم يشكل بالنسبة لنا سوى بناية عسكرية معدة للاستقبال. وكان بهو سموه جميلاً أثثت جوانبه بأريكة بسيطة مغطاة بنسيج هندي مطرز بأهداب مذهبة. وكان يوجد قرب نوافذ مشرعة على المرفأ منظار كبير موجه نحو البحر، في حين جعل منظار صغير آخر في متناول سموه»[٢].

ويزيد فيرني في تقديمه للوصف الداخلي حين يكتب «زينت الغرف بوجاهة لكن من دون ذوق. وامتلأت غرفة النوم بالمرايا الكبيرة والقنصليات والمرايا وأثاث آخر صنع في باريس. أما السرير الذي وضع في وسط الغرفة، فكان يعلوه فراش من الشاش طرز بشريط زهري وشكل عقدة أنيقة. ويمكن أن تلاحظ في هذا القصر أيضاً صالة مستديرة، حفتها ستائر زرقاء نسجت بكل ما يحمله فن وسوء ذوق نجّاد فرنسي.

وكانت القاعة التي يستقبل فيها الباشا عادة زواره مربعة وواسعة، وضعت فيها بشكل دائري كنبات واطئة ومضاءة تنتشر بين الزجاج الكبير الموجود بين أقواس مدعومة بأعمدة صغيرة»[٣].

ويضيف بول شي «كان موقع القصر جميلاً إذ كان يتواجد بين المرفأ والمدينة والبحر. ويقدم ممر مدعوم بأعمدة يمكن رؤيته من خارج المبنى، منظراً بهيجاً على البحر. وكانت مساكن الحريم مفصولة عن القصر ومعزولة وسط الحدائق. ويتميز الأثاث الذي كان نصفه تركي ونصفه الآخر أوروبي، بأناقة

---

(١) أنظر بيلفون مصدر ذكر سابقاً.

(٢) فورني في كتابه باللغة الإيطالية الذي يحمل عنوان (رحلة إلى مصر والنوبة العليا) المجلد الثاني، ميلانو ١٨٥٩.

(٣) ذكر بواسطة كوبيل فيسكي في كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان (رحلة هوراس فيرني إلى الشرق) باريس.

كبيرة إذ أنه يتألق بالكنبات والأرضية الخشبية المبرقعة والمرصعة وقاعة للبلياردو. ويبدو أن ملك الفرنسيين قد أغنى الإقامة بعدد كبير من الأواني الخزفية، والطاولات، والبلور والساعات والستائر. وكان الحمام المتألف من غرفة مزدوجة يتشكل من المرمر الأبيض المصنوع بشكل أنيق جداً».

ومايزال محمد علي يثبت نظراته على البحر. وعلى بعد خطوات منه تقوم أمينة هانم بأعمالها المنزلية[١].

وإلى اليوم، تكون قد انقضت اثنتا عشرة سنة منذ أن دخلت ابنة نصرتلي، تلك القرية الصغيرة، حياة محمد علي. والمرأة قريبة نوعاً ما، من حاكم كافالا. وهي أرملة. ومن المفترض أنها ورثت من زواجها الأول، وأنه كان في وسعها أن تطمح في زوج أعلى مرتبة، بيد أن محمد علي الذي كان يبلغ حينها تسع عشرة سنة نال ذاك الامتياز. ويمكن التساؤل عن الدوافع التي جعلت الحاكم يرضى به زوجاً لها. هل يرجع ذلك لحسن طالعه المبكر، أم إلى مركز إبراهيم آغا في سلك الشرطة أم بدافع التخلص من قريبة أرملة، والتي لم تكن شابة جداً بالنظر إلى مقاييس ذلك العصر؟[٢] من الصعب التكهن بإجابة عن كل هذا. لكن الشيء الأكيد هو أن المجد الذي أدركه محمد علي، وحظه بين الجواري، والوجاهة التي طرأت عليه لم تصب شيئاً من مشاعر المودة والاحترام التي لم يكذبها الزمن والبعد. فقد ظلت أمينة هانم وحتى موتها

---

(١) يقدم فيليكس مونجان في كتابه باللغة الفرنسية والذي يحمل عنوان (تاريخ مصر أيام محمد علي ما بين سنتي ١٨٢٨ و١٨٣٣ (باريس ١٨٣٩، شجرة أنساب متخلية إلى حد ما، ذلك أنه يسمي زوجة نائب الملك «زلفا كلفا حنان» ويؤكد أنه استقى معلوماته من سائح يدعى البارون روييل.

(٢) سرت شائعة لمدة طويلة بهذا الخصوص، والتي تفيد بأن إبراهيم هو نتاج الزواج الأول لأمينة. وأخذ بهذه الشائعة كتاب مثل جيل بلانا. وأطلقت سنة ١٨٤٦ من قبل المناصرين لعباس إبن أخ إبراهيم الأول على تراتبية اعتلاء العرش، وذلك من أجل إزعاج إبراهيم ووضع مشروعية خلافته لوالده موضع شك. وهذه الشائعة عارية من الصحة، لأن محمد علي كتب أكثر من مرة إلى السلطان رسائل يؤكد من خلالها بأن إبراهيم إبنه البكر. زد على ذلك الشبه الجسدي الكبير بن الرجلين، وهو ما يفند بشكل نهائي هذه الفرضية.

زوجته الأثيرة. ويمكن لمن سُمح لهم برؤية صورها أن يصفوها بأنها كانت تتمتع بشخصية قوية بحاجبين كثين ونظرة تحمل بين ثناياها القوة حد التهديد[١].

صحيح أن محمد علي تزوج في شهر أيار من سنة ١٨١٢ مرة أخرى بأرملة أحمد باشا داي طرابلس السابق، لكن ذلك تم لدواع سياسية «أقدم باشا مصر على الزواج من أرملة باشا طرابلس، وعين إخوتها في وظائف مناسبة بعد أن انقطعت مواردهم. ويعتقد أن محمد علي أقدم على هذا الزواج في إطار خطته لغزو ليبيا التي ساد فيها ملوك مصر سابقاً»[٢].

ومن بين الأصوات التي تحملها الرياح في تجاه البحر، كانت أصوات أولادهما، ومن بينهم، إبراهيم الأكبر سناً والبالغ من العمر إحدى عشرة سنة، والذي رأى النور في قرية دراما الواقعة في شمال كفالا ببضع كيلومترات، والتي اتخذها أهله ملجأ لهم بعد أن اضطرهم الطاعون الذي ضرب المرفأ بالاحتماء بها. أما أحمد طوسون فكان يناهز الثامنة في حين كان إسماعيل في سن الخامسة وكان أكبر من أختيه توحيدة ذات الثلاث سنوات ونازلي ابنة العام الواحد.

وكان لمحمد علي ثلاثين طفلاً في المجمل، سبعة عشر ولداً وثلاث عشرة بنتاً. ومن بين هذه الذرية الكثيرة العدد، لم يصل إلى سن النضج إلا ثلاث بنات وهن توحيدة[٣] ونازلي[٤] وزينب الرابعة[٥] وسبعة أولاد وهم إبراهيم

---

(١) مارسو. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) رسالة سان مارسيل، نائب قنصل فرنسا في الإسكندرية إلى دوق باسانو وزير الشؤون الخارجية، في الثلاثين من شهر أيار لسنة ١٨١٢ في المطبوعة الصادرة باللغة الإنجليزية بعنوان (أرشيف الشؤون الخارجية)، مراسلات سياسية. مصر ١٨٠٣ ـ ١٨٤١.

(٣) زوجة محرم باي المتوفاة سنة ١٨٣٠ عن عمر ناهز ثلاثاً وثلاثين سنة.

(٤) زوجة محمد باي الدفتردار، المتوفاة سنة ١٨٦٠ عشر سنوات تقريباً بعد وفاة محمد علي، عن عمر يناهز إحدى وستين سنة.

(٥) رابع بناته التي تحمل الإسم نفسه، ذلك أن الأخريات توفين وهن بعد صغيرات. توفيت عن =

وطوسون وإسماعيل وسعيد وحسين وعبدالحليم ومحمد علي الصغير.

ومن بين كل أبنائه، كان إبراهيم الأكثر شبهاً به[(١)]، بغض النظر عن الجدري الذي أصاب وجهه. ويقدم كادالفين[(٢)] وصفاً دقيقاً له إذ يكتب «كان قصير القامة بصدر واسع، وكان قوي الجسد، شديد البنيان حد أنه يمكنه بضربة سيف واحدة أن يفصل رأس ثور عن جسده. وعلى الرغم من بدانته إلا أن نشاطه وحيويته كانا باديين جداً. وكانت ملامح وجهه واضحة متناسقة بحاجبين كثين ونظرة متحجرة، وشفتين غليظتين بعض الشيء، ولحية خفيفة تميل إلى اللون الرمادي. وكان بابتسامة دائمة اللطف كأنما لتخفف من حدة نظراته. أما قهقهته فكانت تكشف أنه رجل معتاد على الزراية والاحتقار حداً يفوق الخطر. ويبدو وجهه كأنه شكّل من أجل الخطر، فتحت وابل النار الأكثر فتكاً، كان يحافظ على ملامحه الهادئة وغير المبالية، بل والساخرة[(٣)]».

وخلافاً لمحمد علي الذي لم يكن يتحدث أبداً إلا باللغة التركية، فإن إبراهيم كان يستعمل في أحاديثه غالباً اللغة العربية. وكان يرى نفسه مصرياً أكثر من كونه تركياً. وكانت ضحكته صاخبة وطنانة، بينما كانت ضحكة الملك أشبه بالنقيق. وإذا كان هذا الأخير عادة ما يتجول في قصوره دون أن تصدر عنه أية

= عمر يقارب تسعاً وخمسين سنة. تزوجت من الوزير الأعظم يوسف كمال وتطلقت منه بعد أن فاجأته مع إحدى الإماء.

(١) ريتشارد روبرت مادن في كتابه باللغة الإنجليزية (رحلات في تركيا، ومصر، ونوبة، وفلسطين) المجلد الثاني. لندن، ١٨٢٩.

(٢) كان كادالفين رجل أعمال لانعلم عنه الشيء الكثير، قدم إلى مصر سنة ١٨٢٩ مرافقاً بصديقه جيل كزافيي ساكيز دو بروفيري، ويبدو أنه وبعد أن صعد النيل، استقر في مصر لبضع سنوات كمراسل لمصارف فرنسية، وهو سائح دقيق الملاحظة، وقد نقل أسفاره وإقامته في مصر في كتاب مشترك رفقة بروفيري بالفرنسية تحت عنوان «مصر والنوبة». المجلد الثاني باريس ١٨٤١. وقد رسم المراحل الأساسية للصراع التركي المصري، هذه المرة رفقة أحد السيمونيين ويدعى بارو، في كتاب بالفرنسية حمل عنوان «تاريخ حرب محمد علي على الباب العالي العثماني. ١٨٣١ ـ ١٨٣٣». باريس ١٩٣٧.

(٣) كادالفين وبارو. مصدر ذكر سابقاً.

حركة مثل قطة تماماً، فإن خطوات إبراهيم العسكرية كانت تسمع على مسافة مائة فرسخ من مكان مروره.

بيد أن هذه التفاصيل لم تكن أبداً هي كل ما يميز الأب عن ابنه، إذ أن شخصيتيهما ورؤيتيهما للإمبراطورية العثمانية وللعالم كانت على وجه النقيض تماماً، سواء تعلق الأمر بترقية بعض الجنود المصريين إلى رتبة ضباط التي كان يرى فيها محمد علي أمراً مشيناً أو كما سنرى لاحقاً، في الاستراتيجية السياسية.

وكان بإمكان محمد علي أن يبدو قاسياً إزاء معاونيه حد أنه لايتردد أبداً في سبهم وتهديدهم بإنزال أشد العقوبات عليهم، ولكن وإذا ما أظهر عزم مجايليه من أنه لاقيمة لحياة الآخرين أمام حياتهم، فيندر حتى لانقول إنه لم يقدم أبداً على تنفيذ تهديداته. وعلى العكس من ذلك تماماً، فالانطباع الذي يتركه لدى المحيطين به هو أنه رجل رائع ومجامل لبق، وهو الانطباع ذاته الذي خلص إليه كل الأجانب الذي تمكنوا من مقابلته.

وهكذا فإن هامون يقول: «يكون حديثه ممتعاً إذا لم تكن تشغل باله قضية. ويخلف محمد علي في نفوس زواره شعوراً عميقاً بالتفوق العالي». أما مادن فيقول «كان صريحاً وودوداً، ويعبر سلوكه عن ذكاء رفيع. وكانت حركات يديه، وحركاته عموماً، تنم عن شخصية خلوقة. أما حركاته فكانت تشير إلى جدارته». ويقول فيرني «يستقبلنا سموه ممدداً على كنبة، ومستنداً على وسادة في زاوية من القاعة المؤثثة على النمط الأوروبي، وهو يضع بذلته النظامية ممسكاً بيمناه غليوناً غالياً، ويداعب بيسراه لحيته. وإذا ما اقتربنا منه أكثر، كنا نرى تألق عينيه السوداوين وإشعاعهما فضولاً وطيبة مغرية».

وهناك ميزة أخرى قرنت به، أكدت كثيراً في الشهادات عنه، وهي استعداده لخدمة الآخر. وكان من الواضح جداً أنه لايمت بصلة إلى أولئك الملوك المستكينين إلى بروجهم العاجية «لاشيء أيسر من الحصول على مقابلة نائب الملك، وليس هناك من ملك يمكن الوصول إليه بسرعة مثله، ولاأحد منهم يهتم بذاك القدر البسيط بأمنه الشخصي مثله إذ أنه كان من الممكن أن يسقط صريع

ضربة غادرة لمتعصب حانق»، ويخلص الأمير الراوي بوكلر موسكو بأن مضيفه لم يكن ذاك الشخص الذي يكرهه شعبه كما يوصف في الغرب. هل يعقل ألا يعير مستبد حقيقي اهتماماً كبيراً بأمنه الشخصي؟ إذا ما طرح السؤال بهذه الصيغة فالجواب «لا»، بيد أن بوكلر موسكو يغفل أن محمد علي كان رجلاً يتمتع بشجاعة جسدية ومعنوية، ولم يكن الخوف من الموت من ضمن اهتماماته.

وإذا ما أريد تلخيص شخصية ابن كافالا، فإن الكلمة التي تتبادر إلى الذهن فوراً هي «الازدواجية»، وهو الوصف الذي تداوله كثيراً كتاب سيرته، فقد كان «أسداً وثعلباً في الآن ذاته».

وكرست العادة بأن ينعت بالميكيافيلي. وعلاقة بمؤلف كتاب «الأمير» فقد نُسب إلى الباشا أنه قال: «كم بالغ الناس في قيمة تعليمه، وكان بإمكاني أن أعطيه بعض الدروس!» والأكيد أن الرجل كان ميكيافيلياً شأنه في ذلك شأن كل الساسة الذين بلغوا تلك القمة، ليس أقل من ذلك أو أكثر.

ولم يكن الصبر من خصال محمد علي، فعلى رغباته أن تتحقق فوراً. ويروي كادالفين بأن الملك تسلم كتاباً مجلداً لتوفنان من باريس حول حياة الإسكندر، فسأل أحد مترجميه:

- كم يلزمك من وقت لتقدم لي ترجمة لهذا الكتاب؟

فيرد عليه:

- ستة أشهر.

- هذا وقت طويل جداً.

ويستل فجاة السيف من غمد أحد حراسه، فيضرب به الكتاب شاطراً إياه إلى ثلاثة أجزاء، ثم يقول:

- «بهذه الطريقة، سيعمل عليه ثلاثة أشخاص. فأنا تلزمني ترجمة هذا الكتاب في غضون شهرين[١]».

---

(١) المصدر نفسه.

أما إبراهيم فيعرف عن شخصيته حدة الطبع والاستبداد. وسيكشف نوبار باشا[1] كاتبه الشخصي في مذكراته، بأن الفرحة علت وجوه الناس يوم مماته حتى ليُظن أنهم في عرس وليسوا في مأتم. من جانبه، يوضح هامون ذلك بالقول «كان إبراهيم شديد الاندفاع ومتهوراً، يصير خطراً جداً عندما يشتد غضبه. وقد أثرت نقائص طبع هذا الأخير سلباً على معنويات جيشه، إذ أن بعض الضباط من ذوي الرتب العالية أجبروا على ترك مناصبهم...»

ويكتب دريو أنه كان معتداً بنفسه وصعب المعشر، وأنه تميز ببخله ودمويته على خلاف طبع نائب الملك الذي كان كريماً، حسن المعشر وإنساني السلوك[2].

بيد أن بعض المؤرخين يفندون هذه الصورة المقدمة للأمير معتمدين على مقاطع من مراسلاته مع والده والتي تكشف أنه كان «مهتماً براحة جنوده، ومطالباً بأن يعاملوا معاملة تليق بهم كبشر وليس كدواب[3]» ويمكن القول بكل موضوعية بأن هذا لايثبت إلا أن إبراهيم، مثل كل سادة الحرب الآخرين، كان يعرف كيف يقود رجاله ويحببهم فيه. وكان بونابارت يملك تلك الموهبة أيضاً، وهذا لايلغي بعض ملامح البربرية في طبعه. ويؤكد القنصل ميمو في رسيلته إلى سيبستياني بتاريخ الخامس من شهر نيسان لسنة ١٨٣١ بانعدام شعبية إبراهيم المتجه إلى سورية إذ يكتب «لايوجد في كل مصر من لايسعد بغيابه (إبراهيم)، وسيكون التجار أكثر من يهنئون أنفسهم بغيابه لأنهم الأكثر تضرراً

---

(١) هو أرميني من مواليد إزمير سنة ١٨٢٥، نشأ في فرنسا وسويسرا. دُعي نوبار نوباريان باشا سنة ١٨٣٩ إلى مصر من طرف عمه بوغوص يوسوفيان باي، وزير محمد علي، كمترجم وكاتب خاص لإبراهيم، ثم لعباس، وسيغدو فيما بعد مديراً للسكك الحديدية، كما أنه سيمثل أكثر من مرة إبراهيم في أوروبا. وتدين له مصر بالفضل في إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥. نشرت مذكراته مع مقدمة وملاحظات من طرف ميريت بطرس غالي.

(٢) كتاب بالفرنسية تحت عنوان (تشكل إمبراطورية محمد علي من الجزيرة العربية إلى السودان ١٨١٤ ـ ١٨٢٣). الجمعية الملكية لجغرافية مصر. رسالة بيلافوان إلى كاتب الدولة للشؤون الخارجية في باريس، ١٧ كانون الثاني ١٨٢٠. نقلت بواسطة إدوارد دريو.

(٣) مارسو. مصدر ذكر سابقاً.

من شراهته وقسوته. وخلال هذا الوقت، لن يسمعوا على الأقل كثيراً بالفلقة».

«ولم يشكو الناس من الحكومة المصرية بكثرة إلا عند عودة إبراهيم من موريي. فمعاملته واستبداده يحملان الأهالي على كرهه، وهو لايحسن معاملة أحد إلا الأجانب. فهناك فرق كبير بينه وبين أبيه. والواقع أنه وعلى الرغم من الشكوى من إدارة محمد علي، فمن المستحيل عدم الاعتراف بميزاته وعدم التعلق بشخصه، وإذا كان المصريون يشعرون بالمأساة حين كان يفقدونه فذاك بالأساس خشية من تعسف ابنه[1]».

وإذا كان إبراهيم قائداً عسكرياً عظيماً، ومخططاً كبيراً، فإنه كان أيضاً مدبراً بالفطرة. ومن ضمن أعمال ناجحة أخرى، تمكنه من تحقيق مشاريع زراعية كبيرة، وإدارته بكفاءة واقتدار لأموال الدولة، والذي يرجع لبخله الأسطوري الفضل فيه، ذلك أنه كان له هنا نعم السند. وحول هذه النقطة بالذات، سيكتب نوبار باشا أنه وعندما كان إبراهيم على فراش الموت نصحه باستدعاء الطبيب الفرنسي لالمون، فرد عليه «لا، لاتكتبوا له ليحضر، ذكروه فقط بوعده لي بزيارة مصر»، ويختم نوبار «يا لبخله! فهمت أنه كان يرغب في علاج الطبيب، ولكنه كان يود التهرب من نفقاته».

وسيُعرف عن إبراهيم أيضاً ولعه بالشرب. ويعلمنا هامون بذلك، ولم يكن الوحيد على كل حال، إذ يقول «كان يثمل، وكان يُخشى جانبه في حالة سكره».

ويكتب نوبار ملاحظاً «لطالما رأيت إبراهيم وهو تحت تأثير النبيذ والشمبانيا، يروي مشاهد من الحرب، فتضاء جبهته الواسعة، وتتألق عيناه الزرقاوان في حين يتراخى نصف وجهه، ويفقد القسوة التي كانت تميزه».

أما عن ميولاته الجنسية فيلاحظ هامون أنه كان يحب الرجال والنساء على السواء، وهي نزعة عادية في هذه البقعة من الأرض حيث المثلية الجنسية أمر شائع مع أنها متوارية.

---

(١) جورج دوان في كتابه باللغة الفرنسية تحت عنوان (الحرب الأولى لسورية، صلح كوتاهيا، مراسلات قناصلة فرنسا) القاهرة ١٩٣١.

مهما يكن الأمر، فالمؤكد أن محمد علي كان يفضل ابنه الثاني طوسون الذي كان أنيقاً ونحيلاً، بشعر كستنائي اللون، وفم كبير نسبياً لكن بابتسامة دائمة. وقد ورث عن أمه أكثر من أبيه، إذ كان لطيفاً ودوداً ومحبوباً سواء من قبل الجنود أو من طرف العامة. وعرف عنه كرمه غير العادي، إذ كان يرد على والده الذي يلومه على إسرافه باستمرار بالقول «من المناسب لك يا أبي أن تكون مقتصداً لأن والدك لم يكن نائب الملك، لكني ابن محمد علي، وعلى أن أحافظ على مستواي وأن أبدو كريماً»[1].

من جانبه، كان إسماعيل الأصغر، سلطوياً ومتعالياً. وخلافاً لإبراهيم، كانت ساديته ودمويته صحيحة مثبتة. وكان يملك زهو وتهور أخيه ولكن من دون قوة إرادة الأخير. وإذا ما انتصر على إحدى ضحاياه فإنه كان يقضي عليها. وكان شتّاماً مذلاً لسجنائه. وبسبب عنفه الداخلي وعدم تسامحه سيعرف نهاية مأساوية.

ويرفع محمد علي عينيه إلى السماء الصافية.

سيبحر غداً فجراً إلى البوسفور ومنه إلى مصر، أرض الأساطير التي يجهل عنها كل شيء، أو كل شيء تقريباً، حيث سيتعين عليه هناك المشاركة في حرب لطرد المحتل الفرنسي وهذا الجنرال أبو نابارت، كما يناديه المصريون، الذي تجرأ على احتلال ولاية من الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية.

وإذا كان الباب العالي سيداً على البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا والبلقان الأوروبي وبلاد الشرق الأوسط وشواطئ البحر الأسود، مهما كلفها ذلك من ثمن، فإن قواعد الإمبراطورية بدأت تهتز بل إنها تتصدع، والعالم مترقب للحظة المناسبة لاقتسام ممتلكاتها. وحتى ذلك الوقت، على إسطانبول أن تبقي أتباعها تحت سيطرتها. وإذا ما ألقي الفرنسيون في البحر، فستعود مصر إلى

(١) أنكيري. مصدر ذكر سابقاً.

الدوران في الفلك العثماني من جديد.

وشأن الولايات العثمانية الأخرى، كان على كافالا أن تقدم حصتها من الجنود المتطوعين والبالغ عددهم ثلاثمائة رجل، سينتقلون إلى البوسفور للالتحاق بالقوات العثمانية، ومن هناك سيتوجهون نحو خليج مرمرة حيث ينتظرهم أسطول جلالة الملك جورج الثالث. وسيتمكن الإنجليز والأتراك المتوحدون من أن يقتلعوا أخيراً، القوات الفرنسية من الأرض التي غزوها قبل ثلاث سنوات.

عين علي ابن الحاكم على رأس الكتيبة المحلية، في حين كان محمد علي نائبه في القيادة. ويمكن تفسير هذه الترقية المفاجئة نوعاً ما بطريقتين. فإما بسبب زواجه من قريبة الحاكم، أو لأنه شدّ إليه الانتباه لفعاليته في ردع قطاع الطرق الذين كانوا يعتدون على منطقتهم، أو إعادة بعض القرويين الممتنعين عن دفع ضرائبهم إلى جادة الصواب. وإذا ما شقّ تصديق أنه حارب قراصنة بحر الإيجي، مع أن كتاب سيرته يؤكدون ذلك، إلا أن البحر لم يشكل له أبداً مجالاً مخيفاً وذلك منذ بدايات شبابه الأولى، خلافاً للقرويين وللفرسان، ولاشيء يمنع من الاعتقاد بأنه أبحر أكثر من مرة في مناطق مختلفة، وأنه آذار الملاحة أفضل مما نقل عنه وصدّق. ولاشك أنه كان بحاراً ليُشكل حوله بعض المنجز البحري فيما بعد.

وصرح محمد علي أكثر من مرة أنه لم يقبل المشاركة في هذه الحملة البحرية التي ستقوده بعيداً إلا بعد تردد. وإذا ما صدق ادعاؤه، فقد رفض بدءاً اقتراح الحاكم رفضاً قاطعاً، ولم يرضخ للأمر إلا عندما أخبره شيخ حكيم بضرورة ذهابه لأنه يتنبأ له بإدراك المجد في وادي النيل. فإما أن شخصيتنا صنع لنفسه خرافة، وإما أنه لم يملك الوسائل الكافية لشراء المستلزمات الضرورية لمثل هذا النوع في الرحلات[1].

---

(١) بحسب البروفيسور مارسو (في المصدر الذي ذكر سابقاً) فإن أحد أصدقائه الأرمن، ويدعى =

ينتصب محمد علي إذ يتعرف على أحد أصدقائه القدامى الذي أخذ يلوّح له بيده. كان يدعى ليون وهو فرنسي من مرسيليا استقر منذ ثلاثين سنة بكافالا حيث يدير مكتباً تجارياً.

ومرة أخرى، راق لبلضهم، ومن بينهم موريز[1] أن ينقل أن نصائح وأفضال ليون حفت محمد علي في حياته السابقة، وقد رافقت ذكرى هذا العطف الأبوي المغامر الشاب طيلة رحلته إلى الأرض الغريبة. وظلت ماثلة أمامه عندما توج النجاح الكبير طموحه. ويقال أيضاً إن محمد علي، وبعد أن صار والياً[2] على مصر حوالي سنة ١٨٢٠ ظل مهتماً بمعرفة ما آل إليه ليون. وعندما علم بعودته إلى بلده الأصلي، دعاه محمد علي لزيارته إلى أرض النيل، لكن وللأسف الشديد، توفي ليون في اليوم نفسه الذي حدده لإبحاره. وحين علم محمد علي بهذا النبأ، أرسل رسالة تعزية إلى أخت الفقيد أرفقها بهدية قيّمة. ويعزي البعض حب محمد علي لفرنسا إلى هذه القصة، غير أن قصة هذا الحب أعمق وأكثر تعقيداً على نحو ما سنرى. ومن المؤكد أن نائب الملك استعان برجال من أمثال ليون لاختيار مساعديه. ذلك أن مهنته كتاجر للتبغ مكنته من التعرف على أناس من الغرب. وهي الفترة التي نشأ فيها احترامه للأوروبيين وخاصة لليونانيين والفرنسيين والأرمن. وعند وصوله إلى سدة الحكم، سيجسد ذلك بإحاطة نفسه أساساً برجال خلص من الجنسيات الثلاثة،

= أغيازار هو من قدم له المبلغ الضروري لسفره، وكاعتراف منه بهذا الجميل، يرد محمد علي الدين لاحقاً بتعيينه للأرميني كصراف رسمي في إسطانبول.

(١) هو أحد كتاب سيرة محمد علي الأوائل. أقام في مصر حوالي ثلاث سنوات منذ سنة ١٨٤٧، وقد مكنته إقامته تلك من اكتشاف البلد وتوطيد معرفته به، وجمع بعض الشهادات المهمة. ومع أن نقده لم يكن يخلو من تهكم، على الرغم من أن التعليم كان على درجة من التخلف، إلا أن تحليله على العموم كان لصالح نائب الملك. كتاب بالفرنسية بعنوان (تاريخ محمد علي) المجلد الخامس. باريس ١٨٥٥ ـ ١٨٥٨. ويتضمن المجلد الخامس الوثائق التاريخية. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) كان الحاكم يحمل لقب باشا، وكان يعين لمدة سنة قابلة للتمديد، ويتخذ من البلد كإقطاع له.

لقناعته بأن الموهبة يؤتى إليها دون أن يجعل من الدين أو العرق عائقين أمامه.

وعاد الريح...

فيمد الصيادون شباكهم، ويظل محمد علي جامداً لايتحرك، فقد حانت ساعة الوداع. تداعب يده بعصبية أطراف لحيته، وتفضح نظرته الأكثر حدة، التوتر الداخلي الذي يحركه.

كيف لايتساءل إنسان عن الهواجس التي تتزاحم في رأسه؟ أتراه يفكر في المجد الذي قد يدركه أم بهذه الأسرة التي يخلفها في غيابه دون الكثير من المال لشهر ربما أو لسنة؟ هذا الشك هو الذي سيسيطر عليه إلا إذا كان منجماً. فلاشيء يمكّنه من معرفة المصير الخرافي الذي ينتظره في أرض مصر.

[3]

السير رالف ضد عبدالله مينو (١٨٠١ ـ ١٨٠٣)

خليج أبو قير في الثامن من شهر آذار لسنة ١٨٠١

أشرقت الشمس منذ عدة ساعات.

وصار البحر أخيراً هادئاً، فأخذت الأعلام الإنجليزية تخفق بعظمة في قمم الصواري. استدار اللورد كيث نحو مواطنه السير رالف آبركرومبي. لم يقل شيئاً بيد أن تفاصيل وجهه كشفت عن ارتياح عميق. وأخيراً، بعد أن منعت الأحوال الجوية السيئة كل نزول إلى البر منذ حوالي أسبوع، باعثة الملل في صفوف الرجال المنتشرين على ظهر السفن الخمسة والتسعين التي أجبرت على التوقف عن الحركة.

من خلال منظاره، يراقب السير رالف الشاطئ المصري.

فيظهر على اليسار حصن أبو قير، الهدف الأول، إذ سيقصده جزء من عشرين ألفاً من جنود جلالته على متن المراكب. وسيستولون على المكان بسهولة ويسر بسبب غياب جيش الشرق الموجود في مكان ما في الدلتا في انتظار أوامر أغبى جنرالات الجيش الفرنسي على الإطلاق، الجنرال مينو، أو عبدالله مينو مادام أنه اعتنق الإسلام بعد زواجه من مصرية[١].

---

(١) لم يجد مينو حين علم بأن ألأسطول الإنجليزي التركي كان مرئياً من خلال الشواطئ المصرية، أفضل من أن يعلن «لاشيء يدعو للخوف. هذه آخر ضربة على رأس الإنجليز. في الحقيقة، إن=

ينقل السير رالف منظاره إلى الشاطئ البعيد حيث وصلت المراكب الأولى. وفي غضون أيام قليلة، ستلتحق الجيوش العثمانية بالجيش البريطاني لتزيد من عدده، ويتم القضاء على الوجود الفرنسي في مصر.

لم يكن الإنجليزي مخطئاً، فخلال الأسابيع القادمة، سينتهي حلم بونابارت الشرقي، إذ سيسقط حصن أبو قير في السابع عشر من شهر آذار، وسيستسلم المائة والتسعون جندياً المتحصنين داخله. وستغادر بقية القوات الإنجليزية والمدفعية والخيول والذخيرة السفن. وستتناسل الأحداث بعد ذلك بسرعة كبيرة.

ففي الثامن عشر من شهر آذار، يصل مينو أخيراً إلى الإسكندرية في قوة يصل عددها إلى عشرة آلاف جندي، وخمسة آلاف وخمسمائة فارس. وسيتفوق الجيش الإنجليزي عليه في العدد وفي احتلاله للمواقع الجيدة.

وفي الحادي والعشرين من شهر آذار، لم يتم الهجوم المضاد الفرنسي بقيادة رينيه ولانوس بالشكل المطلوب، فكان الفشل من نصيبهما. ومع ذلك، فقد كانت لمينو إمكانية التراجع وتجريب حظه من جديد، بيد أنه لم يفعل ذلك إذ أنه حسب نفسه فجأة بونابارت وكليبر مجتمعين حين أراد تكرار إنجاز هجوم فرسان ميرا في أبي قير وكليرمان في مارنجو. فأمر الجنرال رويز بالهجوم على الإنجليز، فتفاجأ بأمره ذاك حد أن مينو أعاد أمره إليه ثلاث مرات. ثم بذل كل وسائله في سبيل جعل مينو يتراجع عن قراره، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فيطلب رويز بغضب واضح على من سيهجم، فيأتيه أمر مينو دون أن يرف له جفن «أمامك مباشرة[1]».

= الله هو من يسير الجيوش، وهو الذي يمنح النصر لمن يشاء، وسيسبق السيف المتوهج لملكه الفرنسيين دوماً، ويقضي على أعدائهم!» أنظر جبارتي، عشرين شوال سنة ١٢١٥ الموافق للخامس من شهر آذار لسنة ١٨٠١. جبارتي عبد الرحمان في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) المجلد التاسع، ظهرت ترجمته إلى الفرنسية في القاهرة ١٨٨٦. ١٨٩٦.

(١) هنري لورونس في كتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان (حملة مصر ١٧٩٨ ـ ١٨٠١) باريس ١٩٨٩.

وفي الساعة العاشرة والنصف صباحاً، ستنتهي معركة كانوب كما أطلق عليها، مخلفة موت الجنرال رويز وعدد كبير من ضباطه. فيتراجع الجيش الفرنسي باتجاه القاهرة بعد أن فشل في هجوم كان فيه من البطولة بمقدار ما كان فيه من الغباء.

وفي الخامس والعشرين من شهر آذار يصل القبطان باشا كوتشوك حسين بدوره مع الأسطول العثماني، وينزل جنوده ليحلوا مكان الجنود البريطانيين، ويرفع علم الهلال إلى جانب الشعار البريطاني الجديد «اتحاد جاك».

وكان محمد علي حاضراً كجندي مغمور وسط الستة آلاف جندي عثماني، وهي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماه أرض مصر. كما أنها المرة الأولى التي تعانق فيها عيناه ساحل الإسكندرية الرملي، وفروع النخيل وروابي الحصون، وقبب مآذن الشرق. وخلف ذلك يمكن تصور الطرقات المنعرجة المتعطشة للظل. وخلف جدران المدينة، ترتعش مياه بحيرة مريوط، ماريوتيس عند القدماء. وحيث تحتل البساتين والقبور العربية جزءاً من محيط الإسلام الشرقي. وحيث تنتشر بعض البيوت البيضاء ذات السقوف الطينية... وغير بعيد عن هذه البنايات الحديثة، توجد بيوت طينية تتميز عن الأفق الأزرق، تتخبط في فقرها منذ أزيد من ألف سنة. ويختلط في هذه البيوت الفقيرة، كيفما اتفق، الماعز والبقر ورجال مدبوغو الوجوه ونساء محجبات وأطفال نصف عراة يأكل الذباب عيونهم. هي أرض قديمة تضع أسمالاً ستمزقها مرة أخرى قوى أجنبية.

ويقف قرب ابن كافالا رئيسه، وابن الحاكم علي، ويرمقه محمد علي بطرف خفي. كان الشاب شاحب الوجه، بادي التعب. هل كان يعاني من دوار البحر؟ صحيح أن المراكب اهتزت بشدة خلال الأيام الأخيرة لكن هل يعود السبب الحقيقي إلى خوفه من المعارك المفترضة؟ لا أحد يمكنه أن يجزم بذلك، بيد أن مظهره يوحي بالتخلي عن الأمر، وكلمات قليلة كانت تكفيه لينسحب. مهما يكن الأمر، فحضوره لم يكن مهماً. ألم يكن محمد علي

حاضراً، ومستعداً «للتضحية» بنفسه وتسلم قيادة الحامية، وحتى عدم كشف الإبن أمام أبيه؟ هل يستطيع يوماً ما أحد المؤرخين أن يطلعنا على ما حدث فعلاً في شبه خليج أبي قير؟ على كل، فقد تراجع علي وسلم سلاحه حتى قبل أن يستعمله، ليترك مكانه إلى محمد علي الذي سيلفي نفسه بين عشية وضحاها يرقّى إلى رتبة بنباشي[1].

تضيء بسمة لحية ابن كافالا، فقد بدأ الحظ يبتسم في وجهه، وما عليه الآن إلا أن يقاتل ليبرهن عن أحقيته في هذه الترقية المفاجئة.

وفي الثامن من شهر نيسان، يرسل الجنرال هوتشينسون بعض جنوده إلى الرشيد. وفي العاشر من الشهر ذاته تسقط المدينة.

وفي بداية شهر أيار سيكون محمد علي جزءاً من الجيش الإنجليزي العثماني الذي يزحف نحو القاهرة، مقسماً بذلك إلى قسمين، إذ ستسلك الفرقة الأولى طريق دمنهور في حين كان على الفرقة الأهم من بين الإثنتين أن تصعد النيل انطلاقاً من الرشيد، وسينضم إلى قوات هوتشينسون، المماليك الذين يبدو أنه من الصعب القضاء عليهم.

وفي العاشر من شهر أيار سيتخلى الجنرال لاغرونج عن الرحمانية وسيتراجع إلى القاهرة. وينقسم الجيش الفرنسي بصفة نهائية إلى قسمين. ويعم الخلاف على القيادة العليا. ويقضي عجز مينو في قيادة العمليات العسكرية على معنويات جنوده، ويثبط هممهم.

وفي منتصف شهر حزيران، تأخذ قوات العدو مواقعها على مشارف القاهرة، ويكتفي بمحاصرتها.

أما مينو المحاصر في الإسكندرية، فقد أخذ يتحرك في كل مكان كالتائه، ويضرب الأرض بقدمه، ويصرخ لمن أراد سماعه بأن «جيشاً من ثلاثين ألف جندي فرنسي احتل إيرلندا! وهناك أسطول فرنسي وإسباني في البحر الأبيض

---

(١) ما يعادل رتبة ميجر، وتعني حرفياً قائداً لألف رجل.

المتوسط»، وينشر نصائحه التي لم يكن يلتزم بها قائلاً «تحرشوا بالإنجليز والأتراك، ولاتدعوا لهم لحظة واحدة ليستريحوا فيها!». وفي الثاني والعشرين من شهر حزيران، يتم الاستسلام بشروط مثل تلك لاتفاق العريش، إلا فيما تعلق بالمهل والشروط المالية، إذ كانت أسوأ. وفي الأيام التي أعقبت ذلك، تم الإفراج عن الأسرى المسلمين، وخفق العلم العثماني فوق أسوار العاصمة. وفي الرابع عشر من شهر تموز، يغادر الفرنسيون القاهرة إلى الرشيد عبر النيل، ويصعدون السفن البريطانية في التاسع من شهر آب لسنة ١٨٠١.

ويرفض مينو الذي ظل محاصراً دوماً في الإسكندرية الاستسلام. ويستمر في تخريفه حد أنه يكتب في الأمر اليومي «استسلمت القوات الفرنسية التي كانت في القاهرة دون أن تقاتل، ودون أن تتم مهاجمة الحصون بطريقة منتظمة. لاأسمح لنفسي بالتفكير في هذا الحدث الذي كان ربما أغرب ما وقع في الحرب، خشية أن أجلب العار لأولئك الرجال المستحقين لحمل لقب فرنسي وجمهوري...»[١].

وفي أوائل شهر أيلول تستسلم قوات الإسكندرية. أما مينو الذي أصيب بالطاعون، فكان آخر المغادرين. وانتهى كل شيء.

لاشك أن محمد علي استطاع أن يقوم ببعض الأعمال العسكرية، أو أن يبرهن على أقل تقدير على كفاءته في القيادة، خلال هذه الحملة القصيرة. ومن المحتمل جداً أن يكون قام بذلك حول منطقة الرحمانية خلال مواجهة مع لاغرونج، وهو ما تذهب إليه العديد من الكتابات. وعلى أي، فقد عرف كيف يظهر مواهبه إذ أن القبطان باشا سيمنحه لقب سيرشسمي[٢].

---

(١) لأسباب لم نستطع فهمها، فإن هذا الرجل المسؤول عن هزيمة جيش الشرق، وفقدان مصر، سيحافظ حتى وفاته سنة ١٨١٠ على دعم بونابارت، والذي يعهد له بمهام إدارية مختلفة في إيطاليا مع تحفظه الذي يبرهن على صفاء ذهنه، عن منحه أي مسؤولية عسكرية.

(٢) اللقب غير واضح تماماً. لربما كان شيئاً مثل «ميجر ممتاز».

في شهر تشرين الأول لسنة ١٨٠١، يرحل الفرنسيون. لكن لاشيء تم حله تماماً. ذلك أن السيادة في البلد لم تعد إلى أي من سادة البلاد، العثمانيين أو الإنجليز أو حتى المماليك، بل إلى الفوضى والاضطراب وانعدام النظام.

وكان الإنجليز مقسمين إلى ثلاث فرق، إذ عسكر الفريق الأول الذي يضم أربعة وعشرين ألفاً وسبعمائة وستة وثمانين جندي قرب الإسكندرية، تحت قيادة نائب الجنرال، السير جون هيلي هوتشينسون، ذلك ان رالف آبركرومبي كان قد أصيب إصابة خطيرة في الواحد والعشرين من شهر آذار. واحتل الفريق الثاني مدينة الرشيد وضواحيها، وضم حوالي خمسة آلاف وأربعمائة وثمانية وتسعين جندياً، كان أغلبهم من السيباهي من السنغال ومن بومباي. هي قوات الهند الشهيرة، والتي كان يقودها الجنرال ميجر بيرد. في حين تمركزت بقية العناصر في الجيزة وجزيرة الروضة المواجهة للقاهرة.

أما الأتراك، ، فصاروا منذ ذلك الحين تحت إمرة خسرو باشا. وهو عبد جيورجي سابق، سيظهر باستمرار كالعنقاء يبعث من رماده، ويبدو على واجهة الأحداث هنا أو هناك في كل مرة تعلق الأمر فيها بعرقلة صعود الكافالي.

«فما من إخلاص لديه لسيده الذي يخدعه، ولاحماسة له للحضارة التي يهزأ منها، ولا ولاء له للإمبراطورية التي ينظر إليها كلعبة شطرنج يلعبها ويغش فيها كيما يربح. كل إيمانه وهدفه موجه لحب السلطة والظمأ إلى الثروة.

بدين وقصير وأعرج، وغير متانسق الجسد، ولايعوض عن بشاعته سوى تعبير دائم عن المكر والسخرية. ويبرز تحت طربوش أحمر حاجبان أبيضان كثان، وتصدرعن عينيه الزرقاوين اللتين كثيراً ما حجب نصفهما جفنان مغضنان، نظرة ثاقبة تشع نشاطاً. أما بقية ملامحه، فهي ملامح رجل بربري أكثر منه طفل قوقازي. فهو فظ كأنما صبغ بلون الدم القاني الذي يبرز بياض لحيته. وكان حاد الطبع، خبيثاً ومنحطاً. وكان كريهاً متهكماً. ويمكنه أن يلعب بماض شعب بأكمله بما له من خلفيات وطنية ومعتقدات وشكليات،

دون القلق على المستقبل أبعد من قلقه على وجوده[١]».

كان هذا الشخص هو من وُضع في القاهرة للقيام بمهام ميرميران أو كما ستقضي العادة بأن ينادى والياً أو «نائباً للملك»[٢].

أما الحاكم الجديد للإسكندرية خورشيد باشا فقد كان «نبيل المعاملة، حسن المعشر، ومفعم بعزة النفس عند الحاجة. وكان جديراً على كل المستويات، ولم يكن يعوزه شيء، وهو ما جعله رجلاً فريداً في المشورة. وما كان ينقصه، معرفته العميقة بالناس، تلك المعرفة التي تقوم على الحدس، أي النظرة الثانية التي تميز الناس الذين ولدوا للسلطة»[٣].

ولم يستطع خسرو باشا من السيطرة على قوة داخل الجيش، وهي الألبان الذين جعلوا تحت إمرة طاهر باشا، وهو رجل قليل الإخلاص للقضية العثمانية.

من جانبهم، لم يخضع المماليك إلا لباياتهم الذين كان من بين أمهرهم، عثمان البرديسي[٤]، ومحمد الألفي المنحاز إلى الإنجليز، والذي كان يكره

---

(١) كادالفين وبارو. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) في البداية، كان الحكام الأتراك لمصر كما في أماكن أخرى، يحملون لقب بيلرباي. لكن الوضع لم يعد كذلك في عهد محمد علي. ذلك أن لقب ميرميران الذي عرف سابقاً ببيلرباي، فقد أهميته حد أنه منح إلى حكام الإسكندرية. وفي بداية حكم محمد علي، كان جنرالاته يحملون هذا اللقب، ثم سيلصق اللقب فيما بعد بصفة أكثر بالأبناء البكر لنائب الملك وببعض الشخصيات المتميزة. بينما لم يفرض لقب نائب الملك بصفة نهائية إلا سنة ١٨٦٧، تاريخ الفرمان الذي سيعترف به الباب العالي بلقب خديوي إلى إسماعيل باشا. وحتى هذا التاريخ كان البروتوكول المصري يعرف نوعاً من الاضطراب. أنظر جون دوني، في مؤلفه بالفرنسية بعنوان (مختصر = = الأرشيفات التركية في القاهرة). القاهرة، ١٩٣٠.

(٣) موريز. مصدر ذكر سابقاً.

(٤) ولد البرديسي في شيركاسيا، وكان رجلاً مدهشاً، بقامة قصيرة لكن بصرامة غير عادية. وهو فارس مجرب، يجيد كل أنواع العمليات العسكرية. وكانت جسارته تتلاءم مع توفيقه. وهو من أبطال معركة الأهرامات. تبع مراد باي إلى الصعيد، وشاركه إخفاقاته. وكان طرفاً في كل المفاوضات التي كانت تتطلب روحاً صارمة، وقلب مخلصاً.

البرديسي[1]، ثم الشيخ إبراهيم باي المجرب[2]. ومع أنهم كانوا ينتمون إلى العرق نفسه، إلا أن تنافسهم كان شديداً على انتزاع ما بقي في أرض مصر من ثروات. ومن أجل زيادة قوتهم، استعانوا بحوالي خمسة آلاف بدوي.

وسرعان ما واجه رؤساء هذه الفرق الثلاث المشكلة ذاتها المتمثلة في كيفية إعادة تنظيم حكومة مصر. وبصيغة أكثر وضوحاً، من سيستولي على الفريسة التي انتزعت من الفرنسيين؟ وكان الإنجليز قد التزموا بتلسيم مصر إلى تركيا، وهو ما دفع الدولتين إلى توقيع معاهدة تحالف في الخامس من شهر كانون الثاني لسنة ١٧٩٩، وفي الوقت ذاته إلى اتفاق بدايات السلام، بين الإنجليز من جهة والفرنسيين من جهة ثانية، نجمت عنه معاهدة آميان النهائية في الخامس والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٠٢.

وكان الشك يساور السلطات في باريس في احترام الإنجليز للمعاهدة، وهو الشعور عينه الذي كان لدى وزراء السلطان في إسطانبول، وهو الشك الذي لم يكن معتاداً حتى صار غير مبرر. صحيح أن الإنجليز كانوا على علم بالفائدة الكبيرة التي تمنحها مصر، ألم يفتح لهم بونابارت أعينهم؟ بيد أنه وفي هذه اللحظة بالذات، لم يكن لهم إلا هاجس وحيد، وهو منع أي عودة محتملة

---

(١) أُحضر إلى القاهرة سنة ١١٨٩ هجرية الموافقة لسنتي ١٧٧٦ ـ ١٧٧٧ عن طريق تاجر باعه أول مرة إلى رجل يدعى أحمد شاويش والمعروف بـ «المجنون». وبعد مدة قصيرة، اشتراه سليم آغا الغزوي، والذي باعه بعد بضعة أشهر إلى مراد باي مقابل ألف أردب من الحبوب. ومن هنا أتاه لقب الألفي.

(٢) شكل مع مراد باي عند وصول القوات الفرنسية حلفاً يحكم مصر. وبينما كان مراد باي الأكثر شجاعة يستمر في قتاله العنيف مع الفرنسيين، فر إبراهيم إلى سورية منذ أول الهزائم التي تعرض لها المماليك (إمبابة في الحادي والعشرين من شهر تموز لسنة ١٧٩٨). وعند عودته إلى القاهرة بعد رحيل الحملة عنها، لم يستطع استعادة السلطة التي استولى عليها محمد علي على الرغم من جهوده الكبيرة. ولما كان مكدراً وحذراً من محمد علي، فقد انسحب إلى النوبة حيث أقام معسكره هناك في الأردي قرب دنقلا، «زارعاً الذرة، ومقتاتاً منها، ولابساً لباس التجار المحليين». مات سنة ١٨١٦.

للفرنسيين إلى مصر. ومن أجل ذلك، كان يلزم البلد حكومة مستقرة وقوية، لكن كيف يمكن تحقيق ذلك، ولاهم للأتراك والمماليك إلا أن يقضي كل منهم على الآخر؟

فقد كان الأتراك يريدون استعادة الأوضاع السابقة قبل اغتصاب المماليك لمصر أي استعادة السيادة الكاملة، في حين كان المماليك يطمعون في عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل احتلال جيش الشرق الفرنسي، بمعنى ألا يتركوا لسلطان إسطانبول إلا سيادة شكلية.

وأرغمت المصالح المتضاربة بين الطرفين الإنجليز إلى أن يلعبوا دور الوسيط المحايد، غير أن حيادهم سيكون مؤقتاً. ولن يتم الأمر لا إلى قوات الصدر الأعظم ولا إلى الانكشاريين الذين كانوا تحت قيادة القبطان باشا، والذين كان المماليك قد انضموا إليهم أثناء مسيرهم إلى القاهرة، ولكن إلى قوات هوتشينسون. فاستجابوا لطلبه، حيث يلتزم الإنجليزي أمامهم بتعهدات تضمنها حكومة لندن. وينضاف إلى التعهد بحماية المماليك تعهد آخر، فقد أخذ الإنجليز يلعبون بورقة المماليك، إذ أن هوتشينسون كان يحتقر الأتراك شأنه في ذلك شأن مسؤوليه. ولم يكن المصريون ينظرون إليهم بشكل جيد حتى لايقال بأنهم كانوا يُكرهونهم لعدم فعاليتهم العسكرية، ولإهمالهم الإداري، ولانعدام شعبيتهم وهو ما يحول دون الاعتماد عليهم في حكم مصر، والدفاع عنها في حال قرر الفرنسيون العودة إليها. ومنذ الخامس من شهر أيار لسنة ١٨٠١، سيكتب هوتشينسون للبرديسي أحد أكبر قادة المماليك، والذي خلف مراد باي «فلتطمئنوا إلى أني سأسهر على مصالحكم، ولن يمسكم وأسركم أي أذى[1]».

بيد أنه، ومن تردد إلى آخر، ومن محاولة للوصول إلى اتفاق بين الطرفين

---

(١) جورج دوان والسيدة فاوتبي جونز، في كتابهما المشترك باللغة الفرنسية الذي يحمل عنوان (إنجلترا ومصر، سياسة المماليك ١٨٠١ ـ ١٨٠٣). IFAO القاهرة ١٩٢٩.

إلى فشل فيه، يصل الصدر الأعظم والقبطان باشا إلى حل نهائي وجذري للخروج من المأزق، وهو القضاء بصفة نهائية على البايات.

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٠١، يستدعي القبطان باشا إلى مكتبه في أبي قير البايات المتواجدين في مصر السفلى، ويقرأ عليهم فرماناً مزعوماً من الباب العالي، يعلن عفواً عاماً، ويعيد لهم أملاكهم وامتيازاتهم، ويدعوهم إلى زيارته في سفينته للاحتفال بعفو عاهلهم. ويستجيب البايات دون تردد إلى دعوته. وما إن أبحروا حتى شُرع في إطلاق النار على مراكبهم، فقتل خمسة منهم، وجرح آخرون ومن بينهم البرديسي وأسر الباقون. من جانبه، تكفل الصدر الأعظم باستدراج البايات المقيمين حول القاهرة إلى فخ مماثل، ويدعوهم إلى زيارته في مقره العسكري، ويقرأ عليهم الفرمان نفسه الذي خدع به مماليك مذبحة أبي قير. وما أن اجتمعوا لديه حتى قبض عليهم جميعا وسجنوا في القلعة.

وتمكن بعض البايات مثل سليم ومحمد الألفي من الفرار إلى مصر العليا بعد أن شكوا في أن الأمر يتعلق بفخ نصب لهم، وذلك بعد أن أعلموا السلطات الإنجليزية في الجيزة.

وعندما وصل الخبر إلى هوتشينسون، أرغى وأزبد وأطلق تهديداته، وفرض أن يسلم إليه من نجا من المماليك من المجزرة. ووجه احتجاجاً ولوماً إلى الصدر الأعظم، فارضاً عليه أن يطلق سراح سجناء القلعة بالقاهرة. وأدانت لندن تواطؤ وهمجية كبار المسؤولين الأتراك. وكان ذلك من الفعالية حد أن الأتراك قدموا إعتذاراً ظاهرياً بطبيعة الحال، وحرروا السجناء في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني، ولم يتعرضوا للمماليك أبداً طيلة فترة تواجد القوات البريطانية في الإسكندرية.

هل شارك محمد علي في محاولة القضاء على البايات؟ ليس في وسعنا تأكيد ذلك. ولكن، وبالنظر إلى ما قام به عشر سنوات بعد ذلك بنجاح وفعالية من تكرار العملية ذاتها، يمكن تصور أن ما حدث أوحى له ببعض الأفكار. هي

ذي الأشهر تمضي عليه في مصر، فيلفي نفسه وسط هذه الفوضى. وأخذ يحصي الأقوياء والضعفاء، ويتعرف عن قرب على تقاليد وعادات البلد. وشرع في الاختبار والتحليل والإحساس من دون شك، بما يمكن أن يجنيه رجل واسع الحيلة، شديد العزم، من فوائد في ظل وضع لايُعرف له أول من آخر.

وفي السادس عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٠٢، يصل إلى الإسكندرية هوراس سيباستياني[1] قائد كتيبة في اللواء التاسع، ورجل الثقة لدى القنصل الأول. وكان مكلفاً بمهمة معرفة إن كان الانسحاب الإنجليزي يتم بالشكل المناسب، وللوقوف على نفسية الشعب المصري، وعلى الوضع في البلد. وكان من الطبيعي جداً أن تكون أول خطوة يقوم بها، أن يطالب بالانسحاب الفوري للقوات البريطانية.

أما الأتراك فقد كانوا على مرجل الترقب، يتلهفون للقضاء على البايات. حيث يرون أنهم سيتمكنون عند رحيل الإنجليز، من التخلص من الورم الخبيث الذي يمثله المماليك في أعينهم.

وفي السادس عشر من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٠٢، تصل من إسطانبول رسالة غير موقعة، إلى تاليران، تعبر في الآن ذاته عن قلق الباب العالي وورطة البريطانيين. ومما جاء فيها «لايعرف أي كان ما المطلوب القيام به فعلاً، ويخشى أنه على الرغم من حسن نية فرنسا وروسيا ألا يرحل الإنجليز عن مصر إلا بعد أطول وقت ممكن، وأن يسلموا هذه الولاية إلى المماليك، فهم محرجون جداً، ولايعلمون ما يصنعون حقاً[2]».

وفي محاولة أخيرة لصالح من يدافع عنهم، يجبر الجنرال ستوارت خسرو باشا على التراجع. وتعد الرسالة التي بعثها له عن طريق الميجر ميسيت الذي

---

(١) سيغلدو الكونت هوراس سيباستياني (١٧٧٢ ـ ١٨٥١) سفيراً في إسطانبول، وماريشال فرنسا، ووزيراً للشؤون الخارجية في عهد لويس فيليب.

(٢) رسالة حول الشؤون المصرية في قطاوي، ١٩٣١. مصدر ذكر سابقاً.

وصل إلى القاهرة بتاريخ الثالث عشر من شهر شباط لسنة ١٨٠٣، مثالاً كبيراً على روائع العمل الديبلوماسي، حيث جاء فيها «أنا آسف أن السلطة المخولة لسموكم لاتسمح بتقديم تنازلات إضافية غير تلك التي سبق للبايات أن رفضوها حتى في ظروف أكثر سوءاً.

(...) وقد كان لي الشرف أن أوضح لسموكم أكثر من مرة، أن الدافع الذي جعل الملك، يا سيدي، يتأخر في استدعاء جيشه، رغبته في إعادة الهدوء إلى هذا البلد.

(...) وبعد أن قاوم المماليك كل المؤامرات التي أحيكت ضدهم، أوصلوا انتصاراتهم حتى مصر الجنوبية التي ماتزال سهولها ملوثة بموتاكم الكثيرين، ثم إن جثث أزيد من تسعة آلاف من جنودكم التي لم توارى الثرى للآن، ماتزال تغطي المساحة الصغيرة التي تفصل بين دمنهور والصحراء. وما تزال القبائل العربية القوية الموالية لقضية البايات توسع من مساهمتها على طول الضفة اليسرى للنيل تقريباً. أما جنرالكم فإنه معزول في معسكره، ومحاصر هناك، وهو يشعر بالمهانة التي يعاني منها رجل شجاع أُجبر على الوقوف كمتفرج على تدميرهم، وحتى الإسكندرية تخشى نتائج اقترابهم منها بعد رحيلنا.

وبما أني أحس الأذى الذي يشتكي منه المماليك، فإني لاأستغرب أن تكون روح الانتقام هي من تحركهم. ولما كنت مدفوعاً باستخدام كل نفوذي وتأثيري لفائدة الإنسانية المعذبة، وأن أجنب إضافة إلى ذلك، التهديد الذي يحيق بمصالح الباب العالي، فقد قررت التدخل وذلك بإقناع البايات بالاستمرار على هذا الاعتدال الذي أبدوه لحد الآن في نجاحاتهم، وأن يعودوا بهدوء إلى مصر العليا، فوافقوا على التضحية بالتخلي عن كل المكاسب التي سيخلفونها وراء ظهورهم، خاضعين لإرادة هذه الصداقة التي كانت سبباً في إحدى المرات، في إنقاذ حياتهم، وعلى أمل أن يصغي الباب العالي أخيراً إلى رجائهم المتكرر. ومع ذلك، فقد اشترطوا حصة متواضعة من تلك المخازن التي مكنت قيمتها من التغلب على العدو المشترك في الإسكندرية لتأمين حاجاتهم الضرورية،

ولهم فيها حقوق معقولة. وبهذا العون، وافقوا على التخلي عن مصر الجنوبية وتمكين جنود كيايا باي من العودة الآمنة إلى عاصمة سموكم، وسيلتزمون من جانبهم إذا لم يتعرضوا إلى أية مضايقة من ممثلي الباب العالي، بان يظلوا أوفياء لعاهلهم، وأن يخلصوا في خدمته، وأن يدفعوا ضريبة تتناسب مع إمكانياتهم، وألا يتجاوزوا الأراضي التي خصصت لهم[1]».

ولسوء الحظ، لم يكن لهذه الرسالة أي صدى إذ أنه وفي الحادي عشر من شهر آذار لسنة ١٨٠٣، سيضطر الإنجليز بأسف شديد إلى مغادرة مصر، حاملين في حقائب مغادرتهم تذكاراً، إذ أخذوا معهم الألفي باي مصحوباً بخمسة عشر مملوكاً، دون إخفاء إمكانية استخدامه ذات يوم لصالحهم. وكانوا على علم بألا شيء قد تم فعلاً. فقد ترك اللغم المصري يجابه قدره. وكان يمكنه أن ينفجر في أية لحظة. وظل كل اللاعبين ثابتون في أماكنهم بلا حراك يترقبون، عدا لاعب واحد يملك الورقة الرابحة في وضع معقد كان كله يصب لملصتحه. كان هذا اللاعب، لاعب اللحظة الأخيرة، وكان يدعى محمد علي.

مصائب خسرو باشا

وما إن رحل الإنجليز حتى انطلقت الحرب بين الأتراك والمماليك. بيد أن وضعية المماليك تغيرت. فقد أضعفتهم الحملة الفرنسية كثيراً، وفشلوا في إصلاح أوضاعهم، ذلك ان الباب العالي كان قد منع جلب العبيد الموريسيين والشراكسة. ولملء هذا الفراغ، لجأ المماليك إلى تجنيد البدو الذين لم يكونوا يملكون القوة العسكرية المذهلة وروح التعصب التي ميزت فرسان المماليك. وكان بإمكانهم أن ينتزعوا السلطة من بين يدي خسرو، تحت قيادة قائد كفء ومحترم، بيد أن وفاة مراد باي، أكثر قادتهم حنكة، ضيّع الأمر عليهم. ومنذ

---

(١) المصدر نفسه.

ذلك الحين، أصبحت القيادة مقسمة بين العديد من سادتهم المتنازعين من ذوي الرؤى المتباينة[1].

ويتولى عثمان البرديسي السلطة من بيت مراد. ومثل هذا الأخير يعطي الانطباع بميله أكثر إلى فرنسا، وينجح في جر الشيخ إبراهيم وجماعته إلى هذا الولاء. كيف لايحاول خسرو باشا في ظل هذه الظروف أن يقضي عليهم؟ هذا ما سيحاول القيام به، لكن دون أن ينجح في ذلك، إذ أن القوات العاملة تحت إمرته والمنتشرة في مصر السفلى والوسطى لم تكن منظمة بشكل جيد. أما الألبان فلم يكن يثق بهم كثيراً وفضّل عليهم مليشياته المكونة من النوبيين. وهكذا فقد قرر أن يبدأ بالتفاوض معهم، وأن يرص صفوف رجاله، غير أنه ارتكب خطئين أساسيين في الوقت نفسه. فلملء خزائن الدولة الفارغة، قرر فرض العديد من الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب المصري الذي أُنهك كثيراً، وهو ما أثار عليه نقمة شرفاء القاهرة. إضافة إلى ذلك، وهذا هو الأمر الأكثر خطورة، أهمل لخمسة أشهر دفع رواتب المرتزقة الألبان الذين كانوا تحت إمرة طاهر باشا الذي كان يليه في القيادة محمد علي وحسن باشا. وكان طاهر وحسن يقيمان داخل المدينة، في حين أُرسل محمد علي ورجاله إلى ضواحي القاهرة.

وهذه النقطة التي تبدو عادية وتافهة في الظاهر، كانت مليئة بالمعاني. فإذا ما أبعد ابن كافالا وعُزل، فلأنهم بدؤوا يشكون في أنه شرع في رسم أولى معالم طريقه. ولكن إلى أي الفرق الثلاث كان يشعر أنه الأقرب؟ ليس إلى المماليك على كل حال الذين لم تجمعه بهم أية علاقة ولو بعيدة إن لم يكن العداء. وليس خسرو أيضاً الذي لايرى أنه يملك الهيبة الضرورية لتوحيد وقيادة كل

---

(١) يمنح هذا اللقب احتراماً دينياً، وهو ما يفسر عدد الأشراف في مجالس القضاء الديني. واللقب لايمثل علامة أرستقراطية. والأشراف يشكلون مجموعة قوية تمارس تأثيرها على الشعب الصغير.

القوى التي تتنازع على السلطة. لم يبق إذن إلا الألبان، ذلك أن علاقات مؤكدة أخذت تجمعه بهم. ألم يكونوا في نهاية الأمر ينتمون إلى أصل واحد؟ ومن المحتمل أن خسرو باشا خمّن الإزعاج الذي يمكن أن يسببه له محمد علي دون أن يتمكن من معرفة نوعه. وإلى اليوم، لم يقدم ابن كافالا الولاء الذي كان ينتظره منه نائب الملك. ورعونته في القيام ببعض المهام العسكرية التي كُلف بها تجعله موضع شك. بيد أن خسرو لم يكن يملك الوسائل لتجنب العاصفة التي كانت تتشكل.

وحوالي شهر نيسان من سنة ١٨٠٣، تسقط المنيا بين أيدي المماليك، وهي مركز الاتصال بين القاهرة ومصر العليا. وكنتيجة مباشرة لهذا النجاح، يقسم البلد إلى قسمين، وتقطع الإمدادات على العاصمة.

وفي الأيام الأولى من شهر تموز، يخرج الألبان بدورهم مطالبين برواتبهم المتأخرة. ويشرعون بالاحتجاج لدى طاهر باشا، فيحولهم إلى الدفتردار[١] خليل أفندي الذي أوضح لهم أن خزائنه فارغة، فيدلهم ناصحاً بأن يشتكوا لدى محمد علي ظناً منه خطأ، أنه يملك ضرائب مصر السفلى. فيحتج محمد علي عليهم مؤكداً أنه لم يحصل يوماً على أي قرش.

ويقودهم الغضب إلى العودة إلى خليل أفندي حيث يطردون حرسه، ويصعدون إلى بيته، وينذرونه بضرورة دفع رواتبهم. ويخبرهم بأنه لايتوفر إلا على ستين ألف قرش، وألا خيار ثالث أمامهم، فإما أن يأخذوا هذا المبلغ أو يتركوه، فيرفض الألبان ذلك، ويهددونه. وتحت تأثير خيبة أمله، يرسل الدفتردار رسولاً إلى خسرو باشا الذي يرد ببعض الاستخفاف بالقول «لن أدفع شيئاً، ولن أعطي أي أمر بالدفع، وعلى هؤلاء المرتزقة أن يغادروا بلدي، ويرحلوا عنها، وإلا أذقتهم الموت جميعاً[٢]». هل أنسته أزمة فقدان ذاكرة مفاجئة أن هؤلاء «المرتزقة» يصل

---

(١) مراقب عام للمالية.

(٢) جبارتي (مصدر ذكر سابقاً). عالم ومؤرخ للأحداث. ولد جبارتي في القاهرة سنة ١٧٥٣، =

عددهم إلى حوالي ستة آلاف من خيرة المحاربين؟ فيعم الاضطراب، ويحل العصيان الفعلي، ويرد خسرو المحاصر في قصره بالأزبكية، بإطلاق نيران مدافعه، فينتشر الرعب بين السكان الذين خافوا أن يستولي المرتزقة على المدينة وينهبونها. ويجوب المنادون طرقات المدينة داعين الشعب إلى حمل السلاح، والوقوف إلى جانب الحاكم. ويبدو أن مجموعة صغيرة فقط، استجابت للنداء في حين أحجمت الأغلبية العظمى عن ذلك.

ويصل التوتر مداه، وتستمر نيران المدافع، ويبدو خسرو باشا هادئاً لعلمه أن القلعة بيد خزنداره[1]، إذ أن من يملك القلعة يملك القاهرة.

أما طاهر باشا الأكثر جرأة أو الأقل تقديراً للعواقب، فلم يتحفظ مثل محمد علي، إذ يترأس حركة التمرد ويطالب رفقة الألبان مقابلة خسرو الذي طالبه بالعودة من الطريق التي أتى منها، والتزام الهدوء. ومنذ اليوم الموالي، يقصد طاهر باشا القلعة صحبة رجاله لمحاصرته بعد أن استاء من رفض طلب مقابلته. ويأمر الخزندار بإقفال كل الأبواب، ويطلب منه طاهر تسليمه مفاتيح القلعة، فيرفض الخزندار ذلك بدءاً قبل أن يذعن في الأخير، ربما خوفاً من خصمه.

وتندلع المواجهات في كل مكان تقريباً من العاصمة، وفي هذه اللحظة بالذات يقرر محمد علي أن يتدخل ويدعم المتمردين[2].

= ونعلم الشيء القليل عن حياته الشخصية. كان يبلغ من العمر خمساً وأربعين سنة عند انطلاق الحملة الفرنسية. لجأ مثل عدد من الوجهاء إلى الريف وعاد بعد مدة قصيرة من إصدار بونابارت لوعود بأنه سيحسن استقبالهم. ولايبدو أن بونابارت أو كليبر كان يعرفه. بالمقابل، اختاره مينو كأحد الأعضاء التسعة للديوان الثالث الذي أقامه الفرنسيون. والواضح أن جبارتي غير مهتم كثيراً بهذه الفترة من حياته وتعاونه مع المحتل. ومع رحيل الفرنسيين، تحفظ بشكل كبير على محمد علي الذي لم يكن يحمل له أي ود. كانت سنوات حياته الأخيرة مكدرة بالعاهات حيث المرض والعمى، فتوقف عن الكتابة سنة ١٨٢١. وتعصف به في السنة الموالية مصيبة عظيمة، ذلك أن ابنه خليل وجد مخنوقاً في التاسع عشر من شهر حزيران لسنة ١٨٢٢ بطريقة غريبة عند مخرج قصر محمد علي. ولم يستطع جبارتي أن يقاوم حزنه، فمات سنة ١٨٢٥ أو سنة ١٨٢٦.

(١) أمين الصندوق.

(٢) إدوارد غوان في كتابه باللغة الفرنسية تحت عنوان (مصر في القرن ١٩)، باريس ١٨٤٧.

ويوشك محمد علي أن يموت خلال المواجهات، إذ يتلقى رصاصتين متتاليتين تمزقان ثيابه الواسعة ربما بشكل كاف، حتى إن جسد لم يصب. هذا ما سيسر به على الأقل للأمير بوكلر موسكو خلال مقابلة خاصة. من جانبهما، سيؤكد جبارتي ونيكولاس تورك أنه كان المحرك الرئيسي لكل هذه الحركة، وأنه كان يُحرك كل ذلك في الظل[1]. لااختلاف حول هذا الأمر، مع الحرص على التأكيد على أنه لم تكن له يد في تأخر دفع رواتب الجنود. وعلى امتداد الأيام والشهور اللاحقة، كانت عبقريته تتمثل في لعبه الدور المزدوج للمشارك في الأحداث والمتفرج عليها. فكمشارك وفاعل، كان يحرك ويتآمر ويغير من سيناريو الأحداث، وكمتفرج كان يترك المشاركين يمزق بعضهم بعضاً ليستفيد من ذلك في الوقت المناسب.

وتسقط القلعة في اليوم الموالي بين يدي طاهر باشا، ويوجه مدافعه إلى قصر خسرو باشا دون انتظار. وبحسب رواية جبارتي، فإن خسرو سقط مغمى عليه مع رؤيته لأولى القذائف التي تسقط على الأزبكية. ويقدم العميل كاف تقريراً بما جرى، إذ يكتب «وصلت بعض الرسائل البارحة وهذا الصباح من القاهرة تؤكد أنه من اليوم العاشر وحتى اليوم الثاني عشر من الشهر الجاري، هاجم الألبان منزل الباشا، وأن القذائف والقنابل لم تكف عن التراشق، وتم استخدام البنادق والسيوف أيضاً. وكان النصر حليف الألبان، في حين احترق بيت الباشا الذي أقام فيه الفرنسيون مقر قيادتهم العامة.

هذا وتأذت كل المباني الجديدة، وأرغم الباشا على الفرار. وتم التخلي عن بيته إلا من بعض الجنود الفرنسيين الذين تركوا هنا بعد رحيل الجيش الفرنسي، وبعض الضباط الأتراك. وأعلن طاهر باشا قائد الألبان نفسه سيد المدينة...[2]».

---

(١) يكتب جبارتي بكل دقة «لم تكن هذه الأحداث إلا حيلاً شيطانية لمحمد علي الذي ألب الأبان ضد خسرو باشا، وحطم فيما بعد سلطته بمساعدة طاهر باشا والأرناؤوط (وهو اللقب الذي منحه المصريون للألبان)، ثم انقلب ضد طاهر وجعله يختفي بدوره بمساعدة الأتراك».

(٢) إلى وزير العلاقات الخارجية. الرسالة السابعة والعشرون. الخامس من شهر أيار لسنة ١٨٠٣. قطاوي (تقارير قنصلية) مصدر ذكر سابقاً.

ويسارع طاهر باشا منذ اليوم الموالي إلى النزول من القلعة لطمأنة الشعب الذي أزال الحواجز، وأعاد فتح الأفران والخانات.

وإزّاء هذا الوضع المعقد، لم يجد خسرو ما يقوم به سوى جمع نسائه وأمواله والفرار إلى دمياط بعد أن دام حكمه خمسة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوماً. وفي اليوم التالي، جمع طاهر حوله كل رجاله المخلصين، وعيّن نفسه قائم مقام[1] مصر في انتظار أوامر الباب العالي. ومن سوء الحظ، فهذا الحاكم الطارئ الذي لم يكفه أن يرث عن سلفه كل مشاكله، بل بدا أيضاً عاجزاً ومتعصباً. ففي خطاب أعده لطمأنة الشعب، يتعهد بأن مصالح الأشخاص وممتلكاتهم ستحترم على قدم المساواة. ويؤكد لروزيتي أن كل حقوق المسيحيين ستحفظ، بيد أنه ينهج سياسة مخالفة تماماً، إذ تنطلق حملة من الابتزاز والتعذيب والسجن غير المبرر، والضرائب المرهقة... وينجح خلال فترة قصيرة ليس فقط في استعداء الجيش، ولكن كل سكان القاهرة. وفي السابع والعشرين من شهر أيار لسنة ١٨٠٣، وبعد ثلاثة أسابيع فقط من تنصيبه كحاكم، يفاجأ بتمرد للانكشارية حيث سيتمكنون منه، ويجزوا رأسه، ويلقوا بها من النافذة التي كان واقفاً إلى جانبها.

وانطلاقاً من هذه اللحظة، يبقى رجلان فقط قادران على التنافس على سلطة قيادة الألبان، وهما محمد علي وحسن باشا. وللوقوف مرة أخرى على ميكيافيلية ابن كافالا، يمكن ملاحظة أنه لم يكن يقف خلف اغتيال طاهر باشا، فهو من قاد نفسه لمصيره المحتوم.

أما حسن باشا، فلم تكن لديه الحنكة أو القدرة على مواجهة الوضع الذي صار مليئاً بالأخطار المحدقة بصورة غير عادية، وهكذا بقي في الظل، في حين أن محمد علي لم يكن يشعر في نفسه القوة لكي يخلف سابقه الذي كان على دينه، وقد فهم أنه إذا ما أراد ذلك، يتعين عليه إيجاد شريك قوي، وقوة

---

(١) المرتبة الأقل من عقيد، وهي بمثابة وكيل الوالي.

عسكرية تسنده وتدعمه، والتي سيجدها وهنا تكمن العبقرية، في أعداء الأمس: المماليك. وهكذا، عقد اتفاقاً مع رؤسائهم، وعرض عليهم عفواً شاملاً، ولإعلان حسن نيته، فتح في وجوههم أبواب العاصمة.

وكنت فرصة غير منتظرة بالنسبة للمماليك التائهين. فلم الحذر من جنرال شبه وحيد، ومن دون قدرة فعلية على الحركة؟ وسيقودهم هوسهم الشديد لاستعادة الحكم في مصر إلى الوقوع مباشرة في الفخ.

وفي الفاتح من شهر حزيران لسنة ١٨٠٣، يدخل أهم البايات، ومن بينهم إبراهيم البرديسي، إلى القاهرة. ومنذ هذا اليوم، تصير السلطة في مصر مقسمة بين ثلاث قوى، وهي المماليك ومحمد علي ومن معه من الألبان. وهكذا، وبصورة غير محسوسة، أخذ الكافالي يقترب حثيثاً من القمة...

[4]

إرتقاء فرعون (١٨٠٣ ـ ١٨٠٥)

وتمضي الأيام التي وإذا ما جاز القول، يمكن وصفها بالمتشابهة. فقد عين الباب العالي حاكماً جديداً يدعى الطرابلسي، وحكم مدة قصيرة أيضاً إذ سرعان ما يحاصر المماليك القلعة، وينذرون سيء الحظ هذا بأن يترك العاصمة خلال أربعاً وعشرين ساعة وهو ما سينفذه. وفي دمياط، يعتقد خسرو باشا أن الوقت قد حان لاستعادة السلطة التي انتزعت منه. فيزحف إلى القاهرة، ويخرج محمد علي و «شريكه» الجديد، عثمان البرديسي لمواجهته، حيث يقود ابن كافالا المشاة الألبان، في حين يوجد البرديسي على رأس جيش المماليك المتحالفين مع البدو. فيقومان باحتلال دمياط، ويجبران خسرو على الاستسلام. وفي صباح يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني يُحضر إلى القاهرة، ويسجن في القلعة.

كان هذا هو الوضع الانتقالي ظاهراً، إذ سيظهر مظهر جديد متمثل في علي باشا بوغول[١] المعروف باسم الجزائري، والذي سينزل إلى شواطئ الإسكندرية في الثامن من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٠٣، بعد أن عينه الباب العالي نائباً للملك، خلفاً لخسرو. وكان الوافد الجديد من أصل شركسي، بيع

---

(١) غابرييل غييمار في كتابه باللغة الفرنسية (الإصلاحات في مصر من علي باي الكبير إلى محمد علي) القاهرة، ١٩٣٦.

في طفولته إلى داي[1] الجزائر، ومن هنا جاءه لقب «الجزائري»، وعند موت سيده، سيهدى من قبل صهر الداي إلى الأميرال العظيم حسن باشا. وكانت الهدية مدبرة إذ كان حسن باشا يملك أخ القادم الجديد.

وبطبيعة الحال، لم يكن للمماليك ومحمد علي ومن معه من الألبان أي نية من أن يُجرَدوا مما جنوه من أعمالهم لفائدة هذا الدخيل. وعلى أيّ، لم يكن عدد القوات المرافقة للجزائري كافياً بأن يعيد كل هذه الفرق إلى جادة الصواب. وما إن وصل، حتى كتب إلى البايات ليعلمهم بألقابه وامتيازاته، فرفضوا أن يستقبلوه في العاصمة رفضاً قاطعاً إلا إذا قبل الحدود التي رضي بها من سبقه قبل سنة ١٧٩٨ . وبصعوبة بالغة تمكن الجزائري من إرسال فرمان من الباب العالي إلى القاهرة، يمنح البايات امتيازات هامة حيث كفل لهم من بين أشياء أخرى، راتباً سنوياً يصل إلى خمس عشرة بورصة[2]، ويقدم لأتباعهم بعض الضرائب المحصلة من القرى. وفرض عليهم شرطاً وحيداً، وهو ألا تكون لهم أية مشاركة في إدارة البلاد وعائداتها. وهكذا تمكن من الحصول على استقبال جيد من قبل زعماء المماليك. والواقع أنه كان يسعى إلى فخ نصبه له البرديسي ومحمد علي. فقد خرج من الإسكندرية على رأس قواته، ليجد نفسه في مواجهة جيش الرجلين الأكثر عدداً. ولما لم يجرؤ على المخاطرة بدخول حرب، حاول القتال متراجعاً إلى الإسكندرية بيد أنه فشل في ذلك، إذ قُبض عليه، وقُتل[3].

---

(١) من اللغة التركية حيث تعني Da'i عم أو خال، وهو لقب شرفي خُص به حكام الدول البربرية.

(٢) تعني حرفياً «جزء من المجال الملكي، يمنح للأمير الذي تسري في عروقه دماء ملكية كتعويض له عن إبعاده عن العرش» لكن في هذه الحالة تحديداً، تتعلق بشراء خضوع البايات وذلك يمنحهم إيراداً.

(٣) غوان، ١٨٤٧ (مصدر ذكر سابقاً). يروي أن الجزائري تلقى ضربة السيف الأخيرة دون أن تصدر من فمه أية لعنة. وقدم لقتلته كفنه الذي كان يحمله حيثما توجه، وطلب منهم ألا يحرموا جسده قبراً.

وهكذا، ومن استيلاء على ملكية إلى آخر، سيلفي محمد علي نفسه في لحظة من اللحظات وقد صار وحده على القمة. ففي بداية سنة ١٨٠٤، يتخلى بمحض إرادته للبرديسي عن مغانم عملياته الأخيرة. والواضح أن تحالفهما سيدوم طويلاً، إذ أقسما على الأخوة المتبادلة، وذهب بهما الأمر حد أن جرح كل منهما يده، ومص دم الآخر[١]. وأضحى البرديسي يثق بابن كافالا لدرجة أنه أصبح يتبعه بعينين مغمضتين. وبدأ يقبل كل اقتراحاته حتى إنه يقبل أن يُحرس من قبل الألبان عوض رجاله. لكن هل كان سعيداً حقاً في قرارة نفسه بهذه الشراكة التي كانت «ضد الطبيعة»؟ ألم يكن يتوقع أن يكون صديقه الكبير منافساً خطيراً له؟

يذكر إدوارد غوان حادثاً متخيلاً بلاشك، لكنه يعبر بصورة جيدة عن الرعب المحتمل الذي كان يعيشه البرديسي إذ يكتب «بعد اغتيال الجزائري، استدعي شيخ يدعون أنه نبي إلى خيمة الباي، فدعاه هذا الأخير إلى الجلوس جواره، وطلب رأيه حول تحالف المماليك والألبان، فرد الشيخ «عندما يحل عيد الأضحى سيحدث شغب كبير يسيل الدم. وسأله البرديسي. ما مصدر هذا الشغب؟ من سيريق الدم؟ من سينتصر؟» وكان جواب الشيخ غامضاً «ستفترس الذئاب الأجانب». فسرت قشعريرة في ظهر الباي لعلمه أن المصريين يلقبون المماليك بـ «الأجانب»، وعليه فمن هم «الذئاب» إذن، إن لم يكونوا الألبان؟»

وسواء أكان ذلك حقيقة أم خيالاً، فهذه النبوءة لم تؤثر بشكل قاطع على موقف الباي، لعدم اعتباره في أي وقت من الأوقات، أنه من المفيد إعادة النظر في تحالفه. وقبل المضي أبعد من ذلك، من المهم الحديث عن فاعلين أساسيين في الأحداث، تُركا إلى الآن بعيداً. يتعلق الأمر بالقاهرة وسكانها.

---

(١) جبارتي، سنة ١٢١٨ هجرية، ١٨٠٤. مصدر ذكر سابقاً.

علماء كبار وشعب صغير

كانت العاصمة أو «أم الدنيا» كما يطلق عليها العرب، تبدو في هذا العهد كمدينة مهملة. ويفاجأ بؤسها الشديد زوارها. ولم يكن قد نجا من ماضيها التليد إلا بعض الآثار المهملة في طرقات بلاأسماء، غمرت بالقمامة. وإذا كانت توجد بعض المنازل الجميلة المظهر والمتفرقة، إلا أنها كانت محاطة بالخرابات، والآثار المدمرة.

وإذا ما كان يقدر سكان مصر وقتذاك بحوالي أربعة ملايين نسمة، فإن سكان القاهرة كانوا يصلون إلى حوالي مئتين وخمسين ألف نسمة. ولم يزد عددهم عند موت محمد علي سنة ١٨٤٩[1]. وكان ساكنوها من طوائف متنوعة. فبغض النظر عن الأقباط الذين كان يصل عددهم سنة ١٧٩٨ إلى حوالي عشرة آلاف قبطي، واليهود المقدرين بحوالي ثلاثة آلاف، يمكن إحصاء المغاربة والسوريين الذين كان يتراوح عددهم ما بين خمسة عشر ألفاً وعشرين ألف نسمة، وعشرة آلاف تركي، وأربعة آلاف مسيحي يسمون باليونان الكاثوليك أو الملكيين، وألف مسيحي ماروني، وخمسة آلاف يوناني، وألفي أرمني. أما الشعب الصغير الذي يقف دوماً أمام الأحداث كشاهد وليس كفاعل، وكمستغَل وليس كمستغل، فإن نواته شكلت أساساً من التجار والحرفيين[2] ومن الشيوخ والعلماء.

---

(١) أخذ هذا الرقم من إحصاء تم سنة ١٨٤٦، وهو أقل من العدد الذي نجده في (وصف مصر) المقدر بثلاثمائة وثلاثة وستين ألف نسمة. ويعزى هذا التدني الديمغرافي إلى الأعداد غير المحصورة من الأوبئة، حيث الطاعون سنة ١٨٣٥ والذي أودى بحياة خمسمائة ألف شخص، وخاصة الكوليرا التي تسببت بمقتل مائة وثمانين ألف شخص سنة ١٨٣١. يضاف إلى هذا، التجنيد والسخرة والأعمال الإجبارية، والتي تسببت في خسائر مهمة في الأرواح. أنظر أندري رايمون (القاهرة)، باريس، ١٩٩٣.

(٢) بخصوص هذا الموضوع، أنظر إلى العمل الرائع لأندري رايمون وهو باللغة الفرنسية بعنوان (حرفيو وتجار القاهرة في القرن الثامن عشر) المجلد الثاني، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٧٣.

أما العلماء أو فقهاء القانون، فهم يمثلون قلب الدين النابض، وهم على صلة وثيقة بالأزهر، المسجد والجامعة. وإذا ما كانوا لايتلقون أجوراً عن امتهانهم للتعليم، فإنهم يتمتعون بمزايا عديدة عن طريق مؤسسات دينية كالأوقاف مثل المعاشات والرواتب والمكافآت التي تدفعها لهم الدولة من خزائنها، والإعفاء من الضرائب، كما كانوا يستفيدون من مساعدات مالية وهدايا عينية ونقدية. ويضاف إلى هذا، استفادة بعضهم من الإيرادات الحضرية والقروية. ويجد العديد من العلماء في النشاط الاقتصادي موارد إضافية، وهم في غالب الأحيان إما أصحاب مكتبات أو خطاطون أو نُسّاخاً أو باعة حدادة أو خياطون وهم قلة حقيقية. لكن مساهمة فقهاء القانون في الحياة الاقتصادية للبلاد تتمثل أساساً في امتلاكهم لمحلات الحرفيين أو الدكاكين المخصصة للأنسجة الحريرية والمطاحن، ومعامل الكلس...

وكان بعضهم فاحش الثراء، فالشيخ السادات[1] مثلاً، من بين آخرين، كان يستفيد من العائدت الهامة من الأوقاف إضافة إلى مضاربات متنوعة، مثل بيت شيّد من ثلاث طوابق في بولاق والذي قدرت قيمته سنة ١٧٩٢ بحوالي أربعمائة وخمسين ألف بارة.

وكان هؤلاء في كل الأوقات، الوسطاء الطبيعيين بين العامة والطبقة الحاكمة. وبحكم وظائفهم الدينية والقضائية والجامعية فقد كان الشعب يلجأ إليهم باستمرار لنقل مظالمهم إلى السلطان[2]، وهذا ما يفسر أن الفاتحين الأجانب سواء المماليك أو العثمانيين أو الفرنسيين طلبوا دوماً الحصول على

---

(١) كان الشيخ شمس الدين محمد أبو أنور ابن السادات من بين الشخصيات الأكثر تأثيراً في ذلك العصر. وكان رئيساً لبني الوفاء منذ سنة ١٧٦٨، وكان يعامل الناس بتعال وازدراء. وقد قدم له جبارتي وصفاً غير طيب إذ كتب «قاس، وفظيع إزاء من هم أقل منه مرتبة. متآمر ومتعطش للثروات والتشريف». توفي سنة ١٨١٣.

(٢) أنظر عفاف لطفي السيد مارسو في كتابها باللغة الإنجليزية (دور العلماء في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر). المئوية، القاهرة، ١٩٦٩.

دعم العلماء المعنوي في حال نشوب أي نزاع سياسي. والواقع أنهم كانوا يجدون أنفسهم في موقع تضارب بين العلاقات المادية والاجدتماعية التي تربط الشيوخ بالطبقة الحاكمة، وبين الدور المفترض بهم القيام به كناطق رسمي باسم الشعب، ذلك أن الظلم الذي كان يعاني منه الشعب، كان مرده دوماً إلى الاستبداد والشطط في استعمال السلطة، والذي كان العلماء شركاء غير مباشرين فيه. وعلى امتداد تاريخ مصر، كان أقل ما يوصف به موقف العلماء تجاه الأزمات التي تعصف بالبلاد أنه ذو وجهين إزّاء الحركات الشعبية.

وفي بداية سنة ١٨٠٤، كان شيخ الأزهر، الشيخ الشرقاوي، أكثر شخصية مسلمة تميزاً. وانتخب من قبل المشايخة وبموافقة إلزامية من السلطات المدنية للقاهرة، إضافة إلى أمين التجار المحروقي[1]، والتاجر الغني بالبحر الأحمر المواجلهي، والشيخ السادات الذي سبق ذكره، والشيخ خليل البكري وهما معاً على رأس المتصوفة، وسيد عمر مكرم الذي يحمل لقب نقيب الأشراف، أي رئيس أحفاد النبي، وقد عرف بكونه بطلاً شعبياً، وكذا بقدرته على استمالة الشعب. وقد لعب دوماً دوراً سياسياً حيوياً. ففي سنة ١٧٩٨ بعد معركة الأهرامات استطاع جمع الحرفيين في مليشيا للدفاع عن العاصمة التي تركت تواجه مصيرها بعد أن فر منها المماليك. وفي سنة ١٨٠٠ كان بطل التمرد على الوجود الفرنسي.

وكان جورج أو جرجس الجواهري يحتل الواجهة لدى المسيحيين، وهو ثري قبطي، كان بونابارت قد عينه مقتصداً عاماً للضرائب. وبعد رحيل الفرنسيين، سينجح في الحفاظ على مكانته السياسية.

---

(١) المحروقي، نقيب تجار مصر. عينه بونابارت عضواً في الديوان. وعندما ثارت القاهرة ثورتها الكبرى، انضم إلى صفوف العثمانيين، ومنذ هذه اللحظة أضحى ألد أعداء الفرنسيين. انخرط بعد ذلك بشكل قوي في السياسة المحلية، وصار رفقة القبطي الجوهري مدبراً لشؤون العاصمة في عهد حكومة محمد علي. مات بشكل مفاجئ في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٠٤، وأقيمت له جنازة عظيمة. أنظر جبارتي (مصدر ذكر سابقاً).

وإذا ما تم تصديق ماجاء به جبارتي، فإن معظم هذه الشخصيات كان مشكوكاً في أمرها.

أما الشعب، ودون الادعاء برسم صورة كاملة عن المجتمع المصري، فإنه يمكن تصوير تشكيلته أساساً من التجار والحرفيين والمأجورين والباعة والفلاحين، وفي طبقاته الدنيا، الفقراء والمحتاجين وهي تمثل أغلبية أفراد الشعب والتي تعرف استهلاكاً كبيراً للمخدرات حد تبرير وجود كبير لباعة الحشيش. أما العمال «درجة أولى» فإنهم يعيشون أوضاعاً بئيسة بلباسهم المكون من قميص صوفي أزرق بسيط، ويقطنون فيما يشبه الأكواخ، ولايملكون إلا بقايا حصير كأثاث يقتسمونه في نومهم مع زوجاتهم وأبنائهم الكثر. ويخرج أولادهم في أغلب الأحيان عراة أو يضعون أسمالاً بالية. أما عمال «الدرجة الثانية»، فيسكنون أماكن أقرب للدهاليز منها إلى الغرف المستأجرة، وبغض النظر عن كونهم يضعون ثياباً أفضل من زملائهم، حيث الطربوش والشال الموصلي إلا أن أوضاعهم المعيشية كانت مزرية للغاية.

وكان التجار أو أصحاب «الدرجة الثالثة» يحتلون قمة الهرم الاجتماعي. فالقوة المالية والتحكم في قطاع أساسي من الحياة الاقتصادية المصرية يمنحان رؤساءهم امتيازاً كبيراً، وتأثيراً مؤكداً لدى السلطات.

وتمت الإشارة فيما سبق إلى أهمية الحصول على رضى العلماء. وإلى اليوم، لم ينجح أحد في استمالتهم تماماً. وكان بونابارت قريباً من النجاح حين فهم، قبل محمد علي، أن الفتح العسكري لايكفي، وأنه يتعين عليه أن يضم الأهالي. وهكذا، فقد لجأ إلى استعمال كل ما يملك لاستمالة الشيوخ إليه، إذ لم يتردد في أحد الأيام بأن يخرج بلباس شرقي، وذهب به الأمر حد أنه ادعى أنه وكل جيش الشرق على استعداد تام لاعتناق الإسلام. ولكن، وعلى الرغم من أن إغراءه كان فعالاً، بيد أنه لم يكن كافياً ليحقق الآمال المنشودة.

وسيلجأ الألباني بعد قليل، إلى لعبة الإغراء أيضاً.

بينما كان محمد علي والبرديسي في شهر شباط من سنة ١٨٠٤ يتحركان في رقعة الشطرنج المصرية، يقرر الإنجليز أخيراً إخراج ورقتهم التي أخذوها معهم في رحيلهم عن مصر، يتعلق الأمر بمحمد باي الألفي. الحيلة التي سبق أن توقعها ماثيو دو ليسيبس قبل سنة من ذلك، حين كتب إلى تاليران «عملت منذ وصولي إلى ملاحظة التحرك السياسي الإنجليزي في هذا البلد. فكل أبحاثي وأحاديثي السرية مع مندوبي السيد ورجال النخبة الأجانب والمصريين على حد سواء، وتتبع طريقة تعامل الإنجليز قبل انسحابهم وبعده، دفعتني إلى الاعتقاد بأنهم يحمون المماليك لكن بأسف، ويقومون بكل ما يستطيعون لرعايتهم وكسبهم إلى صفهم. وكل حروب الحكومة الإنجليزية ومفاوضاتها وتحركاتها يحددها جانب المصلحة، وهي تريد أن تجعل مصر خاضعة لمصلحة تجارتها. ولاتستطيع اليوم الوصول إلى هدفها الأهم إلا إذا وضعت في مصر حكومة من صنع يدها. وأذهب إلى الاعتقاد بأنها تستخدم تأثيرها السياسي وعملاءها لتضمن للبايات، مخلوقاتها، السلطة العليا. ومما يبعث على الخوف أن لايكون ثمن السلطة الذي سيؤديه هؤلاء لمصلحة بريطانيا فقط، بل أن يهدد تجارتنا القريبة من الازدهار في هذا البلد[1]».

وبحسب جبارتي، فإن للألفي سمعة رجل مستبد. فهو مغرور معتد بنفسه، يوحي بهلع شديد للشعب، وهو بالفعل آخر الرجال الأحياء من كبار المماليك. وهو «بطريقته الخاصة، فريداً بين قومه[2]». وخلال فصل واحد من وصوله إلى العاصمة الإنجليزية، صار مدلل كل لندن، إذ فتح له الاستقبال الرسمي في البلاط كل صالونات المجتمع الارستقراطي. وكانت هيئته وقامته المناسبتين، ولباسه غير المعتاد مثار فضول وافتتان. لكن وللأسف، وهذا شيء

---

(١) في العشرين من شهر حزيران لسنة ١٨٠٣. قطاوي (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) جبارتي (مصدر ذكر سابقاً).

معروف، فكل شيء محض هباء. . . وهكذا، وبسرعة كبيرة، لن يبقى المملوك «صرعة» حتى يسمع البريطانيون بخبر الثورة التي ستقود البرديسي إلى السلطة.

وفي لمح البصر، أعيد الرجل إلى الواجهة من جديد، وأحيط بحسن رعاية لم يعرفها من قبل. وأضحى الأداة الأولى من أدوات سياسة حكومة سان جيمس.

وبدأ الرجل الطيب يرى نفسه سيد مصر. وشرع في قبول كل العروض تحت هذه الصفة، إذ أخذ البعض يساهمون في جمع تبرعات لتأمين نفقاته مقابل الحصول حين عودته إلى الحكم، على امتيازات وعقود احتكار. ولم ينس أن يحمل معه أثاثاً ملكياً. وسرت الأقاويل بأن الفرقاطة التي أعدت لرحلته ضمت حرساً للعاهل القادم.

وعلى كل حال، فلم يكن الألفي بدون أتباع في مصر. ولئن كانت شجاعة البرديسي وأعماله القيمة أكسبته احترام الناس في القاهرة، فإن صدق الألفي أوجد له تأثيراً منقطع النظير في الضواحي.

وكان قد ترك بيته الكبير في غيبته لواحد من كشافيه[1] وهو الألفي «الصغير» لتمييزه عن سيده. ويصل المنفي إذن إلى الإسكندرية على سحابة، وسرعان ما يسقط منها.

فما إن وصل إلى البلد حتى قرر محمد علي والبرديسي أن يتخلصا منه. وفي منتصف شهر شباط نصبا فخاً لأنصاره، وأجبراهم على التفرق. ومنذ هذه اللحظة، أحس الألفي بالضياع، فينجو في آخر لحظة من الأسر، ويفر إلى مصر العليا.

وفي الثالث والعشرين من شهر شباط لسنة ١٨٠٤، يكتب ليسيبس رسالة إلى تاليران جاء فيها «الألبان في فرح غامر، إذ أنهم يرون المماليك يدمر بعضهم

(١) ممثل الحكومة في المقاطعات، وهو بمثابة المفوض المحلي.

بعضاً، بل إنهم يساهمون في ضياعهم، وتعلموا ألا يخشونهم بعد الآن، للسهولة التي انتصروا بها عليهم... ويمكن أن أؤكد لكم سلفاً من أن مشروع محمد علي لم يعد مخفياً وأنه يسعى إلى الاستيلاء على السلطة[1]».

ويمكن ملاحظة أن وسائل محمد علي تتغير بيد أن طريقته واحدة، إذ أنه تارة يستخدم منافساً، وأخر تارة أخرى لكنس الطريق أمامه. ولو أن البرديسي تمتع بأدنى حدس لكان من المحتمل جداً بعد هذه العملية أن يتذكر نبوءة الشيخ، ولقال: «انتصار آخر مثل هذا، ويقضى علي تماماً»، ذلك أن العون الذي قدمه لمحمد علي هذه المرة سيجعل منه شخصاً من دون فائدة. ونتيجة لذلك، يقرر محمد علي أن يلتفت إلى شريك آخر، وهو الشعب المصري نفسه، فهو يعلم أنه بفضله سيقيم سلطته بطريقة دائمة وأكيدة.

سقوط الدمية

ماهو الوضع إذن؟ الخزينة فارغة، والبلد يحتضر. التجارة في حال أسوأ لانعدام الأمن المستمر في الطرقات، والقمح، وبالتالي الخبز، يعاني حالة نقص مريعة، وعندما يوجد، فإنه يباع بثمن مرتفع جداً، ويباع بأسعار خيالية تفوق الخمسين بارة للأردب الواحد[2]، وهو ما يجعله بعيداً عن متناول الطبقات الفقيرة جداً. وعندما لايكون المماليك هم من يسلب الأسواق، فإن البدو يستولون على القوافل، في حين ينهب المرتزقة الذين تتراكم مستحقاتهم غير المؤداة لهم، أية شحنة بضائع قادمة من مصر العليا أو السفلى.

---

(١) ذكره الجنرال ويغان في مؤلف باللغة الفرنسية تحت عنوان (التاريخ العسكري لمحمد علي وأبنائه). المجلد الثاني، باريس ١٩٣٦.

(٢) كان متوسط ثمن الأردب يساوي أربعة وعشرين بارة. لكن هذا السعر كان دائم التحول حيث كان يصل أحياناً إلى... خمسمائة بارة للأردب الواحد. وتفسر هذه الارتفاعات الدورية إما بمستوى فيضان النيل، أو بالصعوبات غير المبررة التي تعاني منها الخزينة. أنظر أندري رايمون، ١٩٧٣. مصدر ذكر سابقاً. ومن أجل جدول الأوزان والقياسات أنظر آخر الكتاب.

وفي ظل هذا الجو المأساوي، يدفع محمد علي بالبرديسي التعيس إلى الواجهة، ويكاد يصير حاكماً للبلاد. ففي السابع من شهر ربيع الأول أي الثاني والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٠٤، يدخل الشريكان إلى العاصمة، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز. وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه، وتوزيع الحبوب المخزونة فيها. مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار؟ البرديسي بحسب جبارتي[١]، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظى بحصة هامة من رضى الشعب. ألم يكن هو من يوزع القمح في النهاية؟

لكن، ومهما يكن الأمر، فلحد الساعة لم تحل المشاكل بعد. فعلى البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة. وهكذا يجتمع مجلس لدى إبراهيم باي. ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم، ولكن هذا لم يكن كافياً أيضاً. فيرغم البرديسي على الرفع من ضريبة على تجار القاهرة، وأيضاً على تجار العاصمة من الأجانب. وبالتالي ستسبب الإذاية للقناصلة. «فرضت الحكومة التي عادت إلى النظام الطائفي، ضريبة مرتفعة جداً على مسيحيي البلاد، وعلى من هم تحت حماية فرنسا بموجب فرمان من الباب العالي، إضافة إلى الرعايا السويديين الذين لايتوفرون على وزير مفوض، ومن بينهم رجال قدموا خدمات للجيش الفرنسي[٢]».

وهكذا، فقد كان يتم الاستيلاء على بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة، وتباع بأبخس الأثمان، ولم يسلم من ذلك حتى البن القادم من حضر موت ومن يامبو، إذ كان يصادر وترخص أسعاره. ولاستدرار دعم الجيش، يعمد البرديسي إلى إضافة ضريبة جديدة على المواطنين، وهي النقطة التي أفاضت الكأس.

---

(١) «زال الخوف الذي استولى على قلوبهم، وباركوا عثمان باي البرديسي».

(٢) من ليسيبس إلى تاليران. قطاوي، ١٩٣١. مصدر ذكر سابقاً.

وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك، إلى بركان يغلي. فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريباً، وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن «ما الذي تريد إضافته إلى شقائنا يا برديسي؟[1]» وقام الرجال والنساء على السواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة على الحداد، وأغلقت الدكاكين، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضى، والاستيلاء على البراجي[2] القادمة من مصر العليا أو السفلى، وتوجهت الجموع إلى الأزهر، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمى، وتأهبت الأيادي للانقضاض. لكن لم يحدث أبداً، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة، أن توجه أحد باللوم إلى الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس. فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم. وهكذا قام بتوزيع الألبان التابعين له في العاصمة، وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير. وبدأ الشعب الصغير يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية.

ويستدعي البرديسي المستشيط غضباً العلماء ووجهاء العاصمة، ويحملهم شاتماً مسؤولية ما يقع من أحداث. فيدافع محمد علي عن العلماء، ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري. وبهذا الموقف، يبرهن للوجهاء أنه لايخشى أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب، وبطريقة غير محسوسة لايمنح للشعب صورة المنقذ فقط، بل والمنقذ بلا طموح.

وخلال الأسبوع نفسه، يثير نقمة الألبان الذين ينتظرون رواتبهم المتأخرة منذ ثمانية أشهر، فيبدأ الاعتداء على المماليك، إذ يلقى المئات منهم حتفهم ذبحاً. ويحاصر الألبان قصور العديد من البايات، وخاصة قصري عثمان البرديسي وإبراهيم. وكان الأمر مدبراً بشكل متقن، بحيث لايعلم المقيمون فيها بأنهم

---

(١) جبارتي. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) مراكب كبيرة للشحن عبر النيل.

مستهدفون، إلا من خلال صوت الرصاص المنهال عليهم. ويدافع البرديسي الذي استعد في قصره لمقاومة شرسة، بيد أنه سرعان ما أدرك أنه سيقضى عليه، فيقوم رفقة المحيطين به من المخلصين له، بفتح أبواب قصره على مصراعيها، ويهجم بسرعة كبيرة على خصومه من فوق حصانه، لينتهي به الأمر محتمياً بحصن مجاور لقصره. وعندما جنّ الليل، فر من القاهرة لاجئاً إلى الصحراء التي سبقه إليها إبراهيم. أخرج يا برديسي، يا صديق الأيام السيئة...

ويخلص جبارتي إلى أنه «ستتوالى كل هذه الأحداث بإرادة الله، وبحسابات محمد علي».

خورشيد باشا، مجنون الحكم

ومع أن هذا الانقلاب الذي يجعل من الألبان سادة العاصمة الوحيدون، إلا أن محمد علي لم يغامر بتسلم السلطة، ربما لشعوره بأن الفرصة المناسبة لم تحن بعد. وبحركة غريبة جداً، يتكرم محمد علي بتحرير خسرو من سجنه، ويضعه على رأس الحكومة المصرية في انتظار فرمان من الباب العالي. ومع رفع الحصار، يخشى حسن باشا إضافة إلى غالبية الألبان، انتقام خسرو، فيحتجوا بشدة لدى محمد علي، ويطالبوا بتنحية الحاكم الجديد. ولم تبد على ابن كافالا أية ردة فعل، أو أنه أراد أن يتم تصحيح ما أقدم عليه، وكأنه رمى بإعادة خسرو باشا على رأس السلطة في البلد، أن يختبر حدود قوته، وأن يمنح للعلماء وبالتالي للشعب المصري، التأكيد على عدم تطلعه السياسي. فيسارع إلى وضع خسرو تحت الحراسة، ويقتاد إلى الرشيد التي يرحّل منها إلى إسطانبول على وجه السرعة.

ويشير محمد علي المحافظ على تهكمه وسخريته إلى الباب العالي باسم حاكم الإسكندرية خورشيد باشا، فتلقى نصيحته صدى طيباً لدى السلطان، ويعين خورشيد الذي ما كان ليحلم بأكثر من هذا. ويكتب برنادينو دروفيتي[1]

---

(١) ولد برنادينو ميشال ماري دروفيتي في مقاطعة تورينو في السابع من شهر كانون الثاني سنة =

في الخامس من شهر آذار لسنة ١٨٠٥ إلى تاليران «عين خورشيد باشا لباشوية القاهرة، وهو رجل بلا تصورات كبيرة، بيد أنه يقال إنه محاط بشكل جيد[١]».

وما سيلي من أحداث سيثبت أنه لم يملك إلا شبح السلطة. وكان محمد علي يعلم ذلك مسبقاً، فيرسل مجموعة من الألبان لتكون تحت أوامر خورشيد الذي يعين خزنداره حاكماً للإسكندرية، ويسارع إلى الرحيل مع حرس الشرف، وينزل من على مركبه الشراعي[٢] في الثاني من شهر نيسان إلى بولاق، وتؤدي له المدفعية التحية، ويدخل في اليوم الموالي إلى العاصمة بطريقة رسمية، وتصحبه الموسيقى والمباركة إلى الإقامة التي أعدت له في الداودية، وبعد حوالي عشرين يوماً من ذلك، يصل رسول من إسطانبول حاملاً معه فرمان التعيين جاء فيه «تسلم الحكومة في مصر إلى أحمد خورشيد باشا، وقد اهتدينا في اختيارنا هذا إلى ما نعرفه عنه من أهلية للتصرف، ومن استقامة وذكاء وحكمة إدارته... [٣]» ويتجاهل الفرمان محمد علي وكل ما قام به، وكأنه لاوجود له في نظر الباب العالي.

وما من شك بأن هذه العودة إلى الشرعية لم تكن إلا صورية لأن خورشيد لم يكن في حقيقة الأمر إلا ظلاً للسلطة الشخصية لابن كافالا. فهو بلا سلطة فعلية

= ١٧٧٦، وبعد دراسة كلاسيكية في عاصمة البييمونت، حصل في سن الثامنة عشرة على شهادة الحقوق. تخلى عن ممارسة هذه المهنة لينخرط في سن العشرين أولاً في المليشيا الحضرية لتورينو، ثم في الجيش الفرنسي. شارك في الحملة الإيطالية، وبعد أن تميز في العديد من العمليات العسكرية، عين كملازم ثاني وألحق بهيئة الأركان الألبية. وبعد معركة مارنغو التي سيصاب خلالها إصابة خطيرة في يده اليسرى، رقي إلى رتبة ضابط حرب أول في حكومة البييمونت، ثم قائد سرية. وفي الثاني والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٠٦، يصدر مرسوم إمبراطوري يعينه كمساعد للقنصل العام في الإسكندرية. لعب دوراً مهماً لدى محمد علي. ورويت سيرته بشكل مستفيض بواسطة جون جاك فيشتر في كتاب بالفرنسية حمل عنوان (حصاد الآلهة). باريس ١٩٩٤.

(١) دوان، ١٩٢٦. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) مركب شراعي خفيف، كان ينقل المسافرين عبر النيل.

(٣) جبارتي. مصدر ذكر سابقاً.

إذ أن كل السلطة العسكرية بيد محمد علي. وهما معاً مهددين من قبل المماليك وإن بدرجة متفاوتة، فمحمد علي أكثر تهديداً من خورشيد. ذلك أن إبراهيم والبرديسي الذي لم يهضم أمر الإطاحة به، والألفي وبعض السادة الأقل أهمية، شكلوا حلفاً من مناصريهم، وشرعوا يقومون بحملة على أطراف العاصمة في الجيزة وصقارة وامبابة. وأخذوا يتسللون إلى مصر السفلى، ويستولون على قليوب وينهبونها، ويظهرون في بركة الحاج. وكانوا بذلك سادة مصر العليا والفيوم بلا منازع.

وكالعادة، لاينعم سكان العاصمة بالهدوء داخلها أبداً. أما خارجها، فما من أمن للنشاط التجاري.

وتظل الحاجة إلى المال العقبة الأساسية للحكومة الجديدة، فموارد الدخل العام تشكو خصاصاً كبيراً، بحيث لايمكن الاعتماد عليها، ويلزم مختص مالي عبقري أو إلى رجل ساحر لتأدية رواتب الجنود. وبما أن المماليك كانوا هدف السلطة المباشر، فقد تقرر، وهذه مفارقة عجيبة، تحميلهم نفقات الحرب التي تشن عليهم، فصار يُبحث حتى عن أنصارهم الأشد تستراً، وتفرض عليهم ضريبة مرتفعة، ولم تسلم من ذلك حتى الست نفيسة أرملة مراد باي. ويتوقع ماثيو دوليسيبس أن أيام الباشا معدودات، ويكتب تقريراً يرسله من ليفورنو إلى تاليران جاء فيه «خورشيد باشا، ونائب الملك في ورطة كبيرة. ولم يخف عني ذلك، وأسرّ لي أن وضعه مزعج جداً[1]».

من جانبه، لم يتضايق محمد علي أبداً من غارات المماليك، واقتصرت هجماته في جبهات غير بعيدة عن القاهرة، ولم تتجاوز أبداً طورة.

وحوالي الخامس عشر من شهر آذار لسنة ١٨٠٥، وبعد أن علم بأن الألفي باي ورجاله غادروا إلى محافظة الفيوم، يعتقد أن بإمكانه الاستفادة من غيابهم للاستيلاء على المنيا، ويسعد جداً في الاصطدام الأول، حتى إن قواته تمكنت

(١) في العاشر من شهر كانون الأول لسنة ١٨٠٤. قطاوي ١٩٣١. مصدر ذكر سابقاً.

من الوصول إلى الساحة العامة، لكن سرعان ما أجبرتهم مقاومة مماليك سليمان باي على التراجع، ولم يثبط هذا الإخفاق من عزيمته، إذ سيعيد الكرة أياماً بعد ذلك. وفي الخامس والعشرين من شهر آذار يتمكن من إحكام قبضته على المدينة التي عدها المماليك شارع مصر العليا الكبير، ومركز مدفعيتهم ومخزناً لتموينهم. سيمكن سقوطها إذن من فتح قنوات التواصل مع وادي النيل الأعلى وتزويد القاهرة الجائعة بما تحتاج إليه.

وكان هذا بمثابة نصر كبير يضعف وضعية البايات، ويمدد من حركة حكومة خورشيد، ويرفع القيمة الشخصية لمحمد علي.

ويشرع خورشيد خلافاً لمن سبقه في استشعار الخطر الذي يمثله ابن كافالا والألبان التابعين له، وهو ما بدأ الباب العالي يحسه أيضاً، «فيقترح» على محمد علي ورجاله ان يتركوا مصر مستعملاً في ذلك لغة دبلوماسية عالية «سوف تعلمون بحسب الوقائع أن فرنسا بفرض سيطرتها على مصر، جعلت الباب العالي يبذل تضحيات كبيرة في المال والرجال لاستعادتها، ومنذ ذلك الحين، يعمل رجال سيئو النية من بينكم على إعادة النيل تحت سيطرة المماليك. والباب العالي لايحملكم جميعاً مسؤولية هذا الخطأ. مهما يكن الأمر، فما مضى قد مضى، وجاء التسامح ليحمي المخالفات. ولهذا فإن الباب العالي يدعوكم للرحيل عن مصر والعودة إلى بيوتكم رفقة الألبان الشجعان. هل يمكن أن ترفضوا الالتحاق بأسركم التي تشرع أحضانها لاستقبالكم؟ فلتتأكدوا من أن النسيان قد طوى ما جرى من أحداث سابقة، وأنه لن تكون هناك أية متابعة لما حدث لنائب الملك خسرو باشا. ولايشك الباب العالي مطلقاً بأنكم ستسارعون إلى الاستجابة لتدابيره الطيبة بشرف، وتنفيذ أوامره بالطاعة التي يستحقها»[1].

ستبقى أمنية الباب العالي حبراً على ورق.

---

(١) فرمان موجه إلى محمد علي وإلى العديد من القادة العسكريين في السادس والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٠٥. أنظر ريني وقطاوي (مصدر ذكر سابقاً). باريس، ١٩٥٠.

ولإحلال التوازن في القوى، يقرر خورشيد إذن أن يأتي بقوات من المرتفعات. وكانت هذه المليشيات التي تضم في غالبيتها الأكراد، تتمتع داخل الجيش العثماني بسمعة عظيمة حتى أطلق على أفرادها «الدلهيون[1]» أي «المجانين». وهكذا سيدخل أربعة آلاف منهم إلى القاهرة في التاسع والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٠٥، وكان لهذا التدبير أن يكون مربحاً لولا أنه بمجرد دخولهم إلى العاصمة سيجلبون على أنفسهم سريعاً سخط الشعب بسبب سوء نظامهم وإذايتهم للناس. ويشهد دروفيتي في رسالة بتاريخ الحادي عشر من شهر نيسان بالقول «وصلت إلى القاهرة أيضاً كتيبة مؤلفة من ألف وخمسمائة فارس دلهي. وبدأت المدينة تشكو من وجود هذه القوات التي لم يكن أفرادها أكثر نظاماً من الألبان، إذ تسببوا لحد الآن في العديد من حوادث الإخلال بالنظام[2]». ويوضح «ولن يكون مفاجئاً أن يفجر محمد علي الذي لاينتظر جزاءً من الباب العالي، مشاعره بهذه المناسبة». وهذا ما أصاب فيه، فسيقوم ابن كافالا أخيراً بتنفيذ خطته.

ففي أواسط شهر نيسان يجمع الألبان التابعين له، ويقصد العاصمة تاركاً المنيا. وفي الحادي عشر من الشهر نفسه يُسجل مروره في بني سويف إذ يكتب دروفيتي دائماً في السادس عشر من شهر نيسان «سيظلم مجدداً أفق هذا البلد التعيس، وستتلبد سماؤه بالغيوم الثائرة المتجهة إلى العاصمة. ذلك أن محمد علي وكل الألبان الموجودين تحت إمرته، غادروا مصر العليا، وهم يزحفون إلى القاهرة بذريعة مطالبة الباشا برواتبهم المتأخرة. ومع جهله بمشروع الرجل الطموح والمدبر، فإن الباشا اتخذ تدابير عسكرية، فقام بنقل كل المدفعية المتفرقة في المدينة إلى القلعة، واتخذ ألفاً وخمسمائة عثماني وألباني مواقعهم

---

(١) كان سلاحهم يتكون من سيف ومسدسين، وبندقية خفيفة. وكانت رؤوسهم تغطى بأسطوانات من اللبد الأسود، مرتفعة بعشرة أصابع، وتربط حواشيها وتثبت إلى الرأس بعمامة من القماش تلف حول رؤوسهم.

(٢) إلى تاليران. دوان، ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

في طورة، وعززت حامية الجيزة، واستقر الدلهيون في مصر القديمة. ويجهل الموقف الذي سيتخذه السكان إزاء هذا الوضع. وبما أن الباشا غير أكيد من نواياه، فإنه يبقي لديه كرهينتين كل من الشيخ عبدالله الشرقاوي، وسليمان الفيوم»[1].

وفي انتظار ما سيحدث، يستغل البدو الاضطراب الذي يعصف بالعاصمة ليعيثوا فساداً في مصر السفلى. وجعلوا من محافظة البحيرة جنوب الإسكندرية هدف غاراتهم الرئيسي. ولايكتفون بالاستيلاء على المحاصيل السنوية للفلاحين التعساء فقط، بل ينهبون مواشيهم وجمالهم ودوابهم، في حين يتابع المماليك غاراتهم على مصر العليا ويقفلون مداخل العاصمة.

ويكتب دروفيتي إلى تاليران «ازدادت التجاوزات إلى ما لا حد له، ولايجرؤ أحد، حتى ولو كان مسلماً، على الخروج إلى شوارع القاهرة وفي طريق مدينة بولاق مرفأ المدينة البئيس، وذلك خوفاً من التعرض إلى السلب أو القتل. وتسود العاصمة فوضى عارمة، ذلك أن الجنود سجنوا ضباطهم ورؤساءهم، وهم ينهبون كل ما يجدونه أمامهم، في الطرقات والدكاكين وحتى في البيوت. ولم يعد للباشا أي سلطة، وهذا الوضع بلغ مرحلة سيئة جداً، حد أنه لايمكن أن يستمر طويلاً»[2].

ويعسكر محمد علي في الرابع عشر من شهر نيسان تحت أسوار طورة. ويتظاهر أفراد قواته بأنهم لم يحضروا إلا للمطالبة برواتبهم، وهو ما جعل الدلهيون لايقابلونهم باي مظهر من مظاهر العداء. وفي التاسع عشر من الشهر ذاته، يدخل مرفوقاً بقواته إلى العاصمة، ويستقر في بيته بالأزبكية في مركز القاهرة. وفي اليوم نفسه، يوجه إنذاراً إلى خورشيد بتأدية رواتب الجنود الألبان التابعين له، وتشتد الأزمة، فيتعهد خورشيد بتأدية ألفي بورصة في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

أقرب الآجال. ويكتب دروفيتي إلى تاليران بتاريخ الثالث والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨٠٥ «منذ دخول محمد علي إلى القاهرة بدأ سوء التفاهم بينه وبين صاحب السمو خورشيد باشا يتفاقم، ولم يتبادلا لحد الآن الزيارة. ويطالب محمد علي بكشف حساب كل ما دخل إلى الخزينة منذ تولي الباشا الحكم. ويطالب أيضاً بجعل كيايا باي وصالح آغا قائد قوات القلعة على رأس الجيش في مصر العليا بينما يظل هو في القاهرة. هناك ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف جندي يطالبون برواتبهم بإصرار. الدكاكين مقفلة، ولاأحد يجرؤ على مغادرة بيته، ويبدو أن محمد علي يتمتع بتأثير كبير على الجيش والسكان، فبالرغم من أن الباشا دعى الأعيان وكل المدينة بعدم التوجه لرؤيته إلا أنهم فعلوا ذلك[١]».

ويكتب في الثامن والعشرين من شهر نيسان «وعلى الرغم من الترتيبات التي اتفق عليها صاحب السمو خسرو باشا ومحمد علي، إلا أن مجرى الأمور لم يكن لصالح سموه. فالألبان المستاؤون من الدفعات التي قبضوها، يطالبون بصوت عال بمبالغ ضخمة يستحيل دفعها لهم. ويبلغ ادعاؤهم إلى اثني عشر ألف بورصة. وعندما قدمت لهم توضيحات بأنه يستحيل على الخزينة العامة أن تدفع مبلغاً مماثلاً طالبوا المكلفين بالمالية بكشف حساب عن نفقات الميري[٢] الخاصة بتسديد رواتب الجيش[٣].

(. . .) لايبعث الوضع الحالي للقاهرة على توقع مستقبل هادئ، والاطمئنان تماماً. يجب نسيان أن محمد علي تطلع دوماً لباشوية القاهرة، وأن كل العمليات التي اضطلع بها لصالح الباب العالي حملت بصمة طموحه إلى السلطة العليا».

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ضريبة عقارية.

(٣) دوان، ١٩٢٦ (مصدر ذكر سابقاً).

ويحدث تطور جديد في بداية شهر أيار من سنة ١٨٠٥، إذ سينزل خورشيد باشا من القلعة[1] ويقصد المدعي العام من أجل عقد الديوان، فيقرأ أحدهم فرماناً من الباب العالي يقضي بمنح محمد علي باشوية جدة، ويأمره بقتال الوهابيين المتمردين. وكان هذا الفرمان بين يدي خورشيد باشا منذ ما يقارب الشهرين، وقد تركه مخفياً، وأذاعه كورقة يستفيد بها لإبعاد محمد علي نهائياً عن مصر.

ومع أنه كان يعلم أن الترقية بمثابة فخ نصب له، إلا أنه قبل بمنصبه الجديد، وبدا عازماً على تنفيذ ما يقتضيه ذلك. فالسلطة أضحت في متناول يده، وما عليه إلا أن يمسك بها وأن يتأكد ألا أحد يستطيع نزعها منه. وإذا ما كان يتوجب عليه الذهاب للجزيرة العربية لقتال الوهابيين فذلك سيحدث فيما بعد، أي حين يقرر متى.

وتدور حفلة التعيين في بيت السيد آغا في جو هادئ في ظاهره، لكن وما إن رفعت الجلسة وأخذ الباشا الجديد يهم بالعودة إلى بيته حتى تلتف حوله ميليشيا ألبانية، تطالب عناصرها، دوماً وأبداً، برواتبها المتأخرة. غير أن محمد علي، الرائق المزاج، يشير إلى خورشيد بسبابته ويقول «ليس لدي أية سلطة، إقصدوا سموه الحاضر معنا هنا». ودون أن يضيف شيئاً، يترك الإجتماع قاصداً الطريق المؤدية إلى بيته في الأزبكية حيث يشرع في توزيع قطع ذهبية وفضية في سخاء مؤثر. ومنذ ذلك الحين، لم يعد الشعب ينظر لأحد سواه.

وفي بيت السيد آغا، تتمكن الميليشيا الألبانية من خورشيد وتتهمه مباشرة بتحويل أموال الخزينة العامة إلى مصلحته. لم يختلف إثنان من أن هذا التمرد كان من تدبير محمد علي وحسن باشا الرئيس الآخر للألبان، الذي سينجح في إبعاد الألبان الغاضبين عن خورشيد وتمكينه من العودة إلى بيته في القلعة بعد

---

(١) بحسب جبارتي، فإن محمد علي رفض التوجه إلى القلعة لينصت إلى أمر تنصيبه، وكان داعيه إلى ذلك بلا شك، حذره.

أن أخذ منه وعداً بالقيام بالمستحيل من أجل دفع مستحقات الجنود المتأخرة. وكما ليعبر عن حسن نيته، استدعى خورشيد في اليوم نفسه المحروقي وجورج جورجس (الجواهري)، وفرض عليهما أداء مبلغ ألفي بورصة، ولكن المبلغ لم يكن إلا نقطة في محيط، وظل التواتر يتصاعد.

ويكتب دروفتي إلى تاليران بتاريخ الثالث من شهر أيار لسنة ١٨٠٥ «لم تصلنا أخبار من القاهرة منذ إثني عشر يوماً، ويقال بأن هذه العاصمة أضحت فريسة لكل أشكال الفوضى. وما من أوروبي يجرؤ على الخروج من بيته. والجنود يرتكبون فيها الخروقات دون أن يعاقبوا[1] ».

ويشير إلى أنه في الخامس من الشهر ذاته يلاحظ بعض الهدوء يبدو في الأجواء، ولكنه يحكم عليه أنه هدوء خادع إذ يكتب «راجت أخبار تتحدث عن أن صاحب السعادة جانب أفندي، رئيس الخزينة العامة لمصر، رفقة الشيوخ الرئيسيين اقترح الوساطة بين سمو الباشا ومحمد علي اللذين لم يستطيعا أن يتقابلا لعدم وجود المكان المناسب لذلك لهما معاً، وأنهما التقيا أخيراً في بيت صاحب السعادة، ووضعا شروطاً للمصالحة وذلك بتعهد الباشا بدفع نصف مستحقات الجنود الألبان لفترة سبعة أشهر في حين على محمد علي أن يلتزم من جانبه بتوزيع جنوده في مصر العليا وأن يبقي على جزء من جنوده في القاهرة ليزحف بها على العرب الذين يسممون أجواء مصر السفلى».

وعلى كل حال، فإن القنصل يبدو مقتنعاً بأن محمد علي يقترب أكثر من العرش. فنجده يكتب من اليوم الموالي «على الرغم مما يروج هنا من أن ثمة مصالحة نهائية تمت بين صاحب السمو خورشيد باشا ومحمد علي، إلا أن الوضع الحالي يحتم عليّ أن أطلب من سعادتكم إطلاعي على التعليمات التي ينبغي علي تتبعها إذ ما استولى محمد علي على السلطة، أو في حال قيام ثورة أخرى تحرم ضباط الباب العالي من السيادة. اعتقدت أن عليّ طلب الشيء

---

(١) دوان، ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

نفسه من القائم بالأعمال في الآستانة، ظاناً بأن ظروف وضعه ستمكنه في حال الضرورة من مدي بأوامر مؤقتة في انتظار أوامر سعادتكم».

نحن مجبرون في هذه القضية على الاعتراف بجدارة دروفيتي خاصة أن فرانس تاليران امتنع عن إعطائه أي تعليمات. وبما أن نابوليون كان مستنزفاً في حربه ضد القيصر، فإنه لم يرد أن يغامر بإغضاب العثمانيين. فيوصي سيباستياني الذي كان سفيراً له في إسطانبول بكسب رضى الباب العالي، وبالتزام الحذر في كل ما يتعلق بمصر. وينتهي دروفيتي إلى تحذير تاليران أيضاً حين يكتب له: «ترى أن أوضاع مصر الحالية تتوجب مدك بتعليمات في حال استولى محمد علي رئيس الألبان، على السلطة، أو في حال قيام ثورة أخرى سيحرم ضباط الباب العالي من السيادة، فإن صاحب الجلالة الإمبراطور والذي أعلمت بنواياه، يريد أن تبقى في مكانك مهما حدث من تطور وأن تستمر في التعامل بشكل جيد مع أية سلطة تتولى مقاليد الحكم.

والواقع يا سيدي أن المبادئ المعترف بها في الشرق ومنذ القديم، تمنع الوكلاء التجاريين من التدخل في الأمور السياسية بأي حال من الأحوال. ولما كان الوكلاء التجاريون غرباء عن كل ما يمت بصلة لما هو سياسي، فهم يختلفون بشكل جذري عن الوكلاء الدبلوماسيين. فالسلطة العمومية لاتهمهم إلا من جانب الربح أو الخسارة الذي ستمس به تجارتهم. وهم ينظرون إلى كل سلطة على أنها شرعية، مهما كانت اليد الممسكة بها، مادامت لاتسيء إلا وكالتهم أو إلى التجارة التي تحميها تلك الوكالة. وعليهم أن يستعدوا لكل التحولات في الإدارة، لأجل هذا عليهم أن يتحلوا بالحذر الشديد. وفي كل الأحوال، هناك قاعدتان أساسيتان لاينبغي لهم أن ينحرفوا عنها:

فالأولى ألا يعترفوا بالسلطة إلا بعد أن يحدد النصر مصير البلد، والثانية ألا يتركوا مراكزهم مهما يحدث من ثورات. هذه هي التعليمات التي أمرني صاحب الجلالة الإمبراطور بنقلها لكم، والتي عليكم أن تجعلوها متوافقة مع تحركاتكم[1]».

---

(١) المصدر السابق.

أما خورشيد فقد كان يحتضر. فإزاء استحالة الحصول على الموارد الضرورية من الميري، أو من ضريبة الملح، أو من المساهمات الاعتيادية، أعلن أنه يتعين على العاصمة أن تغيثه. وهي طريقة مراوغة لإعداد السكان لضرائب جديدة لاأقل ولاأكثر. وهو ما أدى إلى استنكار شديد وغيظ وغضب، واستعراض للقوة في حين استمر الدلهيون في أعمال السلب. وأوقف التعليم بالأزهر وأغلقت الأسواق والمتاجر احتجاجاً. وبدا أن الناس لاينتظرون إلا إشارة من الشيوخ لينقضوا على رجال الباشا.

وكان ابن كافالا يصفق لما يحدث في الظل. ذلك أن ساعات خورشيد أضحت معدودات. وبعد أحداث العاشر من الشهر نفسه كتب دروفيتي «مهما يكن الأمر، فقد تمكن صاحب السمو الباشا من الفرار إلى القلعة، فلا شيء يشي بإمكانية بقائه في حكومة مصر التي عليها أن تناضل ضد رجل طموح وبتدبير كبير، وله قدرة كبيرة على التحايل إضافة إلى أن الرأي العام يقف إلى جواره، زد على امتلاكه لقوة السلاح. فهذا الرجل الماهر عرف كيف يستميل إليه الشيوخ والسكان على حد سواء، وذلك بجعلهم يعتقدون أن سبب الأزمة الاقتصادية، وبالتالي الاضطرابات التي تهز القاهرة، ناجمة عن سوء الإدارة. ويريد إشاعة الاستياء ويفسح الطريق لوصوله إلى العرش دون أن يبدو أنه يسعى إليه. هو يملك الآن تعاطف السكان الأصليين، وليس عليه إلا أن يظهر نواياه المخفية لتتحقق. ولكنه ميكيافيلي يريد أن يحمل إلى السلطة من طرف الشعب، محاولاً ليس فقط الحصول على دعم الشيوخ والسكان، بل وأن يبدو كحاجة ضرورية ولاغنى عنها بالنسبة للحكومة التركية».

ولتهدئة الاضطرابات، يرسل خورشيد كيايا وآغا الانكشارية فيستقبلان برشق الحجارة. ويجلسان معاً، فيما يشبه المحادثات مع الشيوخ الذين يمنحون للباشا ثلاثة أيام لإخراج الدلهيين من المدينة.

وتنقضي الأيام الثلاثة دون أن يخرج الدلهيون، أو أن يبدو عليهم أنهم يستعدون للمغادرة. أما محمد علي، فيعلن صراحة بوقوفه إلى جانب العلماء

والشعب، ويمنع جنوده منعاً قاطعاً من أن يقوموا بإذاية الشعب.

وهكذا وفي ليلة الثاني عشر إلى الثالث عشر من شهر أيار، يلجأ القضاة والشيوخ والعلماء إلى بيت محمد علي بعد أن بدا لهم أن الباشا يستعد للقضاء عليهم، فيعلنون صراحة وبقوة:

ـ فاض الكيل! نريد أن نخلع نائب الملك.

ويسألهم نائب الملك المقبل، بكثير من الحياء بدون شك:

ـ ومن تريدون أن يحل محله؟

ويأتيه الرد بدون مواربة:

«بالنظر إلى الكرم والعدل اللذين أظهرتهما أعمالكم نحو الشعب، فإننا لانفكر في غيركم. ستكونون الحاكم وسنخضع لشروطكم».

ويتظاهر محمد علي برفض هذا الشرف مزكياً كونه استراتيجياً محنكاً، ومدعياً بأنه غير كفء لهذا المنصب. ويصر العلماء. ولن يدوم إصرارهم ذاك طويلاً، إذ أنهم وفي الساعة التي ستعقب ذلك، سيحضرون عباءة مبطنة بالفرو وجلباب، ويقوم سيد عمر مكرم، نقيب الأشراف بمساعدة الشيخ الشرقاوي بإلباس نائب الملك في مصر الجديد[1].

ويتعهد محمد علي رسمياً بأن يحكم بالعدل واحترام حقوق الشعب المصري وألا يأخذ أي قرار دون العودة إلى العلماء. بل إنه يضيف أنه إذا ما أخلف شيئاً من وعوده فإن لهؤلاء العلماء أنفسهم الحق في عزله. وإذا ما أعاد أحدهم التفكير في هذا المشهد، فإنه لن يستطيع منع نفسه من الضحك. فأي سذاجة كانت لدى فقهاء القانون هؤلاء! هل صدقوا بالفعل ما قاله ابن كافالا؟

وما أن يعلم خورشيد بخبر تعيين مرؤوسه حتى يبادر في حركة مقاومة أن

---

(١) حول تاريخ تعيين محمد علي، أنظر جون دوني (مصدر ذكر سابقاً). وتاريخ الثامن عشر من شهر حزيران الذي قدمه جبارتي هو في الحقيقة تاريخ الفرمان المرسل إليه من إسطانبول، ويخلص دوني إلى أن اختيار العلماء لمحمد علي من المرجح أنه حدث في الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر أيار، أو على أكثر تقدير في السابع عشر منه.

يقول مزدرياً «عينت من قبل السلطان، ولن يعزلني هؤلاء الفلاحون![1]»

ولم تصدر عن محمد علي أية ردة فعل، ويترك للعلماء حرية التصرف. ولما كان خورشيد يرفض قرارهم يقرروا أن يكتبوا للإستانة آملين أن يحصلوا على موافقة السلطان على اختيارهم.

وكان الحدث يشكل استثناءً. فلأول مرة في تاريخ مصر يختار رجال الدين والأعيان من أبناء البلد قائدهم ويتدخلون بصفة مباشرة لدى مستعمرهم لصالحه. هي المرة الأولى التي يبدو أن المصري يملك مصيره. ياله من خيال!

وفي انتظار ذلك، ينصب الشعب الذي وصله الخبر، الحواجز. ويتسلح أبناؤه بقدر ما يستطيعون استعداداً للمواجهة مع خورشيد. ويثير تنصيب «الفرعون» الجديد آمالاً كبيرة. ويقوم بعض الأهالي ببيع ثيابهم لشراء سكين أو خنجر أو بندقية. ويجوب الزعيم المحترم جداً عمر مكرم شوارع العاصمة وذلك لتحفيز الناس، فينتج عن ذلك ترك جنود خورشيد لرئيسهم وتخليهم عنه لمواجهة مصيره لوحده، وتصير ثكنته في غضون أيام قليلة خاوية على عروشها. ويكتب دروفيتي أن القاهرة تعرف في هذه اللحظة «الحماسة نفسها، والحمى ذاتها التي سادت في فرنسا في اللحظات الأولى للثورة».

وقد تبدو المقارنة هاهنا ضرباً من ضروب المبالغة إلا أنها ليست كذلك. فلأول مرة ومنذ الاحتلال الفارسي والروماني واليوناني والعربي يصير للشعب كلمة الفصل. إذ يتوحد فقهاء القانون، ووجهاء صالحون حول جعل أفراد الشعب يتطلعون إلى أفق يتسم بالعدل والإنصاف. ويظن رجل الشارع العادي أن تعيين محمد علي من قبل العلماء سيكون بداية نهاية الاحتلال التركي، وبالتالي نهاية الظلم والاستبداد.

ويمضي أكثر من شهر دون أن يجد جديد. فيقرر محمد علي أن يحاصر

---

(١) جبارتي. (مصدر ذكر سابقاً).

القلعة التي يتحصن داخلها خورشيد. ويرفض الألبان المشاركة في المعركة ما لم تدفع لهم مستحقاتهم. وهكذا، وبطرقة عفوية، يعوضهم أفراد الشعب في الحواجز، وتبدأ النساء والأطفال المسلحين بالحجارة بأخذ مواقعهم في الشرفات، ويشرعون في مهاجمة جنود خورشيد حيثما تواجدوا. ويفشل قائدهم في إيجاد مخرج يفر منه.

ولايفكر برناردينو دروفيتي إلا في مصالح فرنسا فيقلق من كل تقارب بين الألفي باي، حصان طروادة الإنجليزي وبين نائب الملك الجديد. ويتساءل أيضاً عن موقف الباب العالي من التعيين المفاجئ لمحمد علي، فيكتب في العشرين من شهر أيار إلى تاجر فرنسي يدعى فيليكس مونجان[1] «هذا هو الوقت الذي يلزمكم التحلي بالمهارة والحذر لتقفوا بين الطرفين دون أن تصدموا أيا منهما. ويشاع هنا أن الألفي باي متفق مع محمد علي وأنه سيدخل القاهرة قريباً إن لم يكن قد دخلها فعلاً. يتعين عليك مقابلة محمد علي وجره إلى شرح هذا الأمر. فإذا لاحظت أن محمد علي عازم على الرفع من قيمة الألفي، ابذل كل جهدك لجعله يتراجع عن هذا الأمر. أشعره أنه إذا رفع البايات سيذهب حظوته لدى الباب العالي في حين يمكن أن يحفظ علاقته معه بذكاء مادام قد تسلم السلطة برضى الشعب. أفهمه أيضاً أن جيشاً فرنسياً يمكنه أن يعود إلى مصر، وأن الباي صديق الإنجليز ومن يحمونه لن يعرفوا أوقاتاً سعيدة. وأعلمه أن صاحب الجلالة إمبراطورنا على علم بإخلاصه وتفانيه للأمة الفرنسية وأنه من اللائق له أن يلتزم بكل التصريحات التي أدلى بها سلفاً أمام المفوض العام ليسيبس.

لابد أنك أدركت أننا انتصرنا حين انهزم الألفي. وقد ينتصر الإنجليز الآن إذا

(١) كان ممثلاً للقنصلية العامة في القاهرة مرتين، في البداية كممثل للإمبراطورية، ثم في مرحلة عودة الملكية أثناء حكومة شاتوبريون. نتوفر على وثائق قليلة من توقيع مونجان، لكن معظم الأخبار المرسلة من قبل دروفيتي حول الأحداث التي كانت القاهرة مسرحاً لها حتى القضاء على المماليك، كانت من صنع هذا الموظف المساعد.

ما قبل هذا بالمشاركة في السلطة العليا. وسيكسبون في حكم مصر نفوذاً سيضر بنا. وعلينا أن نعمل على تفكيك هذا المشروع إذا ما وجد. وإذا ما بدا أن محمد علي متفاهم مع البايات، وهو ما أراه مستحيلاً، فعلينا أن نغير أسلوبنا وأن نتعاطى مع الأمر بكثير من الرعاية. لكن وقبل الخوض في غمار هذا الأمر كله، يتعين معرفة خطة محمد علي، وإعلامي بها حتى نقوم بما يجب وتقديم خطاب تتمكن بمساعدته من بدء الحديث مع هذا الباشا. وأعلمك أنهم كتبوا من هنا بالرشيد أن الألفي تناول العشاء معه ليلة عيد الأضحى، وأنه تم الاتفاق خلال حديثهما أن يجعل الألفي شيخ البلد حين يصير هو نائب الملك، وأن الخبر أفرح الإنجليز. حاول أن تعرف إذا ما كانت لهم مراسلات مع محمد علي، وما هي طبيعتها؟».

ويكتب دروفيتي في الثاني والعشرين من الشهر ذاته ودائماً إلى مونجان «تلقيت رسيلتك المؤرخة في الخامس عشر من شهر أيار. وأقدر الزيارة التي قمت بها إلى باشا القاهرة الجديد، لكن علي أن أكرر لك أنه يجب ان نتصف بالحذر في كل هذه المراسلات حتى نعرف كيف ينظر الباب العالي إلى هذا الانقلاب في السلطة وأن نتلقى التعليمات السامية. من الضروري أن ترى محمد باشا لإبقائه معنا، وحتى نتمكن من إفساد تآمر أعدائنا، لكن عليك أن تقابله بشكل غير علني ما أمكنك ذلك بطريقة حتى لاتزعج المسؤولين الرسميين لسيدنا العظيم».

من جانبه لم يسرع محمد علي من عملية الحصار. فهو لايريد أن يزيد من درجة السوء التي ينظر بها السلطان إليه، وهو ينتظر ثمار رسالة العلماء إلى الإستانة. وأخيراً وفي الثامن عشر من شهر حزيران لسنة ١٨٠٥، يرسل صلاح باي إلى القاهرة بمهمة تقييم الوضع هناك، والنظر فيما يتعين فعله، سواء الإبقاء على خورشيد أو تثبيت محمد علي. ولما كان خورشيد يرفض أي اتفاق فإن الوضع ازداد سوءاً حتى اللحظة التي يصل فيها كوتشوك إمبروخور، الفارس الثاني، بدوره إلى مصر. كان يحمل الفرمانات التي ينتظرها الجميع:

«إلى محمد علي، والي جدة سابقاً ووالي مصر منذ العشرين من شهر ربيع الأول. يوافق الباب العالي على اختيار العلماء لشخص محمد علي، ويعلن أحمد خورشيد باشا مقالا من مهامه. وإلى ذلك، يتعين عليه السفر إلى الإسكندرية مع كل الاحترام الواجب له. وهناك، عليه انتظار التعليمات التي ستوجه له، وتعيينه في حكومة أخرى[1]».

ويبدو أن الشعب غير مبال بالتطورات الجديدة، وغير مهتم باتوجيهات الجديدة المرسلة من الباب العالي. إذ يواصل قتاله. ذلك أن رحيل خورشيد لم يكن يعنيه، وإنما جلاء كل القوات العثمانية. وبكلمة واحدة، كان الشعب يريد استقلاله. وهذه النقطة كانت محط خلاف بين العلماء والوجهاء ورجل الشارع الذي لم يتفطن لحقيقة الأمر. ويبدو أن دروفيتي يدرك ما يتربص بالثوار «لم يكن يعرف سكان هذه العاصمة بدون شك، حكاية الضفادع التي طلبت من كوكب المشتري ملكاً لها، ولو أنهم عرفوا بها، لكانوا ربما حذروا من الرغبة في التغيير».

وبالسرعة التي تأكد فيها أمر مغادرة خورشيد، يجتمع العلماء ويقرروا أنهم لم يعد لهم من دور يقومون به في «صراع ربما كان من الأفضل لو ظلوا بعيدين عنه». ويقرروا منذ ذلك الحين أن يتخلوا بصفة قطعية عن أي تدخل في اللعبة السياسية. ويطلب شيخ الأزهر وزملاؤه من الشعب أن يوقفوا القتال فوراً وأن يعودوا إلى أنشطتهم. وفي الوقت نفسه، يجددوا دعمهم لمحمد علي. وأعلنوا أن على كل شيء أن يعود إلى مكانه الطبيعي. إنتهى كل شيء. ولكن ماذا؟ أتكون هكذا نهاية كل الأحلام؟ هكذا في محاولة تمرد عامي موؤودة؟ كل هذه الأرواح التي أزهقت من أجل لاشيء، من أجل عودة مصر إلى الوضع الذي كان قبل ذلك الربيع الفريد؟ والمحتل إذن؟ والاستقلال؟ ومع ذلك، فالعلماء يصرون في طلب العودة إلى النظام، وليس للشعب إلا أن يعود للنوم على

---

(١) جبارتي (مصدر ذكر سابقاً).

أوهامه. في النهاية، هذه ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة. والحقيقة أن هناك بعض الكيخوتيين الذين يرفضون أن يضعوا السلاح، ويحاولون أن يستمروا في القتال... بل إن أصواتاً ستنطلق في سب المشايخ ونعتهم بالجبن. لكن سرعان ما سيقضى على جيوب المقاومة هذه.

لكن لماذا هذا التغيير المفاجئ في موقف العلماء؟ الجواب سهل جداً. فحرصاً على امتيازاتهم والأملاك الموقوفة لرجال الدين منعهم من المغامرة في ثورة حقيقية مثل تلك لسنة ١٧٨٩. إذ أن ذلك كان يعني المخاطرة بمستوى حياتهم الرفيع. أم الوجهاء والتجار منهم خاصة، فلم يكونوا ليتمنوا شيئاً غير عودة الأمن إلى الطرقات، وحرية مرور القوافل. وكان على التجارة أن تنشط من جديد مهما كلف ذلك من ثمن. وكما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً، فالناس الذين قادوا الفلاح إلى القتال في ربيع سنة ١٨٠٥ لم يكونوا يتمتعوا بأي تقدير أو احترام. فباستثناء عمر مكرم، لم يكن الشرقاوي أو حتى الشيخ السادات يعتبران كحاملين لمثل أعلى أو قادرين بحمل أي شعب نحو النور. ولم يكن يهمهم أن يكون محمد علي أو آخر غيره قادراً على تحقيق أمانيهم.

ولما وجد خورشيد أنه فقد دعم السلطان، مثلما تخلى عنه رجاله، يرغم على الاستسلام، ومع ذلك وضع بعض الشروط التي تمثلت في ألا يرغم على تقديم أي كشف عن الحسابات المالية، وأن يتمكن من الإقامة بكل أمن في بيت حسن باشا. وأن توضع تحت تصرفه المراكب والجنود والمؤن الضرورية ليرحل إلى الإسكندرية. وأخيراً يفرض أن يدفع لرجاله مؤخر رواتبهم أي حوالي ٥٠٠ بورصة. وقد تم تجميع المبلغ بالفعل، وفي السابع من شهر آب، يصعد الوالي المخلوع رفقة أسرته النهر إلى مرفأ بولاق. وفي الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول تأخذه فرقاطة إلى الإسكندرية[1]. وتحدد ورقة بخط يده

(١) رقي فيما بعد إلى باشوية حلب، وطرد منها أيضاً من قبل الأهالي، وانتهى برأس مفصولة.

تركها ساعة سفره «أترك خلفي رجلاً سيصير أكبر متمرد في الإمبراطورية. لم يكن سلاطيننا قط في يوم من الأيام بمثل حيلة هذا الرجل المتقد النشاط[1]».

(١) موريز (مصدر ذكر سابقاً).

[5]

الأسد البريطاني والثعلب الألباني (١٨٠٦ ـ ١٨٠٧)

كان يوم الثاني عشر من شهر أيار لسنة ١٨٠٥ حاسماً في تاريخ محمد علي، إذ أنه اليوم الذي شرع فيه في القيام بمهامه على رأس حكومة مصر التي سيبقى على رأسها لأربع وأربعين سنة متتالية.

ذلك أنه أدرك ما عد مستحيلاً، مجابهاً الكل وضد الكل. بيد أن المصاعب التي تنتظره كثيرة وعظيمة. فالبلد الذي يتسلمه أفلس وانقضت عليه الفوضى. ومصر العليا تحت سيطرة المماليك. والقوافل تتعرض للنهب باستمرار من قبل البدو. وسلطته محصورة بين أسوار القاهرة وفي مصر العليا. والإسكندرية يحكمها ضابط مفوض من قبل السلطان. وحتى العاصمة نفسها مهددة بانقلاب الجنود غير المنضبطين لأي نظام في حال تأخر وصول رواتبهم.

وهكذا يلفي محمد علي نفسه إزاء مشكلاتين كبيرتين وآنيتين، تمثلتا في الحاجة إلى المال والمماليك. وخارج القاهرة حيث إن سلطته معترف بها ومحترمة بيد أن قوته إسمية فقط. أما السلطة الفعلية فما تزال بحاجة إلى من يسعى إليها ويمسك بها. وخلال الأشهر الستة الأولى، يسعى إلى تلطيف الأجواء، والاستجابة للحاجات اليومية مادام أن نوايا الباب العالي كانت ترمي إلى منع الهدوء عن مصر وحرمانها من التقاط أنفاسها. ويكفي استعراض

الفرمانات التي تستمر في الوصول إلى القلعة ليلاحظ أن «إلى محمد علي باشا ودفترداره، وإلى أحمد رئيس الجمارك في الإسنكدرية والرشيد، وإلى عثمان الحاكم العسكري للإسكندرية.

صدر الأمر بإرسال على وجه السرعة الكمية الجاهزة من أصل ثلاثمائة ألف كوك من ملح البارود التي يجب على مصر أن تسلمها سنوياً إلى ترسانة إسطانوبل، والتي كما لاحظ طاهر نائب مدير صناعة البارود الإمبراطوري يجب أن تتوفر دوماً في عمل البارود بكمية كبيرة على اعتبار أنها عنصراً أساسياً في المسحوق المعد للمدافع[1]».

وبطريقة بسيطة جداً إلى محمد علي باشا ودفترداره:

«أكد تخصيص راتب يومي قدره خمس عشرة بارة إلى جوالي مصر الشيخ حسن بن عبد الرحمان من المدينة، باعتبار ضياع المرسوم المتعلق بهذا الأمر[2]».

ويجلب نائب الملك إلى جواره ابنيه إبراهيم وطوسون منذ نهاية شهر آب. واكن ابنه الأول يقارب عامه السابع عشر في حين بالكاد يبلغ ابنه الثاني اثنتا عشرة سنة. ويعين إبراهيم فوراً حارساً للقلعة، وهنا حول هذه النقطة تختلف الآراء فقد أكد مورييز وكذلك بانكس بأن طوسون هو من تم تعيينه، بيد أنهما معاً لم يكونا يعيشان في القاهرة في ذلك الوقت. بالمقابل يذكر جبارتي إسم إبراهيم، إضافة إلى ذلك، من الصعب جداً تخيل محمد علي يعين طفلاً حتى ولو تعلق الأمر بابنه المفضل، في الثاني عشرة من عمره في منصب حساس. في حين أن إبراهيم لم يكن يكبره إلا بأربع سنوات.

وإلى ذلك، يتوجب على محمد علي ملء الخزينة على وجه السرعة. ولم

---

(١) مجموعة فرمانات الإمبراطورية العثمانية الموجهة إلى ولاة وخديويي مصر ما بين سنتي ١٧٩٧ و١٨٠٤، جمعت بأمر من صاحب الجلالة فؤاد الأول، ملك مصر (إدارة الأملاك الخاصة والقصور الملكية).

(٢) المصدر نفسه.

يكن للمماليك أو للحكام الآخرين أي طريقة أخرى لتحصيل الأموال عدا الضرائب

النظامية، إلا مصدرا استثنائياً آخر تمثل في في الابتزاز، وهو الوسيلة لتحصيل الأموال في حالات الضرورة القصوى. ودون أن يحيد محمد علي عن نهج من سبقه، يعمد خلافاً لسابقيه، إلى تحميل العبء الأثقل لهذه النفقات إلى الأقباط الذين كان الشعب يكرههم بقدر ثرائهم المحصل من ضرائب الأقباط. ويحذر مؤقتاً مادام لم يثبت دعائم سلطته بعد، أن يمس مصالح الشيوخ الكبار من ذوي النفوذ أو التجار الأوروبيين، على نحو ما قام به البرديسي والآخرون وتسبب في ضياعهم. ويشرع في البداية في فرض ضرائب على تجار القاهرة من المسيحيين المحليين. بعد ذلك بقليل، سيأمر بالقبض على مدير المالية القبطي جورجس الجواهري ويلقي به في السجن متهماً إياه بتحويل أربعة آلاف وثمانمائة بورصة لحسابه الخاص. ويفرض على تجار الرشيد وتجار القاهرة من جديد مبالغ مهمة. وفي النهاية، تطال ضرائبه الصناع والوازنين العموميين وتجار الخشب والسمك المملح والمزارعين.

وما إن ينتهي من حل المشكل الأول، حتى يحاول القضاء على المماليك، منافسيه الوحيدين المتبقين. ويركز كل جهوده عليهم. ويبدأ في جر بعض البايات في التاسع عشر والعشرين من شهر آب إلى فخ في القاهرة. فيهلك منهم عدد كبير، وتفر غالبية من نجا إلى مصر العليا، ويلتحقوا بأنصارهم هناك. ولما حاول بعض السجناء، حوالي ثمانين سجيناً، أن يفروا يأمر بقطع رؤوسهم، ومن بينهم خمسة فرنسيين لايعلم كيف أقحموا في عداد الضحايا، وكانوا من بين أفراد جيش الشرق التحقوا بصفوف المماليك. ولم يملك دورفيتي الوقت ليتدخل لصالحهم.

ويقود محمد علي الألبان في عمليات قتال حقيقية. ويخرج أحياناً على رأس القوات وأحياناً كثيرة يتقدمها حسن باشا لكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً. حتى إن حسن باشا هزم من قبل محمد الألفي الذي عاد ليظهر في مصر السفلى. ولم

تحقق المفاوضات مع البايات الذين أخذوا يضعون شروطاً أكثر تعجيزية من أي وقت آخر، أي تقدم. ومقابل رضوخه، يطالب الألفي بالفيوم وبني سويف والجيزة والبحيرة إضافة إلى العائدات المالية لمائتي قرية. وكان لباقي البايات مطالب مبالغ فيها أيضاً وهو ما يدفع محمد علي إلى رفضها رفضاً قاطعاً. وتستمر الحرب إذن، وفي شهر نيسان من سنة ١٨٠٦ يعسكر الألفي قرب دمنهور.

وفي ربيع السنة ذاتها، يصبح وضع نائب الملك أكثر حرجاً من أي وقت سابق، فقد قرر الباب العالي أن يخلعه من منصبه استجابة للضغوطات الإنجليزية. لم يكن القرار مفاجئاً. فإذا ما اعترفت السلطات التركية سنة ١٨٠٥ بالاختيار الشعبي لابن كافالا ففقط لأنها كانت في موقع ضعيف جداً لايسمح لها بمواجهته. ومنذ ذلك الوقت والإنجليز مدفوعين بعاملهم في الإسكندرية الميجر ميسيت، على العمل في السر في محاولة لإقناع السلطان الأعظم على أن محمد علي لم يكن إلا دمية بين أيدي الفرنسيين، وأنه متمرد خطير يمكنه أن يضع الإمبراطورية كلها في خطر[١].

وتدافع حكومة سان جيمس على النقطة الأخيرة بالتحديد لدى السلطان. وتنجح في إقناعه بضرورة إعادة المماليك مع الألفي، صنيعتهم، إلى الحكم في مصر وجعله رئيساً للحكومة فيها. وتوضح أنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه لفترة أطول، فإن حكومة جلالته، وبعد أن تفقد كل أمل لها في دعم الآستانة، «ستجد نفسها مضطرة لاتخاذ التدابير الضرورية لضمان أمن إنجلترا».

أما من الجانب الفرنسي، فعلى الرغم من تحذيرات سيباستياني من تركيا، وليسيبس ثم دروفيتي من مصر، فإن تاليران الوفي لسياسته، يرفض أن تقحم

---

(١) كانت أيضاً فكرة السفير البريطاني في إسطانبول عندما راسل وزيره شارل جيمس فوكس بتاريخ السادس من شهر حزيران لسنة ١٨٠٦. من آبيثنوت إلى فوكس. ريني وقطاوي. (مصدر ذكر سابقاً).

فرنسا في القضايا المصرية. وهكذا فقد كتب منذ شهر أيار لسنة ١٨٠٦ إلى سيباستياني يذكره أنه منذ رحيل القوات الفرنسية ظلت مصر فريسة للحرب الأهلية، ويختم «اتركوا الأحداث تجري في البلد دون أن تتدخلوا فيها. وستتمكنون من إدراة أحداثها أحياناً انطلاقاً من المقاطعات الأوروبية[١]».

بيد أن بعض آثار تلك الفترة، حول قضية غريبة تدل على أن بونابارت، وخلافاً لما يمكن أن يُعتقد، لم يكن بتلك الدرجة من اللامبالاة نحو مصر.

فخلال شهر آذار الجاري من سنة ١٨٠٦ ينزل شخص إلى الإسكندرية يدعى علي باي العباسي[٢]، ويدعي بأنه حاج من مكة. والحقيقة أنه إسباني ولد في برشلونة ويدعى باديا كاستيو ليبليش. وهو واسع العلم ومتعاطف مع الفرنسيين. يمضي الصيف كله في الإسكندرية. ويحل في الثلاثين من شهر تشرين الأول إلى الرشيد، وفي العاشر من شهر تشرين الثاني يقصد القاهرة حيث يستقبل من قبل محمد علي شخصياً. وفي الخامس عشر من شهر كانون الأول يتجه إلى السويس، لكن وقبل أن يبحر باتجاه مكة، يتلقى زيارة من دروفيتي شمال قرية المطرية. ويصحب القنصل خمسة مماليك فرنسيين في خدمة نائب الملك. ولم يصدر أي شيء عن هذه المقابلة. وكان ابن كاتلانيا قد سجل العديد من المعلومات عن القوات الألبانية في الإسكندرية والرشيد والقاهرة، وتطرق بالتفاصيل إلى الأماكن التي مر منها. وهكذا يتوجه إلى مكة، ليتعرف عن قرب على الوهابيين الذين استولوا على المدينة المقدسة. وللإشارة فقط تكشف رسالة من تاليران مؤرخة في الفاتح من شهر تشرين الأول إلى السيد كورانسيز[٣] منذ ١٨٠٣، اهتمام نابوليون بهذه المنطقة إذ جاء فيها «يكلفني القنصل العام بأن أطلب منكم جمع كل المعلومات التي تستطيعون

---

(١) دوان ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) علي باشا العباسي. رحلات في إفريقيا وآسيا سنوات ١٨٠٣ و١٨٠٤ و١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧. ثلاثة مجلدات. باريس. المطبعة الملكية. ١٨١٤.

(٣) كان حينها مندوباً عاماً للعلاقات التجارية في حلب.

الحصول عليها بحماستكم الكبيرة، حول هذه الأمة (الجزيرة العربية)، ويتمكيني منها على وجه السرعة وباستمرار بمختلف الطرق[1]».

مهما يكن الأمر، فقد أنهى العباسي مهمته بانتهاء نوايا هؤلاء المتطرفين قبل الوقت المتوقع، فيعود إلى السويس ويستمر في مهمته في فلسطين وسورية.

من هو إذن هذا الشخص فعلاً؟ هل هو جاسوس لنابوليون كما يدعي الإنجليز ذلك[2]؟ وظن شاتوبريون الذي التقاه أنه ثري تركي مولع بالسفر ويعلم الفلك. لكن الشيء الأكيد هو أنه في شهر أيار من سنة ١٨٠٨، يقوم العباسي المزيف بلقاء الإمبراطور في بايون، ويعلن له أنه استطاع من خلال رحلاته أن يجمع معلومات كثيرة وخرائط ووثائق عديدة عن مصر والجزيرة العربية وآسيا الصغرى وأنها جميعها الآن موجودة في مدريد. فيأمر نابوليون ميرات بأن يحوز من فوره «كل تلك الوثائق حيث ستوجد بلا شك معلومات مفيدة». والواقع أن كاستيو أحد هؤلاء الأفرنسيسادوس أي الموالين للفرنسيين، دخل في خدمة فرنسا في فترة دخولها إلى إسبانيا. ولن تعرف علاقة سفره بالشرق إلا مع نهاية العهد الإمبراطوري، وهو ما يدل بدون شك على أن بونابارت كان يتحفظ على المعلومات حول مصر في عهد محمد علي ومسيرة الوهابيين[3]. لكن هل سنعرف الحقيقة كلها حول هذه القضية؟ فللتاريخ حياء أيضاً يشق اغتصابه...

وفي إسطانبول، تؤت الضغوط الإنجليزية على بلاط السلطان أكلها، ففي أحد صباحات شهر تموز من سنة ١٨٠٦ يحل بشواطئ مصر القبطان باشا حاجي محمد خليفة صالح باشا، مرفوقاً بثلاثة آلاف رجل، ومحملاً بفرمانات تقضي بأن يتبادل شخص يدعى موسى باشا منصبه كحاكم لسالونيك مع محمد علي،

---

(١) قطاوي. ١٩٣٧. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) جون موراي. كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «حكاية يوم في مصر وريف ما وراء الشلالات». لندن. ١٨١٦.

(٣) أنظر الكتاب القيم لأموري فيفر دارسيي باللغة الفرنسية والذي يحمل عنوان «رجال نابوليون في مصر». ١٨٠١ ـ ١٨١٥.

وأن يحل الأول مكان الثاني كحاكم في القاهرة. بيد أن هذه الفرمانات لم تثر نائب الملك، فيكتفي فقط برد يتهرب من خلاله من المواجهة الصريحة. لكنه يعلن في مجلسه الخاص وأمام أعوانه «فتحت مصر بالسيف ولن أتخلى عنها إلا بالسيف! أعرف الأتراك، هم للبيع وسأشتريهم. أنجزت ثورة حين كان معي خمسمائة رجل فقط، ويوجد حولي اليوم ألف وخمسمائة رجل، وهو عدد أزيد بكثير عما احتاجه للإبقاء على ملكي. من يستطيع جعل الذهب يلمع، ومن يتمكن من إسماع أجود الحديد سيكون السيد».

أما في سلوكه الرسمي، فقد تظاهر إعمالاً لمهارته المألوفة بالخضوع لإرادة الباب العالي. ذلك أنه أغدق العطايا لمبعوثه في العلن، ويعمل سراً على أن يقف رؤساء الأوجاق، الميلشيات، والعلماء كمعارضين لرحيله ومطالبين ببقائه. وهذا ما سيحدث بالفعل. إذ يوقع المشايخ على رجاء بمثل هذا المعنى. ولما لم تؤت الرسالة الأولى أكلها، ترسل رسالة ثانية مرفوقة بحجة تصعب مقاومتها وهو صك بمبلغ ستة آلاف بورصة. ويصحب ذلك برشوة قيّمة تخر لها مقاومة القبطان باشا الذي يرضى بأن يغادر عائداً عبر البحر. غير أنه ولما لم يكن محمد علي يملك قرشاً واحداً من الآلاف الستة التي تعهد بدفعها، فقد فرض عليه أن يرسل ابنه الأكبر إبراهيم كرهينة لحين دفع المبلغ المتفق عليه، ثم إن شرطاً آخر فرض عليه، وهو ألا تكون المدن الساحلية ويقصد بها هنا دمياط والرشيد والإسكندرية خاضعة لحكمه، وكل ما يحصل منها من ضرائب يدفع إلى الخزينة الإمبراطورية كاملاً ومن غير نقصان(١). ويضغط عليه في الأخير لإحلال السلام مع البايات، وتفويت بعض الأراضي لهم، فيقبل الباشا بكل ذلك، وكالعادة بشكل صوري. إذ أنه وفي الثاني من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٠٦ لم يرسل إبراهيم إلى فرقاطة القبطان باشا.

ومن المرجح جداً أنه لو كان أي شخص آخر عوض نائب الملك لحدث

---

(١) غوان. ١٨٤٧. (مصدر ذكر سابقاً).

نفسه بأن سقوطه وشيك جداً وأنه مسألة أسابيع إن لم تكن أياماً فقط. أي شخص آخر ولكن ليس الكافالي. فقد ثبت من خلال سيرته أنه كلما اعترضته أزمة عظيمة إلا وتتدخل قوى غير عادية لتجعله يصعد من القاع إلى القمة. كما أنه لايمكن فصل الحظ عن الطرق المؤدية إلى المجد. وما سيحدث لم يكن حادثاً غير عادي واحد بل اثنين، فعثمان البرديسي يموت فجأة بسبب الحمى الصفراء، وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٠٧ يموت الألفي بدوره عن عمر يناهز خمساً وخمسين سنة. ويقوم دروفيتي من فوره بإعلام تاليران مستبعداً بشكل كبير فرضية الاغتيال إذ يكتب «أتشرف بأن أعلن لمعاليكم على وجه السرعة نبأ وفاة الألفي باي في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني. وهناك رأيان لدى أتباعه. فهناك من يرجع ذلك إلى نوبة غضب حادة ألمت به، وجعلته يهوي بعصا غليظة على رؤوس أربعة من البدو من بينهم شيخ القبيلة، في حين يدعي البعض أن التقيؤات والتشنجات العصبية التي توفي على إثرها كانت نتيجة لسم دسته له ناسؤه ومن بينهن ابنة الشيخ الذي قتله. وقبل موته، كان قد اختار شاهين كخليفة له[(١)]».

وعند سماع محمد علي لخبر موت عدوه اللدود، لم يصدق ذلك. إذ اختفظ بالبدوي الذي أتاه بالخبر لمدة أربعة أيام لحين التحقق منه، وعندما تأكد لديه الخبر السعيد له، أهداه فروة وأغدق عليه بالذهب ثم أمره بأن يجوب شوارع المدينة معلناً الخبر[(٢)].

فارق إذن آخر أكبر أمراء المماليك الحياة. هذا الرجل الذي قال عنه محمد علي «لن أنعم بالسلام مادام الألفي حياً. نحن نشبه راقصين على حبل مشدود مع اختلاف أن له عكازين في رجليه[(٣)]». أما الألفي، فقد سُمع يهمس قبل أن

---

(١) رسالة موجهة من الإسكندرية في الثاني من شهر شباط لسنة ١٨٠٧. دوان. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) جبارتي. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) المصدر السابق.

يسلم روحه قائلاً «كل شيء انتهى. من الآن فصاعداً ستصير مصر لمحمد علي. لاأحد سيملك القوة للوقوف في وجهه». فرحيل رئيسين هامين للمماليك، أكثر أعدائه شراسة، وبينهما أسابيع قليلة فقط، منحه دفعة قوية كان في أمس الحاجة لها في هذا الوقت بالذات. وهو ما يجعله يضاعف من حماسته ضد من خلفهما، إذ يتولى بنفسه قيادة جيشه إلى مصر العليا حيث سيستولي على أسيوط في شهر آذار لسنة ١٨٠٧.

ويمكن الاعتقاد أن السماء بدأت تتخلص من غيومها، وأنها تنبئ بمستقبل هادئ. لكن لا، فمصر ليست أرضاً معزولة، بل هي مربع صغير من رقعة الشطرنج الكوني الكبيرة، الذي ومهما قل شأن أي قطعة تحركت، وحتى لو بعدت بآلاف الأميال، تؤثر على مجموع اللعبة. إذ تلاحقت مجموعة من الأحداث التي سيكون لها انعكاسها على مستقبل مصر. ذلك أنه تم نقض اتفاق أميان للسلام، وتحالفت الإمبراطوريات الأوروبية لكل من النمسا وروسيا وبروسيا ضد فرنسا، وظهرت على الساحة معركة أسترليتز ومعركة الطرف الأغر ومعركة إينا والتي أكدت جميعها تفوق نابليون في البر، وإنجلترا في البحر. أما في إسطانبول، فقد كان صدى النجاحات الفرنسية تغطي على الأصوات الإنجليزية ويضعف من هيبة البريطانيين. وبدا التأثر واضحاً على سفير صاحب الجلالة بدءاً من السادس عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٠٦ حيث يقول «إن النفوذ الفرنسي يتفوق تفوقاً تاماً، حتى ليقال إن الله نفسه يتحالف مع أعدائنا. وإذا لم تتحرك الجيوش الروسية، وإذا لم تظهر أساطيلنا فإن الحاجز الذي يغطي حدودنا الهندية سيسقط بضربة واحدة[١]».

وهكذا قرر البريطانيون القيام بحركة مضاعفة، زيادة القوة البحرية في الدردنيل والاحتلال العسكري للإسكندرية. فتلفي مصر نفسها مقحمة مرة أخرى في عملياتهما. ولم يكن الميجر ميسيت غريباً عن القرار الذي اتخذه بلده في هذه القضية. القرار الذي سيبدو كارثياً.

---

(١) من آربثنوت إلى فوكس. أنظر ريني وجورج قطاوي. (مصدر ذكر سابقاً).

ولم يزد اندلاع الصراع المتكرر، وعمليات التمرد التي شهدتها البلاد بين عامي ١٨٠٣ و١٨٠٧، وتعاقب الحكام بشكل غير عادي إلا إقناع العامل البريطاني بأنه خارج نظام حكم المماليك ستبقى مصر مرتعاً لانعدام الأمن والاضطراب. من أجل هذا، عمل كل ما في إمكانه على إعادة الإنجليز إلى مصر، مستثمراً علاقات متميزة مع المماليك الذين عدهم كقوة مساعدة على الاحتلال المستقبلي. وبعد الانقلابات المتعاقبة التي غيبت من المشهد خسرو وعلي وطاهر وخورشيد كحكام شرعيين، يلتفت ناحية الألفي باي.

غير أن ارتقاء محمد علي كان يضايق حساباته، ففي كل مرحلة بين سنتي ١٨٠٤ و١٨٠٧، كان يقف أمامه كعائق كبير. ويدافع عن طموحات الألفي باي، فيكتب إلى إسطانبول أنه ما من سلام ممكن في مصر من دون عودة المماليك إلى الحكم. وإذا لم ينته إلى دعم مشروع الاحتلال البريطاني لمصر فإنه شجعه على الأقل، متبنياً بذلك موقفاً مغايراً تماماً لماثيو دو ليسيبس وبرنادينو دروفيتي اللذين لعبا ورقة محمد علي منذ اللحظات الأولى.

الرشيد أو حبة الرمل

في الواقع، أنه ومن دون أن تساهم فرنسا أو أحد عملائها عملياً في ترقية ابن كافالا، ودون أن تتمكن إنجلترا أو أحد عملائها من عرقلته، فإن مواقف كل منهما كانت من الوضوح بحيث جعلت الباشا يتذكرها في ساعات الخيارات السياسية، وأنه ومع مرور السنوات أضحت شراكته مع فرنسا أكثر متانة، حتى صارت المحرك الأول لسياسته.

ثم إن التقارب الفرنسي التركي ودخول تركيا الحرب ضد روسيا جعلا إنجلترا تتخوف من عودة ظهور فرنسا في مصر برضى سليم الثالث، وكان على إنجلترا أن تحذره إذن.

وهكذا، تصل إلى شواطئ الإسكندرية في السابع عشر من شهر آذار لسنة ١٨٠٧ حملة إنجليزية تحت قيادة الجنرال ماكينزي فريزر. ويكافح ميسيت مثل

شيطان ليمنع فتح أبواب المدينة في وجه كتيبة تابعة لمحمد علي. وينذر الجنرال الحاكم أمين باشا بأن يسلمه المدينة تحت ذريعة بحسب ما يعلن، «حماية مصر من غزو فرنسي». وفي العشرين من شهر آذار وبعد محاولة زائفة للدفاع عنها، تستسلم المدينة. ويعلن أن رجال الحامية الثلاثمائة أسرى حرب ويؤخذون إلى مالطا. وفي الجانب الإنجليزي، يعلن عن سقوط سبعة قتلى وثمانية جرحى. فيقوم ميسيت من فوره باقتسام الفرح مع وزارة الحرب البريطانية، دون أن يغفل إبراز مساهمته الشخصية.

في هذا الوقت، كان محمد علي يقود حملة عسكرية ضد المماليك في مصر العليا. ومع ورود خبر الإنزال البريطاني، يستدعيه وجهاء القاهرة. لكنه وعملاً بنصيحة دروفيتي الذي نجح في الفرار من الإسكندرية قبل دخول الإنجليز إليها، وذلك بتحقيق نصر حاسم على البايات قبل العودة إلى العاصمة. ولما كان يريد أن يُنهي هذه القضية بأسرع وقت ممكن ليتمكن من التوجه لقتال الجيش الإنجليزي، فقد غامر بفتح قنوات التفاوض مع المماليك لإحلال السلام، لكن من دون أن يتمكن من ذلك. فيرسل لهم مبعوثيه لمحاولة أن ينال منهم ولو هدنة على الأقل. وكان ما يعرضه عليهم ينطوي على دهاء كبير إذ يكتب «لعلكم لا تجهلون أن الإنجليز على خصام مع سلطان المسلمين، وأنهم اقتحموا ولاياته، ودخلوا الإسكندرية بهدف الاستيلاء على مصر مثلما فعل الفرنسيون قبلهم. وهم لايخفون أنهم أتوا بناءً على رجاء الألفي لحمايتكم ولمنحكم النصر، لكن لاتصدقوهم وكونوا متأكدين من أنهم سيستولون على هذا البلد، ولن يتركوا به أي مسلم». «في الحقيقة، الإنجليز ليسوا مثل الفرنسيين الذين لايخضعون لأي دين، ولكنهم يتحركون باسم الحرية والمساواة. بينما هؤلاء مسيحيون مرتبطون بدينهم، وأنتم لاتجهلون كراهية كل دين لدين آخر. ومن غير المناسب إذن أن تعتمدوا على غير المسلمين وأن تستقووا بهم لقتال المسلمين[1]».

---

(١) جبارتي. (مصدر ذكر سابقاً).

ولما كان المماليك قد لدغوا من قبل محمد علي في مرات سابقة، فإنهم أعلنوا عن ارتيابهم في أمره إذ خاطبوا مبعوثيه «هذا الذي بعثكم مخادع غدار. محمد علي يتراجع دوماً عن وعوده، وينقض أيمانه ولايمكن الوثوق به[1]».

وفي النهاية، وطبقاً لتعليمات نائب الملك، يخضع المبعوثون للشروط التي يفرضها الأمراء.

في هذا الوقت، يرسل ميسيت والجنرال فريزر رسائل إلى هؤلاء البايات أنفسهم يطالبانهم فيها بأن يقصدوا الإسكندرية لدعمهم. ودون انتظار ردهم، ومخالفاً التعليمات بعدم احتلال مدينة أخرى غير الإسكندرية، يقرر الجنرال فريزر احتلال مدينة الرشيد إذ تصل كتيبة تحت قيادة الجنرالين فاكوب وميد في الحادي والعشرين من شهر آذار إلى أبواب المدينة دون أن تلاقي أدنى مقاومة. ويدفع هذا الهدوء الظاهري، الإنجليز إلى الاعتقاد بأن الأمر محسوم وأنه سيكون أشبه بجولة للاستجمام، لكن وعندما يقتحمون المدينة يفاجؤون بانقضاض السكان عليهم بعد أن تسلحوا للمناسبة وانضموا للجنود. فيصابون بالهلع والاضطراب تحت وقع المفاجأة. ولم تكن لهم أدنى دراية بحرب الشوارع التي كانوا يواجهونها. وكان الجنرال فاكوب من بين الأوائل الذين سيسقطهم الرصاص. ومع ذلك، فلا شيء فقد بعد، إذ تبقى هناك بعض العناصر التي وإن لم تكن قادرة على قلب مجرى المعركة، فستتمكن على الأقل من تخفيف خسائرها وتلطيف نهايتها. فهناك حوالي مائة رجل تحت إمرة ضابط في الساحة الرئيسية. غير أن الجنرال ميد الذي أصيب إصابة بالغة يصدر أوامره بالتراجع لتتم المجزرة. ذلك أنه لو لم يتوقف المصريون والأتراك عن قطع الرؤوس إذن لما وجد من يحمل الأخبار إلى الإسكندرية.

في التقرير الذي يرسله الميجر ميسيت يشير إلى مائة وسبعين قتيلاً من بينهم ثلاثة وعشرين ضابطاً ومائتين وواحداً وخمسين جريحاً[2]. بينما يكتب قنصل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ج. دوان والسيدة فواتي جونز. (مصدر ذكر سابقاً).

إسبانيا في الإسكندرية في الثالث من شهر نيسان إلى ماركيز ألمانيرا وزير إسبانيا في إسطانبول رسالة جاء فيها «هاجم الإنجليز في الواحد والثلاثين من شهر آذار على الساعة السادسة صباحاً ساحة الرشيد، واختبأ الألبان في البيوت الخلفية للمدينة، وأقاموا الحواجز في الطرقات، كما أقاموا تحصينا في أبي مندور البعيد بنصف فرسخ عنها. ولما كان الإنجليز قد هدموا سوراً وسهلوا ولوجهم إلى الطرقات، فقد قاتلوا لساعتين ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة رصاص الألبان الذي كان ينهال عليهم من النوافذ ومن الشرفات وأسطح المنازل، وهو ما أجبرهم على التراجع. فتبعهم الألبان وسببوا اضطرابهم وفقدانهم لعدد كبير من الرجال إضافة إلى ثلاثة مدافع، وهاون، والكثير من الطبلات وأداوت الفرقة الموسيقية وبراميل عديدة من النبيذ الفرنسي ومن السكر. وبقيت في الساحة مائتا جثة إنجليزية وحوالي مائة وخمسون جريحاً، ومن بينهم رئيس الحملة وحوالي إثنا عشر ضابطاً. بينما لم يفقد الألبان إلا حوالي أربعين رجلاً، وسجل في صفوفهم حوالي مائة جريح. ولو أنهم كانوا يملكون الفرسان في سلاحهم لكان بإمكانهم أن يحاصروا العدو تماماً. واحتمت بقية القوات الإنجليزية بإدكو حيث نزلوا من البحر. وهم يتواصلون مع أبو قير والإسكندرية عبر البحيرة. ويفترض أن عدد الرجال المشاركين في الهجوم كان يناهز الألفي رجل.

وعومل السجناء معاملة حسنة من قبل الحاكم علي باي. فقد ضمدت جروحهم، غير أن جثث الموتى ما تزال مهملة في الشوارع. في حين أرسلت الرؤوس إلى باشا القاهرة[1]».

والواقع، أن المائة والعشرين سجيناً الذين سيقوا إلى القاهرة، كانوا على المركب نفسه الذي يحمل المائة رأس التي فصلت عن أجساد رفاقهم. ومنذ وصولهم إلى العاصمة، وضعت الرؤوس المقطوعة على الرماح على جانبي الطريق المؤدية إلى الأزبكية لتمكين العامة من رؤيتها.

---

(١) المصدر السابق.

ويصل إخفاق الإنجليز في الرشيد في الخامس من شهر نيسان إلى القاهرة التي لم يظهر فيها محمد علي إلا في التاسع من الشهر ذاته. ويشجع المقاومة وهو المدعوم بشكل كبير من قبل دروفيتي. ويوقف سيد عمر مكرم الدروس في جامعة الأزهر، داعياً الشعب والطلاب إلى حمل السلاح. ويهرع الناس إلى ترميم جدار الساحة، وإنشاء صف من الخنادق بين بولاق وحصن كمين. وفي زمن قياسي، يُبنى متراسان كبيران يجهزا بالسلاح الثقيل في مكانين حساسين. ويشيد في الجزيرة مراكز للمدفعية على سطح الماء يحميها حاجز يربط بين ضفتي النيل بمراكب ملئت بالرمل. ويقوم ضابط القنصلية بتقديم النصح لنائب الملك، ويصحبه في كل جولاته، ويساهم في إثارة حماسة المسؤولين العسكريين.

من جهة أخرى، يقرر الجنرال فريزر أن يصلح إخفاقه. فيرسل حملة ثانية إلى الرشيد ومنطقة الحامد المجاورة.

وبعد أن اطمأن إلى أشغال الدفاع في القاهرة، يتجه محمد علي من فوره إلى الدلتا على رأس جيش من ثلاثة آلاف جندي من المشاة، بينما جعل ألف فارس مقسمين إلى وحدتين تحت إمرة كل من كيايا باي وحسن باشا.

وفي الواحد والعشرين من شهر نيسان تتم المواجهة مع الإنجليز في منطقة الحامد. هل كان ذلك بفضل سرعة بديهة محمد علي؟ أم إلى ما يبثه حضوره بين صفوف جنوده من دفع معنوي؟ أو كما يقول جبارتي لأنه «في هذه القضية، قرر الله ليجنب مصر الخراب كما فعل دوماً أن يعمي أبصار الإنجليز»؟ لكن الأكيد أنه ومنذ أن وطئوا الأراضي المصرية، تحالفت الصدف ضد جيش صاحب الجلالة لتجعل من حملتهم فشلاً ذريعاً. ويفقدون في الحامد ستة وثلاثين ضابطاً، وأربعمائة جندي ومثلهم من السجناء.

«من الميجر فوغلسانغ إلى سعادة الميجر جنرال فريزر، قائد جيش جلالته البريطاني في الإسكندرية

أتشرف بإعلامكم أنه بتاريخ الواحد والعشرين وبعد أن تسلمت أمراً من العقيد المساعد ماك ليود بأن ننسحب بين الساعة السادسة والسابعة صباحاً في

ثلاثة خطوط، تم تمزيق صفوفنا بواسطة عدد كبير من الفرسان والمشاة دون أن نتمكن من التجمع. وبعد ثلاث ساعات متوالية من الدفاع بدأنا بالتساقط تباعاً تاركين ثلثي رجالنا في المكان نفسه بين قتيل وجريح. أرفق هنا أسماء الضباط القتلى والجرحى والأسرى إضافة إلى عدد الرجال[(١)]».

وهكذا، فإن المشهد الكريه الذي قدم للشعب في القاهرة قبل أيام يعاد مرة أخرى. ويعرض في ساحة الأزبكية أربعمائة سجين مبهوت، يتعقبون رؤوس رفقائهم. وكل من تخونه قواه فيسقط يرمى على ظهر حمار، ويلقى في حفر سحيقة، ومن ينج منهم يقطع رأسه فوراً، ليمتد الممر الجنائزي. وعندما يحل الليل، تدفن الرؤوس بعد أن تقطع منها الآذان التي تملّح وتدبغ وترسل إلى إسطانبول. ولم يعارض محمد علي ذلك، فهذا الاستعراض يزيد من نفوذه على الشعب. لكن وما إن يتأتى له ذلك، حتى يبدي جانبه الإنساني، كما يشهد بذلك ما كتبه الميجر فوغلسانغ إلى فريزر.

من قلعة القاهرة في الفاتح من شهر أيار لسنة ١٨٠٧

لايسعنا إلا أن نشكر الله على الطريقة التي عاملنا الأتراك بها باعتبارنا أسرى، وذلك بفضل الأوامر التي أصدرها باشا القاهرة العظيم، فارضاً أن تقدم كل العناية للجرحى. وأيارزال مستمراً في تعامله الطيب نحونا[(٢)].

ويعد دور برناردينو دروفيتي أساسياً «فعندما صعد بالسجناء إلى القلعة، تبعهم قنصل فرنسا مصحوباً بأطباء. فأعد لهم مساكن، ومنح لضباطهم غرفاً تليق بهم، ووزع عليهم كل ما كانوا يحتاجونه. وكان يزورهم كل يوم تقريباً، في وقت كان الجراحون يستمرون في العناية بهم، مثلما يحدث في تقاليد الأوروبيين الذين يتعاملون مع جرحى الأعداء ويشرفون أسراهم من الحرب»[(٣)].

---

(١)، (٢) المصدر السابق.

(٣) جبارتي. (مصدر ذكر سابقاً).

وعلى امتداد الشهر الذي أعقب النزول من الحرب، لم يقم المماليك بأية حركة، ويحكم فريزر بأنه من الحذر عدم المجازفة بأي محاولة جديدة، فينتهي به الأمر معزولاً في الإسكندرية.

وكان محمد علي على وشك توجيه الضربة الفاصلة عندما قام فريزر الذي يبدو أنه قدر قيمة خصمه على عكس ميسيت، بإرسال برلماني كمبعوث شخصي له. وتنسجم هذه المبادرة مع نوايا الحكومة الإنجليزية التي ما إن أخطرت بإخفاقات قواتها حتى أمرت بإخلاء الإسكندرية.

من اللورد كاستليراغ إلى الجنرال فوكس

١٤ حزيران ١٨٠٧

وصلت رسيلتك المرسلة من ميسينا بتاريخ الرابع عشر من شهر أيار، وأخبر صاحب الجلالة بمضمونها. واطلع صاحب الجلالة بكثير من الحزن على مضمون التقرير الذي أرسله الميجر فريزر إلى السيد ويندهام بتاريخ السادس من شهر أبريل، وإليكم بتاريخ الرابع والعشرين، والذي كشف فيه عن الخسائر الجسيمة التي تكبدتها القوات البريطانية في الرشيد (. . .) وكل سعادة جلالته تتمثل في أن تأخذوا كل التدابير الضرورية لترحل قوات جلالته من مصر، وأن تعود إلى معسكراتها التي خرجت منها في صقلية[١].

ولأنه يعلم القوة البريطانية، فإن ابن كافالا لم يبد عنيداً. فيتوصل إلى اتفاق مع فريزر بسهولة إذن. ذلك أن الرحيل قد تقرر، ولم يبق إلا الاتفاق مع محمد علي على فك الأسرى.

وفي الرابع عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٠٧ يتم الاتفاق بينه وبين فريزر، فيقترح محمد علي بموجبه على الإنجليز أن يبيعهم. . . قمحاً. ولم يكن العرض بريئاً. فهو يعلم أن إنجلترا في حرب مع نابوليون في شبه الجزيرة

---

(١) ج. دوان والسيدة فوانتيي جونز. (مصدر ذكر سابقاً).

الإيبيرية، وأنها بحاجة ملحة لإطعام جنودها. إضافة إلى ذلك، تدفعه واقعيته السياسية أن يطلب بكل تواضع «الحماية الإنجليزية»، وبالمقابل يتعهد بالتصدي لكل محاولة لاحتلال الإسكندرية مهما كانت الجهة الغازية، عثمانية أو فرنسية[١]. ولاشيء مستغرب في هذا، إذ أنه سيعيش حياته كأنه تحت هاجس كابوس اسمه إنجلترا. ولن يكون مخطئاً في هذا، فبتحالفه مع إنجلترا يأمل أن يدفع التهديد الدائم الذي تمثله هذه القوة في نظره. غير أن هذا التحالف الذي أمله بشدة لن يرى النور، إذ أن الحومة البريطانية ستشتري منه القمح بثمن باهض جداً. وسيكون هذا كل شيء.

وسيكشف دروفيتي الشاهد اللامباشر على نوايا نائب الملك. ففي السابع عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٠٧ يكتب إلى سيبستياني «التقيت البارحة الباشا بعد رحيل المفاوض الإنجليزي، فبدا لي سعيداً. قدمت له بعض الملاحظات حول اعتذاره على عدم لقائي أول أمس، فأخبرني بأنه لايستطيع أن يقوم بشيء ضد مصلحته في الوقت الراهن، لكن وما إن يرحل الإنجليز عن الإسكندرية حتى يعود إلى معاملتهم كأعداء لحكومته كما فعل دائماً. وهو يتحفظ من إزعاجهم في أي شيء. ويحرص منهم جداً حد أنه طلب مني أن أبقى في مكان بعيد عنه حتى موعد رحيلهم، لأنه بحسب ما أخبرني به، عندما رآني الجنرال الإنجليزي، غضب غضباً شديداً وهدد بإبطال مفعول الاتفاق. وهو يخشى أن يتسبب وجودي في بعض المصاعب[٢]».

وتخلى الإسكندرية في التاسع عشر من الشهر ذاته. وفي اليوم الموالي يدخلها، مرفوقاً بتحية المدفعية. وفي يوم الخامس والعشرين يستقبل هالويل[٣] نائب الأميرال، وبعد المجاملات التقليدية، يبحر أسطول النقل الإنجليزي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) دوان ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) توفي الأميرال لويس أياماً قبل ذلك بسبب حمى مؤذية، ونقل جثمانه إلى إنجلترا وفقاً لرغبته في برميل من الروم.

وفي النهاية، فإن نتيجة الحملة الإنجليزية التي دامت أقل من ستة أشهر، كانت وضع مدينة الإسكندرية التي كان يرغب فيها بشكل كبير، بين قبضتي محمد علي، وأن يتمكن من خلالها بأن يتواصل بشكل مباشر أكثر منه في القاهرة مع المصالح السياسية والاقتصادية للقوى الأوروبية. محمد علي الذي لم يكن إلا زعيماً لعصابة ألقته الصدفة على أرض لم يستطع البقاء فيها إلا بسبب نفوذه ومهارته حتى أمسى عنصر قوة في ميزان السياسة الدولية.

وكان لنجاح جنوده في التصدي لقوة غربية كبرى، أن زاد من سلطته ونفوذه لدى المصريين، وجعلت البريطانيين يستبعدون لمدة طويلة محاولة وضع أقدامهم في مصر.

وبفضل دروفيتي الذي جعلته هذه الأزمة مستشاراً ماهراً وناصحاً جيداً، تمكنت الحملة الإنجليزية من خلق تضامن في المصالح بين محمد علي وفرنسا. وكم كانت نتائج إنجلترا على عكس ما توقعته تماماً من تدخلها. وكان السير جون مور قد كتب في مذكراته في الخامس من شهر شباط لسنة ١٨٠٧ أي قبل شهر من عملية الإنزال «وفي رأيي، فقد تم التخطيط لحملة الإسكندرية بطريقة سيئة. فليس الهجوم على الأتراك في ولاياتهم البعيدة هو ما سيؤثر فيهم. نعم، إذا ما قسمت الإمبراطورية العثمانية فإن مصر ستناسبنا بشكل كبير، ويمكننا الاستيلاء على الإسكندرية في أي وقت. ولن يستطيع الفرنسيون أن يتواجدوا فيها قبلنا، لكن وفي هذا الوقت من الحرب، لايمكننا ان نسجن قواتنا في معسكرات بعيدة. فهذا التدبير، عندما يجردنا من قوة جاهزة، يحرمنا من الاستفادة من قوتنا البحرية عند القيام بهجومات بحرية[1]».

ونتيجة أخرى غير متوقعة لهذه الحملة الموؤودة، جعلت محمد علي يعي جيداً ضرورة امتلاك أسطول بحري، فبدونه ستظل مصر على الدوام تحت

---

(١) «يوميات السير جون مور». كتاب باللغة الإنجليزية نشره الجنرال السير جون موريس. ثلاثة مجلدات. لندن.

رحمة أي غاز قادم من البحر الأبيض المتوسط. أما الميجر ميسيت البئيس، فلم يبق له في نهاية سنة ١٨٠٧ إلا مغادرة مصر، ليعود إليها أربع سنوات بعد ذلك.

ويرسل محمد علي إلى السلطان الستة آلاف بورصة التي تعهد بأدائها لإبقائه على رأس حكومة مصر، أسابيع فقط بعد انتصاره على إنجلترا. ويحصل المبلغ هذه المرة من الشعب بالطريقة القديمة التي استعملها كل من سبقه، والمتمثلة أساساً في فرض ضرائب جديدة مرتفعة على كل الشعب. ومن بين كل هذه التجاوزات لم يذكر جبارتي إلا نموذجاً شديد الغرابة حد أنه يبقى موضع شك.

بيد أن الخبر صحيح، حيث تم إضافة ضريبة جديدة أطلقوا عليها بوقاحة اسم «ضريبة الخبر السعيد»، وتنفيذها بسيط بقدر ما هو جذري، إذ كتبت أوامر الدفع، وسلمت إلى محصلين الذين عينوا عناصر يسبقونهم لإعلان قدومهم للناس. وكمقابل لذلك يحصل هؤلاء «المبعوثون» على أكبر ما يستطيعون تحصيله. وبكل تأكيد، لم يكن الشعب في نهاية متاعبه.

وما إن دفعت هذه الضريبة حتى وضع الباب العالي فرقاطة تحت تصرف إبراهيم لتعيده إلى مصر. ولو أن سادة إسطانوبل تخيلوا دور هذا الشاب بعد وقت قصير، لتراجعوا عن إعادته. وحين عودته إلى القاهرة، يعين كدفتردار إذ أن طوسون حل محله في القلعة، مكلف بمساعدة والده في إعادة تنظيم مالية البلد. وهو ما سيقوم به بحزم لاجدال فيه. ويغدو ملء خزائن الدولة، وإيجاد المصادر الضرورية لتموين جيشه وبحريته، هاجس محمد علي الأول. كان يعلم أكثر من أي شخص آخر أنه لاتوجد قوة عسكرية بدون مال، وإذا ما حرم من قوته العسكرية فسيهوي حكمه. وحتى الآن عاش كمحتال مالي، إذ أنه لم يتردد في وضع يده على بعض القوافل. وسيواجه المشكلة بهمة أكبر، ضاغطاً على الشعب والوجهاء دون مراعاة لأحد.

ويمكن قراءة ما كتبه دروفيتي بتاريخ الثلاثين من شهر آب لسنة ١٨٠٥ «علينا

أن نتوقع ضرائب كبيرة، وحجوزات عسكرية على البضائع، وخصوصاً على خمسة آلاف إلى ستة آلاف بالة من القهوة التي ينتظر أن تصل من السويس إلى القاهرة في القافلة الأولى[(١)]».

وفي الثالث عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٠٥، يعود دروفيتي نفسه ليخبر تاليران عن ذعره حين علم أن محمد علي قرر فرض ضرائب على الأجانب، حين يكتب «تتخذ في القاهرة مختلف التدابير لحمل المسيحيين والأقباط واليونان واليهود على دفع الضرائب. ولم تستثن أية طائفة من الطوائف. ويلقى الفرنسيون مصير الآخرين عينه. هذا واكتفيت بإرسال رسالة إلى محمد علي شبيهة بتلك التي أرسلتها إلى صاحب السمو القبطان باشا، وأضفت إليها احتجاجات قوية لسوء المعاملة الشخصية التي يتعرض لها بعض المحميين الفرنسيين[(٢)]».

وفي الوقت نفسه، تعرض لصعوبات كثيرة مع جنوده الألبان الذين خدموه دوماً طمعاً، وحباً بالمنفعة لشدة ما تأثروا من الدسائس أو ما غنموا من الفرار من الجندية. وقد حدث في يوم من الأيام أن أطلق الرصاص على بيته فلم يجب حرسه إلا بطريقة رعناء. ويصف دروفيتي هذا الحادث إلى تاليران في التاسع عشر من شهر آب لسنة ١٨٠٥، بالجدية الكافية التي ستحمل محمد علي على الاختباء والتحصن في القلعة[(٣)].

وهذا الوضع الواضح جداً لم يكن ليستمر مدة أطول إذ أنه عاجلاً او آجلاً سيلفي نائب الملك نفسه على المحك.

---

(١) دوان. ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

[6]

الفرعون ورجال الدين والمماليك (١٨٠٨ ـ ١٨١١)

يلعب انقلاب غير متوقع حدث في شهر أيار من سنة ١٨٠٨ لصالح الألباني، إذ يتعرض السلطان سليم الثالث إلى انقلاب ويعوض بقريبه مصطفى الذي سرعان ما يُغتال. وينسى خليفته محمود المشغول بتثبيت سلطته «الحالة» محمد علي. هل استشعر هذا الأخير انشغال الأول؟ وعلى كل حال، فعندما يطلب منه مجدداً الانخراط في قتال الوهابيين لم يخش أن يرد بأن مصر لاتملك حتى الآن جيشاً قوي بما يكفي لمقاومة أية عملية إنزال لقوات أجنبية سواء إنجليزية أو فرنسية على شواطئ مصر، وأنه في حال غيابه يمكن أن يحدث الأسوأ. وكان نصف صادق في رده، فالحرب ضد الوهابيين المريعين لاتتطلب جيشاً كامل العدد والعدة فقط، ولكنها تقتضي أيضاً وجود أسطول بحري ينقله إلى شواطئ الجزيرة العربية. غير ألا شيء من ذلك متوفر. إضافة إلى أن أوضاع البلد الداخلية غير مستقرة، إذ تطفو على سطح الأحداث جملة من المشاكل المستمرة، وهي غالباً للمفارقة العجيبة، من تدبير أولئك الذين مهدوا الطريق لمحمد علي للوصول إلى السلطة، المشايخ والعلماء. فيعمل إذن على إحداث شروخ في صفوفهم، وينجح في ذلك إلى حد ما، فيقرب هؤلاء ويهمش أولئك، دون أن ينسى أن يبعد بصفة نهائية عن القاهرة العناصر الأكثر خطورة.

وفي هذه السنة، يخطو خطوة كبيرة. ففي حركة خطيرة جداً، يضع يده على الأوقاف المخصصة للمساجد وللمؤسسات الخيرية وهو تقليد عرف في الشرق منذ ظهور الإسلام، والذي احترمته كل الإدارات السابقة التي تعاقبت على مصر كيفما كانت، وحتى الفرنسيين أنفسهم تحفظوا على مهاجمة هذه الامتيازات المرتبطة بشكل أساسي بالدين.

ولفهم حركة نائب الملك بصورة أفضل، ينبغي العلم بأن القانون الإسلامي في ذلك العصر كان يعترف فقط بحق القوة، فكل الفتوحات تمت بقوة السلاح وكل ما يحصل من أعداء الأمة يوضع مباشرة تحت تصرف العاهل الذي يمكنه أن يوزع الأراضي على جنوده باعتبارها غنائم حرب، أو يمنحها لبعض المسلمين شريطة أن يدفعوا للدولة ضريبة سنوية بعشر محصول تلك الأراضي.

وفي بلاد خاضعة للإسلام، توزع الأراضي بحسب قانون الملكية إلى نوعين، وهما أراضي العشر الخاضعة لضريبة العشر، وأراضي الخراج التي تخضع لضريبة الخراج.

وتعد الأراضي العربية دوماً أراضي عشر، في حين أن الأراضي التي يستولى عليها بالسيف ضد الكفار تعتبر أراضي الخراج. والمسلم وحده إذن من يستطيع أن يمتلك أرض العشر. ويمكن ملاحظة أن المصطلحات العربية لاتعتبر وادي النيل جزءاً من المناطق العربية، التي تمتد حدودها من شبه الجزيرة العربية والجزء الأكبر من العراق من البصرة إلى الموصل، ونتيجة لذلك، فكل هذه الأراضي تعتبر أراضي خراج. والحقيقة أن نظام الملكية الخاصة المصري يتميز بأنه لايخضع غالباً إلى التشريع القرآني. وصحيح أن عمرو بن العاص قائد جيش عمر بن الخطاب اكتفى بفرض ضريبة سنوية على المصريين وصلت حصيلتها الإجمالية إلى إثني عشر مليون دينار.

وتوزع في كل قرية الأراضي الصالحة للزراعة على الفلاحين بشكل دوري. ونتج عن هذا أن الأراضي تصير من وجهة نظر قانونية، ملكاً للمجموعة التي تستغلها، بيد أنها في الواقع ملك للدولة التي تخضع للسلطان الممسك بكل

السلط. ولم يكن الفلاح إذن يآذار على الأرض الموضوعة تحت تصرفه إلا نوعاً من أنواع الاستغلال. غير أن الخلفاء الذين تعاقبوا على حكم البلد من الطولونيين والأيوبيين والمماليك والأتراك كانوا يجيزون لأنفسهم حق انتزاع بعض الأراضي ومنحها للضباط الأكثر وفاء كمكافآت. وكانت هذه الأراضي معفاة من الضرائب.

حينها سيظهر الملتزمون أو «ملاك الأراضي». فكان ثري يلتزم بأداء ضرائب عدد معين من السنين لقرية أو أكثر. ويؤدي ضريبة السنة مقدماً. فتعود الأرض إليه مفوضة من قبل قنصلية القاهرة. وطبيعي أن يسترد ما دفعه من مال وأكثر. وليس هذا كل شيء، إذ كان يتلقى عدداً من الفدادين[1] مجاناً ومعافاة من الضرائب تحت اسم «أملاك السيد». وكان يملك أيضاً أراض أخرى التي تنسب للفلاح لأنه يؤجرها أو يخضعها للفلاحين برسم ثابت. فكان الفلاح يلفي نفسه في وضع أقرب للرق. وكان بوسعه أن ينقل حقوقه إلى ورثته، لكن حجزه المؤقت في الأساس، يمكن أن ينتزع منه بمجرد رغبة سيده في ذلك.

وكسيد حقيقي، كانت للملتزم كل الحقوق على الفلاحين المرتبطين بأراضيه. بيد أن حقوقه لم تكن تورث ولاتدوم مدى الحياة، بيد أن المال سيجعل البايات يجددون الإيجار إلى ما لانهاية ويسمحون بنقله إلى ورثة المعني بالأمر.

وتتحول أغلبية تلك الملكيات في عهد المماليك بصفة خاصة، إلى أوقاف لفائدة في الظاهر أو في الواقع، المساجد والمؤسسات الدينية الأخرى أو الجمعيات الخيرية. وكان مالكو الأوقاف يستعملون هذا الإجراء (المعترف به من القانون الإسلامي) لتجنب أية مصادرة عشوائية من قبل الحكومة، وهي مصادرة تظل ممكنة باستمرار. ولما كانت هذه المؤسسات غير قابلة للنقل، فإن كثيراً من الملاكين، ورغبة منهم في أن يضمن ورثتهم بعد موتهم فوائد هذه

---

(١) مقياس للمساحة الزراعية، ويصل إلى حوالي أربعة آلاف ومائتي متر مربع.

الأملاك، تعودوا ان يهبوها إلى رجال الدين الذين كانوا يدفعون أجورها دون أن يخافوا، من الضرائب أو من المماليك، وهذه هي ميزتها الأهم. وهكذا، ينتهي الوقف بالتهام، وبصورة فعلية، كل الأراضي الزراعية التي صارت ملكاً لأرستقراطية العلماء المستمتعين بكل خيراتها باطمئنان كبير تحت غطاء الشرع القرآني الذي لايمكن الاعتداء عليه.

ويقر جبارتي الذي لايمكن اتهامه بمحاباة نائب الملك، بهذا الخصوص بأن التجاوزات التي سببها هذا النظام بلغ مستويات عالية من الظلم إذ يكتب «جعلت هذه الامتيازات المشايخ مدعين، فقد كانوا يعتقدون أن هذا الوضع سيدوم أبداً. وكانوا يستغلون هذا الوضع بأن يشتروا الرخص المقدمة للناس الخاضعين للضرائب بثمن بخس. وقد تشبثوا بالخيرات التي تمنحها الأرض، وأهملوا الدراسة والتعليم، ولم يكونوا يهتمون بها إلا بمقدار ما سيحفظ لهم ذلك امتيازاتهم.

وأمست بيوتهم أشبه ببيوت الأمراء السابقين. وصار لديهم خدم وأمناء خزائن، وكان بإمكانهم أن يسجنوا الناس ويسيئوا إليهم ويضربوهم. وجعلوا في خدمتهم كتاباً من الأقباط. وحددوا مبالغ تؤدى كأجور طريق إلى الأشخاص الذين يقومون بخدمتهم. وكانوا يعاملون المزراعين بالتهديد والوعيد عندما يخلفون موعد الأداء، ويصمون آذانهم عن كل طلباتهم. انتهى بهم الأمر إلى أن صاروا خلاف ما يجب أن يكونوا عليه. ولم يعودوا يتحدثوا إلا عن الأمور الدنيوية والاجتماعية، وعن التراخيص، والحسابات والفوائد والدعاوى والشكاوى. وكانوا يجتمعون بالأقباط، ويدعون الرؤساء إلى اجتماعاتهم وولائمهم. وكانوا يشرفونهم ويتشرفون هم أيضاً بزياراتهم، ويتبادلون الهدايا معهم. ومع هذا كله، كان الرؤساء يتباغضون فيما بينهم، ويحسد أحدهم الآخر، ويطلقون العنان لغرائزهم الطبيعية، وكان كل واحد منهم يحاول أن يرتقي على حساب الآخر، ويلقون بأنفسهم بجنون في أحضان المتع».

وكمرحلة أولى، يقرر محمد علي أن تلغى الرخص، وألا يقبل منها إلا ما وافق عليه. وكرد على المطالب الملحة للملتزمين، يذهب إلى إنشاء سجل عام للملكيات، ويدعو الملاكين إلى تقديم سندات ممتلكاتهم للتحقق من شرعيتها وسلامتها القانونية. ويلغي بسرعة وبكل بساطة، كل سندات الملكية متذرعاً بأنها سندات مزورة. وخلال ذلك، يأمر كشاف المحافظات وهم من موظفي الدولة بأن يستولوا على كل الالتزامات[1] وأن يستثنوا فقط تلك الأراضي التي شيدت عليها البيوت والحدائق. ويمنح لأصحابها بالمقابل، رواتب تدفع لآخر العمر تكاد تعادل العائدات الأصلية التي كانوا يتمتعون بها. وهكذا سيحل مكان الملتزمين، ويغدو المالك الوحيد لكل أراضي مصر، ويحق له أن يقول «أنا مصر».

ويصير الجندي المجهول القادم من كافالا تقريباً فرعوناً.

وهكذا تفوت بعض الأراضي للفلاحين للاستغلال مدى الحياة، بحوالي ثلاثة إلى خمسة فدادين للمزارع الواحد إذا كان في سن العمل. وتتخذ هذه الملكية الفلاحية شكلاً رسمياً عن طريق نسخة مأخوذة من السجلات المعدة لهذا الغرض، لتصير في الآن نفسه، حجة مادية للملك. وكان لهذه السجلات فوائد أخرى، إذ كانت تصلح لفرض الضرائب على الأراضي. ولسوء الحظ أن توزيع هذه الأراضي كان يتم بواسطة عمداء المدن والذين كانوا بطبيعة الحال يمنحون الأفضلية لأقربائهم وزبنائهم.

وكان «تأميم هذه الأراضي» قد أسال الكثير من الحبر من جملة كل ما قام به الباشا. بيد أنه وإذا ما أُخذ زمن ومكان حدوثها في الاعتبار، فإنها لن تبدو بالوحشية التي يمكن تخيلها. فإذا لم تحسن وضع الفلاح، ويلزمه الكثير لذلك، إذ اعتاد منذ قرون على الحاجة، فإن هذا التأجير لم يأخذ منه شيئاً مادام أنه لم يملك شيئاً أبداً. بالمقابل، وعندما منحت للفلاح محاصيل ثلاثة إلى خمسة فدادين، صار بإمكانه التصرف في هذا الحق الطبيعي. من جهة أخرى،

---

(١) إيجار زراعي ريفي.

يمكن اعتبار أن وضعية الفلاح أخذت تتحسن من الجانب المالي فقط، ولو بصورة عابرة.

ويكتب جون نيني[1] أحد أشد المحتقرين للسياسة الزراعية لمحمد علي «إذا كان الفلاح يكسب كثيراً، فإنه ينفق المال الذي كسبه بسرعة كبيرة. إذ كان يرى في المعارض لاقتناء العبيد والفضة والحلي والأثاث وموائد العشاء المكلفة. ولم يكن يحرم نفسه من شيء. وبعد أن يشبع نزاوته الواهية والتي تقوده إلى الإفلاس، يلفي نفسه أشد فقراً من ذي قبل، وتحت رحمة المرابين في بيئة كان ثمن الأشياء يتضاعف أربع مرات» ففي هذا الإطار المأساوي يمكن الاعتراف بتطور محسوس.

والشيء المؤكد، هو أن محمد علي كان يقلد مثله الكبير، نابوليون، وكان يحلم بتأسيس نوع من الأرستقراطية المرتبطة بالأرض وبه أيضاً بحيث تصير معنية ببقاء حكمه، وتدافع عن منجزاته. وهكذا، ومنذ سنة ١٨٢٩ شرع في توزيع أراضي غير مزروعة بالمجان على رفاق سلاحه الذين رافقوه منذ بدايته، وأمرهم بزراعتها، وهذا ما أطلق عليه اسم الأبادية أي خارج التسجيل الرسمي، والتي كانت معفاة من الضرائب، وهو الإسم نفسه الذي استعمل للدلالة على الأراضي التي منحت للبدو، بغية تثبيتهم في أراضيهم، وتحميلهم على ترك عاداتهم القديمة المتمثلة أساساً في النهب. ويلغى الترخيص إذا ما أهمل المستفيد الأرض التي منحت له، ولم يقم بزراعتها أو إذا ما أجرها لغيره عوض أن يعمل فيها بنفسه. أما بخصوص أفراد عائلته وكبار ضباط جيشه فقد منحت لكل واحد منهم إقطاعات عبارة عن شفليك أي مزرعة تركية. وهي شبيهة نوعاً ما بتلك التي كانت تمنح لمارشالات الإمبراطورية.

---

(١) اسمه الحقيقي جون إيزاك لويس جيل، ولد في جنيف. وصل إلى مصر سنة ١٨٣٩ بدعوة من محمد علي. أنظر كتيب أنور لوكا بالفرنسية بعنوان «رؤية أوروبية لمصر الزراعية في القرن التاسع عشر». جون نيني (١٨١٥ ـ ١٨٩٥).

ويمكن تخيل التأثر غير العادي الذي عمّ القاهرة منذ بدأ هذا «الإصلاح». إذ امتلأ الأزهر مثلما كان يحدث في الساعات الحرجة جداً على عادته، وهو الملتقى العادي للسكان في مثل هذه المناسبات. ويبرز كبار المستفيدين من أن عوائد الأوقاف لاغنى لهم عنها، للإبقاء على التقاليد العربية القديمة المتمثلة في الكرم. ويُرد عليهم بأن الخزينة محتاجة للمال على اعتبار الحرب التي تستعد البلاد لدخولها في شبه الجزيرة العربية لرد المتعصبين إلى جادة الصواب، وأن هذه الحاجات المستعجلة تلغي كل الاعتبارات الأخرى مهما كانت جديرة بالتقدير. ويدفع الغضب الشديد العلماء والمشايخ وعلى رأسهم سيد عمر مكرم إلى أداء اليمين بأن يدفعوا حياتهم إذا لزم الأمر «للدفاع عن حقوق الشعب».

وكدأبه، يلف محمد علي ويدور ويقسم بالقول «اعقدوا المجالس، وأطلقوا التحذيرات كما تشاؤون، سأصغي لها بكل اهتمام، ولن أدع مناسبة تمر دون أن أرضيكم، لكنني لن أسمح بأي مظاهرة شعبية، بل وعلى أي تحريض على التمرد أو إثارة للاضطراب الشعبي، أياً كان مصدرها! من جهة أخرى، فأنا لأخاف مطلقاً من هذه المظاهر العابثة، فإذا ما قام الشعب بالتمرد، مثلما تقولون، فلا أملك له إلا السيف والانتقام! [1]».

وتظل المشكلة متأججة لمدة طويلة. لكن وإذا تم القضاء على تآمر المشايخ، فتلزم معاقبة محرك الفتنة ومن يقف خلفها، سيد عمر مكرم الذي كان له الفضل على محمد علي بنيل دعم الشعب المصري وحصوله على لقب باشا. فيدفعه حقده إلى تجريده من لقب نقيب الشرفاء ويعوضه بالشيخ السادات وينفيه إلى دمياط. ومن المرجح جداً أن يكون في هذه اللحظة بالذات قد أراد أن يتخلص بالمناسبة عينها من الشخص الوحيد الذي يمكنه أن ينازعه السلطة في نظر الشعب، والوحيد الذي يملك ما يكفي من سحر الشخصية لتحديه

---

(١) موريز. (مصدر ذكر سابقاً).

وتأليب الشعب عليه. ويمكن التعرف على الطريقة الخاصة بالأمير من خلال نزع الحظوة عن سيد عمر مكرم، فهو يستغل كل القطع، ويحركها كيفما يشاء، ويستخدم منها ما قد يجلب عليه بعض الفائدة، ثم يتخلص منها ويلقيها خارج الرقعة دون أدنى مشاعر.

وهكذا تم إبعاد آخر معارض إذا ما استثني المماليك. ويرغم العلماء على الخضوع له، ومع أن تأثيرهم لم يدمر بشكل كامل، إلا أنه فقد الكثير من بريق الماضي.

مالية الفرعون

وإذا ما أردنا تلخيص أفعال محمد علي منذ أول يوم وصل فيه إلى مصر، فإننا سنلفي أنفسنا أمام سلسلة غريبة من استخدام التاريخ. إذ يتحالف مع خسرو ضد العثمانيين، ويخونه بمساعدة طاهر باشا. ويمنح صداقته الكاملة للمملوكي البرديسي ويحمله على القتال واغتيال الجزائري. ثم يؤثر في البرديسي ويستخدمه ضد الألفي الذي يجبر على العيش في المنفى. ولم يقدم دعمه إلى خورشيد باشا إلا في الوقت الذي سيستخدم ضده عمر مكرم وعلماءه ومن خلالهم الشعب المصري. ليحطم عمر مكرم في النهاية.

وإذا كان وضع اليد على الأوقاف قد مكن نائب الملك من عوائد كبيرة إلا أن المداخيل الأكبر كانت نتيجة لبيع القمح. فمن سنة ١٨٠٩ إلى سنة ١٨١٣ سيكون الإنجليز أهم زبنائه. وعلى سبيل المثال، ففي شهر تشرين الأول من سنة ١٨١٠ تصل ثلاثون سفينة تحمل العلم الإنجليزي إلى الإسكندرية لتحمّل إثنين وسبعين ألف هيكتولتر.

وكتاجر جيد، لم تكن أعمال ابن كافالا التجارية مبنية على الدين أبداً. فبمقابل بضاعته، كانت تحمل سفن حربية أمواله إلى الإسكندرية. ويكتب الكولونيل بوتان الذي كان في مهمة سرية في مصر، في التاسع والعشرين من شهر تموز لسنة ١٨١١ إلى وزارة الدفاع بأنه لولا قمح محمد علي لأجبرت

إنجلترا منذ فترة طويلة على سحب جيوشها من شبه الجزيرة الإيبيرية، لأن قواتها كانت ستهلك جوعاً[1].

بيد أن العملاء الفرنسيين في إسطانبول أو في الإسكندرية كانوا يقومون بكل ما يستطيعون لإيقاف هذا التموين. وعندما يشتكي دروفيتي إلى الباشا تموينه أعداء فرنسا، يرد عليه بأنه إذا لم يبع القمح إلى الإنجليز فإنهم سيأتون ليبحثوا عنه بأنفسهم. ولم يكن مخطئاً. فهو يعرف جيداً أنه ومنذ معركة الطرف الأغر، يحكم الأسطول الإنجليزي قبضته على البحار. وأنه إذا ما رفض استبدال القمح بالجنيهات فإنه لن يحرم فقط من أموال كبيرة، ولكنه سيضع القوات الإنجليزية أمام الحاجة لاحتلال مصر كمصدر لتموينها. ولن تقدم له فرنسا أي عون لأنها لاتملك أسطولاً كافياً. وليست فرنسا هي المتذمرة الوحيدة من علاقته هذه بالإنجليز، فهو بذلك يعصى أوامر الباب العالي بعدم تزويدهم بهذه المادة التي تحتاجها الإمبراطورية أيضاً. بل إنه سيمضي أكثر من هذا، فمطالبه ستتزايد باستمرار وبسرعة، حيث سيجعل ثمن هيكتولترين اثنين يصل إلى مائة فرنك، وهو ما ستستمر إنجلترا في دفعه دون اعتراض.

ويعرف هذا المضارب الكبير أيضاً كيف يكسب المال من أحصنته. ففي سنتي ١٨١٢ و١٨١٣ يحضر إلى مصر ضباط وبياطرة إنجليز بهدف التزود بالأحصنة لتجديد أحصنتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، فيبيعهم إياها محمد علي. ويحتج دروفيتي مجدداً من دون نتيجة.

وبالموازاة مع هذا، لم يكن محمد علي ليرفض أن يقيم مبادلات تجارية مع أي دولة أخرى غير إنجلترا. وإذا ما كان مركز تجارته يقوم في مالطا، فإن عملاءه التجاريين النشيطين جداً مستقرين في كل المرافئ الأوروبية، في مرسيليا وليفورنو وتريستا وبرشلونة بل وحتى في استوكهولم. ولما كان ملتزماً بالوقوف محايداً في الحرب الكبرى بين فرنسا وإنجلترا، حيث تلعب النمسا

---

(١) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

وروسيا وبروسيا دوراً قليل الأهمية، فقد كان يبيع كل ما يمكن لمصر أن توفره للطرفين المتحاربين من قمح وأرز وشعير وفول وعدس وبصل وصابون ونترون. ويرسل إلى الأسواق نفسها بعض المنتجات القادمة من شبة الجزيرة العربية أو من إفريقيا جنوب الصحراء مثل البن والصمغ والجلود والعاج ومسحوق الذهب. أما الحبوب الموجهة إلى إسطانبول، وكما لو كان مستقلاً عن الإمبراطورية العثمانية، فقد ملك الجرأة ليجعلها تدفع ضريبة خروج تقدر بعشرة إلى إثنا عشر قرشاً للأردب.

وفي القريب، لن يكتفي هذا التاجر السلطاني بالتصدير فقط. إذ سيدرك أن من مصلحته الاستفادة من البواخر التي تحمل الحبوب إلى مالطا حين عودتها إلى مرافئها فارغة لأنه سيجعلها تجلب بعض المواد المصنعة التي يبيعها في مصر بفوائد إضافة إلى آلات تحتاجها صناعته الفتية وأسلحة وذخائر لجيوشه البرية والبحرية.

ويظل يسعى دوماً وراء مصادر جديدة، دون أن يلتفت طويلاً إلى الطرق التي يحصلها من خلالها سواء أكانت شرعية أم لا. وكمثال على ذلك، تقوده إحدى حيله إلى تحقيق أرباح كبيرة من سك النقود وفي الوقت نفسه من تقلب الأسعار المفروض بطريقة عشوائية على سعر الصرف.

ودون الدخول في تفاصيل مملة، فإذا كان ما يقوم به نائب الملك لم يكن غريباً في حد ذاته، فإنه سيصير كذلك بالنظر لوضعيته كتابع. فأن يسك النقود وهو ليس إلا موظفاً في نظر الباب العالي، كان شيئاً فريداً. فقد كان سيد مصر يضارب في سعر العملات المختلفة المتداولة، ومستعملاً سلطته في رفع أو خفض قيمتها وفقاً لمصلحته في تلك اللحظة. فعندما يتقاضى ضريبة أو رسم فإنه يخفض من قيمة العملة، وعلى العكس من ذلك حين يريد أن يؤدي رواتب الجنود فإنه يعمد إلى الرفع من قيمتها. من جهة أخرى، يعطي أوامره بأن يقلل من معدن القروش المسكوكة، حيث لم تعد تشتمل في سنة ١٨١٥ إلا على ربع وزنها من الفضة. وفي النهاية، سيعدل محمد علي على تصرفاته غير

القانونية هذه وذلك بفضل تنامي موارده المالية الطبيعية، وكذا نتيجة إلى إعادة تنظيم إدارته.

وسرعان ما تمتلئ خزائنه بهذه الأموال متعددة المصادر، فتتيح له أن يجنّد المرتزقة، ويزيد من قوته العسكرية، وينشئ جيشه البحري، وباختصار إلى تشييد أهراماته الشخصية «يوفر محمد علي للطوارئ المستقبلية عشرين مليوناً في السنة. وهو يعتبر في هذه اللحظة، الباشا الأكثر ثراءً في كل الإمبراطورية العثمانية[1]».

قتل المماليك

في شهر أيار من سنة ١٨٠٩، يحكم محمد علي على أن الوضع صار أكثر أمناً، فيجلب من كافالا زوجته أمينة وباقي أفراد أسرته ببهرجة كبيرة.

ويمكن تصور، دون الوقوع في المبالغة، تأثر هذا الرجل الذي واجه طيلة السنوات الثمانية الماضية صعاباً كبيرة، عند لقائه بهم. وليس من المستبعد أن يكون قد نسي لليلة أو اثنتين أعباء السلطة، وجنوده المطالبين برواتبهم، والمماليك والإنجليز والفرنسيين.

وتمضي الشهور.

وتتضح معالم استراتيجيته التي تسم فترة حكمه والمتمثلة في ازدواجية التعامل مع فرنسا وإنجلترا. فيعلن لدروفيتي في شهر كانون الأول من سنة ١٨٠٩، أنه حتى لو قرر السلطان أن يدخل الحرب ضد الفرنسيين، فإنه هو، باشا مصر، سيظل محايداً. وسنة بعد ذلك، يعقد اتفاقاً مع شركة الهند الشرقية يتعهد فيها بعدم إذاية أي مواطن من مواطني صاحب الجلالة وبعدم المس بممتلكاتهم في حال قيام حرب بين الأتراك والإنجليز بل على العكس من ذلك تماماً، سيوفر لهم الحماية.

---

(١) إدوارد دروي في كتابه باللغة الفرنسية من خمسة مجلدات بعنوان «مصر وأوروبا. (١٨٣٩ ـ ١٨٤١) IFAO القاهرة ١٩٣١.

ومن المرجح جداً، أن ميله للاستقلال الفعلي بدأ يظهر في هذه اللحظة. ففي شهر آذار من سنة ١٨١٠ يسأل دروفيتي إذا كان بونابارت سيساعده في الحصول على وضع دولة بربرية[1]. وستصك هذه التطلعات أذني دروفيتي. ومع حذره الشديد من إنجلترا، فإنه سيعيد طرح السؤال نفسه على ميسيت سنة ١٨١٢، بعد عودة هذا الأخير إلى الإسكندرية قبل نحو عام من ذلك. فيرفض الإنجليزي أن يدخل في مفاوضات معه في ذلك الوقت، لكنه يمنحه ضماناً ببقاء إنجلترا في حالة سلم معه حتى لو دخلت إنجلترا في حرب مع الأتراك.

ولتصفية أجوائه، ماذا يبقى له غير تطهير مصر من الجرح المملوكي؟ وحقيقة أنه بعد فشل الهجوم البحري الإنجليزي، التحق به عدد كبير من أعدائه بعدما أعيتهم حياة الضياع التي كانوا يعيشونها، لكن تهديدهم يظل قائماً. فأتباع الألفي باي أيارزالون يمنون أنفسهم بحملة بريطانية جديدة وكبيرة. ويمضي أكثرهم تفاؤلاً إلى الاعتقاد بأنهم سيحصلون على أموال كثيرة من الإنجليز حين سيستعينون بهم للقضاء على قوات نائب الملك، والإطاحة به. وفي شهر حزيران من سنة ١٨١٠ يعودون للظهور على أبواب القاهرة والجيزة وعلى رأسهم شاهين باي، خليفة الألفي باي، ليجبروا الوالي على العودة إلى حمل السلاح. ويحاربهم في العشرين من شهر تموز في اللاهون قرب الفيوم حيث سيحقق نصراً كبيراً يظن معه أنه تم القضاء عليهم بشكل نهائي. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إذ أنهم سيعودون للظهور مجدداً كأفعوان بأكثر من رأس، مشكلين تهديداً حقيقياً. حينها يقرر ابن كافالا أن يقضي عليهم نهائياً.

ففي الفاتح من شهر آذار لسنة ١٨١١، وتحت ذريعة الاحتفال بتنصيب ابنه طوسون على القوات المصرية المتجهة إلى شبه الجزيرة العربية، يقرر أن يستدرج إلى القلعة في مصر نخبة القوى المملوكية، تضم أربعة وعشرين باياً،

---

(١) اشتقت الكلمة من البربر، والتي يبدو أنها عرفت في القرن الرابع عشر، ويقصد بها تحديد دول شمال إفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) التي كانت خاضعة للحكم العثماني.

وأربعين من كشافيهم أي عملاؤهم المحليون، مرفوقين بحوالي أربعمائة رجل[1]. وكان على رأس المماليك شاهين باي. ولعدم وجود شهود عيان، تظل هذه الأرقام غير مؤكدة بطبيعة الحال.

كيف تم الكمين؟

يمكن تخيل المماليك في ذلك اليوم، يستعرضون بأناقة كبيرة، وهم يضعون أجود ما لديهم من الثياب الواسعة من الكشمير والحرير، والتي تبدو كأنها صممت لهم لتجعل مشيهم على أقدامهم أمراً مستحيلاً، كما لو أنهم ولدوا متوحدين مع مطاياهم.

ويدخلون الحصن من الباب الجديد فيجدون الباشا وأفراداً من بلاطه في استقبالهم. ويبدي كرمه المعهود فيه، إذ يدعوهم إلى مائدته، ويجري أحاديث ودية مع أكثرهم أهمية.

وفي هذه المرحلة، نجد أنفسنا إزاء فرضيتين اثنتين، فبحسب بعض الرواة، تمت مراسيم التعيين في معسكر قبة العذاب، فأعطيت الأوامر وأخذ الموكب يقصد باب العذاب. في حين يرى آخرون، أن الاحتفال أخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة حين استأذن المماليك من مضيفهم للانصراف. وحقيقة الأمر، ليس ذلك بالأمر المهم، لأن ما سيحدث بعد ذلك هو الأهم.

يتحرك الموكب في نظام أعد سلفاً إذ يتقدمه حرس الباشا، يتبعهم المماليك، وخلفهم فرقة ثانية لعلها تضم الدلهيين، وهي آخر فرقة لمنع حدوث أي تراجع. ويستمر الموكب في التحرك على طول الخط المفضي إلى منحدر الخروج، الممتد من الباب الوسطاني إلى باب العذاب الذي يفتح على ساحة الروميلة. ولما كانت الطريق ملتوية وضيقة ومنحدرة فإنها لم تكن تحوي إلا ثلاث فرسان في الواجهة.

---

(١) الأرقام غير دقيقة، ذلك أن جبارتي يحصي حوالي أربعين اسماً، غير أنه يسارع إلى الإشارة إلى أن اللائحة أبعد ما تكون عن الحصر والاكتمال.

ومن أعلى الأسوار، كان الجنود الألبان يراقبون المماليك الذين يتقدمون في صف، متزاحمين حد أنه يشق عليهم العودة إلى الخلف.

ومن أن اجتازت طليعة حرس الباشا عتبة باب العذاب حتى كان آخر مملوك يترك الباب الصغير، فوجدوا أنفسهم جميعاً منخرطين في هذا العرض. وفجأة تدوي طلقة مدفعية. فينغلق الباب البرونزي الكبير لبابا العذاب على شاهين ورجاله، بينما يغلق خلفهم الباب الجديد والباب الوسطاني. وهكذا يتم الأمر، ويعلق خمسمائة رجل في الفخ. ويهطل الرصاص عليهم من فوق الأسوار، وتتم المجزرة في خليط من النار والدم.

وتدعي أسطورة أن مملوكي واحد استطاع الهرب، ويتعلق الأمر بأمين باي أخ الألفي. إذ شغلته بعض الأمور الملحة عن حضور الحفلة من البداية، فلم يصل إلى القلعة إلا عندما كان يغادرها الدلهيون. وما إن رأى الباب يقفل عليهم، ويسمع أول رصاصة تطلق، حتى أدار عنان حصانه وانطلق مسرعاً على مطيته ليصل إلى قرية البساتين ومنها إلى سورية[1]. وليس لهذه الرواية أدنى مصداقية وشهرة إذا ما قورنت بالرواية التالية التي أعيد نشرها في «المرشد المصري»[2] سنة ١٨١١ وبحسب الجريدة، فقد كان يتواجد في آخر الموكب، وعند سماعه إشارة المجزرة، اندفع على ظهر حصانه إلى داخل القلعة، وأخذ يدور في مكانه تائهاً وباحثاً عن مخرج له، ولما لم يجد أمامه إلا الأسوار العالية التي كانت تغرق في فراغ يرتفع بحوالي ستين قدماً لم يتردد. ويروى أنه وخز حصانه، وقفز في الهوة مضحياً بحصانه، ولكنه بقي سليماً. هل هي قصة حقيقية أم مجرد أسطورة؟ ولم يبق منها إلى اليوم في القاهرة، إلا إظهار المرشد السياحي لزوار القلعة عند تلك الجولات السياحية، المكان الذي حدث فيه

---

(١) فيشتر. (مصدر ذكر سابقاً). يقدم رؤية أخرى إذ يكتب «غادر أمين باي قاعة الاستقبال بعد أن انقلب فنجان قهوة على لباسه في حادثة عدم انتباه، ولما اعتقد أنه رأى في هذه الحادثة فألاً سيئاً، قرر الرحيل. . .».

(٢) السنة الثانية. الرقم ٢٦.

هروب الباي العجيب، والذي يطلق عليه اسم «قفزة المملوك».

بيد أنه يبدو أن شخصاً آخر بقي على قيد الحياة ويدعى سليمان آغا، والذي يدين بذلك لسعة حيلته إذ تظاهر بأنه مات، فاقتيد رفقة جثث رفاقه، حتى إذا أخرج من القلعة فر هارباً[1].

وقد كتبت أشياء كثيرة عن مشاعر وعواطف بل وحتى قلق نائب الملك.

ويروي كلو باي «كان شديد العصبية، وبدا خلالها مضطرباً. وكان يروح ويجيء بخطوات مهزوزة، صامتاً بشكل يبعث على الخوف (...) لم تحدث هذه المجزرة دون أن تخلف في نفس محمد علي انفعالات عنيفة (...) وترك هذا الحادث في نفسه مرضاً عصبياً صحبه لبقية حياته». من جانبه، يروي غوين «تقلص وجهه عندما بدأ إطلاق النار (...) وامتد صمت طويل ومؤلم لم ينقطع إلا عند دنو الطبيب الشخصي للحاكم، ماندريشي ابن جنوة، قافزاً وصائحاً بوجهه المبتهج «انتهى الأمر! هذا يوم عيد لصاحب السمو». ولم يرد نائب الملك، بل اكتفى بأن تغضنت شفتاه في احتقار، ورفع رأسه نحو الطبيب، وهو يرشقه بنظرة مليئة بالقسوة». أما بوكلر موسكو فيقول «حبس نفسه في الديوان في وقت التنفيذ، وأخلي المكان تماماً إلا من الباشا الذي بقي وحيداً. كان ممتقع الوجه، مضطرباً، وصامتاً بعينين مثبتتين، وقد نزع عمامته. وفي خضم لعلعة الرصاص، كان انفعاله قد بلغ به مبلغاً عظيماً وكأنه شعر قلبه يهوي، حد أنه طلب قليلاً من الماء». أما اللوحة المشهورة التي رسمها هوراس فيرني فإنها تقدم محمد علي حاضراً المذبحة بوجه جامد.

والحقيقة، واحتكاماً إلى شخصيته وما قام به في الماضي من أعمال، فمن المرجح أنه استطاع أن يتحكم في نفسه تماماً. وإذا ما أظهر بعض علامات

---

(١) موسكو في (مصدر ذكر سابقاً). من جانبه كتب فيشتر في (مصدر ذكر سابقاً) «لما كان سليمان آغا حذراً، فقد ترك الموكب في ساحة الرميلة، ليختبئ بمسجد السلطان حسن. ولما عفا عنه محمد علي صار كاتبه...».

الانفعال، يمكن أن يرجع ذلك إلى السؤال الوحيد الذي كان يستحوذ على باله وهو الفشل الجزئي أو الكلي لهذه العملية. فبحسبه، لم تكن هذه العملية، مهما بلغت درجة وحشيتها، إلا عملية عسكرية من بين عمليات كثيرة أخرى. وهذا ما كان عليه الأمر فعلاً. فقبل إرسال جيشه إلى شبه الجزيرة العربية، ولمعرفته الكبيرة بالموارد العجيبة التي يملكها المماليك، ومزاياهم التي جعلت منهم أمراء التآمر والحيلة. وعليه، ما كان يمكنه أن يدخل حرباً من دون أن يؤمن ظهره؟ كان سيكون ذلك جنوناً خالصاً.

هل يجب تذكير من يستنكر هذه العملية أنها تدخل بشكل طبيعي في إطار ما كان معروفاً في الأعراف السياسية لذلك العصر ولتلك المنطقة؟ فالصدر الأعظم والقبطان باشا قاما بمثل ذلك في أبو قير والقاهرة في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٠١، وسيقوم السلطان محمود الثاني بعمل مشابه ضد الانكشارية في إسطانبول[١] سنة ١٨٢٧. وقام بونابارت شخصياً في شهر آذار من سنة ١٧٩٩، وتحت أسوار يافا، بقتل حوالي ألفين وخمسمائة سجين[٢]، دون أن يرف له طرف. وهل يجب أن نذكر الطريقة التي تخلص بها فيليب لوبيل من المعبدين؟ وفيما يتعلق بالأعمال الوحشية، فحتى القرن العشرين لم يتخلف عن تقديم حصته من البشاعة. فقائمة الأعمال الوحشية التي ترتكب خدمة للسلطة طويلة جداً وغير منتهية. ونحن نعلم أنه في مستنقع السياسة والحرب، قاعدة واحدة تتسيد ما دونها وهي إرواء الطموح مهما كان الثمن الذي يدفع لأجل ذلك.

---

(١) ليتخلص السلطان من هذه الفرقة العسكرية التي أضحت معتدية جداً، وتضم عناصر يعتدون بأنفسهم ولايتقيدون بأي ضابط، أمر بأن يباد أفرادها، وفي غضون ساعات كانت رقاب أزيد من ستة آلاف منهم قد مرت على حد السيف.

(٢) بعد عشرين سنة من ذلك، وخلال حديث حول حصار يافا بين نابوليون وبين طبيبه أميرا في سانت هيلين، قال بونابارت «أمرت بإعدام ما بين ألف وألف ومائتين سجين أسروا في العريش، ذلك أنهم استهانوا باستسلامهم فألفيناهم حاملين السلاح في يافا، وعفونا عن الباقين الذين كانوا بأعداد كبيرة». وهو شرح لايستند إلى أساس، ذلك أنه كان يوجد في حامية يافا مدافعون عن العريش لم يفوا بتعهدهم غير أن عددهم لم يكن يتجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة رجل.

ويكتب السير شارلز موراي «إذا ما حاكمنا محمد علي بعيون الأجانب فإننا نعلنه مذنباً أتى جرماً شنيعاً، وعمل غادر غير مسبوق. وعلى العكس من ذلك تماماً، إذا ما حكمنا على أفعاله بحسب وجهة نظر مواطنيه، ستتم تبرئته دون عناء». ويضيف مدققاً «وإذا فحصنا بشكل كلي الاتهام الموجه إلى محمد علي، فسنقر دون عناء أنه لم يخالف في شيء ما عرف عن عصره. وعندما يمر سائح فرنسي ويستنكر جريمة نائب الملك، فإنه سيسارع إلى مقارنته بقتل دوق إنغيان، وسيخلص بأن عمل نابوليون كان أكثر شناعة من عمله».

لم تكن مصر تتسع لسلطتين، فكان على واحدة منهما أن تختفي. وبالنظر إلى هذا، فمن دون شك أن الباشا لم يجد أي مجال للتفاخر في «عملية السلاح» هذه. وعندما عبر الأمير بوكلر موسكو سنة ١٨٣٧ لنائب الملك عن أسفه كون تاريخ بدايته لم يكن معروفاً كفاية، رد عليه «لاأحب هذه الفترة من حياتي. ماذا سيستفيد العالم من رواية تتضمن سلسلة كبيرة من الصراعات والبؤس والخبث والدم التي أجبرتني الظروف على إراقته؟ لايبدأ تاريخي إلا في الفترة التي تحررت فيها من كل الإكراهات، وتمكنت من أن أنزع هذه الأرض من نوم عمر لعصور».

ولم تكن مذبحة الفاتح من شهر آذار لسنة ١٨١١ إلا مقدمة لعملية مطاردة منظمة للمماليك في أغلب المدن، استثنيت منها زوجاتهم فقط. وبعد أن قل عددهم وغاب رؤساؤهم عن الساحة، ولم يعد لهم أي دور سياسي أو عسكري، التحقوا بجيش محمد علي.

ومن الآن فصاعداً، يمكن لنائب الملك أن ينطلق إلى الحرب ضد الوهابيين التي طلبه بها الباب العالي بإلحاح كبير. ومادام قد تخلص من كل تهديد داخلي، فسيضع نفسه تحت أمر السلطان، وسيقوم بذلك كتابع جيد.

وهذه على الأقل هي الصورة التي سيمنحها إلى السلطان الأعظم.

[7]

الفرعون والأصوليون (١٨١١ ١٨١٥)

أسس رجل يدعى إبن عبدالوهاب حوالي منتصف القرن الثامن عشر، في قلب الجزيرة العربية، مذهباً سيعرف فيما بعد باسم الوهابية[١].

وكانت هذه العقيدة تدين كل ما استحدث على يد الخلفاء منذ العهد الأموي، وذلك للانحصار في تفسير صارم لشريعة القرآن. وكانت تهدف إلى إرساء قواعد إسلام «نقي» في شبه الجزيرة العربية، وفي كل العالم الإسلامي، شبيه بما كان أيام النبي وخلفائه الأقربين.

وسرعان ما سينفرد هذا المذهب بالتطبيق الحرفي للحدود المقررة في القرآن كرجم النساء الزانيات، وقطع يد السارق. ويضاف إلى هذا منع تدخين التبغ، والموسيقى واللهو ووضع الحلي، وبصفة عامة كل شكل من أشكال تطور شريعة القرآن. وحتى اليوم، ما يزال هذا المذهب هو الدعامة الأساسية التي يعتمد عليها الحكم في المملكة العربية السعودية.

ومنذ أن ظهرت هذه الحركة التي ترفض بطبيعة الحال الهيمنة العثمانية، حتى أخذ النفوذ الديني للسلطان محمود الثاني يضعف بشدة. وكخليفة للمسلمين، كان يتعين عليه أن يضمن للعالم الإسلامي استمرارية وأمن الحج، وبالتالي الدفاع عن أراضي المسلمين المقدسة. فكان لزاماً إذن على الباب العالي أن

---

(١) توفي عبد الوهاب سنة ١٧٤٠، وخلفه ابنه محمد.

يقاتل هؤلاء المتمردين المتعصبين، وإعادة سلطته على المدن المقدسة.

ولأنه كان مشغولاً في الحرب ضد الروس، فإنه لم يفتأ ما بين سنتي ١٨٠٧ و١٨١١ من أن يلح على محمد علي في أن ينخرط مكانه في هذه الحرب في شبه الجزيرة العربية.

وإذا ما عهد الباب العالي لابن كافالا بباشوية جدة في وقت سابق، فقد كان ذلك فقط بنية التخلص منه، وللتصدي للوهابيين بواسطة منافس برهن على كفاءة عسكرية وسياسية. وفيما بعد، أخذت أوامر الباب العالي تتكرر لما آلت إليه الأوضاع المأساوية في شبه الجزيرة العربية.

ولكل هذه الأسباب المتمثلة في ضعف السلطة الناشئة، ونقص في العتاد العسكري وقلة الأموال، والاضطرابات الداخلية، دفعت محمد علي إلى المرواغة في تنفيذ الأمر، محاذراً أن يجازف بالارتماء في أمر بمثل تلك الخطورة. وإذا انتهى في شهر نيسان من سنة ١٨١١ إلى القبول أخيراً، فلم يكن ذلك بكل تأكيد مستوحى من تفانيه وإخلاصه. فمحمد علي ليس بالرجل الذي يضحي من أجل شيء يسمى واجباً، والماضي برهن على ذلك. فمصلحته الشخصية تأتي في المقام الأول. ولئن قرر أخيراً الارتماء في أحضان هذه المغامرة أخيراً فلأنه عرض الفوائد التي يمكنه أن يجنيها من خلالها. وإحداها، وهي الأهم على الإطلاق مرتبطة بحلمه بالاستقلال الذي يداعبه سراً. وكان يعلم أنه إذا ما أراد الاستقلال سيحتاج إلى قوة عسكرية أكبر، وإلى مزيد من الثروة. وتوسيع الطريق التجارية المصرية سيكون أحد الوسائل للجمع بين هاتين الحاجتين.

وكانت موكا شأنها في ذلك شأن مسقط، تقوم بتزويد المراكب بشكل منتظم، والتي كانت تنشط على طول الشواطئ الإفريقية، في حين كانت أساطيل حقيقية تأتي من الهند في شهر أيار لتعود في شهر تموز محملة بمختلف أنواع المحاصيل والمؤن. وكان للمينائين خمسين مركباً تعود لصانعيها الذين كان أغلبهم أثرياء جداً. فهنا إذن يكمن مورد أول لايمكن لأي من سادة مصر

أن يتجاهله. لكن ومنذ سقوط الحجاز تحت سيطرة الوهابيين، لم تعد تصل إلى السويس أي حمولة قادمة من الهند، فأجبرت مصر على التزود بالبن الأمريكي عن طريق مالطا.

وينقل دروفيتي إلى تاليران في شهر حزيران من سنة ١٨١١، أنه ومن خلال مقابلة سرية مع الباشا، تعرف على مشاريعه وخططه ورغبته في امتلاك سفن تجارية تتمتع بالحياد في حال نشوب حرب بين الباب العالي وإنجلترا[١].

وبعد أشهر من ذلك، أي في شهر تشرين الثاني، يقدم محمد علي للوزير نجيب أفندي مقترحاً خاصاً يتضمن مكراً من جانبه إذ يقول «في حال قيام نزاع بين بريطانيا العظمى والإمبراطورية العثمانية، يمكن للباب العالي أن يرفع محافظة مصر إلى مستوى الدولة المستقلة مثل الدول البربرية. ويمكن لمصر المحافظة على صلاتها الذكية مع إنجلترا، أن تزود تركيا بكل ما تحتاجه. ومن جهة أخرى، لن يمس المهمة العثمانية في أراضي الإسلام المقدسة أي عائق. وعند انتهاء الحرب، يمكن للسلطان دوماً أن يعيد مصر إليه كولاية عادية[٢]».

ويمكن ملاحظة الدهاء الذي تضمنه هذا الاقتراح، غير أن الباب العالي يشك في ذلك فيصم أذنه عن هذا المقترح. ويمضي محمد علي في سعيه، إذ يلح على إسطانبول بضرورة قيام حملة عسكرية كبيرة تحت قيادته ولاتنطلق فقط من مصر، ولكن أيضاً من سورية وبغداد. وبهذه الطريقة، كان يأمل في الحصول دفعة واحدة، ودون عنف، على موارد البلدان الثلاثة إضافة إلى قواها العسكرية[٣]. وكانت فكرة الاستيلاء على سورية، بدأت تساوره بقوة قبل أن تتحول إلى هوس بعد ذلك. ومرة ثانية، تشم إسطانبول رائحة الفخ، وبعد عدة رسائل متبادلة بين الطرفين كأنهما يلعبان لعبة «من يخسر يربح»، يقرر محمد

---

(١) قطاوي في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «محمد علي وأوروبا». باريس. ١٩٥٠.

(٢) أنظر كتاب صبري باللغة الفرنسية بعنوان «الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والقضية الشرقية (١٨١١ ـ ١٨٤٩)». باريس ١٩٣٠.

(٣) المصدر السابق.

علي أخيراً أن يجهز حملته، وفي أعمق نقطة في نفسه، كان يعلم مسبقاً أن ما استعصى عليه بواسطة الدبلوماسية، سينتزعه يوماً ما بالقوة.

سفن وأسلحة وبارود

وكان عليه أن يجد المال، قبل خوض غمار هذا الأمر. فحملة كتلك تستلزم معونات كثيرة. وللحصول عليها دون أن يريع الرأي العام، يجمع مجلساً من الشيوخ والوجهاء وينتزع منهم بالغصب والرضى ثمانين ألف بورصة. ويقرر بعد ذلك، أن يقصد الأقباط مرة أخرى. ثم يقبض على معلم غالي وأخيه وهو يوناني كاثوليكي، وكان خليفة للجواهري، ويفرض عليهما ستة آلاف بورصة. وكانت هذه بداية بسيطة فقط، إذ ما إن يصل إلى جدة حتى يفرض على تجارها قرضاً إلزامياً بقيمة ثلاثين ألف تالاريس.

ولم تكن مصر في ذلك الوقت تملك أي صناعة عسكرية. ولا حتى معمل صغير قادر على صناعة طبنجة. فيقرر نائب الملك إذن أن ينشئ في الإسكندرية وفي القاهرة جزءاً من المعامل الضرورية.

وكان يلزم أيضاً التوفر على مدافع والبارود. فيطلب نائب الملك من إسطانبول أن تمده بخمس وسبعين قدراً من النحاس من فئة تسعمائة واثنين وسبعين أوقية[1]. وهذه أحجام غير مألوفة! بيد أن فكرة طرقت رأس أحد الصناع، وتقتضي بأن يسيلها في قوالب عوض أن يطرقها، ويرسل الطلب أخيراً إلى ميناء الإسكندرية على متن قوارب مصرية. ومنذ ذلك الحين، أضحت وتيرة التصنيع مسرعة جداً، حد أن مصر صارت أهم ممول للبحرية الإمبراطورية والتي كانت تزودها من قبل بالحبال والفتيل. غير أن ذلك لم يكن بمقدار أهمية إنشاء بحرية في البحر الأحمر الذي لم يتوفر أحد عليها منذ قرون[2].

---

(١) ١١٢٣ كلغ.

(٢) ديران فيال، في كتابه باللغة الفرنسية من مجلدين بعنوان «الحملات البحرية لمحمد علي». باريس ١٨٣٥.

ففي الوقت الذي فكر فيه محمد علي في التدخل في شبه الجزيرة العربية، أدرك ضرورة توفره على أسطول بحري أو للنقل، وذلك لضمان الاتصال مع الفرق العسكرية المعدة للعمل العسكري داخل البلاد. وإذا ما انطلق الفرسان من حدود مصر، يمكنهم أن يسلكوا طريق الساحل حتى الوصول إلى مواقف الساحل مثل يامبو وجدة، ومن هناك تمضي صاعدة باتجاه المدن المقدسة، بيد أن الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لفرق المشاة. أما بخصوص العتاد والتموين فيمكن أن تنقل عبر البحر مع بعض فرص النجاح. ولكن الميناءين اللذين تملكهما مصر لايملكان أي مركب ولو كان صغيراً. ويعاني سكانهما من شح في الموارد وخصاص كبير في الخشب. ليس هناك إلا حل واحد إذن، وهو نفسه الذي أمل الفرنسيون في الاستفادة منه حين وصولهم سنة ١٧٩٨ إلى شواطئ البحر الأحمر، حيث حاولوا انطلاقاً من هنا ربط علاقات مع الهند، حيث أقام المهندس فيرو وبناء على أوامر بونابرت، مصنعاً في بولاق مخصصاً لصناعة زوارق حربية تنقل مجزأة على ظهر الإبل حتى السويس حيث يتم تجميعها. وهذا بالضبط ما يقرر ابن كافالا أن يعيد عمله. فاستعاد مصنع بولاق الحياة، وفي غضون عشرة أشهر وبخشب جلب أساساً من الأناضول، يتمكن عمال من الإسكندرية ومن أوروبا من تجميع كل القطع لتشكيل أسطول صغير مكون من ثماني عشرة سفينة تتسع لحمل ما بين مائة ومائة وخمسين برميل[١].

وتحت حماية بعض التحصينات، تقام في السويس أوراش لتجميع مكونات السفن. لكن الشيء الصعب كان تنظيم حركة النقل التي كانت تتم على ظهر الإبل. فتستعمل لهذا الغرض حوالي عشرة آلاف منها، قضي على المئات منها تحت تأثير الوزن الزائد.

وعندما أخذت الأشغال تأخذ مجراها الطبيعي، شرع إذن في تكوين طواقم، فاستخدم لهذا الغرض بحارة من الإسكندرية وملاحي النيل. والواقع أن الأمر

---

(١) المصدر السابق.

هنا يتعلق بأسطول صغير مكون من زوارق مسلحة، لكن الأهم هو أن يكون قادراً على سد حاجات الحملة المرتقبة.

ولايتغذى جيش من سلاحه، فيجب إذن تموينه بالطعام. وهكذا تم إنشاء مخازن للقمح في القصير والسويس.

وأخيراً، وفي بداية شهر تشرين الأول من سنة ١٨١١ يركب البحر ثمانية آلاف رجل، مقسمين بين ستة آلاف من الألبان المشاة وألفي فارس، جعلوا تحت إمرة طوسون البالغ من العمر آنذاك ثماني عشرة سنة، وكان من حكمة نائب الملك أن جعل من خزنداره أحمد مساعداً له، وهو رجل بتجربة كبيرة، اشتهر بشجاعته حد إنهم لقبوه في مصر بـ. . . بونابرت[١].

الفرعون حارساً للأماكن المقدسة

كانت البدايات تعيسة، فبعد الاستيلاء بدون صعوبات تذكر على ميناء يامبو ومدينة زوبة في شهر كانون الثاني من سنة ١٨١٢، أخذت قوات طوسون تتجه صوب «الحدود المقدسة»، أي المدينة حيث كان ينتظرهم فشل مدو. وكانت الطريق المؤدية إلى المدينة المقدسة تعقب شعاب صفرا والجديدة، وكانت طويلة لمسافة ستة فراسخ وضيقة جداً حد أن جملاً كان بالكاد يستطيع المرور منها. فيلقي طوسون رجاله هناك دون تبصر، فإذا بهم يفاجؤون بمحاربين من قبيلة حرب ينقضون عليه، ويجبرونه على التراجع إلى يامبو مع بقايا جيشه. ولحسن حظه ان أعداءه لم يدركوا كيف يستفيدوا من نجاحهم. فعوض ملاحقته حتى الميناء، اكتفوا بتعزيز معسكرهم في قلعة المدينة تاركين للسكان مهمة الدفاع عن مواقعهم في صفرا.

ومع أن هذه الهزيمة هزت محمد علي هزاً عنيفاً إلا أنه يسارع في مد ابنه بالتعزيزات. وقد استفاد بقناعة من هذا الفشل تمثل في أن أغلبية الرجال الذين

---

(١) غوان. (مصدر ذكر سابقاً).

قتلوا في الشعاب كانوا من الألبان. فبطريقة غير مقصودة خلص رجال سعود مصر من عبء هؤلاء المرتزقة الفوضويين.

وتمضي الأيام، وترشى القبائل المكلفة بحراسة الشعاب بقطع ذهبية، وفي بداية شهر تشرين الأول من سنة ١٨١٢ يعاود القائد الشاب هجومه، وفي هذه المرة، يبتسم الحظ له.

فيستولي على المدينة في شهر تشرين الثاني من سنة ١٨١٢ بعد حصار دام أسبوعين، وهجوم أودى بقسم من رجال المعسكر. وفي شهر كانون الأول يقصد جدة. وقابله بها عائق آخر. إذ سيضطر الجيش المصري إلى التوقف على يد فرقة وهابية تحت قيادة... إمرأة تدعى غالية من قبيلة بيغوم. ومن اشتباك إلى آخر، ستهزم المرأة المحاربة أخيراً، ليتمكن طوسون من الدخول إلى جدة بكل حرية. وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨١٣ سيدخل مكة ومن بعدها الطائف. وفي أواخر الشهر نفسه، يصل إلى القاهرة خبر الاستيلاء على الأماكن المقدسة، ويمكن بسهولة كبيرة تخيل وقع هذا الخبر في مصر وفي تركيا وفي كافة أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة.

فيهرع من فوره إسماعيل، الإبن الثالث لنائب الملك، إلى إسطنبول رفقة لطيف باي (الذي سيتم الحديث عنه لاحقاً)، لتقديم مفاتيح المدينة ومكة إلى السلطان، الذي يستقبل الرجلين استقبالاً كبيراً يليق بالمناسبة. فتتكدس الهدايا أمام أقدام إسماعيل من سيوف وخناجر قيّمة، وقنابر ورياش طعمت بالماس، وأهديت لنائب الملك فروة وشالات من الكشمير. في الوقت نفسه أرسل مبعوث إلى الإسكندرية لتقديم تهاني السلطان إلى محمد علي. وبطبيعة الحال، يضاف إلى لقب محود الثاني «الغازي» كأنما يرجع لنفسه إعادة الفتح الذي كان يتطلع إليه بشدة.

وفي السابع من شهر تموز يرسل الميجر ميسيت الذي يستمر في مراقبة حركات وأفعال ابن كافالا؛ تقريراً إلى رؤسائه جاء فيه «حتى الآن، كان يعتبر محمد علي باشا في نظر الباب العالي متمرداً إلى درجة معينة. فبالكاد حصل

على لقب باشا، وحالة الضعف وحدها هي ما منعت الحكومة التركية من قلب حكمه في مصر. والباشا يعلم بنفسه ما يحمله الباب العالي له، وهو ما شجعه على الاستمرار في تحديه. وقد تغير وضعه الآن تغيراً تاماً، إذ أن استيلاءه على الأراضي المقدسة التي اغتصبها الوهابيون قضى على الانطباع السيء الذي كان يقابل به، وجعل الباشا صاحب حظوة لدى سلطانه. (. . .)
ولست أفهم كيف أهملت تطلعاته إلى التوسع والاستقلال[1]».

وعلى كل حال، فعلى الرغم من كل انتصاراته الهامة، إلا أن الأمر لم ينتهي بعد. فإذا كانت الحجاز قد خضعت إلى سلطانه، يبقى الوهابيون منتشرين في بقية شبه الجزيرة العربية. فسعود لم يعلن بعد هزيمته، ويقوم ابنه بالإعداد لهجوم مضاد. ومنذ بدايتها، أخذت هذه الحرب لحد الآن حياة أزيد من ثمانية آلاف رجل، ومثلها من الدواب، وكلفت خزائن الدولة مائة وسبعين ألف بورصة.

ولما كان محمد علي قلقاً بدون شك، ومحتاجاً للوقوف بنفسه على حقيقة الوضع هناك، وما يتطلبه من إمكانات للقضاء بشكل نهائي على الحركة الوهابية، يقرر أن يقصد شبه الجزيرة العربية. وقبل أن يغادر بحراً، يسلم حكومة القاهرة إلى محمد لازوغلو رجل ثقته، ومصر العليا إلى ابنه إبراهيم، ومصر السفلى إلى أخ زوجته حسين باي[2].

وفي الثامن والعشرين من شهر آب لسنة ١٨١٣ كان يمخر عباب البحر صحبة ستين شخصاً من أتباعه وحوالي ألفين رجلاً من سلاح المشاة، في حين كان حوالي ألف فارس وثمانية آلاف جمل يسلكون طريق البر.

ويصل إلى جدة خلال شهر أيلول، ومنها يقصد مكة حيث يدخلها بطريقة رسمية في السادس من شهر تشرين الأول. وسرعان ما تحلق حوله العديد من زعماء قبائل البدو، ومن بينهم الشريف غالب، رجل سعود القوي، فيقدمون له

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).
(٢) المصدر السابق.

دية محترمة وينضمون إلى صفوفه. ولم يكن دعم غالب بالخالي من المصلحة أو البريء إذ كانت أهم موارده تعتمد على الرسوم المحصلة من ميناء جدة. ولكن، ومنذ بداية الحملة، والسيطرة الوهابية بلغت عائداته حدوداً دنيا. وفي مراسلة سرية، تعهد محمد علي بضمان الأمن في المنطقة، وبالتالي عودة التجارة إلى المرفأ، وهي عوامل جعلت الشريف يأمل في عودة الازدهار إلى أعماله. وسيتضح سريعاً أن غالب حليف خطير، لن يستنكف في اهتبال أول فرصة للقضاء على سيده الجديد. فيقبض عليه محمد علي ويرسله وأبناءه الثلاثة إلى مصر. وفي وقت لاحق، سينفى إلى سالونيك حيث سيموت هناك[1].

وحيثما توجه الكافالي، لم يكن يتوانى عن توزيع الذهب والفرو على المنضمين إليه. ويقرر بالموازاة مع ذلك، تخفيض الضرائب، ويقدم العون للمحتاجين، ويعدد من الأعمال التي تظهره عادلاً وكريماً.

ويستغرق في الأسابيع المقبلة في إعداد جيشه للحملة القادمة. وفي تلك الأثناء، أي في شهر أيار من سنة ١٨١٤ يموت سعود فجأة. وبغيابه، يختفي أشد المدافعين عن المذهب الوهابي. وبصورة غريبة، وبعد البرديسي والألفي، ها هو الموت يأتي لينقذ ابن كافالا للمرة الثالثة، لأن أكبر أبناء سعود، عبدالله لم يرث من والده كياسة الحكم أو قدرته على الدفاع عن المصالح السياسية لقبائل الصحراء. فيجد محمد علي في خصمه الجديد، شخصاً متردداً، وضعيفاً غير قادر على حمل المشعل الوهابي.

ويعود في شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها موسم الحج. فبعد أن منعت مكة لوقت طويل عن الحجاج هي ذي تفتح أبوابها من جديد في وجوه الحجاج الذين هرعوا إليها بأعداد كبيرة، قدرها بعض الرواة، ومن بينهم دريو وغوين، بحوالي ثمانين ألفاً.

وتسافر أمينة هانم، زوجة محمد علي، هي أيضاً إلى شبه الجزيرة العربية.

---

(١) موريز. (مصدر ذكر سابقاً).

ويروي جبارتي بأنها صحبت إلى السويس من قبل ابنيها إسماعيل وإبراهيم، إضافة إلى أزواج بناتها ومن بينهم زوج توحيدة، محمد باي الدفتردار الذي عرف بشخصيته سيئة السمعة. وما إن صعدت المركب حتى وصلتها شكاوى الحجاج المتعددي الجنسيات، من ارتفاع تكاليف الرحلة التي فرضها عليهم حاكم المدينة، والتي وصلت إلى خمس وعشرين تالاريس. وتهدد أمينة هانم بأنها ستلغي سفرها إذا لم يصعد معها كل الركاب الحاضرين إلى السويس في اللحظة نفسها، وأنها ستحدد شخصياً المبلغ الذي سيؤديه أياً منهم. وتؤكد القصة مزايا هذه المرأة واستثنائية شخصيتها وهو ما يفسر تعلق محمد علي بها والاحترام الكبير الذي كان يحمله لها. ويصف دريو الذي تعرض بكثير من التفاصيل إلى وصولها إلى جدة، بأن رحلتها كانت من العظمة بحيث تبدو «لم تكن سميراميس في السابق أكثر فخامة...».

وتبدأ الحملة من جديد في بداية سنة ١٨١٥، وفي هذه المرة، يتولى نائب الملك شخصياً قيادة جيشه قاصداً الهدف التالي، مدينة طرابة.

وفي السابع من شهر كانون الثاني يتقدم الجيش باتجاه كولات، وفي العشرين من الشهر ذاته يصل إلى بيزيل حيث يجد نفسه أمام أكبر تمركز لجيوش العدو، إذ أن هناك ما يقارب ثلاثين ألف محارب، اتخذوا مواقعهم على طول جنبات الجبال المطلة على السهول. وكان ميزان القوى يرجح كفة الجانب الوهابي من الناحية النظرية، لكن هذا دون إدخال نقطة مهمة وهي أن رجال عبدالله، على خلاف الجيش المصري التركي، لم يكن يملك مدفعية. إضافة إلى ارتكابهم لخطإ استراتيجي حين تخلوا عن مواقعهم المرتفعة التي كان الوصول إليهم فيها صعباً جداً إن لم يكن مستحيلا. وعلى الرغم من أن عبدالله كان يعلم الفخ الذي نصبه له محمد علي إلا أنه تقدم إليه.

وبعد أن تظاهر نائب الملك بالهجوم، عاد وأمر قواته بالتراجع. فلم يتردد عبدالله بتعقبه فيغادر نتيجة لذلك موقعه المتميز. وما إن يبلغ السهل حتى تنقض عليه فرقة الفرسان المصرية التي كانت مختفية هناك، وكانت المجزرة...

وهكذا، فقد تمكن الباشا الذي حارب في الصف الأول من إضافة نصر آخر ينضاف إلى النصر الكبير الذي حققه سنوات قبل ذلك على الإنجليز. ومنذ ذلك الحين، أضحى جيشه مهاب الجانب ليس فقط في المنطقة، ولكن في كل حوض البحر الأبيض المتوسط. ولما ازداد قوة بنصره هذا، استولى تباعاً على مدينتي طرابة وبيشة الواقعة شرق جبال اليمن، فسارعت القبائل المستوطنة المنطقة إلى إعلان ولائها له. وبعد توقف في قنفذة، يعود مرة أخرى إلى مكة حيث يدخلها في الحادي والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨١٥.

فيجد عبدالله نفسه مرغماً على توقيع اتفاق مع طوسون يحظر عليه أي تدخل في شؤون الحجاز.

دسائس الباب العالي

تعرضت الحركة الوهابية لضربة قاصمة، غير أنها لم تستطع القضاء عليها نهائياً. فمثل أفعوان المماليك ستبعث من رمادها مرة أخرى. كان طوسون صغيراً جداً، وكان لزاماً على محارب من طينة محمد علي أن يواصل القتال، وكان هذا الرجل هو إبراهيم أكبر أبناء الباشا. وبهذا الخصوص، أتى في تقليد عربي أنه وقبل أين يشرع في حملته، جمع نائب الملك كل وزرائه في القاهرة وجنرالاته لكي يتناقشوا في الوسائل التي ينبغي الأخذ بها. وبعد أن أبلغهم بخططه، أشار محمد علي إلى تفاحة توسطت زربية واسعة فرشت في القاعة. وطلب منهم قائلاً «من يتمكن منكم أن يأتيني بهذه التفاحة دون أن يضع رجليه على الزربية سيكون قائد هذه الحملة» ويحاول كل بدوره أن ينجح عبثاً في هذا الامتحان، بعد أن يتمدد أرضاً ويمد ذراعه. ينتهي بهم الأمر إلى الإعلان بأن المهمة مستحيلة. وهكذا، وبدعوة من نائب الملك، يتقدم إبراهيم لتجريب حظه، وبما أنه كان قصير القامة، لم يشك أحد في فشله. فانطلق إلى الزربية، متجاهلاً سخريتهم، وطوى الزربية حتى تناول التفاحة ومدها إلى محمد علي.

وتبقى هذه القصة مشكوك فيها كما يذهب إلى ذلك المكتشف والدبلوماسي

الإنجليزي وليام بالغريف[1] والتي لاتعكس طبيعة الصعوبات التي كان ينبغي تجاوزها إذا ما أريد فعلاً غزو هذه المنطقة «كان ينبغي أن تلف الزربية العربية بحذر وبحس استراتيجي حاد، وضمان أمن التواصل قبل التوغل في أعماق شبه الجزيرة العربية».

ويقرر محمد علي أن يعود إلى مصر مادام قد أنهى مساهمته في الحرب على الوهابيين. وتم الحديث في كثير من الأحيان أن عودته كانت مفاجئة لحدوث أمرين طارئين دفعة واحدة في مصر وأوروبا.

فمن جهة أولى، سرى خبر حتى وصل يامبو مفاده أن تمرداً شهدته العاصمة المصرية، وأنه من تدبير الباب العالي، في حين تأكد خبر مغادرة نابوليون بونابرت لجزيرة إيلبي وعودته إلى فرنسا من جهة ثانية. وقد اقترح العديد من المؤرخين أن رجوع الباشا إلى مصر السابق لأوانه كان بسبب هذين الحدثين الهامين جداً، لكن ذلك غير مؤكد تماماً. وللحديث عن الحدث الأول المتعلق بـ «الانقلاب» الذي من المفروض أن القاهرة كانت ستتعرض له، فالقصة تعود إلى أواخر سنة ١٨١٣، والتي يعد بطلها لطيف باي الذي كان قد استقبل منذ وقت قريب في إسطانبول، رفقة إسماعيل بحفاوة وترحيب كبيرين، وهو مملوك من أصل جورجي، كان ملكاً لشخص يدعى عريف باي الذي أهداه إلى محمد علي. وبحسب ما يخبر به جبارتي، فقد نزل في قلب محمد علي منزلاً حسناً، ما دعاه إلى ترقيته بشكل سريع، وسيختاره فيما بعد نائب الملك لمرافقة إبنه إلى إسطانبول، دون أن يساوره الشك من أن هذه المهمة قرب الباب العالي ستمكن تابعه من الحصول على جائزة شرفية، وهو ما لم يكن مخططاً فيه، إذ سيمنح لطيف لقب باشا، وهناك بعض الرواة، ومن بينهم ريني وجورج كتاوي سيذهبون إلى أن السلطان طلب منه أن يستغل غياب محمد علي للقيام بانقلاب

---

(١) كتاب من مجلدين بعنوان «رحلة سنة في الجزيرة العربية الوسطى (١٨٦٢ ـ ١٨٦٣)» ترجم من الإنجليزية بواسطة إ. جوفو. باريس ١٨٦٦.

عليه، ويضيفون إلى أن المملوك كان يحتفظ في السر بفرمان موقع من قبل السلطان شخصياً يقضي بتعيينه والياً على مصر خلفاً لابن كافالا. وليس هناك أي وثيقة تثبت صحة هذا الطرح. بالمقابل، وإذا ما اعتمدنا على جبارتي، فإنه يروي أنه مباشرة بعد عودته من إسطانبول، بدا مأخوذاً بنشوة لقبه الجديد، فأضحى سلوك الجورجي «متكبر جداً، وكثير الادعاء» حتى ينتهي به الأمر إلى جلب عداء ليس فقط غالبية رجالات الدولة المصرية، ولكن خصوصاً محمد لازغلو كتخودا[1] نائب الملك، والعدو الدائم للمماليك[2]، غير أن هذا الأخير كان مكلفاً بمراقبة السيد لطيف باي، وهو ما يثبت مرة أخرى بأن محمد علي كان يشك في كل شيء، وفي أي أحد. وسرعان ما سرت شائعة في شوارع مصر، لايعلم إن كانت تستند إلى أساس أم لا، بأن الخيلاء أعمى لطيف، ومقتنعاً بأن محمد علي لن يعود حياً من شبه الجزيرة العربية، أخذ يعد لقلب الحكومة، فبلغ الخبر لازغلو الذي سعد أنه سيتمكن أخيراً من التخلص من المملوك، فيهرع إلى جمع كبار المسؤولين حوله الذين سيجمعون على القضاء على لطيف، وابتداءً من اليوم الموالي، يطوق الجنود بيته الذي لم يكن يتواجد به، فتنطلق حملة بحث عنه، ستفضي أياماً بعد ذلك، ونتيجة لخيانة أحد معاونيه، إلى معرفة مكان اختفائه، فيقبض عليه على الفور. ويسحب حتى الدرجات الأخيرة لبيته، ويضرب أكثر مرة بالسيف، ولما ظل يقاومستقطع رأسه «مثلما يفعل بالعنزة[3]». ومن الصعب جداً أن تعزى عودة محمد علي «السريعة» نتيجة لهذا الحادث الذي كان قد مر عليه عام كامل، وأن يربط به ارتباطاً مباشراً.

---

(١) أو كيايا. وهي وظيفة يمكن مقارنتها بوظيفة ضابط مشرف على إقليم في فرنسا في ظل النظام القديم.

(٢) إلى درجة أنه راج كثيراً أنه كان يقف شخصياً وراء فكرة مذبحة الفاتح من شهر آذار لسنة ١٨١١ التي قام بها محمد علي.

(٣) جبارتي. (مصدر ذكر سابقاً).

وفي هذا الإطار يرسم جيل بلانا، ضابط المدفعية السابق في الحرس الإمبراطوري ورئيس الأركان المقبل ما بين سنتي ١٨٢٤ و١٨٢٩ صورة أخّاذة للازغلو إذ يقول «كان رجل سياسة رقيق، ووزيراً عادلاً ومخيفاً، وهو يجمع بين ميزتي الرجل الماهر في المواقف الكبرى والواسع الحيلة ساعة التنفيذ، ولما كان مخلصاً لسيده، فقد كان يضع راتبه تحت تصرف الخزينة، فقد خلص محمد باي لازغلو الباشا ومصر من المماليك الباقين. وهذه الأحداث معروفة، فقد قطّع أحد الباشوات المتآمرين إرباً. وتظل يده القوية تحمل عبء الصولجان. وكان يحب الصراحة حين تكون مناسبة وحين تكون لصالح الخير، وهو يعرف كيف يتكيف مع الجهل الوطني». وكان يقول لضباطه «أنظروا إلى لحيتي البيضاء المحترمة والمقدرة، إنها لرأس مأخوذة بمبادئ خاطئة وبأحكام مسبقة جعلت الأمة تغرق دوماً في الظلام والوحشية. عندما أتأمل الروس الذين وصلوا منذ قرن إلى أسمى درجات الحضارة، وهم محرومون من كل الوسائل لينجحوا، وكان عليهم أن يقوموا بكل شيء، ويناضلوا. كيف لاأحمر خجلاً من كوننا تحت الشعوب المتخلفة جداً، مع أن لدينا دولاً كبيرة، وبإمكاننا أن نغطي البحر الأبيض المتوسط بثرواتنا، ونحتل أجود المواقع العسكرية والتجارية[1]».

ووصولاً إلى النقطة الثانية المتعلقة بعودة نابوليون إلى فرنسا. تم التأكيد أكثر من مرة بأن نائب الملك كان على يقين من أن الإمبراطور لم يعدل مطلقاً عن فتح مصر. وعلى فرض أن الخبر قد استغرق وقتاً طويلاً قبل أن يصل إلى شبه الجزيرة العربية حيث يتواجد محمد علي، وأخذاً ببطء تنقل المعلومات في تلك الفترة، فإن محمد علي واحتكاماً إلى سعة خبرته السياسية كان عليه أن يعلم أنه يتوجب على المنفي العظيم أن يقوم بشيء آخر حين عودته إلى فرنسا غير الضياع في حملة ثانية بهدف غزو مصر. وجاءت واترلو بعد ذلك بقليل لتؤكد ذلك.

---

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «تاريخ انبعاث مصر» باريس ١٨٣٠.

بالمقابل، يمكن تفسير عودة محمد علي إلى مصر بصورة أكثر عقلانية، وهي رغبته في أن يمسك زمام الأمور في دولته الناشئة، ولحذره الدائم من الباب العالي. فقد كان يعلم أن كل منجزاته يمكنها أن تنهار بين عشية وضحاها بسبب مؤامرات السادة الأتراك. وكدليل على ذلك، يكتب ميسيت في الخامس من شهر حزيران أي أياماً قبل عودة الباشا إلى القاهرة «تبذل هذه الحكومة في الأيام الأخيرة، كل جهدها لجعل البلد في حالة دفاع. بحكم الخبر الذي بلغه من مصادر مختلفة بأن التسلح الذي يعده الباب العالي تحت قيادة القبطان باشا، موجه للاستيلاء على مصر باسم السلطان».

وهو ما يوضح أنه في الوقت الذي كان فيه محمد علي يقاتل في المصيدة الوهابية لحساب الباب العالي، كان هذا الأخير يفكر في تحطيمه. وحقيقة الأمر أنه وعلى امتداد سنوات حكمه كان محمد علي يخشى أن يجرده سادة إسطانبول أو البريطانيون مما يملكه.

ويدخل إذن محمد علي القاهرة في التاسع عشر من شهر حزيران لسنة ١٨١٥ دخول المنتصر، وبينما كانت العاصمة المصرية تحتفل بمجد المنتصر، كان أتباع بونابرت على بعد آلاف الأميال منها، يعلنون حدادهم ويحزنون. فبكل تأكيد أن الليلة الماضية عرفت إنطفاء آخر أحلام نابوليون بونابرت قدوة نائب الملك الكبيرة، في سهل واترلو.

ويلتحق طوسون في شهر تشرين الثاني بوالده، وبعد أن يتلقى إحتفال الشعب به وبعودته الميمونة، يهرع إلى بيته ليحضن ابنه عباس الذي رأى النور قبل سنتين، أثناء غيابه.

ومنذ ذلك الحين، أضحى الكافالي في نظر العالم الإسلامي مخلّص مدن الإسلام المقدسة، والذي يتيح لهم فريضة الحج المقدسة، ومن استطاع أن يكبح جماح المتعصبين على أقل تقدير. وستمكنه هيبته الشخصية من توطيد سلطته في مصر، ورفع مكانته لدى الباب العالي. والنتيجة الأخيرة لحلمته على شبه الجزيرة العربية، وليست الأقل أهمية، أنها ستعتبر محكاً حقيقياً لجيشه

الفتي، وتخلصه من العناصر الألبانية التي كانت مصدراً دائماً للاضطراب.

وعلى الرغم من الانتصارات الكبيرة التي حققها على الوهابيين إلا أن الحرب لم تنته تماماً. فقد كان على إبراهيم أن يقاتل عدواً ينبعث من رماده باستمرار. وهكذا، فإن الحملة في شبه الجزيرة العربية ستطول أكثر من الوقت المتوقع لها، مسببة خسائر في الأرواح والعتاد، وستصير بالنسبة إلى مصر، وليعذرنا الباحثون عن المفارقات التاريخية.. شيئاً شبيهاً بحربه على اليمن في سنتي ١٨٦٢ و١٨٦٣ وحرب الفييتنام بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية أو حرب أفغانستان بالنسبة للاتحاد السوفياتي.

[8]

إبن الفرعون (١٨١٦ ـ ١٨١٩)

عندما أبحر إبراهيم في الثالث والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨١٦ قاصداً شبه الجزيرة العربية، كان بالكاد يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة.

ومنذ بعض الوقت، أخذ الجنرال الجديد يطلق العنان للريح سعياً لبلوغ المجد. وخلال المعارك التي خاضها ضد المماليك في مصر العليا، وعندما حكم مقاطعاتها بعد ذلك، أبان عن قدراته كمحارب ومدبر.

وواحدة من الصعوبات التي كانت تنتظره تمثلت في الإدارة السياسية للحرب والإدارة العسكرية، وذلك من خلال اضطراره إلى قطع حوالي ثمانية كيلومترات في الصحراء من المدينة إلى الدرعية المدينة الاستراتيجية، ودون حساب المسافة التي تفصل المدينة عن مصر وعن مراكز التموين.

وتشكل هذه الصحراء الواسعة حاجزاً دفاعياً طبيعياً، تنشط فيها بصورة منتظمة قبائل متعادية، اعتادت على المناوشة التي ترهق خصومها وتستزفهم، قبل وصولهم إلى الهضبة الداخلية. ويكتب روسل بتاريخ التاسع عشر من شهر آب لسنة ١٨١٨ رسالة إلى دوقف ريشليو جاء فيها «ترسل قوات بصفة دائمة إلى شبه الجزيرة العربية. هذه الحرب تشبه أفعوانية ليرن باستمرار. فلايبحث الوهابيون إلا على التحرش بأعدائهم دون أن يشتبكوا معهم. ويمتطي أربعة منهم ظهر جمل واحد وهم يحملون كيسين جلديين، يضم الأول طحين

معجون بالماء، في حين يحوي الكيس الجلدي الآخر ماءً. وبهذا الزاد القليل يستطيعون البقاء على قيد الحياة لثمانية أيام، في حين يحتاج الجيش التركي المكون من سبعة آلاف جندي إلى أربعين ألف جمل يقتل منهم الزحير عدداً كبيراً لايبدو واضحاً بالنظر إلى الإمدادات المتتالية التي يرسلها نائب الملك[1]».

وهنا يمكن معرفة المشكلة المعقدة التي تواجه إبراهيم الذي مده والده بمستشار عسكري يدعى القبطان فيسيير[2] وهو ضابط فرنسي نجا من حروب الإمبراطورية، ووصل إلى القاهرة سنة ١٨١٤. وفي ساعات الحملة الأولى، يفقد فيسيير بوصلته وبعض الأدوات الحسابية، غير أن ذلك لم يمنعه من تزويد ممثلي فرنسا بمعلومات عن سير العمليات والطرق التي تسلكها الحملة[3].

وهو شخص غامض إلى حد ما، نجا من الحكومة الملكية بعد انتهاء عهد نابوليون، ولايعرف عنه شيئاً غير بطاقة هوية وجدها غابرييل غييمار عن طريق بلدية كاستر سنة ١٩٣٠ «يبدو أن المدعو فيسيير جوزيف فرانسوا ماري ولد في الثاني من شهر شباط لسنة ١٧٦٨(وفي شهادة ميلاده، سجل باسم بيسيير وليس فيسيير)، ومثل المسمى أعلاه في سنة ١٨٠٦ أمام لجنة المراجعة فثبت بأنه مصاب بقصر النظر. وكان في هذا التاريخ طالباً، وهوابن لفرنسيس وكاشان ماري أنطوانيت. ومنذ ذلك الحين سيفقد كل أثر له حتى سنة ١٨٣٦، حيث أني وجدت في هذه السنة أمراً بتصحيح عقد ولادة سيد يدعى فيسيير جوزيف فرانسوا ماري، والذي كان في هذا الوقت ضابطاً في القاهرة (مصر). (. . .)،

---

(١) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) من المرجح جداً أن يكون ادعى في مصر بأنه ضابط كبير سابق في الجيش الفرنسي. ويقال إنه توفي سنة ١٨٦١ في الخرطوم. أنظر غييمار. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) يذكر روسل من خلال مراسلاته مع الدوق دو ريشليو في الخامس والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨١٧، وفي العشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨١٨، مقاطع من الرسائل الموجهة إليه من قبل فيسيير من الجزيرة العربية. إدوارد دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

وللأسف، يفقد كل أثر له بعد هذا التاريخ، ولم أستطع العثور على سنة وفاته. . .» وهذه الرسالة الموجهة من ميمو إلى وزير الشؤون الخارجية بتاريخ الثالث من شهر آذار لسنة ١٨٣٥ «أنهيت قضية تاجر فرنسي مهدد بالإفلاس نهاية سعيدة. يدعى هذا التاجر فيسيير وهو ضابط سابق، يهتم منذ سنوات بأعمال تجارية بعد أن خدم الباشا بكل شجاعة في حربه ضد الوهابيين. وخلال إقامة في الحبشة دامت ثلاث سنوات جمع كمية كبيرة من البن بهذا البلد، ونقلها إلى مصر ليبيعها أو لينقلها إلى أوروبا آملاً في سلوك طريقاً تجارية جديدة، وعوض أن يتلقى من الحكومة المصرية العناية والمكافأة بحسب ما كان ينتظره (. . .)، هددت روح الاحتكار والضرائب قيمة بضاعته، وأرادوا فرض ضريبة مضافة عليه توازي المصادرة، فتقدمت بشكوى مباشرة إلى الباشا، ومستعيناً بالسيد بوغوص الذي أشهد أنه ساعدني في هذه القضية بنية حسنة، حتى تمكنت أخيراً من الحصول على أمر بتلسيم السيد فيسيير كل أو جزءاً من البن وذلك عن طريق أداء ضريبة بسيطة وغير مكلفة على العبور.

وقبل أن يغادر القاهرة، أراد إبراهيم أن يفهم أسباب عدم نجاح طوسون الذي كان قبله، فأجمعت التعاليق على أن أحد أهم الأسباب تكمن في الشروط الصحية غير المتوفرة، فيقرر تنظيم إدارة صحية كانت على أكمل صورة اعتباراً إلى معايير تلك الفترة، وجعلها تحت إدارة الجراح الإيطالي الدكتور أنطونيو سكوطو والذي جعل له كمعاونين ثلاثة أطباء إيطاليين أيضاً وهم جنتيلي وتيديشي وصوشيو.

ويتبع في البداية الطريق نفسها التي سلكها أخوه من قبل، إذ يغادر يامبو في التاسع من شهر تشرين الأول لسنة ١٨١٦ قاصداً المدينة مروراً بالحُديدة على رأس جيش مكون من حوالي سبعة آلاف جندي، ومدعوماً بخمسة مدافع من عيار ١٢، وبعض مدافع الهاون، ومدفعي حصار. ومن المدينة سيتجه إلى الحنكية حيث سيجعل بها مقره العام.

في هذه الأثناء، يصيب محمد علي حادث مريع، ولاشك أنه المصاب

الأكثر إيلاماً له، والأعمق تأثيراً من كل ما سبق ومر به، حيث سيموت ابنه المفضل طوسون، الذي كان في مقر قيادته العامة بدمنهور، ولم يكن يبلغ من العمر آنذاك إلا ثلاثاً وعشرين عاما.

ويُكتب البعض أنه التقط الطاعون من أحضان أمة يونانية. أما غوين فيؤكد أن السبب الحقيقي للوفاة كان. . . إفراطه في اللذة، نتيجة لليلة ساخنة جمعته وإحدى الجورجيات العتيدات. وكان من الصعب تصديق ذلك. ويروي ج. آذاريل أن أحداً لم يجرؤ على إخبار الباشا بالنبأ، وأن جسد الميت جُعل في نعش مفتوح، وأدخل القصر ليلاً، ووضع أمام باب جناح النساء. وعند خروجه صباحاً من جناح الحريم، تعرف محمد علي على ابنه، فصرخ صرخة مدوية، واستلقى عليه، وحضنه طويلاً قبل أن يدخل في حالة عزلة دامت أياماً طويلة، إذ اعتصم وحيداً في قصره، رافضاً أن يهتم بالأمور السياسية»[1].

وتعددت الروايات بخصوص أسباب هذا الموت المفاجئ، والظروف التي أحاطت به، والطريقة التي أخبر بها الباشا، حتى إنه تم الحديث أن الأمر نتج عن عملية اغتيال، وهي نظرية عارية من أي أساس متين. ويقال أيضاً إنه عندما علم إبراهيم بموت أخيه، لم يبد أي حزن أو تعاطف بسبب العداء الذي كان يجمع بين الرجلين. وحول هذه النقطة أيضاً لانتوفر على أية وثيقة تستحق أن تصدّق. وإذا ما اختلفت الشائعات حول الموضوع، فإن كل ما كتب أجمع على حزن محمد علي الكبير على فقدان ابنه، والتعاطف الذي أبداه شعب مصر الصغير والجيش إزاء طوسون. وكان يقال في حياته «لو أن بخلاً مس يد طوسون، لتحول بخله إلى كرم بلا حدود».

---

(١) كتاب بعنوان «مصر. . تشكيلة من العالم البهي» الذي يعزى إلى المستشرق ج. ج. مارسيل، غير أن الأمر يتعلق بمجلد كبير تعود كتابة جزئه الأول المتعلق بالعهدين العربي والتركي إلى هذا الكاتب، غير أن الجزء الثاني منه والمتمحور حول الحملة الفرنسية فيعود إلى ريمي في حين أن جزأه الثالث المتصل بمرحلة محمد علي فهو لبريس دافين وهامون بمساعدة آخرين من بينهم ألين رافينو دليل.

وتشيع جنازته بالعظمة التي يمكن تصورها، فقد صحب الموكب الجنائزي كبار ضباط الجيش والمسؤولون المدنيون، بينما سار محمد علي ماشياً خلف نعش ابنه حتى مثواه الأخير.

وفي رسالة بعث بها روسل إلى ريشليو في الفاتح من شهر كانون الأول لسنة ١٨١٦، يعلمه فيها بالحدث كتب: «سيدي، توفي طوسون باشا ابن محمد علي المعروف بفتح مكة، في معسكره بدمنهور. وقد مثل ذلك فاجاعة كبرى بالنسبة للأب، وكان يخشى جانبه ومحبوباً لدى الجنود[1]».

وفي شبه الجزيرة العربية، تهزأ الحرب من موت أمير. وكان على إبراهيم أن يتابع العمل الذي بدأه أخوه الراحل.

البساط العربي

يعتبر وصف سنوات الحرب الثلاثة التي أعقبت ذلك عملاً مملاً، وخطوطها العريضة متمثلة أساساً في خليط من الهجمات المتفرقة، والمحاصرة والاستيلاء على المدن. بينما يقوم إبراهيم بكل ما يستطيع لدفع العرب إلى التشرذم والتفرقة. وتتلخص النصائح التي وجهها محمد علي إلى ابنه في بضع كلمات تتمثل أساساً في وعد زعماء القبائل الجشعين بالذهب والمغانم، والأكثر طموحاً منهم بتسليمهم المحافظات التي سيتم الاستيلاء عليها، ومحاولة تفريق الطغمة الوهابية، وإقامة العداء بين البدو وسكان القلاع والمدن. وأخيراً الاستيلاء على الدرعية، الحصن الأكثر استراتيجية.

وإذا كان إبراهيم يشاطر والده مجمل آرائه، فإنه بالمقابل يعتقد أنه توجد وسيلة أكثر نجاعة من خلق العداء بين البدو والمقيمين في القلاع والمدن، وذلك بأن يجعل الجميع يخشاه ويحبه في الوقت نفسه من خلال معاقبة المجرمين، وأن تكون سلطته محسوسة في كل مكان. وهكذا أخذ يحسن

---

(١) جيل بلانا في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «تاريخ انبعاث مصر» باريس ١٨٣٠.

استقبال الشيوخ ويمنحهم الأمان، بعدم فرض أي ضريبة عليهم، وألا يرتكب أية خروقات عرفت عن سعود، وبأداء ثمن كل ما يزودون به جيشه. وشرع يوزع فراء الشرف والهدايا ويعطي الأمان للجميع، وبهذه الطريقة ينجح في خلق حالة نفسية متعاطفة مع القضية المصرية، ويثير النفور لدى عامة الناس الذين كرهوا السلطة الاستبدادية وطائفية رئيس الوهابيين.

غير أن هذه الحملة فسحت المجال أيضاً لبعض مظاهر التقتيل، وليس علينا أن نغض الطرف عنها هنا، والتي قام كتاب سيرة إبراهيم وحدهم بمحاولة إغفالها أو الاعتذار عنها. فبعد القبض على معاوية سيأمر بقتل كل الأسرى مثيراً بذلك غضب الوهابيين واستنكارهم. ونتيجة لذلك، ستشتد المقاومة وسيلزم الجيش المصري العديد من المحاولات لإيقاف التمرد المحيط بالمدينة. إلا أن ذلك لم يمنع إبراهيم من تكرار الفعل نفسه في الحنكية.

ويعيقه خطأ استراتيجي كبير من التقدم. ويمكن إرجاعه إلى اندفاع الشباب وعدم نضجه، وليس كما يعزيه كاتب سيرته غابرييل إنريكي إلى أسباب صحية. فبمجرد وصوله إلى الرأس، وهي قرية تضم ستة آلاف نسمة، يأمر بالهجوم دون أي استعداد متجاهلاً بذلك نصائح فيسيير، فيعرض جنوده إلى مجزرة حقيقية، إذ سيقتل ثمانمائة من جنوده. ثم إن الحصار على القرية أخذ يطول، حيث يستمر لأزيد من ستة أشهر. فينهك الجنود، ويزداد يأسهم عقب كل هجوم يتركون فيه العشرات من رفاقهم. بل إن الأمر كان سيكون أكثر سوءاً، إذ لو أتى عبدالله لنجدة الرأس، وهجم على المحاصرين لكان من المحتمل جداً أن يلفي إبراهيم نفسه مبعداً إلى خارج حدود نجد.

وأخيراً يفتح باب مفاوضات تسفر عن رفع الحظر عن القرية من قبل الجيش المصري، واستمرار تقدمه في نجد دون أن يخشى أفراده أي حركة عدائية من الطرف الآخر.

ومن الرأس، يصل إبراهيم إلى خبراء ومنها إلى مدينة العنزية التي تسقط بعد يومين من حصارها المدار هذه المرة من قبل فيسيير. ومن العنيزية يتجه الجيش

المصري شمالاً إلى البريدة، فيستفيد إبراهيم من درس الرأس الذي يؤت ثماره. فعوض الهجوم على المدينة، يوفر قنابله لحصار الديرية هدفه الرئيسي، فيمنح عفوه إلى رئيسها المدعو حاجيلان بعد أن يأخذ منه تعهداً رسمياً بالوفاء، وأخذ أبنائه كرهائن لديه.

ويمضي ابن الباشا في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨١٧ إلى شقراء التي تبعد عن الديرية بخمسين ميلاً فيدخلها في الرابع عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨١٨ بعد أيام من حصارها.

وهكذا ودون إدراك منه، ونتيجة لمساعدة البدو، أضحى إبراهيم سيد الصحراء. وأسبوعاً بعد أسبوع، يحبط مخطط عبدالله الذي يرمي إلى إرهاق الجيش المصري المعرض لمليشيات في قلب هذه المنطقة الصحراوية الشاسعة التي تصل مساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا.

ويكتب بالغراف بأن كان بإمكان عبد الله النجاح لو أنه كان في مواجهة خصم أقل مهارة، غير أن إبراهيم طوى السجادة العربية دون أن يحدث أدنى تغيير في تكتيكه الأول القائم على إحداث الخوف منه واحترامه. فعلى امتداد تقدمه في نجد، منح في أغلب الأحيان الانطباع بأنه حليف أكثر من غاز، آخذاً على عاتقه كمسألة شرف، أن يدفع ثمن كل ما يأخذه من البدو بكل كرم جتى آخر قرش، ومانعاً ضباطه وجنوده من توجيه أي شتيمة إلى الشعب غير المسلح، ودائماً بحسب بالغراف، فإن «المدن والقبائل المندهشة بالقوة المصرية، والتي أغراها أمل جني الربح، ومفتونة بالنظام والأمن اللذين وفرا لهم، انتهى بهم الأمر إلى الانفصال عن قياداتهم والخضوع إلى إبراهيم. وكل من يطلب التفاوض يحصل عليه سريعاً وبشروط إيجابية. وسترفض قلة قليلة جداً التخلي عن قضية المسلمين الحقيقيين والاعتراف بسيادة «الثعلب المصري». ويتحفظ إبراهيم من العودة إلى العنف إذ سيكتفي بطرد المعاندين جداً من بيوتهم ويدفعهم إلى الذهاب إلى نجد قائلاً لهم باستهزاء بأن يذهبوا لتعزيز صفوف المخلصين لمحمد. وسترهق هذه الاستراتيجية موارد عبدالله المسؤول عن جمع عظيم من الجوعى وعديمي الفائدة».

«إن تقديم بضع قطع نقدية، وكميات كبيرة من التبغ إلى البدو الذين يمدون الجيش بالجمال وأدلاء الطريق، جمعت كل قبائل البدو تحت بيرق الباشا. وهكذا، أخذ يلف خطوة إثر خطوة نجداً، ومقترباً كل يوم أكثر من الهضبة المركزية، ومزوداً جيشه بالإمدادات الضرورية. وكان إبراهيم يؤمّن اتصاله بمصر، ولايخلف وراءه إلا الحلفاء أو الأصدقاء».

وفي السادس من شهر نيسان لسنة ١٨١٨، يصل إبراهيم أخيراً إلى مشارف الدرعية الواقعة في الهضبة الداخلية لشبه الجزيرة العربية، حيث كان عبدالله ينتظره على رأس جيش كبير مزود بمدافع وتحصينات. وتنقسم المدينة إلى خمسة أقسام أو قرى مختلفة، أحيط كل منها بسياج محصن، ومفصول عن غيره بخنادق عميقة. وكان كل هذا في دائرة محصنة تصل ثلاثة أميال.

ويتوفر إبراهيم لحصارها على خمسة آلاف وخمسمائة جندي. وحتى حدود شهر حزيران، لم يحقق أي نتيجة مهمة حد أن نفاذ صبر الباشا بدأ يدفعه إلى التفكير في إرسال جيش جديد على رأسه أحد ضباطه ويدعى خليل باشا.

ولأن المآسي لاتأتي فرادى، يشب حريق في الحادي والعشرين من شهر حزيران بمخزن الذخيرة مخلفاً خسائر فادحة. ولم يبق للجيش إلا مؤونة عشرة أيام والقليل من الذخيرة. ويقول فولابيل بأن إبراهيم أبان في هذه اللحظات العصيبة عن صلابة نفس وشدة عزم يشق تصورهما لدى شاب في مثل ذلك العمر.

ويسأله أحد ضباطه الرئيسيين ويدعى أوزون علي، وكان قائداً في الصفوف الأمامية، إن كانت النار قد أتت على كل شيء، فيرد عليه «لم نستطع إنقاذ شيء، ولم يتبق لنا إلا الشجاعة والسيوف لمهاجمة العدو، ولكن هذه الموارد، وإذا ما ملكنا الإرادة، تكفينا للانتصار[1]».

وتأتي الإمدادات في نهاية شهر آب من مصر، فيتمكن من معاودة القتال

---

(١) «تاريخ مصر في عهد محمد علي» في جزئين. باريس ١٨٣٠ و١٨٣٦.

لتؤت كل جهوده ثمارها. ذلك أن الدرعية تستسلم في الخامس عشر من شهر أيلول لسنة ١٨١٨. ويستقبل الخبر في مصر بمظاهر فرح عارمة، وتستمر الاحتفالات لسبعة أيام ظلت خلالها القاهرة منتشية، بينما كان الأسرى يصلون إلى بولاق، وقد نزعت أسنانهم. ويتم تشييد حصن على النيل، من الورق المقوى يمثل الدرعية، ويوضع الأسرى داخله ليتمكن عامة الناس من التفرج عليهم.

أما زعيم الوهابيين، فقد استقبل من قبل محمد علي كما يليق به، ويرسل من القاهرة إلى إسطانبول حاملاً رسالة طلب العفو من نائب الملك. غير أن السلطان يبدو غير مرن، في حين يهيج الشعب المتأثر بخطب أئمة المساجد، فيطالب بإنزال العقوبة عليه، فيعرض ابن سعود بأسماله في شوارع إسطانبول لثلاثة أيام.

وفي اليوم الرابع، تفصل رأسه عن جسده، ويسحق في مونة.

بعد ذلك بوقت قصير، يأتي ضابط مفوض من قبل السلطان ليخبرإبراهيم بأن السلطان يوشحه بوسام باشا بثلاثة أذناب[١]، ويدمر إبراهيم تبعاً لأوامر والده، الدرعية تدميراً كاملاً على اعتبار أنها معقل الوهابية وعاصمتهم، ويعود إلى مصر مخلفاً وراءه بعض الحاميات، بعد الهيمنة المصرية حتى حدود شواطئ الخليج العربي. ويكفي فقط معاينة الخريطة التي نعرضها هنا للوقوف عند الأهمية الاستراتيجية التي يمثلها هذا الاحتلال على طول ساحل البحر الأحمر.

ومن المحتمل أن إبراهيم أراد البقاء في نجد لتنظيم شؤون البلاد، ويبدو هذا جلياً من خلال مراسلاته، بيد أن والده يكتفي بالتدمير «المؤقت» للقوى الوهابية الحية، فقد كانت له مطامح أخرى.

ويقول شاهد عيان «بدا أن سقوط الدرعية، ورحيل عبدالله قد حصرا حتى لايقال دمرا العقيدة الوهابية إلى الأبد. فكل البدو الذين قابلتهم أعلنوا بأنهم

---

(١) بمعنى الحق في أن تحمل أمامه ثلاث حزم من شعر الخيل وليس اثنتين.

سنيون. لكن هذا لايمنع من أني قابلت في الرياض بعض الأشخاص الذين أعلنوا تمسكهم بالمذهب الوهابي، غير أن عددهم قليل، والأمر يتعلق هنا بسكان الدرعية فقط، وليس بالبدو الذين دفعهم الخوف وحده إلى اعتناق شرع عبدالوهاب، وحبهم للنهب زاد من صلتهم بهذا المذهب، مادام يحفظ قوته ويمنحهم بالتالي وسيلة لإشباع أطماعهم[١]».

وتمكن إبراهيم من إدراك نتيجة أخرى. فعلى الرغم من قصر مدة إقامته، استطاع أن يحسن من وضعية الشعب في هذه المناطق التي مزقتها الحرب. يقول بالغراف موضحاً «رأيت بأم عيني آثار مرور إبراهيم، حيث حفرت الآبار، وزرعت الأراضي، وفتحت المعامل...».

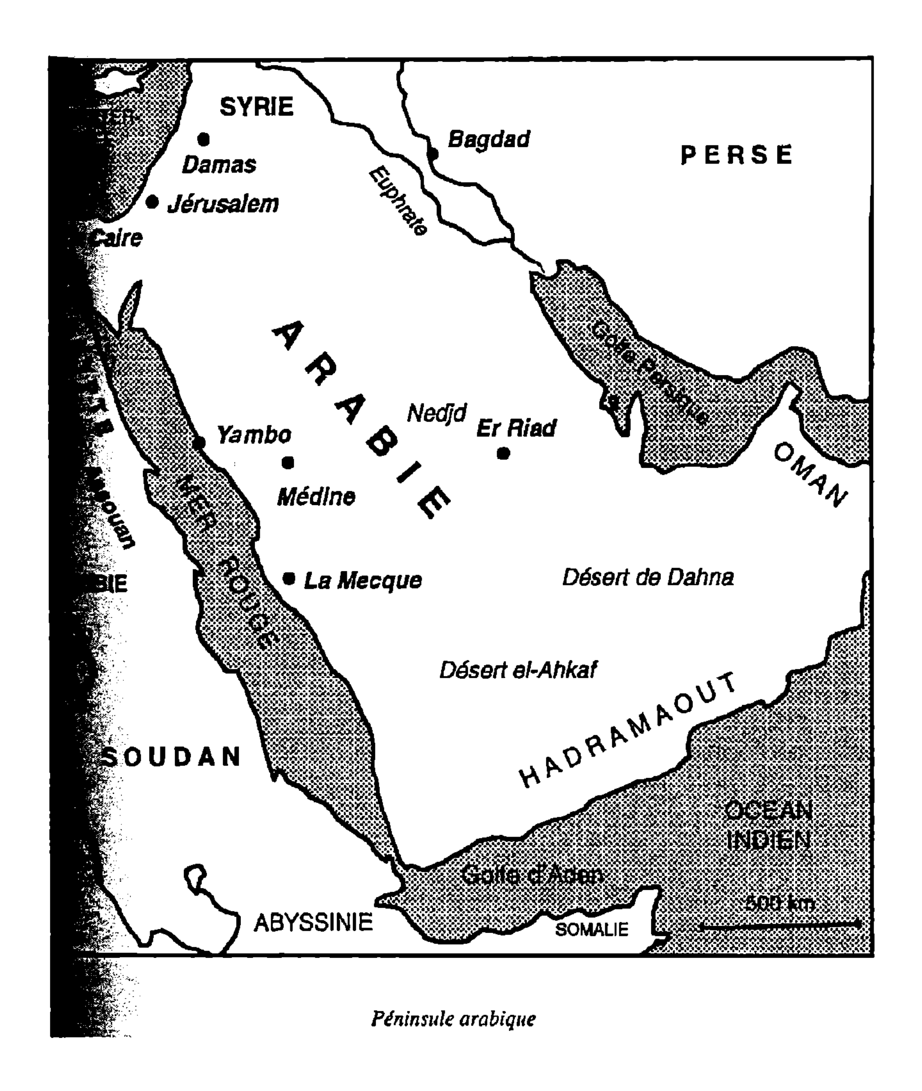
بالمقابل، يصر بعض كتاب السيرة، ومن بينهم مانغان وهامون واللذين للإشارة فقط، لايعتمدان إلا على معلومات منقولة، على تقديم صورة عن الجنرال الشاب بأنه دموي. وعلى كل حال، من السذاجة القول بأن إبراهيم حرم نفسه من الفظاعة المجانية إزاء خصومه، ويمكن قراءة ما كتبه روسل إلى ريشليو في هذا الصدد «حصل إبراهيم باشا على نجاح جديد على حساب الوهابيين في منطقة شقراء، وأرسل ألفاً ومائتي زوج من الآذان، وقام بمثل هذا الشيء في دورما[٢]».

وفي التاسع من شهر كانون الأول لسنة ١٨١٩، وعندما وصل إبراهيم إلى العاصمة المصرية، يستقبل من قبل أعداد كبيرة من أفراد الشعب الذين خرجوا إلى الممرات التي يسلكها. (الخريطة ص ١٣١ بعنوان شبه الجزيرة العربية).

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) إدوارد دريو في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «تشكل إمبراطورية محمد علي من الجزيرة العربية إلى السودان» القاهرة ١٩٢٧.



Péninsule arabique

شبه الجزيرة العربية

وبحسب غوين، فإن محمد علي اكتفى بالنظر من فوق جامع غوري تاركاً لابنه كل المجد، ومكتفياً بالوقوف كمشاهد للعرض الذي مضى كشريط على امتداد شوراع القاهرة، آملاً ألا ينزع حضوره شيئاً من مجد المنتصر.

الجزيرة العربية العصية على الترويض، ونظرة إنجلترا

وتظل النار تختبئ تحت الرماد في الجزيرة العربية دون أن تنطفئ تماماً. وتبقى بؤر التمرد متواجدة فيها وتتوالد باستمرار مرغمة محمد علي على إرسال قوى جديدة بشكل دوري خوفاً من اندلاع الحريق. ولأجل هذا لم ينعم أبداً بالراحة طيلة فترة حكمه حتى سنة ١٨٤٠، وذلك باستمراره في تنظيم فتوحاته خلافاً لما سبقها لانشغاله بفرض وجوده عن طريق حروب لاتنتهي. واقتصرت سياسته على تعيين حكام عسكريين مصريين في المدن الرئيسية، وخلق شيوخ أو زعماء عرب، وتحصيل عائدات الزكاة، وكذا تكريس الفرقة ليستمر في الحكم.

ويقدم السيد صبري في كتابه «الإمبراطورية المصرية تحت قيادة محمد علي، ومسألة الشرق من ١٨١١ إلى ١٨٤٩» شرحاً لايمكن وصفه بالموضوعية للفشل الجزئي لحرب شبه الجزيرة العربية «ليس بوسع أية حكومة في العالم أن تفرض كل سيطرتها على شبه الجزيرة العربية لاستحالة ملاحقة البدو في الصحراء أو الاستيلاء على جبالهم. ولايمكن أبداً الاعتماد على قسمهم أو وعودهم أو عقود وفائهم وخضوعهم. واستطاع إبراهيم كسب البدو دون أن يتمكن من هزمهم، ولم يحد من قوتهم أو يخضع المقيمين منهم في القلاع والمدن إلا بفضل تفوق قوة سلاح مدافعه، وخاصة لسياسة التسامح التي نهجها ولمهارته.

وبعد رحليه، كان المصريون سادة المدن الرئيسية في الحجاز ونجد، غير أن الجبال والصحراء ظلت دوماً حاجزاً دفاعياً عجيباً من أجل استقلال شعوبها. ولم تعد المحافظات التي كانت محتلة من قبل الوهابيين تدور حول مركز واحد كما يقول فولابيل، فالعلاقة التي كانت تجعلهم أقوياء فيما مضى، أضحت

محطمة. فكل قبيلة، وكل منطقة استعادت فرديتها الأولى، وباختصار كان الوهابيون يعودون إلى الظهور ليس كجسد سياسي يخضع لإرادة واحدة ولزعيم واحد، ولكن كتحالف بين المقاطعات الموحدة بالإيمان الديني نفسه، ولمصلحة مشتركة في البقاء والانتقام.

ومن المحتمل أنه لو بقي إبراهيم في بلاد نجد، لأسس عملاً سيكتب له البقاء، ولعوّد الناس على حياة اجتماعية منظمة جداً، غير أن خلفاء إبراهيم لم يتمتعوا بهيبته أو بتأثيره الطيب، وهكذا فإن التمرد المقموع لم يكن له إلا أن يعود فيرفع رأسه».

وكان لاحتلال ساحل البحر الأحمر أصداء في العالم وخاصة في إنجلترا حيث عقد الإنجليز معاهدة حول التجارة في البحر الأحمر مع محمد علي سنة ١٨١٨، ولما لم يستطع قنصل فرنسا روسل وضع يده على نص المعاهدة، ضغط على السيد فنطوزي، قنصل نابولي وأحد أصدقاء بوغوص باي، ومد دوق ريشليو في السادس من شهر أيلول لسنة ١٨١٨ بالبنود الثلاث الأكثر أهمية.

«ينص البند الأول من المعاهدة بأن البضائع الإنجليزية القادمة من الهند إلى السويس أو القصير لاتخضع إلا لجمرك بقيمة ثلاثة في المائة في مصر كلها.

ويقضي البند الثاني على أن تضيف إنجلترا ستة في المائة لضمان سلامة نقلها الذي يضمنه الباشا من مكان وصولها إلى البحر الأحمر وحتى إلى الإسكندرية أو دمياط.

ويعتبر البند الثالث الذي أراد أن يجعله الباشا سرياً جداً، تعهداً منه إلى الإنجليز بأنه وفي حال دخولهم الحرب مع الباب العالي، يمنحهم مهلة سنة كاملة حتى ينهوا كافة أعمالهم دون أن تتعرض تجارتهم أو سفنهم للمضايقة، سواء من كان منهم في مصر في تلك الفترة أو من يصل في الفارق الزمني بين بداية سريان الاتفاق والمهلة[١]».

(١) المصدر السابق.

وما إن علمت حكومة بومباي بانتصارات إبراهيم حتى أرسلت إليه تهنئة جلالته مع الكابتن سادليير، وعرضت عليه تحالفاً هجومياً لإحلال السلام في المناطق الشرقية والوسطى لليمن. ويؤكد هذا التعاون على معاقبة قراصنة هذه المنطقة الذين لم يكفوا عن إلزام السفن التجارية التي تخص رعايا جلالته بضرائب[1]. وقد تمّ هذا بالاتفاق المسبق مع أمير اليمن. وينقل إبراهيم هذه المقترحات إلى والده الذي يرفضها بأدب متذرعاً بتعب قواته المحتاجة عناصرها إلى الراحة بعد الحملة على نجد. من جهة أخرى، يحذر نائب الملك من قبل إسطانول عن طريق الوزير محمد درويش الذي كتب له في الثالث عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨١٩ رسالة جاء فيها أن «هدف الإنجليز الرئيسي هو وضع علامات لها بالتدريج بنية احتمال احتلال البلد[2]».

وإزاء هذا الرفض، يحول الإنجليز أنظارهم إلى مسقط والبلدان الواقعة في الخليج العربي. وبالفعل، كانت موكا وكل الجزء الجنوبي لمضيق باب المدب الممر الاستراتيجي جداً، تثير أطماعهم، إضافة إلى اعتقادهم بأنهم تأخروا في وضع يدهم على منطقة حسبت دوماً على الأتراك. بالمقابل، وخلال الحملة على الجزيرة العربية، لم يخفوا دعمهم للحركة الوهابية مثلما ساندوا المماليك من قبل. ومنذ الثامن من شهر شباط لسنة ١٨١٨، كتب روسل إلى دوق ريشليو أنه «يبدو أن للإنجليز اتصالات بالوهابيين، وتمكنوا من خلالها من مدهم بمدافع وذخيرة حرب، ويذكر على سبيل المثال الاعتبار الكبير الذي يحمله قائد القوات العربية للإنجليز[3]».

ويطالب القنصل الإنجليزي في موكا، بإرسال السفن الحربية الإنجليزية لحصار المرفأ اليمني، وللقيام بعمليات إنزال، متذرعاً بسوء المعاملة التي

---

(١) السيد صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) المصدر السابق.

(٣) إدوارد دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

يتعرض لها الإنجليز، وذلك من أجل فرض الاحترام البريطاني الذي أخلّ به الأمير اليمني. ولم تتأخر ردة فعل محمد علي، حيث سيكلف رقيبه أحمد باشا، حاكم مكة، بإرسال قواته للمنطقة المهددة، لردع الإنجليز في حال قرروا الهجوم. ويستدعي قنصل إنجلترا الجديد هنري سيلت، ويذكره بأن اليمن خاضعة لتركيا منذ ثلاثة قرون، وبأن إرسال حملة عسكرية إلى موكا يمكن أن يؤثر تأثيراً سلبياً على العلاقات بين القاهرة ولندن. ويقدم الباب العالي احتجاجاً مماثلاً.

واتضح فيما بعد أن هذا التضامن بين السلطان ومحمد علي كان ناجعاً على العموم، إذ أن الأسطول البريطاني الذي وصل شواطئ موكا في الثالث من شهر كانون الأول لسنة ١٨٢٠، والذي قصف الشاطئ، ونزلت عناصره مدة قصيرة قبل أن تنسحب، لكن بعد أن تم انتزاع معاهدة تجارية وسياسية ذات فوائد كبيرة من الأمير اليمني[١].

غير أن محمد علي لم يذهب أبعد من ذلك في احتجاجه، وتعرض للوم من قبل بعضهم، ومن بينهم بعض أصدقائه الفرنسيين الذين رأوا أن قبول هذه المعاهدة يعادل تسليم البحر الأحمر إلى الإنجليز، واتضح أنهم كانوا مخطئين. فمصر غير قادرة على العمل بنجاح في هذه المنطقة التي يحكمها أمراء غير مأموني الجانب. بيد أن التحذير وصل، ومنذ هذه اللحظة، عمل محمد علي على توثيق صلاته بالزعماء العرب، مسانداً بكل أنواع التعاطف، والمهارة المقدمين من قبل الضابط الفرنسي أرماندي، موظف ونائب القنصل الفرنسي في مسقط ثم في موكا[٢].

---

(١) من بين الأشياء التي يقضيها هذا الاتفاق استفادة كل التجار البريطانيين العاملين في التجارة في موكا من الحق في حماية العلم الإنجليزي، وأن تصير الضرائب المفروضة على التصدير والاستيراد الإنجليزيين ٢.٥ في المائة (أرشيفات إنجليزية) FO 78. مائة وثلاثة مجلدات. رسالة من السيد بروس إلى السيد هنري سالت بتاريخ العاشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٢١.

(٢) فيل. (مصدر ذكر سابقاً).

وأكثر من هذا، فإن الحلم الذي يبدو أن محمد علي كان يداعبه في بعض الأوقات، كان سابقاً لأوانه. فعلى الرغم من امتياز موقعه في الطريق إلى الهند، لم تكن هناك أنشطة تجارية حقيقية حول شواطئ البحر الأحمر أو على كل حال، لاشيء غير إمكانية الشراء المحلي. ومن جهة أخرى، أدارت مصر ظهرها لهذا البحر. ذلك أن السويس تبعد عن القصير بحوالي مائة كيلومتر من الشاطئ القاحل، ولكي تصبح هذه المنطقة قادرة على التجارة الداخلية من خلال البحر الحمر، كان ينبغي عليه أن يخرج من مأزقه. غير أن حفر قناة لم يكن موضوع تلك الساعة.

إلا أن محمد علي ظل دوماً مهتماً بهذه المنطقة. ذلك انه سيحرص ولمدة طويلة، على تتبع شؤون الهند، ورصد حركتها، وعدد القوات فيها، والتوازنات السياسية داخلها، كما لو أنه سيحتفظ بأمل أن دوره في هذه المنطقة لم ينته بعد.

وفي انتظار ذلك، زادت محاولة التدخل البريطاني الموؤودة في موكا من حذره إزاء البريطانيين، إذ سيقتنع أن احتلال الإنجليز لليمن يمكن أن يكون مقدمة للاستيلاء على السويس، وهذا ما يؤكده المستقبل، مؤكداً تبصره. ولربما شكلت قضية موكا حافزاً بشكل غير مباشر إلى مد حدود مصر، وذلك بفرض حرب توسع جديدة. وهذه المرة ستكون في اتجاه السودان.

[9]

على آثار بيبي الثاني (١٨٢٠ ـ ١٨٢٢)

يعتبر المصريون السودان منذ القديم بلداً غامضاً، يضم ثروات عجيبة. ألم توجه إليها حملات عسكرية على عهد بيبي الثاني من الأسرة السادسة لجلب العديد من المغانم من أسرى ومواشي وأنواع مختلفة من الثروات حتى إنه جلب منها... قزم «يعرف كيف يرقص رقصة الإله»؟

ولئن وجّه محمد علي أنظاره منذ بداية شهر شباط إلى نوبة العليا وما بعدها، فليس فقط لاعتباره أنها فريسة بلاصاحب، وسلهة الاقتناص، بل كانت له دواع أخرى مختلفة، ومن بينها إن لم يكن أولها، حاجته الملحة إلى المال بطبيعة الحال. فقد كان يحتاج دوماً إلى المزيد منه، لاسيما أن الحرب على الوهابيين أفرغت خزائنه. وبما أنه لم يكن يستطيع أن يزيد من الضغط على شعب جاث على ركبتيه منذ أمد طويل، كان عليه أنْ يبحث خارج مصر عن وسائل أخرى لملء خزائنه.

ولم يكن يعرف الوثائق التاريخية المتلعقة بالسودان، مادام أنه لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة، غير أن الحديث كان يحتل حيزاً هاماً في حياته اليومية شأنه في ذلك شأن كل شرقي. وكما سبق وقيل، فإن الحديث إليه كان يتم بسهولة، إذ لم يكن الدخول إلى القصر صعباً جداً. ومن بين المعتادين على المثول بين يدي الباشا، عدد مهم من الأوروبيين، وكان من بين زواره الكثير من المتعلمين

والمثقفين بل ومن أصحاب المعارف الواسعة. ويمكن إذن أن نفترض أنه ومن خلال كل هؤلاء، تعرف محمد علي على بعض الدراسات المنجزة حول السودان، وهكذا ستتشكل لديه القناعة من خلال كتب الرحلات، ومن بينها تلك للعالم بحياة الشعوب جوان لودويغ بوكرادت[١]، بأنه سيجد في قلب الأراضي العليا، ما بين النوبة والفازوغل وكردفان ودارفور، الذهب الوفير وكل الثروات المعدنية من أجل إنجاح حلمه الكبير المتمثل في امتلاك قوة كبرى. وقد أكدوا له أن هناك مناجم غنية لاتنتظر إلا أن تمنح نفسها للفرعون الجديد. ولم يسع كل هذه الوعود إلا أن تغري محمد علي المهووس بكل ما يتعلق بمناجم الذهب والأحجار الكريمة. وهكذا، يرسل رجاله لاكتشافها أكثر من مرة، غير أنهم كانوا يقابلون السراب فقط. فيقصد سيناء رجل من بروسيا يدعى رويل، ويتجه إيطالي يدعى بروكي إلى الصحراء العربية، وسيخفق لينان دو بيلفون شخصياً في العتبة، وسيبحث كايو عن الزمرد فلا يعد إلا بالزبرجد، وسيجلب بورياني المنطلق من الخرطوم لغسل ذهب فازوغل، على نفسه السخط والغضب حين يعلن عن عقم بعثته. بل إن محمد علي سينتقل شخصياً إلى المنطقة دون أن يحرز أي نتيجة[٢]. وكان يصل أيضاً من تلك المناطق البعيدة في الجنوب، العاج الذي يشكل المادة الرئيسية المصدّرة من سنّار إلى مصر، كما تجلب العطور والبخور والزبادة والمسك الذي تشرّب به النساء ألبستهن الخفيفة...

كان هدف الحملة الأول إذن اقتصادياً. أما الثاني فهو إستراتيجي وعسكري. يستوحي أصل كونه إستراتيجي، سواء أريد ذلك طوعاً أم لم يقصد، من الزمن القديم. فقد رغب الفراعنة أيضاً في بسط سيادتهم على إفريقيا الإستوائية

---

(١) من أصل سويسري، اعتنق الإسلام فغير اسمه إلى إبراهيم ابن عبدالله. ولما كان متشرباً بالثقافة الإسلامية فقد تماهى تماماً مع المصريين.

(٢) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

والسودان، من أجل صيانه مصر من أي غزو محتمل من طرف القبائل الإفريقية، إضافة إلى أن هذه المنطقة تمنح خصوصية كونها لاتتوفر على حدود جغرافية محددة، مادامت تعتبر امتداداً لمصر، وتشكل معها وحدة طبيعية من خلال وادي النيل.

ثم إن هناك هذه السيرورة التي قادت الفراعنة إلى إحاطة تاجي مصر العليا والسفلى بالقبعة الفرعونية، ودفعتهم إلى أن يتقدموا أكثر إلى منابع النيل لتلحق نوبة بدورها بمصر. ولما أراد محمد علي أن يصير سيداً على السودان، فقد كان يلعب دور أمراء الجزء العلوي من النيل.

أما الوجه العسكري، فكان يستلهم من زمن أكثر قرباً، إذ يعود ذلك إلى سنة ١٨٠٨ تحديداً، حين كان محمد علي شاباً يقاتل في شواطئ أبوقير في صفوف الجيش العثماني، جنود الجنرال مينو. وعلى الرغم من الهزيمة التي ألحقت بالقوات الفرنسية إلا أن ابن الروملية أعجب بالعلم العسكري للعدو، ومنذ تلك اللحظة، فهم على حد تعبير بيرتيي أن القيمة الفوضوية لايمكنها ان تنتصر على الشجاعة المنظمة. وهو داعيه لتحقيق انتصارات كبيرة، ووضع حد للفردية غير المراقبة، وهو ما عجل بإصلاح الجيش على أساس «النظام الجديد».

ولم يكن محمد علي أول من أدرك هذا المشروع بكل تأكيد، فقد فكر البعض في الانصهار الكلي للقوات العثمانية، منذ بداية القرن الثامن عشر. وإذا ما أظهر الجيش العثمنلي التفوق لحد الآن، فذلك بفضل المؤسسة العسكرية الإنكشارية التي كانت محاولة لخلق جيش دائم.

وكان إنشاؤها يستند إلى مبدأ بسيط، حيث تؤخذ نخبة أسرى الحرب، وينزع أطفال المسيحيين، ويطلق على هذا التجنيد الإجباري «إنكشارية» أي الجيش الجديد، ويربون في إطار الدين الإسلامي، والامتثال الحصري للسلطان. وكانوا ينتزعون بالقوة من آبائهم، وتفرض العزوبية عليهم، ويخضعون لنظام صارم، ولعزلة تمتد لسنوات طويلة، ولايعرفون لهم من عائلة

إلا جماعتهم، وليس لهم من حب إلا لشرع الله وللسلطان. لكن وعلى مر السنين، ونتيجة لإلغاء نظام العزوبية، ولإلزامهم بالعيش في الثكنات، ولانتهاء الحملات العسكرية بدأ الخراب ينخر صفوف جيش النخبة هذا. وصار الإنكشاريون ذوو النفوس التي لاتعرف الخضوع إلا لروح المحاربين، أكثر قابلية للأهواء الشعبية. وبسرعة، لم تعد فرقتهم التي عدت حاضنة لمتعصبين مخلصين سوى مجموعة من الأفراد العاديين في الإمبراطورية(١). ومنذ نهاية القرن السادس عشر، كان على السلطة أن تواجه موجة من التمرد والوقاحة والعصيان والابتزاز، ومضى العهد الذي كان المسافرون الأجانب يعجبون بالتنظيم المحكم لمعسكرات جيش سليمان الرائع. أما البحرية فقد توقفت عند المراكب السريعة بثلاث صوار، والسفن الشراعية الحربية، في حين صارت عناصر طواقمها مجرد عبيد أو متشردين.

ومن بين أواخر المحاولات التي أريد بها إعادة النظام إلى صفوف الإنكشارية، واحدة تعود إلى سنتي ١٧٩٢ و١٧٩٣، وكلفت السلطان سليم الثالث عرشه. وكان يجب انتظار سنة ١٨٢٦، لرؤية محمود الثاني يقضي عليهم.

ويحاول محمد علي أيضاً منذ سنة ١٨١٥ أن يقحم النظام الجديد إلى صفوف جنوده، فأثار ذلك رد فعل عنيف أشبه بانكشاريي سليم، إذ تعددت مظاهر النهب والاعتداء على الأوروبيين في الحي الإفرنجي، وسواء تعلق الأمر بالأعيان أو ما بقي منهم على الأقل، أو بالأتراك فقد عارضوا هذا المشروع بالحدة نفسها، ونعت الباشا في العلن بـ «الكافر»، وأحدث التمرد فوضى كبيرة

---

(١) تغير عددهم من حوالي ثمانية آلاف في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر إلى إثني عشر ألفاً في عهد سليمان العظيم (سليمان القانوني)، وستة وعشرين ألفاً عند نهاية القرن السادس عشر، وخمسة وخمسين ألفاً سنة ١٦٥٣، ليتراجع إلى ثلاثين ألفاً في السنوات الموالية قبل أن يعود للارتفاع إلى سبعين ألفاً سنة ١٧٠٠، ثم من خمسة وثلاثين ألفاً إلى خمس وستين ألفاً حتى بداية القرن التاسع عشر.

في العاصمة. ولم تعد تطرح إلا قضية الاستغناء عن نائب الملك. وعندما أُشعر محمد علي بالخطر استطاع بالكاد أن يحتمي بالقلعة، في حين كان قصره يحاصر وينهب، ولم يسترد زمام الأمور إلا بعد أن تظاهر بأنه عدل عن مشروعه.

ويمنح له اليوم غزو السودان فرصة مثالية للتخلص من الرؤوس القوية التي تعارضه وتمنحه إمكانية تعويضها بعناصر جديدة غير مفعمة بامتيازات هذه الطبقة ومكتسباتها. وخطر في باله أنه في المناطق التي يستعد لفتحها، ينتظره خزّان بشري كاف ليخلق به جيشاً جديداً. جيش تكون عناصره «عذراء»، يمكنه من عجنها كيفما يشاء لخلق النظام الجديد.

وهناك ميزة أخرى وليست أقل شأناً وهي تجارة العبيد السود التي ستشكل عاملاً مساعداً قوياً لحمل أعباء خزائنه. ويتم اصطياد هؤلاء الرجال في منحدرات الجبال الحبشية، ويصيرون «مثل الزينة في البيوت»، إضافة إلى تلك الفتيات ذوات البشرة الصافية والملامح الواضحة اللواتي يشكلن اختيار المماليك الأول، وتمكن هذه الحملة في إفريقيا أخيراً من القضاء على بقايا المماليك المجتمعين في دنقلا منذ مذبحة سنة ١٨١١، حيث تسري الشائعة بأنهم يأملون في استعادة مواقعهم في وادي النيل. فيهيء نائب الملك حملته كمنظم حريص على التفاصيل، ولشعوره بأن هذه الحملة ستثير الاحتجاج عليه، حرص على إظهار أنها بعثة علمية، وأن السودان سيكون الموضوع النهائي لعمليته، غير أنه جعل من الحبشة هدفه الحقيقي. وكان يطمح في قرارة نفسه، أن ينشئ إمبراطورية يحدها البحر وأن تمتد على كل إفريقيا الشرقية من السويس وحتى المناطق التي كانت تقوم فيها كبرى الموانئ العربية في زمن ألف ليلة وليلة. وفي نهاية شهر أيار من سنة ١٨٢٠، كان كل شيء جاهزاً[١].

---

(١) أنظر إلى ديهيران. (مصدر ذكر سابقاً).

الاتجاه إلى الخرطوم

كان هناك جيشان مكونان من أربعة آلاف جندي لاينتظرون إلا الأمر بالتحرك[1]. وكان ابنه إسماعيل على رأس الجيش الأول، في حين عهد لصهره محمد باي الدفتردار بقيادة الجيش الثاني. والاختلاف هذه المرة كبيراً، ذلك أن محمد علي لن يدخل هذه الحرب كتابع لإسطانبول، ولكن لحسابه الخاص.

ويعهد لإسماعيل فتح بلاد النوبة، وكان مصحوباً بجنس غريب من المستشرقين المغامرين، وخاصة من الإيطاليين المثقلين بألقاب من مثل علماء الطبيعة، مختصين بالمعادن أو أطباء، والذين أقسموا لنائب الملك بانتزاع كل كنوز نوبة التي جعلها جهل السكان تطمر في الأرض[2].

وخلال شهر حزيران تتمركز عناصر البعثة في أسوان. ويسلك الفرسان والجمال التي جمعت من إسنة، طريق البر من أجل تجميع الموكب في وقت لاحق، في حين تسلك البقية طريق النيل على متن ثلاثة آلاف مركب خفيف، أما إسماعيل فلم يغادر القاهرة إلا في العشرين من شهر تموز.

وفي انتظار وصوله، ينطلق خمسمائة فارس يقودهم محمد باي، في مهمة استكشافية تقودهم حتى حدود الدنقلا، ويشددون الخناق في طريقهم على بقايا المماليك الذين يعلن ثلاثمائة منهم استسلامهم في حين يتراجع آخرون إلى سنّار[3]، ثم إلى دارفور. وفيما بعد سيلجؤون إلى ضفاف البحر الأحمر حيث سيندثرون في النهاية في ظروف تعيسة، بعد أن حُطموا تماماً.

وما أن يصل الباشا الشاب حتى تتحرك غالبية عناصر الحملة إلى الشلال

---

(١) بحسب فولاييل فإن الجيش المصري كان يتكون من فرق مدفعية مؤلفة من ثلاثة آلاف وخمسمائة من رجال المشاة والخيالة، من بينهم ثمانمائة عربي ينتمون إلى قبائل مختلفة. كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية في مصر». الجزء العاشر.

(٢) المصدر السابق. وويغان. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) تستمد المنطقة اسمها من عاصمة الفونج سابقاً والمسماة سنار.

الثاني، شلال وادي حلفا، وبعد توقف دام حوالي اثني عشر يوماً، يقصدون ماراكاك التي يدخلونها دون مقاومة.

ويدخل الجيش في نهاية شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٠ إلى مناطق الشايقية وهي مجموعة من القبائل المتجهمة والمتفرقة في أغلب الأحيان، والمسلحة برماح طويلة وحراب.

ويفتح إسماعيل باب المفاوضات، وتعلن القبائل استعدادها للاستسلام، غير أن الشروط التي يفرضها الجنرال الشاب كانت من السخف حد أنها لم تترك لهم مجالاً آخر سوى الموت وهم يقاتلون. ولما اشتد غضب إسماعيل من رفضهم، أعطى أوامره بالهجوم عليهم أو بالقيام بمجزرة في حقهم. ويحاول أفراد الشايقية التجمع في قرية كورتي فتدمر بالكامل، أما سكانها فكانوا ما بين مشوّه وقتيل، في حين يغرق من نجا منهم وحاول الفرار سباحة إلى الشاطئ الأيمن من الوادي، حتى لايقال إنهم دكّوا بقوة المدافع. ولما كان إسماعيل قد وضع مكافأة لكل جندي يأتيه بزوج أذنين بقيمة خمساً وعشرين قرشاً، فإن جنوده استمتعوا بالقيام بذلك. فما كان ذلك اليوم ينقضي حتى وضعوا بين قدميه ألفاً ومائتين زوجاً، تؤكد مواهب المحارب لدى زعيمهم، وبعد أن ملّحت، أرسلت إلى نائب الملك.

أما رد هذا الأخير فقد تضمن انتقاداً جاء فيه «توصلت برسيلتكم، وفي الوقت نفسه بآذان الشايقية. وما من حكومة تجهل أنه بالعدل وحده يمكن الوصول إلى قلوب الناس. وكل غزو لأي بلد يتطلب اللباقة والروح السياسية لأنه لاتوجد حكومة استطاعت أن تنجز عملاً ناجحاً دون عدل، وهو الشرط الضروري لإنجاح أي قضية. وكان من الأفضل أن تحاول كسب أهالي الشايقية بالرعاية واللين عوض أن تفرض عليهم تسليم الأحصنة والأسلحة وبالتالي إثارة الكراهية والتمرد[1]».

---

(١) أرشيفات مصرية. صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

وما إن عرف أمر هذه الحملة حتى ثارت معارضة الإنجليز الذين وإن تساهلوا مع أمر السودان إلا أنه لامجال للتسامح في الوصول إلى الحبشة. ويطلب هنري سيلت شخصياً، وهو اختصاصي كبير في هذه المنطقة من العالم[1]، مقابلة الباشا فوراً ليعبر له عن تحفظ وقلق حكومته، وحذّر بأن بلاده لن تقبل أبداً أن بلداً مسيحياً مثل الجبشة والذي حافظ إلى الآن على استقلاله ودينه وسط عالم معادي، أن يصير تحت سيطرة قوة إسلامية[2]. ولاشك بأن مسألة الدين هذه ليست إلا ذريعة إذ أن إنجلترا كانت تطمع في هذه الأراضي الشاسعة بطبيعة الحال، وأن تلحقها بها أو تضمها تحت وصايتها في الوقت المناسب.

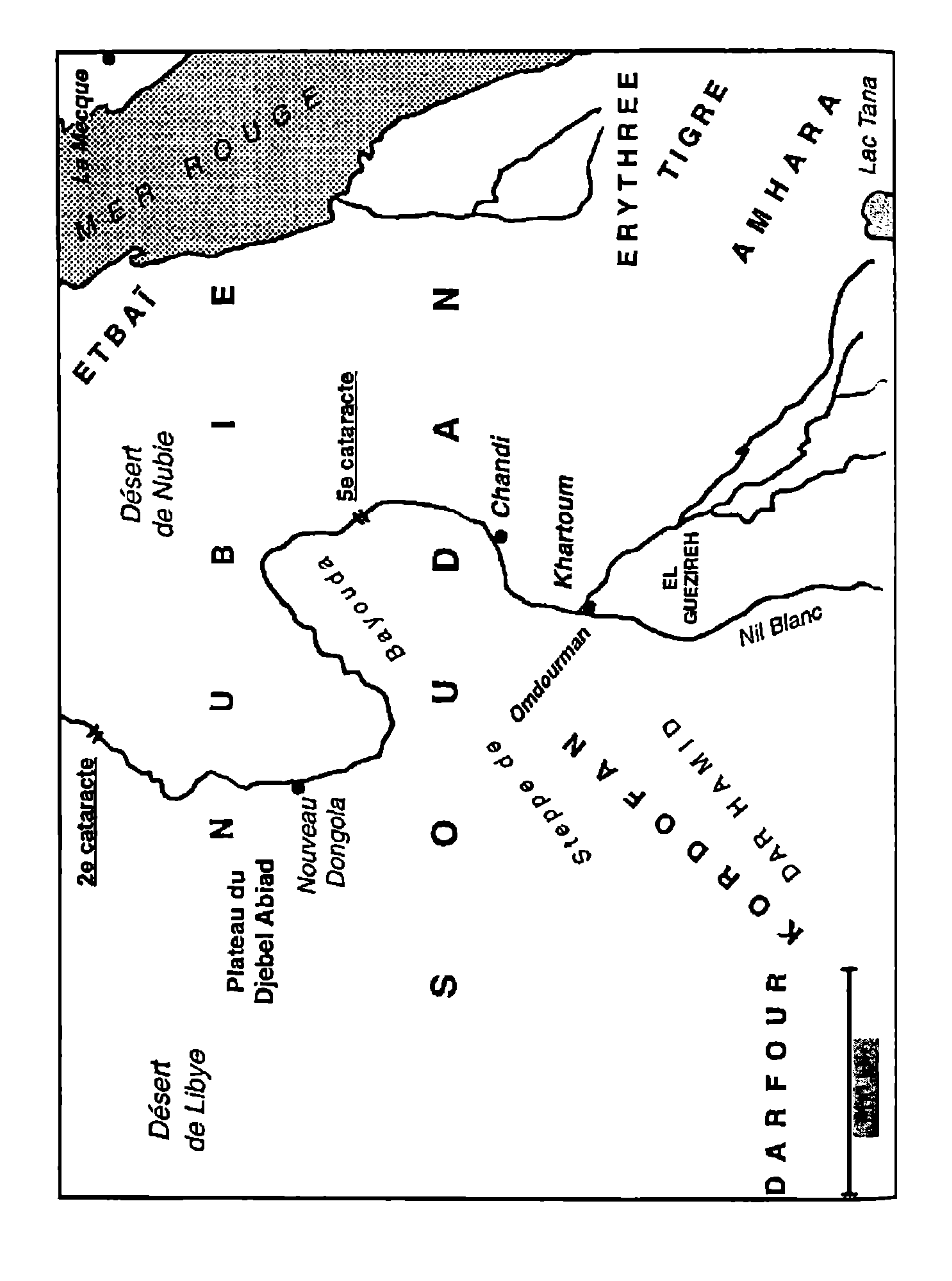
ويحاول الباشا في البداية كسب الوقت وخلط الأوراق، ولكن وأمام حزم الإنجليز ينتهي بالرضوخ، ويعد سيلت بعدم تجاوز الحدود المفروضة. ويعلق سيلت في معرض حديثه إلى وزير الشؤون الخارجية بتاريخ العشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٢٠ «لما رآى سموه موقفي الحازم غيّر لهجته، وأكد لي بالطريقة الأكثر وضوحاً بأنه وعلى الرغم من أن المنطقة مليئة بالذهب وبالأحجار الكريمة، وأن فتحها كان مؤكداً، فإنه يفضل من الآن وصاعداً، التراجع عن ذلك، عوض أن يسيء في أي لحظة من اللحظات إلى علاقته بحكومتنا». وشرح لي سموه فيما بعد «بأن الهدف الحقيقي لحملته كان تحريك قواته التي صارت ثقيلة، وللحصول على معلومات حول مجرى النيل الأبيض، والذي تحدى الكثير من العظماء منذ عهد الإسكندر[3]».

---

(١) رافق ما بين سنتي ١٨٠٢ و١٨٠٦ الفيكونت جورج فالنتيا كرسام في رحلة طويلة قادتهما حتى سيلان ومصر والحبشة. حقق نشر رحلته هذه سنة ١٨١٤ نجاحاً كبيراً أهله لخلافة ميسيت كقنصل لإنجلترا في مصر. أنظر فيشتر. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) منذ بداية القرن الرابع، استضاف النجاشي شاباً سورياً تعرض لحادثة كادت تودي بحياته غرقاً، وحمله على اعتناق المسيحية، ليصير الأسقف الأول في البلد. وبداية من القرن الخامس، زارها العديد من الرهبان من أنطاكية ونجحوا في جعل الشعب والملوك يعتنقون المسيحية بصفة نهائية.

(٣) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).



Le Soudan conquis par Méhémet-Ali

ويصل إسماعيل إلى تخوم سنّار في الأسبوع الأول من شهر شباط لسنة ١٨٢١ بعد انتصاره في نوبة، وتنبسط أمام عينيه سهوب جديدة بمقدار الاقتراب من الحبشة حيث تظل الأرض مجرد صحراء لمدة ثمانية أشهر، لكن وما إن يبدأ موسم الأمطار حتى تغطى الأراضي بفعل الرطوبة والحرارة بنباتات مختلفة. ويقوم هنا خليط غير متجانس من الشعوب يحكم كلاً منها ملك. وهم مسلحون بأسلحة بدائية مثل الشايقية تماماً، ولم يسبق لهم أن رأوا سلاحاً نارياً أو مدافع لدرجة أن مقاتليهم لم يفهموا في البداية على الأقل، نوعية الجروح التي تعرضوا لها.

ويمنح إسماعيل لنفسه ولجيشه بضعة أيام من الراحة قبل التوغل في سنّار، فيجمع قواته حول الشلال الرابع. وفي منتصف شهر شباط يتحرك، ويصل إلى بربر في الثامن شهر آذار، ويحتلها دون إطلاق أية رصاصة. ويدخل شندي في اليوم الموالي. ويعاود مسيره جنوبياً، متبعاً الشط الأيسر للبحر الأبيض (النيل الأبيض)، دون أن يواجه صعوبات تذكر سوى ندرة الطعام وقسوة المناخ. ويصل ملتقى النيل الأبيض والبحر الأزرق في نهاية شهر أيار. هاهو الآن إذن في قلب السودان الشرقي.

ويشكل وصوله إلى هذه المنطقة في السابع والعشرين من شهر أيار لسنة ١٨٢١، يوماً هاماً في تاريخ مصر الحديثة والسودان المصرية. وفي السنة الموالية يقيم إسماعيل في الضفة اليسرى للنيل الأبيض معسكراً دائماً، ويطلق على المكان إسم عجوز كانت الساكن الوحيد في هذه المنطقة من الصحراء «أم درمان». وبعد سنتين يحضر محمد علي إلى المكان ليتفقده، وليتمكن من تقييم كل الفوائد التي يمكنه أن يجنيها منه، ويشير إلى النقطة التي يلتقي عندها النهران والتي ستنشأ فيها المدينة المستقبلية حيث سيستقر حاكم السودان المصرية فيها، ويطلق عليها اسم أرض الخرطوم فيما بعد.

غير أن إسماعيل لم يضع الوقت في سنة ١٨٢١، فوحدها خمسة من المراكب الثلاثمائة المنطلقة من أسوان استطاعت الوصول إلى هذه النقطة

القصية متجاوزة الشلال الرابع. ويدخل قائد الحملة في الثاني عشر من شهر حزيران عاصمة مملكة الفونج[(١)] سنّار، بعد أن تجاوز الجزيرة، ويعلن الملك بادي عن تبعيته لمحمد علي.

نجدة إبراهيم

وتبقى مواصلة إدراك هدفين حددهما نائب الملك، وهما البحث عن الذهب والعبيد. وكان كلا البحثين من دون نتائج. فالنيل الأزرق الذي من المفترض أنه غني بالذهب أو على الأقل في مجراه العلوي، لم يمنح إلا نزراً غير ذا قيمة. أما العبيد، فقد تمت ملاحقة سكان سنّار دون رأفة وأخليت من سكانها تقريباً، لكن نتائجها كانت متواضعة، إذ أن نسبة الأسرى المطلوبة إلى مصر بدت غير كافية بطريقة تدعو إلى السخرية. فيعمد إسماعيل إلى تمزيق الناس إلى مجموعات. ويرسل فرقاً من الجيش في كل الاتجاهات لعمليات قنص بدون رحمة لسكان الشرق والجنوب الشرقي من ذوي البشرات السوداء. فتأسر أسرة بكاملها، إذ كان يمكن رؤية الأب والأم والأطفال يساقون مصفدين جميعاً حتى حدود مصر. ويتم الانتقاء في أسوان، ففي حين يخضع الرجال بكل قسوة إلى تداريب عسكرية صارمة للنظام الجديد الشهير، اقتيدت النساء والأطفال إلى أسواق القاهرة، حيث تنظم عمليات بيع لمصلحة نائب الملك[(٢)].

وينتقم طقس سنّار لهؤلاء التعساء، إذ يلفي المصريون الذين فقدوا القليل من الرجال في القتال، أنفسهم في مواجهة الحمى والزحار. ويفتك المرض

---

(١) هناك تضارب في أصل الفونج، فالبعض يربطهم بالشيلوك، ويرى البعض الآخر بأنهم قدموا من دارفور أو من الحبشة. ظهرت مملكة الفونج في التاريخ في القرن السادس عشر، أي بعد قرنين من سقوط الممالك المسيحية في بلاد نوبة. وبغض النظر عن اسمهم، يجهل كل شيء عن ملوك الفونج الأوائل. وبدءاً من بداية القرن السابع عشر سيشيد أحد ملوكهم ويدعى بادي الثاني قصراً ومسجداً في عاصمتهم سنار.

(٢) أ. دو فولابيل في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «التاريخ العسكري لمحمد علي» الجنرال ويغان. (مصدر ذكر سابقاً).

بالجنود الذين تأثرت أجسادهم بالقحط ونفسياتهم على السواء. فالمصري المعتاد على السهول الكبيرة المفتوحة لوادي النيل سيجد نفسه ضائعاً في هذه السباسب الغارقة بالرطوبة وفي غابات الفازوغل الواسعة.

ويفقد إسماعيل في نهاية شهر أيلول من سنة ١٨٢١، بعد ثلاثة أشهر من دخوله إلى سنّار حوالي ستمائة من رجاله في حين يصاب أزيد من ألفين منهم بالمرض. وكاد الأمر يتحول إلى مذبحة لولا أن قرر محمد علي إرسال إبراهيم للنجدة.

ويحمل الإبن البكر لمحمد علي الإمدادات، وخاصة أطباء أكفاء سيتمكنون من وضع حد لهذا الوباء، وذلك بعزل المصابين وتنظيف المستنقعات حيث تتفسخ جثث الرجال والدواب. وهكذا يتمكن إسماعيل إذن من الانطلاق بحثاً عن أرض الأحلام السودانية، والتي من المفترض، وطبقاً لمعطيات غامضة، أنها توجد في منطقة الفازوغل في المجرى الأوسط للنيل الأزرق. ويصحبه هذه المرة عالم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، في علم الجواهر والأحجار الكريمة، وهو من منطقة بريطانيا الفرنسية، كان قد التحق به بعد احتلال دنقلا[١].

ويرحل إسماعيل في الفاتح من شهر كانون الأول لسنة ١٨٢١ عن سنّار، صاعداً النهر، غير أن الأشياء ليست بهذه السهولة، إذ أن عناصر هذه الحملة مضطرين إلى مواجهة عدو يتمتع بامتياز معرفته الدقيقة بسلسلة جبال تتخللها التضاريس والصخور والوديان الصغيرة، وهو متشبث بالدفاع عن استقلاله.

ينضاف إلى هذا أمر آخر غير مستحب، إذ أن الفازوغل تتوفر فعلاً على بعض مناجم الذهب غير أن كمية المعدن النفيس التي تتوفر عليها لاتكفي لأن

---

(١) وصل إلى مصر حوالي سنة ١٨١٥ في سن الثامنة عشر، والتحق بالخدمة لدى محمد علي بفضل دروفيتي إذ أوكل إليه مهمة البحث عن المعادن الثمينة. خصه دروفيتي بلقب «عالم الباشا في المعادن». انظر فيشتر. (مصدر ذكر سابقاً). تركت آثار مهمة حول بعثه في كتاب باللغة الفرنسية يحمل عنوان «رحلة إلى ميروي، والنهر الأبيض، وبعيداً عن فازوغل، وفي قلب مملكة سنار، وإلى سيوة، وخمس واحات أخرى». أربعة مجلدات. باريس ١٨٣٢ ـ ١٨٢٧. أضحى محافظ متحف التاريخ الطبيعي بنانت حتى موته سنة ١٨٦٩ عن عمر يناهز الثاني والثمانين سنة.

يفكر أحدهم بالاستثمار فيها، ويبدأ الشعور باليأس يتسلل إلى نفوس المصريين الذين صاروا أهدافاً لحراب تطلق عليهم من قبل أعداء غير مرئيين.

وإمعاناً في السوء، يعم الاضطراب سنّار التي تركها إبراهيم بدوره للقيام بفتوحات جديدة، بعد أن سرت أخبار بأن جزءاً كبيراً من الجيش هلك في الجنوب. فتنهض همم أبناء سنّار، ويعملون سيوفهم في العديد من الحاميات العسكرية المصرية، فيجبر إسماعيل في شهر شباط لسنة ١٨٢٢ على العودة مسرعاً غير أن جيشه مقسم، والجزء الأكبر من عتاده وذخيرته بقي في الأعماق الضيقة أو في السيول الطينية التي كان يتعين عليه المرور بها.

من جانبه، يتقدم إبراهيم في اتجاه النيل الأبيض، فيجبره الزحار على التوقف، أمام مقاطعة دينكا. والحقيقة أنه وحتى قبل مرضه، أدرك استحالة التقدم في أراضي دارفور خاصة بعض أن أصيبت عناصر قواته بمختلف أنواع الأوبئة. وسيعود مرغماً إلى القاهرة بناءً على نصائح طبيبه الجديد ألساندرو ريتشي، ذلك أن سكوتو كان قد توفي قبل وقت قصير، متخلياً بذلك عن الحملة في بحر الغزال.

«عند وصولي إلى المعسكر المصري بسنّار، كان قد مر شهر على مرض إبراهيم باشا بالزحار، ولما كان هدف الحملة البحث عن موارد للنيل والتوغل في مناطق أكثر حرارة وشؤماً، فإن حالة إبراهيم الصحية كانت تزداد سوءاً إذ كان يفقد الدم، ويضعف بحالة تدعو للقلق. وقد حاولت في مرتين إقناعه بالتراجع إلى الخلف دون نتيجة، إذ كان إبراهيم يرى أن التخلي عن مركزه في مثل ذلك الوقت يعد تقصيراً في مهمته، ولأنه كان يرغب في منح القدوة، فقد كان يجهد نفسه ويرغمها على التقدم مهما كلفه ذلك من ثمن.

وفي فيركال حيث كان يتعين علينا المضي إليها للوصول إلى النيل، كان يعاني من مغص مؤلم في أمعائه، وآلام في الرأس وأوجاع في كل أعضائه، وكان نبضه ضعيفاً وغير منتظم، فطلب مني إبراهيم أن أصارحه بحقيقة حالته، ولم يكن باستطاعتي أن أخفي عنه خطورة وضعه، فصارحته بأنه إذا لم يعد إلى

منطقة بها طقس أكثر لطفاً، فإني لن أتحمل مسؤولية حياته[1]».

ويخبر مونغان أنه ما إن علم محمد علي بعودة ابنه حتى هرع إلى لقائه قلقاً على وضعه، ولزمه في قصره بالروضة حتى تعافى تماماً.

ومثل شخصيته تماماً، كان يمضي إسماعيل إلى نهاية فيها من الفظاعة بقدر ما فيها من المأساة، ويدفعه رحيل أخيه الأكبر إلى أن يطلب من محمد علي الإذن بالعودة إلى القاهرة. فيرد عليه رافضاً طلبه «إنك في عمر مناسب لتحمل المسؤولية. ومن الواجب عليك أن تناضل ضد الأخطار وقسوة أحوال الطقس». غير أنه يوافق على طلبه في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٢، بعد أن شرح له تفاصيل الأحداث، ويسمح له أن يقترب من مصر شريطة أن تنظّم شؤون البلاد المفتوحة قبل كل شيء.

ويرحل إسماعيل إذن رفقة حوالي مائة من رجاله عن سنّار، ويقصد النوبة في أواخر شهر تشرين الأول حيث يفكر في تمضية فصل الشتاء هناك. وعند وصوله إلى شندي، وهي مدينة هامة تضم حوالي خمسة عشر ألف نسمة، يتوقف بها، ويفتش المعسكر، ويغتنمها فرصة ليفرض على السكان مساهمة كبيرة في تكاليف الحرب، ويصدر أمره بأن يجلب له في غضون خمسة أيام ألفا عبد وعشرين ألف قرش إسباني أي ما يقارب عشرة آلاف فرنك ذهبي. ويعترض نمر، رئيس المدينة على استحالة جمع كل هذا الكم الكبير في وقت وجيز، فما كان من إسماعيل إلا أن شتمه وضربه على وجهه وهدده بالخازوق إذا لم يمتثل لأمره. كان غاضباً من أن عرض مهادنته كانت مصدر إساءة وإهانة بطريقة اعتباطية سواء تعلق الأمر به أم برجاله. غير أن نمر يبدي تماسكاً، ويعد بأن يفعل كل ما يستطيع من أجل تحقيق هذا الأمر، ويرجو إسماعيل بأن يتوجه هو ورجاله إلى الضفة اليسرى للنيل في قرية معزولة مواجهة لشندي. ولم يشك إسماعيل أبداً في الأمر، فيستقر هو وأتباعه في بيت ضيافة واسع من القش.

---

(١) ذكره أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

وعند حلول الليل، يقدم نمر لضيوفه وجبة فخمة في حين، وبحجة إطعام أحصنة ضيوفه كان يضع حول مقامه ذاك كميات كبيرة من القش الجاف.

ومع اشتداد الظلمة، وعند الاقتراب من نهاية العشاء، يضرم رجال نمر النار في القش فيتحول المكان من مقر للاحتفال إلى شعلة تغتذي بالزيت. ويحاول إسماعيل ورفاقه عبثاً الفرار من الباب الوحيد. وفي كل محاولة كانت الرماح والسيوف تجبرهم على العودة إلى المحرقة. فيموت إسماعيل محروقاً تحت وابل من الشتائم من الناس المجتمعين حول المكان، منتشين بحب الانتقام. وكان إسماعيل بالكاد يبلغ سبعاً وعشرين سنة من العمر، وتنقل رفاته إلى القاهرة، لتوارى الثرى في قبر بجانب أخيه في مقبرة الإمام الشافعي.

ويمنح هذا الموت الذي أتى بعد رحيل إبراهيم بوقت قصير القيادة في السودان إلى صهر محمد علي، محمد باي الدفتردار والذي احتل خلال ذلك كردفان. وينحدر هذا الرجل من أسرة عريقة من البايات، وكان قد تلقى تربيته في إسطانبول، وتعليماً أعلى بكثير من المتوسط. وتميز بولعه بالتاريخ والجغرافيا. ولأنه كان أول من رسم خريطة لكردفان فقد تمّ قبوله كعضو في الجمعية الفرنسية الملكية للجغرافيا. ومع أن ملامح الرجل كانت أنيقة ومؤنثة ببعض المجاملة إلا أنه وخلف ذلك كان يثوي شيء من الجموح لدى الرجل[١].

وفي هذا السياق فإن قصة الرحالة الإنجليزي إدوارد لين[٢] تستحق منا أن نفتح لها قوسا.

---

(١) ويغان. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «سلوك وعادات المصريين العصرية» لندن ١٩٠٨. بول شي الذي قابل إدوارد لين في مصر فوصفه بالقول «يوجد هنا إنجليزي يدعى السيد لين والذي تبدو لنا طريقة حياته غريبة. وصل إلى القاهرة قبل سنوات عديدة، وهو يعرف العربية فيما أعتقد ويتكلمها بطلاقة. لم تعد له من صلة بتقاليد بلده والقادمين منه، وقد كرس حياته في مراقبة عادات المصريين ودراسة الأدب العربي متبنياً لباسهم وسلوكهم وحتى ممارستهم للطقوس الدينية البعيدة عن دينه. يتجنب السيد لين زيارة الأوروبيين ويكتفي باختلاطه مع المصريين، وزيارته للمساجد، وإحيائه للمناسبات الدينية، والتوجه إلى أماكن العبادة حيث يتميز بين الناس بورعه».

فقد تقدم في أحد الأيام ناظر عيّن حديثاً بمنطقة المنوفية من فلاح وطلب منه أداء ستين ريال لتسديد ضرائبه. فيقسم الفلاح بأنه لايملك شيئاً من هذا المبلغ، وأن ثروته تنحصر في بقرة بائسة وأن حليبها بالكاد يسد رمق أسرته. ولم يؤثر ذلك في الناظر، فيأمر الفلاح بإحضار البقرة، ويقوم بتجميع القرويين، ويضع البقرة للبيع بستين ريال، غير أن أحداً من الحاضرين لم يكن يملك مبلغاً مماثلاً. فلم ييأس الناظر، وأمر بإحضار جزار القرية، وأمره بذبح البقرة وتقسيم لحمها إلى ستين قطعة، فرضت كل واحدة منها على ستين قروي بريال واحد للقطعة. وهكذا تمّ تجميع المبلغ المطلوب. أما الجزار فقد كوفئ على عمله بمنحه رأس البقرة.

ولم يكن حاكم تلك المنطقة في ذلك الوقت سوى محمد باي الدفتردار المشهور، فيلجأ إليه الفلاح ليبسط شكواه أمامه، ويطلب عدله. وينصت إليه محمد باي بإمعان، فيسأله كم يقدر ثمن البقرة المذبوحة، فيهمس الفلاح «مائة وعشرون ريال على الأقل».

ويطرق الحاكم مفكراً قليلاً، ثم يستدعي الناظر فيسأله:

ـ هل ما يقوله هذا الرجل صحيح؟

فيؤكد الناظر ذلك، فيعود الحاكم ليقول:

ـ حسناً، استدعوا الجزار.

ويأتي الجزار بدوره، فيسأله:

ـ ما سبب تقسيمك للحم البقرة؟

فيرد الجزار:

ـ لأن الناظر أجبرني على ذلك، ولو أني رفضت أمره لكان حق علي أن أُضرب بالعصا، ولأُحرق بيتي.

ـ فهمت. هل تعرفان هوية المشترين؟

فيرد الجزار والناظر بالإيجاب، فيأمر الدفتردار باستدعائهم على الفور، وعند حضور الفلاحين الستين يسأل:

ـ هل كانت هذه البقرة تساوي ستين ريالاً؟

ـ كلا أيها السيد! إنها تقدر بضعف ذلك على الأقل.

فيهز صهر محمد علي رأسه، ويستدعي قاضي المنطقة. ولماحكى له القصة كاملة يسأله:

ـ ما رأيك؟

ـ أعتقد أن هذا الفلاح كان ضحية لظلم شديد، والله لايحب الظلم.

ويشير الدفتردار إلى الجزار بإصبعه ويقول:

ـ إذا أمرك الله بفعل شيء، هل تقوم به؟

ـ بالتأكيد يا سيدي. فاللّه على كل شيء قدير.

ـ حسناً، في هذه الحال، اقتل الناظر!

فيهرع الجنود إلى الناظر، فيكبل ويقدم عنقه إلى سكين الجزار.

ـ والآن، قطعه إلى ستين قطعة!

فيمتثل الجزار للأمر.

ويشير الدفتردار بعد ذلك إلى القرويين، ويجبرهم على شراء كل القطع الستين، ولكن هذه المرة بريالين للقطعة الواحدة، ولم يُخل سبيلهم إلا بعد أن جمع المبلغ كاملاً وقدمه للفلاح.

ثم يلتفت محمد باي إلى القاضي مجدداً ويسأله:

ـ في رأيك، كيف نكافئ الجزار على العمل الذي قام به؟

فيجيب القاضي:

ـ بالطريقة نفسها التي كافأه بها الناظر.

فيوافق الدفتردار بالقول:

ـ حسناً.

فيشير إلى الرأس التي كانت ماتزال ساخنة، ويأمر الجزار المرعوب قائلاً:

ـ إنها لك. خذها وامض في سلام!

وتشهد هذه القصة التي هي أقرب للحكاية مع أنها ليسِت كذلك، بدون شك

للأسف إلى شخصية صهر محمد علي. وعلى أي فما يلي من أحداث يؤكد ذلك.

فما إن علم بمقتل إسماعيل حتى هرع إلى المكان، فأحال منطقة شندي إلى خليط من نار ودم، فيضحي بما يقرب من ثلاثين ألف رأس مقابل رأس إسماعيل. وكان الأمر سيطال محافظات أخرى، لولا أن أصدر محمد علي الذي بلغه الأمر عن طريق ضباط أصابهم الاستياء مما يفعله صهره، بأن يوقف المجازر. وأمام سعة هذا الانتقام، يمكن التساؤل إن لم يكن ما يقوله الدفتردار عن نفسه يحمل أساساً من الحقيقة إذ قال «أزهقت العديد من الأرواح البشرية تعذيباً وبصور مختلفة، أزيد من عدد المواليد الذين كانت ستمنحني إياهم نساء حريمي، لو أن كل واحدة منهن وضعت طفلاً واحداً كل يوم، طيلة حياتها». وبحسب بالغراف فإنه في نهاية القرن التاسع عشر، كان مجرد ذكر اسمه يكفي لإثارة الهلع والخوف بين سكان سنّار وكردفان[1].

ويوقف مرض إبراهيم وموت إسماعيل تقدم الجيش المصري بصفة نهائية في إفريقيا الوسطى، غير أن كل بلاد النوبة خاضعة للاحتلال. واستولى نائب الملك على أزيد من مليوني كيلومتر مربع، أي ضعف مساحة مصر الحالية.

ولئن غاب الذهب، فإن الاستيلاء على السودان أضاف إلى مصر ثروات طبيعية جديدة، ومنحها بصفة خاصة وسائل التوغل الاقتصادي والسياسي في قلب إفريقيا. وبهذه الصورة، وبفضل التحكم في مرافئ البحر الأحمر فإن الاتصال بين السودان والجزيرة العربية أضحى الآن بيد الباشا. وبما أنه كان يتحكم أيضاً في مرافئ الشاطئ العربي وفي شمال ميناء السويس، فإنه كان يتحكم تماماً في البحر الأحمر. وإلى اليوم كان يتصرف كتابع للباب العالي غير

---

(١) يجمع المستكشف الفرنسي غيوم لوجون أثناء رحلة إلى كردفان سنة ١٨٦٠ أي بعد حوالي أربعين سنة من فتح السودان، العديد من الشهادات حول صهر محمد علي، والتي أجمعت على وصفه بصورة فظيعة. انظر ويغان. (مصدر ذكر سابقاً).

أن فتح السودان رفعه إلى مصاف سلطان قائم الذات. وفيما بعد، سينتزع حق سك النقود.

وبنهاية الحملة سنة ١٨٢٢، يمكن القول إن إمبراطورية محمد علي أضحت قائمة، حيث تمتد على مساحة خمسة ملايين كليومتر مربع، من الخليج العربي إلى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن ضفتي البحر الأحمر أي ما يوازي عشرة أضعاف مساحة فرنسا أو نصف مساحة أوروبا. وهكذا فقد أقام تاجر التبغ الكافالي الصغير إمبراطورية نابوليونية، واقترب من الرتبة الرفيعة لمثاله الأعلى نابوليون.

وبديهي أنه لايمكن اجتياز مراحل مماثلة دون أن يكون للأمر نتائج سواء من طرف الباب العالي أو من الأوروبيين. ويلاحظ الكونت آذاريليس منذ سنة ١٨٢٠ في مذكراته عن الشرق «من اليسير توقع صراع قريب بين تركيا ومصر تجهل نتائجه. فإمبراطورية ناشئة ومفعمة بالقوة لايمكنها أن تظل خاضعة طويلاً لإمبراطورية تضعف وفي طريقها إلى الأفول».

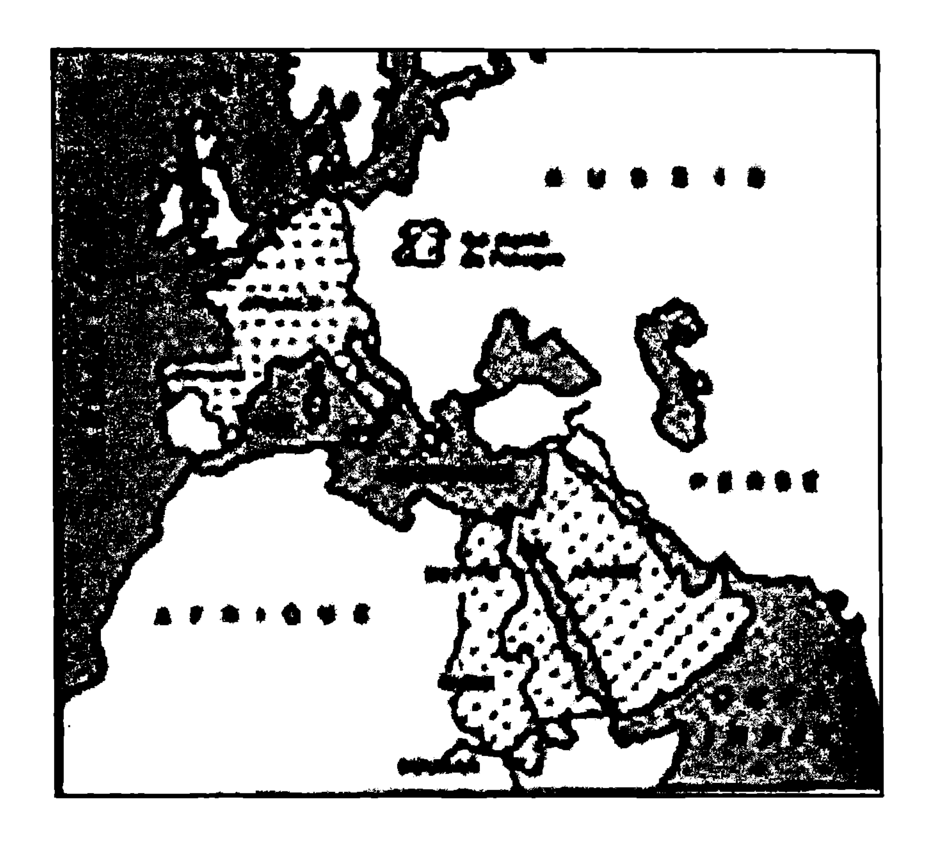
هذه هي قضية الشرق الشهيرة[١].

فبعد التدخل المصري في اليونان ستغدو مصر مصدر انشغال كبير للقوى العظمى الغربية، وستتسبب في أزمة مخيفة.

ولكن، وقبل المضي في أحداث السياسة الخارجية فلنتوقف قليلاً للتعرف على أحوال مصر الداخلية.

---

(١) هكذا يسمى توالي الأحداث التاريخية التي بدأت منذ التوقيع على معاهدة كوتشوك كنياردجي سنة ١٧٧٤، وانتهت بمعاهدة لوزان سنة ١٩٢٣. وتدور كلها أساساً حول تجزئة الإمبراطورية العثمانية، وصراع القوى العظمى لإحكام سيطرتها أو نفوذها على أوروبا البلقانية وبلدان الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.



إمبراطورية محمد علي سنة ١٨٣٩ الإمبراطورية النابوليونية سنة ١٨١١

[10]

حكومة الفرعون (١٨٠٨ ـ ١٨١٨)

عندما صار محمد علي رسمياً في سنة ١٨٠٥ والياً على مصر، لم يكن يتسلم قياد بلد ما، إذ أن مصر كانت أرضاً تنازعتها لسنوات عديدة، وحوش حملت أسماء مراد وإبراهيم باي والبرديسي والألفي، دون الحديث عن العدد غير المحصي لمن سبقهم، والذين تقاتلوا بعنف كبير حولها، كما لو أنها من خزائن ال ملك سليمان. وكانت الفوضى تسود في كل مكان.

وكانت هناك العديد من المؤسسات العمومية حرمت من العائدات التي خصها بها سليم الأول. ونتيجة لانعدام الاهتمام والعناية وأعمال الإصلاح فإن عدداً من السدود والقنوات أخذت تتهدم. أما الفلاح، فكان مثل عامل مياوم ليس له إلا ما هو ضروري ليسد به رمقه. وإمعاناً في شقائه اليومي، كان يمر به جنود يبحثون عن فرائس، إضافة إلى هجمات البدو الذين ينقضون بصفة منتظمة على المحاصيل. وكان انعدام الأمن سيد الموقف، فلايكاد يمر يوم دون أن تسجل حوادث تنم عن الاضطراب، والسلب أو القتل.

أما بخصوص الضرائب، فقد بلغ البلد مستويات عليا. ولملء الخزائن بالأموال، لم يضيف المماليك شيئاً على وصفات من سبقهم، أي فرض المزيد من الضرائب. وتعرض جبارتي في مقالاته لأربع وعشرين نوعاً من الضرائب المختلفة، دون الحديث عن نظام الإهانات والبهدلة التي يمس التجار المصريين بقدر ما يعاني منه التجار الأجانب.

وكان التعليم في مستويات دونية جداً، إذ يقتصر فقط على بعض الكتاتيب القرآنية، وجامعة الأزهر. أما المستشفيات الرائعة التي كانت في عهد صلاح الدين فكأنها اندثرت، في حين بدت الخدمات الصحية شبه معدومة.

أما الجيش فيتكون من عناصر هجينة، إذ كان يتألف من الأتراك، والألبان، والديلهيين ذائعي الصيت، والمغاربة الذين لم يكن يعنيهم من شيء إلا رواتبهم وتحصيل الغنائم. فكان من الواجب إعادة بناء وخلق كل شيء من جديد. ويمكن رؤية أن مهمة الكافالي في البلد ستكون صعبة للغاية.

ويقرر في البداية إصلاح البنى الإدارية للبلاد. أما أسلوبه فكان يُستلهم أساساً من بواعث خارجية، وبالتالي عسكرية. وكان عليه أن يضع يده على الأداة الحكومية في كل المستويات، وتتلخص طريقة حكمه في كلمتين اثنتين وهما الحكم المطلق والمركزية. ولاشيء جديد هنا فيما يخص الحق في مآذارة ذلك، إذ أن الأمر كان كذلك في كل محافظات الإمبراطورية العثمانية، غير أن هناك اختلاف في حالته. فقبله كانت سلطة باشا مصر على المحك من قبل المماليك أو عناصر غير خاضعة لأية رقابة، ولامجال لأي منهم معه، إذ أنه لم يسمح لأي كان بأن يعارض سلطته على اعتبار أنه سيد مصر المطلق، فكل المناصب الاستراتيجية أقفلت. وعندما لايقلد أحد أفراد عائلته أحد أعلى المناصب فإنها توكل إلى رجال يدينون له بكل شيء. ومن بين الرجال الشرقيين، حتى لانشير إلا إليهم، سيجد فيهم خداماً مهرة مثل محمد باي لازوغلو، كياياه الذي بقي لفترة طويلة وزيره الأكثر أهمية، وشريف باي والذي سيحكم مصر العليا لحسابه، وخصوصاً بوغوص باي يوسوفيان.

فقلة من الرجال ممن ربطوا بمصيره الذين لعبوا دوراً بمثل أهمية دور هذا الأرميني المزداد بسميرنا. وما من شك من أنه كان أحد أهم مساعديه. وكان في بدايته ترجماناً للقنصلية البريطانية في مسقط رأسه، ثم كان كذلك بالنسبة للصدر الأعظم أثناء الحملة التركية الإنجليزية لسنة ١٨٠١، وسيعود إلى مصر سنتين بعد ذلك مع علي باشا بوغول الملقب بالجزائري، قبل أن يصير في

خدمة نائب الملك. وستمكنه مواهبه ومثابرته في العمل من الارتقاء بسرعة، وإلى أن يكتسب شيئاً فشيئاً نفوذاً كبيراً يعزى بشكل أساسي إلى مرونته وانمحائه الظاهر أكثر منه إلى سعة تعليمه أو عمق رؤيته. غير أن مزاياه لم تعفه في بعض الأحيان من غضب سيده وعدم رضاه عنه. ويروي ابن أخيه، نوبار باشا في مذكراته أنه وبعد فترة قصيرة من تسلم محمد علي للحكم في مصر، كان بوغوص باي مكلفاً بالجمارك، ولم يكن ساعتها سوى خوجة أي المعلم بوغوص. وحدث أنه كان في دمياط عندما وقع خلاف كبير حول مسألة متعلقة بالحسابات، فخرج نائب الملك مهتاجاً وأمر بالقول «فليسحب من رجليه! وهي الصيغة المستعملة لحكم الموت. فينقض عليه أحد القوّاسين تنفيذاً للأمر، ويقتاده خارج الغرفة. ولحسن حظ الأرميني أن القوّاس كان يدين له بمعروف. فيتظاهر بأخذه إلى النيل ليلقى فيه امتثالاً للأمر، غير أنه يأخذه إلى منزل ويخبئه هنالك، ثم يعود إلى نائب الملك ليعلمه بأن أمره قد نفذ. وبعد أسبوع من ذلك، كان محمد علي إزاء مسألة مالية معقدة في الرشيد، تجبره على طلب النصيحة، فأجبر على أن يتذمر نادماً قائلاً «آه! لو كان بوغوص هنا، لخلصني من هذه الورطة». غير أن القوّاس الذي كان قلقاً منذ أن عصى أمر محمد علي، خشي في تلك اللحظة أنه كان يختبره بقوله ذاك، فانهارت أعصابه، وجثا أمام قدمي محمد علي يطلب عفوه. فسأل محمد علي دهشاً «أعفو عنك على ماذا؟» فيقر المسكين مرتعداً بأنه كذب عليه، وأن بوغوص ما يزال على قيد الحياة، فيصرخ نائب الملك «بوغوص حي يرزق؟ إذهب وأحضره لي، وإلا فإن رأسك ستعوض رأسه». فيمضي القوّاس سعيداً هذه المرة بتنفيذ أمره. ومنذ ذلك اليوم لم يعكر شيء صفو العلاقة بين الوزير والملك»[١].

وقبل أن يظهر بوغوص في المفاوضات المعقدة بين الباب العالي والقوى العظمى خلال أزمتي سنتي ١٨٣٣ و١٨٤٠ كان مسؤولاً في وزارة التجارة

---

(١) كتاب بالفرنسية بعنوان «مذكرات نوبار باشا». (مصدر ذكر سابقاً).

والصناعة منذ شهر كانون الثاني من سنة ١٨٢٦، وهي وظيفة بعمل كثير على اعتبار أن سياسة سيده التجارية كانت تقوم على الاحتكار. وهكذا يقوم بكل ما يستطيعه لتقويض المعاهدة التجارية لسنة ١٨٣٨ بين إنجلترا وتركيا، والتي ترمي إلى القضاء على النظام الاقتصادي لمحمد علي مادامت تنص على اعتماد نظام التبادل الحر بين أوروبا وكل الولايات الخاضعة لحكم السلطان ومن بينها مصر. ويمكن تشبيه بوغوص بتاليران صغير، فما من شخص غيره بقادر على تمطيط المسائل التي ليس في مصلحته إنهاؤها، والوقوف في وجه سيده دون أن يجابهه.

«رأيت هذا الرجل الخجول يقاوم ماكان يريده محمد علي، مجيباً على مداعبات سيده الذي كان يحاول إقناعه خالطاً حججه بنعومة صوته.

فكان يقول له: ولكن لاتكن عنيداً في أفكارك، أنت مخطئ، وما أقوله لك معقول. انضم إلى رأيي يا روحي. يا قلبي. يا خروفي...

وكان عمي الساكن ورأسه أرضاً يرد باحترام «لا، لن أقوم بشيء غير ما تريد[1]». وكان ماهراً في عدم إغضاب أي أحد، وألا يخالف أحداً دون أن ينحني. وكانت أساليبه تتسم بالمودة الشديدة، ويحسن استقبال الآخرين. وكان يملك روحاً طبيعية أكثر من امتلاكه لمعارف مكتسبة. وكان يتوفر لديه من الرقة أكثر مما لديه من الموهبة الحقيقية. وكان يعمل دون تعب، وباستقامة مثالية. وكان مخلصاً قلباً وقالباً لنائب الملك. ويشاع عنه أيضاً أنه كان ميالاً إلى الإنجليز[2]، حتى إن الفرنسيين كانوا يتهمونه بأنه وخدمة لمصلحته الشخصية، كان يسهّل خطط إنجلترا. غير أنهم كانوا يقترفون خطأ في تقديره. فنظراً لوضعية مصر، كان من الجنون أن يلقي بنفسه في سياسة معارضة للقوة المهيمنة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وُصف في تقرير أنجزه أصلان دو شيرفيل إلى ثيدنات دي فون «المخلص تماماً لإنجلترا». انظر دريو. ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

على البحار وعلى تجارة العالم. وكان بوغوص يعلم ذلك، وهو ينضم في ذلك إلى محمد علي الذي استوعب ذلك منذ أيام توليه الحكم الأولى.

وسيخلف بوغوص عند موته في شهر كانون الأول لسنة ١٨٤٤ مواطنه أرتين باي، وهو أيضاً أحد تلامذة جومارد القدامى، الذي وللتذكير فقط، كان عضواً في معهد فرنسا، وأحد أهم محرري «وصف مصر». وسيحتفظ أرتين بالمهام نفسها التي كانت لسلفه حتى سنة ١٨٥٠.

وسينجز نائب الملك بين سنتي ١٨٠٨ و١٨١١ ثورته الترابية والاقتصادية، ويقيم نظامه «الحكومي» الواسع. وكانت الأشياء واضحة في عينيه، فهو يعتبر نفسه وصياً على الشعب المصري.

وقد عمد إلى تعديل تقسيم المماليك السابق للبلد إلى أربع عشرة محافظة جُعل على رأس كل منها باياً أو كاشفاً لحكمها، إذ جزّأ مصر إلى أربع عشرة مديرية، قسمها إلى أربع وستين منطقة في المجموع، وهي منتمية بدورها إلى أقسام. والأربعة عشر قسماً لمصر السفلى مقسمة بدورها إلى ثلاث مجموعات كانت تحت إمرة نائب الملك وابنه إبراهيم والدفتردار المشؤوم، في حين أن الأقسام العشرة لمصر العليا كان تتشكل من مجموعتين، الأولى تحت إدارة طاهر باشا، في وقت تخضع الثانية إلى الكتخودا»[1]. وقلص عدد هذه المديريات فيما بعد إلى سبع فقط، أضيفت لها ثلاث مديريات إضافية ابتداءً من سنة ١٨٣٤.

وكان يوجد على رأس كل مديرية محافظ، وجعل على رأس كل محافظة مأمور، وناظراً على رأس كل قسم، ولكل قرية رئيسها وهو شيخ البلد، وهي وظيفة موروثة في غالب الأحيان. ثم هناك محصل الضرائب أو الصرّاف، ومن البديهي الإشارة إلى أن كل هؤلاء المسؤولين كانوا يدورون حول مركز واحد، وهو الفرعون ذو التاجين، ولاأحد غيره.

وكانت كل هذه الوظائف في البدء محصورة على الأتراك، غير أنه وفي سنة

---

(١) مقدم.

١٨٣٤، يقرر نائب الملك، متأثراً بإبراهيم الذي كان يشعر أنه مصري أكثر منه عثماني، إلى منح بعض الوظائف إلى أبناء البلد، بيد أن المديريات تظل موقوفة على الأتراك. غير أنه، وللأسف، سيكون الموظفون الجدد يعاملون من يقع تحت مسؤوليتهم بدرجة أكثر سوءاً من زملائهم السابقين الأتراك، وسيجهد محمد علي نفسه لتصحيح شطط واندفاع موظفيه، غير أنه، ومع الوقت، وخاصة بعد مؤتمر لندن ونتيجة لسنه سيخفف من ضغطه ذاك.

وكانت الوظائف الأساسية لهؤلاء الموظفين تتضمن السهر على تحصيل الضرائب، وتطبيق النظام في المجال الزراعي، وتجنيد عناصر جديدة للجيش. وكان هناك دوماً المبدأ نفسه أي المال والحراب. وكانت المحاسبة تعهد في كل محافظة إلى كاتب قبطي يخضع بدوره إلى رئيس المحاسبين الموجود في المديرية تحت إدارة الحاكم.

وستحتفظ الإدارة المركزية في البداية بالسمة التقليدية نفسها التي يعمل بها في كل الولايات التركية، غير أنه وفي أواسط فترة حكم محمد علي ستأخذ منحى الوزارة الأوروبية بعدد موظفين أقل، والتي يحكم نائب الملك قبضته عليها. وستختلف التسميات، إذ ستختفي ألقاب مثل كيايا الباشا، أو الدفتردار أو الخزندار، ليحل محلها لقب «الوزير» فلان للإشارة إلى أحد مساعديه. وقد سبق هذا التوجه، الإنشاء الرسمي للوزارات، والذي يمهد للمجالس التي يرأس كل منها أحد مساعدي نائب الملك المباشرين، والمكونة من عدد من الموظفين المكلفين بمختلف فروع الإدراة العمومية مثل الحربية والبحرية والتعليم والأشغال العمومية. ولاينبغي مع ذلك، إغفال أنه وعلى الرغم من المظاهر فإن هذه الوزارات لم تكن تملك السلطة نفسها التي كانت تملكها الوزارات في أوروبا، حيث سيظل نائب الملك السيد الوحيد والأعلى. ذلك أنه يتلقى الآراء والأفكار والمقترحات ولكنه صاحب الأمر وحق القبول أو الرفض، وعلى امتداد حكمه، سينظر إلى مصر كملكية خاصة له، وسيعتبر الملايين الخمسة من سكانها كما لو أنها مخلوقاته.

وفي سنة ١٨٣٣، سيجعل بوغوص يحمل لقب وزير الشؤون الخارجية التي كان يقوم بأعمالها من قبل. ويقيم وينظم في سنة ١٨٣٧ وزارة الداخلية، ويعهد بها إلى حبيب أفندي، ويضع مختار باي الذي تلقى تربيته في فرنسا، على رأس وزارة التعليم العام والأشغال العمومية، وعلى رأس وزارة الحربية أحمد منيكلي، أما وزارة المالية المقسمة إلى قسمين فيجعل باكي باي على رأس قسم مصر السفلى، ومحمد أفندي مسؤولاً عن قسم مصر العليا، في حين عيّن حسن أفندي على رأس وزارة البحرية.

وستحافظ كل هذه الوزارات على عادة النظر في كل قضاياها في لجان أو دواوين، إذ ستبقى المجالس التي سبقت إنشاء الوزارات، وستمكن الإدارة المركزية شأنها في ذلك شأن إدارة المقاطعات، من المراقبة والإدارة الفعلية لكل القضايا العامة. وإذا كان ابن كافالا أول من أرسى أسس أجهزة دولة وصفت بأنها «نظامية»، فإنه جعل إدارة كل مرافقها خاضعة لشخصه، إذ أن وزراءه كانوا عبارة عن كتاب له ومستشارين، ينقلون له القضايا، ويقترحون عليه الحلول، ثم ينفذون أوامره بكل بساطة.

وتواجدت إبان الاستعمار الفرنسي عدة أجهزة استشارية مثل ديوان القاهرة، أو دواوين المقاطعات أو الديوان العام لمصر، ولم يعد محمد علي لأي منها، غير أنه وبعد حوالي خمس عشرة سنة من توليه الحكم، سينشئ دواوين مشابهة تماماً لتلك التي تواجدت في فرنسا الملكية أو النابوليونية، مثل مجلس الدولة، أو المجلس الخاص، أو جهاز لكبار الموظفين وللوزراء، ولكن دون أن يمنحها أي طابع تمثيلي. وكان يدعو بصفة استثنائية مدراء المقاطعات كلما دفعته الظروف إلى السهر على إصلاح معين أو مساهمة أو قرار تعيين لايدعو إلى المقاومة. وكان يدعو شيوخ البلد أيضاً، ويجتمع بكل واحد منهم على انفراد، أو يجمعهم في بعض الأحيان. غير أنه لم يمنح لأفراد الشعب أبداً إمكانية المشاركة في تسيير أو إبداء رأيهم حتى عندما يتعلق الأمر بأمور صغيرة. فمبدأ إشراك الرعية في الإدارة أو الحكم كان غريباً عنه كل الغرابة. وأدى

تمركز كل السلط في يده، وخاصة الطريقة الناجعة التي كان يآذار بها هذه السلط، إلى تقليص نفوذ الوجهاء والعلماء الذين كانوا قد ساهموا في رفعه إلى الحكم، وسيسحبهم بالتدريج من الإدارة ومن التعليم ومن مهنهم، ولم يكن يلجأ إلى خدماتهم الجليلة إلا في الساعات الحرجة فقط. وهناك عنصر آخر ذو دلالة قوية، تبين حالته النفسية، فعلى الرغم من تدخل إبراهيم، لم يقبل المصريون في وظائف الدولة أو في إدارة الشؤون العامة للبلاد أو مناصب الجيش إلا نادراً. ولم ينظر إليهم أبداً إلا في حالات استثنائية، مثل الأتراك أو المماليك، وهو لقب احتفظ به للإشارة إلى كل العبيد البيض الذين تم جلبهم إلى مصر. فالمصري والعربي عموماً، يعتبر كعرق خاضع. «ففي مصر، يحل الشقاء على كل ما هو مصري، وبالنسبة للأتراك والأوروبيين فهم ينالون الحرية والتميز والرخص. أما العرب والسود فيجردون من كل حق». ومهما يكن تعليق كادالفين وبروفيري قاسياً إلا أنه يعكس شروط حياة كل مصري، أو نضاله من أجل الحياة. ولن تفتح أبواب مناصب الإدارة الحديثة في وجهه إلا بعد مضي وقت طويل، ويرجع فضل ذلك بشكل كبير إلى إبراهيم، ومع ذلك فإن المناصب المرموقة والرتب العليا ظلت حكراً على الأتراك والأجانب.

وإذا ما هيمن التركي فإنه سيفقد لغته في الإدارة شيئاً فشيئاً لحساب اللغة العربية، ولن تبقى متواجدة إلا داخل الحكومة. فمحمد علي لم يكن يتكلم العربية، وكان يتظاهر بعدم فهمها بشكل كاف حد عدم استغنائه عن مترجم. ومن الصعب تصديق ذلك. من يدري؟ فلربما مكنه جهله المزعوم من النفاذ إلى نفوس محدثيه، واختبار صدق مترجمه الخاص.

ويبقى وضع مصر من ناحية التمثيلية الدبلوماسية مجمداً. ولما كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية فإن ذلك حرمها من أي تمثيل دبلوماسي في الخارج، وهي الميزة التي تخص الدول ذات السيادة، غير أن محمد علي سينجح في الالتفاف على هذا العائق عن طريق اعتماده على وكلائه التجاريين في عدد من الموانئ الكبرى وفي البحر الأبيض المتوسط، إذ سيستخدم عدداً من

الشخصيات كمستشارين سياسيين أو وسطاء رسميين مثل آذاريليس أو بوكلر موسكو وخاصة مارمون. وحتى في إسطانبول يعتمد على عنصر نشيط، وهو نجيب أفندي وذلك بهدف أساسي يتمثل في التدخل لمصلحته في الديوان.

وبدءاً من سنة ١٨١٩ سيعمل على إرساء قواعد مشروعه المتلعق بـ «النظام الجديد». وكان في حاجة ماسة إلى هذا «الجيش الجديد»، وهو شيء ضروري إذا ما أراد الاستمرار في تحقيق حلمه بالاستقلال. وهوحلم يعلم أنه عاجلاً أو آجلاً سيجلب عليه استياء القوى العظمى. وففي اليوم الذي سيحضر فيه عدو أيا كان اسمه، سواء تركيا أو النمسا أو إنجلترا أو روسيا أو حتى فرنسا، سيكون بمقدوره استقباله وهزمه بالطريقة نفسها التي هزم بها المماليك أو الوهابيين أو قبائل نوبة. وبالفعل، ومهما بدا الأمر مفاجئاً، فبفضل الجيش ومن أجله سيعمد إلى «تحديث» هذه الأرض القديمة، فكان ينبغي عليه توحيد زي جيشه، وبالتالي إنشاء معامل للأنسجة. وكان يحتاج إلى أسلحة وبالتالي تمَ إنشاء مصانع. وكانت تلزمه الذخيرة فشيّد مصانع للبارود. ولأن الجندي الجاهل لن يصير ضابطاً جيداً، فقد تمَ إنشاء مدارس عسكرية في البداية قبل أن تصير مدارس للشأن العام. وبما أن تحريك الجيش بسرعة يحتم وجود طرق تواصال، فقد تم حفر قنوات وإعداد طرق جديدة. ولأن بلداً مثل مصر مفتوح في الشمال على مساحة كبيرة من البحر الأبيض المتوسط، ولايمكنه أن يدافع عن نفسه من دون استعمال البحرية، فقد تمَ تشييد ترسانات، وبناء سفن، وستؤدي إرادته في التوسع ورغبته في امتلاك القوة في غالب الأحيان بألم كبير إلى جر أمة بأكملها إلى طريق التقدم، وإخراجها على مضض من الظلام.

[11]

جيش الفرعون الجديد (١٨١٩ ـ ١٨٢٤)

يقرر محمد علي في سنة ١٨١٩، وإرساءً للنظام الجديد الذي عجز عن تحقيقه أربع سنوات قبل ذلك، الاعتماد على ضباط أغلبهم فرنسيين بالأساس، وخاصة على الكولونيل الفرنسي المخضرم جوزف سيف أحد ضباط الإمبراطورية الذي قدم إلى ضفاف النيل بحثاً عن الثروة، وهو شخصية مدهشة تستحق الوقوف قليلاً عند مسارها.

فقد ازداد في مدينة ليون في السابعة عشر من شهر أيار لسنة ١٧٨٨ من أب يعمل في صناعة القبعات، وأم تشتغل في مطحنة. وتقرر أسرته في الثالث والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٧٩٩ أن تلحقه بالبحرية وهو بالكاد يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، وذلك فيما يبدو من أجل ترويض طبعه المتمرد.

ويركب البحر في طولون كضابط صف صغير السن على متن الفرقاطة مويرون[1]، ليحول أربع سنوات بعد ذلك إلى كتيبة المدفعية البحرية الثانية. وسيشارك في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٠٥، في معركة الطرف الأغر حيث سيصاب بضربة فأس، ويرسل في كتيبة في سنة ١٨١٢ إلى هانوفر، ليجد نفسه وسط الثلوج الروسية. وبعد نجاته، تتم ترقيته إلى رتبة معاون، ويشارك في

(١) هي نفسها التي غادر بونابارت على متنها في شهر آب من سنة ١٧٩٩.

حملات الإمبراطورية الأخيرة. ويساهم إلى جانب نابوليون خلال المائة يوم. وسيجد مساره المهني، مثل كثيرين غيره، محطماً في سنة ١٨٠٥ في المحاولة الثانية لإعادة ترميم الإمبراطورية. وسيطلب أكثر من مرة عبثاً أن يلتحق بالجيش الفعال، ولما لم ينجح في ذلك، عرج على خوض غمار الأعمال التجارية بدأها بالعربات والأحصنة، لكنه يفشل في ذلك. ولما تعب من النضال، يبعث باستقالته كضابط في سنة ١٨١٦ إلى وزير الحربية الجديد الدوق دونيلتر فتقبل استقالته. وكان في هذه الفترة ملازماً في كتائب الفرسان، ولم يكن كولونيلاً وهي رتبة لم يصلها أبداً على الرغم مما قاله لمحمد علي.

وعلى أي، فها هو ذا في براثن الحاجة، تلاحقه طلبات الدائنين، ويفر لاجئاً إلى عمه جويلي خلال شتاء سنة ١٨١٨ بعد أن كان مهدداً بالسجن، محاولاً أن يجعل أمره منسياً. وتعرض عليه أخيراً وكالة تجارية بأن يمثلها في إيطاليا، فيقصد ميلانو في شهر كانون الثاني من سنة ١٨١٩ حيث يواجه صعوبات جديدة، ليخلص سريعاً إلى أنه لايملك أية مواهب كبائع، وهنا سيصل إلى علمه بأن شاه الفرس يبحث عن ضباط متمرسين لتنظيم جيشه وفق النظم الأوروبية أي النظام الجديد، فيطلب من صديقه الوفي الوحيد المتبقي له الكونت دو سيغور توصية لدى الشاه، فيرد الكونت على هذا الطلب برسائل اعتماد لملك آخر تثبت عليه أنظار العالم وهو محمد علي. ولم يتردد سيف، إذ سيودع أوروبا في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٢٠ قاصداً مصر، ليبتسم القدر في وجهه هذه المرة، حيث سينجح في الحصول على مقابلة محمد علي الذي سيوظفه مباشرة ليس فقط لرسائل الكونت دو سيغور الملحة والتي تثير الإعجاب، ولكن أيضاً نتيجة لتوصية المهندس باسكال كوسط الذي تعرف عليه سيف في الإسكندرية. ويكتب كوسط «بينما كنت في معسكر كتيبة بومبي، زارني فرنسي يدعى السيد سيف، وهو ضابط في كتيبة الفرسان، كان قد وصل منذ وقت قصير إلى الإسكندرية، فأعرب لي عن رغبته في الالتحاق بخدمة

محمد علي باشا، فسارعت إلى تقديمه إلى سموه الذي أحسن استقباله، ومنحه إدارة معامل المدفعية في ترسانة القاهرة[1] ».

وقد أخطأ كوسط في النقطة الأخيرة، إذ أن نائب الملك سيوظفه كمهندس ويمنحه راتباً من أجل السفر إلى مصر العليا، والتنقيب عن مناجم الفحم. ويعد منح منصب مماثل لضابط في كتيبة الفرسان ضرباً من عدم الكفاءة، وهذا ينم عن جهل بظروف ذلك العصر. فقد اجتاح مصر عدد من المغامرين والدجالين من مختلف الأنواع بغية البحث عن الثروة في بلد ينظر إليه الأوروبيون كأرض جديدة للأحلام. حيث حلوا إلى وادي النيل مزودين للمناسبة بألقاب مبالغ فيها بدرجة أو بأخرى، وطامعين في وضع جلود جديدة وبداية حياة أخرى أو متلهفين لوضع مواهب يزعمون أمام نائب الملك أنها لم تستخدم في بلدانهم الأصلية، فقد أدى سقوط نابوليون النهائي، والأنظمة الرجعية للتحالف المقدس إلى تفريق عدد من ضباط الإمبراطورية الشبان والمناصرين للثورة، وجعلتهم عديمي الفائدة، بل دفعت بعضهم أحياناً إلى الشحاذة. وهكذا، فقد شكلت أمريكا وبلاد فارس ومصر التي كانت تنفتح على الحداثة، في أعينهم محطة آمال جديدة.

وبقي محمد علي الحذر دائماً يقظاً، حتى إن بعضهم ممن هم أكثر كفاءة، استبعدوا بلطف مثل البارون دارماندي الذي تم استدعاؤه، والذي يشير روسل إلى مروره عندما يكتب[2] «حضر السيد دارماندي القبطان السابق في المدفعية الطائرة للحرس، بجواز سفر إلى مصر. وظن أنه وجد عملاً لدى الباشا، غير

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مذكرات فنان.. ملاحظات وذكريات رحلة». مرسيليا ١٨٧٨.

(٢) الحقيقة أن محمد علي فوت على نفسه فرصة مهمة. ففي شهر نيسان من سنة ١٨١٩، غادر ماندي من السويس بحراً في اتجاه مسقط حيث سيصير قائد أسطول إمام هذه المدينة، ثم سيقصد بلاد فارس لينظم مدفعية ابن الشاه، الأمير محمد علي ميرو. وهناك سيجمع ثروة كبيرة، غير أنه وللأسف، سيسلب منه القراصنة حين ركب البحر قاصداً الهند. أما بقية حياته فجديرة برواية. أنظر غابرييل غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

أنه سيجد نفسه مغبوناً بطول انتظاره، فيقرر السفر إلى السويس ليقصد جدة ومنها إلى موكا[1] ».

وسيلفي آخرون أنفسهم، على غرار سيف، أمام امتحان عسير إذ سيرسلون في مهمات في مناطق بعيدة من مصر العليا قبل أن يعتمدوا ويعينوا في مناصب مهمة. وكان محمد علي يرد على من يحذره من تسرعه في الاختيار قائلاً «أعلم أنه من بين خمسين شخصاً يعرضون خدماتهم علي، يمكن أن يقارن تسعاً وأربعين منهم بأحجار كريمة مزيفة، ولايمكنني معرفة الجوهرة الحقيقية التي يمكن أن تتواجد بينهم دون أن أجربهم. فأقوم في البداية بشرائهم جميعاً، وعندما أكتشف الحجر الكريم الصحيح فإنه يعوّضني مائة مرة عن الخسارة التي تكبدتها في الباقي[2] ».

إضافة إلى هذا، كان الوافدون الجدد يثيرون مشاكل كثيرة حد أن بوغوص باي وجد نفسه مجبراً على الكتابة لمختلف الممثلين الأجانب، مثلما تشهد الرسالة التي بعث بها ثيدينات دي فون إلى الجنرال دي سول وزير الشؤون الخارجية في سنة ١٨١٨ .

سيدي

أتشرف بأن أقدم لسيادتكم نسخة مع ترجمتها المقابلة للنشرة باللغة الإيطالية، والتي وجهت إلى كل القنصليات بأمر من صاحب السمو الباشا نائب الملك في مصر، ومن طرف السيد بوغوص كاتبه الأول، والتي يشتكي من خلالها من مجموعة من تجاوزات بعض الوافدين الفرنسيين الجدد والتي لفتت انتباه الشرطة إليهم.

ومن المؤكد سيدي أنه ومنذ فترة، بدأ يُلاحظ بصفة يومية، وصول عدد كبير من الأجانب إلى هذه الأرض، خاصة من الإيطاليين، وأبناء مالطة واليونانيين،

---

(١) دريو ١٨٢٧ . (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) بوليتيس في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «الهيلينية ومصر المعاصرة». مجلدان. القاهرة ١٩٢٨ .

وأغلبهم من المشبوهين والأفراد السيئين، بل إن منهم من ثبت تورطه في مخالفات وحتى جرائم ما فتئت تسيء إلى عموم الفرنسيين الشرفاء، والتي من شأنها إذاية سلامتهم الشخصية[1].

يمكن إذن فهم حذر الملك بشكل أوضح.

ويقبل سيف إذن التوجه إلى مصر العليا في مهمة لقيت فشلاً ذريعاً، إذ لاوجود لأي أثر للفحم. ولكن، وحين عودته إلى القاهرة بعد ثلاثة أشهر من الغياب، يقدمه محمد علي إلى إبراهيم كشخص قادر على إنجاح مشروعه الذي حلم به طويلاً، وهو إعادة تنظيم الجيش المصري. فيعين سيف من فوره كآغا، ويعترف به رسمياً كمعلم.

ولم يكن الضابط الفرنسي الوحيد المستخدم في تلك الفترة لتقويم الجيش إذ كان هناك القبطان ماري المعروف باسم بكر آغا، وهو من أبناء كورسيكا، ورئيس هيئة الأركان القادم لجيش الجزيرة العربية. وهو واحد من الفرنسيين القلائل الذين تعلموا لغات البلد بسرعة كبيرة وهي ميزة مكنته من ترجمة بعض الكتيبات العسكرية إلى اللغة التركية[2]. وهناك أيضاً الرقيب أرغو والنقباء كادو ودوميرغ وكيسون، إضافة إلى النقيب بوفور دوهوت بول والذي ساعد في إعادة تنظيم هيئة الأركان العامة. بينما كان يخدم إلى جوار الميجر جنرال بعض الضباط وهم بروم وبراسي وبوك ووالفينجن وأراغو، غير أن ذكرهم هنا ليس كل شيء، ففرنسا أخذت في الحضور شيئاً فشيئاً في الأراضي المصرية، وكما يمكن أن يلاحظ فيما بعد، ستشغل كل البنى المهمة في البلد سواء على المستوى العسكري أو البحري أو الطبي أو الزراعي أو حتى في مجال تنظيم المدن خاصة عن طريق المهندس باسكال كوسط.

وأنشئت المدرسة العسكرية للمشاة سنة ١٨٢٠. وكانت التدريبات الأولى

---

(١) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

في الجزء السفلي من القلعة في ساحة الروميلة، وبحضور الملك وبعض الشخصيات المنتمية لمختلف أجهزة السلطة في البلد، وأمام جموع الناس الذين حضروا بكثافة للاحتفال ليس بقيمة العمل المنجز بقدر استمتاعهم بالمقاومة التي يبديها مواطنوهم أمام المعلم الفرنسي. وبالنسبة لأهل البلد فهذا «النظام الجديد» يكاد يكون كفراً، ليس لأنه يستدعي الصرامة والإكراه ولكن لأنه يبدو من غير المطاق أن يضطر جندي مسلم إلى الخضوع لأوامر ضابط مسيحي.

وبعد عدة أسابيع من المحاولات، وعلى الرغم من أن إبراهيم منح القدوة بوقوفه في الصف كمجند عادي، فإن ما كان يحرز تقدما في العملية كلها، المعارضة وروح التمرد. ويشار بهذه المناسبة إلى قصة أوردها الكثير من كتاب السير للرجل الذي قدر له أن يرسخ في ذاكرة الشعب المصري ليس تحت اسم الكولونيل جوزف سيف، ولكن باسم سليمان باشا العظيم بعد اعتناقه للإسلام.

ذلك أن كتيبة كانت تتدرب يوماً على إطلاق النار في ضفاف النيل، ولما أراد سيف أن يستمتع بالمنظر فقد همز لحصانه مبتعداً حتى يتمكن من رؤية كل المناورة. وعندما كان مواجهاً للصفوف أعطى أمره بالقول «نار». فاهتز حصانه، ومرت بعض الرصاصات بالقرب منه وكادت تصيبه. فعاد للانتصاب مرة أخرى فوق حصانه، وقصد الكتيبة مفرقاً صفوفها وانهال بكرباجه القوي ضربا عليهم وهو يصرخ في وجوههم «أغبياء! هل تخطئون رجلاً من على هذه المسافة؟ أعيدوا الكرة». وعاد إلى مكانه الأول المواجه للصفوف على متن حصانه الذي أثار النقع، وأمر «أعد السلاح على الخد! أطلق النار!» وتم التأكيد على أن أحد أفراد الكتيبة قام محيياً بطولته، وتفرقت الصفوف، وأحاط الرجال بقائدهم معربين له عن أسفهم، بل ذهب إعجاب البعض بأن قاموا بتقبيل قدميه[1] . . .

---

(١) ويغان. (مصدر ذكر سابقاً).

وكانت هناك مجموعة صغيرة اعتنقت الإسلام، وهو ما لم يشكل إجماعاً لدى الناس. فكان الرجال يتدربون على هذا الفن الجديد للحرب، لكن بنوايا سيئة واضحة، وبدأوا يضيقون ذرعاً بهذه التمارين «الآلية» جداً والتي تجردهم من كل إرادة بحسب رأيهم. وأخيراً وأمام هذه المقاومة العنيدة وبطء التقدم تمّ اتخاذ القرار بتأثير من سيف بدون شك، بنقل معسكرات التدريب إلى إسنة قرب أسوان في أعماق مصر العليا وإلى فرشوط بين جيرغه وكينيح. وكانت هذه بكل تأكيد، الوسيلة الوحيدة لإبعاد المجندين الجدد عن العاصمة وجعلهم بمعزل عن كل التجمعات الشعبية والمزدرين الذين ما فتئوا يتحدثون في الأزقة المظلمة عن مساوئ النظام الجديد.

وكانت نواة الجيش الجديد تتشكل بدءاً من المقربين لمحمد علي، ومن أبناء الموظفين، وكانوا في عددهم الإجمالي يصل ما بين ثلاثمائة وأربعمائة مجند تم اختيارهم إما لنسبهم أو لثروتهم. وشيئاً فشيئاً، وتحت إشراف سيف وبفضل صلابته يزداد هذا العدد، وسرعان ما يجد رجالاً قادرين على تعليم مجندين آخرين لجعلهم وسط الجنود المجتمعين في بني هالي قرب منفلوط في مصر العليا.

وكان بإمكان نائب الملك منذ سنة ١٨٢٣ أن يجعل قنصل فرنسا دروفيتي وقنصل إنجلترا سيلت اللذان رافقاه إلى مصر العليا، يعجبان بمناورة ثلاثين ألف جندي تعلموا النظام أخيراً.

وكان يمكن لهذه الحركة أن تأخذ حجماً أكبر لولا الخسائر الكبيرة الناجمة عن عدم اعتياد السودانيين على الحياة داخل المعسكرات والتي مست بشكل جدي أعداد المجندين، ودفع هذا الوضع محمد علي إلى القيام بعملية تجنيد في صفوف الشعب المصري نفسه، ومثل هذا تجديداً كبيراً، ذلك أنه اختار إنشاء جيش وطني. وهذه هي المرة الأولى، على الأقل في العصور القريبة، التي يستدعى فيها المواطن المصري لحمل السلاح. فحتى هذا الوقت، لم تكن القوات العاملة في مصر تتشكل إلا من عناصر أجنبية.

ويكلف محمد علي الراغب في تسريع تكوين هذه الألوية الجديدة منذ سنة ١٨١٧، تاجراً فرنسياً من الإسكندرية ويدعى تورنو، بالحصول على مساعدة حكومة لويس الثامن عشر. فيرد الملك بإرسال أربعة بنادق صنعت في سانت إيتيان إلى مصر، من أجل سد حاجة المدرسة العسكرية[1]. وحوالي منتصف سنة ١٨٢٤، يكلف تورنو الجنرال بيبار الذي وقع سنة ١٨٠١ استسلام القاهرة، لتشكيل بعثة مكلفة بدعم ونصح الباشا في مشروعه الإصلاحي. ويختار بيبار لإدارتها جنرالاً متفرغاً وهو البارون بوير أحد قدماء الحملة المصرية أيضاً. ويصل القاهرة في نهاية السنة نفسها مع مساعد له، الماركيز دو ليفورن الذي سيقوم برحلات ذهاب وإياب بين مصر وفرنسا لعدة شهور من أجل تنفيذ طلبات العتاد وتوظيف مدربين عسكريين آخرين.

وخلال تواجده في مصر، أضيف إلى بعثة بوير خمسة رؤساء كتيبة، ونقيبين وملازمين أولين إضافة إلى كولونيل في المدفعية يدعى راي. وهناك نقطة بالغة الأهمية، فالنموذج المعتمد لخلق هذا الجيش المصري كان النموذج الفرنسي، والقوانين كانت قوانين الجيش الفرنسي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية.

وبفضل هذا، أمكن لمحمد علي أن يدرك سنة ١٨٣٣ أن جيشه يتوفر على ثمانية وتسعين ألف جندي من المشاة. وكان كادالفين وبروفيري قد قدما إحصاءً وفياً سنة ١٨٢٩ جاء فيه:

٢٢ فوجاً من مشاة الصف لـ٤ كتائب من ٨٠ رجل ژ

أي ٣٢٠٠ رجل للفوج	٧٠٤٠٠
٢ فوجان من حرس المشاة	٦٤٠٠
فوج واحد يتكون في سوريا	٣٢٠٠
١٣ فوجاً من الفرسان لـ٦ سرايا من ١٤٠ رجلاً أي ٨٤٠ للفوج	١٠٩٢٠

(١) حجار «أوروبا ومصائر الشرق الأدنى». من خمسة مجلدات. دمشق ١٩٨٨.

١ فوج من فرسان الحرس	٨٤٠
١ فوج من الفرسان يتكون في سوريا	٨٤٠
٢ فوجان من مدفعية المشاة يتكون كل منهما من ١٥٠٠ رجلاً	٣٠٠٠
٢ فوجان من فرسان المدفعية	٣٠٠٠
٣ أفواج من المحاربين القدامى يضم كل منها ٨٠٠ رجلاً	٢٤٠٠
ژ	
المجموع	١٠١٠٠٠
ژ	

غير أن العبء العسكري المفروض من قبل محمد علي على الشعب سرعان ما سيصير ثقيلاً، وستغدو عملية التجنيد التي تطال الفلاحين أمراً مأساوياً.

ويبقى السيناريو ثابتاً باستثناء بعض التفاصيل إذ ترسل الحكومة إلى المدراء ومنهم إلى شيوخ البلد، أوامر بتقديم عدد معين من المجندين في أجل محدد، فيهرع المرتزقة الذين يعملون لحساب الحكومة إلى بعض القرى بصورة عشوائية، فيفر بعض القرويين في حين يختار البعض الآخر الاختباء في المقابر حيث ستأتيهم نساؤهم بالطعام متى حل الليل. ويختار بعضهم أن ينزعوا أسنانهم القواطع حتى يعجزوا عن تمزيق أغلفة الخراطيش، ويقطع آخرون سبابات أياديهم اليمنى حتى يبدون غير قادرين على إطلاق النار، في وقت يقوم آخرون بإحراق إحدى عينيهم بالكلس الحي حتى يفقدوا القدرة على التصويب. ويقابل كل هؤلاء بحنق وشتائم إزاء كل من أضحى يطلق عليهم ظالم باشا. أما الفارون من الخدمة فكانوا يعادون بالضرب بالعصي ويجلدون بالكرباج المصنوع من جلد فرس النهر أو جلد الفيل[١]، ويقتادون إلى مراكز المقاطعات في حالة مزرية تجبر الأطباء الساهرين على عملية التجنيد على إعادة حوالي نصفهم، ويرسل الباقون موثوقي الأيدي إلى الخلف إلى القاهرة أو إلى

(١) مشتقة من الكلمة العربية كرباج، وباللغة التركية كيرباج.

الإسكندرية ليُلحقوا من فورهم إلى السلاح الذي أرسلوا إليه. غير أن كل هذه الفظاعات ستؤدي إلى تغيير كبير في حيادية هؤلاء الرجال، إذ ستعم حالة نفسية أبعد ما تكون عن مصالح محمد علي.

فالمصري بطبيعته كائن مسالم، وعلى الرغم من أنه كان غازياً تحت قيادة الفراعنة، إلا أن قروناً من الاحتلال والظلم ستنتهيان به إلى مواجهة جبرية الإسلام التي ترى بأن الخير والشر معاً يتعلقان بإرادة الله.

وكانت مجرد رؤية جندي تركي مسلحاً بعصا، تحت الحكم العثماني، كفيلة بجعل المصري يرتجف خوفاً. وكان المحتل هو الراعي الذي يقود قطعان الماعز والخراف أمامه، غير مبال بشعور الخوف والإذلال الذي ينشره حوله. غير أنه وبصورة غير متوقعة ها هي ذي المعجزة تقع. فالفلاح المجند سينسى وضعه الأول. فمن الوضاعة والتفاهة اللتان كان عليهما، ها هو في خدمته العسكرية ينهج سلوكاً مغايراً تماماً لما كان عليه في قريته، إذ وفجأة سيرفع رأسه، ويعلن بأنه «جندي محمد علي»، وسيجد هذا الوصف في عينيه مبعث فخر. وإذا ما أراد أحد الأتراك أن يسبه مذكراً إياه بأصوله، فقد كان يجد لأول مرة، الشجاعة ليرد على الشتيمة بمثلها. وهكذا، وبمضي الأيام، سيصير هذا الجيش الوطني الوعاء الذي ستتشكل فيه شيئاً فشيئاً الهوية الوطنية، والوطنية واللتان ستمنحان فيما بعد فرصة لظهور النهضة، أحد تلك التغيرات غير المتوقعة التي تحدد أحياناً مصائر الشعوب.

ولهذا، يمكن فهم ميل محمد علي إذا ما وضعنا أنفسنا في مكانه وزمانه، للإطار التركي المحض. فمحمد علي يرى وهو مصيب على ما يبدو، بأن المصري فقد كل غريزة للقيادة نظراً لسنوات العبودية الطويلة التي عاشها. وفي هذا الإطار نسبت إلى الباشا مجموعة من التوصيات لايعرف إن كانت حقيقية أم إنها جزء من الأسطورة. حيث قال في أحد الأيام إلى ابنه إبراهيم «احذر! لاتجعل الجنود المصريين أبداً في الصف الأول، لأنهم سيكونون أول

المستسلمين، ولاتضعهم في الصف الأخير أيضاً لأنهم سيكونون أول من يتراجع. احبسهم بين ضباطنا الأتراك!».

ومن الممكن جداً اعتبار أنه لولا القبضة الحديدية العثمانية والتأطير الغربي، لما تمكن الجيش المصري من تحقيق تلك الانتصارات المعروفة. وقد أدرك محمد علي هذا، فانتهج موقفاً متحيزاً عن قصد، لكن ما يمكن أن يوجه إليه فيه نقد كبير، هو أنه طبق السياسة نفسها في كل المجالات الأخرى، وبدون استثناء، مفضلاً دوماً الأجنبي عن ابن البلد، وبذلك جعل الشعب منفياً في بلده.

النظام في السلوك اليومي

كان زي المشاة موحداً على كل الأفواج بدون تمييز. ويتكون في الشتاء من سروال من نسيج صوفي أحمر مطوي من الحزام، وضيق عند الركبة، ومعطف من النسيج نفسه مشدود بحزام جلدي. أما في الصيف، فيضع الجندي زياً من قماش قطني مائل إلى اللون الرمادي، ويعتمر الطربوش الموحد للجميع ليتمم هذا الزي بالنسبة للمصريين والأوروبيين على حد سواء. غيرأن هذا الزي كان يخاط بشكل سيء جداً، وكان في غالب الأحيان ممزقاً. في حين أن الأحذية كانت على النمط الشرقي تشبه الخف. هذا إذن بعيد جداً عن سان سير وإن كانت روح هذه المؤسسة العتيدة تحاول أن تبعث هنا.

أما الطعام الذي يمكن أن يوصف بالمتقشف، فكان يتألف من الخبز والفول والعدس والأرز. في حين كان وجود اللحم نادراً إن لم يكن معدوماً. وكانت الرواتب توضح الفرق الكبير بين رواتب الضباط ورواتب الجنود العاديين. ويمكن أن يفسر ارتفاع رواتب الضباط إلى أن محمد علي كان يبحث عن إيجاد حالة من الإخلاص التام بين صفوف رجاله، في الوقت نفسه الذي يحرم فيه السلطان من أجود عناصره في هيئة الأركان.

وللحد من عمليات الفرار الجماعية من الجندية، تم الحرص على عدم

تفريق الجنود مع زوجاتهم. وهكذا، تمت إحاطة الثكنات والمعسكرات بعشش وأكواخ طينية بئيسة حيث تقرفص النساء والأطفال في تجمع قذر. وعند انتقال الفوج إلى مكان غير بعيد، فإن الأسر تجر خلفها مواشيها وبعض أوانيها وتتبع رجالها حيثما توجهوا مهما كلفها الأمر. وليس بالأمر النادر أن تجد في هذه الحالة جندياً يحمل أحد أطفاله. أما إذا تعلق الأمر بحملة بعيدة، فإنه ليس للنساء المتخلى عنهن من بد سوى الجوع او البغاء[1]. ويكتب شي «هؤلاء آباء فقراء، تتبعهم نساؤهم ليتقاسمن معهم عدسهم والخبز الموزع علهم[2]، وبدون هذا العون غير الكافي، كانت البئيسات سيقضين جوعاً. وكان كل معسكر مصحوباً بقرية صغيرة من الأكواخ بدون سقف، حيث تستقر بها هذه الأسر الجائعة. وليس هناك من وقت لنهاية الخدمة العسكرية للجندي إلا بمقدار قوته، وهناك يبقى له أن يموت».

في البداية، لم يكن للضباط من زي موحد مقيد بنظام محدد. لكن وفيما بعد، أصبحوا يلبسون معطفاً محاكاً قصيراً بلون أحمر فاتح، وسروال واسع عند الفخذ وضيق عند ربلة الساق، وصدرية تركية تضم عشرين زراً مخشخشاً، وممنطقين بحزام حريري يحوي خطوطاً ذهبية، ولفائف من جلد الماعز وخف أحمر[3]. أما الكولونيلات منهم، فكانوا يحملون النيشان وهي زينة بصورة هلال ذهبي أو ماسي. وعموماً فإن أصحاب الرتب العالية يتميزون عن رجالهم بزخارف برندبورية من الصوف والذهب، أما المساعدين فكانوا يحملون ربع هلال.

ويتألف سلاح الجنود الجدد أساساً من زناد[4] وبندقية بحربة مثلثة الشكل من طراز سنة ١٧٩١، والذي كان التكملة الجيدة للسلاح الذي سبقه طراز سنة

---

(١) بريس وهامون. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) خبز على شكل كرة يقدم للجنود.

(٣) كان الأوروبيون يطلقون على هذا الزي «بذلة النظام».

(٤) سيف قصير ومعقوف للمشاة.

١٧٧٧ . وتتشكل كل انتصارات إبراهيم بفضل هذا السلاح الفعال المطعم بالسيليكس، تماماً مثل انتصارات نابوليون. غير أن بعض الألوية كانت مسلحة بحربة ذات منشار، وأخرى ببنادق قادمة من بلجيكا أو إنجلترا. ويمكن معرفة هذه الأخيرة انطلاقاً من مدفعها القصير، وبغياب الكبوسين أبو خنجر[١] وأيضاً لتواضع جودتها للأسف.

أما بخصوص سلاح الفرسان فيمكن القول إنه كان شبيهاً إلى حد بعيد بسلاح الفرسان الفرنسي بمدرعيه ورمّاحيه وقناصيه. وكان الفرسان يحملون الدروع نفسها من طراز سنة ١٧٩٨ ذات الحشوة المضفورة بشرائط من الجوخ الأحمر تحيط بالرقبة، وبفتحات الكتف، وسيف بمقبض من النحاس، وغمد حديدي صنع بمصنع كليجنثال، ومسدس بنابض عيار ١٨ بحاضنة من النحاس. غير أنه ونتيجة للأفكار المسبقة لدى المسلمين عن القبعة جعلتهم يعدلون الخوذة والواقي الذي اعتمد فيه على شكل سهم ناحية الأنف. وعوض الهلال زينة الرأس القديمة، وغطاء للرقبة العرف القديم. أما الزي الموحد فكان يتكون من سترة صغيرة بدون ذيل، وسروال طويل باللون نفسه يخفى جزؤه السفلي في الحذاء المرتفع للفارس. أما في الصيف فكان اللباس التحتي أبيض اللون[٢].

وعندما قابل أوزيب دو لاسال فصيلاً من هؤلاء المدرعين فكر أنه لاتنقصهم سوى دروع الفخذ وقطعة نقدية[٣]. ويراهم جيرار دو نيرفال سنة ١٩٤٣ يلمعون تحت شمس القاهرة أثناء احتفال المحمل وهو احتفال الانطلاق نحو الحج[٤]. غير أن هؤلاء الفرسان لم يتعودوا، ونتيجة لأحوال الطقس على حمل كل أسلحتهم. فاستمرت فقط بعض الفصائل المعدة للحراسة في حملها وينتهي الأمر بالاستغناء عن كل هذه الخردة وإيداعها مخازن الجيش.

---

(١) كل حلقة من الحلقات المعدنية الثلاث التي تصل المدفع أو الماسورة بخشب السلاح الناري.

(٢) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «أسفار بعيدة في الشرق». باريس ١٩٤٠.

(٤) كتاب باللغة الفرنسية من مجلدين بعنوان «أسفار في الشرق» باريس ١٨٦٩.

وكان سلاح المدفعية يستعمل مختلف أنواع المدافع المستعملة في فرنسا في تلك الفترة من قطع ٨ و٦ و٤ . وصنعت بعض البطاريات الثقيلة من مدافع الهاون والمدافع القصيرة. وكل جنود المدفعية يلبسون لباساً أزرق قاتم.

غير أنه ولإنشاء جيش حديث لايكفي فقط توفره على جنود منضبطين بدرجة أو بأخرى، أو أطر مدربة بعض الشيء أو حتى على عتاد مناسب، إذ لايجب لكل دولة تطمح في نيل استقلالها أو الحفاظ عليه أن تعتمد دوماً على الأجانب في صناعة ماتحتاجه من سلاح، وكانت هذه حقيقة أولية فرضت نفسها على محمد علي منذ الساعة الأولى. وجربت في القلعة بالقاهرة إعادة تنظيم الترسانة بدءاً بمحاولة مهندس تركي يدعى محمد أفندي الودنالي الملقب بالطبال، غير أنه يتعرض لغضب سيده، ويلقى حتفه سنة ١٨١٠ في الإسكندرية، في ظروف غريبة في الوقت الذي بدا فيه أنه كان يبحث عن وسيلة للفرار إلى إسطانبول. ويمكن أحد الفرنسيين ويدعى غانون، سنة ١٨١٧ هذه الترسانة بآلة حفر وأفران عاكسة. وكان محط تقدير في البداية من قبل الملك غير أن علاقتهما ستسوء في النهاية[١]. وقد صرح الباشا قائلاً «غانون قيّم جداً بالنسبة لي، لكني لن أستخدمه أبداً في كل مدة باشويتي».

وأقيم جوار الترسانة معمل لصناعة الأسلحة المحمولة حيث أخذ صانعو أسلحة ألبانيون يصنعون بلاتينات ممتازة[٢]. ويكلف فرنسي آخر ويدعى غويمان وهو مفتش سابق في صناعة الأسلحة في فرساي سنة ١٨٣٣ بإدارة هذه المؤسسة والتي أنتجت منذ ذلك الحين بنادق بصفة منتظمة، وجهزت مصر أيضاً بمعمل لصناعة الأسلحة البيضاء والبارود والخراطيش[٣] ومعمل لنسج الألبسة وإعداد المعدات والسروج.

---

(١) بلانا. باريس. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) قطعة من السلاح الناري القديم.

(٣) انفجرت سنة ١٨٢٤ مخلفة أربعة آلاف ضحية، وهي حادثة مدبرة من دون شك.

وأعدت مناطق لصناعة ملح البارود التي تعمل بمجرد التبخر في الشمس في تيرانية وأشمونين في القاهرة القديمة، وفي بدراشين وفي أسيوط تحت رعاية إيطالي يدعى بافي ولقب بعمر باي[1] وكان تحت إشراف باسكال كوسط الذي كان رئيس مهندسي نائب الملك. وينتج المعمل الأول حوالي ثلاثة آلاف قنطار صافية سنوياً[2]. وشكلت الكومات أي أكوام الأنقاض في القاهرة منجماً لاينضب، وجرت العادة بأن يتم الحصول على ملح البارود عن طريق المراجل غير أن هذه الطريقة كانت مكلفة جداً بالنسبة لمصر، والتي كانت تجلب من أوروبا، الذي كان يتوفر فقط على قصب الذرة، كمادة وقود وحيدة، والتي لم تكن تكفي محاصيلها أحياناً. وإذا لم يكن هناك قصب فليس هناك ملح للبارود. إضافة إلى هذا، كانت هذه الطريقة مكلفة جداً بالنسبة للحكومة المصرية وذلك بحوالي أزيد من مائة فرنك للقنطار الواحد. ويفضل نظام التبخر الذي أعده الإيطالي، لم يعد القنطار الواحد يكلف أزيد من عشرة فرنكات، واستغل بافي أيضاً بحيرات النترون في الصحراء الليبية، وأعاد إنتاج المخزون الفرنسي القديم في جزيرة الروضة. ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة تركت مصر أول مرة سنة ١٨٢٢، غنية فيما يبدو وبمبلغ فلكي يصل إلى حوالي خمسمائة ألف فرنك! فيبدد هذه الثروة في غضون سنتين، ليضطر إلى العودة إلى القاهرة حيث أعاد محمد علي استخدامه من جديد.

وأنشئ في القاهرة سنة ١٨٣١ معمل للبنادق في حوض المقصود[3] تحت إدارة شخص يدعى مارنغون وسينتهي إلى استخدام أزيد من ألف ومائتي معلم ومتعلم، وينتج حوالي تسعمائة بندقية في الشهر الواحد. وكانت هذه الأسلحة

---

(١) كان صيدلياً يتحدر من برغولا، وهو موظف سابق في الشؤون المالية للجيش الإيطالي.

(٢) كوسط. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) تعني حرفياً «منبع العشاق» ويرجع فضل تسمية الحي إلى المكان الذي وجد فيه واح إيب رع الموجود حالياً في المتحف البريطاني.

المصنوعة على النموذج الفرنسي أخف وزناً وأسهل تناولاً مقارنة بالنموذج الإنجليزي. وبطبيعة الحال، لم تخف هذه الأنشطة جميعها على مختلف القناصل المقيمين في مصر.

ويكتب دريو بهذا الصدد «علينا القول بأن محمد علي يهتم في الوقت نفسه بمجموعة من المؤسسات النافعة والكفيلة برفع مصر إلى أعلى درجة من الرخاء إذا كان هناك استقرار أكثر، وإذا لم يكن يود الاستيلاء على كل شيء لنفسه. وهو يود أن يصير هذا البلد أقل حاجة للمنتوجات الخارجية، وأن يكون قادراً على تزويد جيرانه بها.

وهكذا، لم يتوقف عن استقطاب عمال من مختلف الأنواع، وأنشأ معملين كبيرين لإنتاج ملح البارود، أحدهما في القاهرة والآخر في أسيوط، واشتريت العديد من القطعان وسلمت للبدو المقيمين على أطراف الصحراء. وأرسل بعض الأوروبيين إلى تمليح الأسماك الموجودة بكثرة، على طريقتنا، إلى البحيرات. وزرعت عشرة ملايين شجرة توت وتم استدعاء العديد من الأسر الدرزية لتربية دود القز، وذلك بقصد إبعاد مصر شيئاً فشيئاً من التبعية السورية لهذا المنتوج. وستحفر من جديد قناة الرحمانية في أبي قير، وتفتح في وجه الملاحة بعد أن طمست منذ وقت بعيد. وشعر نائب الملك بأنه لايكفي فقط الحصول على إنتاج كبير إذا غابت وسائل تصديره. وشرعت الدولة في العمل على هذا المشروع الكبير الذي سيعيد الزراعة إلى محافظة كاملة إضافة إلى فوائد الملاحة».

أو ما كتب أيضاً من أن «الباشا أمر رجاله في أوروبا بأن يأتوه بعمال من مختلف الأنواع، فهو يريد إقامة مصانع في بلده حتى يصل اليوم الذي لن يحتاج فيه إلى المنتوجات الأجنبية، وهو معجب بقدرته على صناعة أجواخ وأقمشة حريرية وقطنية... ويسهل شقاء جنوب أوروبا رؤيته بهذا الخصوص، وتأتيه مراكبه القادمة من إيطاليا، بعدد كبير من الأشخاص».

واستطاع محمد علي بفضل عناده الشديد أن يصنّع سلاحاً استثنائياً، يعمل

بشكل ناجع في الهجوم بقدر نجاعته دفاعياً بالنظر إلى العصر، وخاصة بالنسبة لبلد مثل مصر، والتي كانت غارقة قبل سنوات فقط في الفوضى.

وبما أنه شرع في صناعة الأسلحة، كان لزاماً تربية النفوس. فتم إنشاء العديد من المدارس العسكرية. فأقيمت في بولاق سنة ١٨٢١ مدرسة للدراسات العامة حيث كان يدرس بها اللغة العربية واللغة التركية واللغة الإيطالية، إضافة إلى مفاهيم في علم الحساب والهندسة. وكان يشرف على التدريس بها مدرسون إيطاليون إضافة إلى سوري يدعى رفائيل دوموناشيس. وبمضي الشهور رأت النور مجموعة من المؤسسات التعليمية المعدة لتأطير التعليم العسكري الأساسي. وبين سنتي ١٨٢٢ و١٨٣٤ ظهرت على التوالي مدرسة للضباط ولضباط الصف في دمياط، ومدرسة عسكرية في الخانكة حيث نقل برنامج سان سير إليها، ومدرسة للأركان بالمعنى الدقيق للكلمة، ومدرسة للموسيقى العسكرية والهندسة، والتي قدمت أولى حفلاتها في الرابع من شهر أيار من سنة ١٨٢٦، وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ستتمكن في أبي زعبل من عزف النشيد الوطني الفرنسي أثناء عشاء دعى إليه كلو باي[1]!

هل ينبغي التذكير بأن هذه المدارس أنشئت لتقديم أطر للوحدات المحاربة ومن أجل الخدمات الإدارية للجيش؟

وكان معظم المدرسيين أوروبيون حتى لايقال إنهم كانوا من الفرنسيين. وكان هذا الوضع سيدوم إلى أجل غير مسمى لولا إرادة محمد علي الدائمة في الاستقلال. ذلك أنه رأى أن الوقت قد حان لإعداد مصريين لخلافة التقنيين الفرنسيين. هؤلاء التقنيون الذين كانوا يكلفونه للتذكير فقط، كثيراً. ومن خلال هذا المنظور، سيقرر سنة ١٨٢٦ إرسال العديد من الشبان إلى باريس من أجل تلقي دراسات عليا، وبهذا كان يستعيد مشروعاً قديماً فكر فيه بونابارت حين

---

(١) كان الأمر مشابهاً تماماً بعد فترة قصيرة لمأدبة أقيمت في ظروف مماثلة على شرف أعضاء بعثة = تايلور، والذين قدموا للتفاوض حول التخلي عن المسلة لفرنسا.

كان يقيم في مصر والذي لم يتمكن من تحقيقه بسبب الحصار البحري المفروض عليه آنذاك من قبل الإنجليز، من بين أسباب أخرى. مرة أخرى بونابارت، ودوماً فرنسا. . .

[12]

الفرعون والمعرفة والنظام والعدل (١٨٢٦ ـ ١٨٤٠)

أبي الغالي

وصلنا سالمين برعاية النبي إلى نهاية رحلتنا. لاتقلق على صحتي. فقد قال لي الطبيب الفرنسي الذي كلف بي بأن صحتي جيدة، غير أنه يجد بشرتي صفراء، فمنحني دواء لإعادة لون بشرتي الطبيعي. وسآخذ كل دواء يوصف لي، فأنا هنا لأتعلم. . .

وبانتظار البدء في تعليمنا، ينزهوننا. وهكذا فقد أروني الشانزيليزيه، والتيفولي، والقصر الملكي. ولاشيء أدعى للبهجة من هذه الإقامة الأخيرة. فالمكان هنا أشبه بسوق كبيرة عرضت فيها كل ثروات العالم. وعندما يحل الظلام، تخرج بعض الحسناوات الشابات، الفارات بلاشك من حريم مجاور، إلى حديقة رائعة، حيث الأزهار تعطر النسيم، وحيث شلالات ماء ترطب الجو. وليس هناك من حجاب حاسد يحجب مفاتنهن، وليس هناك من حارس يحميهن. وتنظر إلي إحداهن ضاحكة، فيحملني ذلك ثملاً على اتباعها وكنت على وشك إلقاء منديلي لها، غير أنه كان قد اختفى من جيبي. لاشك أنها يد حريصة أخذته مني لتمنعني بلاريب من القيام بحماقة. لكن هذا كله لايهم، فسأعود إلى المكان نفسه، وسأعاود رؤية هذه الحسناء المجهولة، وأرجوك أن تشتريها لي عندما أصير عالماً، وأتمنى أن تكون معروضة للبيع. . .

نشرت هذه الرسالة في جريدة فرنسية ساخرة تحمل عنوان لابوندور في الثاني والعشرين من شهر آب لسنة ١٨٢٦، وذكرت في الكتاب الجيد لأنور لوكا والذي حمل عنوان «سوّاح وكتاب مصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر»[١]، والذي يحيي أوائل البعثات الطلابية التي أرادها محمد علي. وبغض النظر عن السخرية التي تتضمنها، فإنها تعكس بشكل جيد خليط السذاجة والفضول وحتى الارتباك الذي يعانيه الفتيان بكل وضوح عندما ينتقلون من وادي النيل ويكتشفون لأول مرة مدينة غربية.

غير أن نائب الملك كان قد فكر في إيطاليا كوجهة عندما أراد إرسال بعثات طلابية، ولم يفكر في فرنسا. وليس هناك من شيء مفاجئ في الأمر، إذ كانت اللغة الإيطالية الأكثر انتشاراً في الشرق. وإذا ما تم اختيار فرنسا أخيراً فذلك بفضل دروفيتي. ذلك أنه عندما طلب بوغوص رأيه في الموضوع نصحه الفرنسي بتجنب إيطاليا بصفة خاصة «حيث تذبل الحياة الثقافية تحت رزح نظام رجعي»[٢].

وعهد إلى جومار بفئة الطلاب الأولى. واستعان المختص في الجغرافيا الشهير في هذه المهمة بمساعدة جوزيف عقوب، وهو قبطي استقر في باريس منذ سنة ١٨٠١، ويعمل كأستاذ للغة العربية في ثانوية لويس الأكبر.

ويصل إذن حوالي أربعين شاباً إلى فرنسا هذه السنة تحت إشراف موظفين في القصر، ثمانية عشر منهم ولدوا بمصر والبقية رأت النور إما في إسطانبول أو في مدن أوروبية أو آسيوية للإمبراطورية العثمانية. وما أن وصلوا حتى تسلم جومار مهمة الإشراف على تعليمهم، إضافة إلى مراقبة حياتهم الخاصة، وهي مهمة صعبة جداً، بالنظر إلى أنهم شرقيون يجهلون كل شيء عن أوروبا، وألقي بهم فجأة في قلب الحياة الباريسية.

---

(١) باريس ١٩٧٠. يعتبر هذا الكتاب الأشمل في هذا الموضوع إلى يومنا هذا.

(٢) رسالة في السابع من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٢٦، نشرت من قبل مارو في كتاب باللغة الإيطالية بعنوان «شخصية برنادينو دروفيتي» وأعاد نشره لوكا. (مصدر ذكر سابقاً).

ويسكنون في حي اللوكسمبورغ في ١٥ شارع دو روغار في فندق صغير يدعى دولاغيش. ولم يكونوا يعرفون أي شيء عدا لغتهم الأم العربية أو التركية. ويمكن بكل سهولة تخيل الصدمة الثقافية التي تعرضوا لها، والصعوبات الكبيرة التي واجهت جومار. وأضحى هؤلاء الطلبة أطباء وآخرون مهندسون، ومنهم أساتذة وعلماء زراعة وبحريون أيضاً، بل إن بعضهم التحق بسان سير، ومن بينهم جميعاً، يحتفظ التاريخ باسم الشيخ الطهطاوي، والذي ألف كتابا يلخص خمس سنوات من التجارب والملاحظات لما عاشه كل يوم، وجعل له كعنوان «تخليص الإبريز في تلخيص باريز[1] ».

و بدوره، يرافق الدكتور كلو سنة ١٨٣٢ اثني عشر من أنجب طلابه في أبي زعبل إلى فرنسا، من أجل إتقان مآذارة الطب والجراحة في مستشفيات باريس.

وختاماً، فإن هذه الخطوة التي كانت مهمة في عمقها بدون شك، والتي كان بإمكانها إبراز جيل مصري جديد متخلص من كل أعباء الأمية، ومنفتح على العالم، لم تكن لها إلا نتائج محدودة جداً، لسبب بسيط جداً وهو أنه، ومرة أخرى، لم يكن المصري معين لهذه التجربة التي همت في معظمها الأتراك. وتم تجاهل أبناء النيل كالعادة. وعندما أقدم محمد علي على إرسال هذه البعثات، لم يكن يفكر في مصر، ولكن في وسيلة لضبط البلد التي فتحها، والناس الذين يعيشون فيها.

وبطبيعة الحال، كان عليه أن يفكر أيضاً في التعليم العمومي الذي نتج عن المدارس العسكرية. ولم يكن يتوفر أي شيء تقريباً من كل ذلك عندما تسلم محمد علي باشوية القاهرة. وإذا ما وجدت بعض المدارس المتناثرة هنا وهناك، في ظلال المساجد والتي تتحمل نفقاتها مؤسسات خيرية، فإنها لم تكن تدرّس إلا مبادئ الدين الإسلامي والقراءة والكتابة وأحياناً، بعض مبادئ

---

(١) نشر أنور لوكا الترجمة الفرنسية تحت عنوان «ذهب باريس، الطهطاوي سرد رحلة ١٨٢٦ - ١٨٣١». باريس ١٩٨٨.

الحساب. وكانت هناك أيضاً جامعة الأزهر ذائعة الصيت، والتي كانت تستقبل طلاباً من كل البلاد المسلمة. غير أن التعليم بها كان مقتصراً على النحو والشريعة الإسلامية.

وأنشئت في البداية «مدارس مدنية خاصة»، ويحصي جومار حوالي سنة ١٨٣٥ سبعاً منها وهي:

١ ـ مدرسة الهندسة والمدفعية والتي كان يديرها أدهم باي حقيقيان، وأستاذ اللغة الفرنسية ماليس، شقيق الفزيزيائي المعروف.

٢ ـ مدرسة الإدارة المدنية والتي كان يدريها أرتين وإستيفان.

٣ ـ مدرسة الترجمة والتي عهد بها إلى الشيخ رفاعة.

٤ ـ مدرسة الكيمياء التطبيقية تحت إشراف حاييم.

٥ ـ مدرسة القناطر والطرق.

٦ ـ مدرسة المناجم تحت إداة لومبير.

٧ ـ مدرسة الهندسة والجغرافيا والتي كان يديرها ماليس أيضاً.

غير أن هذه المؤسسات لم تنشأ إلا من أجل منفعة فورية، فقد أقيمت جميعها من أجل سد حاجة، وليس هناك أي رابط يجمع بينها، وفي غالب الأحيان لم تكن تتبع أي نهج محدد، وفي معظم الوقت، كان يتم توزيع الطلاب عليها بمحض الصدفة، دون مراعاة لميولاتهم الشخصية، وعند تخرجهم يستخدمون دون تمييز.

ويعلق بريس دافين قائلاً «أسست المدارس من أجل غاية عسكرية خالصة، ولم يتخرج منها إلا عدد قليل ممن يمكن إلصاق الكفاءة بهم. فكيف يستطيع أي كان أن يأمل العكس؟ إذ لم تكن توجد عناصر تحضيرية، وكان يجب المضي حتى إلى تعليم علم الكائنات الحية، وهي ثقافة أساسية لم يسمعوا عنها، بينما تنتقل في بلادنا من جيل إلى جيل، أي مع الحياة. وكل تصور بمثل هذه الدرجة من التهور لن يعرف إلا الإجهاض. وخُدع محمد علي الذي لم

يتلق هو أيضاً أي تعليم أولي في النموذج الذي يقدمه، وفكر أنه يستطيع إحداث علماء مثلما أوجد جنوداً بقوة إرادته فقط».

وفي الأخير، شعرت السلطات أن بعض هذه المدارس الخاصة تقوم بعمل مضاعف أو أنها لاتلبي الحاجات، وبأن التعليم الابتدائي والإعدادي مليء بالثغرات. فكان يتوجب القيام بإعادة صياغة عامة لكل درجات التعليم العمومي. ففي ظل هذه الأجواء، ومن أجل تقويم فعل الإدارة، وتحت تأثير العديد من الشخصيات مثل لومبير وبرينو، يتم اعتماد إصلاح التربية الوطنية أواخر سنة ١٨٣٥. يشار فقط إلى أن لومبير وبرينو ينتميان إلى الحركة السان سيمونية ذائعة الصيت، والتي رأت النور في فرنسا خلال العشرينات من ذلك القرن، والتي ستلعب دوراً هاماً في تاريخ مصر. وهو موضوع شاسع يستحق مجلدات.

واجتمعت أول لجنة في شهر كانون الأول من سنة ١٨٣٥ تحت رئاسة مختار باي، وكانت تضم أعضاء فرنسيين وهم كلو ولينان وهامون وبرينو ولومبير وفاران وعثمانيين أيضاً وبعض أبناء البلد، وهم الشيخ رفاعة وبيومي وكياني باي وإستيفان وحقيقيان وآرتين، وأغلب هؤلاء كانوا من طلاب جومار القدامى. فوضعوا إطاراً عاماً يؤسس من الآن فصاعداً ثلاثة أنواع من المدارس، وهي الابتدائية والتحضيرية والخاصة.

ووزعت المدارس الابتدائية التي وصل عددها إلى خمسين مدرسة على المحافظات بحسب تعداد سكانها. ومن أجل الالتحاق بها، كان يلزم أن يكون عمر الطفل ما بين سبع سنوات واثنتا عشرة سنة، وأن يتمتع بصحة جيدة، وخاصة ألا يكون ذو عاهة بادية، وهذا دليل آخر على الأهداف العسكرية لنظام التعليم. وكانت مدة التعليم الابتدائي تدوم ثلاث سنوات، يتعلم التلميذ خلالها اللغة العربية والقراءة والكتابة ومبادئ علم الحساب.

وكان هدف المدارس التحضيرية، توسيع معارف الأطفال المتخرجين من المدارس الابتدائية. وكانت تتضمن لهذا الغرض أربعة أقسام يتم ولوجها عن

طريق امتحان سنوي مثل المدارس الابتدائية. ويتضمن التعليم اللغة العربية، واللغة التركية واللغة الفارسية، وعلم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ والجغرافيا والخط والرسم. أما المدارس الخاصة، فكان يتوجب عليها تكوين طلاب من أجل مختلف المصالح العامة، المدنية منها والعسكرية.

وأنشئ في الوقت نفسه مجلس أعلى للتعليم العمومي، وعهدت إليه مهمة الإدارة العامة والمراقبة العليا لكل المدارس المدنية والعسكرية، ووضعت مهمة التفتيش بين يدي جوزيف سيف والذي صار خلال ذلك سليمان باشا.

وهذه قصة أحد أطرف أعضاء هذا المجلس الأعلى، ويدعى لوبير باي، وهو مدير الأوبرا السابق، وأحد المقربين من شارل العاشر الذي ادعى أنه ترك فرنسا وفاءً منه لآرائه حول الشرعية، غير أن خوفه من دائنيه هو ما أبقاه في ضفاف النيل. وكان رجلاً ودوداً بوجه وردي كالدمية، وإذا ما بحث عنه أحد ما فإنه كان سيجده بكل تأكيد ساعة العشاء في أحد منازل الفرنسيين الميسورين في القاهرة، وخاصة منزل ماري. وكان يدفع ثمن عشائه مقابل حكايات الكواليس التي جمعها أثناء حياته في المسرح. ففي سنة ١٨٣٧ يجد بوكلر هذا الموسيقي رئيساً للجنة الفحص لولوج المدرسة المدفعية! وهذا مثال فاضح لكيفية استخدام الكفاءات.

وكانت المدارس تخضع بطبيعة الحال إلى نظام عسكري محض. وكان الطلاب يشكلون ثلاث «سرايا» تتألف كل منها من أربعة «فرق» من مائة وخمس وعشرين رأساً. وكان التعليم مجانياً، وتتكفل الدولة بإطعام وإلباس الطلاب المختارين، وتمنحهم راتباً، وهي الوسيلة الوحيدة لحمل الآباء على قبول الانفصال عن أبنائهم.

وكان على المفتش، وهو أحد أعضاء المجلس الأعلى أن يزور كل مدرسة مرة كل شهر، ويعد تقريراً عن جولته. وكانت الاختبارات تجري أمام لجنة ينتمي إليها عضو من المجلس الأعلى، ومدير المدرسة. وعندما ينجح المرشحون في اجتياز اختبارات التخرج، يوجهون إلى المدارس الخاصة. أما

الراسبون منهم، فيمنحون وظائف دنيا في الإدارة. وكانت كل المدارس التحضيرية منها والخاصة، تتوفر على نظام طباعة على الحجر من أجل إعادة طباعة دروس الأساتذة، وعلى مكتبة، ومجموعة من الأدوات المستعملة في التدريس[١].

كان هذا هو النظام المعتمد من قبل مستشاري نائب الملك الفرنسيين. ولنوضح الآن أنه أعطى نتائج مخيبة للآمال. فمن أجل الإسراع في تنفيذ إصلاح بمثل هذه الدقة، والاستفادة من نتائجه بأسرع ما يمكن، لم يتمكن محمد علي من تفادي العثرات. وتبين مبكراً أن مشروعه هذا حمل العديد من الثغرات الخطيرة. وإذا ما عدت المدارس تقدماً ملحوظاً عما كان موجوداً منها، فإن الجهود المبذولة فيها كانت مدفوعة بالسرعة، وأريد جني ثمارها قبل أن يحين أوان نضجها. لماذا أقام محمد علي حوله تعليماً عمومياً؟ من أجل الحصول على ضباط وإداريين وأطباء، وليس بهدف تنوير الأهالي، ووضع فوائد التربية عوض الجهل الذي يخصبه البؤس. ويمكن القول إنه ما من شيء عام في مصر أكثر مما أطلق عليه إسم «التعليم العمومي[٢]».

ويوجه بوجولا لوماً مستحقاً لهذه المؤسسة بخصوص طريقة المدرسين المصريين، والتي تستدعي الذاكرة أكثر من الذكاء، متبعين في ذلك التقليد المتبع في جامعة الأزهر. أما المدرسين الأوروبيين فقد شوّه المترجمون الذين اضطروا إلى استخدامهم، تعليمهم.

وهناك خطأ آخر تمثل في المدرسين المصريين الذين استدعوا قبل الآوان لتعويض نظرائهم الفرنسيين الذين كانوا يشرحون دروسهم باللغة العربية الأدبية أي النحوية، وهي لغة أعلى من مستوى طلابهم من أبناء الفلاحين الجهلة، وهو ما كان يحول بينهم وبين فهم ما يقولون. ويتساءل بيليسيي «هل كان يؤمل

---

(١) بوفيي لابيير «نهضة الشرق الثقافية». باريس ١٩٣٣.

(٢) أنظر في الملحق الملاحظة التي خصصناه له.

شيء من أن بضع سنوات من العمل في مدارس فرنسا كانت كفيلة بجعل شبان بالكاد يتحدثون لغتنا، قادرين على تدريس أشخاص آخرين أخذوا بالكاد يتعلمون؟ فوظيفة جهاز تعليمي تتطلب صبراً أكثر ونضجاً أكبر[1]».

وعند تخرج هؤلاء الموظفين الجدد من مدارسهم، وإزاء الأسئلة المتعلقة باختصاصاتهم الأكثر بساطة، أبدوا ارتباكاً وجهلاً مطلقاً. فهؤلاء الذين يمكن إطلاق لقب مهندسين عليهم كانوا عاجزين حتى عن تطهير قناة.

غير أن الكارثة لم تكن عامة، إذ أن هناك استثناءات لبعض المؤسسات مثل مدرسة الهندسة والمدفعية وللإشارة لها بصفة خاصة، إذ أنها وفتحت الإدارة الذكية لشارل لومبير الذي شهد له الإنجليز أنفسهم بالكفاءة، تمكن هذا السان سيموني من حفظ نظام مؤسسته بفضل حب الدراسة والتعاطف الذي تمكن من إلهام طلابه به. وكان البرنامج الدراسي نسخة مماثلة لنظيره الفرنسي، وتم تقريبه شيئاً فشيئاً إلى برنامج أقل طموحاً لكنه أكثر تطبيقاً من مدرسة الفنون والمهن بباريس، وهو مكان الدراسة الوحيد الذي لم تطبق فيه الطريقة العسكرية، وهو ما يفسر ربما نتائجها الحسنة. وشكلت الهندسة والفيزياء والميكانيك والهندسة سنة ١٨٤٤ المواد الرئيسية للدراسة بهذه المؤسسة. وكان لومبير يبحث دوماً على أن يجمع ما بين النظرية والتطبيق. وكان الطلاب مجبرين على التدريب اليومي في الحجرة المعدة لمادة الفيزياء، ولجعل مصر تستغني بقدر ما تستطيع عن الصناعة الأوروبية، ألحق بهذه الحجرة معمل لتصليح المعدات العلمية. وتمكن أخيراً مختبر الكيمياء من تقديم خدمات مهمة. وأنفق أزيد من مليون فرنك على مختلف التجهيزات، وقدمت هذه المدرسة إلى نائب الملك ما بين سنتي ١٨٤٥ و١٨٤٩ مائة وثمانية مختصين في الجسور والطرق واثنن وستين مديراً لمختلف المعامل، وثمانية وعشرين مدرساً

---

(١) ميشو وبوجولا في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مراسلات الشرق» في سبعة مجلدات. باريس ١٨٤١.

للعلوم واثنين وعشرين مهندس مناجم، وثمانية عشر مديراً ومفتشاً للمصانع. وترجم طلاب لومير حوالي عشرين مؤلفاً كلاسيكيا طبعت طباعة عادية أو على الحجر في المدرسة نفسها، غير أنه وللأسف ألفى هؤلاء المتخرجون أنفسهم مباشرة بعد تخرجهم في الغالب تحت أوامر مهندسين تركيين، أو أشباه مهندسين موالين للإمبراطورية، ومجردين من كل تعليم، والذين كانوا يجدون في أنفسهم متعة كبيرة في نصب فخاخ أمام قلة خبرة هؤلاء الشباب من أجل تسريحهم.

ومن المهم أيضاً ذكر مؤسسة كانت ببعض التأثير على تقدم التعليم، فالطباعة التي دخلت مصر أول مرة مع الاستعمار الفرنسي، وخرجت في أثره، أخذت في العودة إلى الحياة على ضفاف النيل، إذ ألحقت مطبعة عربية بدافع من أحد المصريين، ويدعى عثمان نور الدين في سنة ١٨٢١ بكلية القصر العيني، ونقلت في السنة الموالية إلى بولاق، وكبرت بشكل ملحوظ. وكانت تطبع مؤلفات تركية وعربية وفارسية، وأخرجت إلى الوجود ترجمات للكتب العلمية الأوروبية إضافة إلى جريدة عربية تحمل عنوان «وقائع مصرية». وسترى النور مطبعة أخرى في الإسكندرية، وسرعان ما ستشرع في طباعة قصيدة القنصل سيلت، والتي نظمها بالإنجليزية بعنوان «مصر». وبعد الحملة الأولى على سورية، تنشر للتصدي لتأثير «المرشد العثماني» التي تصدر في إسطانبول، في صحيفة فرنسية شبه رسمية، والتي كان رئيس تحريرها أحد الكتاب السياسيين ويدعى كاميل تورل، والذي وظف في باريس براتب سنوي يقدر بعشرة آلاف فرنك. وبحسب جومار، فقد نشرت في سنة ١٨٢٦ ترجمات أربعة وستين كتاباً لها علاقة بالعلوم والتاريخ والجغرافيا. ويحكي كلو في مذكراته بأن «طلاب مدرسة الطب اتجهوا إلى ترجمة أجود كتب الطب المنشورة في باريس، والتي كان أصحابها من ذوي الشأن في هذا العلم، من الفرنسية إلى العربية». ويوضح بأن هذه التراجم التي بلغت إلى اثنتين وخمسين ترجمة، طبعت في القاهرة، وصدر في كل منها حوالي ألف نسخة.

وعندما زار المؤرخ ميشو هذه المؤسسات حوالي سنة ١٨٣١، اكتشف ثمانية مطابع جلبت من فرنسا، وأن حروفها سواء العربية أو الفرنسية صنعت في باريس. في حين كان الورق المستخدم من فلورنسا وتريستيا[١]. وكانت الإدارة لماروني تعلم أصول هذه الصنعة في ميلانو، وكان يساعده مشرف مطبعة ألماني، ومصحح إيطالي، وطابع يوناني، واثني عشر عاملاً عربياً. ولم يكن ينشر أي شيء بطبيعة الحال بدون رضى الحكومة عن طريق طبعة أولى. وكانت طباعة الكتب تبدو صحيحة بالنسبة لميشو الذي قدر مع ذلك بدقة «كانت مثل آلة مائية، أنفق عليها الكثير لتصب الماء على حجر صلب». وبالفعل، فقد كان الشعب عاجزاً تماماً عن الاهتمام بأي شكل من أشكال القراءة، إذ كانت في أغلب الأحيان تكدس الكتب مباشرة بعد طبعها في المتاجر حيث يصيبها التلف هناك، لأنها لاتجد من يهتم بشرائها أو حتى قراءتها، ولأنها لاتعكس بأي حال من الأحوال، روح الشعب. فالشعب الصغير مهتم بدرجة أولى بما يخفف ضرائبه، وبمن يفكر في تحسين وضعه وخاصة بأن تعاد له كرامته. وطبيعي جداً، أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأقلية من المقيمين الأجانب الذين قرر بعضهم حوالي سنة ١٨٤٠ أن يجتمعوا بصفة دورية لتبادل الأفكار، ولإبراز منجزاتهم العلمية، ومن أجل إنشاء مكتبة حول مصر. وهكذا يأسسون بإيعاز من بريس دافين، ومن طبيب معروف يدعى الدكتور أبوت الجمعية الشرقية والتي سرعان ما ستغير اسمها إلى الجمعية المصرية. وكانت هذه المكتبة التي تشكلت من هبات عفوية، بفائدة كبيرة على المسافرين، والسياح الراغبين في التعرف على البلد. ومن بين كثر ممن استفادوا منها، كان هناك جيرار دونيرفال.

ويستحق اسم بريس الوقوف عنده، لأنه كان بترجبة تكاد تكون فريدة من نوعها، ذلك أنه أمضى سبع عشرة سنة في مصر، وأن مثل ما قال جون ماري

---

(١) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

كاري «جرأة منجزاته، وجسارة مغامرته لاتعادلها إلا ملاحظته الذكية»[1].
ويدين له علم الآثار المصرية بالفضل لاكتشافه سنة ١٨٤٣ لورق البردي الكهنوتي الذي يحمل اسمه. وأغنى علم الآثار بالعديد من المؤلفات القيّمة منحها سنوات كثيرة من العناء، وقدم تضحيات من ثروته في سبيل إخراجها للوجود[2]. ويدين له اللوفر بقاعة أجداد تحوتمس الثالث، والتي تدعى أيضاً قاعة ملوك الكرنك، وهي أثر تاريخي له قيمته مثل ورق بردي تورينو ولوحتي أبيدوس، والتي فككت ونشرت وحملت على نفقته، متحملاً في ذلك ألف خطر وصعوبة بدون أية مساعدة أو أي دعم رسمي.

وقد وظفه الباشا بدءًا من سنة ١٨٢٩، في وقت لم يكن يبلغ فيه من العمر سوى اثنتي وعشرين سنة كمهندس مدني، ومهندس مائي ثم أخذ يدرس علم الخرائط في مدرسة الأركان المقامة في معسكر الخانكة عند طرف سهل هليوبوليس. وترجع مذكراته حول الأعمال الأكثر أهمية التي ينبغي القيام بها في مصر السفلى إلى هذه الفترة، والتي تتضمن من بين أشياء أخرى، مخطط قناة من الإسكندرية إلى القاهرة، ومشروع جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم. وسرعان ما جرت عليه صراحته الفظة نقمة الموظفين الأتراك، وهو ما سيضطره إلى تقديم استقالته سنة ١٨٣٦، فيقدم نفسه كمكتشف ويلبس لباس المسلمين، ويعيش حياة الفلاحين تحت لقب إدريس أفندي. ويقع حادث خطير سنة ١٨٤١، سيجعله في مواجهة مع ناظر الأقصر الذي سيكبله بالحديد لأربعة أيام وأربع ليال دون ماء أو هواء أو ضوء أو خبز. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يحيا إلا حياة التائه. ويمنح سنة ١٨٤٥ وسام الشرف

---

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مسافرون وكتاب فرنسيون في مصر» IFAO. القاهرة. ١٩٥٦.

(٢) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «الآثار المصرية». مجلد من خمسين لوحة، والذي يعد تكملة لعملي شامبوليون «آثار مصر والنوبة»، و «تاريخ الفن المصري اعماداً على الآثار منذ أقدم العصور إلى الهيمنة الرومانية». مجلدان من الخرائط الجغرافية ولوحات حجرية بالألوان والنقوش.

من درجة فارس، وسيرفض أداء القسم أمام الملك لويس فيليب، وسيعيش أوضاعاً حرجة تحت ظل الإمبراطورية الثانية، وغالباً تحت الحاجة ككاتب سياسي. ويعود إلى مصر في سنة ١٨٥٨ حيث تغيرت أشياء كثيرة. وبعد أن قام بأعمال تنقيب في الجزيرة العربية ونوبة وفي مصر العليا، يرجع إلى فرنسا حيث سيتوفى في سنة ١٨٧٩ منسياً من الجميع.

طبيب الباشا

يعين الدكتور أنطوان بارثيلمي كلو، وهو أحد الشخصيات المهمة أيضاً والتي وطئت أرض مصر سنة ١٨٢٥، بتوصية من الدكتور كوفيير من مستشفى أوتيل ـ ديو (بيت الرب) بمرسيليا، وكان يبلغ من العمر حينها إحدى وثلاثين سنة. وينحدر من مدينة غرونوبل، وهو ابن ضابط صف في جيش الإمبراطورية. وكان قد استقر منذ سنتين في مرسيليا، وقدم أطروحته بشكل لامع أمام لجنة من جامعة مونبوليي. والواقع أن كوفيير أوصى به إلى تورنو الذي كلفه محمد علي بتوظيف طبيبين متمرسين ومتميزين، أحدهما في الطب العام والآخر في الجراحة للإشراف على القطاع الصحي في مصر. وبدا كلو مترددا في البداية، ولم يقبل إلا بشرط القيام بالعمليين معاً أي الجراحة، ورئاسة الأطباء. ويعين في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٢٥ لمدة خمس سنوات براتب سنوي يقدر بثمانية آلاف فرنك[١]، وبتجهيزات والحصص المخصصة عادة لأي كولونيل.

وكانت الخدمات الصحية في مصر عند وصوله شبه منعدمة. وكان البلد يتوفر بلا شك على بعض الأطباء المهرة مثل الأرميني بوساريان طبيب نائب الملك منذ وفاة ابن جنوة ماندريشي واليهودي الإيطالي موريوغو مدير المستشفى الفرنسي في الإسكندرية أو الفرنسي ديساب، غير أن هؤلاء جميعاً

---

(١) كان راتباً لمدرس أوروبي رئيسي في النظام بحسب بلانا. (مصدر ذكر سابقاً).

لم يكونوا يعالجون إلا أصحاب المراكز العليا من الأتراك أو المقيمين الأوروبيين، في وقت كانت فيه بقية البلد مهملة لفائدة المجبّرين والدجالين.

وتمثل أول عمل قام به في إنشاء مجلس للصحة مكلف بالإدارة العامة للخدمات الصحية، ومنح رئاسته إلى بوساريان، وأعطى لهذا المجلس مشروعين كبيرين وهما التلقيح الإجباري وإنشاء مستشفى نموذجي. وبفضل العمل الأول كان الجدري الذي يحصد سنوياً حوالي ستين ألف شخص في مصر، في طريقه إلى الاختفاء.

وكان عليه إنشاء جهاز من الأطباء والصيادلة، يحكمهم نظام تراتبية معين. فطبقت القوانين المعمول بها في فرنسا مع تكييفها مع الإطار المصري. وهكذا توحدت الجراحة مع الطب بطريقة جعلت المنظومة تتوفر من الآن فصاعداً على نوعين عوض ثلاثة، وهما الأطباء والصيادلة.

وتبعاً للأولوية، تم إنشاء مستشفيين لفوجين. الأول في أبي زعبل بضواحي القاهرة، حيث يستقبل معسكر التدريب جزء كبير من الأفواج، والثاني في الإسكندرية وذلك لفائدة مرضى الحامية والبحرية. وهكذا، وبعد أن هدمت الخرابة التي كانت بأبي زعبل، شيد مكانها مبنى حديث وواسع، متوفر على تهوية جيدة، وقادر على استقبال حوالي ألف مريض. وهنا أيضاً، تطبق القوانين والنموذج الفرنسي[1]، وتنقل هذه المستشفى فيما بعد إلى القصر العيني في المكان نفسه الذي كان يقيم فيه الفرنسيان دي جينيط ولاري مستوصفهما سنة ١٧٩٨.

وتتوفر المؤسستان على ضابط محاسب وكتاب وممرضين، وكان الأمر كذلك بالنسبة لكل مستشفيات الأفواج المتنقلة، غير أن كل هذا كان من أجل غاية قاسية واحدة، الجيش دائما وأبداً. ومثلما أوضح كلو «ومع أنها غير

---

(١) كلو باي في «تقرير حول أعمال مدرسة الطب في أبي زعبل من سنة ١٨٢٥ إلى سنة ١٨٣٢» ورد في «ذكريات متنوعة، آخر الذكريات في الأكاديميات والجمعيات الطبية». مرسيليا. ١٨٦٤.

كاملة، كان هذا التنظيم كافياً لحاجيات جيش يتكون من مائتي ألف جندي، يوجد دوماً في الميدان تقريباً.» ويؤكد «ولم تكن الإدارة الصحية مطبقة في البداية إلا إلى الجيش، ولم يفكر محمد علي بنجدة الشعب إلا بعد سنوات من ذلك».

وكانت مصر بحاجة ماسة إلى الأطباء، وكان الفلاحون بطبيعة الحال أول من يعاني من هذا الوضع، وكانوا يعالجون متى أمكنهم ذلك، وإذا ما أمكنهم ذلك فقط. ويقرر كلو، وهنا يثبت نقاء روحه، أن يكوّن أطباء من أبناء البلد فيؤسس أول مدرسة للطب في القصر العيني بجانب المستشفى، وعند تدشينها في سنة ١٨٢٧، كانت تضم حوالي مئتين وخمسة عشر طالباً، وكان أول المدرسين بها، باستثناء كلو الذي عيّن كمدير لها، كل من الفرنسيين براثيلمي، وبرنار والإيطاليين فيغاري وأوشيلي والإسباني غايطاني.

وحددت مدة الدراسة في خمس سنوات التي «ما إن تنتهي حتى يتمكن كل طالب حتى ولو كان قليل الذكاء، ومواظب أن يكتسب المعارف الضرورية لمآذارة الطب[1]». وكانت الدروس تترجم مع ما يعتري مثل هذه العملية من ضعف. ومع ذلك، فخلال مدة إقامة وصلت إلى ثماني عشرة سنة، كوّن كلو باي حوالي ألفاً وخمسمائة طالب و «الذين كانت أغلبيتهم من دون نقاش، من أجود العناصر». ويؤكد الدكتور لالمون من جامعة مونبوليي وأحد مشاهير عصره فيما يخص الميدان الطبي، عند زيارته إلى القاهرة بأن «مدرسة الطب بالقاهرة، كانت قادرة على تكوين أطباء جديرين بالثقة، بل وخرجت أطباء للتدريس[2]».

وبعد تأسيس المدرسة، يركز كلو على تنظيم الطب المدني، فتفتح مكاتب للفحص المجاني في مدينتي القاهرة والإسكندرية. ومنحت الإذن أخيراً، باستقبال المدنيين في المستشفيات العسكرية. وبدأ بشكل تدريجي وضع أطباء

---

(١) المصدر السابق.

(٢) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

وصيادلة في مراكز كل المحافظات. وبمضي الشهور، أخذ البلد يغطى بالعيادات المتنقلة والصيدليات التي مكنت من خوض حرب ضد الكوارث الصحية المحلية، أي الطاعون والكوليرا والتيفويد والجدري والزحار والتهاب العين. من جهة أخرى، كانت أعداد وفيات الأطفال مرعبة، فيقرر كلو إنشاء مدرسة للمولدات سنة ١٨٣٦ عهدت إدارتها إلى فرنسية وهي الآنسة بالمير، والتي كانت تعلم التلقيح وأخذ الدم.

وفي الميدان الصيدلي، لم تكن مصر تعرف إلا عشابين من دون تعليم، يبيعون السراب وتمائم أكثر مما يمنحون أدوية. وكانت المنتجات الكيميائية الأكثر انتشاراً ناقصة بشكل كبير. أما قانون تركيب الأدوية العربي القديم، والذي كان ذائع الصيت في العصور الوسطى، فقد سقط منذ مدة طويلة في الإهمال. وهكذا يكلف كلو كيميائياً إيطالياً يدعى لويجي ألساندري بأن يقيم في القاهرة أول مدرسة للصيدلة. وأتت أكلها في وقت قصير، إذ سرعان ما قام الصيادلة المجازون بتركيب الأدوية الرائجة والمستعملة بطريقة علمية، غير أن هذه العملية لم تخل من انتقاد، خاصة من قبل هامون الذي يعتبر الجراحين العسكريين المتخرجين من جامعة كلو ليسوا قادرين حتى على التعامل مع كسر. وبحسبه، لاتعاني الاختبارات من غياب الجدية فقط، بل إن المرشحين يخبرون سلفاً بالأسئلة التي ستطرح عليهم. وبدون شك، تبقى هذه الانتقادات مبالغ فيها، ولنقل إن كل هذا كان بدافع الغيرة بين زميلين.

ومادام هناك علاج للناس، فكان من الطبيعي الاهتمام بالخيول. وكان هامون بالتحديد هو من يشق طريق هذا المجال. وكان قد وصل هذا البيطري وهو ابن قبطان في الجيش الإمبراطوري، إلى مصر في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٦ بدعوة من محمد علي. وكان مرافقاً بأحد مواطنيه، ويدعى بريتو، وهما معاً تلميذين سابقين لألفور[١]. غير أنه سرعان ما يسقط بريتو مريضاً

---

(١) هامون. (مصدر ذكر سابقاً).

ويعتقد أنه سيستعيد عافيته في إزمير فيموت هناك. ويبقى هامون الأكثر مقاومة فيما يبدو، وحيداً على رأس الإدراة البيطرية. وينجح في إقامة مدرسته في أبي زعبل قرب كلية الطب. ولما اتصف بالجرأة فقد حصل بسرعة على رضى نائب الملك الذي وضع تحت تصرفه الأماكن الضرورية المرتبطة بقصر شبرا. وكان يدرّس في هذه المدرسة علم التشريح والجراحة وعلم النباتات واللغة الفرنسية إضافة إلى علم الخيول.

وعلاوة على هذه المدرسة، يتمكن هامون في بضع سنوات من تشييد مستشفى، وحديقة نباتات وإسطبلاً للخيول العربية حيث تم عد حوالي ثلاثين من الأحصنة الأصيلة، وستمائة وسبعين فرساً. وهكذا، نجح في إنشاء وضع ممتاز له، غير أنه وفي سنة ١٨٤٠ يتهم حقاً أو باطلاً، بأنه يؤثر مصلحته الشخصية، فيجبر على الانسحاب[١].

وإذا ما تم وضع تقييم بكل هذه المنجزات، فسيكتشف أنه وعلى الرغم من إرادة وشجاعة من تولى أمرها، إلا أنها كانت آنية وماضية إلى زوال. وكان يلزم عشر سنوات على الأقل ليتمكن جيل أول من الطلاب للمرور عبر كل درجات التعليم، غير أنه وبعد مؤتمر لندن لسنة ١٨٤٠ سيهوي كل ما يتصل بالتعليم في الوقت نفسه الذي ستحطم فيه أحلام ابن كافالا. ويؤكد بعض المؤرخين أنه وبعد أن حرم محمد علي من فتوحاته، تخلى عن كل اهتمام بالتعليم العمومي مثل طفل جرد من لعبته. «لم تكن المدارس بالنسبة لمحمد علي إلا أدوات حرب، وهو يتخلى عنها اليوم بما أن دوره كمهاجم قد انتهى، وبما أنه فقد الأمل في الاستيلاء على عرش السلطان. ومادام لم يعد بحاجة إلى الجيش فإنه لايريد المدارس[٢]».

ويعلق فيكتور سكويلشر بالقول «لو كانت لديه الرغبة الحقيقية في إعادة

---

(١) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) فيكتور سكويلشر. في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مصر سنتي ١٨٤٥ و١٨٤٦». باريس ١٨٤٦.

الحياة إلى مصر، لكان استفاد من السلام لمنح المؤسسات التعليمية بريقاً جديداً وذلك بجعل أساتذة أكفاء على رأسها لتكوين رجال متميزين ينشرهم فيما بعد على كل البلد للقيام بمهمة التعليم النبيلة، ولاستخدم المال الذي لم تعد تلتهمه الحرب في زيادة عدد المدارس ومضاعفة وسائلها في التأثير».

ويرجع عدد من الكتاب مسؤولية إهمال التعليم إلى إبراهيم الذي ثبطت عزيمته بعد هزيمة سورية، فاقترح على والده إقفال المؤسسات المكلفة جداً للخزينة.

والواقع أنه وعلى الرغم من أن التعليم كان ينجرف في نهاية فترة حكم محمد علي، إلا أن ضربة الخلاص ستأتي من خليفة الباشا المباشر عباس الأول الذي حكم ما بين ١٨٤٨ و١٨٥٤، إذ سيكون أول قرار له بعد جلوسه على العرش، إلغاء كل المدارس الحديثة التي كانت مفخرة مصر. وكان أميراً بأفكار رجعية، ومعادياً لأي تأثير أوروبي، حتى إنه كان يود إخراج أجود الطلاب من المدارس الخاصة لتحويلهم إلى عناصر من «حرس الشرف». وهكذا، فإن كلو باي نفسه يغادر البلاد[1]. ويكتب «يعكف عباس باشا على هدم منجز جده بصفة منتظمة وخاصة محو كل أثر لما يمكن أن يذكر بالوجود الفرنسي. ولم تسلم الإدارة الصحية ومدارس الطب والتوليد حيث بترت كل فروع هذه الإدارة». ويرى فاران أيضاً بأن عشرين سنة من العمل الدؤوب فقدت، وأقفلت مؤسسته التي كان يرتادها أبناء رفقاء محمد علي في السلاح، وأحيل على التقاعد.

النظام العام

وسواء غرقت كل هذه المنجزات أم لا، فإنها ما كانت لترى النور لو لم يجعل ابن كافالا من النظام العام والأمن من بين أولوياته. إذ كانت مصر فريسة للفوضى والنهب، وكانت الطرقات التي ينصح بعدم سلكها تمثل عاملاً غير

---

(١) سيعاد استدعاؤه من قبل سعيد سنة ١٨٥٥.

ملائم لتحركات الأجانب الجسورين. وسيعرف البلد الذي يدار بقبضة من حديد، تدريجياً الهدوء والأمن في المكان الذي كان يحكمه العنف فيما سبق.

وأجمع كل المسافرين الذين زاروا مصر في تلك الفترة، في شهاداتهم بأنه كانوا يشعرون بأمان في مصر العليا وحتى في نوبة أو بين انقاض تدمر أكثر منه في شوارع باريس أو لندن. وكان بوكلر موسكو يتجول كسائح دون أن يمسه أي إزعاج حتى الخرطوم[1].

وصار البدو الذين كانوا دوماً سبباً في الاضطراب، أكثر ارتباطاً بالأرض بعقود ملكية، أو يكسبون قوتهم كفرسان أو رجال أمن. وهكذا لم يعد يغريهم الانطلاق في غزوات كما في السابق.

وبفضل القمع الشديد لكل ما يتعلق بالنهب والجرائم والجنح، فقد عم النظام المدن والقرى.

ولعل استتباب الأمن في مصر، يعد أهم منجزات الباشا. وتتم الإشارة إليه دائماً في أغلبية نصوص المسافرين حتى تلك المنتقدة لمجمد علي، إضافة إلى تقارير القنصليات. ويكتب بورينغ إلى بالمرستون في هذا الشأن بأن «الأمن مستتب الآن في كل أنحاء مصر، سواء على النيل أو في واديه، وسواء في الطرقات التي يسلكها الناس أو في الأماكن الأقل كثافة في الصحراء، وهو أحد الأعمال المتميزة لسياسة الباشا، فكل مصر من نوبة وحتى البحر الأبيض المتوسط آمنة تماماً (. . .)، وليست هناك قرى، لا يوجد فيها استعداد للسلطات لتقويم أي اعتداء واضح على الملكية».

ففي بداية حكم محمد علي، كان الحال مثلما كان عليه أيام المماليك، حيث يخضع رئيس الشرطة لكيايا الذي يتحكم في الدوريات. غير أنه وحوالي سنة ١٨٣٠ عهدت الإدارة إلى ضابط باي التابع لوزارة الحربية. وعهدت مراقبة تصدير المواد الغذائية إلى موظف خاص، بينما ظلت مراقبة الأسواق العامة كما

---

(١) بورينغ. (مصدر ذكر سابقاً).

في السابق بين يدي المحاسب، وهو قاض متجول، يرافقه حامل الميزان والذي كانت مهمته تجريم الباعة المطففين. وكان العقاب بسيطاً بقدر ما هو مريع، إذ يحكم على المخالفين بالضرب بالعصي[1].

بالمقابل، ومن الناحية العدلية، يمكن القول بأنه لم يعرف شيئاً جاداً من أجل إصلاحه. إذ استمرت المحاكم الإسلامية أو الشرعية في القيام بهذا الدور سواء فيما يتعلق بالقضايا المدنية أو الجزائية، وذلك تحت السلطة العليا لقاضي قضاة مصر، غير أنه وإذا ما تعلق الأمر بأشخاص مهمين متهمين بجرائم أو حتى بجنح بسيطة فإن نائب الملك شخصياً أو أبناءه أو كبار الموظفين كانوا يبتون في تلك القضايا. ويتأسف جومار، الموالي للحكومة، لما يحدث. ويعتبر أن الوقت لم يحن بعد. فقد كان على باني الدولة الجديد أن يمنح رمزاً لمصر[2].

وفي سنة ١٨٢٦، شكلت محكمتان تجاريتان في كل من الإسكندرية والقاهرة، تكونت كل منهما من تجار أوروبيين ومحليين. وضمت الأولى خمسة عشر عضواً من بينهم خمسة مصريين، ومغربيين وستة من مسيحيي الشرق، ويهوديين، فيما شكل تسعة أفراد المحكمة الثانية، منهم أربعة مصريين وفرنسي ويوناني ومشرقيين ويهودي. وبدا أن إنشاؤها كان بفائدة كبيرة فيما يتعلق بالسندات والإفلاس، غير أن كل ما هو إيجابي فيهما للأسف سيجمد بصفة منتظمة لما فرضت على القضاة ضرورة إعادة أحكامهم إلى مجلس أعلى أو إلى نائب الملك الذي يعيد النظر فيها في كل مرة تعرضت مصالحه للسوء.

وبما أن فساد القضاة داء لاعلاج له، فقد كانوا يباعون جميعاً بدءاً من قاضي القضاة نفسه، لمن يدفع أكثر. أما المسطرة فهي مختصرة كما في كل البلاد

---

(١) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) جومار في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «نظرة محايدة حول الوضع الراهن في مصر مقارنة بوضعها السابق». باريس ١٨٣٦.

العثمانية إلى أبسط تعبير. وبخصوص العقوبات، فكانت بدائية حيث الضرب بالعصا في المخالفات، والموت في الجرائم. واستمر التأديب الجسدي بالكرباج، غير أن عقوبة الخازوق الشنيعة المعدة للقتلة ألغيت، ولم يعد مطبقاً قطع يد السارق، وتم تعويضه بالأشغال الشاقة.

ومن الغريب أنه في قلب هذا العالم القائم على الاستبداد حيث العقليات في الغالب قروسطية، كان موقف محمد علي إزاء الأمور الدينية رحيماً ومتسامحاً بطريقة نموذجية إزاء الأديان السماوية الثلاثة. فقد كان الأقباط بصفة اعتيادية يقبلون في وظائف إدارية ومالية أو في الجمارك بسبب كفاءتهم في هذا المجال المكرسة بالعادة، ومنهم من رقي إلى مناصب عليا.

ويلج بعض المسيحيين الآخرين من أصول أرمينية ويونانية إلى الخدمة لدى نائب الملك الذي لم يتردد أبداً في استخدام قدراتهم. وكان يقدم مصلحة إدارته على الأحكام المسبقة فيما يتعلق بالدين الذي لم يكن مصاباً به. ومنح نموذجاً استثنائياً للتسامح الذي سيحقق في عهده تقدماً كبيرا. ويلاحظ بورينغ في سنة ١٨٣٩ بأنه «ما من أحد يشعر بأدنى حرج بسبب رأي ديني». وقبل ثلاث سنوات من ذلك، يشير كادالفين وبروفيري اللذين يمكن أن يشك في أنهما كان معجبين بالباشا، أنه «بفضل التسامح الديني تستطيع الجالية الأوروبية الأكبر اليوم في مصر منها في أية دولة أخرى في الشرق، أن تزور كل المساجد...».

وكان محمد علي، في سابقة من نوعها، يضع مسيحيي الشرق والمسلمين على قدم المساواة، بل إنه يمنح الأول أحيانا تشريفاً كان مقتصراً على الأول. ففي سنة ١٨٣٤، يعين حنا بكري أميناً عاماً للمالية بسورية، ومعلم بازيليوس غالي مديراً عاماً للمحاسبة في مصر. وكان الأول كاثوليكي سوري من دمشق، في حين كان الثاني قبطياً، ومثلما رأينا فإن بوغوص باي يحتل مناصب عليا، إذ كان وزيراً للشؤون الخارجية. ولأول مرة يتمكن مسيحيو الشرق من تحصيل لقب باي. ويمنح الباشا المجرد من كل تعصب للطوائف المسيحية ولرجال

الدين، الحرية ويضمن لهم حماية مطلقة. وبطبيعة الحال، فإنه يدين بالفضل كونه يحمل امتياز أنه ابن الإسلام، ليتمكن من مآذارة العنف دون عواقب سيئة على الشعب المصري على نحو ما قام به. فقد هاجم ملكيات المساجد، والجمعيات الخيرية. ولم يكن محتاجاً بأن يمنح المسلمين من أمثاله، دليلاً على احترامه لإيمانه. ويدا أنه معفى إلى حد بعيد من الحذر الي أجبر عليه المستعمرون الأوروبيون في بلاد الإسلام.

ومهما يكن الأمر، فقد أدى غياب التمذهب في مصر إلى قبول أولى النساء في المحفل الكاثوليكي. فقد وفدت أخوات سان فانسون دو بول إلى الإسكندرية حوالي سنة ١٨٣٠، وافتتحن أول بيت لهن في الشارع الذي سمي بشارع الأخوات. وسرعان ما ستلتحق بهن اليسوعيات والفرنسيسيات.

ويمكن اعتبار الميدان الديني مجالاً استثنائياً، إذ أن محمد علي كان يآذار سلطته كما يشاء على باقي الميادين الأخرى بدون حدود غير رغباته. فالناس والممتلكات على السواء تحت تصرفه، ولم يكن يحرم نفسه من التصرف فيهما معاً كيفما أراد. وليس هناك مبدأ للحرية الفردية ليدافع عن الناس ضد المبادرات والتدخلات الحكومية. والواقع أن هذا الأمر كان سابقاً لعهد محمد علي، غير أنه صار أكثر إرهاقاً مادام يحكم بنشاط أكبر ويتحكم بصورة أشد.

وهذا الوضع الخاص المتفجر في إطار يعتبره منذ بداية حكمه كمعقل خاص له، ومطارد بحراسة مطلقة، وهو الميدان الزراعي.

[13]

المزارع الكبير (١٨٠٨ ـ ١٨٤٠)

سبق وأن رأينا هذا من قبل، فقد صار محمد علي المالك الوحيد للأرض المصرية ابتداءً من سنة ١٨٠٨، وعليه فهو الذي يقرر كل سنة الأراضي التي يجب زرعها وطريقة زراعتها، وهو أيضاً الذي يمنح لكل أسرة من المزارعين مساحة الأرض التي يجب أن يزرعوها وطبيعة البذور ونوع الزرع. وعلى مديريه ومأموريه وناظريه أن يسهروا على تطبيق قراراته بهذا الشأن، وهو ما يجعل منهم بدورهم وكلاء ومشرفين على الاستغلال الفلاحي. وتجر ملكية الأرض بطبيعة الحال، ملكية المحاصيل. ذلك أن محمد علي هو مالك كل الإنتاج الفلاحي لمصر. وبهذا الخصوص، يكتب روسل إلى دوق دو ريشليو في التاسع من شهر حزيران من سنة ١٨١٨ «كان الباشا وفياً لنظام الاحتكار الذي ينهجه، فأخذ يبسطه أكثر فأكثر. فبيع الفول الذي يعد الغذاء الرئيسي للشعب، كان دوماً حراً من أجل استهلاك الأهالي، وهكذا بدأ يشتري كل فول البلد ليعاود بيعه بنفسه، بحيث أن الوزن الذي كان يساوي خمسين بارة قبل ثلاثة أيام أضحى بسعر ثمانية[1]».

فنائب الملك يحدد إذن أسعار المنتجات التي تدفع للمزارعين، وتلك التي تباع بها من بعد سواء في الخارج أو في الداخل. ويباشر بفضل وكلائه،

---

(١) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

عمليات البيع والشراء. وكان الفلاحون مجبرين لاستهلاكهم الشخصي أن يعيدوا شراء جزءاً من المحاصيل التي سبق وأن باعوها لكن بثمن مرتفع هذه المرة. وبطبيعة الحال، كان هناك هامش مهم بين ثمن الشراء وثمن البيع. فمحمد علي يشتري بسعر منخفض، ويبيع بثمن غال جداً مقارنة بثمن الشراء. وعلى كل، فكلمات من قبيل «شراء» و «اشترى» ليس لها معنى هنا، فأنت لاتشتري ما تملكه. وكل ما كان يقوم به محمد علي هو تعويض الفلاح تعويضاً رمزياً.

وحول هذه النقطة انتهى النظام إلى صور صادمة من المبالغة والاستغلال. ولابد أن ابن كافالا لاحظ ذلك ما دام أنه في سنة ١٨٣٢ تنازل ووهب للمزارعين حرية التصرف في الحبوب الأساسية كالقمح والذرة والشعير، إضافة إلى الفول. غير أنه كان يمنع تصدير هذه المنتوجات، ويحتكر كل سنة بسعر يحدده شخصياً أربعة هيكتولترات للهكتار الواحد.

وعندما يحين موعد المحاصيل، توضع كل المنتوجات في مخازن الحكومة حيث يعمد هناك إلى إجراء خصومات من كل نوع. وبعد أن تؤخذ الضريبة الشخصية المعروفة باسم ميري، وعدداً آخر من الحقوق الصغيرة، يمنح للفلاح ثمن محصوله عن طريق تذكرة، وهي سند للدفع من الخزينة. وعند وصول تاريخ الدفع، يقبض الثمن على شكل أقمشة أو مواد مصنعة أخرى، والتي لايستطيع تصريفها إلا بخسائر كبيرة. وفيما بعد، أي حوالي سنة ١٨٣٤ اختفت هذه «الأقساط» لفائدة قانون من الرجح أن يكون الأكثر جوراً من بين كل القوانين التي وضعها حاكم أبداً. وللمفارقة التاريخية، أطلق على هذا القانون اسم «التضامن» أو «المسؤولية الجماعية»، وهو قانون وحشي وأعمى في الآن نفسه. ويتمثل في جعل كل الأهالي، بدون استثناء، مسؤولين بالتضامن عن ديون كل فرد تجاه الخزينة. فإذا أخذ من الفلاح كل ما يملكه وظل مع ذلك مدينا للحكومة، فإن دينه يوزع على الفلاحين الآخرين المنتمين للقرية نفسها. وإذا ما بقيت القرية مدينة للدولة بعد أن منحت كل تملكه، يلقى الدين على

القرى المجاورة. وإذا عجزت المحافظة بعد أن ينفد كل ما لديها عن أداء الدين، فإن المحافظة المجاورة لها، ملزمة بملء النقص. وهكذا فإن «التضامن» يمد شبكته على كل المحافظات التي يتوجب عليها سد الفراغ الذي يمكن أن يطال الخزينة، إما نتيجة للإفلاس أو للإرادة السيئة لإحداها أو لعدد منها[1].

ومن الناس ممن يحرصون على إسقاط المسؤولية عن محمد علي في هذه القضية، يدعون بأنه لم يكن صاحب الفكرة، وبأنها لأحد المقربين إليه، والذي سيكلف بوزارة الحربية، وكان يدعى محمود باي. غير أن محمد علي، وبحسب روايتهم دائماً، وما إن علم بالمشروع حتى هتف قائلاً «أي رجل عبقري هذا! فهو الوحيد الذي وجد الوسيلة لإرغام الشعب على أداء ديونه الماضية والحاضرة والمستقبلية!».

ويمكن تقديم شهادة لحساب هذا المقرب بأنه ليس هو من أوجد هذا النظام الذي كان معمولاً به لكن بصورة أخف قليلاً، وببعض الإنصاف سنة ٦٤٢ على عهد عمرو بن العاص قبل أن يسقط في عهد المماليك.

ويمكن الشك بأن النتيجة جاءت مخالفة تماماً للتوقع. حيث حطم محمد علي آخر دافع للفلاح بأن يعمل، وذلك نتيجة لهذا الذي أصاب الفلاح النشيط والكسول على السواء. فقد أفقر الفلاح النشيط، وصاحب الضمير في السنة الأولى، وذلك لدفع ديون الفلاح الكسول. وفي السنة الثانية، لم يعد هناك من فلاح صاحب ضمير لتؤخذ محاصيله منه. فعم الإحباط والبؤس كل الأرجاء، لأنه وكما أشار إلى ذلك كادالفين وبروفيري «نسي النظام وجود إفلاس سيجبر الجميع على التوقف، وإفلاس مصر كلها». ومن هنا حل الإخفاق التام في نهاية الأمر.

ومن بين كل أعمال محمد علي، لم يدهش معاصريه ومن أتى من بعدهم،

(١) كادالفين وبروفيري. (مصدر ذكر سابقاً).

ربما بعمل مثل «التأميم» الذي اتسم بالجرأة والاعتباط، والذي جعل منه المزارع الكبير للأراضي المصرية. غير أن البلاد كانت تتوفر على مجموعة من المنتجات القيّمة، والتي نسيها إلى حد الآن، أو أنه فقد معرفتها منذ وقت طويل. وأخيراً، يتوجب الاعتراف بأن نائب الملك أدخل مكان نظام إراحة الأرض القديم، طريقة عقلانية للتناوب الزراعي التي ما كان للفلاحين المتروكين لمصائرهم بأن يكتشفوها يوماً أو أن يطبقوها على الأقل.

ويدور الجدل حول هذا الموضوع أيضاً، فالعديد من رجال الاقتصاد والمؤرخين يقترحون، كل بطريقته، جواباً نهائياً للتساؤلات التي أثارها هذا النظام. هل كان الباشا يستطيع فعل شيء آخر غير الاستيلاء على كل الأراضي، لإجبار الفلاح على العمل والرفع من الإنتاجية بدون هذا الضغط أو لنقل هذا الظلم؟ هل كان بمقدور مصر معرفة هذه الانطلاقة غير العادية في الميدان الفلاحي، والذي كانت تحتاجه بشدة؟ والجواب هو نعم بطبيعة الحال، إذ أنه توجد حتماً طرق أخرى أكثر عدلاً مائة مرة وأقل استبدادية. وكما يكتب كادالفين وبروفيري «وإذا كان من الضروري وضع نهاية لعادات الكسل والتراخي للشعب المصري، والتي تعوّد عليها كنتيجة مباشرة لأزيد من خمسة قرون من الجور والاستغلال التركي والمملوكي، كان من الأنجع، وعلى كل حال من الإنساني، إعادة منح هذا الشعب طعم العمل، وتركه كمالك لثمار كده. وبطريقة غير محسوسة، كانت حياة الفلاح سترتقي. وكان بكل تأكيد سيتذوق رغدها. وسرعان ما كانت ستنتشر المنافسة بين الفلاحين. ونتيجة لهذا، كانوا سيزرعون مساحة أرض أكبر من تلك التي فرضها نائب الملك دون اللجوء إلى العنف. وهكذا كانت الأمة وبالتالي الدولة ستستفيد من ذلك. وكانت عائدات الضرائب والجمارك ستعرف ارتفاعاً دون احتكار. وكان بالإمكان الحصول على ما يحصل عليه عادة في المجتمعات الليبرالية المسيرة بطريقة سليمة، أي زيادة في الدخل العام مبنية على ارتفاع مستوى الحياة بشكل عام».

غير أن محمد علي لم يتمتع قط بما هو إنساني. فنحن ما نزال في القرن

التاسع عشر. وإذا لم يعد الاستعباد موجوداً في أوروبا الغربية، مع أن الوضعية الاقتصادية للفلاحين وللعمال كانت أبعد ما تكون عن المثالية، فقد كان ما يزال يضرب أطنابه في أوروبا الشرقية، في الإمبراطورية النمساوية من بين أماكن عدة، التي لم يلغ فيها إلا سنة ١٨٤٨ أي قبل سنة واحدة من وفاة محمد علي. وظل قائماً في روسيا حتى سنة ١٨٦١.

ولاينبغي استنتاج أي رغبة في مجاملة الباشا من خلال كل هذا الشرح، ولكن حرصاً على الموضوعية. وبالفعل فقد رسم له بعض المؤرخين صورة مانوي بعنف شديد وبتحيز كبير لدرجة من العمى لاتكاد تتميز عن هذا الذي كانوا يدينونه. وهكذا، يكتب كادالفين وبروفيري «كان نظام محمد علي يدمر الجنس البشري، فأي نظام ادعى لنفسه الحق لقيادة الناس بالعنف في سبيل الكمال الاجتماعي، وهي فكرة عظيمة يمكن لها أن تغفر لهذا المشروع الجريء، غير أن نائب الملك اتجه إلى إفقار البلد من سكانه وليس إلى مدنيته». ويقدم هامون في معرض حديثه عن قرار نائب الملك بتعيين المصريين في الإدارة هذا التعليق المدهش «أجهل إذا ما كان محمد علي بإقدامه على تعيين الفلاحين كحكام، قد أراد تعديل شخصة المصريين الغارقين حتى ذلك الحين في الدناءة. وإذا كانت هذه نيته، فهي جيدة ويجب الاعتراف له بذلك. غير أنه يبدو لي أن الحكمة خانت نائب الملك في هذا الظرف. هل يمكن تصور أن رجلاً بلغ اليوم أدنى درجات الانحطاط والجهل والقذارة والوضاعة والحقارة، سيتمكن غداً من حكم محافظة! قطعاً لا!»

هل يمكن استنتاج أن قدر الشعب المصري سيظل دوماً خاضعاً لما يسمونه حقارة؟ هل يمكن الاعتراف مع مادن بأنه «لم يحدث أبداً أن سيداً بمثل تلك الوحشية حكم مصر؟» وأي رأي في «موضوعية» ألفريد دو موليون حين يقول «يمتلئ المزربان»[1]. فرحاً وهو يرى من نوافذ قصره برأس التين بحريته

---

(١) حاكم ولاية فارسية.

وترسانته مجتمعين تحت عينيه[1].

نعلم أن محمد علي لم يكن قديساً، ويلزمه الكثير ليصير كذلك، غير أن اختصار شخصيته في طابع استبدادي وحيد يبدو لي إفراط في التبسيط.

جوميل أو الذهب الأبيض المصري

حدث حوالي سنة ١٨٢٠ اكتشاف ذو أهمية كبرى، أتى ليمنح نفساً جديدة إلى الزراعة المصرية. فقد لاحظ مهندس فرنسي من مواليد مدينة ليون، قدم من نيويورك حيث أمضى بها سنوات عديدة، سنة ١٨١٨ في حدائق الملك بشبرا بحسب البعض، وفي حدائق ماحو أو ماكو باي[2] بحسب البعض الآخر، تشكيلات من بضع شجيرات قطن من أصل حبشي، غير أنها كانت تستخدم هناك للزينة فقط. يدعى هذا الرجل جوميل. فقرر استغلال اكتشافه لمصلحته الشخصية، ولمصلحة البلد التي صار ضيفها. ولم يكن هو بالطبع من سيعلم المصريين بوجود شجرة القطن المعروفة منذ عهد الفراعنة، إذ غطت عصابات من قماش قطني العديد من المومياءات، وحيث ذكر في مقاطع من الإنجيل، وبعض النصوص الكلاسيكية القديمة، تشهد على وجوده. غير أنه وفي القرن الثامن عشر كانت مصر تتمركز بعيداً جداً خلف دول الشرق المنتجة له. فالقطن البلدي الذي يزرع في وادي النيل متوسط الجودة، وكل إنتاجه يستهلك محلياً. ويحاول جوميل، بشراكة مع تاجر فرنسي من القاهرة، أن يقوم بتجربة أولى لزراعة تشكيلة من شجيرات القطن في أرض صغيرة تقع في قرية المطرية، غير بعيد عن مسلة هيليوبوليس. وهكذا سيحصل في سنة ١٨٢٠ على ثلاث حزم، يرسلها إلى أوروبا، فتلاقي نجاحاً فورياً. ويتفق مع محمد علي على الاستغلال على مستوى أكبر مشترطاً حصوله على عشرين ألف دولار في حال نجاحه[3]. فيمنحه نائب الملك إدارة مساحة شاسعة، والتي سرعان ما

(١) ذكره سيبيون ماران في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «أحداث ومغامرات» مجلدان. باريس ١٨٤٠.
(٢) بحسب آخرين، فلربما أن جومال أحضر الحبوب من بيرنامبوك. غييمار. (مصدر ذكر سابقاً).
(٣) المصدر السابق.

ستغطي جزءاً مهماً من الدلتا. ولثقته بحصوله على ثروة جراء هذا العمل، عمل بجد طيلة ثلاث سنوات متتاليات. وفي سنة ١٨٢٣ يتجاوز الإنتاج مائتي ألف قنطار، إلا أن جوميل وللأسف، لم يحصل على المكافأة المتفق عليها سلفاً. وككثيرين مثله، سيتأثر بالصعوبات الكثيرة التي تضعها أمامه الإدارة المحلية سواء في استغلال الأراضي أو في إدارة مصنع الغزل الكبير الذي أقامه في بولاق، فيسقط مريضاً، ثم يموت في شهر حزيران من سنة ١٨٢٣. وسيعمل بعض الحاسدين كل ما يستطيعون لمحو كل أثر له، وذلك بمنح قطنه إسم ماحو، وبإرجاع اكتشافه تلفيقاً إلى درويش أتى بالبذور من الهند. إذا كان الأمر يتعلق بدرويش فعلاً، فهو انحراف للأسف للأنفس السيئة. ويحقق قطن جوميل نجاحاً كبيراً، ولم يوقف موت مكتشفه نمو استغلاله الذي كان يلزم أكثر من ذلك لإيقافه.

ما العمل بكل هذا الإنتاج إن لم يكن بيعه إلى الأجانب؟ فيتفق إذن نائب الملك مع دور تجارية أوروبية لأجل هذه الغاية. وكانت شركة سويسرية تحمل إسم فوالِيي أول من منح محمد علي مقدماً مقابل حزم. وبعد وقت قصير، أتت الشركات الفرنسية لتحدو حدوها.

ومن سوء الحظ أنه وابتداءً من سنة ١٨٢٨ سيعرف الإنتاج تراجعاً بسبب تعب الأرض، ولعدد الفلاحين الكبير الذين أخذوا من الأرض بسبب شدة التجنيد، وهو ما سيلهم جون نيني ناظر الباشا سنة ١٨٣٩، لكتابة تقرير حمل عنوان فساد القطن المصري، والذي يرجع فيه تدهور الإنتاج إلى رفض المسؤولين استعمال وسائل تقنية متقدمة[١]. فيكتب «رجونا بوغوص باي في العديد من المرات بأن يجلب الأدوات الضرورية من الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن كل طلباتنا كانت عبثاً». ويخلص إلى أن السلطات تعارض عمداً كل ما هو جديد تقنياً حتى «تحكم على الفلاح بأن يبقى آلة منتجة».

(١) أنظر أنور لوكا. «جون نيني». (مصدر ذكر سابقاً).

غير أن القطن، وعلى الرغم من أنه وصف طويلاً من بين المواد المنتجة الأكثر تميزاً، لم يكن اكتشاف الباشا الوحيد، فجرد ما أنجزه بمستويات نجاح مختلفة سواء في الميدان الفلاحي أو في ميادين أخرى متعددة، يعد أمراً مثيراً، وربما نموذجاً نادراً إن لم يكن فريداً من نوعه. فلنحكم عليه.

ذلك ان نائب الملك أمر بزرع أزيد من مائة ألف شجرة زيتون في أراض كثيرة الحصى.

وزاد إنتاج الأرز بكثرة في الأراضي المنخفضة والطينية شمال الدلتا. وجرياً على العادات القديمة، كان المصريون يستخدمون التقنيات القديمة في تشذيب الأرز، فيغير محمد علي ذلك بمراجل بخارية قوية من أجل اقتصاد حساس. ويصل المحصول السنوي حوالي سنة ١٨٣٥ إلى مائة ألف أردب، ثم يتراجع فجأة إلى أقل من ثلاثين ألفاً نتيجة لتجنيد أعداد كبيرة يتطلبها احتلال البلاد التي غزاها، وبسبب الخوف من حركات معادية جديدة من قبل السلطان.

وتقيم خمسون أسرة من الدروز المختصين، سقائفهم[1] في وادي الطوميلات. ففي محافظة أسيوط وحدها، تزرع أزيد من عشرة ملايين شجرة توت. ويوظف بالتدريج خمسة آلاف حرفي سوري مختص في تربية الدود إلى درجة تجاوز معها إنتاج الحرير سنة ١٨٣٣ خمسة عشر طناً.

ويزرع القنب بنجاح كبير في مناطق واسعة بدءاً من سنة ١٨٢٧ بدافع من فرنسي ينحدر من مدينة غرونوبل. وفتح هذا المنسوج المجال لصناعة حبال البحرية الحربية. لكنه، وبطبيعة الحال، يستخدم أيضاً في صناعة مخدر نعرف جميعاً أنه كان محبوباً جداً ولفترة طويلة في الشرق وهو الحشيش.

وبفضل مناخه شبه الصحراوي، يصير الصعيد في مصر العليا المكان الأثير لقصب السكر، ويقوم قبطان إنجليزي سابق ويدعى بريسن، سنة ١٨١٥ بإنشاء مصفاة حديثة له قرب الملاوي.

---

(١) جمع سقيفة من قصب يربى فيها دود القز (المترجم).

وتصير شجرة النيلة والتي عرفت قديماً في البلد خاصة الفوّة التي أدخلها أحد القبارصة، موضوع استخدام كبير. وغذت محاصيل هذه النبتات الثمينة العديد من المصابغ. ويجلب محمد علي أيضاً حوالي أربعين أسرة مختصة في شجرة النيلة من. . . البنغال. وفي سنة ١٨٣٠ يصل الإنتاج السنوي إلى مائة وخمسة وعشرين طناً.

ويستمر الزعفران الهجين كموضوع لتجارة مهمة. وتمكن أوراقه المجففة من إنتاج الصباغة الحمراء، بينما تصلح حبوبه لغذاء الطيور.

ويغطي التبغ والخشخاش حقولاً كاملة في مصر العليا، ويصلح الخشخاش لاستخراج الأفيون، والذي يصل مردوده سنة ١٨٣٣ حوالي مليون فرنك.

وكان ابن كافالا يعلم، بحكم تجربته الشخصية، تجارة التبغ وفوائدها. ولأن التبغ البلدي كان بمستوى أدنى، فقد أرسل رجاله إلى تركيا والشرق لجلب أفضل الأصناف. ولتخزينها أنشأ في القاهرة مخازن كبيرة، واحتكر تجارتها. ولما كان هذا الاحتكار يحقق ازدهاراً، فقد اضطر إلى اعتماد حرية استيرادها لكن بضريبة جمارك مرتفعة.

وتطورت في الفيوم زراعة الورود التي تعد زراعة تقليدية في المنطقة، ويخرج منها ماء الورد. ويولي اهتماماً خاصاً بالحناء المستعملة من القديم الغابر في تزيين أصابع النساء والأحصنة.

وتمت أيضاً أقلمة العديد من النباتات الخاصة بالأعلاف مثل السنفوان وأصناف من البرسيم.

وأرسلت الحديقة النباتية في مونبوليي، والتي يديرها دليل العديد من بذور الخطمية والريحان والأرطماسية[1] والجرجير.

غير أن محاولات لأقلمة شجرة البن باءت بالفشل. ولم يبق أي أثر من تلك

---

(١) هيرباصي، تدوم طويلاً أو لمدة سنة فقط فقط، ويطلق عليها علمياً إسم أرتيميزيا، وهي بمكونات مثيرة.

التجارب غير المثمرة، إلا اسم حديقة كبيرة بمصر القديمة، وهو جنة البن والتي اختفت في أيامنا هذه.

ولم تستثن الأشجار المثمرة من كل هذه المحاولات. ولم يكن مصريو القرن الثامن عشر يعرفون غير النخيل. وفي بساتين الرشيد، والتي أطرى عليها شعرياً سافاري[1]، يمكن إيجاد خليط من شجر البرتقال والليمون والرمان والمشمش واللوز. وستتضاعف هذه الأشجار في كل مكان تقريباً عند بداية القرن التالي.

وينتج إبراهيم المولع بالفلاحة نبيذاً متوسط المستوى مستعيناً بدوالي من بوردو، وفي حديقته الكبيرة التابعة لمدرسته بالجيزة، حصل الكولونيل فاران على الهليون وعلى حمص جيد.

ومن بين أشجار الزينة، يمكن ذكر قرنية الدم المجلوبة من اليونان. واستخدمت العديد من الأنواع الضخمة في الشوارع الرئيسية للمدن مثل الطريق المؤدية إلى قصر شبرا في القاهرة لمد الناس بالظل.

وعلى غرار الجميز، ومثل عذراء المطرية والتي تأخذ أحجاماً كبيرة، زرعت السنطات (أشجار الميموزا) والسرو، وأشجار الحور وأشجار التمر الهندي في البلد، وخاصة على طول القنوات، إضافة إلى أنواع مختلفة من الأكاسيا. يشار فقط إلى أن محمد علي، وخلافاً لما اعتاده، أعفى كل أرض تنمو فيها هذه الأشجار، وتم إنشاء حدائق عامة، وبساتين على ضفاف المحمودية.

وفي سنة ١٨٣٣ قدر السان سيموني بارو بأن نائب الملك زود مصر بخمسة إلى ستة ملايين نبتة لها أصل غابوي.

هل يوجد من لاينحني أمام كل هذا العزم وإرادة التحديث هذه التي أبداها الباشا، ورغم القرف الذي يشعره نحوه كل من يكرهه؟

وعلى كل حال، سنرى أنها لم تكن إلا البداية.

---

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «رسائل حول مصر». ثلاثة مجلدات. باريس ١٧٩٨.

[14]
أكبر رأسمالي في العالم (١٨١٤ ـ ١٨٤٠)

هو ذا محمد علي إذن قد أصبح على جميع المستويات، التاجر الوحيد في مصر، ووالمالك الوحيد لكل دوله والمزارع الوحيد فيها. ولم يكتف فقط بتصدير المنتجات، بل أراد على العكس من ذلك، تحرير مصر من الرسوم التي يدفعها لأوروبا لشراء المواد المصنعة. فقرر إنشاء مصانع كبيرة بدنانير الدولة وبالتالي دنانيره، ويصير بصفة عامة مالكاً لهذه المصانع.

فمنذ سنة ١٨١٤ ينشر إعلاناً في مالطا يقترح فيه توظيف عمال من كل الأنواع. ويصادر في الوقت نفسه في القاهرة غالبية مهنيي المدن والمحافظات من أبناء البلد. وشرع يدخل في مرحلة الاحتكار الصناعي الذي جاء كنتيجة منطقية للاحتكار التجاري. وكل منتجات المحاصيل التي لايمكن بيعها في الخارج بثمن مناسب، يجب أن تستهلك محلياً. لكن بعض البضائع وخاصة المتعلقة بالنسيج تتطلب نوعاً من التحويل قبل أن توجه إلى الاستهلاك. وبطبيعة الحال، كانت المصلحة العامة تفرض أن تحول المواد الأولية في مصر عوض إرسالها إلى الخارج لتعود إلى وادي النيل كبضائع مصنعة.

وأعلن الباشا بأنه ليس على مصر أن تستغنى عن الصناعة الأجنبية فقط، بل وأن تغزو الأسواق الخارجية. ويبدو أن نائب الملك اتخذ القرار بإيحاء من بوختي القنصل العام للسويد. من أجل ذلك، يعين بوختي مديراً عاماً لمصانع الدولة.

ويولي محمد علي اهتماماً خاصاً بصناعة النسيج، والواضح أن نظام التصنيع طبق في سنة ١٨١٦ في حي الخورنفيش في القاهرة حيث كان حرفيون فلورنسيون يغزلون الحرير ليسلموه بعد ذلك إلى نسّاج محليين.

وشيئاً فشيئاً، أنشئت العديد من مصانع غزل القطن والكتان في القاهرة والمحافظات. واستخدمت ستة آلاف آلة. وكان أهمها على الإطلاق، معمل في بولاق أقامه جوميل، وعمل فيه على الأخص عمال مالطيون، ومن هنا اكتسب تسميته بمالطا. وأحضرت سنة ١٨١٧ ثلاث نساء من مرسيليا لغزل القطن، وسبعة عشر رجلاً من ليفورنو للحرير. وفي معمل مالطا لوحده، شغلت حوالي مائة آلة، بمعدل أربعة عشر مغزلا تتلقى حركتها من آلة ربطت بها ثمانية ثيران. وكان يصنع فيه الموسلين والباتيست. وللأسف، فالقوة التي كانت تحركها الآلة، كانت تمنح حركة غير منتظمة، وهو ما كان يسبب في تعرض العربات والمشابك للكسر الدائم. وأنشئ في حي السيدة زينب معمل لصناعة البراويز حيث كان يعمل به الأطفال بصفة خاصة، ويبلغ إنتاج الأقمشة الكتانية في سنة ١٨٣٢ مليون قطعة.

ويجلب محمد علي مختصاً في صناعة الجوخ من السودان، ويدعى ديكو وذلك لتعليم هذه الصناعة في البلد، غير أنه لم يحصل إلا على أقمشة رديئة بالكاد تصلح في زي الجنود. وحقق مصنع لصناعة الطرابيش في فواح عائدات مهمة نتيجة للاستهلاك المحلي لها. فأخذت تنافس بصورة جدية القبعات التونسية ذات السمعة الجيدة.

وخصصت مائة وعشرون طاحونة لاستخراج زيت الكتان والسمسم والقرطم. وأقام يوناني من إزمير في الرشيد مدبغة نموذجية استعمل إنتاجها في صناعة الأحذية وسقاطة الصوف. إلا أنه كان يتضح في الغالب افتقار هذه المنتجات إلى الجودة لأن الجلود المقدمة من قبل الفلاحين عادة ما كانت تكون مليئة بالطفيليات. وكان من الواجب إهمال أمر هذه المدبغة لتراجع الاستهلاك.

وكان الإنجليزي غالوي أول من استورد أولى الآلات البخارية. وأنشأ أيضا

في بولاق معملاً لصهر الحديد ومصنعاً للرقائق النحاسية بالقلعة حيث أقيم فيه أيضاً أماكن حدادة ومخارط للثقب أو نقش الخطوط، ومناشر ميكانيكية، ومعاصر، كما كانت تصنع فيه مراسي للبحرية الحربية.

وكان لكل معمل إدارته الخاصة ومخازنه. وكانت هناك أختام رسمية لمنع التزوير في الصناعة، وهو الذي يعني أن كل ما كان يخرج من المعامل كان ملكاً للباشا. وبعد أن كان محمد علي الفلاح الوحيد في دولته، أضحى رجل الصناعة الوحيد فيها أيضاً، وبالتالي أكبر رأسمالي في العالم من دون شك. غير أن النتائج المحصل عليها من الصناعة، ومع أنها غير قليلة، إلا أنها لم تكن لتقارن بما حصله من الفلاحة. والواقع أن العديد من المشاكل أخذت تنضاف يوماً بعد يوم لسوء التنظيم ولشراء النول الذي كان يكلف الحكومة مصاريف مهمة. ولما كانت مصر بلد الرمال، فقد كان يتسلل إلى الآلات، ويصيبها بسرعة، وهو ما كان يؤثر على عملها بشكل جيد. فكانت الحكومة مرغمة باستمرار على جلب آلات جديدة من أوروبا التي تتوقف عن العمل حتى قبل أن تعمل فعلاً للافتقار إلى عمال قادرين على صيانتها.

وكان هناك شكل آخر خطير يتمثل في عدم امتلاك مصر للمحروقات لأنها لاتتوفر على غابات أو فحم حجري. وهنا يمكن أن يفهم بسهولة كبيرة أن المعامل والمصانع التي أنشأها محمد علي لن تعرف أبداً ازدهاراً، مع بعض الاستثناءات القليلة، وأن غالبيتها ستختفي عندما ستكف إرادته القوية عن دعمها. ويلاحظ القبطان هودر، مرافق غويمينو سفير فرنسا في إسطانبول، منذ ربيع سنة ١٨٣٠ إغلاق العديد من معامل النسيج التي تحولت مقراتها إلى ثكنات. ويكتب الدكتور بورينغ بأن التجارب الصناعية لنائب الملك كلفته غالياً، ومع ذلك فقد فشلت. ويضيف بوكلر سنة ١٨٣٥ بأن أزيد من عشرة ملايين دولار بددت في هذه الخسارة المحققة، غير أنه وبغض النظر عن هذه النقائص، فقد مكن إنشاء هذه الصناعة الكبرى من إطعام الآلاف من الفقراء الذين كان عيشهم حتى ذلك الوقت مقتصراً على النمو الفلاحي فقط.

فاستغلال البلد من قبل شخص واحد له العيوب نفسها لكل الأنظمة التي تلغي الحرية الاقتصادية، وهي تجر الشقاء العام. ولما كان الشعب مضطراً منذ البداية إلى تحمل العبء المرهق لخدمة عسكرية دائمة، فقد بقي عارياً كما في الماضي. ووجد بعض التجار الكبار فقط، والذين كانوا غالباً ينتمون إلى قوى ثانوية سبيلهم إلى الاغتناء.

وعرف احتكار منتوجات السودان والجزيرة العربية النتيجة السيئة نفسها. وصارت تجارة الصمغ المصدر الرئيسي لكردفان، مستحيلة مثل العاج ومسحوق الذهب والجلود وريش النعام القادم من سنّار ودارفور، والبن والبخور الجيدين المجلوبين من اليمن والحبشة. ولم تسلم من كل هذا إلا تجارة العبيد السود التي ظلت تسلك طرقها البحرية، وخاصة في إفريقيا الوسطى. وهكذا أضحت السودان ولمدة طويلة علامة دالة على المتاجرين بالعبيد.

وكخلاصة يمكن القول بأن تجارة مصر الخارجية ستعرف نمواً مضطرداً بطريقة عجيبة. وإذا وصلت مصر في عهد المماليك إلى نسبة واحد من ثمانية بالنسبة لبلدان الشرق، في العلاقات التجارية مع أوروبا، فإنها ستبلغ ضعف هذه النسبة في سنة ١٨٣٤ . وكانت فرنسا شريكها المتميز. ويرسل تيدينا دي فون إلى دوق ريشليو مذكرة بهذا الخصوص في السابع من شهر كانون الثاني لسنة ١٨١٨ أن:

«مصر التي أريد جعلها دون حذر، مستعمرة فرنسية بقوة السلاح، تقدم سوقاً واسعة للمنتوجات الفرنسية. فقد جعلتها الطبيعة ملتقى آسيا وإفريقيا ويفتح لها السويس طريق الهند (. . .)

(. . .) وفتح الباشا الذي يحكم مصر بلقب نائب الملك مؤسسة تجارية بمرسيليا لحسابه، وعهد بإدارتها إلى السيد بازيل فارسالي. ولايرغب هذا المدير في شيء أكثر من رفع حجم المعاملات بين البلدين (. . .)

واستوردت كميات كبيرة من القمح والأرز وكل أصناف الخضر على يديه

إلى ميناء مرسيليا خلال سنة ١٨١٧، وأعاد إلى مصر الجوخ ومنتوجات حريرية، إضافة إلى العديد من المنتوجات المصنوعة في فرنسا.

وأبدى سمو نائب الملك في مصر نيته في مضاعفة العلاقات مع التجارة الفرنسية في موانئ مصر. وقدم برهاناً على ذلك خلال ظروف القحط التي عانت منها فرنسا بمسارعته إلى إرسال كمية كبيرة من القمح والأرز والخضر[1]... إلى مرسيليا».

وبطبيعة الحال، كانت مالية محمد علي ستستفيد من هذا النمو الفلاحي والتجاري، وعائدات خزينته أكثر بكثير مما كانت عليه قبله.

كانت هذه هي الخطوط العريضة للنظام الاقتصادي للباشا.

ويعود الفضل إليه في الدفعة القوية للإنتاج، وبصفة أساسية، إنتاج القطن وتأسيس صناعات ذات فائدة كبيرة وبنشاط غير ثابت، ولكن بعضها سيصمد أو سيعود إلى الظهور فيما بعد. وفي النهاية ارتفاع نسبة التبادل التجاري مع الخارج.

أما ال سلبي في ذلك، وهو أمر يصدق على كل أوروبا في ذلك الوقت، يمكن ملاحظة عدم إشراك الشعب العامل في التطور الاقتصادي الذي لم يحسن أبداً شروط حياته، بل إنه زادها سوءاً لدى البعض. وفي الوقت نفسه، يمكن الإشارة إلى تراجع الإنتاج وتدني جودة المنتوجات، وهو ما سيقلص من حجم الصادرات.

وكخلاصة لكل ما تقدم، فإن الباشا طبع إدارته بوحدة استبدادية، كانت ضرورة مؤقتة، لتحريك عجلة التجارة وتأسيس محيط صناعي، والذي لم يكن عليه أن يبقى بدءاً من اللحظة التي أخذ الميدان يعرف تحسناً ملحوظاً. غير أنه لو ملك محمد علي هذا القدر من الحكمة لكان من دون شك، سيشكل استثناء مطلقاً. ولكان سيكون أميراً طاهراً، وعبقرياً خالصاً.

---

(١) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

فلنتساءل إذن بطريقة مختلفة، كيف كانت ستتطور مصر لو استمر حكم المماليك والعثمانيين؟

[15]

الماء والطرق والسدود (١٨١٦ ـ ١٩٤٧)

يرتبط ازدهار الفلاحة عموماً بتحسين نظام الري، وهو الشرط الذي يجب أن يتوفر لتحقيق أي ازدهار فلاحي. وكان نابوليون قد لاحظ الوضع الخاص لمصر بهذا الشأن «وخصبت الأمطار المنتظمة سهول بيوص وبري، وهنا لاتعنى الإدارة بأي تدخل. إلا أنه وفي مصر، حيث نظام الري لايمكن إلا أن يكون اصطناعياً، يلزم أن تكون الإدارة كل شيء فيه. ولكن، وإذا ما كانت الإدارة سيئة ناقصة أو ضعيفة، تقفل القنوات بالوحل والسدود لايعنى بها بشكل جيد، وتعم المخالفات نظام الري، وتتعرض مبادؤه الأساسية إلى التجاوزات لتقديم المصالح الخاصة للأفراد أو لبعض الجهات[١]».

وبعد نابوليون، عمل كليبر ومينو على إصلاح وتنمية نظام القنوات الذي كان موجوداً في مصر منذ كل العهود القديمة. ويمضي محمد علي أبعد من ذلك، فيشكل حكمه نقطة بداية في تحديث أشغال جمع وتوزيع مياه النيل.

ويبقى هناك فرنسيان قرنا هذا العمل الجبار، وهما أوجين موجيل[٢] ولويس

---

(١) «حملات مصر وسورية» (أمليت على برتران). مجلدان. باريس ١٨٤٧.

(٢) ولد في السابع عشر من شهر تشرين الثاني في مقاطعة الفوسج، في شاتيل سير موزيل. أبدى منذ طفولته مواهب في الرياضيات جعلت معلميه يوجهونه إلى امتهان الهندسة. كان طالباً في معهد الهندسة، ثم في معهد القناطر والطرقات، وما إن تخرج حتى تميز في أشغال ميناء فيكومب.

موريس أدولف لينون دو بيلفون، المنحدر من لوريون، وكان برتبة ضابط صف في البحرية منذ وصوله إلى مصر سنة ١٨١٨ كرسام في بعثة الكونت دو فوربان. ولما أحب البلد بقي فيه. وبتوجيه من الجمعية الإفريقية[١] زار كل وادي النيل من البحر الأبيض المتوسط إلى السودان الشرقي، مكتشفاً صحراء سيناء، وصحراء الجزيرة العربية مع ليون دو لابورد، ويصل حتى موقع البتراء ست عشرة سنة بعد غزو الرحالة السويسري بوركارد له.

وبمبادرة شخصية منه، أعاد الحسابات التي قام بها سنة ١٧٩٩ الأب إيني المهندس الأول للجنة العلمية لجيش الشرق. ويشك في النتائج المغلوطة. وبالفعل فعمل الأب المنشور سنة ١٨٠٨ خلص، ونتيجة لخطأ في التثليث إلى فرق في المستوى بحوالي عشرة أمتار بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، مما يجعل من المستحيل فتح طريق تربط بين البحرين. ويصحح لينون الخطأ، ويؤكد أنه من الممكن شق قناة بحرية مباشرة من السويس إلى بيلوز (قريباً من مدينة بور سعيد الحالية)، دون خطر إغراق الدلتا. ويبقى بدون شك المنسي الكبير لمشروع قناة السويس العجيب.

ويذكر بيلفون لانستطيع الامتناع عن إقامة علاقة متوازية بينه وبين أمريكو فيبوشي وكريستوف كولومب. وعلى الرغم من أن الثاني هو من اكتشف الأمريكيتين، فسيمنح اسم الأول للعالم الجديد. وللتاريخ أحياناً فترات نسيان غريبة...

وبتحريض من الباشا، أخذ في تشغيل القنوات الموجودة. ثم شرع في شق قنوات جديدة، وذلك بتحسين الوسائل التي يتوفر عليها الفلاح حتى ذلك الحين، من أجل رفع مياه النيل حتى ضفاف النهر. وهكذا تم جلب حوالي ثمانية وثلاثين ألف آلة رافعة إلى مصر. وبفضل الأعمال المتصورة تبعاً لمخطط

---

(١) جمعية علمية إنجليزية قدمت مساعدات لمختلف مستكشفي القارة السمراء مثل مونغو بارك وهورنيمان وبوركهارد.

منهجي، يعوض نظام الري بواسطة قنوات السقي تدريجياً نظام الري السابق عن طريق أحواض في مصر العليا ومصر السفلى.

وكما كتب لينون بنفسه في مقدمة كتابه[١] «قبل وصول الجيش الفرنسي بقيادة بونابارت، كانت كل قرية تدار بواسطة مساعد للباي حاكم المحافظة، تقوم بما يلائمها من أعمال فيما يتعلق بالسدود والقنوات وقنوات التصفية لسقي الأرض المتواجدة بها دون أن تحمل هم «القرى المجاورة» ومن هنا كانت تنشأ خلافات لانهاية لها تؤدي في غالب الأحيان إلى صراعات دموية.

ويضع محمد علي حداً لهذه الفوضى. فيأمر حوالي سنة ١٨١٦ بتشييد مئات السدود من أجل احتواء النيل ومنع مياهه من التدفق في فترة الفيضانات. ومكن مصر ما بين سنتي ١٨١٦ و١٨٣٢ من أزيد من ثمانين ميلاً من القنوات وهي نتيجة مهمة ما كانت لتتحقق من دون شك لولا نظام السخرة. فتحت إشراف مهندسين وعمال أقل رتبة عينتهم الحكومة، كان هؤلاء الحفارون المرتجلون مزودين بالفول والبصل والفطائر والذرة يعملون حتى الغروب، مجهزين بالأدوات البدائية نفسها التي كانوا يعملون بها في الحقول. وكان الأكثر بؤساً منهم يستعمل يديه في رمي التراب. ويمكن تخيل درجة التعب والإجهاد إذا ما علمنا أنه تم خلال سنة واحدة، وبالاعتماد على وسائل بئيسة من إزالة أزيد من خمسين مليون متر مكعب من التراب المنقول[٢]، ويقسم بعد ذلك الممر الطويل والذي لايتجاوز عرضه عشرة كيلومترات التي تشكل وادي النيل في مصر العليا في أحواض كبيرة تصل مساحة كل منها ما بين ثمانية عشر إلى عشرين ألف هكتار توصل بقنوات أو سدود.

وعدت قناة المحمودية[٣] من بين أهم الأعمال المنجزة في هذا الصدد.

---

(١) بيلفون. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سمي هكذا تكريماً للسلطان.

وكانت طريق الماء القديمة التي تربط بين النيل والإسكندرية تحت حكم الباب العالي شبه جافة، بحيث أنه في نهاية القرن السابع عشر لم يكن يمر إلا خيط ماء بالكاد يكفي لاستهلاك المدينة. وكان لزاماً التصدي للنقص الناجم عن ارتفاع سكان الاسكندرية وبروز الإحساس بالحاجة إلى الماء.

وقد دفعت ثلاثة أسباب نائب الملك إلى شق قناة المحمودية.

فكان السبب الأول اقتصادياً، إذ أنه وبفضل هذه القناة يمكن تزويد الإسكندرية بالماء والسماح للمدينة بالتطور وذلك بإنشاء طريق مضمونة لنقل البضائع المعدة للتصدير وخاصة القمح.

أما السبب الثاني، فيمكن اعتباره «عاطفياً». إذ أنه ومنذ وصوله إلى مصر، وخاصة منذ فشل الإنزال الإنجليزي سنة ١٨٠٧، والذي مكنه من وضع يده على الميناء، أخذ محمد علي يفكر في رفع المدينة القديمة إلى مستوى الميناء الدولي، وبالتالي من الضروري مدها في كل الفصول بالماء الصالح للشرب، ويضمن في الوقت نفسه طريق للاتصال السريع مع العاصمة.

في حين أن السبب الثالث كان عسكرياً حيث أن «جزء الميناء الخاص بالمراكب الموجود في الطرف الغربي لن ينتهي إلا بعد سنة أو سنتين. وهكذا ستشكل القناة دفاعاً جديداً عن الإسكندرية إلى جانب البر. وكان محمد علي بلاشك يملك هذه الرؤية دون إغفال سهولة نقل البضائع دون مجازفة وبكلفة أقل. غير أن الدافع السري لكل هذه الأعمال الكثيرة، هو تحويل مياه النيل لجعل فتحة الرشيد صعبة الاجتياز، وغلقها أمام أسيطيل القبطان باشا الذي ظن أنه مهدد منذ ثلاث سنوات. ولم يكن حاجز مدخل دمياط يسهل المرور عبره. وهكذا لايمكن الوصول إلى الإسكندرية بحراً إلا تحت نيران المدافع[1]».

وتبدأ الأشغال حوالي شهر تموز من سنة ١٨١٧، ومرة أخرى تم اللجوء إلى السخرة.

---

(١) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

ويذكر لينون رقم ثلاثمائة وستين ألف رجل الذي قد يكون بالغ فيه.

ويعهد بالمشروع إلى الحاج حسن، وهو مهندس تركي أهمل كل الدراسات السابقة، وينجز التخطيط المنعرج بشكل غير عادي دون تحضير، حيث سيحضر شيوخ القرى مرفوقين بالرجال الذين قدموا معهم ويشرعون في الحفر كيفما اتفق. وسيضطرون بعد ذلك إلى إنشاء زوايا لوصل كل تلك القطع المحفورة بالصدفة فيما بينها، واللجوء إلى منحنيات غير معقولة، وهو ما سيجعل القناة كتتابع لشرائط غير منسجمة.

ويضطر محمد علي في بداية سنة ١٨١٩ إلى نقل إدارة المشاريع إلى المهندس باسكال كوسط بعدما اتضح عجز المدعو الحاج حسن.

وكان كوسط ابن نجار، ولد في مدينة مرسيليا في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٧٨٧، وبعد أن تابع دروس أحد تلامذة ليدو القدامى، عين كرسام في سنة ١٨٠٤ لدى مهندس المدينة السيد بونشو الذي أرسله بتوصية إلى مدرسة الفنون الجميلة بباريس سنة ١٨١٤ في قسم الهندسة، حيث سيلفت نظر جوماد، فيقوم هذا الأخير بإرساله إلى محمد علي في مهمة. وسيبقى في مصر من سنة ١٨١٧ وحتى سنة ١٨٢٧. وما إن يصل حتى يشرع في وضع المخططات. فبنى أول معمل للبارود عن طريق التبخر الذي خطط له بافي. وأدت كفاءته في كل ما يتعلق بالمباني المائية إلى تعيينه في شق القناة بالزقازيق. وطلب من محمد علي بهذا الشأن، أن يمده خلال ستين يوماً بثلاثين ألف فلاح، فيرد عليه نائب الملك بضرورة تقصير هذه المدة قائلاً «سأعطيك ستين ألفاً أو حتى ثمانين ألفاً[1]». ويمكن ملاحظة ضيق صدر الباشا هنا مجدداً.

وبفضل كوسط أيضاً، تم تشييد تسعة عشر برجاً تلغرافياً في سنتي ١٨٢١ و١٨٢٢ بين القلعة والقاهرة والإسكندرية.

---

(١) كوسط. (مصدر ذكر سابقاً).

ويبدو أن محمد علي كان يعاني من أزمات ربو دفعت كلو إلى أن ينصحه بحمامات بحر، فيطلب منه أن يبني له جناحاً مع إدارته على ضفاف الميناء القديم بالإسكندرية، والذي انتهى منه سنة ١٨٢١. وأثناء ذلك، جدد ابن مرسيليا حدائق قصر شبرا، وبنى إقامة لبوغوص باي إضافة إلى فيلا لقنصل إنجلترا.

بالمقابل، لم تر العديد من مشاريعه النور لنقص الإمكانيات، وخاصة عند اندلاع حرب موريي[1]، والتي أخذت تلتهم كل مالية الدولة، غير أن الأبحاث التي قام بها طيلة مدة إقامته بمصر مكنته من القيام بعمل جعله يلقى احترام كل المجتمع العلمي[2].

وعند شروعه في تنفيذ مشروعي بناء مسجدين في كل من القاهرة والإسكندرية، حصل المسيحي جداً من نائب الملك على الإذن بدراسة كل مساجد العاصمة لكن مع نصيحة من الباشا مفادها أن «لاتذهب إلى مسجد الأزهر حيث يوجد العديد من الطلاب المستعدين دوماً للاحتجاج على وجود (كافر)». إلا أن كوسط تجاوز هذه النصيحة، فحضي باستقبال جيد جداً من قبل شيخ الأزهر. ويلزم أن يشار هنا إلى أن كوسط كان يعرج، ومن الممكن أن يكون هذا العرج، وهو علامة على الهشاشة وسهولة العطب، منحه تعاطف وشفقة الشيوخ الذين تركوه يدخل بكل حرية إلى المحاريب.

ويعود أول مرة إلى باريس سنة ١٨٢٣، ويعين مفتشاً لأشغال إدارة بوش دي غون. ويقصد مرسيليا للقيام بهذه المهام بيد أنه سرعان ما يعود إلى القاهرة، مجيباً طلبات محمد علي الملحة حيث سيطلب منه الملك تشييد قصر قرب إقامته بشبرا. وهو القصر الذي لم يشيد أبداً.

---

(١) الإسم القديم لبيلوبونيز منذ القرون الوسطى. (موروس، شجرة التين).

(٢) كان كتابه «الهندسة المعمارية العربية أو آثار القاهرة ١٨٣٧» من بين أجود المقالات التي تناولت الموضوع عينه.

وفي شهر أيلول من سنة ١٨٢٧ يلدغه عقرب كان يحتفظ به في زجاجة سلمها فيما بعد إلى متحف التاريخ الطبيعي. فتتم معالجته من طرف الدكتور ديساب وهو أحد أعضاء البعثة المصرية القدامى، ثم بواسطة الدكتور كلو الذي ينصحه بالعودة إلى فرنسا، فيفعل إذ سيغادر على متن لالسيست. ويوزع وقته بين مهنته في التدريس في مدرسة الفنون الجميلة في مرسيليا، وأسفاره التي ستقوده حتى بلاد فارس حيث سيحصل منها على العديد من الذكريات، قبل أن يتوفى سنة ١٨٧٩ عن عمر يكاد يبلغ المائة سنة.

عندما كلف كوسط بالمحمودية، يقدم أفضل ما لديه لتصحيح الأخطاء، غير أن الأمر كان سيئاً للغاية، إذ وعند نهاية العمل بدا أنه ناقصا لعدم وجود منحدر، وبالتالي صبيب كاف. وسرعان ما تزحف المياه البحرية على المياه الحلوة. ويحاول فرنسي آخر ويدعى هيو وهو مرتبط ببعثة الكونت دو فوربان، أن يجعل مياه القناة تصل إلى خزانات الإسكندرية عن طريق مجرى يمر على قناطر مرتفعة، غير أنه لم يصب إلا نصف النجاح، فالمياه المحصل عليها كانت مالحة.

وانتهت الأشغال بالمحمودية في شهر كانون الأول من سنة ١٨٢٠، وتم تدشينها رسمياً في شهر شباط من سنة ١٨٢١، دون أن يكلف إلا ثلاثين ألف بورصة، وهي تكلفة منخفضة مقارنة بأهمية العمل، وهو ما يمكن إرجاعه إلى نظام السخرة حيث أدى حوالي ثمانين ألف فلاح ثمن هذا المشروع من حيواتهم التي أزهقها الإرهاق والحمى الناتجة عن مستنقعات غير صحية[1]!

وبدءاً من سنة ١٨٣٤، شكل مجلس عهدت رئاسته إلى لينون الذي رقي إلى

---

(١) كادالفين وبروفيري في (مصدر ذكر سابقاً). ومارسيليس في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «ذكريات عن الشرق» مجلدان. باريس ١٨٣٩. قدروا عدد الفلاحين الموتى بسبعة آلاف، إلا أن مسافرين آخرين ذكروا أعداداً أكثر ارتفاعاً حيث ذكر جوزيف ميشو اثني عشر ألفاً، وسكوبلشر في المصدر الذي ذكر سابقاً ثمانية عشر ألفاً، وأمبير في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «رحلة في مصر ونوبة». باريس ١٨٦٨، ثلاثين ألف فلاح.

منصب مهندس أول لمصر كلها. وتم إنشاء إدارة الأشغال العمومية في السنة الموالية التابعة للتعليم العام، وأنيطت مهمة الإشراف عليها إلى مختار باي. ومنذ ذلك الحين، أضحت المشاريع تابعة لهذه الإدارة.

وعدا الأعمال التي يقتضيها السقي، قام محمد علي بالعديد من التحسينات، ذلك أنه أقفل السد الذي كان يفصل بين بحيرتي المهدية ومريوط قرب الإسكندرية وهو السد الذي كسره الإنجليز سنة ١٨٠٢ من أجل عزل مينو في الساحة وحرمانه من الماء الصالح للشرب. فأعيدت مئات الهيكتارات بفضل هذا العمل إلى الفلاحة. وأمر الباشا أيضاً بإغلاق قناة الفرعونية كوصل طبيعي بين ذراعي النيل والذي يمر من مدينة منوف. فخلال مرحلة هبوط منسوب مياه النهر، كان هذا التحويل يمكن من رفع كمية كبيرة من المياه عن فرع دمياط وهو ما كان يضر بمزارع الأرز الواقعة بين المنصورة والبحر[١]. أما جسر اللاهون الذي يعزى عادة إلى صلاح الدين، فكان على وشك الإنهيار.

وشرع في الفترة نفسها، ودوماً بتوجيه من لينون دوبيلفون، في دراسة إقامة سد كبير في رأس الدلتا. وهذه الفكرة لنابوليون مثل فكرة إنشاء قناة السويس «سيأتي يوم حيث يشرع في إنشاء سدود كحواجز بين دمياط والرشيد في «قلب البقرة»، وهو ما سيمكن من الاستعانة مع حواجز من مرور كل مياه النيل في مجرى أو آخر، وبالتالي مضاعفة كمية الفيضان».

وفكر محمد علي في البداية بوضع سد واحد للنيل، مقتصراً فقط على فرع الرشيد، إلا أن لينون أوضح له سلبيات ومخاطر سد وحيد، وأقنعه بفائدة إنشاء سدين واحد في كل فرع من النهر واللذين يتم التحكم في فتحهما وإغلاقهما، وبالتالي السماح بمرور كمية أكثر أو أقل من المياه من الجانبين. ولما أعجب نائب الملك بالفكرة منح كل الصلاحيات لإنجاز هذا المشروع للينون.

---

(١) لفت هذا الوضع انتباه بونابارت الذي أمر بإغلاق القناة بعد بحث قام به مهندسو الجسور والطرقات.

وأوقف أول مخطط لإنشاء سد من طرف لجنة ضمت إلى جوار لينون المدير العام للأشغال العمومية، و «الأب» أنفانتان إضافة إلى بعض المهندسين المختارين من تابعيه من مهندسي المناجم لومبير وفورنيل، والقبطانين هوار وبرينو، وحيث كان يتواجد بها أيضاً الإنجليزيان غالوي ووالس. وكان المكان الذي تم اختياره لإنشاء المشروع بالتحديد المكان الذي فكرفيه نابوليون من قبل والذي أسماه «بطن البقرة» أي القمة التي ترسمها فروع الرشيد ودمياط عند نشوئها المشترك. وفي الثاني عشر من شهر أيار لسنة ١٨٣٤ تم تدشين الورش. وكان السان سيمونيون المتواجدون في هذا اليوم قد احتفلوا في الوقت نفسه بإحياء ذكرى نابوليون و. . . صعود العذراء. وأفرغ مخزن الشراب من حوالي ست عشرة زجاجة شمبانيا، وخمس عشرة زجاجة بورغونيون، وعشر زجاجات من نبيذ بروفانس، وعشر أخريات من النبيذ العادي[١].

وكان هناك الآلاف من الحفارين، حوالي أربعين ألفاً بحسب أنفانتان أجبروا على السخرة. والذي لايصدق في ذلك كله أنه لم يهيء شيء لاستقبالهم. فلامساكن، ولاأدوات، ولاطعام. وكان يلزم بناء كل شيء من مستودعات ومستشفى وإدارة صحية إلخ. . . حتى إن لينون اعترف شخصياً بتحويل مراكب محملة بالقمح كانت تعبر النيل، كما تمت مصادرة مطاحن قرى مجاورة إضافة إلى الأفران. ويقول موضحاً يريدون في مصر أن يتحقق شيء هكذا بمجرد أن يقرروا ذلك. وينبغي أن ينفذ مهما كلف الأمر. وكل الوسائل جيدة مادام العمل يمضي بسرعة. ولم يكن الهدف أن يكون العمل المنجز متقناً ومقاوماً للسنين، بل ينبغي الاستمتاع به بأسرع ما يمكن، ويضحى بكل شيء في سبيل ذلك».

ودفعت قلة صبر محمد علي، وهي من صفاته التي تدعو إلى الأسف، أن يقترح على لينون أمراً أقل ما يمكن أن يوصف به أنه مخرف. ذلك انه اقترح عليه تدمير أهرامات الجيزة من أجل استعمال الحجارة لفائدة السدود! حتى إن

---

(١) كاري. (مصدر ذكر سابقاً).

لجنة للأشغال العمومية توجهت إلى المكان لدراسة المشروع[1]. ويجد لينون الذي كان معارضاً بشكل قطعي لهذا الأمر غير أنه لم يرغب في مواجهة سيده علناً، مخرجاً. فيقدم لمحمد علي بكل صبر وصرامة مثالية تقديراً للمصاريف جاء فيه أن الأشغال التحضيرية وحدها ستكلف أزيد من خمسة عشر مليون قرش مصري. وأمام ضخامة هذا المبلغ، يتبنى نائب الملك الحل الأكثر حكمة والأقل ضرراً بالآثار والذي لم يتخيله لينون وهو اللجوء إلى المقالع العادية.

وسرعان ما أدت الصراعات الناجمة عن الاعتراض الشخصي لرئيس السان سيمونيين على طريقة إدارة الورش في شهر أيار من سنة ١٨٣٤، وسوء أخلاق أتباعه، وفرار الفلاحين بأعداد كبيرة، إلى عرقلة سير الأشغال. ويأتي انتشار وباء الطاعون في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٣٥ لينضاف إلى كل هذه المصاعب، بحيث يزهق روح أزيد من خمسة وثلاثين ألف شخص في القاهرة وحدها. فيعلق كل شيء في شهر أيار من سنة ١٨٣٥. ويحاول لينون استئناف الأشغال في سنة ١٨٣٧ عقب مغادرة أنفانتان وأغلب رفاقه لكن وكما كتب شخصياً «لم تعد تقدم الموارد، ولم يعد بإمكاني القيام باي شيء في السدود».

وكان يلزم انتظار سنة ١٨٤٢ لاستئناف تنفيذ المشروع والمضي بقوة فيه من طرف مهندس فرنسي يدعى ديودوني أوجين موجيل والذي كان مكلفاً بأشغال الحوض في الإسكندرية. ولما رأى لينون أن محمد علي عهد إلى هذا الأخير بهذا المشروع القديم أحس ببعض الغبن، غير أنه لم يترك شيئاً من ذلك يظهر، وهكذا سيعلق بطريقة فلسفية «اقترح السيد موجيل نظاماً آخر للتنفيذ، وإلا فلمَ لم يطلب مني استئناف الأشغال التي بدأتها؟»

ومهما تكن موهبة فوجيل، فمن المحتمل أنه ما كان ليحقق شيئاً قبل مدة

---

(١) تؤكد مراسلات أنفانتان أنه تمت بالفعل في هذا التاريخ إثارة مسألة استخدامه كمقلع لبناء سد، ولم يكن الأمر يتعلق بالهرم الكبير ولكن بهرم من دون تحديده. ولم يتردد «الأب» في قبول الفكرة. ولما كان من كبار المصلحين الاجتماعيين، فلم يكن ليهتم بمخلفات الأزمنة الماضية. أنظر «عقارات السان سيمونيين من مكتبة الأرسنال».

طويلة لولا ملاحظات سابقه. ويكتب القصر في شخص أرتين باي في الثاني عشر من شهر حزيران لسنة ١٨٤٢ إلى لينون:

كلف السيد فوجيل مدير الأشغال في حوض الإسكندرية من قبل نائب الملك لتهيئة مشروع سدود النيل على قواعد جديدة وبالاعتماد على مبادئ استحقت استحسان سموه. وعندما توجه السيد فوجيل إلى هذه الأماكن حيث يتعين عليه دراسة طرق التنفيذ، طلب مساعدة تجربتكم مؤسساً طلبه بأمر من نائب الملك، على دراساتكم الطويلة والجادة حول نظام النيل ونظام القنوات بمصر السفلى. وأخذ سموه في الاعتبار ملاحظات السيد فوجيل وأعطاني الأمر لدعوتكم إلى التواصل مع هذا المهندس لإحاطته علماً بالوثائق التي اضطررتم إلى جمعها أثناء اشتغالكم السابق على هذا الموضوع والذي يهمه الآن. ويعلق سموه أهمية كبيرة على أن يحاط السيد فوجيل بكل الإيضاءات التي يمكن أن تمنحها له الإدارة، وينتظر منكم سيدي، أن تنيروه بخبرتكم ومعلوماتكم المفيدة، وبالتالي أن تساهموا من جانبكم في تحقيق مشروع يهم رخاء البلد، وهذا يتطلب مساهمة كل الموظفين الذين يسعد نائب الملك الاعتماد عليهم.

السكرتير الأول وترجمان نائب الملك

إمضاء: أرتين باي

من جانبه، بعث له فوجيل بالرسالة التالية: «أعتمد على كرم أخلاقكم ونزاهتكم لمنحي كل المعلومات الهيدروغرافية التي تتوفر بين يديكم. وقد كتبت إلى سموه بهذا الشأن، أخبره بأنه من العدل بمقدار ما هو مناسب أن أجعل منكم جزءاً من إنشاء السد ما دمتم صاحب مشروع يستحق التنفيذ.

وطلبت من سموه أن أتصل بكم لأحصل على الوثائق التي سأحتاجها، والتي هي قيد معرفتكم». ولما كان لينون لاعباً جيداً فقد رضخ للأمر دون تردد.

ومنذ ذلك الحين، عدل فوجيل المشروع الأصلي، وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٤٣ يقدم نتائجه الخاصة إلى لجنة السدود والطرق. وبخلاف لينون

الذي كان يتصور جسرين متفرقين واحد لكل فرع، يبعد كل منهما عن الآخر بستة كيلومترات، كان فوجيل يتصور سداً واحداً لذراعي النهر. إضافة إلى ذلك، كان مخططه يشمل العديد من التحصينات التي أغرى طابعها العسكري نائب الملك. أما عيبه الأساسي، فهو أن مشروعه كان يستند على أرض أقل ثباتاً من أرض السدين اللذين تصورهما لينون والواقعين بعيداً عن سرير النيل.

وجاء تقرير اللجنة مختصراً مثل صاقلي الأحجار الكريمة «لم تسبق دراسات كافية مشروع السد. (وهو) لايحقق الأهداف المقترحة. (وهو) ليس ضرورياً لإنتاج فائدة كبيرة في الفلاحة، أن ترفع المياه من خمسة أمتار إلى ستة أمتار. يتعين دراسة الموضوع مجدداً».

وعلى الرغم من كل هذا، وبغض النظر عن هذا التقرير، يضع محمد علي سنة ١٨٤٧ خلال احتفال متجذر في التقليد المصري حيث استهلك فيه خمسون جاموساً، وجندت له ثلاثمائة طباخ، شخصياً حجر الأساس، ويضرب الميدالية التذكارية والتي تحدثنا عليها في بداية الكتاب.

وعلى الرغم من موقف لينون المتميز في هذه القضية، والذي لم يكن مشروعه على الأرجح، ليس أسوأ ولا أفضل من مشروع زميله، إلا أنه حرص على توضيح ذلك في دفتره مدعماً بالصور. فمن بين مزايا أخرى عديدة، لم يكلف سده الذي أقيم في الثلاثينات إلا واحداً وعشرين مليون فرنك، بينما وبعد عشرين سنة من ذلك كلف سد فوجيل غير المنتهي سبعاً وأربعين مليون فرنك. والواقع أن الأشغال المتقطعة لأكثر من مرة نتيجة لنقص الاعتمادات، لم تتقدم أبداً حتى نهاية فترة حكم محمد علي، بل وكما يشرح سيبيون ماران «يجب اتهام، وبصفة خاصة، تراخي الإدارة المستعصي والذي لايرجى منه شفاء، والذي أعاق في الشرق بصفة قطعية إنجاز مشاريع جميلة».

وعند وفاة محمد علي سنة ١٨٤٩، يقيل حفيده عباس وخليفته، موجيل متهماً إياه بانعدام الكفاءة، ويعهد بمهمة إنهاء العمل إلى مظهر أفندي وهو طالب سابق في البعثة الدراسية بباريس. ويدفع التقرير الذي عرض بهذه

المناسبة إلى التفكير مرة أخرى، بأن تحفظات لينون لم تكن خالية من الصحة. ويلاحظ من بين عيوب أخرى، أن التوسع الأكبر في جزء من السد يبرز بعض التشققات. أما الدعامة[1] والتي أعدت أساساً لمنع أي تسربات جوفية كانت غير صالحة. ويرجع لينون هذه العيوب إلى عدم كفاءة العمال أكثر منها إلى فوجيل، وإلى ضيق صدر محمد علي نفسه[2].

ولما كان نائب الملك مشغولاً بهموم أكبر، فإنه لم يملك الوقت للاهتمام بالأشغال الحضرية. ومع ذلك فإن تدفق الأجانب على مصر، وتشييد أحياء جديدة، جعلت من الإسكندرية مدينة نصف أوروبية لاتشبه في شيء الضاحية البئيسة التي كانت قائمة وسط أنقاض المقبرة الكبيرة التي عرفها جيش بونابارت.

«فتح الباشا طرقاً سالكة وواسعة. وكان الحي الإفرنجي الأجمل في المدينة، والمحلات الأوروبية كثيرة، والمسيحي يجاور المسلم، وفي وسع الأجنبي أن يتدبر أمره دون أن يكون يتحدث مائة كلمة عربية. ويجد نفسه يُخدم في الفنادق الأنيقة باللغتين الفرنسية والإنجليزية. وتدين الإسكندرية لمحمد علي بحياة جديدة. وتضاعفت مساحتها المأهولة ثلاث مرات عما كانت عليه سنة ١٧٩٨. وأضحت ضواحيها المقفرة التي كان يغامَر بسلكها فيما سبق للبحث عن القطع الأثرية دون ألا يقابل ضبعاً أو ابن آوى، مغطاة بحدائق بظلال كثيرة، وبفيلات فخمة وبأحياء جميلة[3]».

---

(١) دعامة تغطي أرض القناة، والتي تعمل كأساس وتحميها من التسربات الجوفية.

(٢) لما أثيرت سنة ١٨٨٢ مسألة إصلاح السد، أعاد الكولونيل سكوت مونكرييف الذي كان يشغل منصب مساعد كاتب الدولة، استدعاء موجيل الذي عاد إلى مصر لأن ابنه كان يعمل كأستاذ بها. وعلى الرغم من تقدمه في السن إذ كان يبلغ وقتها خمساً وسبعين سنة، فقد قبل الاقتراح الإنجليزي، وعين مهندساً مستشاراً للسد. وتقدمت أعمال الإصلاح بوتيرة مرتفعة. ومنذ سنة ١٨٩٠، كانت الأشغال شبه منتهية، وكان بإمكان موجيل أن يرحل عن هذا العالم في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها راضياً من دون شك تمام الرضى، من أنه أدى واجبه بشكل كامل.

(٣) شي. (مصدر ذكر سابقاً).

أما القاهرة، فكان عليها، ونتيجة لاتساعها وكثافة سكانها أن تنتظر نهاية القرن التاسع عشر لتعرف التجديدات نفسها. وكانت العاصمة سنة ١٨٤٧ في الحالة نفسها التي وجدها عليها محمد علي قبل قرابة نصف قرن من ذلك «كانت القليل من الأزقة واسعة لتمر منها عربة، وغالبيتها ضيقة جداً بحيث يمكن فهم إقدام الفرنسيين على قذف المدينة بالقنابل في الثورة الكبيرة عوض التقدم فيها سيراً على الأقدام كما حدث في سرقسطة. وكان سكانها متمركزين بكثرة في العديد من الأحياء. ومن الصعب أن يتحرك الناس في أسواقها، بسبب الزحام وضيق أزقتها[١]».

ومع ذلك، فقد أصابها التحول فيما يتعلق ببركة الأزبكية[٢]. فعندما وصلت الحملة الفرنسية إليها، كانت مساحة الأرض توازي أربعين فداناً أي ما يعادل سبعة عشر هكتار. وكانت تسقى بماء الفيضانات، وتزرع مثل كافة حقول مصر. وعندما تحل الفيضانات، وخاصة عند الغروب، يكتسي المكان سحراً عجيباً، إذ يمكن رؤية المراكب المضاءة بأنوار الشاطئ. وكانت توجد بها مقاه غنائية تحييها العوالم، ويصنعن بهجة جنود جيش الشرق. غيرأنه وابتداءً من سنة ١٨٠٧ ستختفي كل هذه المباهج تقريباً إذ لم تعد الحفلات في الأزبكية كما كانت في السابق، ولم تعد المراكب تمضي هناك جيئة وذهاباً. ويصف سائح يدعى فالنتيا المكان «كأنه أرض واسعة مغطاة بالبذور حيث نزعت أغلبية الأشجار التي زرعها الفرنسيون[٣]».

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) نحن إزاء فرضيتين حول أصل الكلمة. فالأولى تجعلنا نعتقد بأن اسم المكان يعود إلى الثكنات التي استقر بها الجنود الأزبك. أما الثانية، وهي الأقرب إلى الصحة، فتقترح علينا اسم جنرال عربي يدعى أزبك، والذي حفر في منتصف القرن الخامس عشر قناة صغيرة على مستوى ارتفاع جسر الليمون، لجلب الماء إلى المنخفض الممتد من ساحة باب الحديد وحتى ساحة إبراهيم باشا، ومن فندق فيكتوريا إلى العتبة الخضراء. ويروى أن أزبك اشترى جزءاً من الأرض التي يمتد عليها الحي الذي أخذ اسمه منذ ذلك الحين ليربي عليها جماله.

(٣) فالنتيا، في كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «رحلات وأسفار إلى الهند، وسيلان والبحر الأحمر،=

ويقرر الباشا سنة ١٨٣٧ أن يحول المكان إلى حديقة واسعة، فيأمر مورتان باي وزير الأشغال العمومية وطالب البعثة المصرية في فرنسا، بأن يقترح مخططاً في هذا الاتجاه. وما إن يقدم المشروع إلى نائب الملك حتى يصادق عليه. وهكذا ترسم ثلاثة شرايين، وتحفر في محيطها قناة بحوالي عشرة أمتار في العرض تحف جنباتها الأشجار والأزهار.

ومن سوء الحظ أن الأشياء تتدهور بسرعة، فلما كانت القناة جافة عند انتهاء الفيضان، يقرر سكان الساحة وخاصة ثلاثة أو أربعة قناصل بإقامة إسطبلات وضعوا فيها خيولهم، غير أنه وما إن عاد الفيضان حتى وجدوا أنفسهم مجبرين على الانسحاب. وهكذا، بدؤوا يدعون أن القناة تسبب أنواعاً من الحمى، وتتم المطالبة بأن تغطى القناة. ويجهل لماذا رضخت الحكومة لهذا الأمر؟ لتفقد الأزبكية واحدة من أجمل زيناتها.

وما إن ردمت القناة حتى قل الماء الذي كان ضرورياً على الأقل لسقي الملكيات المجاورة والتي ألفت نفسها بين عشية وضحاها محرومة من السقي. وكان السيد موراي، القنصل العام لإنجلترا والذي يملك بيتاً في الساحة، أول من قدم احتجاجاته. وعلى الفور، يبنى على محور القناة الموؤودة مجرى مكشوف بالحجارة يصل عرضه متراً واحداً، وهي عملية كارثية، إذ أنه عند توفر الماء يكون المجرى مملوءاً، ولكن وعندما ينقص الفيضان يتحول إلى مجرى للصرف الصحي. فيتم الاكتفاء بتغطيته بقبة. وارتباطاً بالموضوع، أضحت الساحة المهجورة مرتعاً لكل الخارجين عن القانون في العاصمة. وكان عليها الاستمرار في التدهور وانتظار صعود إسماعيل للحكم، وهو حفيد محمد علي وابن إبراهيم. فخلال زيارته لباريس سنة ١٨٦٧ بمناسبة معرضها العالمي، أعجب سيد مصر بتحولات المدينة وزينتها، وهو ما أدى به إلى اتخاذ قرار تحويل عاصمته إلى مثل ما رآه في باريس. فيتسلم سنة ١٨٦٨ مهندس

= والحبشة ومصر». ثلاثة مجلدات. لندن ١٨٠٩.

فرنسي يدعى غران إدارة الطرقات بالعاصمة. وكان عليه أن يهتم بوجه خاص بحديقة الأزبكية والتي عرفت بفضله تحولاً كاملاً، إذ رسمت في قلب الحديقة القديمة، أخرى جديدة تصل مساحتها إلى عشرين فدان على شكل مثمن الأضلاع. وحولت أطرافها المجاورة لها مباشرة إلى أحياء جديدة مع طرقات بأرصفة مغطاة بقناطر على صورة شارع ريفولي في باريس. وتم التدشين سنة ١٨٧٢ في حفلة شعبية حضرها إسماعيل ووزرائه، غير أنه لم يتبق الآن للأسف الشديد، أي شيء مما كان من بين أجمل أماكن النزهة في مصر.

رأينا أنه ومنذ سنة ١٨٢٠، كلف محمد علي الراغب في إنشاء مسجد بالقاهرة، كوسط بهذا المشروع، وكان على المسجد أن يكون كفنه الذي سيستريح فيه. ويقول كادالفين وبروفيري «سيقوم مسجد مزين بأعمدة من الغرانيت الوردي التي تزين ديوان صلاح الدين، على أنقاض الصالة الشهيرة حيث كان السلاطين يقضون بين الناس فيها». ويقول كيرزون[(١)] سنة ١٨٣٣ «كان ديوان صلاح الدين والذي كان قاعة جميلة حقاً، مقسماً إلى أجنحة بواسطة أعمدة قديمة من الغرانيت الوردي، إلا أنها هدمت للأسف بأمر من محمد علي. إذ كان عليه إلحاقها بالمسجد الذي بناه من المرمر الأبيض المصري، وهو مادة ممتازة، غير أن مهندسه الأرميني الفظ، يقدم مع البناء الحديث تناقضاً مع البناء الذي هدم بلارحمة». ولم يكن المهندس أرمينياً، ولكنه يوناني يدعى يوسف بوشنا[(٢)] الذي لم يأخذ نموذج دير القديسة صوفيا كما ظن البعض، ولكن مسجد السلطان أحمد في إسطانبول[(٣)].

وفيما يخص اختيار المرمر الأبيض كمادة بناء، فإن لينون دون بيلفون كان المسؤول عن ذلك على مضض. ويقدم شرحاً لذلك في مذكراته إذ يكتب

---

(١) كتاب باللغة الإنجليزية يحمل عنوان «زيارة إلى أديرة الشرق». لندن ١٨٤٩.

(٢) فالنتيا، في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «محمد علي والفنون الجميلة».

(٣) المصدر نفسه.

«عندما خطرت على بال محمد علي فكرة بداية تشييد مسجد بالقلعة ليجعل فيه قبره، بحث عن الرخام. وكان يرى منه في مختلف مساجد القاهرة بكل الألون، وبجمال كبير. فسألني إذا ما كنت رأيت في رحلاتي في الصحراء مواقع لرخام جميل، فأجبته أني بالفعل رأيت في سلسلة الجبال التي تحد وادي العربة حيث يوجد دير سان أنطوان من الجهة الشرقية، توجد أنواع مختلفة من الرخام، وهي نفسها التي تشكل فسيفساءات المساجد والدور القديمة. فقرر نائب الملك إرسال أحدهم لإحضار عينات من المكان الذي حددته، غير أن هذا الشخص المقترح لهذه المهمة لم يكن إلا قواساً لايعرف أن يذهب ولا ما هو الرخام. وأثناء رحلته، يجد في وادي سنور قطعة من المرمر، ولم ينصت لما قاله له دليله ليواصلا الطريق حتى المكان الذي حددته إذ عارضه قائلاً بأنه وجد رخاماً جيداً، وعاد محملاً به إلى محمد علي الذي وجده بدوره رائعاً. وتحفظ الجميع عن قول الحقيقة إلا أنا فشرحت لنائب الملك أنه وعلى الرغم من أن هذه الحجارة جميلة، ويمكن استخدامها في بعض الأغراض إلا أنها لاتصلح في الأبنية خاصة المعرضة منها للهواء. ومع ذلك، أصدر أمره باستخدامه. وهكذا، تم بناء جزء من المسجد من المرمر الأبيض، وليس من الرخام كما كان مقرراً من قبل». ويضيف لينون «كانت العديد من القطع جميلة جداً لكن وبدلاً من متر مكعب واحد من الرخام الجيد، كان ينبغي حفر خمسمائة متر مكعب».

ولربما أن هذه النقطة تفسر بطء الأشغال المدهش، وإذا ما علمنا أن الصبر لم يكن الفضيلة الأولى للباشا، فإن ما حدث لايدعو إلى الاستغراب، ويسخر غليدون[1] عندما يكتب «استُخدم خلال اثنتي عشرة سنة الأخيرة عدد قليل من العمال في أشغال هذا المسجد الذي لم يصل أبداً إلى نصف الارتفاع المقرر

---

(١) كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «مناشدة جامعي الآثار والتحف في أوروبا حول تدمير آثار مصر» لندن ١٨٤١ .

له، وإذا ما تم بناؤه بعد خمسين سنة، سيكون بمثابة الدليل الوحيد الذي ستتوفر عليه القاهرة لتقوى الباشا». أما كولي فيقول «كان قد شرع في بناء المسجد الجديد منذ سنوات عندما كنا في القاهرة، ولكن وبالنظر إلى إهمال وبطء العمال، ستمر سنوات قبل أن نرى الانتهاء من بنائه. ولنشر إلى أن المواد المستعملة كانت جميلة جداً، وهي مكونة من مرمر قاتم يعمل عليه العمال بأياد ماهرة، وسيكون بناء بثراء وجمال غير مقارنين[1]». أما حن حن فيقول «يوجد مسجد محمد علي داخل القلعة، وهو واسع حقاً ومهيب بشكل خاص، وذلك بفضل موقعه وطريقة بنائه، فكل شيء جميل. لم ينجز إلا جزء منه فقط، وتلزم سنين أخرى قبل الانتهاء منه كلياً. ووفقاً لنكتة غريبة تروج في القاهرة وضواحيها، تفيد أن الباشا المسن الذي يمكن أن يقضى في أية لحظة، سيعفى من الموت حتى الانتهاء التام من مسجده الجديد. ومن الممكن جداً أن تكون هذه الفكرة المتوهمة قد اخترقت نفس الباشا، وأنه ينوي الاستمتاع ببعض السنوات قبل يومه الأخير[2]».

كان محمد علي يخدع نفسه بهذا، فعند موته لم يكن المسجد قد تم بعد، ولم ينته من تشييده إلا سنة ١٨٦٠، وفي مدخله عن اليمين، يوجد درابزين مذهب يحوي قبر الفرعون الأخير. أما الأرض فمغطاة بسجاجيد مزينة بالذهب، وعلى كل جانب وضعت شمعدانات من الفضة الخالصة.

وكانت الساحة محاطة بأعمدة من المرمر الشرقي الجميل، وفي الوسط فسقية الوضوء ذات الأضلع الثمانية، والمزخرفة زخرفة ثقيلة. أما الرواق الذي يمتد من الشمال إلى الغرب فيرتفع فيه برج مربع بلون أسود وذهبي، ونوع من الجناح الصيني. وكانت الساعة التي ترخي ظلها على الواجهة الغربية من

---

(١) كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «الأمريكي في مصر» نيويورك ١٨٤٢. غاستون فييت. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «رسائل من تركيا والأراضي المقدسة». ثلاثة مجلدات. باريس ١٨٤٣. لندن ١٨٤٥. غاستون فييت. (مصدر ذكر سابقاً).

الساحة[1] هدية من لويس فيليب إلى محمد علي لشكره على الهبة التي منحها لفرنسا، والمتمثلة في مسلة الأقصر.

وظل محمد علي يتابع مجهوده الجنوني في تطوير بنى البلد التحتية. فبدأ مشروع تصفية الماء الصالح للشرب بالشبة متبعاً في ذلك طريقة اكتشفها الكيميائي الفرنسي فيليكس دارسي. غير أنه كان يلزم انتظار فترة حكم سعيد باشا لرؤية مصلحة مياه حقيقية تشيد في الأحياء الأوروبية، سواء في العاصمة أو في الإسكندرية بمبادرة من المستشرق كوينغ، والذي كان في ذلك الوقت كاتب نائب الملك. بالمقابل، لم يقم الباشا بالكثير لتحسين المواصلات والتي ظلت مقتصرة على مياه النيل والمحمودية في ظل غياب طرق معبدة، إلا أنه وتيسيراً للعلاقات التجارية بين الهند وأوروبا عن طريق البحر الأحمر، نظمت شركة إنجليزية، كان محمد علي المساهم الرئيسي فيها، حركة عربات بين السويس والعاصمة. ولما كانت التجارة المصرية تكبر شيئاً فشيئاً فقد كان من اللازم أيضاً تنظيم إدارة بريد منتظمة. وهنا أيضاً تتم استعادة مشروع بونابارت الذي تم التخلي عنه عند مغادرة جيش الشرق. وكانت هذه المصلحة في الأصل مقتصرة على المراسلات الرسمية، تقوم عليها هيئة بريدية يشرف عليها شخص يدعى حامد عمر. ولن يستفيد الناس من هذه الخدمة إلا فيما بعد.

وأقيمت منارة جديدة في مدخل الإسكندرية في قمة رأس التين. وكانت أولى المحاولات لخطوط السكة الحديدية تتضمن طريقين قصيرتين إحداهما من مقالع طورة إلى النيل، والثانية من قناة المحمودية إلى مكان صعود المراكب

---

(١) رسالة من القاهرة مؤرخة في التاسع عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٤٦، ونشرت في «دليل الملاحة في مرسيليا للتاسع والعشرين»، ويذكر ما يلي قدم السيد بارو (قنصل فرنسا) أمس إلى صاحب السمو ساعة رائعة بعثتها له الحكومة الفرنسية، وتبلغ قيمتها مائة ألف فرنك. ويوضح قنصل إنجلترا «إنها قطعة جميلة جداً، وهي تمثل معلمة بطراز عربي، وتحمل كتابات على شكل أبيات باللغتين الفارسية والتركية».

بالبحر. وكان التلغراف الهوائي، وهو للتذكير فقط من أعمال كوسط، يصل بين الإسكندرية والقاهرة.

وكانت أول طريق كبيرة مرصوفة تنطلق من باب الرشيد إلى رأس التين، واستعمل فيها في البدء، الصلصال الأحمر المستخرج من المقطم، ثم عوض بملاط كلسي والبزلانة الاصطناعية[١] لما لوحظت هشاشته. أما بقية الطرق فقد غطيت بالحجارة.

وكانت طرق الإسكندرية كلها مبلطة تقريباً، مثل بعض المدن الإيطالية. وبحسب لينون، فقد كان هذا التبليط جيداً تنزلق فيه العربات بسهولة.

وتمت أول تجربة للإضاءة بغاز لوبون في القاهرة[٢].

وشكلت بالإسكندرية لجنة بلدية للسهر على النظافة والصحة وجمالية المدينة.

وأنشئت تحصينات قوية قام بها الكولونيل الفرنسي غاليس، وكانت تحيط بالميناء وتدافع عنه.

ويعود تجديد الموسكي وهو السوق الذي كان يلقب بسوق الفرنجة، إلى هذه الفترة، التي عرفت أيضاً إقامة غطاء الخليج وهي القناة المكشوفة التي تخترق المدينة من أولها إلى آخرها.

ووضعت أول المراكب التجارية للعمل في البحر الأبيض المتوسط والنيل.

ويمكن رؤية هذا، فقد كان عالماً آخر، وكان الأمر كما لو أن دوامة ضربت مصر فجأة وأخذت تجرها من أثوابها القديمة. ما الذي ينقص الآن لتكون سعادة الفرعون الجديد كاملة؟ فمدنه تكبر، وصناعته تزدهر، وفلاحته تتفتح، وعرباته وجنوده مستعدين للانطلاق إلى تخوم البلد. غير أنه وراء النيل، كان يوجد البحر. وكانت تلزمه إذن بحرية. وتلبية لهذه الرغبة الأخيرة، سيخصص كل طاقته التي لاتعرف التعب.

---

(١) البوزلان نوع من الأحجار البركانية الأصل. تشكل من بقايا المعادن وتمزج بالكلس، كما أنها تدخل في مكونات بعض أنواع الإسمنت.

(٢) ظلت شركة الغاز المؤسسة بهذه المناسبة قائمة في بولاق حتى تأميمها من قبل جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٨.

[16]

مراكب الفرعون (١٨١٢ ـ ١٨٣٩)

إذا كان محمد علي قد استند في بناء جيشه على شيء كان موجوداً من قبل، فإنه أخرج بحريته من العدم. وفهم باكراً أن الأسطول العثماني، وعلى الرغم من تواضع مستواه، يظل يشكل العقبة الرئيسية أمام أحلامه في الاستقلال. ومادام لايملك مراكب فسيبقى الباب العالي متفوقاً عليه، وبإمكان أية قوة بحرية، مهما كانت درجة ضعفها، أن تقضي عليه إذا ما تقدمت أمام الإسكندرية. ذلك أن اتساع الشواطئ المصرية وخلوها من المراكب يمكنها أن تجعل منه لقمة سائغة لأية عملية إنزال غير متوقعة. إضافة إلى أن امتلاكه لأسطوله الخاص، يبقى سبيله الوحيد لضمان تواصله مع أجزاء أخرى من إمبراطوريته الناشئة. وأخيراً، وإذا ما أراد لعب الدور الذي كان يطمح إليه في البحر الأبيض المتوسط، فإن وجود هذه البحرية يعد أمراً ضرورياً.

غير أنه، وعدا البحر، كان كل شيء يقف عائقاً بينه وبين تحقيق مشروع مماثل، كالتقليد البحري، وصنّاع المراكب، والغابات، والأوراش، والملاحين. لكن ماذا تمثل مثل هذه العقبات أمام ناظري شخص مثل محمد علي؟ هي مجرد قطعة قش تافهة تزال بلامبالاة بضربة يد واحدة.

وأول إشارة إلى وجود منشأة بحرية مصرية في البحر الأبيض المتوسط،

تقدم بواسطة أرشيف صقلية الذي يكشف عن وجود سفينة حربية صغيرة سنة ١٨١٢ ومركب شراعي مسلح[1].

وكان الأسطول يقتصر على قوة بحرية تجارية صغيرة تتألف من ثلاث قطع يمكنها عند اقتضاء الضرورة لذلك، أن تحاول القتال. ولم تكن تتوفر على أية ترسانة خاصة. أما هذا الأسيطيل الموجود في البحر الأحمر فلم يكن يتكون إلا من هذه المراكب الصغيرة المصنوعة في بولاق والتي حملت كقطع مفصولة على ظهر الجمال عبر الصحراء.

وبدءاً من شهر شباط لسنة ١٨٢٢، لوحظ بعض التقدم إذ ظهرت ثلاث فرقاطات من ٦٤، وتسع سفن حربية صغيرة، وأربعة مراكب شراعية مسلحة وثلاثة مراكب بصاريين وست سفن حارقة. وكان المجموع يصل إلى خمس وعشرين قطعة. بيد أنه ومنذ سنة ١٨٢٤ أخذ مشروعه بجدية. وكان أول شيء قام به هو طلب قطع بحرية عسكرية من أوراش بحرية أوروبية. وكانت فرنسا بطبيعة الحال من بين أولى الدول التي وجهت لها مثل هذه الطلبات. وهكذا مرر طلباته بخصوص فرقاطات وسفن حربية صغيرة ومراكب شراعية مسلحة في كل من مرسيليا، وبوردو وليفورنو وجنوة، إلا أن هذه القطع كانت متوسطة الجودة. ومن المحتمل أن أياً من هذه الأوراش المذكورة لم يحكم بأنه من الحذر بيع آلات جيدة المستوى لملك قد يكون عدواً في يوم من الأيام.

وفي شهر كانون الأول من سنة ١٨٢٤ كان الجنرال دو ليفرون يمر بمصر مع بعثة الجنرال بوير، لكنه كان يقوم في تلك الفترة بدور الوسيط ووكيل نائب الملك في فرنسا، فيتلقى رسالة من بوغوص باي، نعرضها هنا:

إن صاحب السمو محمد علي، نائب الملك في مصر، وثقة منه بنشاط ومواهب الجنرال دو ليفرون كلفني بأن أمنحه هذه التعليمات المتصلة بمختلف الأنشطة التي يرغب في تنفيذها في فرنسا. وعلى الجنرال دوليفرون أن يتوجه

---

(١) غيمار. (مصدر ذكر سابقاً).

مباشرة إلى فرنسا، بمهمة تهدف أساساً بأن يحصل من حكومة صاحب الجلالة شارل العاشر، الإذن بتشييد فرقاطتين ومركب شراعي حربي، ولتكن الأولتين على نموذج «جون دارك» والمركب على نموذج «كويراسيي» مع التعديلات اللازمة التي من شأنها أن تقربها إلى الكمال.

ويجب أن تكون هذه المنشآت الثلاثة مجهزة ومبطنة بالنحاس، ومسلحة بفوهات نارية وبنادق وسيوف، إلخ. . . ومطابقة عموماً في كل شيء لأجود أسلحة البحرية الفرنسية. وللجنرال دو ليفرون الصلاحية بأن يطلب من سعادة وزير البحرية اختيار أو تعيين ضابط من البحرية الملكية أو اثنين، يتصفان بالذكاء ولهما خبرة في البنايات البحرية لمراقبة بناء القطع الثلاثة، وسيكافآ بالتعويضات التي يقررها سعادته. ولإرسال هذه القطع إلى الإسكندرية، يتعين على الجنرال دو ليفرون أن يأخذ كل تدابير السلامة والحذر اللازمين. وقبل الشروع في بناء هذه القطع، على الجنرال دوليفرون أن يطلب من حكومة شارل العاشر الترخيص لفرقاطتين ومركب شراعي حربي للإبحار.

و بفضل هذه الرسالة، للجنرال دو ليفرون الإذن بالتفاوض حول هذه القطع مع الحكومة الفرنسية باسم صاحب السمو نائب الملك. وسيمنح له المبلغ المتفق عليه عن طريق الوسائل التي ستمنحها له خزينة سموه. وفي حال حصول الجنرال دو ليفرون على الترخيص المتعلق بهذه القطع الثلاثة، يتوجب عليه طلب خدمات بعض ضباط البحرية الملكية لفائدة سموه، تتوفر لديهم المعارف الضرورية لتكوين طلاب مدرسة في مصر، في الجانبين النظري والتطبيقي. وسيعامل هؤلاء الضباط بطريقة مشرفة من قبل سموه، لكن عليهم التعهد بالبقاء لسنوات في خدمته(١).

وتعتبر هذه الوثيقة نقطة انطلاق للقوات البحرية الجديدة لمحمد علي.

ولم يتأخر الكونت دو شابرول وزير البحرية، في شهر نيسان من سنة ١٨٢٥

---

(١) دوان في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مهمة عسكرية لدى محمد علي». القاهرة ١٩٢٣.

في ملاحظة خطورة القضية مثلما يكتب «بالنظر إلى الوضعية الحالية في الشرق، سينظر إلى تسليح مثل هذه القطع في فرنسا كتحيز للأتراك ضد اليونانيين (تم هذا الطلب في الوقت الذي كانت تتدخل فيه مصر في حرب موريي)، حتى لو اعتبر الأمر كمعاملة تجارية[1] ».

وتناقش هذه المسألة في الأخير، في مجلس الملك شارل العاشر في السابع والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨٢٥ . وتتمخض عن المناقشات هذه الملاحظة التي حررها الوزير «قرر الملك الذي أمرني بأن تشيد الفرقاطتين والمركب الشراعي في مرسيليا عن طريق شركة تجارية فقط. ولايمكنها في أي حال من الأحوال أن تتم في ميناء طولون». إلا أن هذه القضية لم تمر دون ترك أصداء في الصحافة الفرنسية، فأعربت بعض الصحف عن استيائها، معلقة بالقول «غدت موانئ فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ترسانات، حيث يعد محمد علي وسائله لمهاجمة اليونانيين».

ويقدم دروفيتي في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول من السنة الجارية، تقريراً للوزير عن الأسطول المصري جاء فيه «فرقطتان، وسفينة حربية صغيرة، وخمسة عشر مركباً شراعياً، ومركب بصاريين وسفينتان بخاريتان. وفضلاً عن هذا، يشير إلى اثنتي عشرة من سفن القراصنة ومثلها من سفن النقل».

وعند نهاية سنة ١٨٢٦ أضحى الباشا يملك ثماني وثلاثين سفينة كلها بحمولة خفيفة باستثناء الفرقاطتين المذكورتين سلفاً وخمس سفن حربية صغيرة. وكانت هذه القطع تشكل ما جرت العادة على تسميته «أول بحرية عسكرية لمحمد علي» أما الثانية فسترى النور بعد معركة نافارين.

وكان العاملون في هذا الأسطول يخضعون للمبدأ نفسه المشكل للقوات البرية، حيث البحارة من العرب، والأطر من الأجانب. وهكذا، وعند نهاية

---

(١) دوان في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «فرقاطات محمد علي الأولى ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧»، IFAO. القاهرة ١٩٢٦.

سنة ١٨٢٧ كان يوجد في هذا الأسطول حوالي عشرة من ضباط البحرية الفرنسية وهم بومبار ورايني ولودونتي وديسنار وماترير وبريون ومافر ولوسياني، وأخيراً قبطان السفينة لوتوليي[١]، وهو ضابط مسن بخبرة كبيرة وأحد الناجين من معركة الطرف الأغر، والذي كان بدور هام. ويصل فيما بعد جون فيكتور بيسون الذي سيرقى إلى رتبة نائب أميرال الأسطول[٢]، وتوزي هوسار ملازم سفينة فرنسي والذي سيقود إحدى وحدات «الأسطول المصري الثاني» خلال الحرب السورية الأولى. وسيصير هذا الضابط الذي سيظهر في الإسكندرية سنة ١٨٣٠، أستاذ الرياضيات لمحمد سعيد، الأمير الشاب الذي سيوجهه والده دوماً إلى البحرية.

ولما كان محمد علي على عادته، محموماً مستعجلاً، فإنه يستعجل في بناء الوحدات الكبرى المتواجدة آنذاك في أوراش موانئ البحر الأبيض المتوسط. ويفتح في الإسكندرية قرب رأس التين، مدرسة للبحرية والتي سيتخرج منها أربعمائة طالب، ثم ألفاً وستمائة طالب، لم يكونوا مدربين فقط على المناورة بالأشرعة، ولكن أيضاً في المدفعية، وعلى تحركات القوات البرية تحسباً لأي إنزال مفترض.

وسرعان ما سيبدو هؤلاء البحارة، وكلهم من الفلاحين، أفضل من البحارة الأتراك القدامى، خاصة في مهمة المدفعيين. وإذا ما تم تصديق شهادة مارمون فإن سرعة تعلم هذه التقنيات الجديدة تعد ضرباً من ضروب المعجزة[٣]. غير

---

(١) توفي غرقاً في الإسكندرية سنة ١٨٣١.

(٢) يتحدر من أنغوليم، ولد في الثامن والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٧٥٦، والده جون بيسون صاحب فندق، ووالدته جين غالوا. غارو في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «بيسون باي، نائب أميرال وجنرال ميجر في مصر». تقديم شارل رو. شركة المنشورات الجغرافية البحرية والاستعمارية. ١٩٤٩.

(٣) مارمون في كتابه باللغة الفرنسيّة بعنوان «رحلة في فلسطين ومصر». خمسة مجلدات. باريس ١٨٣٧ ـ ١٨٣٨.

أن الخبراء الإنجليز من جانبهم، كانوا أقل ثناء عليهم. ويعترف القبطان ماكينزي في تقرير له في «الشركة الأسيوي الملكية» بأن الأسطول يعنى به عناية جيدة، غير أن البحارة تعوزهم الخبرة، ومستوى هيئة الأركان أقل من المتوسط. ويقدر أن هذه القوة البحرية يمكنها أن تكون بدون شك مخيفة أمام القوات العثمانية، إلا أنها لن تكون قادرة على القتال مع إمكانية تحقيق نجاح، ضد قوة أوروبية مهما كانت قليلة الأهمية. ويؤكد المستقبل قوله. وسيدرك محمد علي هذا النقص، وستؤكد له الأمثلة ذلك. وهذا أحدها:

ففي أحد الأيام، أمر بأن تدار سفينة حرب مصرية صغيرة كان على متنها، ورجا قبطان فرقاطة بريطانية تسمى غلاسكو بأن يقوم بالشيء ذاته فلاحظ والساعة في يده بأن دقيقتين كانتا كافيتين بالنسبة للفرقاطة الإنجليزية لإنجاز مناورتها بينما لزمت السفينة الحربية المصرية الصغيرة ست دقائق[1]، وهو ما جعله يعلن من فوره لضباطه «مانزال أطفالاً. ألا ترون أن هؤلاء الأشخاص وفي حال القتال ضدهم، سيطلقون علينا ثلاث طلقات ضد طلقة واحدة منا؟» ولكي يقوّم هذا الضعف، كلف لاتوليي بتحويل سفينة حربية صغيرة إلى سفينة تدريب.

ومنذ ذلك الحين، فرض نظام قاس على أصحاب مختلف الرتب. وهكذا، فقد حوّل قبطان فقد سفينته عندما أراد الدخول إلى الإسكندرية بدون دليل، على الرغم من التعليمات المخالفة لذلك، إلى المجلس الحربي، وحكم عليه بالموت رمياً بالرصاص. وكان الجلد يتهدد كل من يأتي بأية مخالفة.

وفي شهر نيسان من سنة ١٨٢٩، وبعد وصلة نافارين المشؤومة، يصل إلى طولون رجل يرأس عملية بناء البحرية المصرية، وكان يدعى لوفيبير دو سوريسي، وكان قد وظفه لينون كرئيس مهندس بحري براتب سنوي يصل إلى ثلاثة آلاف تالاري[2].

---

(١) بلانا. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) كان العديد من المصريين يعدون بالطالاري أو التالاري حتى سنوات الخمسينات من القرن الماضي.

وما إن وصل إلى الإسكندرية، حتى هيأ في شهرين مخططات لترسانة حديثة والتي صادق عليها نائب الملك مباشرة. ولنقل إن إنشاءها كان مثل معجزة. فعندما بدأت الأشغال الأولى، لم يكن رأس التين إلا شاطئاً مجدباً، خالياً من كل شيء، ومغطى بمستنقعات مالحة. وأزيل حي بأكمله كان يقع على جوانب البحر. وتم حفر الشاطئ للوصول إلى عمق صلب يمكّن من استقبال أرصفة إنشاء المراكب. وهيئت أربعة منها بمقدماتها للمراكب الأكثر أهمية، وسرعان ما سيظهر مصهر، وأحواض حول الميناء، ومصنع للأقمشة، ومصنع للمسامير، ومصنع للحبال، ومستودعات لحفظ الأخشاب، وزوراق تستعمل كجسور عائمة لترميم أسفل المراكب، ووظف بأثمنة مرتفعة من موانئ أوروبا نجارون وثقابون وملحمون[1] وصانعو القلوع ورصاصون وخراطون، من أجل تعليم مهنهم إلى حرفيين من الأهالي. وأقيم في الوقت نفسه معمل لصناعة نسيج الأشرعة في الرشيد. وهكذا تم تكوين خمسة آلاف عامل مصري خدمة للترسانة التي أنهيت في وقت قياسي إذ استغرق ذلك سنتين فقط. وكان العائق الكبير الذي كان ينبغي التغلب عليه، الخشب. وعلى هذا الأساس انبنى طلب محمد علي سنة ١٨٣٣ من الباب العالي بضم مقاطعة أضنة. وكان ذلك خاصة، من أجل استغلال غابات المنطقة ذات الأشجار الضخمة. وفي انتظار ذلك، كان الخشب يشترى من أوروبا ومن آسيا الصغرى.

وسرح سيريسي العمال الأتراك غيرالأكفاء، وشكر الموردين غيرالأمناء، وفي الثالث من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣١، شقت «محمد علي» وهي أول سفينة تضم مائة مدفع، طريقها في البحر. وفي الفاتح من شهر آب يكتب ميمو إلى سيباستياني «شيء مدهش حقاً هذا النشاط الذي أنهى وسلح هذه السفينة التي خرجت من الأوراش في الثالث من شهر كانون الأول الأخير. فلنقل إنه استعراض للقوة من قبل السيد سيريسي. صحيح أن نائب الملك منذ عودته إلى

(١) كانت مهنته تختص بمنع سيلان الماء في الجسور وكذا في السفن البحرية.

هنا، لم يغفل يوماً عن بث الهمة في سير العمل والعمال، وتشريف السفينة بحضوره[1].

بيد أن هذا ما كان ليرضي الباشا الذي سرعان ما سأل إذا لم يكن هناك في أوروبا سفناً أكثر قوة، ويجيبه سيريسي بأنه ظهرت في أوروبا سفن بثلاثة جسور قياس مائة وعشرين لكن ميناء الإسكندرية ليس بالعمق الكافي ليستقبل سفناً بمثل ذلك القياس في جزئها السفلي. فيأمر محمد علي بالقول «فلنشرع في الحفر من الغد. ابني لي سفينة مثل ما تحدثت عنه». ويتجاوز سيريسي إمكانياته مادام أنه في شهر أيار من سنة ١٨٣١ أطلقت سفينة عملاقة قياس مائة وستة وثلاثين مدفعاً، وسميت «مصر» بطاقم يتكون من ألف بحار.

ومنذ ذلك الحين، أضحت السفينتين تستقبلان مدافع ومدافع بحرية[2] من العيار ثلاثين نفسه. ولم يكن بينهما من فرق إلا في الوزن. ورققت أجزاؤهما العلوية لجعل أية محاولة لاقتحامهما أكثر صعوبة.

وفي الأخير، كان سيريسي أول من يحقق النجاح باجتياز الممرات الخطيرة للميناء القديم للإسكندرية بمركب من نموذج أربعة وسبعين. ومن المعروف أن الأميرال برويز ظن في سنة ١٧٩٨ أن ذلك مستحيلاً، على الرغم من تقرير ضابط كان مكلفاً بالجس، ويعود جزء من نتائج أبي قير الكارثية تعود إلى هذا الرأي الخاطئ. ومع ذلك، فقد كان على الوحدات من قياس مائة أن تخفف من جزء من مدافعها لتتمكن من مغادرة الميناء.

وما من شك أن كل هذه الأعمال كلفت ثمناً باهظاً. وفي ميزانية سنة ١٨٣٥ وحدها، بلغت ثلاثة وسبعين مليوناً ونصف مليون قرش. وكل سفينة تكلف دخل محافظة كاملة.

وكان أجمل ثناء على موهبة المهندس الكبير سيريسي وروح النظام لديه

---

(١) قطاوي. ١٩٣١. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) مدفع قصير، تكون عودة نظامه إلى الخلف خفيفة.

وبعد رؤيته قد لقيه من مارمون في حديثه عن رحلته إلى الشرق. غير انتقادات بسوء نية مضمرة، وأعمال تتجاوز الطبيعة الإنسانية، ومشاكل لاحصر لها تنشأ مع الإدارة المحلية ومع بيسون أيضاً تفقد المهندس صبره، فيعلن لبيسون بعزيمة محبطة «أنا جنرال بلا ضباط، والمهندسون العرب الذي هم تحت إمرتي قادرون على اتباع نموذج معين، ولكنهم عاجزون عن تحقيق شيء آخر. وقد تلقوا معارف مادية غير أن التفكير والمقارنة ليسا في متناولهم». هذا اعتراف مؤلم إذا ما علم أنه أشرف شخصياً على تكوين هؤلاء الرجال. ولما كان مرهقاً نفسياً وجسدياً، فقد ترك العمل في مصر في نهاية سنة ١٨٣٥. وبعد مغادرته سيجمع بيسون بين مهام مدير الترسانة ورئيس أركان القوات البحرية

وكان لزاماً إتمام عمل سيريسي بحفر حوض إصلاح هياكل السفن[1] إلا أن المحاولات الأولى التي عهد بها إلى مهندسين أتراك باءت بالفشل. وفهم محمد علي أن عليه أن يعتمد على تقنيين أوروبيين. وهكذا، سيتوجه بذلك في سنة ١٨٣٨ إلى الحكومة الفرنسية. ولم يكن الشخص المقترح سوى مهندس الجسور والطرقات الشاب. . . ديودوني أوجين موجيل الند المقبل رغماً عنه لينون دو بيلفون.

وكان العمل المطلوب يتطلب خمس سنوات من العمل الشاق عوض السنوات الثلاثة التي قدرت له من قبل. وفي الوقت نفسه، يشيد موجيل في الميناء رصيفاً للركوب والشحن، وسكة حديدية للولوج. وكان ذلك تجديداً حقيقياً في ذلك العصر.

وكان هدف الفرعون قد تحقق عند نهاية سنة ١٨٣٩ إذ أضحى يملك أخيراً أسطوله الحربي الذي يمكن مقارنته من الظاهر على الأقل بأساطيل الدول الأوروبية البحرية، وترسانة مجهزة بكل الوسائل المادية المعروفة في العصر.

---

(١) العملية التي يتم من خلالها صيانة أو إصلاح هيكل السفينة.

ومنذ ذلك الحين، لن تجرؤ الإمبراطورية العثمانية أبداً أن تتنازع مع تابعها مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقي.

ومع ذلك، فمن بين كل المنجزات التي تصورها وحققها نائب الملك، من المحتمل أن بحريته العسكرية كانت الأكثر عرضة للسخرية. صحيح أنه كان في وسعه أن يبحر أكثر من أن يقاتل. لكن وعند معركتها الحقيقية الوحيدة، كانت عاجزة عن رفع رأسها، إلا أن أولئك الذين يلومونه نسوا أنه لم يخطر على بال محمد علي في أي وقت من الأوقات أنها أنشئت من أجل أن تقاس بالقوات البحرية الأوروبية. وقلنا هذا سابقاً، فنائب الملك كان يعي جيداً مواطن ضعفه. ولم يكن يرى فيها إلا وسيلة آمنة لنقل جيشه وحماية للشاطئ المصري، وخاصة كسلاح دبلوماسي في صراعه مع السلطان. ومع أن هذه البحرية لم تعش بعد وفاة صاحبها، فقد برهنت شأنها في ذلك شأن كل أعمال الباشا المجددة، على ما تستطيع الإرادة والهمة أن تحققاه في مصر. لكن مصر هذه، وهذا صحيح، عانت كثيراً من أجل هذا، وإلى ما لانهاية.

[17]
شومبوليون والميراث ومعركة المسلات

ضحى محمد علي بهرم ليقيم سدوده على النيل. هو برهان على أنه في عينيه كما في عيون من خلفه، لاتمثل الآثار المنثورة في البلد أي أهمية أبداً. وتوجيهات الباشا بسيطة وهي أنه يجب البناء بسرعة وبدون تأخير. ونتج عن هذا بطبيعة الحال أن يلجأ أولاً إلى المقالع المتوفرة، أي المعابد والآثار من كل نوع. ولو صح أن نائب الملك لم يكن يعلم في أغلب الأحيان أعمال التخريب هذه، إلا أنه كان يسمح بذلك. وهكذا يمكن تفسير اختفاء عدد من الأعمدة والكتل القديمة في الإسكندرية لتستعمل في بناء الثكنات أو في الأشغال في الميناء التي كان يديرها سيريسي.

ويمكن قراءة ما كتبه كادالفين وبروفيري «وعبثاً يُبحث في أشمونين عن بعض الآثار البائدة التي كانت تزين المدينة الرائعة، والتي أقيم على أنقاضها هذا المركز (الميلاوي) والتي أتلفت أيضاً في الوقت الحاضر. فما احترمه الزمن والتعصب أتى الجهل والطمع ليقضيا عليه، واستخدمت البقايا الرائعة لهيرموبوليس العظيمة لبناء معمل لملح البارود».

ويبدو شارل لونورمون[1] أكثر قسوة حين يكتب «أحرق محمد علي

---

(١) ولد في باريس في الفاتح من شهر حزيران لسنة ١٨٠٢. يتحدر من أورليان رحل سنة ١٨٢٤ إلى إيطاليا. تعرف في نابولي على الفتاة التي تبنتها السيدة ريكامبي، أميلي سيفوغ والتي تزوجها في=

الأروقة، والمعابد والفنون الجميلة على مذبح الصناعة. . . ولإنشاء مثل تلك المعامل الجميلة كان يلزم وجود حجارة كلسية، وعوض المضي للبحث عنها في الجبل الذي يبعد ميلين، بدا أنه من الأيسر مهاجمة الآثار وبالتالي كل ما كان مبنياً بالحجر الكلسي، بمعنى تم القضاء على كل من أنتينوي وأشمونين وأنطوبوليس وإلفانتين جميعها في ظرف خمس سنوات. وكانت الأقصر قد بيعت في وقت سابق لرجل مختص في صناعة ملح البارود. وأخيراً لم تحظ آثار مصر أبداً بعدو مثل التاجر محمد علي كولبير. ويمكن فهم استهجاننا بالنظر إلى الطريق التي كنست أمام أعيننا، حد اقتلاع أنتينوي من جذورها والمسرح والشارعين الكبيرين المبوبين وقوس النصر. واختفت كل الآثار. وحول باب أشمونين الكبير إلى باب لقناة ومعمل للسكر. وأخيراً لرؤية مصر كما لو أن قمبيز[1] مر بها. (. . .) ويمكن المراهنة بقوة أنه لولا تدخل القوى العظمى الأوروبية لما بقي شيء من الآثار المصرية خلال عشرين سنة. هذه هي الثمار الأكثر وضوحاً لحكومة صديقنا محمد علي التي تحب الخير للناس. يجب أن يعلن هذا الأمر، ولن أتأخر في ذلك. وهاجسي الأول في الحياة، الموت للأتراك ولعرقهم!»

= الفاتح من شهر شباط لسنة ١٨٢٦. وخلال هذه الفترة بالذات، يلحق ببيت الملك كمفتش للفنون الجميلة بواسطة دوق روشفوكو دودوفيل. وفي شهر آب من سنة ١٨٢٨ يصحب شومبوليون إلى مصر بحراً. ويواظب على امتداد سفره الطويل على مراسلة زوجته باستمرار. وتجمع هذه الرسائل في كتاب حمل عنوان «فنون جميلة ورحلات» باريس ١٨٦١. وتنشر له جريدة لو غلوب مختارات طويلة من هذا التبادل الرسائلي.

(١) يتحدر قمبيز من أسرة ملكية فارسية تعرف بالأخمينيين. وقد كونت لها إمبراطورية في فارس عام ٥٥٩ قبل الميلاد. واستولت علي ليديا (غرب الأناضول) إيران والهلال الخصيب ومصر، التي امتدت في أوجها إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى، من وادي السند إلى ليبيا، وشمالاً حتى مقدونيا. ومن أشهر ملوكها داريوش الأول الذي حاول غزو أثينا باليونان فهزم. وأسقط الإسكندر الأكبر هذه الإمبراطورية عام ٣٣١ قبل الميلاد. و من ملوكها قمبيز وقورش (سيروس). وتعتبر فترة حكم هذه الإمبراطورية هي فترة الحضارة الفارسية. (المترجم).

ومع ذلك، فمن المبالغة التأكيد على أن الإرث الفرعوني لم يكن يدخل في صلب اهتمام محمد علي. والقول الأكثر صحة هو أنه وفي بداية حكمه، كان يواجه صعوبات أكثر أهمية لدرجة تجعله لايهتم في هذا الوقت بالحفاظ على كتل الغرانيت والحجر الضخمة. فمن جهة، علينا ألا ننسى أنه كان أمياً وبالتالي وعلى الرغم من طبيعته المهذبة، فإنه يظل عاجزاً كلياً عن الإدراك الثقافي. وهو محارب قبل كل شيء، ودبلوماسي ورجل صناعة وتاجر. أما الآثار القديمة ومهما بلغت روعتها، فلاتمثل في ناظريه أي قيمة تجارية، وأقل من ذلك أن تكون ذات نفع عسكري. ومع ذلك فمنذ سنة ١٨١٩ وخلال زيارة لمقابر غورنا تحت الأرضية، يخبرنا كايو عن استهجان محمد علي لما لحق المومياءات من نبش.

وكان شومبوليون من بين أوائل الرجال (لأنه ليس الوحيد) الذي يعلم نائب الملك بالثروة التاريخية الكبيرة للبلد. وتصل في الثامن عشر من شهر آب لسنة ١٨٢٨ إلى مصر بعثة مزدوجة فرنسية إيطالية. وكان شارل العاشر يرعى البعثة الأولى، في حين كانت الثانية تحت رعاية دوق طوسكان الكبير ليوبولد الثاني. وكان على رأس البعثة الفرنسية شومبوليون مرافقاً بشارل لونورمون والمهندس أنطوان بيبين والسيد ديشيسن من دائرة الأختام، والرسامين نيسطور لوهوت[1] وبيرتان ولوهو. في حين كان يترأس البعثة الثانية أحد تلامذة شومبوليون، المستشرق بيزون روزيليني مرافقاً بعمه المهندس غايطانو روزيليني، وصهره سلفادور شيروبيني ابن المؤلف الموسيقي ذائع الصيت. وانضاف إلى بعثتهم عالم طبيعي يدعي جيوسيبي رادي، ويساعده غالاستري وبولانو والطبيب الأركيولوجي ألساندرو ريتشي ورسام يدعى أنجليلي.

ويستقبل محمد علي في قصره برأس التين في الرابع والعشرين من شهر آب

---

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «ملخص تاريخي حول المسلات المصرية». باريس ١٨٣٦، و «رسائل كتبت في مصر سنتي ١٨٣٨ و١٨٣٩». باريس ١٨٤٠.

لسنة ١٨٢٨ كلاً من جون فرانسوا شومبوليون ولنورمون. وتركا لنا روايتين لهذه المقابلة. وهذه الرسالة التي بعثها الأول إلى أخيه في اليوم نفسه:

«حظيت باستقبال من قبل الباشا هذا الصباح على الساعة الثامنة. ويقيم سموه في عدة بيوت جميلة مبنية بالخشب لكن بعناية فائقة مثل قصور القسطنطينية. وتقوم هذه الأبنية البهية المظهر في الجزيرة القديمة للمنارة. وقادنا السيد دروفيتي على متن عربته التي يجرها حصانان نشيطان. وكانت تسير بسهولة رائعة في طرقات الإسكندرية الملتوية والضيقة بفضل مهارة الحوذي الكبيرة. وكان يتبعنا شبابنا في ثيابهم الرسمية على متن دواب مندفعة.

نزلنا درجات قاعة الديوان، فألفينا أنفسنا في قاعة واسعة ممتلئة بالموظفين فأدخلنا مباشرة إلى قاعة ثانية يسطع فيها ضوء النهار، حيث كان يجلس محمد علي في زاوية بين نافذتين في بذلة شديدة البساطة. ويمسك بيده غليوناً مثقلاً بالماس. وكانت قامته متوسطة وكل هيئته توحي بالبشاشة وهو ما يفاجئ في رجل مشغول بمثل تلك الأمور الكبيرة، والمثقل بالكثير من الهموم. كان باسم الوجه وعيناه تتقدان نشاطاً وهو ما كان يتعارض مع لحية بيضاء مسترسلة حتى صدره.

وبعد أن سأل سموه عن أخبارنا، رحب بنا وسألني عن مشاريع رحلتنا. فقلت بأني أرغب في الذهاب حتى الشلال الثاني، وأني أطلب من سموه فرمانات بذلك، فمنحت لي مباشرة إضافة إلى حارسين من رجال الباشا لمرافقتنا ولحمل الكل على احترامنا حيثما توجهنا.

وتحدثنا بعد ذلك عن شؤون اليونان، فأبلغنا سموه بخبر ذلك اليوم والمتمثل في وفاة أحمد باشا المنحدر من باتراس والذي اغتيل من طرف يونانيين تسللوا إلى غرفته بمساعدة جنود ألبان تمت رشوتهم من قبل. ومع أن التركي الشجاع كان طاعناً في السن إلا أنه قتل سبعة منهم بيده، قبل أن يسقط أمام عددهم الكبير. وبدا أن هذا الحادث أثر عميقاً في باشا مصر.

واكرمنا بفنجان قهوة بدون سكر لنستأذن بعد ذلك من سموه الذي رافقنا

بتحيات ليس هناك ألطف منها بيده. وما إن تصبح الفرمانات بين يدي حتى يصير باستطاعتي أن أقصد القاهرة ومنها إلى مصر العليا[1]».

أما رواية لونورمون فهي أكثر غوصاً في التفاصيل، وهي تدل على حس ملاحظة قوي:

قمنا بزيارة الباشا صباح الأمس، فاستقبلنا ببساطة شديدة ولطف كبير. كانت الساعة الثامنة عندما صعدنا أنا وشومبوليون قائد الإيغلي في عربة السيد دروفيتي (وهي فريدة من نوعها في البلد). أما بقية فرنسيينا فكانت تتبعنا على حمير ولم يتجمعوا إلا على درج مدخل القصر.

وبعد أن اجتزنا قاعة انتظار مليئة بالحرس، ألفينا أنفسنا في قاعة كبيرة تضم أزيد من عشرين نافذة، وكان يجلس في زاويتها كهل قصير القامة[2] مثل رئيس في البلاط الملكي، لو لم يضع على رأسه قلنسوة مربعة الشكل، ووضع عمامة بيضاء من الموسلين، وعوض ثوبه الأحمر وضع معطفاً أزرق اللون مبطناً بالفرو. وكان الغليون الذي يدخنه طويلاً بعشرة أقدام، مغطى كله بالماس وأحجار كريمة أخرى. وكان هذا هو الأثاث القيم الوحيد في القاعة. وكان هناك حوالي عشرين رجلاً من حرسه وضباطه الذين يضعون ثياباً أكثر جمالاً من ثيابه. وكانوا يعوضون لديه المحامين والمستشارين. وما إن دخلنا حتى صرف بإشارة العديد من كتابه ووزرائه كانوا يعملون معه. ودعانا بإشارة من يده إلى الجلوس. وهكذا بدأت المحادثة بين السيد دروفيتي الذي كان ينوب عنا في الحديث، ومترجم القنصلية الذي كان يترجم ما كان يقوله الباشا من التركية إلى الفرنسية. تم الحديث عن الرحلة ووعدنا بكافة الحماية والدعم. وسأل إن كنا سنتجه بدءاً إلى قمة الفرعون (هكذا كان ينادي الأتراك الأهرام)، ثم أتت

---

(١) «رسائل كتبت من مصر وبلاد النوبة سنتي ١٨٢٨ و١٨٢٩». باريس ١٨٣٣.

(٢) كان الباشا بالكاد يبلغ من العمر ثماني وخمسين سنة. لكن علينا ألا نغفل من أن الأمل في الحياة في هذه الفترة كان أقل، والشكل الخارجي للشخصية (أنظر الوصف الخارجي للشخصية) «بلحيته البيضاء المتدلية» تجعل الإنسان يخطئ في التقدير.

الأخبار السياسية، وكان الباشا مهتماً جداً بحادث بالكاد وصله. وهو مزعج لتركيا ومزعج للباشوات، وهو موت أحمد باشا باتراس. اغتاله يونانيون الذين أدخلهم رجال المدفعية إلى غرفته ليلاً. وكان هذا الخبر السيء يستولي على قلب الرجل. ووسط ابتسامته اللطيفة التي ما فتئ يكرمنا بها، كنا نراه يلقي علينا بين الفينة والأخرى نظرات كأنها لأسد والتي أشعرتنا ولو من بعيد بالرجل الذي قضى على المماليك. ولاشيء آخر فاجأني أكثر من وجه هذا الرجل القديس. فقد حفرت له في مخيلتي صورة على نحو شخصية لوحة هوراس، والرسم النظري المنجز من قبل السيد فورباڻ في رحلته. وكم كانت مفاجأتي أنني وعوض أن أقابل تلك الرأس القديمة، والأنف المعقوف، وذاك الوجه المثالي الذي قدمه لنا من قبل مديرنا الرومانسي، وجدتني أمام رجل قصير القامة بأنف مستدير وعينين رقيقتين ولحية بطريرق، وحركات صغيرة مختلجة كحركات مركيز من نابولي. كل هذا مُزج بإشارات مفاجئة ومظاهر ملحة لاتسمح لنا أبداً نسيان زميل الجزار باشا! وكان علي أن أقول أنه وفي خضم حديثنا، قدمت لنا أسوأ قهوة تذوقتها في حياتي كلها في فناجين صغيرة، وضعت على غطاء مطرز بالذهب. كانت مثل نظرات الباشا وسط ابتسامته الدائمة، وبعد ربع ساعة أذن لنا بالانصراف بالمودة نفسها. وركبنا العربة، وبذلك كانت القضية منتهية.

وخلاصة عالم الآثار المصرية كان هذا التركي الطيب رائعاً! ألم يدعو ضيوفه بأن «يعتبروا مصر كبلدهم؟».

وفي الثالث عشر من شهر أيلول، وقبل السفر إلى القاهرة ومصر العليا، عاد شومبوليون ولونورمون لتوديعه. وقد تركت المقابلة الثانية انطباعاً أفضل لدى مفتش الفنون الجميلة إذ قال «أتينا لنستأذن الباشا في الرحيل، وكان أكثر بشاشة من المرة الأولى، بطريقة جعلت الزيارة محسوسة. تحدثنا حول الهيروغليفية. ومن بين الأشياء التي قالها له شومبوليون، أخبره بأنه قرأ أوصاف المسلتين الموجودتين في الإسكندرية، وهو ما بدا أنه أثار اهتمامه، فطلب ترجمتها وأظهر حرصاً كبيراً على امتلاكها إلى درجة دعتنا إلى ملاءمة الصور الفرعونية

الغريبة شيئاً ما مع التركية (. . .) ووجدته أكثر جدية. وكانت ابتسامته الرقيقة تناسبه أكثر فوق لحيته البيضاء الجميلة».

أما شومبوليون فقد كتب «عدت لتوي في الساعة الثامنة مساءً من زيارة الوداع لنائب الملك. كان سموه رائعاً، وشكرته على الحماية المفتوحة التي خصنا بها، فرد بأن الأمراء المسيحيين الذين تعاملوا مع رعاياه من قبل عاملوهم بطريقة متميزة، ومن واجبه أن يفعل الشيء ذاته. تحدثنا عن الهيروغليفية، وانتهى بأن طلب مني ترجمة مسلتي الإسكندرية فوعدته بذلك، وستكون بين يديه غداً صباحاً مترجمة إلى التركية بواسطة مستشار القنصلية الفرنسية. وأراد محمد علي معرفة إلى أي نقطة من نوبة ستصل رحلتي، وطمأنني بأننا حيثما توجهنا سنلقى تكريماً وحسن استقبال. وتركته بعد كثير من الثناء كان يرده بطريقة لطيفة جداً».

وعلى امتداد رحلته، كان شومبوليون يواجه المأساة التي تضرب مصر القديمة. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف عن التدخل لدى نائب الملك. غير أنه لم يكن يطالب بالحفاظ على آثار مصر القديمة فقط، فعندما أريد تحويل مدرسة الطب التي أنشأها كلو إلى. . . معمل للحرير، ثار عالم الآثار المصرية، وانتهى بكسب القضية. وساهمت العناية الإلهية بشكل غير مباشر في تحقيق هذا النجاح. فقد تقدم إبراهيم باشا ذات صباح إلى القنصلية العامة لفرنسا، حيث يجتمع أعضاء البعثة الفرنسية، وبالتحديد الدكتور باريزي وهو عالم كبير في علم الأوبئة، حضر إلى الشرق للبحث عن وسائل لمواجهة الطاعون، فدعاه إبراهيم إلى العشاء لدى محمد علي رفقة شومبوليون. ويسقط ابن الباشا ذو الطبيعة المفرطة، فجأة نتيجة لأزمة حادة. وبفضل تدخل باريزي أمكن إنقاذه بمعجزة من موت محقق. ومنذ هذه الساعة، يغدق محمد علي على ضيفيه العطايا مردداً «بعث أحدهما ابني من الموت، ويفعل الثاني الشيء ذاته مع مجد بلادي القديم». ويستغل شومبوليون هذا الجو المناسب ليعبر بوضوح ويدافع

بأحسن الصور عن الآثار بينما ينطلق باريزي من جانبه في الدفاع عن الشعب المصري وعن ارتقائه الاجتماعي.

ويسلم عالم الآثار المصرية في التاسع والعشرين من شهر حزيران لسنة ١٨٢٩ إلى الباشا ورقة للدفاع عن آثار مصر، ويقرأ فيها ما يلي «من الضروري ومن المهم جداً، بأن تعرف الرؤى المحافظة لسموه من قبل عماله، فيتقيدوا بها وينجزونها إلى أبعد حد. وستكون أوروبا معترفة بالجميل للتدابير الفعالة التي يتخذها سموه لضمان الحفاظ على المعابد والقصور والقبور ومختلف الآثار التي ما تزال تبرهن على قوة وعظمة مصر القديمة، والتي تعتبر أيضاً أجمل زينة لمصر الحديثة. لقد حان الوقت لوضع حد لكل التدمير البربري الذي يحرم في كل لحظة العلم من آثار على قدر عال من الأهمية» وأيضاً «من مصلحة مصر نفسها مثل حكومة سموه أن تسهر على الحفاظ التام على البنايات والآثار القديمة، فالموضوع والهدف الرئيسي لرحلات العديد من الأوروبيين ينتمون إلى أكثر طبقات المجتمع تميزاً. وينضم أسفهم إلى أسف كل أوروبا العالمة، وهي ترثي بمرارة الهدم الكامل للآثار القديمة والمدمرة بشكل كلي منذ سنوات قليلة، دون أن يبقى منها أي أثر[1]».

غير أنه وللأسف، لم يكن لكل هذه التحذيرات أثر كبير، ليس لأن محمد علي قابلها بقلة اهتمام، ولكن لأن التحكم بالوضع كان من الصعوبة بمكان. ويروي قنصل فرنسا ميمو في برقية بتاريخ الرابع والعشرين من شهر شباط لسنة ١٨٣١ «شرع عمال برابرة لست أي باي جاهل أرسلهم، أو أي مأمور غبي، في تدمير معبد دندرا والذي يعد أحد أجمل معابد مصر العليا. ولما أعلمت من قبل مسافر مستاء، رجوت محمد علي أن يوقف هذا التخريب على الفور، ويجدد أمراً سابقاً حصلنا عليه أنا والسيد شومبوليون بعدم التعرض لأي من المعالم الأثرية القديمة، وأن يعاقب من يقوم بذلك عقاباً قاسياً، وأن تعتبر

---

(١) فييت. (مصدر ذكر سابقاً).

كمقدسات. واتخذت التدابير هذه المرة بكثير من الحزم والصرامة ما يجعلني أتمنى ألا يخالفها أي أحد من هؤلاء المتوحشين أبداً لتشييد معامل بئيسة، وحتى تبقى روائع الفن المصري والأعمال عظيمة». إلا أن أوامر محمد علي لفائدة دندرا لم تطبق بشكل جيد، وهو ما يجبر بوكلر موسكو على التدخل بدوره.

ويحاول لينون دو بيلفون أيضاً الحصول على ثلاثة فرمانات لمنع تدمير الأنقاض الرائعة لأنتينوي، غير أن ذلك كان عبثاً، مثل جهود إستورميل خلال مقابلة سنة ١٨٣٣، ويشتكي للعاهل التدمير الذي يطال الآثار، ويعده الباشا بأن يحرص على تنفيذ توجيهاته بهذا الخصوص.

«قلت لنائب الملك أنه وعلى الرغم من الأوامر التي أصدرها، فإن التدمير يصيب آثار مصر القديمة كل يوم، وأن الحجارة التي نقشت عليها الرسومات والرخام الثمين تؤخذ كحجارة كلسية، وبأن وتيرة التدمير مرتفعة جداً حد أن أربعة عشر من الآثار الرئيسية التي وصفت في الكتاب الكبير لمصر اختفت، وأن الذكريات والعواطف المتعلقة بهذه الآثار هي علاقات بين مصر وأوروبا وأن من المهم المحافظة عليها».

ويرد علي محمد علي بأنه واستجابة لطلب السيد ميمو أعطى أوامره بهذا المعنى «سأستغرب عدم تنفيذها، لربما أنا العاهل الذي تحترم أوامره أكثرمن أي عاهل آخر، غير أني لاأستطيع فرض أي طاعة لي من جانب الأوروبيين. أنا أكثر تسامحاً إزاءهم، ويذهب بي الظن إلى أن الأهالي الذين يدمرون الآثار يريدون بيعها أو تصدير بقاياها لهم[1]».

والاتهام الأخير لايخلو من أساس سليم، فإذا ما ارتفع صوت السلك القنصلي لحماية التراث المصري، فإنه لم يكن يعطي نموذجاً جيداً. فمن الملائم جداً وضع قنصل إنجلترا سيلت والسيد دروفيتي على رأس ما سمي بـ

---

(١) دوان في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «مهمة البارون بوالوكونت». القاهرة ١٩٢٧.

«النهاب»[1]. ويعلم روسل ريشليو بذلك في رسالة مؤرخة بالثاني والعشرين من شهر تموز لسنة ١٨١٧ «فذوق دروفيتي للآثار القديمة قربه من سيلت الذي له الميول نفسها، والذي كانت له مطلق السلطة على تجار التحف في لندن لدفع كل المبالغ اللازمة للحصول على الآثار المصرية. وأراد السيد دروفيتي أن يحاربه. فنتج عن ذلك ندية وعداء. ولست أعلم إن كانت مضاريات دروفيتي التجارية مكنت من دعم الحرب المدمرة على الأثريات ضد سيلت والذي منحه الأمير الوصي على العرش كامل الحرية لهذا الغرض[2]».

ولتتمة الحكاية، يتوجب التوضيح بأن القنصل النشيط ضارب أيضاً في... ريش النعام، ودوماً في تنافس مع سيلت حد أنروسل نفسه كتب ثلاثة أشهر بعد ذلك «يتواجد السيد دروفيتي في مصر العليا حيث رخص له الباشا المضاربة في ريش النعام الذي يأتي في قافلة من دارفور. ويتعين على السيد سيلت القنصل العام لإنجلترا التوجه إلى المنطقة نفسها، ويقال إنه سيرافقه اللورد بيلور (...)[3]».

ونتيجة لهذا، يجد دروفيتي نفسه سنة ١٨١٦ على رأس مجموعة رائعة من التماثيل والمسلات والنقوش البارزة وكلها تقريباً مسروقة من مقبرة طيبة الكبيرة، وقد عرضت بدءاً على فرنسا، لكنها بيعت إلى بلاط تورينو.

وراج كثيراً أن دروفيتي حين علم بنية شومبوليون التوجه إلى مصر حاول ثنيه عن ذلك حتى يتمكن بكل راحة، من إغناء مجموعته بمقتنيات أثرية «توصلت برسيلتكم التي شرفتموني بكتابتها في الثامن عشر من شهر شباط، وأرجو أن تقتنعوا بألا أحد من بعدكم يدرك الفائدة العظمى من الزيارة المهمة التي تقترحون القيام بها إلى مصر غيري. وإني لأتألم أكثر من أي كان من الأوضاع والتي

---

(١) أنظر كتاب بريان فاغان باللغة الفرنسية بعنوان «المستقبل الأركيولوجي في مصر» منشورات بيغماليون. جيرار واتلي.

(٢) دريو ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) المصدر نفسه.

لاتسمح لي بأن أشجعكم على تنفيذ هذا المشروع خلال السنة الجارية، إلا إذا أتت التدابير الإجبارية لتركيا من قبل القوى العظمى الموقعة على معاهدة لندن، النتائج المتوقعة منها، من هنا وحتى شهر آب القادم. ذلك أن روح العداء ضد الأوروبيين تسود في مصر كما في كل مناطق الإمبراطورية العثمانية، والتي يمكن أن ينتج عنها في بعض الحالات، هيجاناً وأعمال شغب ضد الأمن الشخصي لكل المقيمين في مصر أو المتواجدين بها كمسافرين، ولو أن الأمر تعلق فقط برغبة محمد علي في وقف آثار الاستياء، لما شق عليه الحصول على ما كلمفتموني بطلبه منه، لكنه معرض أيضاً لهذا العداء، بسبب عواطفه الأوروبية، وهو لم يجرؤ على منحي الضمانات التي طلبتها لكم ولمرافقيكم في الرحلة. وإذا ما طرأ تغيير في غضون ذلك، في الوضعية السياسية للقوى المتدخلة ضد تركيا، يمكنكم بدء الرحلة دون انتظار أي جديد، إذ أن بعثتكم لن تتعرض لأية مشكلة وستكون محمية بأكثر الطرق نجاعة بواسطة الحكومة المحلية. وقد تقدم روزيليني بالطلب نفسه وحصل على الرد ذاته. ولتتأكدوا من أني أكثر حزناً لعدم تمكني من الاستجابة لطلبكم الموافق لرغباتكم، والتي يجب أن تكون رغبات كل أصدقاء العلوم التي تتعهدونها بكل هذا النجاح...[1]»

وكان على عالمة الآثار المصرية هيرمين هارتلبين أن تستفيض في هذا المعنى مستعيدة مقطعاً من رسالة شومبوليون إلى أخيها «أقدر كثيراً شخصيته السياسية، وسلوكه في مصر حيث لم يهتم (دروفيتي) إلا بمصالحه المرتبطة بمصالح الباشا، دون إعطاء أية أهمية للمصالح الوطنية التي يأخذ راتباً من أجل الحفاظ عليها. كل الفرنسيين المقيمين في مصر يمقتونه، ولاأجرؤ على القول بأنهم مخطئون[2]!»

---

(١) شومبوليون. (مصدر ذكر سابقاً). رسالة دروفيتي في الثالث من شهر أيار لسنة ١٨٢٨.

(٢) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «جون فرانسوا شومبوليون.. حياته وأعماله ١٧٩٠ ـ ١٨٣٢». بيغماليون. جيرار واتلي. باريس ١٩٩٠.

ومع ذلك، وبخصوص هذه القضية، من اللائق أن نخفف النقد، وأن ننظر إلى النظرية المدافعة عن هذا المعنى من طرف جون جاك فيشتر[1]، وهي معقولة تماماً. ذلك أن وضع دروفيتي في هذا الوقت كان وضعاً دقيقاً، إذ كان يفاوض مع فرنسا لمحاولة إخراج محمد علي من التزامه في موريي بطريقة مشرفة. وكانت هناك معركة نافارين في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٧، والتوتر الذي يسود مصر، والعداء الذي يصدر عن الأهالي نحو القوى العظمى الأوروبية. وكل هذه العوامل التي تجعل أنه من غير المناسب وصول وفد أجنبي. وهكذا فحين كان دروفيتي يحاول إقناع شومبوليون بتأجيل سفره، كان صادقاً. والدليل هو أنه ما إن وصل عالم الآثار المصرية إلى المنطقة حتى قام بأفضل ما يستطيع لتسهيل مهمته، واستقباله بحرارة غير مختلقة. ألم يكتب شومبوليون بنفسه إلى أخيه «من جهة أخرى، أنا هنا مدلل من قبل الجميع، وخاصة من طرف السيد دروفيتي مع أن حالته الصحية مزرية جداً[2]» ويضيف في رسالة مؤرخة في التاسع والعشرين من شهر آب «إن السيد دروفيتي مسرور جداً بوصولي، وهو الذي يصنع لي أجمل لوحة لسفري القادم». ويمكن تفسير تحول قنصل فرنسا إذا ما علم أنه وفي المدة التي كتب دروفيتي إلى شومبوليون لثنيه عن التوجه إلى مصر في الثالث من شهر أيار لسنة ١٨٢٨، ويوم وصول هذا الأخير الذي صادف يوم الثامن عشر من شهر آب، تم التوقيع على معاهدة في التاسع من شهر آب بين محمد علي والقوى الأوروبية، وذلك بالسماح لجنود محمد علي أن تنسحب «ودياً» من موريي تحت مراقبة الجنرال ميزون.

وبالتالي، فإن القنصل ومع ذلك، لم يتصرف أبداً إلا من أجل مصلحته عندما نهب الآثار والمسلات مثل زميله سيلت والذي دمر بمساعدة صارمة من قبل

---

(١) فيشتر. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) توفي في التاسع من شهر آذار لسنة ١٨٥٢ في تورينو عن سن السادس والسبعين سنة بعد إصابته بتصلب شرايين الدماغ.

جيانباتيستا بيلزوني[1] «مارد بادوخا» جزءاً من معبد الكرنك. وهكذا قلد هذان الدبلوماسيان بكل فرح في أعمالهما من قبل ممثلي النمسا وبروسيا والسويد.

وكان يتعين انتظار سنة ١٨٣٥ حتى تنشر «المرشد المصري» مراسلة هذا أهم ما جاء فيها:

«يحدث أن يدمر الأجانب البنايات القديمة، وذلك بسحب الحجارة وأشياء أخرى سبق العمل عليها ويصدرونها إلى البلاد الأجنبية. وإذا ما استمرت هذه الأساليب، فمن غير شك أنه لن يمضي وقت طويل حتى لايبقى شيء من الآثار القديمة في مصر. فكل شيء ينقل إلى الخارج. ومن المعلوم أيضاً أن الأوروبيين يتوفرون على منشآت متخصصة للعناية بالتحف كالحجارة المغطاة بالرسومات والكتابات والعديد من الأشياء المشابهة. وتحفظ فيها بعناية، وتعرض على سكان البلد إضافة إلى المسافرين الذين يرغبون في رؤيتها ومعرفتها، ومثل هذه المؤسسات تمنح البلاد التي تمتلكها شهرة كبيرة. وقدرت الحكومة، آخذة في الاعتبار كل هذا، أنه من الواجب حظر تصدير الأشياء القديمة التي تتواجد في البنايات القديمة في مصر، والتي تعد قيمة كبيرة، إلى الخارج. وأن يعين في القاهرة نفسها مكان مخصص لتخزين كل ما يعثر عليه أو ما سيعثر عليه عند أعمال الحفر. وقدرت أنه يتعين عليها أن تعرضها للسائحين الذين يزورون البلاد، ومنع هدم البنايات القديمة المتواجدة في مصر العليا والسهر على رعايتها بكل أنواع العناية الممكنة[2]».

ويعلق الدكتور كلو على هذا القرار كاتباً «منذ أن سمح بزيارة مصر بمطلق الأمن، أبدى المسافرون الذين جابوا مصر، شراهة كبيرة بأخذ هذه الأشياء القديمة حد أن محمد علي منع التصدير العشوائي للآثار القديمة، وأخذ يبدي تحفظاً لمنح أي ترخيص لأعمال الحفر. ولن أختم دون أن أتمنى رؤية نائب

---

(١) أنظر كتاب جيانباتيستا بيلزوني باللغة الفرنسية بعنوان «أسفار في مصر والنوبة». منشورات بيغماليون. جيرار واتلي.

(٢) فييت. (مصدر ذكر سابقاً).

الملك ينشئ في مصر متحفاً للأشياء القديمة حيث يمكن استقبال كل الكنوز الأركيولوجية الموجودة بها بعناية واهتمام».

غير أن التدابير المتخذة لم تكن كافية لوقف النزيف، ويكتب نستور لهوت «لم تكن بربرية المسافرين أقل تدميراً من جشع العرب، فهي تهاجم كل الآثار، وللحصول على قطع تشوه جدراناً بأكمله. وبدورها، تقوم الحكومة التركية بعمليات تهديم لاتقل أسى عن سابقتها. وصحيح أن هذه الأخيرة لم تصل حتى قلب الجبال وتدمر كل الرسومات على القبور قطعة قطعة لأخذ قطع منها. فالأنانية والغرور لم يكونا دافعاً لذلك، ولكن وتحت ذريعة تلبية حاجات الحكومة، تعمل على ذلك على نحو ما يقال، دفعة واحدة». وتقتلع مداخل الهياكل بأكملها، وبجعل منها غباراً ليستخدم في صناعة البارود. «وصحيح أن الباشا حظر على رجاله الاقتراب من الآثار التي تحمل كتابة ما، غير أن هذا الحظر كان مجرد وهم[1] » وكان لهوت محقاً مادام أنه وفي سنة ١٨٣٨ كان على بريس دافين أن يحارب بالمعنى الحقيقي والمجازي للكلمة لوقف بناء مملحة للبارود بالكرنك بواسطة حجارة المعابد الكبرى.

ولما كان الأمر كذلك بخصوص موقف دروفيتي أو موقف سيلت، فنحن مضطرون للاعتراف أنه بطريقة ما سمح الرجلان بانتزاع روائع الآثار المصرية من بين يدي كل أنواع النهّاب، حتى لو أن ما قاما به، كان يهدف مصالحهما الشخصية. أو ليس هذا ما يقوله فيتشر «أقل الضرر؟» وبالفعل، ماذا كان سيكون مصير هذه الآثار لو أنها بقيت بين أيدي العمال ورجال الفرعون؟ وعلينا ألا نغفل انتظار. . . سنة ١٨٥٨، أي سنة تعيين أوغيست ماريبط[2] في منصب مدير مصلحة الأثريات[3] ليعود النظام تقريباً ولينتهي نهب الآثار القديمة (جزئياً).

---

(١) كاري. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) يدين بهذا الإسم إلى سعيد ابن محمد علي.

(٣) أنظر كتاب إليزابيت دافيد باللغة الفرنسية بعنوان «ماريبط باشا (١٨٢١ ـ ١٨٨١). منشورات =

ومن بين كل المغامرات الجيدة أو السيئة، يذكر التاريخ بشكل خاص ما يتعلق بمسلة معبد الأقصر، الذي يزين اليوم أجمل الساحات في العالم إن لم تكن أجملها على الإطلاق، الكونكورد. لم يكن الأمر يتعلق بهذه المسلة في البداية، وتعود القضية إلى لويس الثامن عشر الذي استعاد فكرة نابوليون، فشرع في التفاوض مع نائب الملك للتخلي عن معلمة تاريخية تذكر بحياة الفرنسيين العظيمة في مصر. فيقرر محمد علي منحه إحدى مسلتي كليوباترا ما دام وعد الإنلجيز بالأخرى. غير أنه ومنذ ثاني يوم وصل فيه شومبوليون إلى الإسكندرية، يتوجه إلى المكان، ويقف على درجة السوء التي تعاني منها «المسلتان».

وأرسل الإنجليز من جانبهم، فرقة مهندسين تابعة للبحرية الملكية لدراسة مسألة النقل، ليخلص تقريرها أنه ولنقل المسلة، يتعين إنشاء طريق خاصة، تبلغ كلفتها ثلاثمائة ألف فرنك، وهو ما أخمد (مؤقتاً) اهتمام حكومة سان جيمس.

ولما أبلغ شومبوليون بهذه القضية في الوقت الذي كان فيه في الأقصر، يكتب إلى أخيه «أنا في حال جيدة لأن العالم الإنجليزي أتته فكرة إنشاء طريق بثلاثمائة ألف فرنك لتنفير حكومته وبالتالي حكومتنا من مسلتي الإسكندرية البئيستين، وهما تثيران شفقتي منذ أن رأيت مسلات طيبة».

وعند عودته إلى مصر العليا في بداية شهر آذار من سنة ١٨٢٩، انتهى فحص آخر «المسلتي كليوباترا» بإقناعه تماماً، فيسارع في الكتابة إلى دروفيتي الذي سرعان ماعوض ميمو «أرغب في أن تصلك هذه الرسالة في الوقت المناسب لتقترح على باريس فكرة الحصول على إحدى مسلتي الأقصر عوض هذه المسلة المهترئة للميناء القديم، وهي ستكون أجدر بالوطن وبالوزارة وبكم».

ويكتب إلى أخيه أيضاً «أعدت رؤية هذه المسلات الجميلة، لماذا نتسلى في

= بيغماليون. جيرار واتلي».

حمل مسلة الإسكندرية بينما نستطيع الحصول على هاته بهذا المبلغ المتواضع الذي يصل إلى أربعمائة ألف فرنك على الأكثر؟ سيخلد الوزير الذي سينصب إحدى هذه المسلات الرائعة في إحدى ساحات باريس بأرخص الأسعار».

غير أن أحد الأسباب التي ألهمت شومبوليون هذه الرغبة، كان أيضاً خوفه من رؤية هذه الروائع تخرب بدورها بأيادي المخربين المختلفين «فهذا القصر الرائع (معبد الأقصر) الأكثر تدنيساً من بين كل الآثار المصرية القديمة، وهو مقفل بأكواخ الفلاحين البئيسة التي تحجبه وتشوه أبوابه الجميلة دون الحديث عن بيت بئيس لبنباشي يقيم على ساحة المعبد التي ثقبت بضربات معول لمنح مجال لمرور قذارات التركي».

ولم يكن المشروع الذي يتصوره بسيطاً، إذ كان الأمر يتعلق بنقل المسلة، أي أزيد من مائتين وعشرين طناً بارتفاع ثلاثة وعشرين متراً على متن عوامة مستغلاً فيضان النيل. وهكذا كان عليها أن تصل على ظهر العوامة حتى الإسكندرية ومن ثَم تنقل بواسطة سفينة إلى فرنسا.

هل كان يعرف أم لا أن الفكرة التي يعرضها مطابقة تماماً لفكرة ألهمت لينون دو بيلفون بواسطة بلين في الكتاب السادس والثلاثين، وأنه اقترح على سيلت قبل وقت من ذلك، نقل مسلة قد تكون هذه نفسها دون أن ينفذ مشروعه؟

مهما يكن الأمر، فمن أجل مشروع مماثل، كان يلزم وجود ميزانية، وبالتالي وزير. ويخلف بولينياك مارتينياك على رأس الحكومة في شهر آب من سنة ١٨٢٩ ويوكل وزارة البحرية المكلفة بالملف للبارون دوسي. ومع أنه لم يكن يحمل مشاعر طيبة لشومبوليون إلا أنه أخرس مشاعره تجاهه، ويطلب في الثامن عشر من شهر كانون الأول لسنة ١٨٢٩ من سيريسي، معلومات حول أبعاد ووزن المسلة ورأيه في وسائل نقلها. ويبدو أن سيريسي كان مشغولاً جداً، ولم تغره المحاولة في تحمل المسؤولية في مشروع مرتجل، فتجنب الرد عليه.

فتتجه الوزارة إذن إلى. . . جون فيكتور بيسون الذي كان يومها مديراً

لحركات ميناء الإسكندرية، والذي اقترح مخططاً شاملاً. ولما كان ملهماً من فكرة شومبوليون، أو بفكرة نابوليون، أو بفكرة الرومان، فقد وضع مخططاً لعوامة ضخمة قادرة على حمل المعلمة المختارة من طيبة إلى الإسكندرية، عن طريق النيل، ومن هنا ينقلها مركب بخاري حتى طولون.

ويعرض المشروع على لجنة باريس، فترفضه بدعوى شدة تعقيده، وصعوبة تنفيذه، وارتفاع تكلفته، وافتقاره لعنصر الأمن. وتفضل اللجنة بناء مركب بعمق مسطح وفقاً لمخططات رولان ذائع الصيت، والمفتش العام للهندسة البحرية. ويطلق عليه اسم «الأقصر». ويعطي دوسي أمره إلى أوراش طولون للشروع في البناء، غير أن ثورة تموز تسقط الوزير الذي لم يستطع إخفاء مرارته في مذكراته «لم تمنح لي فرصة رؤية إتمام هذا المشروع في عهد وزارتي، ولربما سيجهل دوماً بأن تصوره كان صنيعتي، وأن كل وسائل التنفيذ قد هيئت ووضعت قيد العمل من طرفي[1]». ويعهد بالملف بناء على توصياته إلى أحد الأشخاص المقربين منه، وهو البارون إيزيدور جيستان سيفيران تايلور ابن أحد الإنجليز المجنسين، وهو مؤلف درامي، وأركيولوجي في بعض الأحيان. وأحد المؤسسين المقبلين لجمعية «ناس الآداب»، وهو الآن مفتش في معهد الفنون الجميلة ومفتش ملكي في «الكوميديا الفرنسية».

وبالفعل، فمنذ شهر نيسان من سنة ١٨٣٠، أي أربعة أشهر بعد عودة شومبوليون إلى فرنسا دخلت الحراقة لولونسيي إلى ميناء الإسكندرية، وكان على متنها البارون تايلور المرسل في مهمة من قبل شارل العاشر إلى الباشا من أجل إتمام المسألة. ولم يصل فارغ اليدين، فمن بين الهدايا المختلفة التي حملها إلى الباشا من أسلحة وخوذات ودروع والبورسلين، إضافة إلى «وصف مصر» المشهور. ولسوء الحظ، لم تخلف الهدايا الأثر المطلوب، إذ

---

(١) ذكره جون لاكوتير في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «شومبوليون.. حياة الأنوار». باريس ١٩٨٨.

سيبدي القنصل البريطاني باركر معارضته في تلك الأثناء كما يروي ذلك ميمو.

«اتخذت الحوكمة الإنجليزية بحسب بعض السواح، العديد من الخطوات عن طريق قنصلها العام لدى محمد علي من أجل الحصول على مسلة من مسلتي الأقصر، متذكرة وعداً سابقاً قدم للسيد سيلت القنصل السابق. وقد جدد بالفعل هذا الوعد لزميلي الإنجليزي السيد باركر الذي ما إن علم بمشروعنا بطلبهما معاً لفائدة فرنسا، حتى هرع من الرشيد حيث كان يتواجد لطلب تنفيذ الإلتزام الذي قدم لحكومته وله شخصياً. وفي هذا الوقت، وجدت نائب الملك في مأزق لم يعرف كيف يتخلص منه. فقد كان من اللائق بالنسبة له أن يمنح لملك فرنسا الذي شرفه بالكثير من الهدايا دليلاً على عرفانه، إلا أنه كان يخشى أن يخطئ في حق الحكومة الإنجليزية التي كان يخص علاقته بها بالكثير من الرعاية لعدة أسباب. وأمام هذا التعقيد، أرادني أن أوافق على أحد هذين الاقتراحين. إما منحنا مسلة الإسكندرية ومسلة المطرية، والعديد من المسلات الأخرى من اختيارنا لقراره الاحتفاظ بمسلتي الأقصر حتى لايثير حفيظة أحد، أو إعطاء مسلة لفرنسا وأخرى لإنجلترا في حال تشبثنا بهما.

أعرف الباشا معرفة تامة، وأعلم كيف أتصرف معه. فأعلنت له بوضوح أن أياً من مقترحيه لم يرقني، وأننا لانريد بأي حال من الأحوال اقتسام مسلتي الأقصر المتلائمتين، وأنهما اثنتان لاتقبلان أن تفصلا، وأنهما نصفان لوحدة متكاملة، وبأني سأتألم أيضاً لفكرة إهداء الملك مسلات لن تكون إلا شيئاً غير ذي قيمة أمام مسلتي الأقصر.

فيقول لي محمد علي:

- إنكم تضعونني في موقف شديد الحرج.

- هل تسمح يا صاحب السمو بأن أمنحكم الوسيلة للتخلصوا من هذا الموقف مع رضى الجميع؟

- ستقدمون لي بذلك خدمة كبيرة.

ـ وعدتم الإنجليز بإهدائهم إحدى مسلات طيبة. إمنحوهم مسلة الكرنك المعروفة بأنها أجمل وأكبر المسلات، والتي سيفتخرون بها، واعطوا ملك فرنسا الذي سيعترف لكم بالجميل مسلتي الأقصر.

وبدت هذه الفكرة لنائب الملك مثل بارقة ضوء، فشكرني عليها جزيل الشكر، أكثر مما أستحق. ومنذ هذه اللحظة سوي كل شيء وانتهى الأمر، إذ سيرجو محمد علي من صاحب الجلالة ملك فرنسا التكرم بقبول الهدية التي يمنحها له، والمتثلة في إحدى مسلتي الإسكندرية ومسلتي الأقصر. وسيقدم عرضه هذا في رسالة كتبت باسمه إلى سعادتك. ولإنهاء كلي للقضية، وحتى لاتتم العودة لها، ألزمته على الاستفادة من الزيارة التي سيقوم بها في الغد السيد القنصل العام لإنجلترا بمناسبة عيد الأضحى، ليعلن له الهدية التي سيقدمها إلى صاحب الجلالة البريطاني، والمتمثلة في مسلة الكرنك الجميلة. وبالفعل فقد قبل السيد باركر باسم ملكه هذه الهدية وشكر الباشا عليها.

والحقيقة أن مسلة الكرنك أرقى برتفاعها وبطريقة عملها من مسلتي الأقصر، لكن لها ظرفها الخاص بها، فهي متموقعة في قلب ساحة ومحاطة بمبان ضخمة. ويلزم إذن القيام بعمليات هدم كبيرة، ومن المرجح عدم القيام بذلك من أجل شق منفذ وسطها[1]».

فبفضل هذه الحيلة إذن تمكن أو ظن أنه حرم إنجلترا من مسلة، ومنح فرنسا ثلاث مسلات. . . لكن بأيها ستتم البداية؟

وبإيعاز من البارون تايلور، يبدأ لأول وهلة بواحدة من «مسلتي كليوباترا»، فتفشل المحاولة، ليتم التخلي عن المعلمة لفائدة. . . الأمريكيين، وهي تقوم اليوم في سنترال بارك في ظل متحف العاصمة[2].

وتمت العودة عندئذ إلى اختيار شومبليون. فتتحرك في الخامس عشر من

---

(١) يدعى حتشبست في معبد آمون. يصل ارتفاعه إلى ثلاثين متراً، ويزن حوالي ثلاثمائة وعشرين طناً.

(٢) كان هبة من الخديوي إسماعيل إلى مدينة نيويورك.

شهر نيسان لسنة ١٨٣١ «الأقصر» تحت قيادة فيرنياك دو سان مور من طولون إلى الإسكندرية. ويمكن تخيل النزهة بكل سهولة، إذ كان يلزم صعود النيل حتى الأقصر، ورفع المائتين والثلاثين طناً من الغرانيت على متنها، ومعاودة النزول عبر النهر والالتفاف حول شبه الجزيرة الإيبيرية، واجتياز خليج غاسكون للوصول إلى لوهافر، وصعود السين حتى باريس. وكان هناك ما يجعل رمسيس الثاني يهتز تأثراً. وفي الثالث والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٣ تقام المسلة في ساحة الكونكورد. وكبادرة عرفان يمنح لويس فيليب بعد ثلاث عشرة سنة من ذلك، وفي الثامن عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٤٦ الساعة الحائطية المخصصة للمسجد الذي كان ما يزال قيد الإنشاء، حيث يرقد اليوم قبر محمد علي.

أما الإنجليز، فسيعاودون محاولتهم بعد أزيد من أربعين سنة من ذلك. وفي سنة ١٨٧٨ تصل أخيراً إحدى «مسلتي كليوباترا» إلى لندن. وتقوم جوار واتلرو بريدج.

غير أن ملحمة المسلات لاتنحصر في هذه المسلات الثلاثة فقط. ففي كل الأزمنة، كانت رمزاً مميزاً لمصر. وأخذ أسيربانيبال اثنتين إلى نينوا والعديد منها إلى بيزنطة. أما إمبراطورو الرومان الذين كانوا فرحين بها كثيراً، فقد نقلوا أزيد من ثلاث عشرة منها إلى روما، وبالتحديد المسلة الموجودة في ساحة لاتران[1].

أما المسلة التوأم لمسلة الكونكورد فما تزال دوماً في مصر، حيث ترقب ربما عودة شقيقتها.

ويجب التذكير هنا على سبيل الحكي بأن التنافس الفرنسي الإنجليزي غير المنقطع عرف ساحة حرب أخرى وهي... زرافة. فقبل سنتين تقريباً من

---

(١) جاء من معبد الشرق في الكرنك، وشيد في عهد تحوتمس الثالث، وأزيح في عهد قسطنطين الثاني سنة ٣٧٥.

وصول شومبوليون إلى مصر، أحضر جنود محمد علي من السهوب السودانية زرافتين أرسلتا مباشرة إلى الباشا. ولما علم الخبر، رجا دروفيتي نائب الملك أن يهديها إلى شارل العاشر الذي كان يهتم كثيراً على ما يبدو بحديقة نباتاته. وسرعان ما يقدم قنصل إنجليترا الطلب نفسه كأنه شيطان انعتق من علبته. فيجد محمد علي نفسه في حرج مثل ما حدث معه فيما بعد بخصوص المسلتين. غير أنه لم يدع لهما مجالا ليؤثر أحدهما عليه، إذ اقترح إجراء قرعة لتحديد مصير الزرافتين. فتعود إحداهما إلى فرنسا والأخرى إلى إنجلترا. وبطبيعة الحال، وإذا ما صدقنا دروفيتي فإن الزرافة «الفرنسية» كانت أشد صلابة وصرامة بينما كانت «الإنجليزية» دائمة المرض، ومعرضة لموت سريع. مهما يكن الأمر، فقد نقل الحيوان بحراً إلى مرسيليا التي وصلها في الثالث عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٢٦، وسيحتفظ به هناك في انتظار حلول فصل الصيف. وخوفاً من تعرضه للبرد، يحاك له لباس واق من المطر بأزرار أمامية. وكان مختوماً من جهة بختم محمد علي ومن الجهة الأخرى ختم شارل العاشر. وفي النهاية، وعند حلول فصل الربيع، قطعت الزرافة بشجاعة في شهر تقريباً المسافة التي تفصلها عن العاصمة، بمعدل سبعاً وعشرين كيلومترا في اليوم الواحد. وفي الثلاثين من شهر حزيران لسنة ١٨٢٧ دخلت إلى حديقة النباتات دخول المنتصرين بطبيعة الحال.

[18]

الفرعون أو الحرية المدماة (١٨٢٣ ـ ١٨٢٦)

لم تكن غزوات محمد علي إلى الآن سواء في الجزيرة العربية أو في السودان في نظر أوروبا إلا أعمالاً محلية نوعاً ما وقضايا تركية ومصرية. ولم تهدد أعماله في أي لحظة من اللحظات المصالح الأوروبية، أو تثير مشلكة حقيقية للقوى العظمى. بخلاف الحرب التي سيخوضها في قلب اليونان، إذ ستكون هذه الحملة الأخيرة مثقلة بالانعكاسات سواء بالنسبة لأوروبا أو لسادة الباب العالي ذلك أنها ستجعل ابن كافالا أخيراً، كما سنرى يلعب دوراً يعارض تماماً دوره الأول، جاعلة منه عدو السلطان وليس مساعداً له.

ومثل مصر، كانت اليونان تعيش تحت الحذاء التركي منذ ما يقرب من قرنين مع اختلاف أن اليونانيين لم يكونوا بمثل سلبية الفلاح. فمنذ ١٧٨٩ رفعت أصداء الثورة الفرنسية من طموح المثقفين اليونانيين، وأيقظت لديهم الرغبة في الاستقلال. وكان الشاعر قسطنطين ريغاس مؤسس أول جمعية وطنية أطلق عليها اسم ليطيري، يتوقع أن يتدخل بونابارت بعد انتصاراته في إيطاليا. ولما خاب أمله بهذا الخصوص، كرس ريغاس جهده للعمل المباشر ضد العثمانيين، وهو ما أدى إلى إعدامه سنة ١٧٩٨ . غير أن النضال لم ينته هاهنا، إذ سيقوم بطريرك باتراس جيرمانوس في الخامس والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٢١ بالدعوة إلى حرب التحرير الوطني، والتي ستترجم مباشرة بمذابح ضد

الأتراك في موريي تبعت بمجازر ضد اليونانيين في إسطانبول. وفي الثاني عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٢٢ يعلن مجلس النواب في أبيدور استقلال اليونان ويختار ألكساندر مافروكورداتو كرئيس أعلى.

واضطر العثمانيون أخيراً، ورغماً عنهم منح اليونانيين جملة من الامتيازات، مرخصين لهم «رؤساء» من المذهب الأرثذوكسي مختارين من قبل المواطنين، ومصادق عليهم من طرف الباب العالي. وسرعان ما تتوفر العديد من المدن على ميليشيات سرية حد أنه، وفي سنة ١٨٢١ اعتبرت موريي معقل الوطنيين. ألم تدفعهم الوقاحة حد إقامة حكومتهم في نوبلي محولين المنطقة إلى معقل للمقاومة؟

وقدر السلطان أن الوقت حان إذن لوضع حد لوقاحة الهيليين سيما وأن نضالهم أخذ يستهوي الأنتلجنسيا الأوروبية أكثر فأكثر. غير أنه ولما كان الباب العالي ضعيفاً ومفتقراً للدماء في شرايينه، فقد بدا عاجزاً عن تحقيق النصر. وخلال شهر آذار من سنة ١٨٢٣ يتجه محمود الثاني إلى بطله الجديد. وهكذا، يكلف محمد علي بالقضاء على الثورة وقمع المتمردين.

وهناك من أرجع إلى السلطان فكرة البحث عن إضعاف قوى تابعه، حتى إنه قيل أيضاً بأن خسرو باشا مصر السابق الذي أرسله محمد علي في سنة ١٨٠٥ بحراً إلى إسطانبول وصار من يومها عدوه اللدود، هو من قدم هذه النصيحة إلى محمود. وعلى الرغم من أن غيرة الباب العالي من ابن كافالا أخذت تتزايد أكثر فأكثر من دون شك، إلا أن السلطان في حالة الثورة اليونانية مثل ثورة المتمردين الوهابيين، كان خاضعاً للحاجة.

وفي نظر محمد علي، لم يكن طلب سيده بدون فائدة، بل إنه كان يتمناه لسببين اثنين، فهو يرى في الأول من دون شك، أن معركة موريي القادمة ستكون مناسبة له لإظهار قوة جيشه الفتي أمام العالم، وإبراز تفوقه العسكري على الباب العالي للقوى العظمى، ولرفع مكانته المتميزة في نظر العالم الإسلامي. أما السبب الثاني، وهو الأهم بكل تأكيد، فيتمثل في أمله في

الحصول على مقابل على هذه الخدمة، وذلك بأن تقدم له باشوية سورية التي يحلم بها منذ وقت طويل. ومن أجل هذا الأمل بالخصوص، يوافق على التكفل بالقضاء على الثورة اليونانية.

غير أن لوفيرن يرجع التزام انخراط الباشا إلى سبب آخر ويوافقه عليه السيد صبري. فبعد أن قابل الكولونيل سيف في موريي في بداية سنة ١٨٢٥، يقدم آراء هذا الأخير حول أهداف محمد علي «إذا استسلمت موريي، فإن اليونانيين سيعاملون كما يرغب باشا مصر، ونحن لانخفي أن ذكاء اليونانيين أكبر من ذكاء الأتراك. وسيكون الأداة الأولى لحضارة العرب. فعلى الرغم من الاختلاف الديني، سينظر إليهم بالطريقة نفسها التي ينظر بها ملك فرنسا إلى الرومان الكاثوليك والبروتستان.

وكلما تعمقت جذور التعليم وتذوق الآداب في مصر، سيخفف الباشا من هذه الصرامة الضرورية لفرض الصمت على مشاعر الكراهية لرعاياه الجدد. وباختصار شديد، لن تصير العصا فزاعة جنس جاهل وبربري. من جهة أخرى، لا ينبغي إغفال البحارة اليونانيين. فمصر بلد خصب المواد الأولية، وجهلنا أننا نبيع التجار الأوروبيين ما لانستطيع تصنيعه. فمصر المتحضرة ستكون لها مصانع القطن والنسيج والجوخ، وستنقل السفن اليونانية بضائعنا إلى كل موانئ العالم. ومحمد علي يقدر البحرية اليونانية بالقدر نفسه الذي يقدر موريي نفسها. أنا شبه متأكد من أنه سيدعو إلى عفو شامل لصالحهم، شريطة أن يأتوا ويستقروا في الأراضي المصرية مع عائلاتهم[1]».

وهذه الفرضية غريبة. إذ من الصعب تخيل كيف أن رجلاً بمثل اطلاع الباشا ومعرفته الكبيرة بالروح اليونانية لأنه جاورها طيلة فترة طفولته، يمكنه أذ يتصور أن قضية موريي ستنتهي بمجرد استسلام بسيط، وأن اليونان بحارة كانوا أم لا سيميلون إلى خدمة محمد علي ومصر. وهناك عدة حقائق تتمثل في أنه

---

(١)

لايحمل أي عداء لليونانيين الذين عاش معهم دوماً بتفاهم كبير، وأنه لايحمل أي تعصب ديني، لكن أن تصدق الأهداف التي ينسبها سيف إلى محمد علي فتلك مسافة بعيدة.

وكان أول شيء طلبه محمود من تابعه في البداية، قمع التمرد في جزيرة كريد.

فيرسل محمد علي في ربيع سنة ١٨٢٣ فرقة بحرية، وعدة كتائب إلى كاني، فيقضي بسرعة على التمرد. ويكافأ مباشرة بباشوية كريد التي ستكلفه أكثر بكثير مما سيجنيه من ورائها٢، مع أنها كانت بأهمية كبيرة بالنسبة له، بالنظر إلى الموقع الاستراتيجي للجزيرة، وللسهولة الكبيرة التي تقدمها في حال التدخل المباشر في البيلوبونيز. وهذا بالضبط هو الهدف الذي حدده له السلطان. وفي السادس عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٢٤ يسمي فرمان إمبراطوري محمد علي بمبيد الكفرة، في تذكير من دون شك بالحملة ضد الوهابيين، ويحمله على «إحلال السلام» في اليونان لفائدة الباب العالي[(١)].

وسرعان ما يهيء ابن كافالا جيشاً يجعل ابنه إبراهيم قائداً عاماً له. وفي السابع عشر من شهر تموز لسنة ١٨٢٤، يغادر إبراهيم المساعد من قبل سيف الذي بات يعرف باسم سليمان باشا، الإسكندرية على رأس إحدى وخمسين باخرة حربية ومائة وست وأربعين ناقلة، وثمانية عشر ألف رجل، وثمانمائة حصان. ويأخذ هذا الجيش العظيم اتجاه رودس لتكون نقطة اتصال بينه وبين الأسطول التركي الذي يقوده القبطان باشا الذي لم يكن سوى خسرو باشا. ولم تكن الضغينة التي يحملها هذا الأخير في تلك الساعات ليعادلها إلا عدم كفاءته. وكدليل على ذلك، هو أنه عند وصول إبراهيم إلى نقطة الالتقاء المحددة سلفاً، لم يكن خسرو برودس. فعلى الرغم من تفوقه، ترك زعيم الوطنيين مياوليس يلحق به هزيمة في قناة ساموس، ويجبر على اللجوء إلى مرسى بودرون في خليج كوس. وهكذا يفقد إبراهيم حوالي أربعين يوماً في

---

(١)

بحثه عن الأميرال. ذلك أنه لم يجده إلا في السابع والعشرين من شهر آب، غير أنه ولسوء الحظ، ما إن يتم الاتصال بينهما حتى تظهر السفن الخمسون لمياوليس تسبقها سفن حارقة يقودها أحد الوطنيين اليونانيين ويدعى كناريس. وبجسارة مدهشة، يشرع اليونانيون في هجومهم فتصيب قذائفه سفينة الأميرال التركي، إضافة إلى أربع سفن أخرى. ولم يجد القبطان باشا بداً حينها من توجيه أمر إلى أسطوله بالتراجع، تاركاً الأسطول المصري وحيداً في مواجهة اليونانيين الذين أجبروا إبراهيم على الابتعاد عن السواحل نتيجة للاشتباكات المتواصلة ويمنعونه من الوصول إلى البر. ولأن الأسطول المصري عرف وسيعرف دوماً نقاط ضعف متمثلة في إبحاره دون نظام، وتزاحم مدافعه بالأمتعة والصناديق، فهذا الحشد لايترك له في حال المواجهة الحرية الضرورية في القتال إضافة إلى انتشاره العرضي الواسع في البحر، وترك بعض سفنه دون حماية. فلاغرابة إذن أن السفن اليونانية التي تملك مهارة في المناورة أن تكبدها خسائر مهمة. وهكذا يفقد الأسطول المصري سبعة أشهر أغرقت خلالها بعض أجود قطعهم. وأخيراً، ونتيجة لعدم الوحدة فقط وللخصومات الأخوية التي ضربت صفوف الوطنيين اليونانيين، يتمكن ابن محمد علي من عبور البحر، ويهجم على اليونانيين. وخلال سبعة أشهر لم يتمكن المقاومون من إنهاء تحرير بيلوبونيز تقريباً، ولم يبق بين يدي الأتراك سوى ميناءين صغيرين أو ثلاثة. والأصغر بينها كان ميناء مودون حيث اختار إبراهيم أن يقوم بعملية الإنزال[1]. وكان هذا أول نجاح، وبعد بضع عمليات للتطهير والاستكشاف تمكن في اليوم الثاني من شهر آذار لسنة ١٨٢٥ من تحرير ميناء كورون المجاور. وفي الخامس والعشرين يشرع في حصار نافارين التي ستسقط في الثامن عشر من شهر أيار لسنة ١٨٢٥ على الرغم من المقاومة البطولية.

وخلال السنة نفسها، استطاع إبراهيم المساند في الأماكن الساحلية التي

(١)

يتحكم فيها هو أو الأتراك من الزحف داخل البيلوبونيز. وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران يعلن نفسه سيداً على تريبوليتزا، التي لم تكن إلا رماداً إذ غادرها سكانها بعدما أضرموا النار فيها.

ويتقدم في السابع من شهر تموز، ويخضع لاكوني. ويمكن اعتبار أن كل المناطق المهمة خاضعة له باستثناء نوبلي، إلا أن كل المناطق اشتعلت بحرب عصابات دون هوادة.

ويجري الحديث في كل أوروبا عن «تدمير موريي»، وعن التهجير الجماعي لسكانها نحو مصر، ويخلف هامون وصفاً لما حدث يجعل الظهر يرتجفُ إذ يكتب:

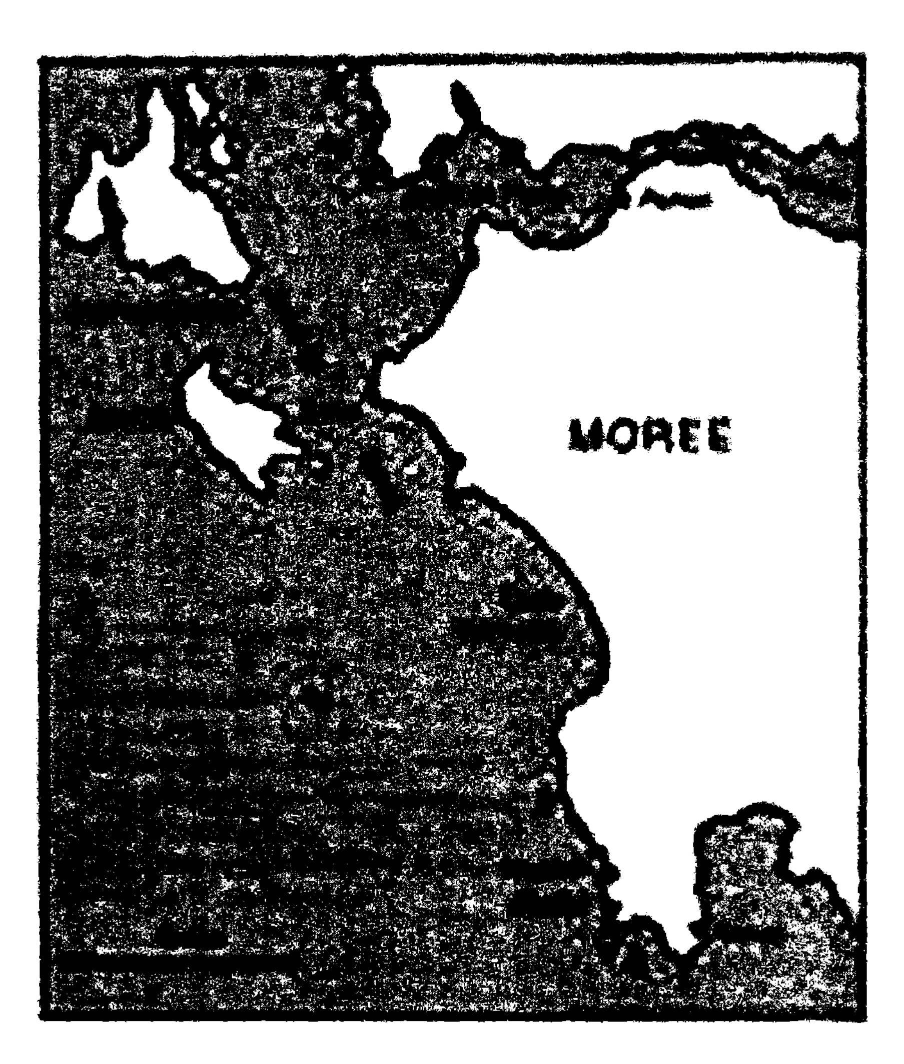
«أضحت شبه جزيرة البيلوبونيز المعروفة حالياً بموريي مسرحاً لصراع دموي بين الاستبداد والحرية. وبقدر غريب، أتى جنود تدربوا على القتال على أيدي أمم مسيحية، يقودهم مسيحيون، ليحاربوا اندفاعاً نبيلاً لشعب بأكمله. ويبدو أن النظام الجديد لم ير النور في مصر إلا ليضع العقبات أمام انعتاق سكان اليونان. لكأن اختلاف الآراء الدينية جعلت السيوف تمتشق والأرض تروى بالدم من الطرفين معاً سواء باستقبال الموت أو منحه. وكل مقاتل يدعو ربه ونبيه. فيدعو إمام في صفوف المسلمين واعظاً المدافعين عن الهلال بعصمة القرآن، في حين يؤكد كاهن لليونانيين البواسل المصدر الألوهي للإنجيل. فمحمد وعيسى والسيف والصليب كانت الكلمات التي تؤلب الناس الذين يذبحون لأن الفلسفة لم تتمكن من محو اختلاف المعتقدات الدينية من على وجه الأرض.

وصارت المدن والقرى والبلدات المحاصرة من قبل الجيوش المصرية فريسة للنار. ويقتل الشيوخ الأسرى، في حين تؤخذ الفتيات والصبيان اليونايين من قبل المنتصرين ويرسلون إلى مصر لإعمار السرايات. ويذبّح المسيحيون المسنون أمام ناظري إبراهيم باشا، ويأمر منه. أما النساء المختطفات فعليهن أن يضعن في يوم من الأيام مواليد مسلمين. وقطع المصريون ثمانية وتسعين ألف شجرة زيتون، ومائة وعشرين ألف شجرة تين بالفؤوس في سهول كلماتا ونيسيا. كانت هذه أولى نتائج نزهات جيش نائب الملك».

وعلى أن أقدام هامون لم تطأ أبداً أرض موريي، ولأنه معتاد على إدانة أعمال الباشا، فالحاصل أنه وعلى امتداد هذه الحرب، برهن إبراهيم على بربرية مخيفة، وقد لامه العديد من المؤرخين على تجاوزاته، في حين يقدر آخرون أنه ولما كان المتمردون عازمين على القتال حتى النهاية، فإنه لم يملك الخيار. مهما يكن من ذلك، فالشيء الأكيد هو أن محمد علي لم يكن يرغب في حدوث ذلك. فقبل رحيل ابنه إلى اليونان، خاطب ابنه قائلاً: «فليمنحكم الله النصر يا بني، وإذا ما منحكم إياه، فليهبكم فضيلة الرقة. كونوا أعداء لأعدائكم، لكن كونوا رحماء مع الضعفاء![1]».

---

(١)



(مسرح العمليات البحرية من فاتح شهر تشرين الأول إلى الثامن منه من سنة .
١٨٢٧)

بعد أن وصلت إبراهيم إمدادات من والده قدرت بعشرات الآلاف من الرجال، كان بإمكانه توسيع نطاق عملياته خارج البيلوبونيز. فيحمل قسماً من جنوده بحراً مروراً على خليج باتراس، أمام مدينة صغيرة يصل تعداد سكانها حوالي تسعة آلاف نسمة، والتي تلقى اهتماماً منذ حوالي ثلاث سنوات ليس فقط لليونان وتركيا، ولكن لكل أوروبا. يتعلق الأمر هنا بميسولونغي، «مدينة سبروت». ولما كانت تطل على البحر، فقد مكنت اليونانيين من تلقي كل الإمدادات التي يحتاجونها من جنود وذخيرة ومؤن.

وتمكن المدافعون عنها وقدر عددهم بعشرين ألف شخص الذين كانت تقودهم شخصيات مثل بوتزاريس[1] ومافروكورداتو، من إلحاق سلسلة من الهزائم النكراء بجيش رشيد باشا المعروف بسمعة أنه أكبر الجنرالات العثمانيين، حتى إن بوتزاريس نجح في ليلة من العشرين إلى الحادي والعشرين من شهر آب لسنة ١٨٢٣ في شن هجوم جريء، بقدر ما هو غير متوقع ضد جيش مصطفى، باشا سكودرا والذي كان يحمل عبء الهجوم على اليونان الغربية. فقد تسلل رفقة ثلاثمائة وخمسين من السوليين[2] إلى المعسكر التركي محدثاً فيه الفزع.

ويقف مرة أخرى رشيد باشا في شهر حزيران لسنة ١٨٢٥ أمام «مدينة سبروت» على رأس جيش من عشرة آلاف تركي، فيعطي أمره بالهجوم الأول الذي يفشل. ولما فشلت هجوماته الأخرى، يحاول رشيد المحبط التفاوض، فيرد عليه المقاومون بأن «مفاتيح ساحتنا معلقة على مدافعنا»، ويطلب الباشا بعد ستة أشهر من ذلك من إسطانبول السماح له برفع الحصار، فيرد عليه السلطان «ميسولونغي أو رأسك!».

---

(١)

(٢)

ويمسك إبراهيم الذي طلب للنجدة، بزمام الأمور، فيقيل رشيد الذي سيقابله بعد سنوات من ذلك، لكن كعدو هذه المرة. وأطلقت الهجمات الأولى منذ الخامس من شهر شباط لسنة ١٨٢٦ وتتصدى المقاومة لها، فيدرك إبراهيم بأن السبيل الوحيد للتمكن من المدينة هو عزلها عن العالم وتجويعها. وليتمكن من ذلك، كان عليه عزلها من جهة البحر، فيكرس جهوده إذن إلى جزيرتين صغيرتين تحميان الميناء القديم. ويستولي عليهما في الرابع عشر من شهر آذار، ومنذ هذه اللحظة لم يعد بإمكان أية سفينة تموين المدينة.

وسرعان ما بدأت المؤن تنفد، وأخذ المحاصَرون يقتاتون من كلابهم وأحصنتهم ومن الأعشاب المالحة التي تحيط بالشواطئ. وتعددت الأوبئة، لكن اليونانيين العنيدين ظلوا يرفضون الاستسلام. وكدأبها في مثل هذه الحالات، كانت القنصليات تتابع تطورات المأساة رافعة أصواتها لكن دون أن تجرؤ على التدخل أو القيام بأدنى عمل، إلا أن المثقفين أخذوا يماحكون. فأعلن شاتوبريون إدانته. لكن لم تكن روسيا أوفرنسا أو إنجلترا تفكر في أي تدخل عسكري لإنقاذ ميسولونغي، فسراييفو ليست بعيدة. . .

ويقال إن إبراهيم أعلن «أعجب بالشجاعة حيثما تواجدت»، فيحاول إقناع المحاصرين بإعمال عقولهم، فيعرض عليهم شروطاً مشرفة، غير أنها ترفض جميعها.

وفي الأخير، يخلص القادة العسكريون المحبطون والذين توحدوا، إلى محاولة كسر الحصار بالهجوم ليلاً في ليلة الثاني والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨٢٦، منسقين مع هجمة ليلية يقوم بها كاريسكاكيس أحد قادة الثوار على معسكر إبراهيم.

ويبدأ الجرد. فالعاجزون والأطفال والشيوخ والنساء يقدرون بحوالي ستة آلاف لكنهم يجمعون على اقتسام المخاطر نفسها مع آبائهم وإخوانهم. وتشكل ثلاثة خطوط. وينجح الخط الأول من اختراق الصفوف المصرية دون أن يفقد سوى أحد عشر رجلاً. وينجح الخط الثاني في ذلك أيضاً. لكن الخط الثالث

المشكل أساساً من النساء والأطفال يوقف بمدافع إبراهيم، فتشرع أبواب ميسولونغي ليدخلها الجيش المصري.

واندلعت حرب الشوارع في كل مكان. وعند طلوع النهار، لم تكن «مدينة سبروت» إلا قطعة من خراب، ولم يسلم إلا الأطفال والنساء الشابات فيؤخذون إلى وادي النيل. أما بقية الأهالي فقد مر السيف عليها. ولما انتشر خبر هذه المجزرة في كل اليونان وفي أوروبا، أثار ذلك الرعب لدى البعض، بينما ذهب البعض الآخر إلى اتخاذ القرار الحاسم بالانتقام لموتى ميسولونغي.

نذكر هنا بأن المدينة آوت شخصية أسطورية، وهي اللورد بيرون. ومثل الليبرالي الفرنسي الكولونيل فابفيي، فإن الشاعر قدم أيضاً مساهمته في حرب الاستقلال، إذ عين في بداية شهر آذار من سنة ١٨٢٣ عضواً في لجنة التحرير المنتصرة لليونان. فانخرط قلباً وروحاً في هذه القضية وقدم لها دعماً مالياً مهماً قدر بحوالي أربعة عشر ألف جنيه إسترليني. وركب البحر في الثالث والعشرين من شهر تموز قاصداً اليونان. وكان في سيفالونيا في الثالث من شهر آب. وأمضى أربعة أشهر ينظم حركة التحرير. وبناءً على نداء مافروكورداتو يستقر في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٢٤ بميسولونغي للمساعدة في تنظيم اليونان الغربية، وللقيام بالمهمة الحساسة المتمثلة في توحيد مختلف فصائل حركة التحرير المتصارعة فيما بينها، وفي تنظيم وتدريب الجنود وتأدية رواتبهم. ولما كانت حالته الصحية هشة، فقد عانى من مجموعة من هجمات الحمى ليُقضى في التاسع عشر من شهر نيسان لسنة ١٨٢٤ عن عمر يناهز ستاً وثلاثين سنة. وتقيم له اليونان الثائرة جنازة وطنية، وتعلن الحداد لأحد وعشرين يوماً[(١)].

ولما أضحت قوات رشيد باشا متفرغة، قامت بمهاجمة الأتيك في شهر تموز من سنة ١٨٢٦، وتحاصر أثينا حيث مقر الحامية اليونانية، وسرعان ما ستلجأ إلى الأكروبول.

---

(١)

ويجبر الأهالي تجنباً للمذابح على اللجوء إلى الجزر مثل إيجين وسالامين. بالمقابل، حافظت جزيرة هيدرا على مكانها كمركز حساس، باعتبارها محمية بمدافع حارقة، ومدافع المراكب الراسية في الميناء الصغير، وستغدو رهان المعركة القادمة.

ومن الآن فصاعداً، سيجد الباب العالي نفسه مجبراً على الاعتراف بأن التابع المخيف أضحى يملك بين يديه مآل الصراع، وبطريقة غير مباشرة، مصير الإمبراطورية، لكن النتيجة الأكثر أهمية من ذلك كله، هو أن القوى الأوروبية أضحت تعرف ذلك.

[19]

الفرعون وأوروبا (١٨٢٦ ـ ١٨٢٧)

ما إن فتحت موريي، حتى ألفى ابن كافالا نفسه يجلس على تل للبارود.

وحتى يفهم جيداً الفخ الذي وقع فيه، ينبغي تتبع اللعبة السياسية لتلك الفترة مهما بلغت درجة تعقيدها.

وبينما كانت الأحداث السابقة تجري بصورة متلاحقة، كانت الدبلوماسية تتحرك لأسباب غريبة عن إيثار بايرون، فقط لفائدة المصالح العليا للقوى العظمى. نحن على عتبة ما يعرف بـ «قضية الشرق».

ففي هذا الثلث الأول من القرن التاسع عشر، لم يتبق من الإمبراطورية العثمانية إلا رمق من الحياة. فقد أمر السلطان محمود الثاني بإصلاحات فيها من الجرأة أكثر مما فيها من العقل، من استنزاف للمنابع القديمة للقوة العثمانية دون أن يجددها. ونجح فقط بإحاطة نفسه بالفراغ. ولم تستند قوته الكبيرة إلا على العجز المزمن لشعبه. من جهة أخرى، وللحفاظ على الإمبرطورية كان بحاجة إلى الأتراك، فمن بين أزيد من سبعة عشر مليون نسمة من سكان الإمبراطورية، لم يكن من بينها إلا سبعة ملايين تركي، في حين كان اليونانيون يشكلون البقية إضافة إلى الأرمن والعرب واليهود والسلافيين، وهي شعوب لاتوحدها التقاليد التاريخية أو الدين أو اللغة الموحدة، ولاتقتسم إلا السخرة. وهي جميعها شعوب مظلومة تعرضت أراضيها للغزو، وهي مستعدة مسبقاً

للانخراط في أية ثورة، وتخفي في صدرها رغبتها القوية في حرب أهلية، تمتد على مسافة تصل إلى حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف كيلومتر مربع.

ومن البديهي أن إمبراطورية مماثلة تستدعي غزوها أو اقتسامها. لكن مم تتكون؟ هل من مولدافيا وفالاشيا[1]؟ فنظام حماية روسي يغطيها سلفاً. هل من بلغاريا؟ وهي لاتنتظر إلا فرصة لتعلن تمردها. هل من صربيا؟ وهي مسيحية بالكامل، وستكون فخورة بأي عصيان ناجح. وهي ترغب في العيش تحت حماية أمير من اختيارها. هل من جزيرة قبرص؟ وهي لاتضم إلا حوالي مائة تركي تائهين وسط مجموع سكان يصل تعدادهم إلى ثلاثين ألف يوناني. هل من سوريا؟ وهي المقسمة بين سكان مختلطي الأنساب. حيث يوجد المسيحيون في المدن الساحلية، وفي المنطقة الوسطى المجاورة للصحراء يعيش العرب، والدروز في الجبال، والمارونيون في لبنان. أما اليونان فهي قريبة جداً من نيل استقلالها. وفي مصر هناك محمد علي. تبقى إذن إسطانبول، وبالتالي يمكن القول بأن تقسيم الإمبراطورية العثمانية يقتصر على فرض الهيمنة على البوسفور.

وقام نيسلرود[2] وزيرة الخارجية الروسية منذ الرابع من شهر تموز لسنة ١٨٢١

---

(١) تشكل فلاشيا ومولدافيا معاً من الناحية التاريخية واحدة من ولايتين رومانيتين، حيث كانتا مقراً للرومان الأصليين وستبقيان خاضعتين للسلطة التركية حتى منتصف القرن التاسع عشر.

(٢) ولد نيسلرود المتحدر من ويستفالي سنة ١٧٨٠ في لشبونة حيث كان والده يمثل القيصرة كاثرين الثانية. بدأ مشواره المهني في الجيش ثم في الدبلوماسية الروسية في برلين سنة ١٨٠٢، وفي لاهاي سنة ١٨٠٤، وفي باريس سنة ١٨٠٧. وسينظم في العاصمة الفرنسية، تحت غطاء التحالف الفرنسي الروسي، خدمة جاسوسية فعالة جداً، حيث يستخدم فيها على الخصوص العطاء الكريم لتاليران. وكمكافأة له، يستدعيه ألكساندر الأول سنة ١٨١٢ إلى الشؤون الخارجية بلقب كاتب الدولة، ثم يعينه في التاسع من شهر آب سنة ١٨١٦ وزيراً بعد مغادرة كابو إيستيريا، ويجعل منه ممثلاً له في كل المؤتمرات الكبرى من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨٢٢. ويجعله نيكولا الأول نائب مستشار سنة ١٨٢٩، ثم مستشاراً سنة ١٨٤٤. وسيكون وراء معاهدتي أندرينوبل وإنكيار سكيليسي واللتان ستحددان النفوذ الروسي في تركيا واليونان، كما أنه يقف خلف حل التحالف الإنجليزي الفرنسي سنة ١٨٤٠. وبعد أن شارك في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ =

بإرسال بيان إلى القوى العظمى طالباً رأيها حول مصير الإمبراطورية، والذي يقترح فيه القيصر من الدول المعنية الاتفاق بالنظر إلى مسألة التقسيم التي يراها ضرورية ووشيكة جداً. وبعد أسبوعين من ذلك، تقترح الحكومة الروسية على نظيرتها الفرنسية تحالفاً صريحاً بخصوص هذه القضية، غير أن دوق ريشليو يطالب بوضع مشروع ثابت، وهو ما يرفضه القيصر، في حين بدا أن شاتوبريون موافق على بيان نيسلرود، حيث يأمر وزيره من سفارته بروما بأن يتفق مع القيصر حول اقتسام عادل للأقاليم العثمانية في أوروبا[1]. والحقيقة أن كل طرف وخلف أقنعة متعارضة، كان يبحث على الحفاظ على القسم الأكبر من الكعكة.

فروسيا أولاً.. وهي قصة قديمة...

فقد سبق لبيير الأكبر في القرن الثامن عشر أن فكر في مشروع الاستيلاء على تركيا، ووافقت كاثرين الثانية على ذلك. ومنذ ذلك الحين، أخذ الروس يطرقون بانتظام أبواب السراي على أمل فتح البحر الأسود، ليهيمنوا عليه بصفة نهائية من أعلى البوسفور، مراقبين في الوقت نفسه البحر الأبيض المتوسط من أعلى الدردنيل. وكان هذا أمراً ممكناً، فلاشيء كان يمنعهم من بلوغ ذلك. لاشيء إلا اعتبار مهم وهو الخوف من إثارة كل أوروبا الغربية عليها. ومع ذلك، فقد عملوا دون ملل من أجل إدراك الهدف.

وللوصول إلى غاياتهم، لم يألوا جهداً في إضعاف تركيا، وتأليب السكان المسيحيين من أجل التمرد. وهكذا فقد شجعوا في صربيا واليونان الحركات الوطنية للنضال من أجل الاستقلال فقط على أمل أن يحلوا محل تركيا في فرض حمايتهم عليهما. وهم غير مهتمين بخلاص هذين الشعبين إلا بشرط خضوعهما لهم. وكانوا يوافقون على التفاوض مع المتمردين اليونانيين، لكنهم يرفضون فكرة استقلالهم المطلق.

= سينسحب من واجهة الأحداث. توفي سنة ١٨٦٢ في سان بيترسبورغ.

(١) أنظر مذكراته حول قضية الشرق في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مذكرات ما وراء القبر».

النمسا؟

فموقعها الجغرافي يحتم عليها ألا تكون محاطة بروسيا، فما إن يستولي الروس على إسطانبول والدردنيل، حتى تصير منافسة سفنهم محرجة للملاحة التجارية النمساوية التي تستغل تجارة بحر الأدرياتيكي. وكانت النمسا تحت قيادة ميترنيخ تبحث عن تطبيق مبادئ التحالف المقدس بشكل صارم، وتخشى أن تنتقل عدوى التمرد اليوناني إلى أقاليمها.

فرنسا؟

كان بإمكان احتلال مضيق الدردنيل من قبل روسيا أن يعد عقبة أمام طموحات فرنسا في البحر الأبيض المتوسط، غير أن أي تقارب إنجليزي فرنسي كان صعب الحدوث بالقدر نفسه لأي تقارب إنجليزي روسي لأن المصالح في الشرق تفرق بين الدولتين. فالنفوذ الفرنسي الكبير في اليونان إضافة إلى النفوذ المحقق في مصر، يعني في نظر الإنجليز اختلال موازين القوى في البحر الأبيض المتوسط. فانتصارات المصريين في موريي تمثل خطراً مزدوجاً، مصري وفرنسي.

ومنذ البداية، كانت حكومة شارل العاشر تتعاطف مع القضية التركية المصرية والقضية اليونانية على حد سواء. وهذه السياسة المزدوجة، وهي نقطة الضعف في كل حركتها في الشرق، لن تمر دون تقسيم وجهات النظر لدى الفرنسيين خاصة منذ أن تركت بين أيدي المتحمسين للقضية اليونانية.

وكان هناك العديد من الآراء، مثل رأي الكونت جوردان، التي ترى أنه يجب تشجيع استقلال مصر واستقلال اليونان على حد سواء، من أجل تقوية مصر واليونان، وجعلهما نقطتي دعم للنفوذ الفرنسي في البحر الأبيض المتوسط. حتى إن الكونت جوردان يكتب إلى إبراهيم باشا ناصحاً إياه بأن يستفيد من أحداث الاعتراف باستقلال اليونان وإعلان استقلاله من أجل تكوين «إمبراطورية جديدة، وسرعان ما ستصير واحدة من أجمل الإمبراطوريات في العالم».

بينما يرى آخرون ضرورة الاختيار بين مصر واليونان.

أما بالنسبة لإنجلترا، وللأسباب التي ذكرت آنفاً والمتعلقة أساساً بالنفوذ الفرنسي في مصر واليونان، فإنها لم تكن تريد دولة مصرية في موريي أو أن تتدخل روسيا، إذ أنها ستفقد نتيجة لاحتلال إسطانبول من قبل الروس جزءاً من نفوذها في البحر الأبيض المتوسط، ووسائل اتصالها مع الهند عن طريق تركيا، وأهمية ممتلكاتها في الشرق، وسوقاً مفتوحة للتصدير تصل إلى حوالي ثلاثين مليون فرنك من المنتوجات الإنجليزية سنوياً، وهذا ما تعبر عنه كلمات اللورد شاتام إذ يقول «ليس علي أن أناقش رجلاً لايرى مصالح إنجلترا في الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية كاملة».

وكان على رجلين أن يلعبا دوراً حاسماً في هذه البلبلة، وهما الوزير الأول الإنجليزي جورج كانينغ، وقريبه ستراتفورد كانينغ، السفير فوق العادة لدى الباب العالي.

وتتابعت محادثات ومفاوضات معقدة وملتوية مثل مؤتمري سان بيترسبورغ في الخامس من شهر حزيران لسنة ١٨٢٤، ثم في الرابع والعشرين من شهر شباط لسنة ١٨٢٥، والضغوط الروسية، ومهمة ويلينغتون، إلخ...

وأخيراً يوافق البروتوكول المسمى بسان بيترسبورغ والموقع في الثالث عشر من شهر آذار لسنة ١٨٢٦، على توجيه إنذار تعسفي إلى محمود الثاني الذي ألفى نفسه مجبراً على قبوله. وهكذا، لم يكن للأتراك من بد سوى توقيع الاتفاقية التي أطلق عليها اسم أكرمان في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٦، وهي المعاهدة التي تمنح للروس العديد من الامتيازات التجارية في كل أراضي الإمبراطورية، وخاصة الحق في «حماية» مولدافيا وفالاشيا وصربيا.

ويوقع اتفاق آخر في الرابع من شهر نيسان لسنة ١٨٢٦، إنجليزي روسي هذه المرة، بين كل من ويلينغتون ونيسلرود، وهذه أهم شروطه:

«لما كان اليونانيون قد زجوا صاحب الجلالة العاهل البريطاني، بالتدخل وتقويم وساطته الطيبة من أجل الحصول على مصالحة مع الباب العالي، ولما

قدم وساطته إلى الإمبراطورية العثمانية. ورغبة في بحث تدابير حكومته بخصوص هذا الموضوع مع صاحب الجلالة الإمبراطور الذي يرغب بدوره في وضع حد للنزاع الذي تعد اليونان والأرخبيل مسرحاً له، وذلك باتفاق تسوية يلائم مبادئ الدين، والعدالة الإنسانية، فإنهما اتفقا على ما يلي:

أن تكون التسوية المقترحة على الباب العالي، إذا قبلت الحكومة الوساطة المقدمة، تهدف إلى جعل اليونانيين بمعزل عن الباب العالي العثماني، في العلاقة المنصوص عليها لاحقاً.

تكون اليونان تابعة لهذه الإمبراطورية، ويدفع اليونانيون إلى الباب العالي جزية سنوية.

وفي هذه الحالة، سيتمتع اليونانيون بحرية عمومية كاملة في الوعي والتجارة، ويستفردون بإدارة حكومتهم الداخلية».

وبالفعل، فهذا البروتوكول الذي لايقيم وزناً لحرية الشعوب، الموضوع الثابت للقرن على الأقل في إنجلترا، بل يقرر مصير اليونان مع منحه للروس والبريطانيين إمكانية التدخل العسكري لطرد القوات المصرية من موريي.

وتنجح إنجلترا في السنة الموالية، في جر فرنسا إلى رؤاها في الوساطة وفي التدخل العسكري. ومنذ ذلك الحين أخذت الدولتان تحملان محمد علي على التخلي عن السلطان، وهنا فقط ستتحدد كل الأحداث.

ويلزم الكونت جون باتيست فيليل[1]، رئيس حكومة شارل العاشر الفرنسية،

---

(١) يتحدر من عائلة من طبقة النبلاء الصغيرة في تولوز. يستقبل بكل سعادة عودة الملكية. وفي شهر تموز من سنة ١٨١٥ يعين عمدة لمدينة تولوز، ثم ينتخب نائباً في المجلس الذي لم يوجد له من أثر. ويثبت وجوده هناك كسياسي متمرس بالدرجة نفسها التي كان بها رجل أعمال يقظ. ويبرز كقائد لمجموعة شديدة التأييد للملكية، ويقف كمعارض لحكومتي ريشليو وديكاز. كان وزيراً بلاحقيبة في حكومة ريشليو من سنة ١٨٢١ ثم يعود إلى السلطة بحقيبة وزارة المالية في الحكومة الملكية «الخالصة» المشكلة في شهر كانون الأول من سنة ١٨٢١ بدعم كونت أروا، ثم يرقى إلى رئاسة المجلس في الرابع من شهر أيلول لسنة ١٨٢٢. وينظم الشؤون المالية ويضمن هيمنة حزبه في المجلس وفي كل الإدارات، غير أنه سيثير الرأي العام ضده نتيجة لسياسة داخلية مزعجة =

الباشا بسحب قواته من موريي، بوساطة من الجنراليين بيليار وبوير هذا الأخير من القاهرة عن طريق مراسلات دائمة مع باريس، وأن يعوض عنها بسورية. بمعنى أن يتخذ موقفاً يسمح بالتوافق مع مصالح أوروبا. ويحاول بوير بأن يقنع الباشا بالتخلي عن الحملة التي ضلل بها، والتي ترهق عبثاً قوته العسكرية الفتية إضافة إلى وقوفه ضد السياسة المسيحية.

من جانبه، اقترح ستراتفورد كانينغ، سفير صاحب الجلالة في إسطانبول بوساطة من سيلت القنصل الإنجليزي في مصر أن يتدخل نائب الملك لدى السلطان من أجل إقناعه بضرورة قبول الوساطة الإنجليزية بين الأتراك واليونانيين، مقابل استعداد إنجلترا لدعمه لدى إسطانبول في مطلبه للحصول على باشوية سورية.

ويكتب كانين إلى قنصله في العاشر من شهر حزيران لسنة ١٨٢٦ «إذا ما تمكنا من إفهام نائب الملك مصالحه الشخصية إلى الحد الذي نجره إلى رؤانا، فما من شك بأن عونه سياسهم كثيراً في إنجاح المفاوضات. ومن الأفضل بالنسبة له اقتطاع جزء من الجزية المدفوعة من قبل اليونانيين وباشوية لابنه في سورية عوض الاستمرار في تبذير موارده على قتل شعب مصر حد أنه يتعين القضاء عليه تماماً قبل غزو البلاد(١)».

ومنذ هذه اللحظة، كان نائب الملك أمام خيارين، وهما إما البقاء إلى جانب السلطان في حربه ضد التمرد اليوناني أو المراهنة على الدعم اللاحق للقوى العظمى في سبيل تحقيقه حلمه السوري، ومن يدري؟ قد يحقق استقلاله.

= يلجأ فيها إلى الفساد والحيلة، ولسياسة خارجية منكمشة وخاضعة. يقسم الحزب الملكي بعد تشكل معارضة مضادة أُلهمت من شاتوبريون، حيث جعل فيليل كعدو له. تم طرده من وزارة الشؤون الخارجية في شهر حزيران من سنة ١٨٢٤، وفي نهاية سنة ١٨٢٧ حاول توحيد حزبه باللجوء إلى انتخابات سابقة لأوانها، فأرغم فشله شارل العاشر بأن يستغني عنه وعن فيليل. لينسحب بشكل نهائي من السياسة.

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

ولم يكن يجهل أن إعلان استقلاله سيمثل نقطة في غاية الخطورة، لأنه قد يلقي به في حرب مفتوحة ضد تركيا. لكنه لم يكن يخشى هذه الحرب. فقد كان يكره السلطان، إضافة إلى ذلك، أنعشت مواقف خسرو في رودس ثم في ميسولونغي كراهيته للباب العالي وحذره منه، وهو يعتبر نفسه منذ الحملة على الجزيرة العربية، بطلاً إسلامياً. ويخشى أن ينظر العالم الإسلامي إليه بعين السوء إذا ما تمرد لفائدة حرب تظهر فيها المسيحية كحرب صليبية جديدة.

وهكذا أعلن لسيلت في الخامس والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٢٦ «لن تكون لي أسرار أخفيها عنك، الحقيقة أن قدمي الآن في ركابين، وسيبقى كل شيء في الميزان من الآن وحتى الربيع القادم. وحتى ذلك الحين، إذا ما قدمت لي حكومتكم مقترحات ترضيني، فسأكون مستعداً لقبولها وسأجد دوماً وسيلة لسحب قواتي من موريي. وفي حال العكس من ذلك، سأوحد كل إمكاناتي المتاحة، وبفضل نفوذي الذي أتوفر عليه لدى الباب العالي، سأحصل على قيادة كل الأسطول العثماني، وسأنصب نفسي على رأسه من أجل إنهاء هذه القضية. هذا هو موقفي[1]».

وبعرضه القضية من الجانبين، امتنع محمد علي أن يختار معسكر القوى الغربية إذا لم تلتزم بحمايته في حال انتقام السلطان منه.

وفي هذا الوقت، تدخل النمسا في الأحداث. فحتى هذا الوقت، كان يبدو عدم اهتمامها بالقضية المصرية، وبنتائج التمرد اليوناني الذي لم يجد دعماً كبيراً من قبل ميترنيخ. وكان المستشار يرى أن الطريقة الوحيدة لحل هذه المشكلة التي زادتها وساطة القوى العظمى تعقيداً، تكمن في تدخل سريع وحازم من قبل الأتراك، وبالتالي من قبل محمد علي. غير أنه لاحظ التوقف المفاجئ لحركة إبراهيم في موريي، ذلك أن هذا الأخير تلقى أوامر صارمة من

(١) المصدر نفسه.

القاهرة بان يتوقف تماماً. والواقع أن نائب الملك كان بذلك ينتظر الحصول على ضمانات من طرف إنجلترا أو من طرف فرنسا.

ويرسل ميترنيخ من فوره دبلوماسياً متميزاً إلى الإسكندرية في شهر تشرين الأول من سنة ١٨٢٦، وهو السيد بروكيش أوستين، آملاً بضم ابن كافالا إلى رؤيته نفسها، مثلما تشهد على ذلك الوثائق التي اطلع عليها صبري في أرشيف فيينا.

وفي المقابلة الأولى التي تمت في العاشر من شهر تشرين الأول، يعرض بروكيش على الباشا ضرورة قيادة الحرب بصورة أنجع، ووضع حد لها بسرعة. غير أن نائب الملك، الراغب في الانتظار حتى الربيع، يوضح أنه مقتنع بأن روسيا وإنجلترا ستتدخلان بصورة حاسمة لفائدة اليونانيين منذ فصل الشتاء.

وينقل بروكيش أن الباشا يذيع تبرمه من قصور الباب العالي حين يقول «دخلت هذه الحرب كخادم للسلطان، وودت المساهمة فيها، لكن ليس أن أقوم بها بمفردي. وكنت مضطراً بحكم دوري كتابع لتقديم التضحيات الجسام، وتأجيل خططي في مصر، واستخدام النزر الذي يحيي هذا البلد في الخارج. وُضع العب كله على عاتقي، وبعد ذلك، تُركت بلاسند. كم كتبت إلى إسطانبول بهذا الشأن! لكن كلماتي لم تجد من ينصت لها. فهم يعارضون عملي، ويُشلون كل ما أقوم به. كنت أعي تماماً أهمية اللحظة التي تعقب الحصول على ميسولونغي. لأجل هذا تقرر بأن يقصد القبطان باشا بدون تأخير نافارين، ومنها إلى هيدرا بينما كان على جيشي أن يعسكر في الأرض المقابلة لهذه الجزيرة، وأن ينقل منها من أجل الهجوم. ولم يلتزم القبطان باشا بوعده بهذا الخصوص فقط، بل إنه تسبب في فشل كل هذه الحملة، وكل ما سينتج عنها أيضاً».

ويتجنب بروكيش بمهارة أن يعذر تقاعس الباب العالي، واكتفى فقط بأن يقترح على مصر الموجودة في وضع لاتحسد عليه، بأنه يتعين عليها خوض الحرب دون انتظار دعم عسكري تركي، وسيكون من مصلحتها إنهاؤها بتشديد

الهمة. وجاهد في دعم صحة أقواله بأسباب سياسية وتجارية. إلا أن نائب الملك يستقبل أقواله هذه بسيماء من لايصدق «لاأريد إلا مصر، ورغباتي لاتتعداها. فمع أن مصر بلد صغير إلا أنها منتجة جداً حد أنه لولا هذه الحرب لكانت الآن جوهرة. وتكفيني عشر سنوات من السلم لإخراج أربعين مليون تالاري منها، بشرط أن أُترك أعمل. سيتحول هذا البلد كثيراً إلى درجة أن مصر ستصير بما لها إلى جوار القوى العظمى الأربعة إنجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا، القوة الخامسة. ماذا ستقدم لي موريي، كريد وكل هذه الجزر؟ لدي الكثير لأقوم به في مصر، ولايلزمني إلا الهدوء وحرية العمل».

ويغير إذن بروكيش نظرية الامتيازات بنظرية الانتهاء من الحرب مع الأخطار التي تعرقل التجارة وحرية مصر في حال انتهاء الحرب نهاية سيئة، إذ سيحصل الجناح اليوناني على استقلاله. ولقطع الطريق على كل حجج محاوره، قاطعه نائب الملك قائلاً: «لكن إذا لم تكن إنجلترا تريد ذلك، ماذا عساي أن أصنع؟».

هو الخوف من إنجلترا الذي يشله دائماً. والخوف نفسه الذي بدا عندما طلب منه سيلت التخلي عن الحبشة. والرغبة الدائمة والثابتة في عدم إغضاب حكومة سان جيمس التي تعي ذلك وعياً كاملاً.

ويورد باركر خليفة سيلت في الإسكندرية في رسالة إلى فيري زمليه في إزمير ملاحظة جاء فيها «أية قيمة سياسية لصداقة الباشا للفرنسيين؟ وعلى فرض أنها بلغت أعلى مستوى بالشعور بالعرفان نتيجة الامتيازات والاعتبار الشخصي، فأية قيمة لها؟ دعهم إذن يستمتعوا بسلام بكل امتيازات وحب محمد علي ما دمنا نستطيع السيطرة عليه بالخوف الذي ينبغي أن يكون أساس سياستنا. ضعوا القوة المرعبة لإنجلترا في كفة، وحب الباشا لمتملقيه ومداهنيه الفرنسيين في الكفة الأخرى، وسترون أيهما سترجح[1]؟».

---

(١) كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان «سورية ومصر في عهد آخر خمسة سلاطين أتراك». مجلدان. لندن ١٨٧٦.

ولم تستطع المقابلات التالية مع بروكيش تغيير موقف نائب الملك في شيء. بمعنى موقف الانتظار والترقب، بصورة جعلته يقف في الشهور الأخيرة من سنة ١٨٢٦ في مفترق طريقين، أي طاعة سيده أو التمرد عليه.

ولو أن الباب العالي أقال عدوه خسرو باشا، واعتمد فقط على محمد علي في قيادة الحرب مع الوعد القاطع بمكافأته بسورية على خدماته المقدمة، لكان بإمكانه القيام بمجهود كبير لإنقاذ القضية التركية. ومنذ بداية سنة ١٨٢٤ بذل جهداً كبيراً لمحاولة إقناع الباب العالي بضرورة وجود قيادة موحدة تعود لإبراهيم. وإلى جانب إزاحة ند متمثل في خسرو، كان هناك حساب عسكري لم يخلو من منطق. فقد كان يقدر أنه وتحت قيادة موحدة ستختفي اختلافات الآراء بين القادة، وهي الاختلافات التي لايمكن تجنبها أثناء العمليات. ويشرح ذلك بطريقته لنجيب أفندي رجل ثقته في إسطانبول، ويلومه على عدم تحركه كما يجب عند وزراء الباب العالي ليشرح لهم رؤاه، ويبين أسبابه ويعرض بصرامة حاجة الإمبراطورية لمنحه القيادة الموحدة. فيكتب له في الثالث عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٢٤ «ليس هناك من شك أنه لن يتحقق النجاح في القضايا المهمة حين تكون القيادة مقسمة. هل تكون الأسلحة التي قدمتها مصر مجرد خسارة كبيرة؟ لاتدخروا جهدكم، وثابروا وأعملوا كل نشاطكم بهدف إقناع وزراء معاليه. فخلاص الإمبراطورية، وشرف اسم المسلم لايتمان إلا بهذا الثمن[1] ».

وهذا الإذن الذي سينتزعه محمد علي أخيراً من الباب العالي سيحوله إلى مجرد مخدوع.

الواجب أو الثورة؟

خلال سنة ١٨٢٧ يرسل إلى السلطان برقية يوضح له فيها رغبته في الانسحاب

---

(١) أرشيفات مصرية. دوان في «فرقاطات محمد علي الأولى ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧»، IFAO القاهرة ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

من القتال. وسرعان ما يقوم السلطان بلعبة ماهرة، إذ سيغدق من مديحه على تابعه، ويرفعه إلى السحاب ويمنحه كعربون على صداقته الكبيرة الرأس التي طالما رغب فيها، إذ سيقال خسرو باشا من منصبه ويعوض بطاهر باي الذي يتلقى أوامر بالانتظام تحت علم نائب الملك. وكان هذا نصراً كبيراً بالنسبة لمحمد علي. فها هو الآن ينتقل من مجرد تابع إلى رتبة عاهل. ومنذ هذه اللحظة، هل يمكنه أن يشك ولو للحظة في الحصول على الجائزة النهائية، سورية؟

وسرعان ما يخرج محمد علي من سباته العميق. وبالهمة التي تعرف عنه، يجمع حوالي خمسة عشر ألف رجل. وينشط في تسليح أسطوله، ويسرّع من وتيرة الإصلاحات الجارية على منشأة تركية انضمت إلى أسطوله في الإسكندرية. وما إن تم ذلك، حتى عين لابنه مهمته القادمة في الأرخبيل، هيدرا. بيد أن وضعه المالي كان سيئاً للغاية، وينقل دروفيتي بتاريخ الفاتح من شهر نيسان لسنة ١٨٢٧ بأنه يجعله «في الحاجة إلى الاستدانة من وزرائه ومن الضباط الرئيسيين في بلاطه[١]».

وفجأة يحدث الانقلاب! إذ سيغير الباب العالي موقفه، إذ يتميز شهر أيار بعودة خسرو إلى واجهة الأحداث وذلك بتعيينه سيراسكيي أي وزيراً للحرب. ويغضب هذا التعيين الجديد محمد علي، فيستدعي دروفيتي على الفور، ويعلن له أنه بما أنه لن يستطيع أن يثق في السلطان، يقرر أن يعدل سياسته بخصوص القضية اليونانية بطريقة لاتعارض رغبات فرنسا وأنه مستعد للتعاون بحسب رغبتهم، من أجل تحرير اليونان.

ويثق دروفيتي في صدق هذا التحول، بينما كان غويمينو سفير فرنسا في إسطانبول على رأي مخالف تماماً. فيحذر الحكومة الفرنسية معتبراً أن محمد علي سيخسر كثيراً إذا ما أعلنه السلطان «خائناً». وكان مخطئاً تماماً في ذلك،

---

(١) أرشيف الشؤون الخارجية. مراسلات قنصلية. كارتون. الإسكندرية. صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

مادام سيلت يؤكد نوايا نائب الملك في مذكرة، موضحاً أن «سموه يقترح أن ترسل أساطيل فرنسية وإنجليزية إلى الإسكندرية لتقوم باستعراض تجبره على الانسحاب من الحرب».

ويتبنى محمد علي الموقف نفسه في نهاي شهر أيار أمام الأميرال ريغني إذ أنه مستعد أن يتعرض للشك في نظر السلطان وأن يفقد شعبيته في الإمبراطورية العثمانية، وأن يتخلى عن القتال، لكن بشرط أن يتم إجباره على ذلك، ظاهرياً على الأقل. غير أنه ولسوء الحظ لم يكن للأميرال ما يقدمه مقابل هذا التخاذل الذي يقترحه عليه ابن كافالا.

وأتى دور القوى العظمى الآن كي لاتستعجل.

فقد قررت فرنسا وإنجلترا وروسيا باتفاق مشترك إرسال أسطول بحري مختلط إلى مياه البحر الأبيض المتوسط، وتم إنهاء اتفاق إنجليزي فرنسي روسي في لندن في السادس من شهر تموز، تحدد من خلاله هذه الدول طريقة العمل البحري. وحتى لو أن القوى العظمى أبعدت مصر عن القضية التركية بعد هذا التحالف إلا أنها لاتريد دوماً دفع ثمن لقاء ذلك.

وأخذت روسيا المبادرة بأن تقترح على فرنسا تحريك قنصلها في القاهرة عند محمد علي. فيكتفي البارون دو داماس وزير الشؤون الخارجية الذي نقل إليه دروفيتي نوايا الباشا بالرد بأن «الاحتجاجات السلمية لمحمد علي تتوافق تماماً مع رؤى الحلفاء. والاتفاق الموقع بين هذه الدول يضطرها في حال استمر نائب الملك في تدابيره المعادية ليونانيين إلى معارضة عملياته».

ويسجل أن هذا الرد لم يتضمن أي وعد تجاه محمد علي، بل إن داماس يترك غويمينو حراً فقط في إرسال بعض السفن أمام الإسكندرية لمنع انطلاق الأسطول التركي المصري، ولصد كل معونات موجهة إلى إبراهيم. وبهذا يأخذ في الحسبان رأي ريغني. غير أن غويمينو المستمر في عدم الاقتناع بصدق محمد علي، لم يستعمل الترخيص المحصل عليه. وهكذا لم يكن أي استعراض بحري فرنسي أمام الإسكندرية.

وناورت الحكومة الفرنسية من جانبها، فقررت إرسال الميجر كريدوك إلى مصر مع التعليمات التالية: إطلاع محمد علي على قرارات القوى الثلاثة بخصوص القضية اليونانية، وإفهامه بأنه إذا ما التزم الحياد نزولاً عند رغبتهم فإنه سيكون مصدر رضى بالنسبة للفريق الأقوى، وتذكيره بالمخاطر التي قد يتعرض لها في حال نشوب الصراع. ولم تتضمن تعليمات لندن إلا إشارة غامضة لما أمر به الباشا لسيلت في خريف سنة ١٨٢٦. ومثل فرنسا، أرادت إنجلترا إبقاء محمد علي في وضع الحياد فقط، استناداً إلى العقل دون أن تعده بشيء ودون أن تضمن له شيئاً.

وفي رسالة سريعة موجهة إلى ستراتفورد كانينغ في الحادي والعشرين من شهر آب، يعرض المبعوث الإنجليزي آخر محادثاته مع الباشا فيكتب «يريد صاحب السمو أن يعرف معرفة حقيقية ماذا سيكون الموقف الحقيقي للحكومة الإنجليزية تجاهه في حال جر عليه تخليه عن الباب العالي، انتقام هذا الأخير».

فلم ترد إنجلترا، ولم تفعل فرنسا أيضاً.

غير أن ساعة وجوب تحرك الأسطول المصري قد أزفت، فيضاعف الجهد إذن تجاه نائب الملك، ويرسل له ريغني من إزمير رسالة تلو الأخرى.

ويكتب الأميرال كودرينغتون رسالة بالمعنى نفسه إلى سيلت.

ويرسل غويمينو من إسطانبول قبطان سفينة يدعى لويلون إلى الإسكندرية كيما ينصح محمد علي بالوقوف عند التظاهر فقط. ويجند للغرض نفسه أحد ضباطه ويدعى هودر كان في مهمة في الإسكندرية طيلة صيف سنة ١٨٢٧، غير أن ريغني وكودرينغتون وغويمينو الذين يأخذون مبادرات شخصية، اكتفوا بإسداء النصائح والوعظ وتحكيم العقل، ولم يمنحوا أي شيء ملموس لنائب الملك، ولم يقوموا بأي شيء لرفع عقبة حاسمة أمام تنفيذ مخططاته.

وفي فجري الخامس والسادس من شهر آب لسنة ١٨٢٧ شرع الأسطول المصري في رفع مراسيه، إذ أن القوى العظمى لم تكن قادرة على التفاهم حول

عرض ضمانة من أي نوع لمحمد علي، ولم يعرفوا أيضاً كيف يجعلوه غير قادر على التحرك.

وفي الثامن من شهر آب، أي يومين بعد انطلاق الأسطول، يصل كريدوك مجدداً فيقابل بوغوص، ويقصد القاهرة حيث يتواجد نائب الملك، فيقترح عليه أن يعلن الأسطول المصري حياده.

وفي التاسع عشر من الشهر ذاته، يسأل الباشا سيلت: هل لكريدوك الإذن بالإجابة على أسئلتي السابقة؟ وهل قدم باقتراح جديد؟ فيرد عليه سيلت بالنفي، غير أنه يؤكد له أنه وفي حال كانت إنجلترا راضية فلن تتخلى عنه. ويشير في رده إلى الاعتراف بالاستقلال لكن من دون أن يقدم أي تعهد لأنه لا يتوفر على ترخيص لذلك. وفي الأخير، فإن الاتفاق الوحيد الذي يتم التوصل إليه كان شفاهياً، وهو أن كريدوك سيلحق على وجه السرعة بالأسطول الإنجليزي، ويطلب من أميرالات قوى التحالف بأن يكتبوا إلى إبراهيم، ويأخذوا منه تعهداً بعدم مهاجمة هيدرا لأن قواتهم البحرية ستعترض هجومه ذاك. بينما يرسل محمد علي إلى أميراله محرم باي تعليمات سرية تخبره بهذا الاتفاق، وتأمره بالالتزام بالتعليمات نفسها.

وهكذا يعتقد سيلت أن مهمة كريدوك قد حققت جوهر هدفها. ومع ذلك، فإنه يكتب إلى لندن بأن محمد علي ينتظر سورية ودمشق من السلطان، وأنه من أجل القضاء على هذا الأمل يتعين وعده بالمساهمة الجادة للقوى العظمى من أجل مشروعه التوسعي، ولم يكن هناك من رد على هذا أيضاً. . .

ومنذ الحادي والثلاثين من شهر آب ألقى الأسطول الإنجليزي الفرنسي التركي الذي يقوده الأميرال كودرينغتون المرساة في مدخل خليج نافارين. وقبل توحد القوات مع بريغني، يعلم كودرينغتون إبراهيم بالأوامر التي تلقاها، وذلك بالتعرض لأي تحرك للأسطول التركي المصري. وفي الثاني والعشرين من شهر أيلول يقوم ريغني بالشيء ذاته.

وتتم مقابلة جديدة في الرابع والعشرين من شهر أيلول، فيعلم الأميرالات

بما انتهى إليه في القاهرة محمد علي وكريدوك. فيعد إبراهيم بعدم ترك نافارين. وكان كل شيء يبدو على ما يرام. وبدا أنه سيتم تجنب المواجهة، غير أن المقاومين اليونانيين يستغلون الموقف وذلك بمحاولة اقتحام باتراس، فيثيرون بذلك غضب إبراهيم، فيحتج لدى كودرينغتون وريغني ويطلب حرية الرد، فيرفض طلبه.

ويُعلم محمد علي بالاتجاه المقلق الذي تسير إليه الأحداث في موريي. ولم يجد أي منفذ آخر سوى محاولة حث إسطانبول على فعل ما هو سليم.

وهكذا يكتب إلى السلطان رسالة بتاريخ الخامس من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٢٧ جاء فيها:

«أعلمت بأوامر الصدر الأعظم، وبرسائل جلالتكم والتي تشرفت بتلقيها قبل مدة والحديثة منها، فأحطتها بكل عناية. ولست بحاجة هنا لأقول والوزير يعلم هذا جيداً، كم سيكون مؤذياً منح الحرية لليونانيين، وكم ستكون نتائج مثل هذا التدبير خطيرة. الكل يعلم، حكومة وبلداً وأمة الردود الحاسمة التي أعطيت في أكثر من مناسبة لسفراء القوى العظمى من قبل الباب العالي. ومن جهتي، أخذت على عاتقي عدم التواني عن أداء مهامي الموكلة لي، وأعتبر أن تنفيذ أوامركم السامية التي تلقيتها تعد جوهر الواجب نفسه. وأريد أن أعمل أكثر إذا كان ذلك ممكناً، لكن وأخذاً بالاعتبار شدائد الوقت الحالي يمكن تصور إمكانيتين:

فالأولى، وهي أن موقف القوى الأوروبية ليس إلا مجرد تحد.

أما الثانية، فالسفن الإنجليزية والفرنسية مستعدة للمقاومة، وسد الطريق أمام سفن الأسطول التي تود مهاجمة هيدرا مانعة أية معركة حقيقية.

وإذا ما صحت الفرضية الأولى، فهذا أفضل، وبالتالي سيسهل علينا التعامل مع الوضع. لكنكم تعلمون أن التجربة والسياسة تعلماننا بأنه في كل قضية، وخاصة في قضية بمثل هذه الأهمية، ينبغي التفكير في الاحتمالات السيئة عوض الحسنة منها، والتأمل بعمق في سبيل معالجتها. فلنقر إذن بأن السفن

الأوروبية عازمة على التصدي بحزم، وقطع الطرق على الأسطول العثماني لتجنب الصراع المسلح. وإذا ما تمادت في موقفها ذاك حد استعمال سلاحها، فأنا أفترض احتكاماً إلى معرفتي المتواضعة بأن سفن الأسطول التي لاتستطيع تحمل الاصطدام بالسفن الأوروبية الأفضل تجهيزاً والأكثر تدريباً، ستطالها نيرانها وستشتت، وأن الثلاثين ألف رجل أو الأربعين ألف رجل منهم المتواجدين بها، سيقضوا. والأكثر من هذا، أنه لن تتأخر الكراهية والعداء السياسي والديني في النشوب بين الباب العالي والقوى العظمى المسيحية. وستعم فوضى خطيرة واضطرابات كبيرة في البر كما في البحر. ومن المؤكد أني سأفقد إذن ماء وجهي حتى يوم الدين أمام الباب العالي، لأنه سيقال «إن محمد علي باشا هو المخطئ، والمتسبب في كل هذه الفوضى والاضطرابات».

ولأني لاأستطيع أن أبتهج بأن أكون مسؤولاً عن مقتل هذه الثلاثين ألفاً أو الأربعين ألف رجل، رأيت أنه من المناسب أن أبعث برسائل حاسمة إلى ابني إبراهيم باشا وإلى القبطانات. فلايكفي التوكل على الله فقط في قضايا الحرب، بل ينبغي أيضاً الاعتماد على كل ما هو إنساني ممكن. حقيقة بأن النصر من عند الله، وبأنه قادر على كل شيء، لكن يا أفندي يقول تعالي في القرآن «إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً». والصبر هنا يقوم على المعرفة الحقيقية بمبادئ العلم العسكري، والبحث عن وسائل رد الشر على المعتدين. . .»

غير أن رد السلطان على حجج تابعه كان بأن هز كتفيه، ومن المحتمل أنه كان مقتنعاً بأن فرضية محمد علي الأولى هي الصحيحة، أي أن الحلفاء يخادعون.

ويشتد غضب محمد علي فيقول «إن سوء المزاج الذي استحوذ على سموه منذ وصول آخر أخبار موريي تظهر على كل تصرفاته وفي كل لحظة[1] . . .».

---

(١) من بوكتي إلى بيتزوني. الرابع من شهر تشرين الأول. قطاوي في «حكم محمد علي بحسب =

ويرسل محمد علي إلى ابنه في الثامن عشر من شهر تشرين الأول رسالة يشدد عليه فيها بألا يدخل في أي قتال مع القوى العظمى مهما كان الثمن، وأن عليه ألا يمتثل لأمر إسطانبول إذا كان هذا الأمر يتطلب القيام بأعمال معادية لسفن الحلفاء. وكان إبراهيم يشارك والده الشعور نفسه، ففي الثاني عشر من شهر تشرين الأول يكتب إلى الباب العالي طالباً تعليمات جديدة. ويتصلب السلطان في مواقفه، ففي السابع والعشرين من شهر تشرين الأول، يعلم الصدر الأعظم محمد علي بأن الأمر الموجه إلى إبراهيم يقضي بتحريك قواته، ويشير إلى أن رسالة إبراهيم للثاني من شهر تشرين الأول لم تغير شيئاً من عزم الحكومة التركية.

ويقف الأسطولان الآن، وجهاً لوجه.

= الأرشيفات الروسية في مصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤). أربعة مجلدات». القاهرة. ١٩٣١ . ١٩٣٦ .

[20]

كمين نافارين (١٨٢٧ ـ ١٨٢٩)

يتألف مرسى نافارين من خليج كبير بيضوي الشكل مفتوح بمياه عميقة، ويصل عرضه من الشرق إلى الغرب إلى ثلاثمائة وخمسين متر، وبطول يصل إلى خمسة آلاف وخمسمائة متر من الشمال إلى الجنوب. ويتسع لأكبر السفن مانحاً إياها ملجأ ممتازاً ضد عواصف البحر الأيوني. وهو مقفل برصيف طبيعي طويل، تمثله جزيرة سفاكتيريا التي يصل عرضها إلى حوالي ألف متر، وحيث يشكل تجمع صخورها من جهة المرسى، متراساً ناتئاً، بجرف من مائة إلى مائة وأربعين متراً. لم تكن سفاكتيريا متاحة إذن من جهة البحر العالي.

ولما كان إبراهيم مجبراً على التخلي عن كل عملية تجاه هيدرا، فقد وجه كل جهوده من أجل تعزيز موقعه على الأرض، وترك عبء تدابير حماية الأسطول إلى أميرالاته، وعهد بذلك إلى الفرنسي لوتوليي الذي كان يقوم بمهام مشابهة لقائد هيئة الأركان.

وكانت السفن المشكلة للأسطول التركي المصري في هذه اللحظة تشكل هلالاً كبيراً يصل عمقه إلى حوالي ألفي متر. ويستند جناحاه إلى حصن نيو كاسترون، وإلى مدافع النقطة الجنوبية لسفاكتيريا، في حين كان المركز يمر قليلاً أمام جزيرة شيلونيا. وفي أقصى اليسار، كانت ثلاث فرقاطات كبيرة مجتمعة، وهي «الإحسانية» و «الثريا» و «المحاربة» التي كانت ترفع علم محرم باي.

ثم كانت هناك السفن الثلاثة الكبيرة الموجودة تحت قيادة القبطان باي حسين، وهي «غوش أي ريغان» و «الفاتح» و «برج الظافر» والتي تضاف إليها سفينة ليفورنو الجملية «اللبوة».

أما البقية فتتألف بما بقي من الفرقاطات التركية تحت قيادة كل من طاهر باي ومصطفى باي. وكانت أغلب هذه السفن ترسو بمرساتين باتجاهات مختلفة تبعاً للتيارات البحرية. ويتشكل الخط الثاني من السفن البحرية الصغيرة بطريقة تمكنها من إطلاق نيرانها من الخط الأول، فيما تكوّن السفن الصغيرة الخط الثالث موزعة بطريقة غير منتظمة بعض الشيء.

وكانت مراكب النقل الراسية في الداخل من الجهة اللشرقية، قريبة من البر. في وقت كانت فيه مجموعتان من السفن الحارقة متمركزة إلى الأمام تحت الحصن بطريقة تخولها التحرك إلى الوجهة المناسبة لعملها. وكانت كل السفن تحتفظ بصواريها عالية.

هذا في وقت كان فيه الأسطول الإنجليزي الذي يقوده الأميرال كودرينغتون يتكون من «آسيا» و «جنوة» و «ألبيون» إضافة إلى أربع فرقاطات. ويضم الأسطول الفرنسي تحت قيادة الأميرال ريغني الفرقاطة الأميرالية «سيرين» و «سيبيون» و «تريدون» و «بريسلو» و «أرميد».

وألحقت بها جميعاً وحدة هايدن الروسية المشكلة من أربع سفن وأربع فرقاطات.

ومن سخرية الأقدار أن الأميرال كودرنغتون وضع خطة التحرك بطريقة مكنت «آسيا» و «ألبيون «و «جنوة» من مهمة مواجهة السفن التركية في حين أوكل إلى الأميرال ريغني مراقبة الفرقاطات المصرية، وهكذا وبدهاء سيء، منح لفرنسا في حال قيام حرب، مهمة تدمير ما صنعته بيديها...

وبدا أن الجانبين يتفاديان المواجهة غير أنهما معاً كانا يشعران بتجاوز حدود التخويف.

وكان على متن الفرقاطة المصرية «المحاربة» العديد من المدربين الفرنسين.

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الأول يرسل الأميرال ريغني رسالة لهم بواسطة مركب بصاريين تدعى «ألسيون» يأمرهم بترك «المحاربة»، فامتثلوا لأمره، وكتبوا محضراً حمل توقيع كل من لاتوليي وبومبار ورينيي وماترير ومافر وشابير وبريون وديسنار ودونتي ولوسياني.

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الأول وعلى الساعة السابعة صباحاً، يصعدون على متن السفينة التجارية النمساوية «جياكومو». ولم يبق على متن «المحاربة» من الفرنسيين إلا لاتوليي، وسيتركها مع إطلاق المدافع لنيرانها الأولى. وهذا ما تبرهن عليه الرسالة الموجهة من قبل ريغني إلى وزيره في الثاني والعشرين من الشهر ذاته، والتي جاء فيها «غادر الضباط الفرنسيون العاملون في أسطول إبراهيم على متن سفينة نمساوية باستثناء السيد لاتوليي الذي لم ير أن الظرف خطير إلى درجة الامتثال إلى هذا الأمر. وأعلم أنه كان مايزال على متن الفرقاطة المصرية «المحاربة» عند إطلاق أولى طلقات المدافع[1]».

وليس في رحيل الضباط الفرنسيين ما يثير الغرابة أو النقد. ويتعرض ميمو إلى الأمر أربع سنوات بعد ذلك عندما يكتب «فرض على القادة الجدد أداء قسم عدم التخلي عن لواء محمد علي نائب الملك في مصر، وأن يدافعوا عنه حتى الموت.

وطلب أداء القسم نفسه من قبل ضباط البحرية الفرنسيين الذين يقومون بالخدمة في مصر. ولست بحاجة إلى إخبار سعادتك بأن شعورهم مثل واجبهم، حملهم على استثناء حالة الحرب مع فرنسا، وأن هذا الاستثناء لم يشكل أي ظل من الصعوبة، مادامو كانوا بعيدين جداً على افتراض إمكانية حالة متوقعة[2] ». وكان هذا سارياً بطبيعة الحال على ما حدث سنة ١٨٢٧.

---

(١) دوان في «فرقاطات محمد علي الأولى ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧». IFAO القاهرة ١٩٢٦. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) دوان. رسالة إلى سياستياني. الإسكندرية الفاتح من شهر آب سنة ١٨٣١.

وعلى ما يبدو، كان كل شيء يدور بشكل جيد لحد الآن.

وفي العشرين من الشهر ذاته، وعند الزوال، ظهر أسطول التحالف أمام مدخل المرسى مشكلة خطين عمودين أحدهما شرقاً معرض للريح ويتكون من السفن الإنجليزية الثلاثة المتبوعة بالفرقاطات، ومن بينها «ديرتموث»، والقطع الفرنسية الخمسة، أما الخط العمودي الثاني الذي كان في الاتجاه نفسه للريح، فقد كان إلى الخلف قليلاً، ويتكون من القطع الروسية الثمانية بقيادة «أزوف».

ومن فوره، يرسل محرم باي صهر محمد علي رسالة إلى الأميرال الإنجليزي طالباً منه التراجع عن مشروعه بالدخول إلى المرسى، فيرد عليه كودرينغتون بجفاء بأنه قدم إلى هنا من أجل إعطاء الأوامر وليس لتلقيها.

وعند الساعة الثانية، كانت «آسيا» تتجاوز الرأس الجنوبي لسفاكتيريا دون إطلاق أية طلقة مدفعية، إذ كان المدفعيون الأتراك يدخنون غليونهم في المنحدر.

وبعد عشرين دقيقة، ألقت مراسيها على مقربة من «المحاربة» ثم استدارت غرباً بطريقة تجعلها تعارض السفن التركية. وحتى هذه اللحظة، لم يحدث شيء لايمكن إصلاحه، لكن الوضع سينقلب على نحو ما ينقله الأميرال ريغني لوزيره:

«كانت «سيرين» تتبع السفن الإنجليزية. وفي الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة، كان القبطان روبير يمر بها على بعد طلقة من مسدس أول فرقاطة من الصف التركي. وفي هذه اللحظة، اقترب مركب من الفرقاطة الإنجليزية «ديرموث» من السفن الحارقة التركية التي أرست جوارها قبل ذلك، فانطلق رصاص بندقية من الفرقاطة مردياً الضابط الإنجليزي الذي كان يقود هذا المركب. وكانت «سيرين» قريبة جداً حد أنه كان بإمكانها إغراقها لولا وجود خطر على المركب الإنجليزي. وهكذا أطلقت «دريموث» رصاصها على الفرقاطة لإجلائها من طاقمها. وفي هذه اللحظة بالضبط، كانت «سيرين» وجهاً لوجه مع الفرقاطة المصرية «الإحسانية»، فصرخت عبر مكبر الصوت بالفرنسية

مخاطباً من فيها بأنهم إذا لم يطلقوا النار فلن أفعل أيضاً. وفي الوقت نفسه، صدرت طلقتان مدفعيتان من إحدى السفن الموجودة ورائي وفي الصف الثاني. ويبدا أن إحدى الطلقتين كانت موجهة إلى «ديرموث» التي تطلق الرصاص على الفرقاطة. أما الثانية، فكانت على «سيرين» وتسببت في مقتل رجل، فصويت وقذفت من فوري هذه القطعة. وهكذا فتحت الفرقاطة النار علينا، وكانت الساعة تشير إلى حوالي الثانية وأربعين دقيقة[1]».

وما هي إلا ثانية حتى كان الحريق عاماً.

ويقول ريغني «هذا ما يحدث عندما يغامر أحدهم باللعب بمدافع من عيار ٢٤!» فهذه النزوة والمكررة دوماً صحيحة إلى درجة لايمكن الامتناع عن ذكرها كل مرة تم فيها الحديث عن نافارين. لكن الحقيقة أنه من الجنون تصور شرقيين بكل أنفتهم المبالغ فيها دوماً يقبلون دون أن يتأثروا، ترك أسطول أجنبي يذلهم بينما يتوفرون على وسائل لإيقافه أو هذا ما يظنونه على الأقل. إضافة إلى هذا، ماذا كان يصنع مركب إنجليزي قرب سفينة حارقة غير استفزازها؟

وهكذا اشتعلت الحرب.

من جانبه، رفض محرم باي قبول قدره المحتوم على متن «المحاربة». فبينما كانت المدافع تزمجر من كل جانب، ظلت مدافعه تقاوم بقاءها صامتة، في حين أنه وباعتراف كودرينغتون، كانت تستطيع أن تسبب له في هذه اللحظة مشاكل كبيرة «ذلك أننا كنا نتحمل أكثر مما نطيقه. وبالنظر إلى عددنا، فقد كانت مدافعنا الموجودة على الميمنة تعمل كلها من دون توقف. وكنا نصوب أحياناً بمدافع الميسرة، فنحل هذا الحبل أو ذاك، ونشد عقدة التثبيت أو أخرى بحسب الضرورة من أجل دفاعنا ضد السفن الأخرى[2]».

---

(١) فيل. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) المصدر نفسه.

حتى إن محرم باي أرسل أحد ضباطه ليعلم الأميرال الإنجليزي بأنه لن يطلق النار فيرد عليه أنه لن يفعل أيضاً على من لايهاجمه. والواقع أن نظرة واحدة من محرم باي، جعلته يقف على حجم المأساة التي تنتظر الأسطول التركي المصري. وبهذا التصرف، حاول أن يحدد ويخلي مسؤوليته. لكن من الصعب عليه بل من المستحيل أن يقنع رجاله بآرائه وهم يرون إخوانهم يقاتلون حولهم ويقتلون. ومنذ فترة، بدأ طاقم فرقاطته عصياً على التحكم فيه. وأخذوا يهتاجون أمام مدافعهم. ويرسل كودرينغتون ديلك وهو أحد ضباطه من أجل تأكيد الحياد المتبادل، فما إن صعد مؤخرة السفينة حتى قتل برصاصة أطلقت عليه من إحدى كوى السفينة، ولم يعد بإمكان «المحاربة» تجنب الحرب.

ولما بلغ به اليأس مبلغاً عظيماً، قفز محرم باي على متن زورق أوصله الشاطئ. وهكذا لم يكن له شخصياً على الأقل، أية مساهمة مباشرة في القتال الذي أراد سيده تجنبه مهما كان الثمن.

واستعرت المعركة على طول المرسى، بينما كان دخان كثيف يغطي نافارين حد أن العديد من سفن الحلفاء تبادلت إطلاق النار فيما بينها. وانعدمت الرؤية من كل جانب إلى درجة تعذر معها على الجانبين القيام بأية مناورة أو تقديم أي دعم حتى تعطلت أية قيادة على إصدار أوامرها.

وهكذا أضحى كل يقاتل لحسابه، في حين أن أغلب القطع التركية والمصرية كانت غير قادرة على الحركة.

وبحكم الظروف، وبتأثير التدابير المتخذة في الأيام الماضية، لم يشكل الأسطول العثماني إلا تحصينات عائمة موسعة، تحارب أجزاؤها وتسقط تباعاً أمام خصم حافظ على قدرته على المناورة على العكس منها تماماً.

وتستمر المعركة دون توقف حتى حلول الليل. وكما كان منتظراً، فقد كانت السفن المصرية الأكثر عرضة للهجوم لأنها الوحيدة القادرة على الدفاع عن نفسها. أما الجزء الغربي، فلم يشارك في القتال إلا متأخرا بعد انتهاء كل شيء.

وكما رأينا، لم تشارك «المحاربة» في القتال فعلياً إلا عند الساعة الثالثة،

فألفت نفسها تحت رحمة نيران «آسيا» على بعد لايتجاوز طولها. ولما كانت غير قادرة على الحركة، فقد شكلت هدفاً مثالياً لتفقد صواريها بسرعة كبيرة. وحوالي الساعة الرابعة والنصف، نجح طاقمها الذي نجا من الموت في إقامة صارية لتقصد الشاطئ حيث تنتهي هناك غرقاً، ولكن ليس لفترة طويلة، مادامت الرياح قد رفعتها ليلاً، واجتاز حطامها المرسى كله حتى أوشك على الوصول إلى سفاكتيريا. وعند الفجر، يتمكن العدو من القضاء عليها تماماً.

وعلى امتداد الليل، استمرت الحرائق في إضفاء اللون الأحمر على البحر، إضافة إلى انفجارات المراكب، بينما كان الناجون يحاولون الوصول سباحة إلى الشاطئ.

وعند طلوع النهار، لم يتبق من أسطول محمد علي الرائع، الذي كان بالأمس فقط يسبح في المرسى، إلا الفرقاطة «اللبوة»، وخمس سفن حربية صغيرة، وثلاثة مراكب، وأربع سفن شراعية طافية في الماء، في حين تم القضاء على الباقي سواء حرقاً أو غرقاً في الشاطئ. ومع ذلك، فقد كان بالإمكان رفع العديد من القطع، وإصلاحها خلال الأسابيع التي تلت ذلك، وكان يمكن الاعتماد على بعضها في بعض المهام، غير أن ذلك لم يمنع من حدوث خسائر فادحة.

ولم يكن هناك من سبيل لمعرفة إجمالي عدد الموتى والجرحى، وتم الحديث في تلك الأثناء عن عشرين ألفاً غير أن الأسطول بكامله على أكثر تقدير كان يتكون من تسعة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً منهم الطواقم العاملة فيه، وحوالي أربعة آلاف جندي. والحقيقة أن الثلاثة آلاف التي أعلن عنها أحد الضباط المصريين للقائد ريتشارد من «بيلوريس» يبقى الأكثر قبولاً. في حين تم الإعلان لدى الحلفاء عن ستمائة وأربعة وخمسين بين قتيل وجريح، منهم مئتان واثنان وسبعون إنجليزي، ومائة وأربعة وثمانون فرنسي ومائة وثمانية وتسعون روسي. وتضررت القطع الأميرالية، غير أنها جميعها كانت في حال يسمح لها بمواصلة الحملة.

وهكذا، فإن هزيمة الأسطول العثماني كانت كاملة، ولم تتمكن البحرية المصرية المنشأة حديثاً من النجاح في مواجهة البحرية الأوروبية القديمة.

والغريب أن نصر الحلفاء الجديد استقبل في القنصليات كـ «حدث مشؤوم»، فيرى فيه ستراتفورد كانينغ كـ «هزيم الرعد» و «حدث محير»، أما البارون دو داماس فيكتب إلى ريغني «ما يبعث على السرور أن أول طلقة مدفعية أتت من الأسطول المعادي، ولو كان الأمر غير ذلك لكنا في ورطة كبيرة».

والواقع أن كل المعنيين باستثناء الروس، وجدوا أنفسهم قد سقطوا في الفخ، ذلك أنهم لم يكفوا عن المراوغة، بما في ذلك القناصلة الغربيون وحتى محمد علي نفسه. فدول القوى العظمى لم تعرف أنها لم ترد وضع الثمن لشراء تخلي الباشا عن السلطان، وهو ما يجعله لايقبل بأن يغامر بنهج سياسة تسبب له الخصام مع السلطان والعالم الإسلامي.

وظل محمد علي رزيناً ولم يترك شيئاً يظهر عليه عند سماعه أنباء الكارثة في الثاني من شهر تشرين الثاني مثلما تطلعنا على ذلك رسالة بيتزوني الموظف بقنصلية الإسكندرية بتاريخ الثالث عشر من شهر كانون الأول إلى ريبوبيير الموظف بالقنصلية في إسطانبول حين يكتب:

«حملت سفينة حربية مصرية صغيرة أخبار تدمير الأسطول العثماني والمصري في نافارين إلى محمد علي باشا العائد إلى الإسكندرية، من قبل سفن القوى العظمى المتحالفة في العشرين من شهر كانون الأول».

وعند قراءة محمد علي الرسالة التي يخبر فيها إبراهيم باشا والده بالكارثة، اكتفى سموه بالقول بالكثير من برودة دم بأنه «كان يتوقع أن مثل هذه المواجهة لامفر منها[١]».

الرحيل عن موريي

أما الباب العالي، فعوض أن يلين بعد نافارين، ظل ثابتاً على عناده

---

(١) قطاوي «الأرشيفات الروسية في مصر. . .» (مصدر ذكر سابقاً).

السخيف. فيكتب الصدر الأعظم محمد سليم باشا إلى محمد علي ليعلمه «مادام الأمر كذلك، فإنه تم فعلاً إعلان الحرب، ومنذ هذه اللحظة، أضحى الجهاد فرضاً على كل المسلمين[1]».

غير أن للباشا هم واحد، جيشه المحاصر في موريي دون ذخيرة. ويفكر أيضاً في النتائج التي ستنجم عن أي مواجهة غير متكافئة مع القوى العظمى، فيحذر الباب العالي منذ اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٢٧: «في الحالة التي نحن عليها، لن يكون لإعلان الحرب على القوى الثلاثة المتحالفة من نتيجة أخرى سوى زيادة عدد القوى إلى أربعة أو إلى خمسة دول. لأن الدول الأخرى التي لم تشارك لحد الآن في هذا التحالف المعادي ستقول حتماً بأن هناك غنيمة لتتقاسمها فيما بينها، ومن المحتمل ألا تنال شيئاً وهو ما سيجعلها تغار منها... ولست أعلم الموقف الذي سنلفي أنفسنا فيه إذا ما تم هذا الأمر. ورأيي هو أنه من الأفضل إنهاء الأمر الآن بشروط مخففة، وأن نعمل فيما بعد على تطوير قواتنا في كل مكان، وأن نترك هذه الأيام المحتمة تمر[2]».

وللأسف، لم تغر هذه الرؤية السليمة السلطان، فيفضل كما فعل دوماً أن يتحاذق، وذلك بمداعبة غرور نائب الملك وبتقديم وعود كثيرة في حالة الحرب على الأوروبيين. وبطبيعة الحال، توجد باشوية سورية في سلة الوعود. كما سيحصل إبراهيم على القيادة العامة لكل الولايات التركية في أوروبا. لكن محمد علي، وبعد أن لدغ من قبل في قضية خسرو، لم يسقط في الفخ. ومن الآن فصاعداً، لن يفكر إلا في نفسه فقط، وكان هدفه المباشر عدم التضامن مع إسطانبول والانسحاب من الحرب بشرف دون أن يجلب عليه غضب السلطان. ولم يكن مخطئاً في ذلك، فهو يعلم أن عناد الباب العالي

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).
(٢) المصدر نفسه.

يقوده إلى الهاوية. ويعلم أيضاً أن روسيا تريد مواصلة العمل الذي بدأ ضده في نافارين، وأن تفرض عليه السلام مع القوى العظمى. وفي الحادي والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٢٨، يكتب إلى ممثله في إسطانبول «يعتمد الباب العالي على تخلي إنجلترا وفرنسا عن تحالفهما مع روسيا، وإذا ما تمعنتم جيداً في هذه الفكرة وفقاً للمعنى السليم، سترون أنه من السخيف التفكير ولو للحظة واحدة أن لدينا حظ في التغلب على روسيا، ونحن لم نستطع حتى الوقوف بحزم أمام الفرس، في حين أن قوة روسية صغيرة تغلبت عليهم وهدمت مدنهم... وحدهما الحكمة والحذر كفيلان بأن يظهرا لنا كم نحن بعيدون عن مقاومة روسيا والوقوف نداً لها[1]».

وسيأتي المستقبل ليؤكد سلامة رؤيته، إذ أن روسيا العازمة على احتلال تركيا ترغب إلى جانب الوزير دو فيليل رئيس الحكومة الفرنسية والذي يرى بأن يعلن رسمياً عن استقلال اليونان وإغلاق الدردنيل، ومساندة المشروع الروسي. بالمقابل، عارضت إنجلترا هذا المشروع الذي يقود إلى تدمير الإمبراطورية العثمانية، ووضع الروس يدهم على إسطانبول، إذ أنها لاترغب إلا في التقاسم التدريجي الذي لايحدث هزات وفق رؤاها.

فتقرر روسيا عندئذ أن تعمل وحيدة، فتعلن الحرب على تركيا في السادس والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨٢٨. وما يدعو للاستغراب أن أحداً لم يعارض ذلك، في وقت كانت كل أوروبا إلى حدود تلك اللحظة لاتفكر إلا في الحفاظ على هذه الوحدة؟ وإذا كانت هذه الوحدة مفيدة، لماذا تحالفت إذن فرنسا وإنجلترا مع روسيا للقضاء على البحرية التركية المصرية في نافارين، ولتسريع حركة الاستقلال اليوناني، وبالتالي تجزئة الإمبراطورية؟ ولماذا يغلق الأوروبيون أعينهم الآن أمام الزحف الروسي على البلقان؟ هي غرابة وتنافر الأمراء الذين يحكموننا...

---

(١) المصدر نفسه.

إضافة إلى هذا، تتفق القوى العظمى في التاسع عشر من شهر يوليو لسنة ١٨٢٨ في لندن على طرد المصريين من موريي ولو بعمل عسكري، ولم يكن الأمر يتلعق إلا بقرار شكلي، فقد أقر الإنجليز مثل الفرنسيين تماماً باعتدال محمد علي في نافارين. وكانوا مستعدين لبحث حل ودي معه.

مهما يكن الأمر، فقد أرسلت فرنسا إلى موريي قوة عسكرية يقودها الجنرال ميزون الذي كانت لديه تعليمات بإخلاء المصريين من موريي. غير أنه وقبل أن تشرع هذه القوات في عملها، كان محمد علي قد أنهى اتفاقاً مع كودرينغتون في الإسكندرية في التاسع من شهر آب يقضي بالانسحاب من موريي باستثناء بعض الحصون، وإعادة الأسرى اليونانيين الذين اختطفهم إبراهيم[1]، وإرسال سفن إلى اليونان لضمان عودة جيشه تحت حماية أسطول الحلفاء. ولم يحدث اصطدام إذن بين قوات إبراهيم وقوات ميزون. وخلال المناسبات الوحيدة التي حدث فيها تواصل بري بين القادة المصريين والفرنسيين فقد غلبت أحاديثهم الودية على طلقات المدافع التي تبادلوها في نافارين. وهكذا بدأ الانسحاب من موريي في شهر أيلول من سنة ١٨٢٨ . وفي العاشر من شهر تشرين الأول عاد إبراهيم إلى الإسكندرية.

وسيفتح الأتراك الذين كانوا في حرب مع الروس أعينهم أخيراً بعد سنة من ذلك على حجم الخطر الذي يتهدد وجودهم. فيوجهون في التاسع من شهر أيلول لسنة ١٨٢٩ نداءً إلى السفراء يستدعون فيه رحمتهم ويرجونهم ليتدخلوا لإنقاذ الإمبراطورية من غرق محتم.

وكانت وثيقة الصلح الموقعة في أندرينوبل في الرابع عشر من شهر أيلول أشبه بوصية مفروضة على الإمبراطورية العثمانية. وأجبر الباب العالي وفقاً للمادة العاشرة على القبول بمشروع استقلال اليونان[2].

---

(١) عندما وصل شارل لونورمون بحسب مصدر ذكر سابقاً، إلى الإسكندرية عن طريق البحر، كان شاهداً على رحيل مائة وثمانية وخمسين عبداً منهم إلى اليونان.

(٢) بروتوكول في الخامس من شهر شباط لسنة ١٨٣٠، والذي يقرر قيام اليونان كدولة مستقلة.

وخلال الحرب التي دارت بين روسيا وتركيا، كان محمد علي حذراً من تقديم أية مساهمة عسكرية أو أية مساعدة أخرى لسادته في إسطانبول، وتعلل من أجل الاعتذار عن ذلك بحالة الضعف الشديدة لجيشه منذ حملة موريي. غير أن الحقيقة كانت غير ذلك، إذ أن صدره قد أوغر بكل التضحيات التي قدمها خلال تدخله ضد اليونانيين وخسارة قواته البحرية، والتكاليف التي تكبدها دون أن يجني شيئاً مادام أنه لم يكافأ، عكس ما كان يتوقعه، بباشوية سورية. وبصورة غريبة، فإن كل حقده لن يصب على من دمر قواته البحرية ولكن على السلطان، المسؤول الوحيد في رأيه عن هذه الكارثة. أن يرفضوا عليه باشوية سورية؟ لابأس، سيحصل عليها بالقوة.

[21]

الوصلة الجزائرية (١٨٢٩ ـ ١٨٣١)

أضحت نافارين في نفس الفرعون من الماضي، مثل أي حادث من تلك الحوادث التي تعترض سبيل أي شخص يلعب على مستوى عال.

أما أن يُغرق الأسطول المصري الذي أقامته الهندسة الفرنسية بواسطة سفن حربية فرنسية، فيمكن أن يبدو شيئاً سخيفاً وضرباً من ضروب الجنون. ومع ذلك، فلا شيء هنا غير مألوف في لعبة الدول. وعلى أي، وللخروج من هذه الخيبة، لم يحمل محمد علي أية ضغينة نحو فرنسا التي ظلت تشعر أنها قريبة جداً منه. وصحيح أن علاقات تجمع البلدين فيما يشبه الحلف الضمني والود المتبادل. ولكن محمد علي يحتاج إلى دعم فرنسا خاصة للحفاظ على إمبراطوريته، ومدها إلى سورية. من جهتها، تحتاج فرنسا إلى محمد علي من أجل الحفاظ على التوازن بين نفوذها والنفوذ الإنجليزي الروسي في الشرق.

ولم يكن هناك من اختلاف بين محمد علي وفرنسا إلا في نقطة واحدة ولكنها أساسية. إذ لم يكن محمد علي يحلم إلا بأن تكون إمبراطوريته مستقلة تماماً وبعيدة عن كل وصاية أجنبية ستنتهي بابتلاعها. أما فرنسا، فعلى العكس من ذلك تماماً، كانت تتمنى أن تجعله تحت حمايتها.

لكن أين حجارة رقعة الشطرنج غداة نافارين؟

فقد خرج السلطان في إسطانبول من هذه الأزمة أكثر ضعفاً من تابعه، وإذا ما

انتهت المسألة بالنسبة لنائب الملك مع انسحابه من موريي، فإنها امتدت بالنسبة لمحمود الثاني بحرب تركية روسية، ومعاهدة سلام مجحفة.

ولما لم تلحق أية هزيمة بجيش محمد علي، فقد كان أكثر قوة من أي وقت مضى. أما قواته البحرية. . . فقد كانت بحرية أخرى قيد التكوين، وستكون أكثر قوة، وأكثر هيبة من الأولى. لكن من سيكون صانعها؟ هو سيريسي، أي فرنسا بطبيعة الحال.

وهكذا، أضحى التابع من الناحية العسكرية على مستوى إجبار سيده على الخوف منه. وإذا ما أراد ذلك، يمكنه قطع علاقته جهاراً معه والانتقام لنفسه من كل صور الإذلال والغبن التي لحقت به. يبقى أن الساعة لم تحن بعد، حسب التوقيت السياسي.

وفيما يتعلق بفرنسا، فقد وقع حدث بنتائج عظيمة وغير متوقعة، ذلك أن العلاقات الدبلوماسية قد قطعت بين باريس ونيابة الملك في الجزائر. وأصل هذا المشكل شيئان اثنان من الناحية الرسمية، وهما القرصنة، وعدم أداء داي الجزائر للاستحقاقات المالية المترتبة عن حبوب أرسلت أيام الحكومة التنفيذية، وحقيقة الأمر أن مصدر القضية هو عملية سياسية داخلية ترمي إلى الرفع من شأن البوربون، وجيشهم ونظام حكمهم.

مهما يكن الأمر، فإن التوتر بين البلدين سيصل أعلى مستوياته في الثلاثين من شهر نيسان لسنة ١٨٢٧ بسبب. . . طاردة ذباب، إن لم تكن مروحة. فخلال حديث عاصف ضرب حسين داي الجزائر بهذا الشيء المخل بالشرف ديغال قنصل فرنسا. وسارعت حكومة شارل العاشر إلى طلب اعتذار عما جرى، فكان الرد الوحيد الذي تلقاه مبعوثه الذي وصل على متن «بروفانس» إلى الميناء الجزائري هو استقباله من قبل المدافع. فأضحى من الضروري إذن غسل العار واستغلال الوضع بالاستيلاء على الدول البربرية التي تعد مطمعاً قبل ذلك. وهكذا سيرد اسم محمد علي، لكن من قبل من؟ دروفيتي.

ففي الفاتح من شهر أيلول لسنة ١٨٢٧ يشير المندوب الفرنسي إلى حكومته

بأن بإمكان فرنسا تكليف محمد علي المتوفر على جيش جاهز للقتال، بهذه المهمة عوض فرنسا لغزو الجزائر. ولم تكن حقوق السلطان على هذه الولاية نظرية أكثر منها عملية لتشكل عائقاً لايمكن تجاوزه.

وكان الباشا سعيداً، ويبدو مستعداً لتنفيذ هذه العملية، حتى إنه فاتح قبل وقت قصير فيليل بهذا المعنى، مقترحاً نفسه من أجل ان يؤدب شخصياً داي الجزائر. إلا أن محمد علي ليس دون كيخوت. فإذا ما هرع لمساندة فرنسا، فلأنه يترقب دعمها بالمقابل حين تحين ساعة ذلك في مشروعه المزدوج في الاستقلال وغزو سورية.

ويتبنى الأمير دو بولينياك الذي عوض مارتينياك في رئاسة مجلس الوزراء، وفيروනايس وزيره في الشؤون الخارجية هذه الفكرة التي كانت تستجيب لقناعاته الشخصية. فمنذ سنة ١٨١٤ كان قد فكر شخصياً في ربط مسألة الولايات بولاية مصر. فقبل إذن هذا الأمر. غير أنه وقبل الشروع في هذه العملية قدر أنه من الحذر إعلام الباب العالي. وفي الرابع عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٢٩ يرسل تعليماته إلى الجنرال غويمينو سفيره في إسطانبول للحصول على رضى السلطان على مهمة نائب الملك في مصر ضد البربر، ويعرض مشروعه في الوقت نفسه إلى الملك وإلى زملائه في الحكومة، فيعارضه في ذلك كل من بورمون وزير الحربية ودوسي وزير البحرية، إذ يقول أحدهما إنه لايمكن التخلي لمصر عن سفن البحرية الملكية، ويعارض الآخر بأنه لاينبغي على فرنسا الانتقام من هذه الإساءة عن طريق طرف ثالث غير معني وغير مؤهل بتاتاً. فيبحث بولينياك إذن عن حل وسط. فانتهى إلى أن السفن ستعار فقط ولن يتم التنازل عنها، وستشارك فرنسا في الحملة بواسطة أسطول ومعدات الحصار وضباط مهندسين. فيقدم شارل العاشر موافقته على صيغة المشروع المعدلة.

ويسترسل بولينياك في الطريق التي رسمها، ويرسل القبطان هودر مساعد غويمينو إلى محمد علي، فيركب البحر من طولون في الثالث من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٢٩، ليصل إلى الإسكندرية في السادس عشر منه، فيقابل نائب

الملك الذي يعرض عليه طلباته مقابل «الخدمة» التي تُنتظر منه، وتتعلق بقرض بمبلغ أربعة ملايين تالاري يرد خلال أربع سنوات، ومنحه أربع سفن حربية وثمانين مدفعاً من طراز حديث. وكان بإمكان كل طرف أن يحصل على ما يريده من هذا الاتفاق، إذ سيتمكن محمد علي من الحصول على مراكب حربية وممتلكات جديدة، في حين ستنهي فرنسا القضية الجزائرية، أما أوروبا فستتخلص من القرصنة.

ويعود النقاش في شهر كانون الأول من سنة ١٨٢٩ في مجلس الوزراء. وبعد جدال عاصف يتم تبني مبدأ حملة فرنسية مباشرة ضد الجزائر في التاسع عشر من الشهر ذاته.

في تلك الأثناء، كان غويمينو يجس النبض في إسطانبول. وفي الاستشارة الأولى لم يبد الباب العالي اعتراضاً على عملية باشا مصر، لكن موقفه سيتغير فيما بعد، وسيعرب عن رفضه، مقترحاً إرسال بعثة مصالحة إلى داي الجزائر. وهذا التحول المفاجئ لم يكن نتيجة لنزوة أو للصدفة بل نجم عن العمل الحثيث لسفير إنجلترا لدى السلطان.

وينقل هودر في العشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٢٩ إلى باريس رفض محمد علي مقترحات بولينياك الأخيرة، إذ أنه يريد أن يقوم بالعمل بمفرده. ذلك أن التعاون مع دولة مسيحية لاتمنحه تبريراً أمام المسلمين إزاء هذه الخطوة، كما أنه لم يقبل مساهمة الأسطول الفرنسي إلا من أجل حمايته شخصياً ضد أي عدوان محتمل. وعلى الرغم من كل هذا، فإن بولينياك لم يقطع محاداثاته مع الباشا، فيقترح على مجلس الوزراء في الثالث من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٠ أن يمنح محمد علي أربعة ملايين تالاري على شكل دفعات، جزء منها قبل أن تغادر الحملة الإسكندرية، وجزء آخر في طرابلس، والباقي في الجزائر. ويقترح أيضاً منحة مقدرة بثمانية ملايين كتعويض عن السفن الأربعة التي بدا أن التخلي عنها أو إعارتها يعد ضرباً من المستحيل.

ثم يعرض عبر بيان بتاريخ الثامن عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٠،

لسفراء فرنسا في لندن وفيينا وبترسبورغ وبرلين الخطوط العريضة للمشروع الفرنسي المصري، ولم تتأخر ردود الفعل.

فمترنيخ معاد تماماً لفكرة دفع نائب الملك في مصر للقيام بأي عمل ضد الولايات البربرية. وتدعم بروسيا النمسا، فيما تصف روسيا صاحب المشروع بـ «صاحب الرؤى» وترى أن ذلك مخجل لفرنسا، وتدعوها للدفاع عن مصالحها بوسائلها الخاصة.

أما الإنجليز، فكانوا يرفضون بصفة قطعية المخطط، ويدافعون مباشرة عن فكرة «وحدة وأمن الإمبراطورية العثمانية»، ويدعون فرنسا أن تحل خلافها مع الجزائر بنفسها. وكما يكتب الجنرال بوير «منعت إنجلترا نائب الملك من اجتياح الحبشة لتتركه يقوم بفتوحات عقيمة في السودان والجزيرة العربية، وليرهق قواه، ويستنفذ خزائنه في اليونان، قبل الضربة القاضية في نافارين. ولم تقدم الدبلوماسية الإنجليزية الثابتة في جوهرها والمتغيرة والمرنة شكلاً أي امتياز لصالح رؤى الباشا. وكانت تدعه يفعل ما يشاء لتتركه يسجن نفسه في حدود إرادته التي لاتهدأ. وكان لهذا التكتيك فائدة ترك نائب الملك يزجي جزءاً من طاقته في الخارج وفي حال هزيمته، تقضي إنجلترا عليه. أما في حال انتصاره فهي تمنعه من جني ثماره أرباحه[1] ».

من الطبيعي جداً أن تعارض أي تحالف لمصر مع أي من القوى الأوروبية.

وفي مصر، أفهم القنصل الإنجليزي محمد علي بشكل واضح جداً بأن تخليه عن مخطط بولينياك هو الشرط الوحيد لسلامته، وإلا فإن إنجلترا ستقف أمام طموحاته في البحر البيض المتوسط، وسورية والبحر الأحمر، بينما كان السفير الإنجليزي في إسطانبول مكلفاً بأن يطلب من الباب العالي أن يمنع أية مبادرة للباشا.

ويعلن محمد علي للقنصل الإنجليزي باركر مشيراً من بين أشياء أخرى إلى

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

«وحدة الإمبراطورية العثمانية» المهمة جداً في نظر حكومة سان جيمس، بأن «إنجلترا قوية جداً، وقد أدركت منذ مدة طويلة بأنني لاأستطيع القيام بأي عمل ذي قيمة دون الحصول على إذن منها، فحيثما وليت وجهي، أجدها أمامي تدفعني إلى الفشل[1]».

ولما لم يقابل المشروع الفرنسي المصري إلا المعارضة والنقد واللوم فقد تم استبعاد أي تدخل لمحمد علي في القضية الجزائرية.

ويرسل بولينياك في السادس من شهر شباط لسنة ١٨٣٠ دبلوماسياً إلى الإسكندرية، وهو البارون لانغسدورف بمهمة إبلاغ محمد علي بأن فرنسا ستتكفل بنفسها بالحملة ضد الجزائر، وبأنها ستمنحه مليوناً ونصف مليون تالاري كمعونة إذا أخضع طرابلس وتونس.

وفي أثناء ذلك، يعلم الباشا بالمقترحات السابقة التي حملها هودر من باريس في العشرين من شهر كانون الثاني. ومدفوعاً بطموحه يقبلها... عشية اليوم الذي سينقل له فيها لانغسدورف الأخبار الجديدة. ولما كان مغتاظاً فقد قطع المفاوضات، متنبئاً بأن الفرنسيين لن يصلوا أبداً إلى الجزائر أو أنهم لن يجرؤوا على البقاء فيها خوفاً من إنجلترا، ويخطأ في الافتراضين.

ففي الرابع عشر من شهر حزيران لسنة ١٨٣٠، تنزل القوات الفرنسية بسيدي فرج على مسافة سبعة عشر كلم غرب الجزائر العاصمة، واضعة حداً للهيمنة التركية منذ القرن السادس عشر. ولن تنتهي الهيمنة الفرنسية إلا في شهر آذار من سنة ١٩٦٢.

وبعد كل شيء، يمكن القول إن محمد علي محظوظ جداً أن الأحداث منعته من خوض غمار التجربة الجزائرية، ذلك أن كل الاحتمالات تشير أنه كانت تنتظره هناك العديد من الأمور السيئة، في حين أنه حر الآن لتوجيه ناظريه نحو الشرق...

---

(١) قطاوي. (مصدر ذكر سابقاً).

لم يغادر المشروع السوري باله أبداً، فهو يريد هذه الأرض، ويجب ألا يمنعه شيء من الحصول عليها. وبدا أن الباب العالي استشعر أن تابعه بدأ يفقد صبره لأنه وكما ليهدئ من روعه، يصدر في السابع عشر من شهر آب لسنة ١٨٣٠ فرماناً يقضي بضمه حكومة كريد على شكل إقطاع[١]. والأكيد أن محمد علي كان راضياً على هذه الهدية التي تزود أسطوله بمحطة بحرية على مستوى عال من الاستراتيجية. لكن هل يكفي هذا التنازل للتعويض عن كل التضحيات التي بذلت أثناء حرب موريي؟ يمكن أن يشك في هذا الأمر سيما وأن هذه الجزيرة ستكلفه أكثر مما ستمنحه له، إضافة إلى أنه ومنذ نافارين تسممت العلاقات الصعبة أصلاً بين السيد وتابعه بشكل كبير.

ويكظم نائب الملك غيظه بعدم الحصول على سورية كمكافأة له على مساهمته ضد اليونانيين، ولرفض منحه باشوية عكا، وبعدم الحصول على أي تعويض جراء كل الخدمات التي قدمها. ولم يكن السلطان بأقل لوماً له بوقوفه موقف المتفرج بينما كان هو في مواجهة الروس. وبطريقة غير مباشرة، يقدم له الباب العالي العذر الذي كان يترقبه لغزو سورية. لكن ما هي إذن سورية في هذا الوقت بالذات الذي يستعد فيه الباشا لاقتحامها؟

فعلى شاكلة مصر، عرفت الغزو العربي، وتعاقبت على حكمها الأسرة الأموية والعباسية والفاطمية والمماليك. وصارت منذ سنة ١٥١٧ ولاية عثمانية، وقسمت إلى ثلاث باشويات ثم إلى أربع باشويات، دمشق وطرابلس وحلب وصيدا، وكانت فلسطين تشكل جزءاً من هذا المجموع.

وكانت الوضعية السياسية لسورية تشجع بشكل طبيعي أطماع محمد علي، إذ أنه يوجد في هذه الولاية شعوباً نصف مستقلة، تتمتع بامتيازات تقليدية مشكلة

---

(١) يعنى بهذا المصطلح بصفة عامة تحديد جزء من الأراضي الملكية الممنوحة إلى أمير من دم ملكي، خاصة إلى أمير صغير السن من بيت فرنسا، كتعويض له عن إبعاده عن العرش.

بطريقة أو بأخرى دولاً داخل الدولة. ويأتي في المقام الأول، التجمع المشكل في المنطقة اللبنانية من قبل الدروز والموارنة والذين يحكمهم زعيم واحد وهو الأمير بشير شهاب. ولم يكن في نية محمد علي الانخراط الأعمى في حرب قادمة، فقد أقام صلات وثيقة بهذا الأمير، حتى إنه استقبله مرتين في مصر حين أجبر الأمير على الفرار من لبنان هرباً من أعدائه المحليين، وبفضل بشير فإنه كان يضمن دعم كل الجبل اللبناني.

هي ذي أسابيع منذ أن بدأ محمد علي في مفاوضات سرية مع الأمير اللبناني. وما إن يعلم السلطان بذلك حتى يتصرف تصرفاً فيه من الصرامة بقدر ما فيه من الخرق، إذ يأمر عبدالله باشا عكا بقطع كل علاقاته بجاره المصري، وكمكافأة له على ذلك، يعينه باشا على طرابلس. ومن أجل متعة الحكي فقط نشير إلى أن المدعو عبدالله هذا، اكتسب عادة تهديده لمواطنيه بطريقة غريبة. وهي أنه كان يفرض ضرائب على رعاياه عن طريق إرسال منتوجات محصلة من ممتلكاته من قبيل القمح والصابون... إلخ، ويرغمهم على شرائها بأسعار مبالغ فيها، فما إن يزعجه أحد حتى ينطق هذه الكلمات بطريقة آلية «احذر وإلا أرسلت لك الصابون! [1]».

ويجرنا قرار الباب العالي بدفع هذا الشخص إلى رقعة الشطرنج مرة أخرى إلى الوقاحة التي تتصف بها اللعبة السياسية. والحقيقة أنه وقبل حوالي عشر سنوات من ذلك أي في شهر أيار من سنة ١٨٢٢، كان عبدالله هذا أشد أعداء إسطانبول. ولما كان مغروراً حد تصرفه كفاتح غامر بالقيام بعملية ترمي إلى وضع يده على باشوية دمشق فعمد إلى الفرقة بين أمراء المنطقة، وإحداث الفوضى حد أن لسلطان وعندما أعلم بالأمر قرر إرسال العدد من الباشوات في رحلة صيد إلى عكا مع أمر بأن يأتوه برأس المتمرد الذي تراجع إلى مدينتة عكا ليعمل منها على رد كل الهجمات واثقاً من تفوقه المطلق، وذلك بسبب عدم

(١) بلانا. (مصدر ذكر سابقاً).

كفاءة القوات التي أرسلت في أثره، إضافة إلى معرفته كيف يحمي نفسه في الحصون الشهيرة للمدينة التي تصدت لقوات بونابارت العظيم.

والمفارقة في الأمر أن تدخل محمد علي في ذلك الوقت هو الذي سيعيد النظام إلى المنطقة، وسواء أكان قدم أم عرض وساطته، فقد فاوض إسطانبول على عفو عبدالله، ومكنه من استعادة حكومته لقاء دفع نفقات الحرب كغرامة، إضافة إلى مبلغ ثلاثة آلاف بورصة أي حوالي سبعمائة وخمسون ألف فرنك في ذلك الوقت. واليوم، وبعد عشر سنوات، فهذا هو الشخص الذي عينه السلطان كدرع، بل وحتى كسيف ضد مصر...

وسرعان ما أضحت عكا مركزاً للتآمر ضد السلطة في القاهرة، ولم يتوانى عبدالله في تشجيع هجرة المصريين الفارين الذين كان يمنحهم ملجأ بكل سرور، وهكذا تمكن أزيد من ستة آلاف فلاح سنة ١٨٣١ من عبور الحدود[1].

هل اشتكى نائب الملك إلى الباب العالي؟ في حال فعل ذلك، كان يقابل بأن «الفلاحين المصريين رعايا الإمبراطورية وليسوا عبيداً لحاكم مصر، ويجوز لهم أن يتنقلوا في أي مكان يطيب لهم». فيرد مباشرة «في هذه الحالة، سأستعيد فلاحي الستة آلاف وأزيد عليهم واحداً آخر!». وهذا إعلان حرب بالكاد متنكر. فكل شيء جاهز إذن، ذلك أن نائب الملك توقع كل شيء. وأعد واستعد لها. ومن الآن وصاعداً لن يعتمد النجاح إلا على نجاعة التنفيذ.

وظن البعض في رغبته القارة بغزو سورية، نيته في إنشاء إمبراطورية. إمبراطورية عربية بالتحديد. فلنعلن ذلك الآن، فقد دعمت هذه النظرية خاصة من قبل مؤرخين عروبيين، الذين أعجبوا بدون شك بفكرة جعل الباشا المبشر بالحركة العروبية القومية التي بلغت ذروتها مع عبد الناصر. ومع ذلك، وعلى الرغم من فترة حكم طويلة ومتقلبة يمكن إيجاد عناصر تدعم هذه النظرية إلا أن

---

(١) ذكر بعض الكتاب وخاصة أنكيري في مصدر ذكر سابقاً، ثمانية عشر ألف فلاح.

هذا لايبدو لنا منسجماً مع عقلية الباشا. إذ يظهر لنا أنه كان تحت تأثير الحاجة نفسها التي كانت لدى سابقيه البعيدين، وذلك بدفع حدود مصر لحمايتها بشكل أفضل ضد التدخل الأجنبي مثل ما قام به أول مرة عندما استولى على السودان.

وساهم غزو الهيكسوس قبل أزيد من ثلاثة آلاف سنة في إفهام المصريين بأنهم ليسوا وحيدين في الأرض، وبأن الصحراء المحيطة بوادي النيل لاتجعل منه عصياً على الاختراق. ومنذ ذلك الحين، ميزت العديد من الحملات المدفوعة بروح دفاعية أكثر من الغزو، حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أوصلتهم شرقاً عبر سورية حتى ضفاف دجلة والفرات، وعبر سيليسيا شمالا حتى بلاد الحيتيين بالأناضول حالياً. لكن هناك سبب آخر، وهو حاسم أيضاً مثل ما تشرحه بصورة جيدة السيدة ديروش نوبلكور «يتعلق الأمر بمعرفة من (. . .) يمنح بلده المكان الأكثر قوة بين دجلة الفرات والبحر الأبيض المتوسط ليكون سيد المبادلات التجارية والذي سيرفعه بحكم الواقع على رأس أكبر قوة في ذلك العصر[1]».

ويبدو لنا هنا أنه وعلى مثال تحتمس ورعمسيس، أن السياسة نفسها هي ما جرت محمد علي ليضع قدمه على «درجات الشرق»، فالإمبراطورية العثمانية الآن تمثل في نظره بطريقة ما الكونفدرالية الحيتية السابقة.

وإذا ما التزم بالقضية اليونانية إلى جانب السلطان، فلأنه كان يأمل أن يتم التنازل له على سورية بالمقابل. وامتلاكه لها سيمكنه من إدراك هدفه المفضل، وهو ضمان أمن حدوده، ووضع دولة كـ «صمام» بين مصر وإسطانبول.

وفي بداية شهر أكتوبر، كانت القوات المصرية جاهزة للانطلاق لكنها ستشل بوباء الكوليرا الذي يعصف بالبلد. وينقل سيريسي خطورة الوضع في رسالة مؤرخة بتاريخ العشرين من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٣١ «إنها لحياة غريبة أن يُحبس الإنسان لمدة شهر كامل، وألا يكون محاطاً إلا بالموتى أو

(١) كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «رمسيس الثاني. . القصة الحقيقية». باريس ١٩٩٦.

المحتضرين. فقدت مصر خلال شهر آب أزيد من مائة وعشرين ألف شخص، وفي القاهرة، كان يموت أزيد من ألفي شخص يومياً[1]...».

وما إن تحسن الوضع حتى قام جيش قوي مؤلف من حوالي خمسة وعشرين ألف رجل، جعل تحت إمرة إبراهيم المساعد من قبل المخلص جوزيف سيف، وأخذ طريقه في اتجاه عكا.

---

(1) انكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

[22]

على آثار بونابارت (١٨٣١ ـ ١٨٣٢)

عند نهاية شهر تشرين الأول من سنة ١٨٣١ ، كان الجزء الأكبر من الجيش يمضي في سيناء. وكان تحت قيادة إبراهيم آخر، إبراهيم يغن الملقب بالُصغيَّر حتى لايخلط مع ابن محمد علي. أما إبراهيم «الكبير» فقد قصد يافا بحراً على متن الفرقاطة «كفر الشيخ»، وكان مرافقاً بسيف وهيئة أركانه، متبوعاً بفرقة مؤلفة من سفينة حربية صغيرة وثلاثة مراكب حربية صغيرة، في حين كان على بقية اسطوله أن يلحق به فيما بعد إلى عكا.

وبفارق ثلاثاً وثلاثين سنة عن بونابارت، يحاول ابن محمد علي أن ينجح فيما فشل فيه ابن كوريسكا. وتصل قوات إبراهيم «الصغير» إلى غزة في السابع من شهر تشرين الثاني. وتحتلها في ذلك المساء. وتقف على مشارف يافا في العاشر منه حيث كانت المدينة تحت قبضة إبراهيم «الكبير» من دون أية بطولة. ذلك أن الحامية التركية، وما إن علمت بوصوله حتى فرت لاجئة إلى القدس. وتمضي القوات المجتمعة في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني إلى حيفا التي تستقط من دون مقاومة. وفي الأيام الأولى من شهر كانون الأول بدأت عكا تلوح في الأفق.

ويرجع معظم المؤرخين فشل بونابارت أمام هذه المدينة إلى عدم وجود معلومات كافية لحالة حصونها، ما دفعه إلى التقليل من شأن المقاومة فيها. هذا

صحيح، لكن ينبغي إضافة أن نابوليون لم يكن أبداً رجل حصار، إذ كان يفضل كثيراً المساحات الواسعة المنسجمة مع عبقريته العسكرية. ولم تتغير المدينة الممدودة أمام ناظري إبراهيم عما كانت عليه منذ سنة ١٧٩٩، إذ تمنح الشكل الخماسي نفسه غير المنتظم، حيث تسبح ثلاثة جوانب منها في البحر. أما الجانبين الآخرين الأكثر قوة، فيشكلان الجبهة البرية، وحولها جميعاً خندق عميق نسبياً. وكان الجانب الجنوبي محمي بثلاثة أبراج محصنة، في حين توجد أربعة أبراج في الجانب الشمالي. وهناك بابان فقط يفضيان إلى الساحة، «الباب البحري» في الطرف القصي للميناء، و «باب المدينة» المقسم بين التعيزات والملاصق للبحر.

أما الميناء، فمحمي بحصن على جزيرة صغيرة، ويأتي بعد سد وبشريط من المنخفضات. وكانت المدينة مشكلة من تجمع لبيوت بئيسة بنيت بالحجارة، وبأسقف من التراب أو من قباب ملتصقة بحمامات وأسواق وخانات. ولاشيء يسترعي الانتباه سوى مسجد زين بأعمدة رائعة من الرخام السماقي تعلوه قبة أنيقة.

وكانت الحامية تتكون في هذا الوقت من أزيد من ثلاثة آلاف رجل أغلبهم من الألبان. وكان يقودها ضابط بقيمة كبيرة وهو خورشيد باي المحاط بمهندسين ومدفعيين أوروبيين لايقلون قيمة عنه. وكان بتوجيه ألا يتم تبدير أي شيء. فلن يستعمل البارود والمدافع إلا بمقدار.

ويأمر إبراهيم بالهجوم الأول صباح يوم الثامن من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣١، وتتعرض المدينة خلال اثنتا عشرة ساعة لقذف عنيف. ويكتب قائد «الجعفرية» «أطلقت فرقاطتنا لوحدها ضد الحصن ثلاثة آلاف قذيفة، أصابت ألفان منها على الأقل أسواره، ولم يكن لها من أثر إلا أنها أحدثت بها ثقوباً دون أن تتمكن من رجها[1] ». وهكذا فقد كان القصف مثيراً أكثر منه ناجعاً.

---

(١) المصدر السابق.

وعلى الرغم من الحركة الدؤوبة للأسطول المصري إلا أنهم لم ينجحوا في إحداث ثغرة صغيرة في الحصون. وعلى امتداد عشرة أيام، ظلت الهجومات مكثفة، والقصف مستمر، ودوماً من دون نتائج.

ويحاول السلطان الغاضب من إسطنبول التوصل إلى اتفاق.

ويكتب البارون دو فارين القائم بالأعمال الفرنسية في العاصمة التركية بتاريخ العاشر من شهر كانون الأول «إن الباب العالي بوضعه المعتدي في المكان نفسه للمعتدى عليه، يهيء لوسيلة للتوافق مع محمد علي إلا إذا كان هذا الأخير لايريد مطلقاً أن يكون مستقلاً. يمكن للباب العالي إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك، دون أن يظهر تراجعاً أن يتخلى له عن سورية[1] ».

ويصل مبعوثون من قبل محمود الثاني إلى الإسكندرية في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣١، فيستقبلون من طرف نائب الملك الذي يعلن لهم «إن ابني يهاجم الآن حصون عكا، ولايمكنني أن أستدعيه دون ما يحفظ شرفه وشرفي، لكن وما إن تسقط الساحة حتى أكون مستعداً بعد أن أعاقب خصمي عبدالله، على إعادة الحصون بين يدي السلطان، ويمكن له أن يتصرف فيها كما يحلو له[2] ».

وما إن نقل هذا الرد إلى إسطانبول حتى تسارعت الاستعدادات التي شُرع فيها من قبل من أجل هجوم تركي معاكس، إذ تلقت حكومات كل من حلب وطرابلس ودمشق والقدس والقيصرية بأن تنتقل قواتها في الحال لنجدة عبدالله، وحددت حلب كنقطة التقاء كل هذه القوات.

ويهب رجل أول ولكن ليمد يد العون لإبراهيم. يتعلق الأمر هنا بالأمير بشير شهاب. وكان دعمه منتظراً. فيستقبله القائد العام بأحضان مفتوحة، ويستفيد من معرفته بالمنطقة لضمان تموين الجيش، وهو ما دعى كادالفين وبارو إلى

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

كتابة «الأمير بشير في معسكر إبراهيم، وهو ما يعني بأن سورية بين أيدي المصريين».

غير أن هذا الدعم لم يغير الوضع في شيء. فعلى الرغم من تجدد الهجومات إلا أن المدينة ظلت صامدة، ما جعل قنصل فرنسا في الإسكندرية يعلق بالقول «إن الزهو الذي انطُلق به في هذه القضية، والذي دفع إلى الاعتقاد بأنه يمكن الاستيلاء على عكا مثل الاستيلاء على بيت غير محصن، هو أحد الأسباب التي تساهم في طول مدة المقاومة. تم الاعتقاد بأن إقامة حصار مثل خوض حرب، وأن وجود أسطول جيد، وجيش منظم بشكل حسن سيغنيان عن حسابات العلم، وبأن السمعة العسكرية لإبراهيم باشا ستكفي لتخطي كل العقبات. ويمكن فهم هذا الوهم إذا ما تذكرنا بأنه كان وهم بونابارت الذي اعتقد أنه يمكنه إخضاع عكا في أيام قليلة. وكان لدى هذا الجنرال على الأقل، عدا المدفعية الضخمة التي حرمته منها مصادفة بئيسة، عتاد ورجال وكل ما يضمن نجاح عملية من مثل هذا النوع، من ضباط مهندسين على درجة كفاءة عالية، غير أن المدير الوحيد لأعمال الحصار الذي بدأه هو مهندس إيطالي، والذي إلى يومنا هذا لم يسبق له أن تلقى أمراً مماثلا[1] ».

وتمضي الأيام، ويقوّض الشتاء السوري بطريقة غير محسوسة الجيش المصري. وأخيراً ولما أدرك إبراهيم عدم جدوى هجوماته المتكررة، يقرر أن يكتب إلى أبيه طالباً منه أن يمده بمهندسين أكفاء ورجال مدفعية. من جهة أخرى، يعطي أمره إلى الفرقة البحرية بالعودة إلى الإسكندرية عندما استنتج بلا شك، أن دور الأسطول لم يعد مجدياً، وذلك حتى يتمكن من إصلاح الخسائر التي لحقت به.

ويستجيب محمد علي مباشرة لابنه، فإضافة إلى الأسلحة والذخيرة، يرسل له ضابطاً من نابولي، وهو عقيد في سلاح الهندسة برهن على كفاءته من خلال

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

حصار ميسولونغي. يتعلق الأمر بالعقيد روميي الذي يترك الإسكندرية في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٢ مرافقاً برجل من كورسيكا يدعى السيد ألبرتيني، وآخر من البييمونت، ليصلوا إلى معسكر إبراهيم في الثاني من شهر شباط. وسرعان ما تسلم الرجال الثلاثة زمام الأمور، وغيروا التدابير التي اتخذها من سبقهم.

وفي تلك الأثناء، ينشر الباب العالي في إسطانبول لائحة الترقيات أو التثبيتات السنوية الخاصة بباشوات الإمبراطورية، والتي لم يظهر فيها اسم محمد علي أو اسم ابنه، وهو ما يعني بكل بساطة ووضوح عزلهما.

وفي ليلة عيد الأضحى الموافقة للثالث من شهر آذار لسنة ١٨٣٢ يأمر إبراهيم بإطلاق قصف شامل للمدينة. وتم بإحكام وبإدارة جيدة واستمر لستة أيام وست ليال متصلة، فينهار جراء ذلك البرج العلوي جاراً معه جزءاً من السور، ومحدثاً في الآن نفسه، ثغرة كانت متسعة بما يكفي لتسهل الهجوم عبرها.

ولما قدر القائد العام أنه مستعد تماماً، أعطى أمره في التاسع من شهر آذار بإطلاق هجوم جديد، فركزت كل الجهود على الثغرة. وكانت المواجهة مرعبة. ويقاتل عبدالله باشا وخيرة رجال حاميته بهمة اليائسين. وسرعان ما عوضت البنادق بالأسلحة البيضاء. وبعد ساعات من ذلك، كان الإخفاق مرة أخرى، الذي تسبب فيه بحسب العقيد روميي «الغرور والجهل الكبير لكل قادة المعسكر، وغياب الانضباط، وأكثر من ذلك خلل النظام والقواعد الأساسية لإنجاح مهمة عسكرية[1]».

وهو ما يدل على أن «النظام الجديد» لم يكن بلا عيوب.

وإمعاناً في تردي الأوضاع، يأتي أحد الرسل ليخبر إبراهيم بأن تجريدة مهمة من الجيش العثماني يقودها عثمان باشا، تهاجم طرابلس، شمال بيروت

---

(١) المصدر نفسه.

المحتلة من قبل المصريين، بينما تتمركز أخرى في حماة على العاصي. فكان يتعين فعل شيء إذن. وهكذا، يتحرك إبراهيم شمالاً في خمسة عشر ألف رجل يوم التاسع والعشرين من شهر آذار مخلفاً وراءه في عكا لواءين اثنين، ومحولاً حالة الحصار إلى مجرد محاصرة.

ويصل طرابلس في الرابع من شهر نيسان، فلم يجد بها قوات عثمان باشا إذ فضل قائدها رفع الحصار على المدينة، واللحاق بالجزء الكبير من الجيش العثماني في حماة. فيخرج إبراهيم في أثرهم بعد توقف دام زهاء ثماني وأربعين ساعة. ويجتاز لبنان في أقل من أسبوع. وفي الخامس عشر من شهر نيسان لسنة ١٨٣٢ يتقدم من حمص. ولما كانت المدينة تعاني خصاصاً في تموينها، فقد رأى من الحذر أن ينسحب إلى البقاع. فيرجع عثمان هذا الانسحاب إلى الخوف، فيترك حماة قاصداً حمص على رأس خمسة آلاف رجل ليعترض طريق الجيش المصري جوار خان كاسييه على طريق القوافل الكبري التي تربط إسطانبول بدمشق.

غير أن المواجهة التي تمناها إبراهيم طويلاً لم تدم إلا مدة قصيرة، إذ سيجهز على عدوه بسرعة كبيرة. فخلال ساعتين سيحدث اضطراباً بين صفوفه ويتحرش به قبل أن يبدأ في مطاردته.

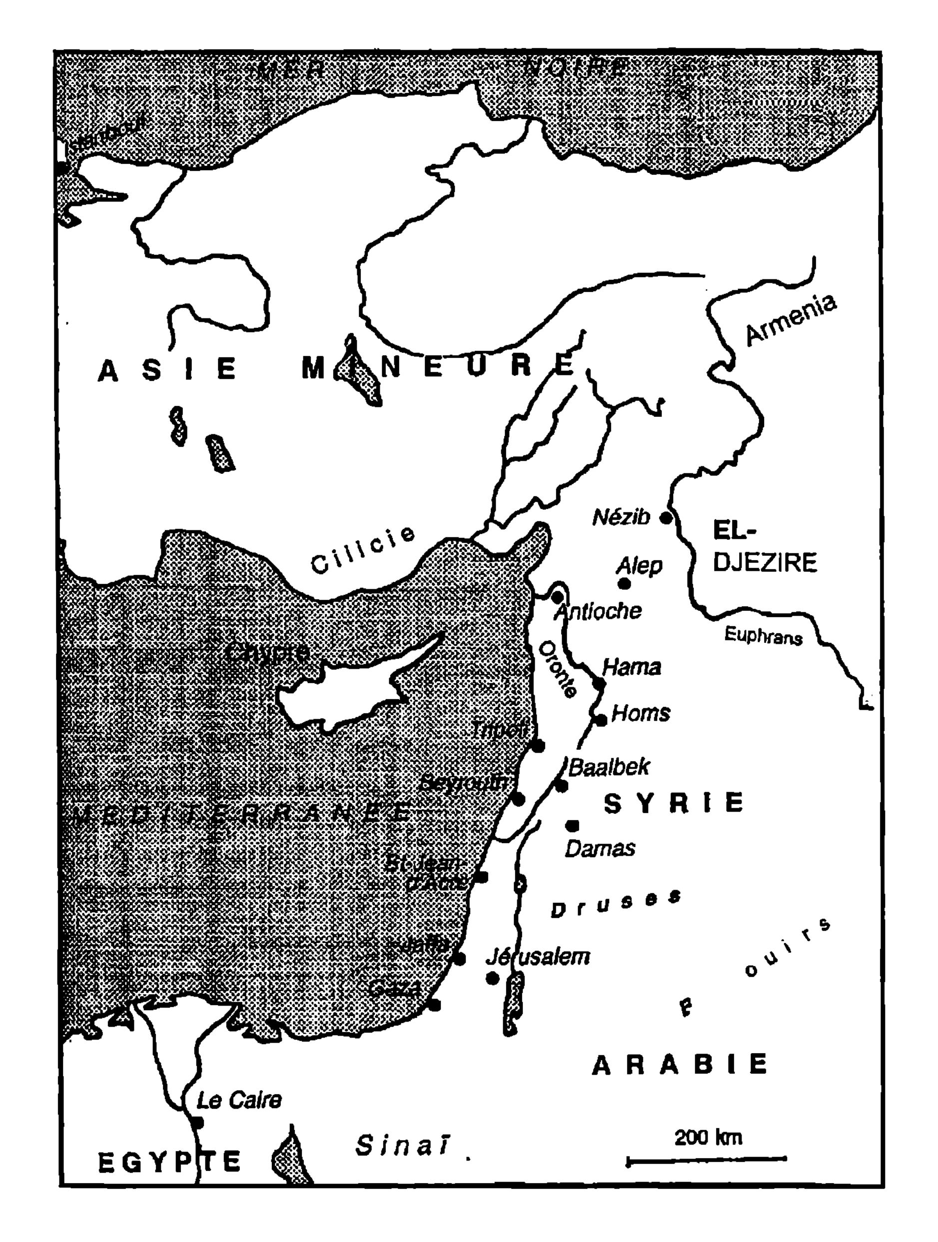
ولما كان إبراهيم المزداد قوة بهذا النصر راغباً في عدم الابتعاد كثيراً عن هدفه الأساسي عكا، يترك حمص قاصداً بعلبك. فيقيم في بعلبك زهاء عشرة أيام حيث سيعزز دفاعات المدينة ويترك فيها حامية أوكل أمر قيادتها إلى عباس باشا ابن أخيه طوسون. وبعد أن صار آمناً من أي هجوم من الأطراف عاد ليسلك الطريق إلى عكا حيث سيصلها في الأيام الأولى من شهر أيار.

فيعلم أن قوات عبدالله خرجت أكثر من مرة أثناء غيابه، حيث خاضوا معها معارك دامية تحت الأسوار العتيقة، لكن لم يستطع المحاصر أو المحاصَر على السواء الوصول إلى نتيجة حاسمة.

ويعاود إبراهيم هجوماً أكثر قوة. ففي الخامس عشر من شهر أيار لسنة

١٨٣٢ ، ودوماً تحت قيادة رومبي يسقط سيل من القذائف على المدينة. وكانت الخسائر فادحة بها هذه المرة، إذ ستنهار المساكن مقبرة أنقاضها المئات من السكان. وتهدمت المساجد والساحات. ويحطم نصف قصر عبدالله فيجبر الباشا على الاحتماء في البناية العتيقة التي تعود إلى المنتصر على بونابارت الجزار باشا.

وأخيراً، وفي التاسع والعشرين من شهر أيار لسنة ١٨٣٢ ، يختار الحظ معسكره (خريطة ص ٣٠٠ بعنوان الحملة السورية)، إذ سيطلق إبراهيم هجوماً متزامناً على النقاط الثلاثة الأكثر ضعفاً في المدينة. ونشبت معارك قوية تفوق كل وصف تنافس فيها الطرفان في إبراز القوة والشجاعة. وفي لحظة من اللحظات، يلفي إبراهيم وعبدالله نفسيهما وجهاً لوجه تقريباً، والسيف بيد كل منهما غير بعيد عن برج خرنيه غير أنه لم يجمعهما نزال.



Campagne de Syrie

الحملة السورية

وحوالي الساعة الخامسة مساءً، تتمكن كتيبة يرأسها إبراهيم من الوصول إلى الحصن بين كابو بورجو والبرج الإنجليزي الذي تم الاستيلاء عليه. فتحطم الكتيبة مقاومة العدو، وتنجح في السيطرة على الخان. إنها النهاية. فالجيش المصري في قلب المدينة. ولما مس السكان الإحباط جراء هذه العملية، وأصابهم الإعياء فرضوا على عبدالله أن يلقي السلاح ويرسل إلى إبراهيم بعثة يطلب من خلالها الرحمة منه. فيرضخ الباشا أخيراً بعد عدة محاولات للمراوغة. وحوالي منتصف الليل، يستسلم مرافقاً بكياياه عاقداً منديلاً حول رقبته علامة على الاستسلام. ولما همّ بالركوع بين يديه، رفعه إبراهيم بسرعة قائلاً «لاألومك على محاربتي لأننا سواء، خطؤك الوحيد أنك ظننت أنك قادر على التجرؤ على محمد علي! [1]»

ويروى أن الرجلين أمضيا معاً جزءاً من الليل يتحادثان في خيمة صيفية خارج المدينة على طرف قنطرة تخترق السهل، وأن إبراهيم عندما طلب الإذن من عبدالله ليغادر أعلن:

- «ستنعم الليلة بنوم هادئ.

فيرد عليه الباشا بسرعة:

- كما نمت دوماً. لاتعاملني كامرأة، فالطريقة التي دافعت بها عن نفسي تبرهن عكس ذلك. خطئي أني وثقت بكلام الباب العالي، إلا أني أعلم الآن أن السلطان ليس بأشرف من بنات الليل. ولو أني علمت ذلك قبل الآن، لاتخذت تدابير أخرى، وأؤكد لك بأني ما كنت لأكون بين يديك اليوم».

وفي الثلاثين من شهر أيار، يرسَل من كان باشا عكا القوي على متن سفينة مصرية رفقة نسائه وبعض أفراد عائلته إلى الإسكندرية حيث سيعامله محمد علي بالطريقة اللائقة نفسها التي عامله بها ابنه من قبل. ويحكى أن الباشا سيء الحظ عندما قبل طرف ثوب نائب الملك همس:

---

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

ـ ليكن العفو الذي يأتيني منك عفو ملك وليس عفو وزير[1].

ويُسمح له بعد وقت بالاستقرار رفقة عائلته في الحجاز، حيث سيموت في المدينة سنة ١٨٤٢.

وينجح ابن محمد علي إذن الأوفر حظاً من بونابارت في اختراق حصون المدينة الخرافية المنيعة.

وكلفه هذا الإنجاز أربعة آلاف قتيل ومئات الجرحى. وكان هناك الكثير ليُفعل.

---

(١) كادالفين وبارو. (مصدر ذكر سابقاً).

[23]

معركة قادش الأخرى (١٨٣٢)

يثير نبأ سقوط عكا في إسطانبول ذعراً يمكن تخيله. «أحدث الاستيلاء على عكا هنا تأثيراً كبيراً، وهكذا فإن محمد علي أضحى سيداً على سورية، ضامناً ولاء الجبل، ومرتقياً في نظر أتباعه، ومسترداً مكانته مع كل ما فقده أثناء طول مدة الحصار، وصار الآن أبعد ما يكون عن كل مصالحة مع الباب العالي الذي نشك في أن يكون ما يزال متوهماً حول القوة العسكرية لخصمه، وتفوق موارده، وبالتالي مآل حرب أضاف فيها سقوط عكا الكثير من الحظوة لصالح نائب الملك[١] ».

ولما كان محمد علي وفياً لاستراتيجيته المتمثلة في التفاوض لتخدير خصومه، فقد أرسل غداة نصر ابنه رسالة إلى السلطان ضمنها عروضاً للمصالحة، وواضعاً شرطاً لخضوعه بنشر فرمان يعيد له حكومة مصر، ويمنحه باشويتي طرابلس وعكا، وسيكون مستعداً من جانبه للتخلي عن طموحاته عن دمشق.

غير أن الباب العالي المطعون في كبريائه والمغتاظ بزهو تابعه، يرد مكيلاً له اللعنات، ومعلناً أنه خارج عن القانون. ويستحق نص المذكرة التي وزعها السلطان على سفراء القوى العظمى المقيمين في إسطانبول أن نقف عنده:

---

(١) دوان في مصدر ذكر سابقاً. من سيباستياني إلى ميمو. الإسكندرية في الثالث والعشرين من شهر حزيران لسنة ١٨٣٢.

«يرى محمد علي باشا، حاكم مصر السابق، نفسه بأنه ارتقى من صفة المواطن العادي جداً إلى مستوى القائد الأعلى لهذه المحافظة الواسعة. ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف الباب العالي عن الاستجابة لكل تدابيره، وإذا ما قدم بعض الخدمات للدولة، مادام يعمل تحت إدارة الحكومة، فقد وجد مكافآت عظيمة من خلال امتيازات وعطايا لاحصر لها.

ومع ذلك، فإنه لم يستطع تقدير الكرم الإمبراطوري فقط، بل يتجاهل المهام الموكلة إليه. وبتأثير الحكم الذي يتعلق به، رأى بأن نجاحاته كما لو أنها نتيجة لجدارته، وغفل أكثر من مرة عن وضعه كفرد مطيع أظهر بسلوكه الرأي الذي كونه بأنه قدم الكثير للإمبراطورية. ولما كانت تحركه نوايا سيئة لأي خدمة يقدمها، فقد دفع بادعاءاته لضم هذا البلد أو ذاك للممتلكات الخاصة لإدارته.

ويعتبر الباب العالي مثل هذه السلوكات مناقضة تماماً لمبادئ الخضوع في القوانين العامة التي تحكم الإمبراطورية، ولكن لم يكن يرى في الامتيازات الممنوحة لمحمد علي وفقاً للاعتدال والتسامح ومتناغماً دوماً كما هي العادة مع المشاعر الطيبة المعروفة جداً عنه، وخاصة لشخص في مثل سموه، إلا وسيلة لتشريفه ولمكفأته على بعض الأعمال المفيدة.

وكان يعود عندها إلى خضوع ظاهري، ليشكل في المستقبل القريب مطالب أخرى، كان رفضها أو مجرد فحصها المتأني بما تقتضيه مصالح الإمبراطورية تثير لديه تظلمات جديدة للتضحيات التي قدمها للدولة، كما لو أن الحكومة تقبل الخدمات التي يقدمها موظف مكلف بتنفيذ أوامرها على أساس أنها تضحيات. ومع ذلك، لايمكن لأي كان أن ينكر في أية لحظة كرم الباب العالي.

(...) وتجرأ منتحلاً عذر شكواه من عبدالله باشا، والعداء القائم بينهما حول بعض المصالح الشخصية لهما، دون رضى الباب العالي على توجيه قواته براً وبحراً للاعتداء على مدينة عكا الإمبراطورية.

(...) فشراهة مسن أعمى، وجشعه وطموحه يدفعونه إلى احتلال بلد

بأكمله، ومقدماته الغادرة في الطلبات التي قدمها لدى حكومتي صيدا ودمشق تفضح بشكل واضح وقاحة أهدافه. لم يعد هناك من مجال ليسمح بالشك هنا».

ومن الآن فصاعداً، تم الأمر. والسلاح وحده من يقرر إن كان محمود الثاني أو «المسن الأعمى» السيد الحقيقي للإمبراطورية.

هزيمة الباشوات

ويسارع نائب الملك مستفيداً من الشكاوى العقيمة للباب العالي، في استعداده للمواجهة الثانية التي يدرك أنها محتمة. ويضاعف من همته فيرسل إلى ابنه الرجال والمال والعتاد.

وتلزم خمسة أيام للوصول من عكا إلى دمشق. ويدخل إبراهيم إلى العاصمة السورية في الثالث عشر من شهر حزيران لسنة ١٨٣٢ دون أن تقابله أية معارضة إذ سيقدر علي باشا الذي يحكم الحامية هناك أن الفرار أفضل له من الدخول في حرب محكوم عليها سلفاً بالفشل.

ولما كانت دمشق محمية بسور متداع، وبقلعة صغيرة مربعة، فإنها لم تكن تمنح أي امتياز عسكري. فكان ما يبرر احتلالها فقط، وضعيتها الدينية والسياسية في الإمبراطورية. فهي العاصمة الأولى لقوة الخلفاء، وحصن الإسلام أيام الحملة الصليبية، وهي أيضاً البلد المفضل لحكومة السلاطين، وصلة الوصل بين إسطانبول ومكة، وستصير المركز الإداري المصري في ظل حكومة إبراهيم.

ومباشرة بعد ذلك، ينطلق جزء من جيش الإمبراطورية يقوده حسين باشا. والغريب أنه لايسرع أبداً. ويقف لثمانية أيام في أنطاكية، حيث ستفتك الكوليرا بصفوف جيشه. ويتحرك بعد ذلك، إلى إسكندرون، فيقرر حسين أن يعسكر بها، على الرغم من أجوائها غير الصحية التي زادتها سوءاً حرارة الصيف، منتظراً وصول الأسطول والتموين الذي وعدت به إسطنبول.

ويقصد الجزء الآخر من الجيش الذي يقوده محمد باشا حماة، وعندما يقدر

أن تحصينات المدينة غير كافية، يقرر الجنرال التركي تجاوز أوامر وزير الحربية، فيتجه صوب حمص حيث يصلها في حدود السابع من شهر تموز لسنة ١٨٣٢. وكان باشا حلب قد وصلها على رأس مجموعة من القوات غير النظامية.

ولما ينقل إليه مترجم أمراً بعدم التوقف وأخذ موقع له بعيداً عن حمص، يتجاهل محمد باشا ذلك، ويقبل بأن يشارك في حفل عشاء أقيم على شرفه معلناً مثلما يحكى «لن نقوم بشيء اليوم، فالعدو بعيد عنا بثماني عشرة ساعة». وسيكون هذا الحفل قاتلاً بالنسبة له، فبعد أن أمر رجاله بإقامة معسكر لهم قرب العاصي، استمتع بالتوجه إلى خيمة الاحتفال. وبينما كان الجنود الأتراك يتبادلون السلام والمجاملات بين نفسي نرجيلة، كان إبراهيم يحث خطاه. وفي فجر اليوم التالي، كان على مشارف المدينة.

ويعم الذهول المعسكر التركي، وتملكت الحيرة محمد باشا فأفقدته صوابه، فتوالت الأوامر والأوامر التي تلغي الأوامر السابقة. وأخيراً، وعوض البقاء تحت حماية الحصون، يعطي الجنرال أمراً إلى قواته، لايُلعم أي شيطان أهلمه به، بأن تنقسم إلى قسمين، مشكلة خطين، والذهاب لمواجهة المصريين في البادية الجرداء. وعند نهاية الزوال، كان الجيشان وجهاً لوجه.

ولم يكن لإبراهيم إلا حيرة الاختيار إن كان سيهاجم القسم الأيسر الذي يدير ظهره لقناة أم الخط الأيمن. فيختار الأول. وعندما جن الليل، كان قد قضى عليهما معاً. «من بين الأحد عشر مدفعاً الذي تمكن الباشوات من إنقاذها عند هزيمتهم، وجدنا ستة منها في طريقنا. وكان الرعب الذي حل بهم في يوم حمص كبيراً حد أنهم استمروا في فرارهم دون أن يجرؤوا حتى على دخول حماة[1] ». «دمر الجيش النظامي الذي تواجد بحمص والمقدر بعشرة آلاف وأربعمائة وواحد وسبعين جندي بالكامل[2]. . .».

---

(١) المصدر نفسه. الملحق. النشرة السادسة لجيش سورية في الحادي عشر من شهر تموز لسنة ١٨٣٢.

(٢) المصدر نفسه. من ميمو إلى سيباستياني، في العشرين من شهر تموز لسنة ١٨٣٢.

وعرفت هذه الحرب بـ «هزيمة الباشوات»، إذ حضر ثمانية من أصحاب الرتب العليا ذات الثلاثة أذناب، لتقديم الدعم لزميلهم سيء الحظ[1]. لكن يمكن أن يطلق على هذه المعركةبـ «معركة قادش» [2]. ولربما نُسب غداة هذا النصر إلى ابن محمد علي هذا القول «سأذهب أبعد ما يكون ما دمت أستطيع أن أُفهم عندما أتكلم اللغة العربية[3] ».

حدود المستحيل

ويدخل إبراهيم في انطلاقته في العاشر من شهر تموز لسنة ١٨٣٢ إلى مدينة حماة. ويستولي في الرابع عشر من شهر آب على حلب عاصمة سورية الثانية، والمشهورة قديماً بروعتها التي تضم العديد من الآثار. وحتى من دون توفرها على المآثر مثل تلك التي صنعت مجد القاهرة أو إسطانبول، لم تكن مدينة من مدن الشرق لتضاهيها في جمال مبانيها وقبابها وخاناتها ومناراتها. وقد بنيت من الحجر الكلسي الطباشيري الذي يحيط بها. وتقوم على حدود الصحراء وأطلق عليها اسم «الشهباء» في تعارض مع دمشق «السمراء». وعرف عنها أنها قليلة الانقياد لنير محتليها. وعند دخول إبراهيم إليها، كانت بعض السعادة ترتسم على وجهها، آملة بلاشك أن تلقى مصيراً أفضل من مصيرها في عهد الكماشة العثمانية.

ويدخل ابن محمد علي في التاسع والعشرين من الشهر ذاته إلى أنطاكية التي لم تعارض ذلك إلا فيما يشبه المقاومة. وفي يوم التاسع والعشرين ينجح في اللحاق بالجيش الفار لحسين باشا. هاهو الآن إذن على سفوح بداية جبال

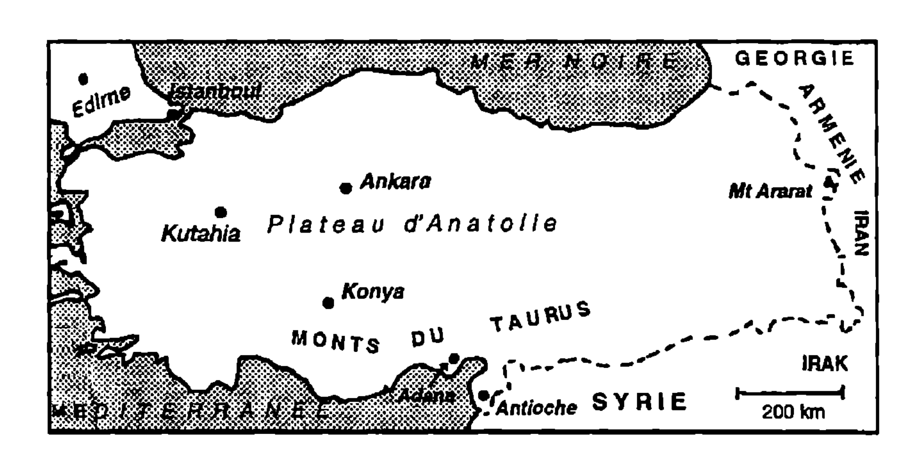
---

(١) يتعلق الأمر بمحمد باشا حاكم حلب، وعثمان باشا حاكم معدان، وعثمان باشا حاكم القيصرية، وعلي باشا الحاكم السابق لدمشق، ومحمد باشا الكانديوتي، ونجيب باشا، ومحمد باشا، وديلافر باشا. أنظر كادالفين وبارو. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) تسمى اليوم تل النبي مَنَد، جنوب حمص. وشهدت هذه البلدة انتصار رمسيس الثاني على الحيثيين. أنظر كريستين ديروش نوبلكور. (مصدر ذكر سابقاً).

(٣) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

طوروس بعد أن تجاوز سورية تقريباً. وتتخذ قوات حسين التي ضاق الخناق حولها موقعاً لها في مضيق بيلان بين أنطاكية والإسكندرية. وكانت الطريق وعرة، وكثيرة الإلتواء وضيقة في بعض الأماكن حد أن جملاً بالكاد يمكنه المرور منها. وخلف هذا الحصن الأخير تظهر الأناضول. (خريطة ص ٣٠٧ بعنوان الأناضول).


MER NOIRE
GEORGIE
ARMENIE
Edirne
Istanboul
Ankara
Mt Ararat
Kutahia
Plateau d'Anatolie
IRAN
Konya
TAURUS
MONTS DU
IRAK
Adana
Antioche
SYRIE
200 km
MEDITERRANEE

الأناضول

ويجمع كل الخبراء على أن القوات التركية تستفيد هاهنا من موقع منيع جداً. ولكن وعوض الاستفادة من الدفاعات التي تمنحها الطبيعة لصالحه، أعاد حسين الخطأ التكتيكي الذي قام به مساعده في حمص، فقسم قواته إلى قسمين. ويطلق إبراهيم هجومه، وتدوم المعركة حوالي ثلاث ساعات. ويحقق إبراهيم نصراً مدوياً بإعادة ما قام به سلفاً في حمص وذلك بأن تركز الميمنة المصرية جهدها ضد الخط الأيسر للقوات التركية مساعدة من الجهة اليسرى والقلب. وتم عد ألفين وخمسمائة ما بين قتيل جريح في المعسكر التركي، وحوالي عشرين فقط في الجانب المصري. وكان على حسين باشا إذن أن يقاتل متراجعاً إلى أضنة[1].

ومنذ هذه اللحظة، سيفتح فصل جديد حيث عالمان، أحدهما قديم والآخر حديث. حيث الإمبراطورية المحتضرة ومصر الناشئة. ويصلان معاً إلى نقطة اللاعودة، إذ سيلعب الأول فيه دور سقوطه النهائي، والثاني انخفاضه. وستؤرخ هذه اللحظة أيضاً إلى المواجهة بين جاري المستقبل، محمد علي وابنه.

وبعد انتصارها في مضيق بيلان، لن تتقدم قوات إبراهيم خطوة واحدة إذ ستظل في حالة دفاع وفقاً لإرادة نائب الملك. وستفقد خمسة أشهر من النقاشات العقيمة، ويمنح محمد علي الانطباع بأنه يحبس أنفاسه، وبأنه مرعوب تقريباً من جريمة العدوان على السلطان الذي يستعد للقيام بها. هل يجرؤ على الجلوس على عرش سيده المهزوم حين يصل إلى عتبة السراي؟ وإذا كان يقدم نفسه بأنه المنقذ للمؤمنين الحقيقيين، والحامي المسلح للدين الإسلامي المتضرر من إصلاحات محمود، يمكن لخلع السلطان أن يأذن لجرأته. لكن أن يعوضه؟ في الحقيقة أبداً، ومهما يمكن أن يقال، فإنه لم تكن

(١) الواضح أنه لم يتمكن من ذلك أبداً، فبعد أن سافر الليلة كلها، يقال إنه وصل إلى قرية صغيرة تقع على البحر الأسود تسمى بيثينيا حيث أمضى بقية أيامه كنكرة يعيش بين أناس مجهولين. أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

له النية في دخول العاصمة التركية. وفي هذه اللحظة بالذات، لم يكن يسعى إلى عرش إسطانبول أو القضاء بشكل نهائي على الإمبراطورية العثمانية التي يمسك قدرها بين يديه، بل يريد فقط انتزاع استقلال مصر من سيده للحفاظ على فتح سورية. وعلى أي، ماذا سيصنع بإمبراطورية محتضرة وبدولها المفككة والمبعثرة؟ أما في إسطانبول، فلن يكون إلا رجلاً مليئاً بالحياة على رأس إمبراطورية ميتة. وإذا ما أعطى أمره إلى إبراهيم ليوقف تقدمه، فلأنه كان مقتنعاً بأن السلطان سيرضخ، وبأن القوى العظمى، وعلى رأسها فرنسا، ستدعم مطالبه. وسيرتكب هنا خطأً في التقدير سيكلفه غالياً.

وتوضح أقواله إلى ميمو حالته النفسية تماماً «لماذا لايضحي الباب العالي بجزء مقتطع من الإمبراطورية بقوة الأحداث لضمان ما تبقى من الإمبراطورية؟ ألم تفصل أمريكا الشمالية عن إنجلترا، وهايتي عن فرنسا، وبلجيكا عن هولندا؟ ألم يجبر الباب العالي نفسه بعد أن تم رجاؤه من قبل، على وضع ختمه أسفل الوثيقة التي تنتزع اليونان منه؟ لماذا يكون الباب العالي المعفى الوحيد من الرضوخ إلى أول بند من القوانين الإنسانية. بند الحاجة[1]؟».

ويعرض ميمو على سيباستياني منذ شهر آب من سنة ١٨٣١ «كان هدف مراسلتي مع الوزارة منذ وصولي إلى القاهرة في شهر فبراير، ومنذ عودتي هنا للتعريف بالسياسة الحالية لنائب الملك، والفكرة المهيمنة التي تقود الآن كل مجالسه وتحرك كل أعماله. وأظن أني أوضحت الأمر بما يكفي بعدم العودة إلى تفاصيله، ذلك أن الظروف والأحداث التي كان لي شرف الكتابة إلى سموه بحسب ما رأيت بأم عيني، وبما أسره لي محمد علي كان الحقيقة الخالصة، ولم أكن أبداً مخطئاً في المعلومات والآراء التي قدمتها.

ويجوز لي الآن بأن أقول بأن موضوع كل هذا التسليح البري والبحري، غدا معروفاًن وأن الهدف من ذلك أضحى واضحاً.

---

(١) أرشيفات فرنسية. الشؤون الخارجية. صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

فالصورة التي قدمها الكتاب لمحمد علي سواء أكانوا كتاباً سياسيين أو صحفيين أو مجرد مسافرين عاديين أو من غير المطلعين بما يكفي، بإنه رجل يهدف إلى خلافة السلطان محمود، وبأنه لايفكر إلا في الجلوس على عرش الإمبراطورية، هو مجرد اختلاق. وإذا ما غازلت هذه الفكرة في بعض الأحيان خاطره من بين أحلام المستقبل، وفي قلب جموح الخيال، إلا أنها لاتضع إمكانية إلا بعد سلسلة من الأحداث العصية على التوقع البشري الذي يجعل منها حاجة لاتقاوم، وتعبيراً عن أماني أمة بأكملها. أما اليوم، ومهما يجب أن يكون عليه المستقبل، فإن رؤاه تستند إلى تبعية الأشياء الحالية والإيجابية. فإن نيته بأن يظل دوماً في علاقات التابع لسيده ولمنح السلطان كل المساعدات المالية الممكنة، وأين يضيفها إلى الضرائب المحددة سلفاً إذا ما تُرك لينشئ ما يسميه «مجتمعاً عربياً»، وقد أوضحت في بعض رسائلي ما يعنيه محمد علي بهذا.

وقال مؤخراً بأنه لايرى أبعد أو أعلى من سورية التي تنقصه، ويضيف أنه يلزمه الحصول عليها لأنه يستطيع ذلك ويريده[1] ».

والحقيقة أنه إذا ما حلل ميمو وبصورة جيدة موقف محمد علي، وعدم اهتمامه بأي احتلال محتمل للعاصمة العثمانية، فإنه لم يأخذ بالحسبان التنازل الأساسي الذي يطرحه محاوره غداة بيلان «لماذا لايضحي الباب العالي بجزء مقتطع من إمبراطوريته بقوة الأحداث لضمان ما تبقى منها؟ ألم تفصل أمريكا الشمالية عن إنجلترا، وهايتي عن فرنسا، وبلجيكا عن هولندا؟» لأن الفرعون يرى في الحقيقة أن استقلاله نتيجة «طبيعية» وحتمية. وهو يراهن إذن على ما يعتقده منطقاً تاريخياً لاراد له، وهنا يخطئ في أكثر من قرن من الزمان.

فهناك، وعلى حدود تركيا، كان إبراهيم يتابع الحلم نفسه لأبيه، مع فارق أنه لايعتقد أن القوى العظمى ستتدخل، وأقل من ذلك أن يرضخ الباب العالي.

وغداة نصر بيلان، يساور فرنسا بعض القلق، معوضاً الابتهاج الذي أحدثه

---

(١) دوان في مصدر ذكر سابقاً. الإسكندرية في العاشر من شهر آب لسنة ١٨٣١.

الاستيلاء على عكا. وينصح ميمو محمد علي باسم الحكومة الفرنسية بالاعتدال والحذر «أن يصير الباشا سيداً على سورية، يتطلب منه أن يعرف كيف يتوقف عندها، وأن يستحق مجداً آخر مستخدماً نجاحاته بكل حكمة».

ولم تصدر عن إنجلترا أية حركة[1]، لكن ألم تكن في هذه الأوقات العصيبة وفية لاستراتيجيتها القديمة؟ فلنتذكر ما قاله بوير «ولم تقدم الدبلوماسية الإنجليزية الثابتة في جوهرها والمتغيرة والمرنة شكلاً أي امتياز لصالح رؤى الباشا. وكانت تدعه يفعل ما يشاء لتتركه يسجن نفسه في حدود إرادته التي لاتهدأ».

قونية، آخر حصن الإمبراطورية

وهكذا ظل محمد علي الحائر يترقب أية إشارة من الغرب لتريه الطريق التي عليه سلكها. أما إبراهيم، فقد كان يتميز غضباً في سفوح جبال طوروس، إذ أنه يريد أن يمضي قدماً، ويتحرك إلى قونية النقطة الاستراتيجية، ويسبق الأتراك قبل أن يتوفر لديهم الوقت لتجميع قوات جديدة. ولو أن الأمر كان عائداً إليه وحده، لكان الآن على ضفاف البوسفور.

ويبرق السلطان الذي يدرك أن كل لحظة ثمينة بالنسبة له، إلى فارين القائم بالأعمال الفرنسية في إسطانبول ملمحاً إلى احتمال التسوية، حتى إن الباب العالي يرسل إلى محمد علي عدة رسائل «مصالحة».

وتبدأ مفاوضات غامضة، والتي لم تصل بطبيعة الحال إلى أي شيء. وانتهى محمد علي إلى اكتشاف لعبة الباب العالي الذي يريد هدهدته بالأوهام لكسب الوقت من أجل إعادة تنظيم قواته. وفي النهاية، يفقد الباشا ثلاثة أشهر طويلة أخرى إذ لم يرسل أمره إلى ابنه للتقدم إلى قونية إلا في الثاني والعشرين من

---

(١) بحث اللورد بونسونبي السفير الإنجليزي القادم في إسطانبول، لاحقاً عن تفسير لغز عدم تحرك حكومته في هذه الفترة، وذلك بإرجاع ذلك إلى السايسة الداخلية. أنظر السيد دويدور، في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «تاريخ الدبلوماسية الأوروبية (١٨١٥ ـ ١٨٤٨)». وصبري في (مصدر ذكر سابقاً).

شهر تشرين الأول لسنة ١٨٣٢، لكنه يسارع إلى توصيته بألا يتجاوزها حتى إنه يضيف «بعد أن تشتت بقايا الجيش العثماني القديم، عد إلى بيلان».

ولم يفهم إبراهيم، ذلك أن حدة طبعه وقناعته بأن العالم السياسي لايخضع أبداً إلا أمام العمل المنتهي، دفعاه إلى الانتهاء إلى نتائج حكمها رده إلى والده «علينا العودة إلى الخلف مجدداً، ما إن نصل إلى قونية بحسب أوامركم، إلا أننا سمعنا أن الصدر الأعظم يزحف نحونا على رأس جيش مهم. وإذا ما تراجعنا، فسيفسر هذا الأمر على أنه خوف منا وعجز عن المواجهة المباشرة، وهذا ليس كل شيء، فلن يفوت الصدر الأعظم بأن يستغل هذه الفرصة ليزحف إلى قونية، وحتى تجاوزها واللحاق بنا، مردداً أينما حل شائعات كاذبة عن أسباب عودتنا. ومن يدري؟ فلربما ينضم إليه الأهالي، وسيتمكن من إثارة سورية والأناضول ضدنا، وسيظل هدف تراجعنا غير مفهوم. إضافة إلى ذلك، علينا ألا ندع الفرصة تفلت من بين أيدينا، وذلك بالذهاب إلى قونية ووضع القوات في موقف حرج وانتظار الصدر الأعظم لهزمه في حال أتى لمهاجمتنا فيها. وعليه، فمن الضروري أن ترسلوا لنا لواءين على وجه السرعة، وسأطلب من «مفتي خادم» فتوى[1] ثم سأعلن سقوط السلطان[2] ».

وهكذا سيتخلى الباشا عن توجيهاته بالتراجع، إلا أنه يوضح «كل تقدم أبعد من قونية في ظل الظروف الراهنة، لن ينظر إليه بشكل جيد من قبل القوى العظمى». والواقع أنه عندما كتب هذه الكلمات، لم يكن يعرف شيئاً عن موقف القوى العظمى، أما بخصوص إعلان سقوط السلطان، فيقدر محمد علي أنها «ضد مصالح مصر في ظل الأزمة الحالية».

غير أن إبراهيم يصر على موقفه، ويعود إلى طلبه وينجح في انتزاع رضى والده حول هذه النقطة الأخيرة. فضلاً عن ذلك، فالفتوى التي طلبها إليه من

---

(١) مصطلح ديني يمكن ترجمته باللعنة.

(٢) أرشيفات مصرية. صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

كل قلبه ستنفجر ضده وحتى ضد والده من قبل السلطان الذي سيُعلم القناصلة الغربيين بالمذكرة التالية «أعلنت القوانين المقدسة على لسان مفسريها بأن عقوبة الحاكم السابق لمصر ولابنه الجاحد إبراهيم باشا أضحت أمراً لامفر منه. وعليه فإن الفتوى قد صدرت، وترى الإمبراطورية نفسها مجبرة انطلاقاً من الواجب الديني، أن تنفذ قرارات القوانين». وأظهرت مماطلات ابن كافالا بشكل واضح أنه لايعرف أي موقف يتخذه إزاء أوروبا التي يحاول يائساً مراعاتها.

وتكلف تركيا التي أعادت تنظيم قواتها خلال ذلك، محمد رشيد بشا الذي كسرت أسنانه أمام ميسولونغي بأن يقود حملة جديدة على إبراهيم. وصار حليفا الأمس خصمي اليوم.

ويتحرك إبراهيم متجاوزاً أضنة وصولاً إلى طرسوس، ويسلك طريق نمرود التي تركها الأتراك من دون حماية. ويحتل قونية في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني دون أن يطلق أية رصاصة. وهناك كتابة معروضة على حصون المدينة المتواضعة تعود إلى ثمانية قرون قبل ذلك كتبها أحد الأمراء السلاجقة «هذه الجدران حصن قوي ضد ثورة الأمواج ونزق الجياد، وهي تحمي ضد البؤس وسوء الحظ اللذين يهاجماننا في ليلة عاصفة».

ويشرع محمد علي الغارق في شكوكه في القاهرة، في مغازلة حكومة سان جيمس على أمل أن تقدم له لندن دعمها، وهو أمل فيه من العبث بقدر ما فيه من السخف، وهو نابع من «خوفه من إنجلترا» المشهور عنه.

ويستشيط إبراهيم غضباً. وتعبر هذه الرسالة بشكل واضح، على خلافه القاطع في هذه اللحظة من تاريخهما المشترك:

«ينبغي على أية سياسة سليمة أن تقوم على دراسة الوضعية، وتحسب كل النتائج دون أن تنخرط بكل عزم في طريق العمل، ودون أن تترك نفسها تتأثر بزيد أو بعمرو. ومهما كانت فائدة أي تحول حالي من جانبنا، علينا عدم نسيان أن أي جيش عظيم مثل جيشنا لايستطيع أن يعاني من سياسة تردد لاتعرف كيف تستفيد من الأحداث، ولاتستطيع أيضاً أن تظل مكتوفة اليدين لوقت طويل.

لقد كان سيرنا إلى قونية حصيلة لأوامركم نفسها. فكيف يمكننا العودة بينما يتقدم الصدر الأعظم على رأس قوة كبيرة منظمة بشكل جيد، ومجهز بالعديد من المدافع؟ هل تعتقدون أن من مصلحتنا أن نتوقف في قونية أم نتراجع؟ وفي حال هزم جيشه، وإذا ما تخلينا عن اللحاق به، ألن يكون قادراً على إعادة تنظيم نفسه ومهاجمتنا من جديد؟ هل نجرؤ على أن نأمل بأن يتخلى أهالي الأناضول عن قضية الأتراك الذين يحكمونهم منذ ستة قرون ليلتحقوا بنا إذا ما كان خطونا متردداً؟ أو لايعد التراجع من بين أشياء أخرى، خطأ عسكرياً كبيراً؟

سبق وأن أمرتمونا بالوقوف سابقاً في حلب، وأذنتم لنا فيما بعد بالتقدم إلى كولك بوغاز ثم إلى قونية. دعونا الآن إذن نقضي على جيش الصدر الأعظم، واعلموا جيداً أن أرض وطقس هذا البلد لايشبهان في شيء أرض وطقس مصر، ولن يكونا ملائمين في أي وقت للتحركات العسكرية، زد على ذلك أن ما يقال في مصر لاينطبق على واقع الحال هنا. وليس مقبولاً سماع أقوال بريغس أو ملاحظات قائد روسي. وعلى أي، فمن المؤسف جداً أن يتأخر منذ هذه اللحظة تنفيذ مشاريعي لعشرين يوماً في انتظار ردكم[١] ».

ويجيب محمد علي على هذا «تكتبون لي يا بني بأنه ينبغي طرق الحديد وهو ساخن. وتريدون أن تعلنوا بكل وضوح أننا ضد الباب العالي وأن يعوَض اسم محمود الثاني على منابر الصلاة أيام الجمعة باسم محمد علي. فلتعلموا يا بني العزيز بأننا لم نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم إلا بالمرونة والحذر والاعتدال، ويكفيني حمل اسم محمد علي معفى من أي لقب أو صفة فاخرة. فهذا الإسم في نظري أكثر عظمة من ألقاب سلطان أو ملك لأنه مصدر كل الاحترام والشرف المحيطين بي. فكيف لي أن أتخلى عنه للقب آخر مهما كان؟ أما بالنسبة لكم يا بني، فحافظوا أيضاً على اسمكم إبراهيم، فهو يكفيكم[٢] ».

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

وتبرهن هذه الرسالة مرة أخرى بأن العديد من الدبلوماسيين على شاكلة بارون دو فارين يضلون الناس عندما يكتبون «يُعتقد هنا في إسطانبول بأن محمد علي لن يكتفي اليوم بحكومة سورية، ولكن لديه مشاريع أكثر اتساعاً، وبأنه يريد القدوم هنا إلى إسطانبول».

وفي غضون هذا، كان إبراهيم مجبراً على الانتظار في قونية بأن يأتي جيش الصدر الأعظم لإزاحته منها، حيث سيصل في الواحد والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٢. وكان جيشاً عظيماً يضم أربعة عشر لواءً للمشاة، وثماني وعشرين سرية من الخيالة، ويتوفر على ما يقرب من مائة مدفع أي أزيد من ستين ألف جندي، وعلى رأسهم جميعاً محمد رشيد باشا شخصياً.

ومن المحتمل أن إخفاقه أمام ميسولونغي كان فشله الوحيد، وبأن سمعته كأفضل جنرالات الإمبراطورية موهبة ليست بأي حال من الأحوال مجرد افتراء، فقد خاض معارك رائعة في الحرب ضد روسيا، وبرهن بما لايدع مجالاً للجدال عن الشجاعة. وقد ازداد الرجل في جيورجيا، وكان عبداً عندما كان طفلاً. وهو يحب أن يضع اللباس الألباني، أي المعطف الضيق والسراويل الفضفاضة والعمامة المعقودة حول رأسه. وكان ربع القامة، طلق الوجه ويصدر طاقة كبيرة، بعينين زرقاوين ونظرات حادة تحتفظ عادة بالكثير من الهدوء في ساحات المعركة. وكان يطمح إلى إحياء تقاليد المجد والقوة اللتان كانتا جاريتين لدى الباب العالي سابقاً. وكان يتنقل دوماً إلى أماكن الاضطراب التي تهدد استقرار حكومته، ويبدو أنه صرخ عندما علم زحف قوات محمد علي على سورية «إنتهز الثعلب المسن الوقت المناسب، لكن حتى لو يكلفني ذلك حرباً جديدة، فسأرد بإرغام مصر على الهدوء».

وخلال كل تلك الأسابيع من عدم الحركة التي أُجبر عليها، سعى إبراهيم الذي يمده دوماً سيف بنصائحه، إلى دراسة الأرض التي يتواجد فوقها. فألفى قونية تقع على سهل يرتفع بحوالي ألف متر عن سطح البحر. وبحسب أسطورة

قديمة، فهي أول مدينة ظهرت بعد الطوفان. وفي القرن الثالث عشر قام شاعر صوفي ينحدر من بلخ، ويدعى جلال الدين مولانا بتأسيس الطريقة المولوية فيها، والتي عرف أصحابها باسم «الدراويش الدوارين». وكانت التحصينات التي تحيط بالمدينة غير ذات قيمة، وتقتصر على سور دعمت جوانبه بأبراج صغيرة. وخلص إبراهيم وسيف سريعاً إلى أن المدينة ليست محصنة بالمرة. وفكرا معاً بكل جدية في المكان الذي ينبغي أن تتم فيه المعركة، ووقع اختيارهما على هضبة تقع في الشمال الغربي للمدينة.

وكان تنظيم الجيش المصري المكون من خمسة وعشرين ألف جندي يقدم للعدو مركزاً ليناً بينما يقف الجزء الكبير منه متربصاً على الجانبين.

وتجدر الإشارة إلى أنه وإلى هذه اللحظة، كان رشيد يطلب عبثاً من السلطان أن يضع تحت تصرفه أو على الأقل أن تكون قريباً من ساحة القتال، قوات الاحتياط المؤلفة من حوالي خمسة وعشرين ألف جندي والتي تكوّن نخبة الجيش الموزع حول إسطانبول كغطاء لها في حال الهجوم عليها. ويقدر رشيد بأن هذا الترتيب عابث. وكان يرى، وهو محق هنا، بأنه وفي حالة خسارة معركة قونية، فإن قوات الاحتياط المحبطة لن تستطيع الوقوف أمام اندفاع المنتصرين، أو أمام الثورة العامة التي ستفتح الطريق أمامهم، بينما وعلى العكس من ذلك تماماً، إذا ما بقيت مرتبطة مع تحركات الجيش الإمبراطوري، سيكون من السهل عليها مقاومة أي تقدم محتمل لإبراهيم بالنظر إلى القوة التي تمنحها لها طراوة أفرادها ولانتقائهم لأماكن الهجوم. بيد أن السلطان لم يستجب لرغبته هذه متأثراً في ذلك من جهة بخسرو باشا الذي كان يتمنى إخفاق رشيد لأسباب شخصية، ومن جهة أخرى، بالجنرال مورايييف[1] الذي

---

(١) نيكولا مورايييف، قائم مقام ومساعد إمبراطور روسيا. يتحدر من أسرة كريمة من أسر الإمبراطورية على الرغم من أنها لاتنتمي إلى طبقة النبلاء العليا. كان يتمتع بطبع قوي وذكاء متقد، ويملك معارف علمية واسعة. خاض الحرب بتميز، وقد أقام في موسكو مدرسة للأركان=

هرع إلى إسطانبول ليقدم دعم روسيا للباب العالي.

وفي الحادي والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٢، كان الضباب الكثيف الذي يغطي السهل يجبر الجيشين على أتخاذ تدابيرهما حتى من دون أن يرى أحدهما الآخر. غير أن هذه الشروط المناخية، منحت دعماً قوياً للقوات المصرية. وبالفعل، فعلى امتداد كل أيام الانتظار هذه، كانت لديهم الفرصة الكافية للتمرن بانتظام، وأضحت الأرض مألوفة بالنسبة لهم. ومن المحتمل أنه وتحت توجيهات سيف وإبراهيم قاموا بالتدرب عشرين مرة على المعركة المقبلة.

وكانت قونية خلف المصريين، وعلى جانبهم الأيمن، وإلى الأمام المستنقعات التي تحاذي المدينة، وعلى جانبهم الأيسر وإلى الخلف سيلا، ومرتفعاتها البعيدة بمسافة ميل. وأمامهم مباشرة الجبال التي تحد شمال السهل، والتي يخمن في الضباب أن جيش رشيد يتموقع عند سفوحها. وتنطلق المواجهة في ظل هذا المناخ الخيالي التي هي الأشد قسوة بكل تأكيد، والأكثر إجهاداً التي خاضها ابن محمد علي أبداً.

ويتم أسر رشيد باشا ساعتين بعد بدء القتال، ويؤتى به إلى معسكر إبراهيم حيث يسقبله هذا الأخير بكل الشرف الذي يستحقه رجل في مثل مكانته. هل لعب هذا الأسر السريع دوراً حاسماً على نفسية الجنود الأتراك؟ على كل حال، فعند نهاية ثماني ساعات من القتال الضاري، يعود النصر مرة أخرى إلى إبراهيم.

ويلخص الجنرال ويغان بشكل لابأس به مختلف الأحكام التي أطلقها الخبراء في ذلك الوقت «كانت المرة الأولى التي خاض فيها إبراهيم حرباً دفاعية، وقد أدارها بشكل رائع بعد أن أدرك وأبان بأن الدفاع لايمكنه أن يصنع نصراً، إلا إذا كان أساسه العمل والحركة، ولو أنه بقي جامداً تحت أسوار

= لفائدة الشبان النبلاء عرفت نجاحاً كبيراً.

قونية، من المؤكد أن الجيش التركي كان سيضعه في موقف سيء. وبأخذه المبادرة في المناورة، وبسحبه خصمه إلى الأرض حيث يمكنه هزمه، تفوق على عدوه الذي كان يفوقه عدداً بثلاثة أضعاف».

وهذه غمزة قدر غريبة، فقد استمد الابن من نابوليون بونابارت مثال والده الأعلى، جزءاً من عبقريته. ومن الآن فصاعداً، لاشيء يمكنه أن يوقف إبراهيم حتى البوسفور التي تبعد بأربعمائة كيلومتر عنه. وفي هذه الساعات المشؤومة، كان محمود يتأمل في قصره معنى المثل التركي القديم بأن «قدر السيد يكتب أحياناً على جبين عبده».

[24]

أوروبا في العاصفة (١٨٣٢ ـ ١٨٣٣)

وتهب على إسطانبول غداة يوم قونية رياح الخوف. ترى هل سيمضي الجنرال المصري حتى العاصمة؟ فالطريق مشرعة، والرأي العام يقف إلى جانبه، والشعب ينتظره، وما من جيش يستطيع إيقافه. ويستولي الهلع على البلاط. فالأعمى المسن. . . المطرود من قبل محمود الثاني يقف على عتبة بابه. وتفصله خطوة واحدة ليمسك بخناقه ويلقي به خارج قصره. ويتم تذكر روما المذهولة عند اقتراب حنبعل منها، ورعب أعضاء مجلس شيوخها، وهم يعلمون بأن جيشهم الأكثر روعة قد هزم شر هزيمة على بعد خمسين ميل من عاصمتهم بواسطة قوات ابن قرطاجة. هي قضية الشرق التي تفرض على أوروبا بكل ما تحمله معها.

لكن أوروبا مجرد إسم. وكما لوحظ أكثر من مرة، فلكل من القوى سياسته الخاصة به. فكيف إذن سيتم تدبر هذه العقدة التي تعقد وتفك بواسطة الدبلوماسية؟ فقد شكلت فرنسا في عهد الملكية في الغالب، فريقاً واحداً مع روسيا في الشرق. وفي عهد عودة الملكية في شهر تموز أي منذ سنتين، كانت فرنسا وروسيا تديران ظهريهما لبعضهما البعض، إذ حولت الدبلوماسية الفرنسية ناظريها إلى إنجلترا وفقاً لنصائح تاليران. وكانت السياسة الشرقية لكل من فرنسا وإنجلترا معارضة للروس وحريصة على بقاء الإمبراطورية العثمانية. بيد

أن فرنسا أبدت دوماً تعاطفها مع محمد علي، وهو البلد الذي يحب الباشا أن يردد دوماً بأنه يحبه وبأنه تلميذه، وفرنسا ترى فيه المكمل للعمل الذي بدأه قاهر الأهرامات. وكانت مصالحها في مصر لاتتفق ومصالح إنجلترا فيها، لأجل هذا ستسعى إلى التوفيق بين هذين الاهتمامين، وهي الحفاظ على وحدة الإمبراطورية العثمانية، والحفاظ على المزايا المشروعة التي حصل عليها محمد علي على الأرض، وهو ما يدفع للقول بأن مهمتها هنا، أشبه ما يكون ببهلوان يرقص على حبلين.

ويسخر البارون دو فارين القائم بالأعمال الفرنسية في إسطانبول، في وقت لم يكن هناك من سفير بعد، كل جهوده لدى السلطان ليقبل هذا الأخير شروط نائب الملك في نهاية شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٢. فيدخل في اتصال مباشر مع محمد علي وإبراهيم، ويبحث في سبل تسريع التصالح بين تركيا ومصر. لكن وعلى الرغم مما حدث في قونية، ظل السلطان عنيداً. ذلك أنه لم يكن وحيداً، فمع وجود مورابيف في إسطانبول، ألقت روسيا وزن سيفها في إحدى كفتي الميزان. وإلى جوار هذا الروسي، كان هناك رجل بتأثير خبيث والذي كان يقوم بكل ما يستطيعه للقضاء على مخططات محمد علي، وهو عدوه القديم خسرو باشا. وكان أحد المحركين للسياسة التركية القديمة، إن وجدت، والقائمة على سعة حيلتها ودقتها. وكانت شخصية كما يصفها كادالفين «قبيحة، ومتصنعة وبشعة». وسيقوم بكل ما يملك من إمكانات للقضاء على أحلام من نزع منه قبل سبعاً وعشرين سنة من ذلك باشوية القاهرة.

وفي اندفاع غضبه من محمد علي، يرضخ محمود إلى أول ما يوحي له به خوفه. فيقرر أن يلقي بنفسه في أحضان العدو القديم للإمبراطورية. ويعلن لمورابيف بأنه يقبل نجدة القيصر نيكولاس الأول. وسيغدو هذا التقارب التركي الروسي المخالف للطبيعة هوساً حقيقياً بالنسبة للقوى العظمى الأوروبية. وهكذا ستضاعف هذه الأخيرة من جهودها لإحلال السلام دون تأخير بين التابع وسيده.

من جانبه، لايبدي إبراهيم تأثراً إذ أنه عازم أكثر من أي وقت مضى على أن يعجل في تنفيذ مشروعه حتى يضع أوروبا أمام الأمر الواقع، دون أن يترك لها الفرصة لإجراء مشاوراتها. بل مضى به الأمر أن حاول أن يضم إلى صفوفه ورؤاه أسيره الكبير رشيد باشا، ويقترح عليه أن يقصدا معاً العاصمة العثمانية، وهي مسيرة سيساندها العلماء والرأي العام المسلم جميعه. وهذا مقتطف من المحادثة التي دارت بين الرجلين والتي وجدها السيد صبري في الأرشيف المصري، والتي يعرض فيها إبراهيم ضرورة الإطاحة بالسلطان محمود وتعويضه بالشاب الفتي عبد المجيد:

«ـ لكن الأمير عبد المجيد مايزال طفلاً صغيراً (لم يكن يبلغ ساعتها إلا تسع سنوات). هل تعتقدون والحالة هذه، أنه يستطيع الجلوس على العرش وإدارة شؤون الدولة؟

ـ ولكن السلطان محمد الفاتح جلس على العرش وهو في السابعة، وعبد المجيد أكبر سناً منه الآن. ومهما يكن الأمر، فصغر سن الأمير لايقدم في رأيي إلا مزايا عديدة، لأن ولاة العهد في هذه الإمبراطورية لايتلقون مبادئ تربية أولى مثل أمراء الأمم الأخرى. فهم يربون في الحريم، ويكبرون دون أن يعرفوا شيئاً عن شؤون الدولة. وعليه، فإذا ما جلس عبد المجيد على العرش، يستطيع بكل سهولة، بفضل الرجال المتنورين المحيطين به، أن يتعرف على قضايا العالم، وأن ينمي معرفته بالتدريج، ويصير رجلاً عالماً بحقوق وواجبات السلطان والأمة.

ـ هذا صحيح، لكن وإذا ما علم السلطان بهذا الأمر يمكنه أن يأمر باغتيال الأمراء.

ـ الهدف الوحيد الذي سنسعى وراءه هو أن تُحل قضايا الأمة وفقاً للأماني العامة للأمة. ومادام يلزم كل أمة «سلطان» ليحكمها، فسنختار لها سلطاناً تُجمع عليه الآراء، وسنضع حداً للعشوائية ولنزاوت الاستبداد، والذي لايتردد في القول «تأمر إرادتنا العيا باغتيال أو نفي هذا أو ذاك». وفي ظل هذه

الظروف، وفي حال اغتيال الأمراء، سيتحمل السلطان وحده المسؤولية، ولن يبقى لنا إلا تنفيذ إرادة الأمة، وأن نستغني نهائياً عن السلطان.

- أقبل تحليلك تماماً، لكن هل تقبل الأمة الإسلامية هذا التغيير؟

- علينا أن ننتظر معارضة لهذا الأمر، على الأقل في البداية، لكنهم سينتهون جميعاً مع مضي الوقت إلى الاعتراف بمزايا الوضع الجديد، ويتمسكوا به. وهكذا سيطلبون هم أنفسهم إقامة حكومة على أسس متينة.

وباختصار، كان إبراهيم يرغب في تهييج ثورة ضد القصر، ولهذا يكتب إلى والده في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٢:

«يمكننا التقدم حتى إسطانبول، وخلع السلطان بسرعة من دون مشاكل. لكننا نريد معرفة بأسرع ما يمكن إذا كانت لديكم النية فعلاً في وضع هذا المشروع موضع تنفيذ حتى نأخذ من الآن التدابير الضرورية. ولأن التسوية الفعلية لقضايانا لن تتم إلا في إسطانبول حيث يتوجب علينا التوجه إليها وإملاء إرادتنا بأنفسنا فيها.

بيد أنه وأكرر لكم هذا بكل صراحة، بأن الدعاية وحدها لن تصل بنا إلى هناك. لكن وإذا كنتم ترمون بالضجيج الذي تثيرونه إلى هدف سياسي تبغون من ورائه تهديد إسطانبول وإجبارها على القبول بشروطنا، سيكون من غير المجدي بقاؤنا في قونية وعدم الاستمرار في تقدمنا. فقونية بعيدة جداً والناس في إسطانبول لن يكونوا مستعدين لإنهاء السلام معنا إذا لم ندخل إلى العاصمة نفسها، كما أنهم لم يبرموا السلام مع الروس إلا عندما دخلوا حتى قلب البلاد، ووصلوا إلى تشيكميد جيه جوار إسطانبول.

لأجل هذا يتعين علينا مواصلة سيرنا حتى بروسة على الأقل، واحتلال المدن الواقعة على شاطئ مرمرة، وأن نقيم فيها قواعد بحرية لتموين جيوشنا. عندئذ يمكننا بكل سهولة نشر الضجيج الذي من شأنه أن يتسبب في إسقاط السلطان. وفي كل الأحوال، وإذا لم ننجح في التسبب في الإطاحة به، يمكننا على الأقل إنجاز سلام ملائم لمتمنياتنا.

ولولا آخر أمرين منكم، واللذين منعانا بشكل قاطع من أي تقدم، لكنا الآن نطرق أبواب إسطانبول، ونتساءل ما السبب الذي يمكننا أن نرجع له هذا التأخر؟ هل هو الخوف من أوروبا أم شيء آخر؟ نرجو أن تقبلوا بأن توضحوا لنا هذه القضية قبل أن تضيع الفرصة المناسبة من بين أيدينا، وأن تعلمونا بقراراتكم النهائية بهذا الشأن[1].

والظاهر أن للرجلين وجهتي نظر متعارضتين تماماً بخصوص هذه القضية، فأحدهما يريد العالم، والآخر يكتفي بإمبراطورية مشكلة من فتواحات.

فإبراهيم مصمم بعزم بألا يفقد الوقت، فها هو شهر قد مضى على جيشه الخامل في قونية. وخلافاً لوالده، فلربما لايريد أن يسمع يوماً اللوم الذي وجه لحنبعل عندما قيل له «تعرف كيف تنتصر، لكنك لاتعرف كيف تستغل النصر».

غير أنه ولما علم في قونية بأن الباب العالي عيّن خليل رفعت باشا للتفاوض حول السلام مع والده، لم يساوره أي شك حول طبيعة هذه المهمة، مثل سلام يبرم في مثل هذه الظروف. وهو مقتنع بأنه من الأفضل ألا يكون هذا السلام إلا هدنة لأن هناك هوة كبيرة تفصل الآن الجانبين، وأن الإذلال الذي طال قوات السيد سيدفع به إلى البحث عن الانتقام آجلاً أو عاجلاً.

بينما يمكن أن يختزل كل موقف محمد علي في بضع كلمات، وهي أنه كان يعيش مرعوباً من كون احتلال إسطانبول، وهو عمل بحمولة مهمة جداً، سيجر عليه تدخل أوروبا لتحقيق حلمها القديم في تقسيم الإمبراطورية العثمانية، والذي سيدفع إنجلترا، وهو متأكد من هذا، إلى احتلال مصر.

غير أن إبراهيم الذي يتجاهل كل النصائح المقدمة له بالتريث، يعلن لوالده في العشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٣ بأنه سيمضي بجيشه قدماً.

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

«بدأ الجيش يتحرك من قونية، وأخذت الوحدات تتحرك بمجموعات صغيرة بسبب قسوة البرد، وقلة عدد الجمال الضروري للنقل.

ويُستنتج مما جاء في المراسلات الوافدة من إسطانبول بأنه لاتوجد في طريقنا أية مقاوة لتتصدى لنا. وحتى في إسطانبول لاوجود لأية إشارة إلى حركة عسكرية ضدنا، وهو ما يؤكد بوضوح بأنهم يضعون كل أملهم على السلام. ولأجل هذا الهدف أرسلوا خليل رفعت باشا في مهمة، ومن الممكن إبرام اتفاق معهم عن طريق رفعت، لكننا نعتقد بحسب ما تستطيع إدراكه عقولنا الصغيرة، أنه ومادام سيبقى السلطان محمود هذا الشيطان الخبيث على العرش، فلن يكون هناك من سلام حقيقي ولاتسوية نهائية للنزاع. لأنه سيظل دوماً يتصيد فرصة مناسبة لفعل الشر، وسيستمر كما في الماضي، في ارتكاب العنف والتجاوزات بحق هذه الأمة المسلمة البئيسة. ويملي علينا أيضاً انتماؤنا إلى هذه الأمة، وحميتنا الدينية، الواجب الملح بألا نعمل فقط من أجل مصالحنا الذاتية، ولكن أيضاً وخاصة من أجل صالح كل هذه الأمة.

فنحن مجبرون إذن على العودة إلى القرار الأول بتنحية هذا الرجل المشؤوم، وتعويضه بولي العهد حتى تمثل هذه الأعمال العظيمة محركاً قوياً يوقظ هذه الأمة من سباتها.

وإذا ما تمت معارضة هذا الأمر بحجة أن أوروبا لاتقبله، سنقول بأننا لن نمنحها الوقت لتتدخل، وبأننا سنتفادى كل خطر من هذا الجانب، لأن مشروعنا سينفذ وبالكاد ستعرف القوى العظمى بأمره، ولن يستطيعوا قول شيء أمام الأمر الواقع.

ومع ذلك، لو بحثت أوروبا عن الاستفادة من الوضع لتحقيق طموحاتها باقتسام الإمبراطورية العثمانية، فعن أي شيء يمكننا أن نكون مسؤولين؟ وهل نستطيع منعها من تحقيق حلم قديم منذ أربع وثمانين سنة؟ فليتعهدنا الله بحمايته! وفي كل الأحوال، من الأفضل أن يحدث الآن ما يجب أن يقع اليوم أو غداً للانتهاء منه وتسوية هذه القضية التي تشغلنا أيضاً بصفة نهائية.

وهكذا، سننطلق مدفوعين بهذه الروح، ومتوكلين على الله بكل جسارة إلى بروسة وموادينا، بطريقة لن يكون لدينا الوقت فيها للحصول على أية أخبار منكم أو من إسطانبول تمنعنا من التقدم. فبقائنا في مراكزنا الحالية، نلاقي مختلف الصعوبات لتموين الجيش للفقر المحيط بهذا البلد، ولم تعد لنا من موارد سوى التوجه إلى بروسة حيث سنرسل لكم منها مندوباً فوق العادة لإعلامكم بالقرارات المتوصل لها بحسب الظروف»[1].

والواقع أن نظرية إبراهيم المتعلقة «بالأمر الواقع» سينجزها مع والده، إذ سيتجاوز على رأس جيشه إذن مرحلة أخرى تقربه من البوسفور. ويقطع في ثلاثة عشر يوماً منطلقاً منِ قونية في العشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٣، المائتين وأربعة وعشرين كيلومتراً التي تفصلها عن كوتاهيا على الرغم من البرد القارس. ها هو الآن على بعد مائتي كيلومتر من إسطانبول.

وكانت كاتاهيا تقوم على جانب جبل مدينة يقطنها حوالي خمسين ألف نسمة. ويجد إبراهيم بها ما يحتاجه جيشه من مواد للتموين.

وخلال ذلك، يزور موراييف محمد علي في الثالث عشر من شهر كانون الثاني، دون أن يتبنى خطاباً تهديدياً خلافاً للمتوقع، ويظهر الباشا من جانبه استعداده للمصالحة، ووقف أي حركات معادية.

وفي الحادي والعشرين من الشهر ذاته، يصل مفاوض سامي، وهو خليل رفعت باشا إلى الإسكندرية، فيستقبله محمد علي بكل حفاوة. ويعلن بدءاً بأنه وابنه قد رُفع عنهما العزل السابق المعلن عنه في إسطانبول، ويشرع الرجلان في مفاوضات أظهر كل منهما خلالها حسن نيته بينما أرسل مبعوثاً إلى إبراهيم ليطلب منه التوقف حيث يوجد في انتظار نهاية المفاوضات.

وإذا كان نائب الملك ممزقاً بين خيار ابنه المتطرف والوصول إلى تسوية،

(١) المصدر السابق.

فإن إبراهيم من جانبه، كان مقسماً بين رغبته في خلع السلطان والطاعة الواجبة لوالده. وفي النهاية، فإن عاطفة البنوة هي من ستقول الكلمة النهائية، ذلك أنه ومع وصول الأوامر القادمة من القاهرة سيتوقف حيث هو، حتى من دون الوصول إلى بروسة هدفه مع أسفه الشديد، ومرماه الأول عند انطلاقه من قونية. وتصله من بارون فارين رسالة مؤرخة بالتاسع والعشرين من شهر كانون الثاني.

صاحب السعادة والسيد العظيم

أعتقد ان من واجبي أن أحيطكم علماً بأن الباب العالي، ورغبة منه في وضع حد للآلام التي تسببها الحرب للأهالي الذين أوكلت له العناية الإلهية أمرهم، قد أرسل إلى الإسكندرية القبطان باشا السابق خليل مرفوقاً بالأمباشي رشيد باي[1]، وزوده بكل السلط الضرورية للتوصل إلى اتفاق نهائي مع صاحب السمو محمد علي باشا.

ويأتي عزم الباب العالي نتيجة للمقترحات التي كلفت بنقلها له من والدكم الممجد. وأجدني أمام ضرورة إعلامكم أنه وبصفتي ممثلاً لقوة عظمى والتي وعلى الرغم من أنها لم تتوقف في أي لحظة من اللحظات عن الإعراب عن متمنياتها بازدهار الإمبراطورية العثمانية، تسمح لي بالتباحث مع سموكم.

وسأكتفي بنقل الأوضاع الحالية إلى سموكم، على أمل أن يفهم صاحب السمو بأن أي عمل عدائي أضحى من دون داع، وبأن اللوم والمسؤولية سيقعان الآن على صاحبهما، وبأن أعمالاً من هذا النوع يمكنها خلق صعوبات على الاتفاق الذي نحن بصدده. وسترون يا صاحب السمو بأنه من المناسب وقف مسيركم وبأن تكلفوا قادتكم بتعليق حركاتهم.

---

(١) أميتشي بمعنى موظف في وزارة الشؤون الخارجية، وكان رشيد باي يملك معارف واسعة بقدر ما هي متنوعة. وكان حاد الذكاء بأحكام سليمة، وبسلوك راق. وكان يعتبر الدبلوماسي الأكثر تميزاً في الإمبراطورية العثمانية، تنقل بين فرنسا وإنجليترا.

وإذا ما تبنيتم يا صحاب السمو هذا التدبير مثلما أجرؤ على تمنيه، أنا على يقين بأنه ما إن تصل الأوامر إلى قادة قوات الباب العالي حتى سيسارعون، ووفقاً للأوامر التي وجهت لهم، بأن يبقوا دون حركة. وستصل سموكم هذه الرسالة مع مبعوث سيعود مع رد يطيب لكم تشريفي به.

أغتنم يا صاحب السعادة والسيد العظيم هذه الفرصة الأولى، لأقدم لسموكم مشاعر تقديري واعتباري[1].

ويرد إبراهيم في الثالث من شهر شباط كاتباً:

المحترم المتنور والودود الطيب السيد البارون دو فارين

توصلت برسالتكم الودودة التي أرسلتموها بتاريخ التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٣، واطلعت على مضمونها الودي.

وقد شرحت بالتفصيل بحذر وبالوساطة إلى الباب العالي بأن انطلاقي من قونية وعزمي على المضي مباشرة إلى بروسة لم يكن له من سبب آخر سوى شح الموارد وقلة الخشب في عز فصل الشتاء، وبأن هذه الحركة من قبلي أتت نتيجة للصعوبة التي تعترضني لسد حاجات جيشي.

فمضيي قدماً سببته إذن الحاجة، وها نحن أولاء قد وصلنا الآن إلى كوتاهيا حيث يمنح لنا مقامنا بها سهولة الحصول على الموارد. وسأتوقف نزولاً عند رغبة والدي وطيبته حتى أحصل منه على أمر بهذا الخصوص.

سأحيط الباب العالي علماً، وأتمنى أن أستجيب هكذا للرغبة الودية لسعادتكم، والتي تعد الاستجابة لها مصدر سعادة لي.

أغتنم هذه الفرصة لأسأل عن صحتكم الغالية.

بيد أنه وخلال هذا الوقت، كان الأتراك يرجون الروس بأن يرسلوا لهم قوة للتصدي لأي تقدم محتمل لإبراهيم. ويستجيب القيصر لطلبهم.

---

(١) موريز. (مصدر ذكر سابقاً).

وبالفعل، يتوصل الأميرال البارون روسان سفير فرنسا الجديد في الثامن عشر من شهر شباط لسنة ١٨٣٣ من الباب العالي بمذكرة يتركه يتوقع فيها دنو وصول الأسطول الروسي إلا إذا انسحبت القوات المصرية. ومنذ اليوم الموالي، يقابل وزير الشؤون الخارجية التركي، ويشرح له بأن وصول الروس سيعني محو تركيا من خارطة أوروبا. ويطلب إبلاغه بشروط السلام التي يضعها الباب العالي، ويصر في الحصول على أمر جديد بوقف تقدم الأسطول الروسي. ويتجاهل الباب العالي مطالبه، وفي العشرين من شهر شباط ترسو خمس سفن، وسبع فرقاطات تحت قيادة الأميرال لازاريف(١) في مرسى بويوقديري. ويحتقن روسان غضباً، فرؤية الأسطول الروسي تحت أسوار قصر السلطان كانت مثل تحريك منديل أحمر أمام ثور. فيفقد أعصابه، وبمبادرة شخصية منه، يوجه إنذاراً إلى الباب العالي بأنه إذا لم يتم السلام فسيرحل ويهجر تركيا لتواجه مصيرها.

وفجأة، يصيب الخوف السلطان بدوره، وليس من دون سبب، فمنذ وصول الجنرال مورايف إلى إسطانبول، ارتكب خطأ إشعار الأتراك أكثر مما يجب بثقل حضوره. ذلك أنه جاب الثكنات، وأكثر من خلال حديثه إلى الجنود استخدام نبرة القائد. وبالتأكيد، فإن هذا كان أشبه بالنفخ في الرماد، لكنه ما يزال ساخناً. وحدث أن الرعايا كانوا بقلوب أقل قابلية للعبودية من سيدهم، فبدأ الاضطراب المنذر في العاصمة، وأخذ الناس يتهامسون بأن باشا مصر على الأقل لن يذل عظمة الهلال إلى هذا الحد. وبين عشية وضحاها، أضحى لمحمد علي في الديوان أكثر من مناصر مختف.

ولمواجهة هذا الوضع، يعلن محمود الثاني إلى روسان بأنه يلتزم بالتخلي دون تحفظ عن المساهمة الروسية إذا ما ضمنت له فرنسا إبرام السلام بالشروط

(١) قائد بحري، ومرافق الإمبراطور، نشأ في إنجلترا وتكون في البحرية في المملكة البريطانية.

التي حملها خليل باشا معه إلى الإسكندرية. وللتذكير، فهذه الشروط تمنح لمحمد علي باشوية عكا وطرابلس والقدس ونابلس. ومع أن روسان كان يعلم بأن هذه الباشويات لن تكون كافية في عيني الباشا، إلا أنه ضمن باسم فرنسا اتمام السلام على هذه الأسس شريطة أن يغادر الأسطول الروسي البوسفور مع أول هبة ريح ملائمة للإبحار. غير أن الباب العالي كان يجهل بأن الأميرال روسان كان يتصرف من تلقاء نفسه، فمرة وسيط، وأخرى حكم وضامن لقبول محمد علي الذي لايعلم شيئاً مما يحدث.

هل عوض روسان الذي أعمته ضرورة إبعاد الأسطول الروسي من إسطانبول تصور حكومته بتصوره الشخصي؟ يمكننا أن نشك ذلك، فوفقاً لنظرية السيد صبري الذي يرى أنه وإذا كان روسان قد تجاوز بعض الشيء حدود سلطته، فإن هذا لايعني أنه لايعبر عن أماني فرنسا بعدم دعم مطالب محمد علي جاعلة منها مقتصرة فقط على الباشويات المذكورة «دون» سورية. والواقع أن فرنسا المتعاطفة مع تركيا في إسطانبول ومع مصر في الإسكندرية كانت مقتنعة تماماً بأن منح محمد علي باشوية عكا الأكبر من كل سورية، ستنشأ عنه قوة جديدة، ليست خطيرة فحسب، لكنها خطيرة على حساب الباب العالي. فهناك دوماً ذلك البحث عن التوازن المستحيل.

وسيطغى هذا الشعور على المحادثة بين الدكتور كلو ولويس فيليب[١] في الخامس والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٣٣ :

« حسناً كلو باي! ها أنت ذا ستعود إلى مصر، هل أنت راض عن سفرك؟».

ـ نعم يا مولاي، نعم أنا راض جداً للاستقبال الذي حظيت به سواء في فرنسا أو في إنجلترا. فكل شهادات الاهتمام والتقدير التي حصلت عليها في كل المدن التي زرتها، هي مكافأة لطيفة على أعمالي، وتشجيع لي على بذل المزيد من الجهد، لكني يجب ألا أخفي عن جلالتكم بأني سأرحل دون أن

---

(١) كلو باي ١٨٦٤. (مصدر ذكر سابقاً).

تكتمل سعادتي لرؤية الحكومة فاترة جداً إزاء قضية مصر، والتي هي قضية فرنسا. ويبدو لي كما لو أني أسمع نائب الملك يقول لي عند وصولي: «هكذا إذن تعاملني فرنسا التي أحبها كثيراً، والتي أسعدني إشراكها في التجديث المصري بمنح الأفضلية لمؤسساتها ولرجالاتها، وهو ما جلب علي غالباً لوم الأمم الأخرى. هل يتعين علي انتظار رؤية فرنسا تعلن أنها الأكثر عداءً لي؟

ـ أنت مخطئ. فالحكومة الفرنسية لاتعلن أنها ضد محمد علي، بل إنها على العكس من ذلك مستعدة تمام الاستعداد للعمل من أجل صالحه!

ـ سيدي، لم يكن البند الخامس من معاهدة الأميرال روسان مثالاً جيداً على هذه الاستعدادات الودية. فالاتفاق مذل لمحمد علي الذي لن يقبله بكل تأكيد.

ـ ماذا تريد؟ الروس هنا، ومن المهم أن يرحلوا. أضف إلى ذلك بأن هذه المعاهدة ليست مذلة بالقدر الذي تعتقد، إذ سيحتفظ محمد علي بمصر وبباشوية عكا وملاحقها، ولاأشك بأنه بهذا سيحصل أيضاً على استقلاله».

إذا كانت هذه المحادثة نقلت بأمانة، وهو الحال بدون شك، فيمكن رؤية بكيفية جيدة بأن ملك الفرنسيين يتحدث لغة سفيره نفسها. بالمقابل فإن روسان يبدو غبياً من حيث أنه لم يضع أبداً في حسبانه ردة فعل صاحب الشأن، محمد علي نفسه.

وزيادة على ذلك، يحمل مساعده الملازم أول أوليفيي في الثاني والعشرين من شهر شباط رسالة إلى محمد علي أقل ما توصف به أنها لم تكن موفقة:

إلى السيد العظيم الممجد

إن حكومة جلالته التي أقلقها جدياً تقدم ابنكم إبراهيم وموقفه الغامض، انتهت إلى قبول المساعدة الفعلية التي عرضتها روسيا. ومنذ ذلك الحين، ونتيجة للاطمئنان لمظاهر المصالحة التي أبداها سموكم، ظهرت الرغبة في العدول عن طلب هذه المساعد. ولكن وبحكم واحدة من هذه الحتميات التي تحمل عادة مصائب سياسية، وصل الأسطول الروسي، وألقى مراسيه في البوسفور. وفي

هذا الظرف الذي يقوّض بشكل خطير هدوء أوروبا، والذي يضع الإمبراطورية العثمانية في خطر محدق، والذي سيطال سموكم، شرعت بالاتفاق مع الباب العالي، وباسم حكومة الملك على حثكم على قبول المقترحات التي حملها إليكم خليل باشا، شريطة أن يتم الإعلان مباشرة إلى المبعوث الروسي بأن المصالحة تمت حتى لا يكون هناك من داع لوجود الأسطول الروسي.

وإني لأرجو سموكم، ليس من أجل مصلحتكم الخاصة فقط، بل من أجل أمنكم بأن تقوموا باستدعاء جيشكم دون تأخير، حتى حدود المنطقة التي عهد لكم فيها بالإدارة، والعودة إلى العلاقات الطبيعية مع الباب العالي ملتزمين في الوقت الذي تستلمون فيه مع ابنكم المهام في باشويات عكا والقدس وطرابلس ونابلس. لقد أضحى الاعتدال بالنسبة إلى سموكم حاجة، أما الاستمرار في المطامع التي أظهرتموها سيجلب عليكم عواقب كارثية، والتي لاأشك أنها ستثير الخوف لديكم. وتلتزم فرنسا بما تعاقدت معكم عليه، فلديها السلطة لذلك، وأنا أضمن إرادتها في ذلك. لم يبق لي إلا أن أتمنى بألا تدفعونا أمام الضرورة القاسية لمهاجمة قوة ساهمنا في إنشاء جزء منها، وتلويث مجد أنا أحد المعجبين به بصدق.

هذا، وسيكلف مساعدي الأول، بشرف تسليم سموكم هذه الرسالة، واسمحوا لي أن أوصيكم بأن تحطيوه برعايتكم. وسأرفق هاهنا نسخة من الرسالة التي وجهتها إلى ابنكم إبراهيم باشا.

وإني لأغتنم هذه الفرصة أيها السيد العظيم الممجد، كيما أعرب لكم عن عظيم تقديري[١].

ويعد شهرين من ذلك، أي في الخامس من شهر الموالي، يذكر بوغوص باي هذه الرسالة أثناء محادثات جمعته بالبارون بوالوكونت بهذه الكلمات «على

(١) موريز. (مصدر ذكر سابقاً).

امتداد كل علاقاتنا (مع فرنسا)، لم يكن هناك إلا ظرف واحد كان مؤلماً لنا، لكنه أصاب سموه في القلب. لقد رأيته يتحمل مصادفات مختلفة بروح دائمة الاتزان، وحتى بسعادة دائمة. لكن هذه المرة، جعله تسلم رسالة مماثلة يضطرب، فقد تضمنت أمراً فعلياً متغطرساً، وممن؟ من فرنسا! [1] »

وبالفعل، يمكن بكل سهولة تصور المرارة التي شعرها الباشا. . . فيعلن مجروحاً إلى قنصل إسبانيا «على الرغم من الخطر المحدق بحياته، فإنه لن يتزحزح ولو بمقدار رأس إبرة عن المقترحات التي سبق وأن قدمها، وبأنه سيستدعي كل آلهة مصر، وسيضع كل شيء رهيناً بالسلاح».

وهكذا، يرد على روسان في الثامن من شهر مارس.

السيد السفير

توصلت برسالتكم بتاريخ الثاني والعشرين من شهر شباط، والتي سلمت لي من قبل مساعدكم.

وتعترضون في هذه الرسالة على أنه ليس لي الحق في طلب أراض أخرى غير عكا والقدس ونابلس وطرابلس، وبالتالي علي سحب جيشي مباشرة. وتعلنون لي أنه في حال رفضي، عليّ انتظار عواقب جادة، وأضاف مساعدكم وفقاً للتعليمات التي زودتموه بها، شفاهة بأني إذا ما استمررت في مطامعي سيأتي أمام الشواطئ المصرية، أسطول مختلط فرنسي إنجليزي.

رجاءً سيدي السفير، بأي حق تطلبون مني مثل هذه التضحية؟ لدي أمتي بأكملها، ولن يتعلق الأمر بي وحدي في إثارة الأناضول. وبمساعدة أمتي يمكنني القيام بأكثر من هذا. فأنا سيد على كل هذه البلاد، ومنتصر في كل النقاط، وعندما كان يعدني الرأي العام بالاستيلاء على سورية، أخرت سير قواتي فقط من أجل حقن الدماء، ولأمنح لنفسي الوقت لأستشير مواقف

---

(١) دوان. ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

السياسة الأوروبية. وكثمن لهذا الاعتدال، وللتضحيات العديدة المقدمة من طرف أمتي، والتي مكنني دعمها الكريم من تحقيق انتصارات مشهودة، يطلب مني الآن ترك البلد الذي أحتله في هذا الوقت، وسحب جيشي إلى مقاطعة صغيرة تسمونها باشوية! أوليس هذا إصدار حكم علي بالإعدام السياسي؟

ومع هذا، أثق بأن فرنسا وإنجلترا لن ترفضا إنصافي والاعتراف بحقوقي، فشرفهما يعود لهذا. ولكن وإذا ما كنت مخطئاً في هذا الرجاء للأسف، فإني سأوكل أمري إذن إلى الله، وسأفضل موتاً مجيداً على الاحتضار، وسأخلص بكل سرور إلى قضية أمتي، وسأكون سعيداً بأن أبقى كذلك حتى آخر نفس. هذا هو قراري الذي وصلت له، ويعطي التاريخ أكثر من مثال على إخلاص مماثل.

ومهما يحدث، أتمنى أن تعترف سعادتكم بعدالة حقوقي، وتدعم قبول اقتراحاتي الأخيرة التي قدمتها إلى خليل باشا عن طريق سعادته.

وعلى هذا الأمل، أكتب لكم سيدي السفير هذه الرسالة الودية والتي أضعها بين يدي مساعدكم[١].

وهكذا يكتب روسان من إسطانبول إلى ميمو يرجوه بأن يبذل جهده لثني محمد علي عن مواقفه. ومع أن ميمو ساند دوماً مواقف الباشا، إلا أنه بذل كل جهده دون أن يحرز أي نجاح. ويستمر روسان في إلحاحه، فيكتب إلى إبراهيم طالباً منه أن يتراجع بجيشه حتى حدود الأراضي التي تخلى الباب العالي عنها لمحمد علي. وبدوره، يرفض إبراهيم ذلك بشكل قاطع.

وفي باريس، وحتى قبل أن يعلم بأمر هذا الفشل، يعتقد الدوق دو بروغلي بأن الأميرال روسان تجاوز التعليمات الموجهة إليه، وأنه فقد التوازن بأخذه في الحسبان شروط الباب العالي، ومنحه ضمانة بقبولها من طرف فرنسا. وإذا ما صح نسبها له، فقد أرسل له إحدى تلك الرسائل الدبلوماسية الجميلة والتي

---

(١) موريز. (مصدر ذكر سابقاً).

ترمي إلى ترمي إلى إعفاء الوزير أكثر من تنوير السفير. ومن حسن الحظ أن السلطان أرجع للأميرال روسان أمر عدم الالتزام بكلمته، فلم يقم بشيء لفرض رحيل الروس، ويظل أسطولهم في مرسى بويو قديري، بل إنه تلقى خمسة آلاف رجل كدعم. ويدعى محمود مرافقاً بالجنرال مورايبيف إلى استعراض للقوات الروسية. وخلال ذلك، يعبر السلطان عن الرضى والسرور اللذين يشعر بهما أمام الترتيبات «الودية والصادقة لإمبراطور روسيا». وفجأة، أضحى لقب «المحروسة» الذي أطلقه الأتراك على إسطانبول يحمل معنى غريباً.

وبعد أن تخلى السلطان عن التزامه، غير الأميرال روسان موقفه، وأخذ يصر على أن يقبل الباب العالي اقتراحات محمد علي.

البارون بوالوكونت

فجأة وفي نهاية شهر آذار، تعلم إنجلترا التي ظلت حتى الآن على موقف سلبي نسبياً في هذه الأزمة، فرنسا بأنها قررت إرسال أسطول لها أمام الإسكندرية، وجعله تحت تصرف قنصلها العام في مصر الكولونيل كامبل من أجل الضغط على محمد علي. ويصل كامبل بحراً إلى مصر في السابع والعشرين من شهر آذار. ومنذ اليوم الموالي، يقابل بوغوص باي ويعلن له أن إنجلترا متمسكة بقوة بالحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية، التي تعتبرها عنصراً ملموساً لحفظ التوازن العام في أوروبا.

وفي بداية شهر نيسان، أتى الدور على النمسا لتتدخل بدورها. ويعلم بروكيش المرسل من قبل ميترنيخ، محمد علي بأن «النمسا لن تتسامح أبداً مع المبادئ الحيوية لوجود الدول»، ويضيف بأنها صديقة الباب العالي، وما دامت كذلك، فستعارض أي تدبير يؤدي إلى تمزيق أوصال الإمبراطورية.

وعند ذاك، تعود فرنسا للتدخل، إذ يسارع الدوق دو بروغلي فور علمه بالتأثير السلبي في مصر للإنذار الأول الذي وجهه الأميرال روسان إلى محمد علي، إلى إرسال البارون بوالوكونت إلى الإسكندرية حيث يزوده في السابع من

شهر نيسان لسنة ١٨٣٣، بتعليمات مبنية على أن بقاء الأسطول الروسي في البوسفور، سيعفي فرنسا تماماً من الضمان الذي قدمه روسان، ويوصيه أيضاً بأخذ تعهد من محمد علي بإخلاء تركيا حتى لاتضع القضية الناجمة عن انتصاراته المصالح الأوروبية العامة على المحك.

وخلال ذلك، يعرب محمد علي للباب العالي رفضه القاطع لأية طاعة، ويشدد على أنه إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه خلال خمسة أيام، فسيتلقى إبراهيم الأمر بالزحف إلى إسطانبول. ومع تسلمه لهذا الإنذار، أدرك محمود بأنه من الضروري وضع حد لكل هذه المماطلة وإنهاء الأمر. وفي أعمق أعماقه، كانت مصر تخيفه حد وضعه تحت الدرع الروسي. وأخيراً يعلم محمود فارين برضاه عن منح ابن كافالا باشويات سورية الأربعة التي سعى إليها كثيراً، مع كل ما يتعلق بها، ولكنه لن يتخلى مهما كلفه ذلك من ثمن عن أضنة. وأحدث هذا الإعلان الذي لم يكن ينتظره أحد تأثيراً كبيراً. وهكذا يعتبر الباب العالي بأن المفاوضات قد انتهت.

ويتصرف محمد علي بذكاء، فيحتفل بالسلام في القاهرة احتفالاً شعبياً. وتطلق المدافع طلقاتها من القلعة، غير أنه كان ينوي سراً عدم التخلي عن أضنة. فهذه المنطقة تلزمه، خاصة أن الغابة تكسوها، وأن ميناءها طرسوس يمكن من نقل الخشب اللازم إلى إصلاح وتطوير الأسطول في مصر.

وفي ظل هذه الأجواء، يصل في التاسع والعشرين من شهر نيسان البارون بوالوكونت إلى الإسكندرية، ويفهم دفعة واحدة بأنه ما من شيء قد تم فعلاً.

آخر خبر وصلني هو إتمام عملية السلام، فقد عمم ذلك مع أصوات المدافع، ونظمت الاحتفالات الشعبية احتفاء بها. ومثلما يحدث في مثل هذا النوع من المناسبات، فقد طغى الحدث الأساسي على باقي الأحداث الجانبية، وبدا أن كل شيء قد انتهى، بيد أن السيد ميمو أعلمني في اليوم نفسه بالتفصيل ويقين بالظروف التي سبقت توقيع معاهدة السلام، وأوضح لي بأن المفوض التركي ليس له من سلط إلا التخلي عن سورية، وأنه بدا محدود الصلاحيات

أمام طلب إبراهيم الثاني المتعلق بالتخلي عن أضنة، فوعد بدعم هذا الطلب لدى الباب العالي.

(. . .) وفي اليوم الموالي، أي في الفاتح من شهر أيار لسنة ١٨٣٣ قصدت الباشا، وكان محمد علي في أقصى قاعة كبيرة، في مجلس ضم العديد من اللامعين. وكان رجلاً بقامة متوسطة، يبلغ من العمر سبعين سنة (ثلاثاً وستون في الواقع)، لكنه ممتلئ بالحيوية والنشاط. وكان بنظرة ثاقبة ومتفحصة وبلحية بيضاء طويلة يضفيان انطباعاً على وجهه الفريد الدائم الحركة حيث ترتسم الطاقة وتتابع بسرعة التعابير الأكثر تضارباً.

(. . .) وعندما ذكرته بضرورة استدعاء قواته من آسيا الصغرى رد علي مبتسماً «حسناً، لدى فرنسا وإنجلترا وسيلة بسيطة لإعادة هذه القوات، فلينصحا الباب العالي بأن يتخلى لي عن أضنة، وسيستجيب لهما الباب العالي، حينها سينتهي كل شيء».

ويحذره بوالوكونت قائلاً «فلتكتفي بسورية، هذه قسمة جميلة، وقد اكتفى ملوك أقوياء قبلكم. ألا تعتقدون أن هناك بعض الحدود في الإمبراطورية إذا ما تم تجاوزها يعد ذلك سبباً للضعف. وهذا ما سيحدث لكم إذا ما تجوزتم سورية، لأنكم ستصيرون مصدر قلق، ولسوء طوية الباب العالي، وستصيرون أيضاً مصدر قلق بالنسبة للقوى العظمى الأوروبية».

ولم يكن بالإمكان وضع حد لهذا الوضع، وسيؤكد المستقبل ذلك. غير أن محمد علي سيظل ثابتاً على مواقفه «نحن متفقان على هذا الهدف، ولكن من أجل إعطاء قوتي طابعاً ثابتاً ونهائياً أرغب في أضنة. فسورية لايمكن مهاجمتها من هذا الجانب، وينبغي أن تكون كل فكرة للاعتداء مستحيلة بين مصر والباب العالي (. . .) وأخيراً، يلزم أسطولي خشب للبناء، ولاينبغي أن يعود الأمر لأي باشا من الباشوات لتجديد كل الإساءات التي تعرضت لها في السابق عندما أتيت للبحث عنه في هذه المناطق نفسها[1] ».

---

(١) دوان ١٩٢٧. (مصدر ذكر سابقاً).

وكان البارون بوالوكونت في أعماقه يعطيه الحق في ذلك، بل إنه سيترك نفسه يذهب بالتفكير بأن باشا مصر عليه أن يصير حليفاً جيداً لفرنسا ما إن يصير سيد هذه المناطق، ويكتب «إذا ما حدث وانطلقت حرب عامة، فلربما يمكن لحكومة الملك أن تستفيد من حليف يتوفر على وسائل لايستهان بها، والذي ستشغل حركته والضرورة جزءاً من جيوش القوى التي يمكنها أن تعلن عداءها ضد فرنسا» [1].

من جانبه، يوقف إبراهيم تحرك قواته التي شرع في التقدم بها من قبل. ويطلب من السلطان أن يحسم بشكل نهائي قضية أضنة، ويضيف «لن أتحرك أبداً من المنطقة التي أنا بها، ما دمت لم أحصل على أمر من والدي» وهنا يكمن مربط الفرس.

ويكلف الأميرال روسان اليائس فارين بأن يتوجه إلى إبراهيم ليحاول ثنيه عن ذلك، فيطيعه الدبلوماسي دون اقتناع منه، فيعيد على نفسه بإهمال التعليمات التي تشير له بطريقة ملتبسة ما ينبغي عليه القيام به، ويقرر ألا يأخذ بنصيحة أحد في هذا الأمر. وكان يساعده في هذه المهمة الأميتشي رشيد باي.

وعند نهاية سفر مرهق، يصل الرجلان أمام بطل معركة قونية الذي يستقبلهما في منزل خشبي. وعلى الرغم من البرد القارس، لم تكون هناك مدفئة بالبيت. وهكذا كان القائد العام يشارك قواته حياتها القاسية. بالمقابل، ومن أجل تكريم ضيفه الفرنسي، أمر بأن يعزف النشيد الوطني الفرنسي، وسرعان ما سيتم التطرق إلى الأمور الجدية. فينطلق إبراهيم بإعلان مشاعر وده لفرنسا، لكنه يبقى حاسماً في متطلباته ومتطلبات والده. بمعنى سورية، وباشوية ديار بكر، ومناطق إتشيلا وآلايا وأضنة، أي موقع قدم في آسيا الصغرى. ويقدم فارين أفضل ما لديه لمواجهة هذه الأطماع، وأخيراً يرضى إبراهيم بمناطق إتشيلا وآلايا، ويعدل عن وضع الترتيبات اللاحقة لمآل باشوية ديار بكر، غير أنه

---

(١) المصدر السابق.

وبخصوص التخلي عن أضنة، فإنه يبدي موقفاً متصلباً مثل موقف والده.

أنكيار سكيليسي.. ثمن روسيا

يستمر بوالوكونت في عمله في الإسكندرية، ويعرض الخطر الذي يمثله وصول الأسطول الإنجليزي إلى الإسكندرية، ويعلن إلى بوغوص باي «ليس لكم إلا وسيلة واحدة لتفادي خطر انتظار هذا الأسطول، ومذلة الخضوع إلى الإنذار الذي سيوجهه لكم السيد كامبل. وإذا ما أعلنتم لي رسمياً بأن محمد علي المراعي لتصرف الملك تجاهه، والمسارع بالإنصات إلى نصائح صوت صديق أعطى أوامره بإعادة قواته حالاً إلى جبال طوروس، دون انتظار نتائج المفاوضات الخاصة المعقودة بخصوص أضنة».

وينقل بوغوص باي في اليوم الموالي رد نائب الملك، والقاضي خلافاً للمتوقع، بأن فكرة الخطر الذي يتهدده زاده حماسة عوض إخافته، وهو يدعي بان «الأمور قد تطورت كثيراً حد أنه لم يعد يخشى شيئاً، إضافة إلى تقليله من شأن الأسطول الإنجليزي الذي لن يستطيع إلا محاصرة الإسكندرية، وبأنه غير محتاج لمد ابنه بالمؤن والذخيرة».

وفي غضون ذلك، يصل إلى إسطانبول اللورد بونسونبي سفير إنجلترا الجديد بها، الذي يخبر زميله الفرنسي بأن أضنة لاتستحق كل هذا العناء، وبأن الأهم يكمن في إبعاد الروس عن إسطانبول، وبالتالي يتعين على الباب العالي القبول بالتخلي عن أضنة. ولم يكن بوسع الأميرال روسان إلا أن يتفق مع آراء اللورد بونسونبي. فيقوم السلطان الذي أخذ قلقه يتزايد مما احدثه الوجود الروسي في إسطانبول من هيجان لدى العامة، بإصدار أمره إلى إبراهيم بإدارة منطقة أضنة. وأخيراً يتم الانتهاء من التوقيع على الاتفاق المسمى بصلح كوتاهيا، فيُلفي الأسطول الروسي نفسه مجبراً على الانسحاب من البوسفور.

بيد أن روسيا لن تقف عند هذا الحد، فقد كان لها حظ الوصول إلى أبواب إسطانبول «بصفة ودية»، ولم تكن ترى في هذا إلا خطوة أخرى على درب

إتمام مشاريعها، وبأنها خطوة أولى تحت المظاهر الخادعة لحسن النية والاعتدال والشهامة، وعليها الآن أن تأخذ نصيبها كمكافأة مستحقة على الدعم العسكري الذي قدمته إلى السلطان.

ويسري الخبر في الثامن من شهر تموز لسنة ١٨٣٣ في كل القنصليت الأوروبية، فقد وقع السلطان مع روسيا اتفاقية إنكيار سكيليسي[١]. فتحت شعار ضمان مساعدة تركيا، كان الاتفاق يضع الباب العالي وبالتالي كل المضايق تحت نوع من أنواع الحماية الروسية، والاتفاق سار لثمان سنوات، ويعقد بين روسيا وتركيا حلفاً دفاعياً ويقفل مضيق الدردنيل على كل سفن الدول الأخرى. وإذا اندلعت الحرب بين الباب العالي ومصر، يحق لروسيا التدخل بأسطولها في البوسفور. ولسخرية القدر، فمحمد علي التابع بدى أكثر استقلالية من سيده، بينما أضحى هذا الأخير تابعاً لقوة اجنبية.

وأرادت روسيا في انسحابها، ترك معلمة ثابتة في المكان نفسه الذي ضم خيام قواتها لتبين من خلالها غيرتها على الإمبراطورية العثمانية. ونقش على الحجرة المقامة بإنكيار سكيليس بشكل علني الكتابة التالية «استضاف هذا السهل بكل كرم الجيش الروسي لمدة قصيرة. فلتخلد هذه الحجرة التذكارية هذه الذكرى. وليدم تحالف البلاطين ثابتاً وقوياً! وليحتفل هذا الحدث أبداً بتاريخ الصداقة!».

وانتصرت روسيا أخيراً في هذه القضية التي ألفى كل طرف نفسه فيها في وضع غير سليم، وذلك بأخذها تركيا كرهينة. ووضع الاتفاق القوى الغربية وجهاً لوجه أمام العالم السلافي. وإذا ما جعلت معاهدة الصلح لكوتاهيا الوضع في الشرق غير ثابت، فإن اتفاقية إنكيار سكيليسي أحالته خطراً على أوروبا.

---

(١) المصطلحان المكونان لاسم هذه المنطقة. اشتق الأول من المصطلح الفارسي كونكيار والذي يعني حرفياً «السُلّم الموزع للدم»، والذي كان أحد ألقاب السلطان، أما بالنسبة للمعاهدة. أنظر الملحق.

أما محمد علي، فيمكنه أن يكون راضياً، فقد صار سيداً على فلسطين وعلى كل سورية، وعلى جبال طوروس التي تحميها ضد أي اعتداء تركي بل ويمكنه أيضاً عند الاقتضاء، أن يقوم بمهاجمة إسطانبول مادامت الجبال بمثابة مفتاح تركيا. وتحقق له توسعاً كبيراً في الأراضي التي يحكمها، وارتفعت مكانته السياسية. ومن وجهة نظر عسكرية، فقد كشفت انتصاراته تفوق سلاحه على سلاح الإمبراطورية، وهو أحد رعاياها. وسيبقى من الناحية الشكلية مجرد تابع.

ومنذ هذا اليوم، سيصير على شاكلة مثاله الأعلى نابوليون، الضحية الأولى لتوسعه هذا.

[25]

إبراهيم القائد العام والمدبر (١٨٣٣ ـ ١٨٣٨)

ويصير إبراهيم أخيراً سيداً على سورية التي رغب بها والده كثيراً. لكن كيف كان يعيش هذا البلد حتى الآن؟ وفي ظل أي شروط؟ هذا ما سنخط خطوطه العريضة.

فمنذ سنة ١٥١٧ أي منذ الاحتلال العثماني، اقتصر حكم الباشوات فيها على الجمع بقدر ما يستطيعون بين مصالح الباب العالي ومصالحهم. وكان الباب العالي يأمل في إبقاء هيمنته حتى لو أدى ذلك إلى نضوب موارد البلد الممزق بالفوضى، مبقياً على تقسيم السلط، ومشجعاً مظاهر الغيرة المحلية بين الباشوات. وكنتيجة مباشرة لهذه السياسة، خلقت جواً من العصيان شبه المزمن.

ويضطر داود باشا في دمشق إلى الاستسلام أمام التمرد الذي شهدته سنة ١٨٣١. ويخلع خليفته سليم بتمرد شعبي ويقتل في سجنه. وكان المواطنون الخاضعون لإدارته يحاصرونه في الوقت نفسه الذي كان فيه إبراهيم يدخل سورية. وفي السنة ذاتها، استولى أحد المغامرين ويدعى سليم آغا بشير على مدينة حمص بالقوة، وهو من سلب حكمها ثلاث سنوات قبل ذلك. أما المنطقة بين غزة والقدس المشكلة أساساً من أراض شاسعة تضم مناطق جبلية شاسعة من السامرية وفلسطين، فقد كانت تحت رحمة أحد رجال العصابات من البدو ويلقب «بأبي غوش»، وكان من يضع قانونها. وكان يفرض ضرائب

عشوائية على كل البضائع والأشخاص الذين يعبرون المنطقة للوصول إلى الأراضي المقدسة.

في حين كانت سورية الجنوبية تخضع بحكم الواقع إلى أحد الأعراب وهو الشيخ حسين والذي أنشأ لنفسه بها دولة حقيقية. وكسيد مستقل، نجح في فرض هيمنته على كل جبال نابلس وأنتهى الباب العالي العاجز بالزمن إلى الرضى بالأمر.

أما سلطة عبدالله الباشا السابق لعكا، فإنها لم تتجاوز أبداً أسوار عكا حيث كان يقيم.

وكانت حلب مسرحاً للأحداث بين ميليشيات الإنكشارية وسلالة الأشراف. وكان على ممثل السلطان باستمرار أن يستند على هذه الفئة أو على الفئة الأخرى ليضمن بقاءه في منصبه، غير أن أعمال المذابح والتدابير المتعاقبة نشرت انعدام الأمن في كل مكان مما قوّض سلطته.

وفي دمشق، ومنذ قتل سليم باشا، استولى أحد الشيوخ على السلطة بها. وكان المسيحيون واليهود بها معرضون لكل صنوف العنف والظلم من قبل الأهالي المتعصبين وغير المتقيدين بنظام.

وكان البدو الرحل في كل سورية، والبدو في المركز والجنوب، والأكراد والتركمان يعترضون سبل القوافل ويسلبونها دون أن يطالهم أي عقاب.

أما في لبنان، فقد كانت الدولة الدرزية المارونية بقيادة الأمير بشير تحتفظ بوجودها بطريقة أو بأخرى، معانية بشكل ملموس من الاضطرابات التي تعصف بالجوار. وكان أفضل ما في ذلك، أن الأمير لم يكن يخشى شيئاً من جيرانه لأنهم كانوا منهمكين جداً في تمزيق بعضهم البعض.

وعلى امتداد كل البلاد، أهملت الفلاحة وهجرت، وذبلت التجارة، وزحفت الرمال على الموانئ، وأخذت التحصينات تسقط تباعاً. وكان الفساد يهيمن على الأعمال إذ كانت إسطانبول متسامحة مع مظاهره ومشجعة له. وكانت الوظائف تمنح لمن يدفع أكثر. وبحسب تقرير أعدته قنصلية فينيسيا،

فإن كل باشوية كبيرة من باشويات سورية تكلف من ثمانين إلى مائة ألف دوكا، في حين تتراوح مهمة الدفتردار ما بين أربعين وخمسين ألف دوكا.

ومن سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٤٠ سيحل إبراهيم النظام في كل هذه الاختلالات.

ويتحفظ بداية من قبول مساهمة أشخاص مثل أبي غوش الذي سيقبض عليه ويرمى في السجن، كما يرفض دعم رؤساء العصابات. بالمقابل، كان لديه من المهارة ليترك لبعض الزعماء المحليين الذين ساعدوه في احتلال البلاد بعض السلط. إذ سيثبت الشيخ حسين في قيادة منطقته الفلسطينية. وعهد الحكم في القدس ونابلس ويافا لأناس مقربين من الشيخ حسين. وفعل الشيء ذاته مع الأمير بشير، الذي تسلم أقرباؤه والمحسوبين عليه الحكم في صيدا وبيروت ومدن أخرى في الضاحية اللبنانية. وأبقى على مصطفى بربر على رأس حكومة طرابلس، في حين اختير رئيس الحكومة في حلب من بين الزعماء الانكشاريين. وعهدت القيادة في أنطاكية وبعض المناطق الداخلية إلى أشخاص من الأهالي ذوي النفوذ. واستقرت الحكومة العسكرية المصرية في عكا، وحذفت الباشويات القديمة لدمشق وعكا وصيدا وطرابلس وحلب. ولم تعد سورية وفلسطين تشكلان إلا وحدة إدارية واحدة عاصمتها دمشق التي وضع على رأسها الحاكم العام المصري شريف باي والذي سبق وأن أبان عن قدرات جيدة في مصر العليا.

ويضمن إبراهيم بهذه التعيينات مساهمة الرؤساء المحليين المحترمين. وإذا لم ينجح هذا التنظيم في وضع حد لأعمال التمرد المحلي، فإنه يضمن على الأقل لكل سورية شروط أمن غابت عنها لما يقرب من قرن من الزمان. ويكتب ميمو سنة ١٨٣٦ «يسافر الناس في سورية دون مرافقين، ومن دون خوف».

وكان أحد أول الفرمانات التي نشرها إبراهيم، يخص القدس «تحوي القدس المعابد، والأديرة والمعالم والتاريخية والتي تحج إليه مختلف الأمم المسيحية منها واليهودية، ومن مختلف المذاهب. يتحملون عناء السفر إليها من مناطق

بعيدة، لكن هؤلاء الحجاج يشتكون من ضرائب الدخول المفروضة عليهم. ورغبة منا في وضع حد لهذا الشطط نأمر كل حكام باشوية صيدا والقدس ونابلس بإلغاء كل أنواع هذه الضرائب على كل الطرق والمراكز بدون استثناء.

ولما كانت الأديرة والكنائس في القدس تعد أماكن دينية للرهبان الذين يتلون فيها الإنجيل، ويمارسون داخلها شعائرهم وطقوسهم الدينية، فإنه من العدل أن نعفيهم من كل الضرائب المفروضة على معابد وأديرة كل الأمم المسيحية الموجودة في القدس (. . .)

وكل من سولت له نفسه عصيان هذا الأمر بعد الإعلان عنه، وفرض على المذكورين درهماً واحداً سيعاقب عقاباً قاسياً. ومن أجل هذه الغايات، وجهت هذه التعليمات إلى ديوان القيادة العامة[1] ».

تجدر الإشارة هنا إلى أن فرنسا، القوة الحامية للكاثوليكية في الشرق وفي الأماكن المقدسة المسيحية، لم تستطع أبداً حتى هذا اليوم إقامة قنصلية لها في القدس.

ويعلن إبراهيم عن المساواة في العبادات وبين الأديان. ويقدم شخصياً إضافة إلى جنرالاته مثالاً على التسامح إلى شعب سوري ما يزال متشرباً بالأحكام القروسطية المسبقة. ويستقبل محمد علي في الإسكندرية سماحة الأب كيستود من الأراضي المقدسة، مصحوباً بوفد مرافق له، بحفاوة كبيرة، ويحدثه بلغة جعلت رجل الدين هذا يقول «ياإخواني، لقد خاطبنا كما لو أنه كان أسقفاً!».

ووجد الممثلون الفرنسيون باستمرار سواء لدى محمد علي أو لدى إبراهيم تدابير أكثر تحرراً بخصوص الديانة المسيحية وممارسة الشعائر وحاجات الأديرة وإصلاح البنايات الدينية. ويقدم القنصل العام لفرنسا سنة ١٨٣٥ المفوض الرسولي في سورية للباشا. ويعلن هذا المفوض «إنه أبعد ما يكون عن وجود شكاوى نرفعها للطريقة التي يعامل بها مسيحيو سورية، ليس هناك إلا ما يبعث

---

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

على السرور عن روح التسامح التي يقابلون بها». ويطمئن محمد علي بأنه لن يخضع مسيحيي سورية أبداً للخدمة العسكرية.

ويعمل إبراهيم المتحمس جداً مثل والده للفلاحة إلى إعادة الحياة للحقول السورية. فما إن يستقر في سورية حتى يشرع في القيام بتجارب زراعية جديدة، تهدف إلى تكثيف تلك التي كانت توجد قبلاً. ويمنح جزءاً من الضرائب إلى القرى التي تتبع توجيهاته بهذا الشأن. فشرع في تبذير الأراضي غير المزروعة بينما كان إبراهيم يعيد الحياة لحسابه إلى أراضي سهل أنطاكية البور منذ قرون. فينشئ القرض الفلاحي، أحد المؤسسات الأكثر تماشياً مع عادات البلد. وتم تجريب زراعة البن التي لم تستطع النجاح في مصر، في أكثر من مكان. وتضاعف غرس أشجار التوت، وكان يمكن عد مائتين وسبعة وأربعين ألف شجرة في سنة ١٨٣٦، وأزيد من خمسين ألف شجرة زيتون في ضواحي مدينة عكا. ولما كان إبراهيم محباً كبيراً للنبيذ فقد أمر بزراعة مائتين وستين ألف كرمة، جلبت أربعة عشر ألف منها من بوردو[١] وكان الخروع ينمو بغزارة.

وكان بإمكان محمد علي أن يعلن لفردينان دوليسيبس في شهر حزيران من سنة ١٨٣٧ «تغذي سورية كل جيشي. ويتبقى ليفقط مده بالسيوف والبنادق وقطع المدفعية»[٢]. وخلال هذه السنة نفسها يتضاعف محصول القطن ثلاث مرات مقارنة بالسنوات الماضية.

وتعرف الصناعة أيضاً ازدهاراً حقيقياً. وتقدم سورية ما يقارب من أربعمائة ألف قطعة حرير ممزوج بالقطن. وكانت الخليل تبيع في كل سورية وحتى في مصر، أساورها الزجاجية الزرقاء ومصابيحها.

وتنطلق أعمال البحث عن المقالع والمناجم. ففي جنوب البلد، يعهد إلى مهندسين فرنسيين مهمة التنقيب عن الرخام السماقي والرخام، في حين كان

---

(١) المصدر السابق.
(٢) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

الإنجليز يستخرجون الفحم الحجري في الشمال الشرقي لبيروت.

وكما حدث في مصر، تنطلق العديد من الأشغال العمومية في وقت توضع أخرى موضع الدراسة مثل تحسين ميناء صيدا، ومشروع ميناء الإسكندرية، وتجفيف المستنقعات، وتنظيف وحفر البحيرة التي تصب في عنتاب في حلب، وأعمال لتمرير قوارب بواديي طرسوس، وإنشاء الطرقات واسكتشاف مواقع منجمية خاصة بالفحم والحديد.

وتعود الحياة مرة أخرى إلى العلاقات التجارية مع أوروبا. فإذا كانت مداخيل جمرك بيروت في عهد عبدالله تصل إلى ثمانمائة بورصة، ارتفعت تحت الإدارة المصرية إلى ثلاثة آلاف بورصة.

وسرعان ما أتت المركزية المحصلة لنظام حكم قوي وموحد أكلها. وارتفعت الضرائب لكنها تحصل بانتظام، ولم يعد الأهالي معرضين لنزوات الباشوات ولموظفيهم.

ولم تعد هناك حاجة، كما في مصر، بأن يكون المرء مسلحاً ليتحرك بكل حرية في البلد.

ولأول مرة يستدعى عرب سوريون إلى شغل وظائف سياسية عليا في الإدارة وفي الجيش والإدارة المدنية المنسوخة عن مثيلتها في مصر. وبدءاً من خريف سنة ١٨٣٣، تم الانتهاء من البناء الإداري لسورية، وعهد إلى أحد السوريين المسيحيين ويدعى حنا بحري الذي رقي من قبل محمد علي إلى منصب رئيس الشؤون المالية.

واحتراماً لحليفها، منحت الحكومة المصرية كل الاستقلال للأمير بشير، والذي وإن كان يبلغ من العمر إثنتان وسبعون سنة، إلا أنه كان ما يزال قوياً، بلحيته البيضاء المتموجة، وبقامته الطويلة، وبسمات النبل في ملامحه، وحيوية نظراته. فكل شيء لديه يوحي بالسلطة، ويفرض الاحترام. تجدر الإشارة إلى أن لبنان الذي لم يكن وقتها دولة قائمة الذات، كانت طوال الوقت «جبلاً ملجأً»، وهو ما يفسر تعددها الديني، وتنوعها الثقافي. وحتى حدود سنة

١٩٢٠ ستكون المنطقة نوعاً ما «بييمونت سورية». وفي عهد إبراهيم، كانت هناك ثلاثة مذاهب تهيمن على الجبل اللبناني، حيث يشكل المسيحيون المارونيون، الأكثر عدداً، المذهب الأول، ويطلبون دوماً حماية ملوك فرنسا، والدروز الذين يدينون بإسلام هرطقي[١] المذهب الثاني، في حين شكل المتاولة المتحدرون من الفرس الأقدمين المذهب الثالث. فالأرض تجمعهم فيما تفرقهم المعتقدات والمصالح. وينبني وجودهم على القتال والتشرذم.

وفي ظل حكم إبراهيم، كانت المحكمة تضم من دون تفريق، أعياناً مسيحيين ومسلمين للبت في القضايا المدنية للمجلس كما في مصر.

وكل هذه الوقائع تشهد عليها مراسلات القناصلة الفرنسيين أو حتى الإنجليز، مثل الكولونيل داميس الذي جاب سورية في سنة ١٨٣٨، والذي يلخص تأثير حكومة محمد علي خصوصاً على المصالح التجارية لإنجلترا في هذا البلد إذ يكتب «يدين الإنجليز بالخصوص إلى حكمة وهمة حكومته بالفضل للمزايا التي يحصلونها من التجارة المهمة من الداخل السوري عن طريق بيروت ودمشق والإسكندرية وحلب. وكانت التجارة معدمة في هذه المحافظة قبل وصول المصريين إليها، إلا أنه نجح في إخضاع البدو إلى سلطته، ولم تتأخر نتائج ذلك، إذ صارت التجارة مهمة وتعرف تزايداً كل سنة. ومن بين الأجانب، يعد الإنجليز الأكثر استفادة من ذلك».

---

(١) هي عقيدة انشقت أصلاً من الحركة الإسماعيلية، أسست تقريباً نهاية القرن العاشر على يد الداعيين محمد ابن إسماعيل الدرازي الذي أتت منه كلمة دروز، وحمزة ابن علي ابن أحمد واللذان استعارا العديد من مبادئ العقيدة المسيحية والعرفانية والأفلاطونية الحديثة. استقرا في مصر سنة ٩٩٧، وأكدا ان الخليفة الفاطمي الحكيم، آخر جسد إلهي. وهي شخصية بسحر خاص، ذلك أنه أعلن نفسه «تجسداً لله*» (*هكذا ورد في الأصل. المترجم.) على الأرض. ولما اضطهد معتنقو هذه الملة سنتي ١٠١٧ و١٠١٨ من قبل المسلمين الأصليين، استقروا في سورية. وبعد وفاة آخر مرشد لهم المقتنع، انتهى كل تبشير، ولم يعد الدروز يقبلون أي تغيير وأضحوا مجتمعاً منغلقاً بعقيدة سرية محرمين الزواج خارج جماعتهم. ومنذ ذلك الحين، شكلوا شعباً متجانساً تسيره أرستقراطية متحكمة.

وعدا ازدهارها التجاري، فقد رأى الأوروبيون في الأراضي التي يحكمها نائب الملك حقوق الاستيراد والتصدير المعفاة من التقلبات العشوائية، إذ تمت إعادة النسبة القديمة المتمثلة في ثلاثة في المائة، والتي ارتفعت في ظل حكم الباشوات ما بين ثلاثة عشر وثلاثين في المائة.

وأضحت سوق دمشق من الآن فصاعداً، مفتوحة في وجه التجارة الخارجية، أي في وجه الأجانب غير المسلمين. واختفت الإشارات المميزة التي كان المسيحيون مجبرون على وضعها فوق ثيابهم. وحرص إبراهيم شخصياً على تنفيذ هذه الإجراءات، وعلى تغيير العادات القديمة.

وأخيراً، وعلى شاكلة مصر، أعيد البدو والأكراد والتركمان جميعاً إلى جادة الصواب، ذلك أن إبراهيم أجبرهم على الخضوع. ويحدد أولئك الذين يرفضون الانقياد إلى تلك التدابير فيبعدون إلى الصحراء.

وكرس القائد العام جهده أيضاً من أجل التعليم العمومي، وهي مهمة صعبة جداً في بلد يعد الطلب فيه على الكتب قليلاً جداً، حد أنه لم توجد به أي مكتبة. لكن المدارس التي أنشأها إبراهيم ستكون كمثيلاتها لدى محمد علي، ذات توجه عسكري.

سيدة قصر لبنان

إذا لم يكن هناك من شك في أن حكومة محمد علي قد حسنت الشروط العامة للحياة العامة والخاصة في سورية، فإنه لم يعرف كما حدث في مصر، أن يحذر من فرض تدابير والتي ستثير الشعب ضده بطريقة غير محسوسة. وهناك العديد من الأسباب يمكنها أن تفسر سوء الفهم المتزايد يوماً بعد يوم بين البلد وبين من قام بفتحه، وهي:

١ ـ سورية ليست مصر، ولكنها فسيفساء معقدة تتكون من شعوب وأديان تتوفر على خصائص متنوعة جداً.

٢ ـ السوري أكثر تمرداً من الفلاح، وإذا كان هذا الأخير بوداعة طبعه يتحمل استبداد سيده ومولاه، فإن الفلاح السوري غير ذلك تماماً.

٣ ـ وكالعادة، كان محمد علي يحتاج إلى المال لزيادة وتحسين قواته العسكرية، ولذلك سيفرض ضرائب على السوريين تماماً مثلما فعل في مصر، لكنهم وبحكم تعودهم على العيش في الفوضى العامة، سيشتكون من القانون الجديد الذي أخذ يضغط عليهم بطريقة ممنهجة، فتبدو لهم الضرائب غير محتملة أيضاً، سواء الجديد منها أو انتظامها إضافة إلى صرامة محصليها.

٤ ـ سينظر إلى كل أشكال الاحتكار كاعتداء على حرية التجارة الملاصقة لروح السوري.

٥ ـ ومادامت حدود محمد علي قد امتدت بشكل عجيب، فقد أضحى من الواجب حمايتها، وبالتالي زيادة أعداد الجنود. وكانت إسطانبول تعيد تسليح جيشها، وعلى مصر أن تفعل الشيء ذاته، بيد أنه لم يحدث أبداً أن تجرأت الحكومات المتعاقبة على سورية إجراء خدمة عسكرية إجبارية. فقد كانت القوات تتشكل من متطوعين، ولم يزد عددهم أبداً على فوج واحد. من أجل هذا سيرفض التجنيد الإجباري رفضاً قاطعاً من قبل الشعوب السورية، وحتى المقاتلة منها، وستصل مقاومة التجنيد حد التمرد والهرب والفرار من الجندية.

٦ ـ وسيكره أيضاً نظام السخرة.

وينضاف إلى كل هذه العوامل، عاملان آخران من أسباب الفتنة وهما:

١ ـ المؤامرات التي يحيكها الباب العالي بصورة منتظمة، والذي لم يتقبل أبداً فقدانه لباشوية سورية. والواقع أنه لايكاد يمر يوم دون أن يقوم أشخاص يعملون لحساب إسطانبول بكل ما يستطيعون لإثارة القلاقل، وتأليب مناطق بأكملها ضد حكومة نائب الملك. وكانوا يستخدمون بصفة خاصة غضب الأتراك، وأصحاب الحظوة فيما سبق، البدو والذين رأوا أنفسهم يجردون من الموارد الضخمة التي كانت تسهم فيها الضرائب المفروضة على القرى الحدودية وعلى الحجاج المسيحيين واليهود. وقد رأت هذه المؤامرات النور منذ سنة ١٨٣٣ غداة صلح كوتاهيا.

٢ ـ موقف القناصلة والعملاء الأجانب.

فقد كانوا يشكلون دولة في قلب الدولة، وقد استطونوا سوية دائماً. فنشروا في كامل التراب السوري روح بيع الذمم، والفوضى المالية، واحتقار السلطة. وعوض تيسير مهمة الحكومة المصرية الجديدة، كان القناصلة يبحثون عن إقامة عراقيل جديدة في طريقها والتي تهدف إلى تعقيد الإصلاحات الجارية. فبعضهم يحمي الكاثوليك، وبعضهم الآخر الأثودكس، في حين اختص الإنجليز بالدروز والبروتستانت.

وأقام إبراهيم ضدهم محضر اتهام أكده كامبل على الرغم من كونه عميلاً إنجليزياً «وبخصوص الاتهام الموجه من قبل إبراهيم باشا ضد القناصلة، فيمكنني أن أشهد عموماً بصحته، وأؤكد بأن الحكومة برهنت على اعتدال كبير بالامتناع كل هذه الفترة الطويلة عن الشكوى منهم».

وسرعان ما أفهم إبراهيم الهيئة القنصلية بأن زمن التدخلات المستمرة قد ولى من الآن فصاعداً، وبأن عليهم أن يكفوا عن اعتبار أنفسهم متحكمين في التدبير العمومي وكحماة لهذه الفئة السورية أو تلك، ولكن حصر اهتمامهم فقط على مصالح رعاياهم، وأن يلتزموا فيما عداهم بقوانين البلد.

وستلفي إدارة محمد علي أيضاً نفسها ويوماً بعد يوم موضع شكوى من قبل التمثيليات الأجنبية (عدا فرنسا)، والتي لم تهتم يوماً بأوضاع الشعب في عهد الهيمنة التركية، والتي أبدت اهتماماً زائداً فجأة منذ أن جاء المصريون...

وسرعان ما انطلق التمرد من القدس إلى موران، ومن جبال الخليل إلى جبال لبنان، وبدا أن البلد بأكمله مستعد للاشتعال. وكان الفلسطينيون أول من أعلن تمردهم.

واندلعت شرارة العصيان الأولى في شهر أيار من سنة ١٨٣٤. وتسبب فيه تجنيد الناس الذي أمر به إبراهيم بناءً على أمر من والده بتجنيد مائة وعشرين ألف رجل في أقرب الآجال. وقبل أن يحملوا السلاح ضد ابن الباشا، أرسل أعيان القدس ونابلس وفداً ليطلبوا منه إلغاء نظام التجنيد، إذ قالوا له «أطلبوا منا من المال ما تشاؤون مما نستطيع دفعه لكم، لكن لاتأخذوا رجالنا، واتركوا لنا

أبناءنا». غير أن إبراهيم لم ينصت لهم. وهكذا، تقف فلسطين كرجل واحد من حدود البحر الميت إلى جبال الخليل. وخلال أيام فقط، ، يسقط مركز المدينة تماماً بين يدي أحد الزعماء الثوار، الشيخ قاسم. وإذا أراد إبراهيم الحفاظ على مكانته، عليه أن يضرب بقوة وبسرعة. وهكذا يزيح عن طريقه كل المتمردين الذين حاولوا التصدي له في طريقه إلى القدس التي ينجح في دخولها في السابع من شهر حزيران لسنة ١٨٣٤، ويحرر الحامية العسكرية، ويدفع عدوه بعيداً عن بيت لحم. وبينما كان يهم بمواصلة تقدمه، يتناهى إلى علمه خبر أن أنصارية أنطاكية واللاذقية ثاروا في جبال العلويين. وكانت الحركة تهدد أن تمتد على طول منطقة الأمانوس وطوروس، وهنا تحديداً يعسكر الجيش التركي. ويمكنها إذا أرادت ذلك أن تقدم المساعدة للمتمردين. ولما علم محمد علي بالتطور الذي عرفته الأحداث يقرر أن يتدخل شخصياً.

فينطلق في الثامن والعشرين من شهر حزيران من الإسكندرية على متن المركب «التمساح»، مرفوقاً بجزء مهم من الأسطول المصري. هاهو ذا يكاد يبلغ عامه الرابع والستين، وينطلق إلى القتال مجدداً مثل سنوات شبابه الجميلة.

وتقمع الثورة في غضون شهر، وفي السابع والعشرين من شهر تموز، يعود نائب الملك إلى الإسكندرية، بينما ينزع سلاح كل من شارك في ذلك التمرد.

هدوء بسيط فقط...

فسيقوم خصم مخيف ضد إبراهيم. سيدة بالتحديد، الليدي إيستر لوسي ستانهوب، بنت أخت ويليام بيت الثاني، وحفيدة اللورد شاتام. فبعد أن جالت العالم، أتت تلك التي أطلق عليها لامارتين (سيدة قصر لبنان)، ومن ألهمت بيير بونوا في روايته، لتستقر في قلب المنطقة الدرزية. وهي امرأة متفوقة وجريئة تتمتع بطاقة عجيبة، أعجبت بالطبيعة البرية للبلاد، وسرعان ما رغبت بأن تلعب فيها دوراً سياسياً خدمة لمصالح بلدها. واختارت لها كمسكن عش نسر يهيمن على جنوب لبنان. وخلال مدة قصيرة، سيصير كل الزعماء الدروز

ضيوفها، ولم تكن ترفض لهم طلباً من أسلحة وذخيرة وكل ما من شأنه أن يساعدهم في معاركهم ضد الموارنة المتحالفين مع القوات المصرية. وكان الدروز المقدر عددهم بحوالي ثمانين ألف نسمة يعدون من بين المقاتلين الأكثر شجاعة، والأكثر فخراً ليس فقط في سورية ولبنان بل في الشرق كله من دون شك. وكانت أكبر مهمة يضطلع بها الأمير بشير دوماً، تجنب أن يتحول العداء التاريخي بين الدروز والموارنة إلى قتال. ومنذ أن قدم المصريون أضحت مهمته معقدة جداً، ذلك أن الموارنة سارعوا إلى التحالف مع النظام الجديد، بينما تبنى الدروز موقفاً مغايراً تماماً. ومثل هذا الاختلاف كان يسعد العملاء الأتراك.

وتنطلق بداية الأحداث الجديدة عند نهاية شهر تشرين الأول من سنة ١٨٣٦. ومرة أخرى، كان التجنيد السبب الرئيس. ولما علم إبراهيم بالاضطرابات التي أخذت تنتشر، يسارع إلى إرسال لواءين إلى لبنان للقيام بمثل ما قام به في فلسطين، نزع سلاح صارم. وعدت العملية في البداية نجاحاً كبيراً، ويتم التمكن من فرض السلطة المصرية في الجبل، غير أن هذا النجاح الذي يرجع أساساً إلى دعم الأمير بشير، لم يكن إلا ظرفياً، إذ سرعان ما سيختل النظام. ويكتب في هذا التاريخ، وكيل قنصلية النمسا أنطوان كاتافاغو «من المؤسف أن عمليات نزع السلاح، ومحاولة فرض التجنيد على اللبنانيين تتسبب في هذا الوقت في أزمة خطيرة جداً في لبنان. فكل الشعب، موارنة ودروز يعارضون هذه التدابير، وإذا لم يعدل إبراهيم باشا من نواياه، وإذا أصر على استخدام القوة لينزع من اللبنانيين البنادق، وليرسل أبناءهم إلى معسكرات التجنيد، ستندلع الثورة، وسنشهد حينها أحداثاً محزنة».

ولن يتأخر جزء من تنبؤاته في أن يتحقق، ولكن وعكس تأكيد وكيل القنصلية، تقف غالبية الموارنة بعيدة عن النزاع. وكانت الاضطرابات في الجنوب الأطول مدة والأكثر خطورة. ومرة أخرى، ينجح إبراهيم في إحلال

النظام بثمن باهض من الظلم والتعسف، لكن وسنتين بعد ذلك، تشتعل منطقة حوران مجدداً، إذ يظهر زعيم آخر من بين الدروز، وكان يدعى شلبي العريان. ففي أحد صباحات شهر كانون الثاني من سنة ١٨٣٨، وبمساعدة كبيرة من الليدي ستانهوب، يعطي العريان إلى مقاتليه الأمر ببدء أعمال التمرد، مجبراً إبراهيم على مواجهة المرحلة الأكثر حرجاً في إقامته في سورية، ذلك أن كل القوات التي أرسلها لمواجهة المتمردين أخفقت، وتزهق الكثير من أرواح أفرادها. فتطلب التعزيزات من القاهرة، فيجبر سيف الذي عاد إلى مصر للإشراف على معسكرات التجنيد، على العودة إلى سورية بسرعة. ويتلقى حاكم كريد، مصطفى باشا أيضاً الأمر بالالتحاق بإبراهيم في بيروت. وحوالي الخامس عشر من شهر نيسان لسنة ١٨٣٨، كان هناك حوالي ثلاثين ألف رجل تقريباً مجتمعين، غير أن هذا لم يكن كافياً للقضاء على التمرد، إذ أن القائد العام لم ينجح في استعادة الأمور إلا في أواسط شهر آب، فقد كان يلزم جيشاً من خمسين ألف جندي مكوناً من عناصر أتت للنجدة من الأناضول، والسودان ومن كريد والجزيرة العربية. وأسفرت الحملة التي دامت سنتين عن قتل الآلاف وجرح العديدين بجروح بليغة، وكميات كبيرة من الذخيرة، وتكاليف باهضة. ولم يعرف المصريون أبداً سواء في سيلان أو في قونية في مواجهة القوات العثمانية خسائر مماثلة.

[26]

استقلال الفرعون
أو الحلم المستحيل (١٨٣٨ ـ ١٨٣٩)

عندما كان ابن محمد علي يخوض معاركه، كان الأتراك من جانبهم يتقدمون من الجهة الأخرى لطوروس. وكانت قوات رشيد باشا التي أعيد تنظيمها أكثر من مرة تهم بنجدة المتمردين. وحدها فقط معارضة القوى الكبرى هي من منعت محمود الثاني المريض، وشديد الضعف من إصدار أمره إلى جيشه باستعادة القتال.

وفي القاهرة، يلفي محمد علي نفسه مرة أخرى في مفترق الطرق. وفي أثناء ذلك، وفي شبه الجزيرة العربية، كانت القوات المصرية تحت قيادة حفيديه أحمد وإبراهيم تفتح اليمن سنة ١٨٣٤. وعلى امتداد كل هذه السنوات، لم تتوقف الحرب في الجزيرة العربية، مرغمة الباشا على الانخراط في حروب لانهاية لها، مع ما تجره من تضحيات متعددة في الرجال وفي المال. ويكتب لافيزون في التاسع من شهر آذار لسنة ١٨٣١ إلى البارون روكمان «تعلن آخر الرسائل الواردة من مصر بأن محمد علي أُجبر على إرسال لواء مشاة جديد إلى اليمن لإعادة النظام إلى البلد، ذلك أن قبيلة وهابية قوية صارت مصدر اضطراب له حين هاجمت هذا الجزء من الجزيرة العربية، مع نيتها في نقل الدمار الذي تحدثه حتى موكا (. . .). وهكذا أعطيت الأوامر بأن تبدأ عمليات

تجنيد جديدة على كل التراب المصري، ويزعم أن الباشا يريد أن يصل عدد جيشه البري إلى مائة ألف جندي»[1].

ويرد محمد علي على قنصل فرنسا الذي حاول إقناعه بأن هذه القضية أضحت، «حربه الإسبانية» بل أسوأ، فهي «حملته الروسية». وكان رده أشبه بمثال إذ يقول «أسر جندي تركي آخر روسي، فيصرخ ضابطه في وجهه (قد إليّ أسيرك)، (لا يستطيع أن يأتي. . إذن تعالى وحيداً!» لكنه لايتركني «أنا ذاك الرجل، والحجاز أسيري الروسي».

من جانب آخر، مكنت زيارة الباشا القصيرة إلى ابنه في سورية إلى إدراك المؤامرات التركية المحاكة في الميدان ضده. وعند عودته إلى مصر، أكدت كل المعلومات التي وصلته من رجاله في إسطانبول وأضنة وحلب ودمشق، الانطباع الذي خلفته رحلته، وهو أن السلطان محمود يحترق ليستعيد سورية منه. ولما كان نائب الملك قلقاً ومغتاظاً لكل ما يتوقعه، فقد اطلع ابنه على رغبته في فضح نفاق العثمانيين للقوى العظمى، وذلك بتقديم براهين على أن الباب العالي يستعد لبدء القتال مجدداً، ويخلص كاتباً «إذا ما استطعنا ذلك، لدي أمل كبير في أننا سنفلح في كسر طوق التبعية الذي يحيط برقابنا».

ويرد إبراهيم الأكثر رزانة هذه المرة مما كان عليه في كوتاهيا «تكتبون إلي أنه يتعين علينا كسر الطوق الذي نحمله في رقبتنا لنحيط به أبناء إسطانبول. هل تذكرون يا أبي أنه عندما اقترحت عليكم شخصياً أن نتحرر من عبوديتنا، رددتم علي بأنكم تكتفون باسم محمد علي؟ ها أنتم تستعيدون اليوم فكرتي، لكن الظروف ليست متشابهة، فتحقيق مشاريعكم سيصطدم بصعوبات جمة. فللأتراك اليوم جنود يمكن مقارنتهم بجنودنا، فهجوم لأسطولهم ضد الشواطئ المصرية سيسبب لكم من المتاعب أكثر مما سيسببونه لي شخصياً. ولاننسى أنه يوجد الآن اتفاق بين تركيا وروسيا، فإذا هاجمنا الأتراك، ستشارك القوات الروسية في

---

(١) قطاوي. ١٩٣١. (مصدر ذكر سابقاً).

الدفاع عن إسطانبول، ولربما يذهبون أبعد من ذلك. فقبل أن نقرر القيام بخطوة جديدة، علينا أن نأخذ في حسباننا كل النتائج التي يمكن أن تتمخض عن ذلك. لقد ارتكبنا أخطاء في الماضي، وعلينا ألا نكررها في المستقبل»[1].

لكن هذه التحذيرات لن تثني محمد علي على رغبته التي تسيطر عليه، وهي استقلال مصر. الاستقلال مهما كلف من ثمن. وعلى أي، ظلت هذه الفكرة لصيقة به طيلة مشواره، وكان محتماً أنه سيأتي يوم لتتحقق ولتبحث لنفسها عن تأكيد.

والواقع أنه ومنذ إبرام اتفاق إنكيار سكيليسي، أضحى من المستحيل على الباشا الاكتفاء بالوضع الراهن المفروض عليه من قبل أوروبا وروسيا، والذي يقوّض مالية مصر، ويترك محمد علي في الشك المطلق بخصوص مستقبل عائلته، ومآل البلد الذي يحكمه. ويبدأ باختبار موقف الحكومة الفرنسية طالباً دعمها، غير أن فرنسا التي تكره التعقيدات التي يمكنها أن تجرها عليها وعلى أوروبا إعادة النظر في الوضع الراهن، تبدي معارضتها لتظلماته. لكن محمد علي يلح في طلبه مدركاً النتائج الكبيرة التي يمكنها أن تنجم عن الحرب ليس فقط في الميدان الذي تدور فيه رحاها في الشرق، ولكن أيضاً هناك في أوروبا. ذلك أن النتائج المحققة والمزايا المحصل عليها والصعوبات التي واجهها والأخطار المحدقة به، كل شيء يدعوه ليريد استقلاله، وكل شيء يساهم في جعله أقل صبراً يوماً بعد يوم ليضمن استقلاله. وكان يرمي من خلال حصوله على استقلاله، أن يتوج وهو على قيد الحياة العمل الرائع الذي قام به. وقد فسر الأمر إلى القنصل الفرنسي بمنتهى الصراحة، إذ قال «لم أكرس حياتي كلها لمصر لأخلف ورائي المتعة لباشا تركي»، وهو يرغب في الاستقلال أو في حق الوراثة لمصلحة الإرث نفسه، ولم يوحي له هذا نتيجة لاعتبارات أسرية بل كانت رؤية رجل دولة، ثم ألم تكن رغبته في النهاية مشروعة؟

---

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

ويقوم بوكلر موسكو بتحليل صحيح للوضع، ولو أنه يبدو قد أغفل بعض الجوانب عندما يكتب «ألم تكن اليونان من ممتلكات السلطان مثل مصر تماماً؟ لكن هل الملك أوثون تابعاً للباب العالي؟ ألم يكن للسلطان الحقوق نفسها على الجزائر التي هي له على مصر؟ هل يعترف لويس فيليب بسيادة الباب العالي على البلد لأنه كان يمارسها في السابق على الداي؟ أليس لمحمد علي سلطة تقوم على أسس صلبة، و يعد لحد الآن ملكاً أكثر حرية، وأكثر احتراماً في البلاد التي يحكمها من الملك أوثون في اليونان والفرنسيين في الجزائر، أو حتى من السلطان في إمبراطوريته نفسها؟» غير أنه عندما يضيف «لو أنه استفاد من الوقت المناسب، وبعد أن انتصر في معركته وأخذ كفاتح اللقب الذي يلائم الواقع، وبيد قوية، وضع التاج على رأسه من المحتمل أنه ماكان السيف أو الدبلوماسية لينجحا في تجريده منه أو حتى يحاولا القيام بذلك. لكن البحث عن طريق المفاوضات ما أهمل القيام به بالجرأة كان ضعفاً محزناً، وجعل النجاح مستحيلاً حتى ولو ملك كل حجج العالم بين يديه». ويختم متوجهاً بحديثه إلى محمد علي «ما ترفض قبوله الآن، لن يعيده لك الزمان أبداً».

ويبدو أن الأمير نسي بأن الباشا لم يكن في نيته أبداً تجاوز الخط الفاصل بين أحلامه والعمل القائم على خلع السلطان محمود. إضافة إلى ذلك، كان إبراهيم على بعد خمسين ميل من البوسفور في وقت كان السلاح يشحذ في أوروبا.

السير على غير هدى

وإذا كان محمد علي قد بحث طويلاً عن تأجيل ووقف الاندفاع الذي لايقاوم، والذي يدفع به نحو قصر السلطان، فمن المحتمل أنه كان مقتنعاً بأن الأمم الغربية ستنتهي إلى إدراك كل السخف القائم على إبقاء هذه الإمبراطورية العثمانية المحتضرة، على قيد الحياة، عندما كانت سلامتها مجرد غواية، وأنه ما إن تصل إلى هذه القناعة حتى تحول أنظارها إليه. من جهة أخرى، إذا لم يثر قضية استقلاله منذ التوقيع على اتفاق إنكيار سكيليسي فلأنه كان مقتنعاً في

قرارة نفسه بأن الحرب بين فرنسا وإنجلترا من جهة، وروسيا من جهة ثانية كانت أمراً محتماً. وبهذا كان يستبق الأحداث بعشرين سنة.

فمنذ سنة ١٨٣٣، يرسل إلى باريس ولندن مذكرة مدهشة يعدد فيها كل الوسائل التي يتوفر عليها شخصياً بصفته نائب الملك للدفاع عن الإمبراطورية العثمانية، ويعيد الحياة إليها. ثم يعرض مشروع وحدة تجمع بين دولته وبلاد فارس... ضد روسيا. ولم يخلف هذا إلا ابتسام أعضاء الحكومتين. ويرجع الدوق دو بوغلي ذلك إلى «الخيال الشرقي جداً». فترد عليه الحكومتان بأنه مخطئ، عندما يفترض حرباً ممكنة بينهما وبين روسيا، وبأنه سيضل إذا ما استمر في مثل تلك المزايدات. والواقع أنه إذا ما وضع هذه الفرضية، فلأنه كان يستبق رؤية نفسه، يستغل الفرصة المناسبة ليعترف باستقلاله. ولنقر رغم كل شيء، بأن مشروعه ما كان ليبدو غريباً عشرين سنة بعد ذلك، عندما ستلفي أوروبا نفسها في حرب شبه جزيرة القرم من سنة ١٨٥٤ إلى سنة ١٨٥٥. وهكذا يتشكل ويعاد تشكل الإدراك البشري...

ولا يمكن لمحمد علي اليوم إلا الاعتماد على حكمة القوى العظمى، وهو مجبر على تغيير موقفه. وأحد الأسباب التي تدفعه إلى ذلك كان بسيطاً، وهو أن الوقت يضغط عليه. ففي سنة ١٨٣٨، كان يبلغ من العمر ثماني وستين سنة، ولم يعد إلا رجلاً يعد الوقت المتبقي له، والذي يدرك أن كل ساعة تعد بمثابة حياة بالنسبة له.

ونزولاً عند أمره، يوجه بوغوص باي وزيره للشؤون الخارجية المذكرة التالية للقنصل العام للنمسا، عميد الهيئة القنصلية بالقاهرة أن:

«وصلت إلى علمكم من دون شك، التدابير العدائية التي أظهرها الباب العالي أخيراً. فهو يجمع منذ عدة أشهر، ومن دون سبب ظاهر، جيشاً بسيواس[1] تحت قيادة رشيد باشا على الرغم من أن صاحب السمو نائب الملك أرسل إلى

(١) تقع سيواستيا أو ميغالوبوليس وسط تركيا على ارتفاع قدره ألف ومائتان وخمسة وسبعون متراً. =

إسطانبول مندوباً ليجدد المحادثات المتعلقة بالضريبة التي يجب على مصر دفعها إضافة إلى إخلاء أورفا المحتلة مؤقتاً من قبل إبراهيم باشا للتصدي لهجمات بعض القبائل المتمردة. وقام الباب العالي بتوزيع السلاح والذخيرة والمال عن طريق بعض الباشوات السابقين الذين حكموا بعض المناطق إلى سكان نابلس والحرمون والقدس لتشجيع التمرد الذي تلزم أسابيع كثيرة للقضاء عليه بعد اندلاعه. وبعد أن أحيط نائب الملك علماً بهذه التصرفات العدائية التي يقوم بها الباب العالي، أعد مذكرة لممثلي القوى العظمى يعلمهم فيها بأنه مجبر على إعلان استقلاله، لأن الباب العالي لايهدف إلا إلى تدمير قوته سلطته السياسية. ووحده الانفصال النهائي بين الدولتين التركية والعربية يمكنه أن يجنب عاصمتيهما النتائج المشؤومة لحرب أهلية ولتدخل أجنبي.

وفي حال تم الاعتراف باستقلاله، سيكون باستطاعة سموه أن يعيد تنظيم ماليته، ويجند جيشاً قوامه مائة وخمسون ألف جندي نظامي مدرب بشكل جيد، وبالتالي يقدم مساهمته في المهمة الكبرى التي ترمي إلى إنقاذ تركيا من التدخل الروسي»[1].

أما الضريبة المذكور أعلاه، فلم يدفعها محمد علي للآن، ويتعهد بأدائها في السنة الجارية. وبحسب كوشلي قنصل فرنسا الجديد في الإسكندرية، فهو ينوي أن يمنح الباب العالي في السنة القادمة ستمائة ألف بورصة، وهو مبلغ ضخم، لكن شريطة أن يقبل السلطان اعترافه باستقلاله. ويختم أنه في حال رفضه، فسيقدر أنه معفى من كل تبعية.

ويبقى مع ذلك أن الرسالة التي أملاها محمد علي على بوغوص باي، أعادت المشكلة من جديد إلى الواجهة، وفي الوقت نفسه، جعلت من الممكن أن تتدخل روسيا من جديد.

= برهنت حفريات حديثة بها على وجود آثار حيثية.

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

وفي يوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٣٤ أي أربع سنوات قبل ذلك، أوضح الكولونيل ديهاميل مساعد القيصر موقف بلاده «الصراحة التي وعدت بأن أعتمدها في كل علاقاتي مع سموكم، تدفعني أيضاً بأن أقول له بالمقابل، وبدون مواربة بأنه إذا أقلق أي طموح أو نصيحة سيئة السلام من جديد في الشرق، وذلك بإعادة احتلال آسيا الصغرى مرة أخرى، فستجدون لدى روسيا المعارضة نفسها لخططكم التي لقيتموها حتى اليوم» [١].

وفي شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٣٧ ومباشرة قبل الرحيل عن مصر، أعاد ديهاميل توجيه تحذيراته «لاتنتظروا أي دعم من قبل القوى العظمى، فهناك إجماع في نواياها التي أعلنتها في السابق، وقامت بذلك أخيراً أيضاً، فيما يخص الحفاظ على الوضع الراهن. وفيما يتعلق بملكي العظيم، فلن يشجع أبداً التمرد الذي تهددنا به. وإذا أعلنتم الاستقلال، والذي يعني إعلان الحرب، لن تتأخر النجدة الروسية للسلطان في القضاء عليكم» [٢].

من جانبه، يلخص الكونت ميديم[٣] خليفة ديهاميل[٤] في العشرين من شهر آذار لسنة ١٨٣٨ إلى نسلرود المحادثة التي أجراها مع نائب الملك، وهذا مضمونها:

«محمد علي: أؤكد لكم بشرفي، وبديني بأنه في اليوم الذي ستمنح لي الضمانة بألا يهاجمني الباب العالي، سأستدعي ثمانين ألف رجل من سورية، ولن أترك بها إلا حاميات، وستسلح قواتي هناك بالفؤوس والمعاول عوض

---

(١) ريني قطاوي في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «أهمية الوثائق الروسية لمعرفة حكم محمد علي». قدمت في جلسة في المعهد المصري في السادس من شهر نيسان لسنة ١٩٣٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تشرف ميديم باحترام محمد علي ونجح في كسب صداقة إبراهيم، وكان أحد أنصار نائب الملك، والذي لم يكن يتوافق دوماً مع سياسة سان بيترسبورغ.

(٤) كان الكولونيل ديهاميل عميلاً روسياً من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٧، وميديم من سنة ١٨٣٧ إلى سنة ١٨٤١.

البنادق. وسيجندون لمد القنوات. . . وإذا قبلت القوتان البحريتان منحي استقلالي، أو على الأقل حق التوريث لعائلتي، وإذا رأت أن ذلك هو الضمان الوحيد لأي سلام قادم، هل سيمنح صاحب الجلالة الإمبراطور رضاه على تدبير مماثل؟

ميديم: هذه قضية خارج الموضوع. . .

محمد علي: حسناً! ألست تابعاً مطيعاً؟ قل إذن لماذا لاتعترف البلاطات الأوروبية التي قبلت بفصل أمريكا واليونان، وأخيراً بلجيكا، بفصل مصر؟ أعطني مثالاً من التاريخ عن تابع بمثل قوتي اكتفى بدور المواطن، ولم يلسعه نير الطاعة. من المجحف إذن إبقائي عليها مدة أطول» [1].

فلنعترف أنه وبغض النظر عن المنطق الذي يبرهن عليه نائب الملك السؤال الذي طرحه «ألست تابعاً مطيعاً؟» جدير بالكوميديا التراجيدية.

على أي، ووفاء منه لمنطقه، يعلن لكوشلي «ألم أصرف مبالغ طائلة، وأهتم بمؤسسات واسعة، وأنشئ بحرية كبيرة، وأفتح القنوات، وأقم بأشياء أخرى عديدة لأترك خلفي كل أهلي في البؤس لأنه كان الأفضل لي أن أجعلهم أغنياء إذا لم أكن أعتقد أنهم سيعوضونني. أنا رجل كبير السن، وأريد أن أضمن أن تنتقل إلى أيديهم القوة التي أنشأتها[2] ».

وفي بداية شهر نيسان من سنة ١٨٣٨ يوجه سفير فرنسا تحذيراً إلى الديوان بعد أن تقدمت القوات التركية لعدة كيلومترات نحو طوروس. وتنضم إنجلترا إليها في الاحتجاج، وإن بصورة أكثر اعتدالاً. أما روسيا، فاكتفت بإغلاق عينيها.

وفي ظل هذا السياق الخارجي تقوم حركة داخلية. فخلال سنة ١٨٣٨ نفسها، يقوم العلماء الذين يغذون عادة قرارات محمد علي برجائه بأن يعلن

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) المصدر نفسه.

استقلاله، ويقسمون أنه يمكنه الاعتماد على طاعتهم العمياء وإخلاصهم. وبهذه الحركة، سيشكلون ودون إدراك منهم، حملة مشعلى بداية الحركة الوطنية المصرية.

أما في أوروبا، فقد أخذ القلق يتزايد. وفي السادس من شهر حزيران لسنة ١٨٣٨، يرسل الكونت مولي الذي خلف بروغلي في الشؤون الخارجية، تعليمات لايوجد ما هو أكثر وضوحاً منها إذ يكتب له «لو تفضلتم بإخبار نائب الملك بأنه يقع في خطأ كبير عندما يفترض الوسائل التي تضعها القوى العظمى كعقبة أمام خططه، لايخشى شيئاً من أن يشير مسبقاً إلى عدم نجاعتها. ولدينا نحن، القناعة بأن هذه الوسائل التي لن تتردد فرنسا وإنجلترا في استخدامها، على العكس من ذلك ناجعة تماماً، وصالحة جداً في جعله يندم على سلك طرق لن يجد فيها إلا المهلكة له، وأسباب دماره»[1].

بالمرستون الرجل الحديدي

كان لإنجلترا سياستها المحددة سلفاً، وكان على رأس وزارة الخارجية منذ ثماني سنوات أحد أكبر رجال الدولة البريطانية في القرن التاسع عشر، يتعلق الأمر بهنري جون كامبل، الفيكونت الثالث لبالمرستون، وهو الملهم الحقيقي إن لم يكن الملهم الوحيد للسياسة الخارجية الإنجليزية ما بين سنتي ١٨٣٠ و١٨٦٥. وتوجه اختياراته فقط بعظمة بلده، والوطنية تقف سنة ١٨٥٠ حلف الجملة التي ستبقى شهيرة بعده «وكما أن الروماني قديماً يمكنه أن يقول أنا روماني مدني، فإن البريطاني يمكنه أن يعتمد على القوة الإنجليزية لحمايته حيثما تواجد».

فكل رؤيته السياسية تقوم على أساس الزهو البريطاني، وعلى ثلاثة مبادئ والتي يطبقها بصرامة ومن دون تأخير على امتداد فترة تقلده للمسؤولية:

---

(١) المصدر نفسه.

١ ـ رفض لكل زعامة سياسة على القارة، ومن هنا تولد الحذر الدائم تجاه فرنسا حتى في فترة الاتفاق الودي الأول.

٢ ـ احترام أنظمة الحكم الموجودة.

٣ ـ توازن القوى العظمى، وبالتالي، على إنجلترا رفض كل التزام دائم وكل تحالف في أوقات السلام.

ففي رسالة له مؤرخة بالخامس من شهر حزيران لسنة ١٨٣٨ أرسلها إلى الكونت غرانفيل سفيره في باريس، يشير فيها بالمرستون إلى الاستراتيجية التي يريد نهجها بخصوص قضية الشرق:

عزيزي غرانفيل

إن رسالتكم المتعلقة بمصر مهمة، وهي تتوافق من جهة أخرى مع الأخبار التي تصلنا. (. . .) ورأيي الشخصي الذي كونته منذ مدة طويلةن وهي أنه يتعين علينا أن نستند إلى السلطان بجدية وبصرامة مع فرنسا إذا كانت تود العمل معنا، وبدونها إذا رفضت[١].

وتبدو رسالته المؤرخة بالثامن من شهر حزيران أكثر توضيحاً إذ يكتب:

عزيزي غرانفيل

ليس لدي من وقت إلا ما يكفي لكتابة هذه السطور المتعلقة بمحمد علي ومصر. فقد قرر مجلس الوزراء أمس بأنه لاينبغي ترك محمد علي يعلن استقلاله، وفصل مصر وسورية عن الإمبراطورية العثمانية. فالمجلس يرى بأن نتيجة إعلان مماثل من جانبه، سيقود مباشرة أو في المستقبل القريب، إلى نزاع بينه وبين السلطان، حيث من المحتمل جداً في مثل هذا النزاع أن تُهزم القوات التركية، وعند ذلك سيهرع الروس لنجدة السلطان لتحتل حامية روسية

---

(١) اللورد بالمرستون. رسائل خاصة. لندن.

القسطنطينية والدردنيل. وإذا ما ضم الروس هذين المكانين، فلن يغادرونهما أبداً. فنحن إذن مستعدون إلى تقديم مساعدتنا البحرية إلى السلطان ضد محمد علي إذا كان ذلك ضرورياً، وإذا طلب منا ذلك. وسنرسل في الحال أسطولنا في البحر الأبيض المتوسط إلى الإسكندرية لإعطاء محمد علي إشارة واضحة وملموسة إلى القرار الذي وصلنا إليه. ونرغب في أن يتحرك الأسطول الفرنسي إلى هناك في الوقت نفسه، إذا كان الفرنسيون يريدون إرساله.

ما أريده، وما أظن أن مجلس الوزراء سيقرر تبنيه، هو اتفاق مكتوب في بضع كلمات بين إنجلترا وفرنسا من جهة، وبين تركيا من جهة أخرى، والذي من خلاله يتعهد الطرف الأول بتقديم نجدة بحرية لوقت محدود في حال طلبتها لحماية أراضيها ضد أي هجوم، والذي يكون نصه محرراً بطريقة تفهم من خلالها حالتي روسيا ومحمد علي.

(...) علينا ألا نغفل بأن الجزء الكبير الذي يتهدد أوروبا يكمن في إمكانية التوافق بين فرنسا وروسيا، وهو توافق مهما بدا صعباً الآن، بفضل المشاعر الشخصية للإمبراطور نيقولاس يمكن ألا يظل مستحيلاً. وسيكون من الجيد مراقبة سياسة فرنسا فيما يتعلق بشؤون الشرق، مادام ذلك في استطاعتنا[١].

ونلاحظ أنه وحتى حدود الساعة، تبدو الرؤى الفرنسية والإنجليزية غير متباعدة بينما على كل شيء أن يفرق بينهما.

ويرسل مولي من باريس في نهاية شهر تموز من سنة ١٨٣٨ مذكرة إلى كوشلي موجهة إلى بوغوص باي، وأضحت اللهجة أكثر حدة: «إن حكومتنا عازمة بإصرار في حال مضى نائب الملك قدماً في مشروعه أنها لن تأخذ في اعتبارها الوضعية الجديدة لمحمد علي فقط، بل أيضاً تعلن على أنها ستنظر لهذا الأمر كما لو أنه لم يقع، وأنها ستحضر كافة الوسائل التي تتوفر عليها لوضع العراقيل أمامه، وذلك بالبدء بإرسال أسطول أمام الإسكندرية، وعلى

---

(١) المصدر نفسه.

الشواطئ السورية». وتنتهي المذكرة بطلب رد حاسم تقطع من خلاله كل الشكوك.

وسببت هذه المذكرة لمحمد علي خيبة أمل عميقة. ويكتب كوشلي «كان علي أن أعرب لمحمد علي في هذه المؤسسة، إذ كان الرجلان قد تقابلا في الترسانة التي أنشأها سيرسي، التي أقامها فرنسي والتي تبرهن خاصة على القوة الكبيرة لمحمد علي، وأبين له كم كانت هذه القوة ضعيفة في مواجهة معارضة فرنسا وإنجلترا اللتان تضعانها للحيلولة دون تحقيق مشاريعه. استقبلني في جناح خشبي صغير يقع على شاطئ البحر، والمحاط بكل المنشآت الحربية التي كانت في طور البناء. وأخذ وجه نائب الملك يتقلص وهو ينصت إلى ترجمة رسالة الوزير مولي، وضغطت يده بقوة على مقبض سيفه، غير أن أياً من كلمات الاستياء لم تتسلل من فمه»[1].

وبالموزاة مع ذلك، سلمت إلى بوغوص باي مذكرة من اللورد بالمرستون، يعلن فيها أنه إذا شرع محمد علي في تنفيذ نيته، وإذا اندلعت الحرب بينه وبين السلطان، فإن إنجلترا ستقف إلى جانب السلطان مادامت قد قررت منع تفكيك الإمبراطورية العثمانية. وكان بالمرستون هنا يطبق السياسة المعلنة إلى غرانفيل.

وخلال الشهر السابق، كان ميترنيخ قد اقترح على بالمرستون القيام بعمل متفق عليه بين القوى العظمى بما فيها النمسا والذي قد يقودها إلى إرسال قوات بحرية إلى الإسكندرية. وإضافة إلى ذلك، أطلق فكرة مؤتمر يعقد في لندن يجمع بين القوى سالفة الذكر حول طاولة واحدة.

وكان بالمرستون قد وافق على المشروع، مادام أنه أشار إليه على اعتبار أنه أمنيته الشخصية في رسالة موجهة إلى باريس في السابع من شهر تموز «نرغب وسيباستياني بأن يجتمع ممثلو لندن حيث نتطرق للمسألة ونقترح عليهم نظاماً متفقاً عليه للعمل، مشيرين إلى أنه إذا احتاج الباب العالي إلى مساعدة برية أو

---

(١) هانوتو. (مصدر ذكر سابقاً).

بحرية، ستقدم القوى العظمى البحرية المساعدة البحرية، والنمسا المساعدة العسكرية»[1].

ونتيجة لذلك، يكلف قنصله في الخامس من شهر آب بتهديد الباشا بـ «المساعدة التي ستقدمها أوروبا إلى السلطان في حال قيام نزاع».

ومع ذلك، يقوم نائب الملك في مذكرة موجهة إلى القناصلة العامين بمحاولة أخيرة، لكن يبدو في هذه المرة أنه يكتفي بحق التوريث. ويلخص نيسلرود مضمونها في السادس عشر من شهر آب «إن الباشا مرتاح دوماً للنوايا الطيبة للقوى الأربعة الكبرى تجاهه، ويأسف لرؤيتها الآن تعارض خططه، لكنه ينتظر بثقة عودتها إلى عواطف أفضل. من جهة أخرى، يأمل بأن تحل قضية حق التوريث حلاً إيجابياً، وسيكتفي بسلك طريق المفاوضات في حال حصل على حل توافقي لها، لكنه وإذا لم ينجح في ذلك، وإذا أجبر على اللجوء إلى السلاح، فإنه سيعلن عندئذ عن استقلال مصر. وهو عازم على عدم تسليم نفسه للباب العالي عن طريق القوى العظمى الأوروبية. إنه رجل مسن، ولربما ليس له ما هو أفضل من الموت بشرف في الحرب عوض ترك عائلته وخدّامه وكل هذا الشعب الذي عمل كثيراً من أجله، لمصادفات الأحداث. وكان قد أجبر على امتداد حياته على إراقة الدماء للوصول إلى ما حققه، وللحصول على ما يملكه، وهو لايريد لهذا الدم أن يذهب عبثاً.

ويعلم جيداً أنه إذا اتفقت القوى العظمى على القضاء عليه فسيُقضى عليه. وله من الحظوظ خمساً وتسعين في المائة ضده، وخمسة فقط له. لكن ذلك لايهم! ففي الحرب، لاتكون الحظوظ دوماً مؤكدة، وإذا وجهتها الصدفة لصالحه، فسيترك للقوى العظمى عناية تقدير نتائج نصر لن يكون لأحد الحق أن يستصيغه»[2].

---

(١) بالمرستون. (مصدر ذكر سابقاً).

(٢) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

وفي اليوم نفسه، ينهي اللورد بونسونبي الذي كان يحمل لنائب الملك كراهية كبيرة، معاهدة تجارية مع تركيا، يتعهد من خلالها الباب العالي بإلغاء الاحتكار مقابل الرفع من الحقوق الجمركية[١]. وعندما نعلم بأن كل الاستراتيجية التجارية لمحمد علي لاتقوم إلا على هذا النظام، يمكننا أن نتخيل بسهولة النتائج المترتبة عنها بالنسبة للباشا. فعلى التاجر الكبير الذي يمثله محمد علي أن يتخلى عن الامتيازات في التجارة المصرية والسورية.

ولما سئل الباب العالي عن الأسباب التي دفعته إلى إقامة هذه الاتفاقية من دون مشاركة القوى العظمى الغربية، رد بأنه يرمي من خلال ذلك إلى توحيد مصالح بريطانيا العظمى مع مصالحه ضد باشا مصر. فالبارحة ألقى السلطان بنفسه في أحضان سان بيترسبورغ، ويلجأ اليوم إلى أحضان لندن. والواقع أن كل الوسائل المقدمة له جيدة مادام يستطيع تسجيل نقاط على تابعه. ويجب القول بأن محمود الثاني الذي هده المرض لايستطيع أن يبقيه واقفاً على رجليه إلا فكرة الانتقام، إذ كان الموت يقف على رأسه مترقباً، لكنه يواجهه بنوع من اليأس على أمل مشاهدة تابعه ولو للحظة قصيرة فقط عند قدميه.

وكان العمل الوحيد الذي يمكن السلطان من تعديل موقفه هو إعادة سورية له من قبل محمد علي. وعندما أشار وكلاء القنصليات إلى هذه الفرضية أمام نائب الملك، كان يرد بالجواب نفسه: «هناك طفل في صراع مع أفعى، فكان له الحظ في سحق ذيلها، وتقوم أمه خشية من غضب الأفعى بعمليات مصالحة، فتقول الأفعى بلى، فليرد لي ذيلي وسنكون صديقين!» ففي عيني محمد علي، كان احتمال إعادة سورية أمر غير ممكن حتى التفكير فيه، ومع ذلك، فالأوضاع الاقتصادية لمصر كانت تمضي من سيء إلى أسوأ.

ويوجه السيد كوشلي تقريراً وصف بالطول، ويتعلق بالأوضاع المعيشية في

---

(١) من ثلاثة في المائة إلى إثني عشر في المائة. لم تطبق المعاهدة في مصر إلا جزئياً بعد سنة ١٨٤١.

وادي النيل «فالوضع الحالي لهذا البلد يبعث على الحزن. فالمالية مستنزفة، ولم تعد العائدات تكفي للنفقات، ولم تؤد رواتب الموظفين من مدة طويلة، ولسنة لم يتسلم أفراد الجيش رواتبهم، ولسنتين بالنسبة لأولئك في الجزيرة العربية. والمحصول الأكثر غزارة، محصول القطن الذي كان يلبي جزءاً من حاجات مصر، عرف تراجعاً كبيراً. والتجارة في وضع حرج ومؤلم بشكل لايمكن تصوره. فكل الموارد في الرجال والأموال وجهت إلى الجيش وإلى البحرية. فهذا النزاع المتواصل الطويل بين الباب العالي ومصر يجفف كل موارد النماء والتجارة».

وحوالي منتصف شهر أيلول من سنة ١٨٣٨ قام قنصلا إنجلترا وفرنسا بمسعى مشترك لدى الباشا، فيرد عليهما بأنه آسف للمعارضة التي يبديها بلداهما لإرادته في الاستقلال، لكنه يضيف بأنه يأمل بأن تحل قضية حق توريث الحكم لأبنائه بطريقة إيجابية، ثم يختم بالقول «بأنه يحصر أمله ورغبته من الآن على هذا الهدف».

يتيم فرنسا

وتستمر السلطات الأوروبية مصرة على مواقفها، فيقرر الباشا إطلاق استعداداته العسكرية. ويكتب كوشلي «يقوم محمد علي بعملية تسليح مهمة. وأظهرت له مواقفنا بصرامة كبيرة، وهو يرى بوضوح بأنه بالنسبة لنا، فإن «الوضع الراهن» فكرة ثابتة، وبأن سياستنا في الشرق لم تقم بأي خطوة منذ صلح كوتاهيا»[1].

من جانبه، يصر بالمرستون الذي كان يدرك أن أول من يفتح النار سينظر إليه بشكل سيء من قبل القوى العظمى، في الثالث عشر من شهر أيلول لدى سفيره في إسطانبول بأن يقوم هذا الأخير بكبح جماح السلطان.

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

أجريت محادثة قبل وقت قصير مع بيثي باشا (سفير تركيا في لندن)، فزودته بأفضل النصائح التي أستطيع تقديمها لحكومته وبلده. وسعيت بكل حرارة لأبرهن له درجة الرغبة الكبيرة في أن يمتنع السلطان عن مهاجمة محمد علي، لأنه، ومن المحتمل جداً أن يكون جيش الباشا في الوقت الراهن أفضل أو على الأقل في مستوى جودة جيشه نفسها. وأخبرته بأنه يتعين على الباشا أن يهتم بتنظيم جيشه، وقواته البحرية وتحسين دخله حتى يتمكن من إخضاع محمد علي بقواه الذاتية.

ويمكن تخيل ما شعره ابن كافالا جراء التمزقات الداخلية والمرارة والإحساس بالعزلة والغبن. فهاهي ذي فرنسا تتخلى عنه، وتعرضه إنجلترا إلى ابتزاز حقيقي، في حين أن النمسا كانت تراقب، هذا في وقت كانت فيه روسيا تنتظر خطف حصتها.

وكانت الأمور على هذه الشاكلة عندما حدث فجأة تطور مسرحي لم يكن لشيء يتركه أن يتوقع، فقد قرر محمد علي أن يترك مصر قاصداً السودان. ووصف عدد من المراقبين هذه الحركة بالمهزلة، في حين عزاها البعض إلى تعبه الشديد، وأرجعوها لفضول الباشا الشره، وهو فضول يدفعه إلى اكتشاف منابع النيل الأبيض قبل أن يُقضى، في وقت تذهب نظرية أخيرة بأنه يريد بكل بساطة إقامة جرد ميداني للاحتلال المصري. لكن من يعلم الحقيقة؟

مهما يكن الأمر، فقد ركب البحر في الخامس عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٣٨ رفقة القنصل اليوناني توسيزا، ولومبير ولوفيبر وبورياني وأحمد أفندي وبعض المهندسين المصريين. وسيدوم سفره حتى الرابع عشر من شهر آذار لسنة (١٨٣٩)(١). ويكتب كوشلي «كان لرحيل الباشا مظهر احتفالي،

---

(١) كتب العديد من الكتاب حول هذه الرحلة لكن الوثيقة الأقرب للتصديق تبقى تلك المنشورة باللغة التركية في «الجريدة الرسمية المصرية» بتاريخ السادس من شهر سفر سنة ١٢٥٥ هجرية الموافق للحادي والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٨٣٩. صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

موجب للتعاطف. فرؤية رحيل هذا الشيخ الذي اجتمع ابنه سعيد باي وكل خدامه على ضفة النهر يقبلون يده وثيابه وحتى قدميه، يمنح الإعجاب بقوة الروح والشخصية التي يبديها، لحظة افراق مؤلم، والذي سيكون طويلاً، ولربما يكون أبدياً. ويغض النظر عن الروعة المتصلة برحلة الاستكشاف إلى قلب إفريقيا التي يقودها شيخ يبلغ من العمر سبعين سنة، والذي انداح صيته في العالم، إذ رفع مصر إلى مستوى عال من العظمة، فقد كان هذا السفر يتميز بخاصة بالنتائج التجارية التي يمكن أن يحصلها، وبالنفوذ الذي سيمارسه على المدنية داخل إفريقيا» [1].

ولئن لم تقدم الرحلة إلى السودان أياً من النتائج الاقتصادية و «الثقافية» المقدرة أعلاه، فإنها بالمقابل لعبت قليلاً في مصلحة الباشا على الأقل فيما يخص فرنسا. وبالفعل، فخلال غياب نائب الملك حدث تغيير، وحدهم رجال السياسة يعلمون سره، داخل حكومة لويس فيليب والتي تشعر فجأة بصحة المطالب المصرية وخاصة للضغوط التي تستمر السياسة الإنجليزية في اتباعها لفائدتها وحدها في إسطانبول.

وهكذا فإن الكونت مولي يقرر فجأة عدم معارضة تدخل بحري أوروبي ضد محمد علي (خطة ميترنيخ)، ولكنه يقترح على حكومة سان جيمس بأن تحاول القوى الغربية إقناع نائب الملك بأنها ستستخدم طوعاً كل جهودها من أجل الحصول على حق التوريث بالنسبة لأبنائه. ويختم شارحاً بأن تحطيم قوة محمد علي ليس بالأمر الذي يتمناه أحد مادام الباشا يمثل بصورة أو بأخرى عقبة أمام طموح روسيا.

ويعارض اللورد بالمرستون هذا الأمر عن طريق وكيله السيد أستون قائلاً بأن الوقت غير ملائم لإنجلترا أو لفرنسا لتجديد مفاوضات مع السلطان قامتا بها منذ فترة قصيرة فقط أثناء القضية السورية. وبالنسبة له، فالأمر هنا يتعلق بشأن

---

(١) هانوتو. (مصدر ذكر سابقاً).

داخلي، والذي لاينبغي للقوى الأجنبية التدخل فيه إلا إذا تمت دعوتها لذلك من قبل إسطانبول. ولما كان وفياً دوماً لمبادئه، فقد كان مقرراً تجاوز أمر مباركة فرنسا، مثلما يكتب إلى هنري بولوير وكيله في إسطانبول في الفاتح من شهر أيلول لسنة ١٨٣٩ «تسعى مراسلاتي الأخيرة التي وجهتها لكم أن تحمل الفرنسيين على اتخاذ قرار. وسيرون من خلال هذه المراسلات بأنه وعلى الرغم من رغبتنا في الاستمرار في المسير معاً، لسنا مستعدين أبداً للبقاء ثابتين معهم».

ويؤكد في الرسالة نفسها دون أن ينخدع بضعف ملك الفرنسيين وغياب سيطرته إذ يقول «لاأستطيع تصديق أن لويس فيليب قادر على القرار الأخير الذي ينبني على وضع العقبات أمامنا».

بيد أن كوشلي يحث في مراسلة مؤرخة في الثاني عشر من شهر نيسان لسنة ١٨٣٩ على الإسراع، جاء فيها «مادام هناك وقت لتجنيب مصر دماراً شاملاً، ومنع أن يجبرها اليأس على الارتماء في أحضان قوة أجنبية (إنجلترا بالتحديد)، تجعل منها أجمل البلاد وأغناها[1]. وستستفيد أوروبا من تخلصها من قضايا الشرق هاته، والتي سيؤدي حلها غير المتوقع إلى إحلال الاضطراب في العلاقات السياسية».

وكان هذا عناء غير ذي جدوى، لأن الحكومة الفرنسية تصر على جعل تحالفها مع إنجلترا محور سياستها، وبرأيها ينبغي على توافق القوتين البحريتين أن يهيمن على أوروبا ويضمن توازنها. لكن وبينما كانت فرنسا تحاول الاقتراب مع إنجلترا، كان بالمرستون الذي يدرك كل ما يفرق بين الأمتين، يعمل مع ميترنيخ لعزل السياسة الفرنسية المنحازة لمصر.

وهكذا تستمر إنجلترا في تحريك قطعها على الرقعة بطريقة ستكون حاسمة بالنسبة للأحداث المتابعة. ففجأة، وعند نهاية شهر نيسان من سنة ١٨٣٩ تصل

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

فرقة عسكرية صغيرة إلى ميناء عدن. ولم يشأ نائب الملك في البداية أن يرى في ذلك إلا عملية عادية لوضع الفحم. ويمضي بوده قدماً حد جعله يوصي أمير المنطقة بالاستجابة للطلب الإنجليزي. وما إن تم التخلي للضابط الإنجليزي المكلف بالمفاوضات عن الميناء والمرتفعات المحيطة به، حتى يكتب الحاكم العام للهند اللورد أوكلاند إلى الباشا لشكره على تدخله، فيدرك نائب الملك لكن بعد فوات الآوان بأنه خدع. فالاحتلال المفاجىء لعدن لم يكن بريئاً، إذ انتهت العمليات التي قام بها محمد علي منذ سنوات في الجزيرة العربية إلى خلق الريبة في نفوس الإنجليز. فبغداد والخليج الاستراتيجي لباب المندب المهددين من قبل بونابارت مسلم. هناك ما يقلق وزارة الخارجية! إضافة إلى ذلك، ولما كانت عدن تستفيد من موقع استراتيجي رائع في إطلالتها على البحر الأحمر والمحيط الهندي، فقد كان لها موقع سياسي هام جداً.

ويحتج محمد علي لدى القنصل الإنجليزي، ويهدد باستعادة عدن بواسطة الجيش المصري، لكن مخاطبه يظل جامداً، ولم يترك له أي وهم بخصوص أي حركة مماثلة. وستبقى عدن وترابها إنجليزيين حتى سنة ١٩٦٧.

وأخذت الأمور تضيق أكثر حول نائب الملك.

و في إسطانبول، يقرر السلطان المقتنع بأنه يمكنه الاعتماد على دعم إنجلترا في حال الهزيمة العسكرية بأن ساعة الانتقام قد حانت إذ أخذ جيش الإمبراطورية الذي أعيد بناؤه، إلى التوجه إلى سورية.

[27]

عندما يخبو الألق (١٨٣٩ ـ ١٨٤٠)

في منتصف شهر أيار من سنة ١٨٣٩، يجتاز الجيش العثماني المجتمع ببطء تحت قيادة حافظ باشا في منطقة مالاطيا، الفرات ويتقدم في اتجاه حلب. وفي الرابع من شهر حزيران يكتب إبراهيم إلى أبيه:

أرفق رسالتي هاته بكل التقارير التي توصلت بها، والمتعلقة بالجيش التركي. ومن ضمنها توجد رسالة لكافطان باي الذي يعلن من خلالها بأن سلاح الفرسان التركي استولى على نقطة تابعة لأراضينا، وهي قرية أوروط في محافظة عينتاب، وأن الأتراك أساؤوا معاملة رئيس القرية. وقد انسحبت خيالتنا نجاه عينتاب. ومن المؤكد أن الأتراك سيتقدمون غداً أكثر وسيسيئون معاملة شيوخ القرى الذين سيجبرون على إخلائها. ومن شأن هذا النهج أن يخلق تمرداً كبيراً في المحافظات الموجودة تحت سلطتنا. وقد فكرت في إرسال ضابط إلى حافظ باشا لأطلب منه توضيحات حول هذا، لكنني غير مخول لفعل هذا. ولم يعد الأتراك الآن بعيدين عن عينتاب إلا بمسير بضع ساعات. ولايمكن لهذا الوضع أن يستمر. فأنا أتوقع أنه وقبل أن تصلك رسالتي هاته، ستكون الحرب قد اندلعت، وتحسباً لكل اتهام، ومنعاً لإرجاع بدء الحرب لنا، فإني لن أقوم بأي شيء قبل أن أحصل على ردكم على هذه الرسالة.

ملحوظة: أرسل لكم أيضاً كل الرسائل التي وصلتني من أضنة. وستمكنك

قراءتها من معرفة أن المؤامرات التركية تسببت في العديد من الحوادث. ويمكنني الرد على ذلك مثل ما فعلت في عينتاب وكوردوكس وذلك بإرسال بعض القوات، لكن وإذا ما ترك الأتراك فإنهم سيتواجدون على مسافة ثلاث ساعات من عينتاب. ولن يتبقى لنا إلا حلان، أن نتراجع او أن نقاتل[1].

ولما بدأ السلطان في اقتحام سورية فإنه يتحمل دون جدال مسؤولية العدوان.

وحتى بالمرستون يصل إلى ذلك، فقد كان الأمر أكثر وضوحاً حد أنه لايمكن تجاهل ذلك تماماً حتى في لندن نفسها. ويعتمد محمد علي على هذا تحديداً للحصول على دعم القوى العظمى. ولم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأن الأوضاع لصالحه وبأن ساعة استقلاله قد أزفت بحسبه. ويرد على ابنه في التاسع من شهر حزيران:

لقد تجاوز اعتداء خصومنا كل الحدود. وإذا ما برهنا على مزيد من الصبر، لن نتمكن من إيقافهم لأنهم سيحدثون الفوضى شيئاً فشيئاً. وبقدر ما كنا صبورين ويقظين كي لانقوم بأي عمل ضد إرادة القوى العظمى، بقدر ما تجرأ خصومنا، ومضوا بالأمور إلى ما هي عليه الآن، وليس هناك بعد الآن من علاج. وإذا ما أجلنا الأمر أكثر، فسنفقد الوقت وهو ما لايتلاءم مع وضعنا. وليس لنا من سبيل إلا أن نسير إلى عدونا ونهاجمه. ومادام العدوان أتى بكل تأكيد منه، فستعذرنا القوى العظمى وستمنحنا الحق. وختاماً، ومع وصول هذه الرسالة، هاجموا القوات التي اقتحمت أراضينا، وبعد أن تطردوها توجهوا إلى جيشهم الكبير الذي ستواجهونه في الحرب. وإذا ما حالفنا الحظ بعون الله دون اختراق خليج مضيق كولك بوغاز، اقصدوا مالاطيا مباشرة، وكاربون وأورفا وديار بكر.

وهذه الأماكن الأربعة المذكورة تمثل أهمية استراتيجية بقدر ما هي اقتصادية.

---

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

ومع وصول خبر الهجوم التركي إلى باريس في نهاية شهر أيار، لم يخف الماريشال سولت وزير الشؤون الخارجية الجديد ورئيس الحكومة بأن مسؤولية الصراع الذي سعت فرنسا للحيلولة دونه تقع على عاتق السلطان. ويؤكد ذلك لكن مع بعض التحفظ من خلال الأسطر الموجهة إلى قنصل فرنسا العام في الإسكندرية «سيكون من الظلم بكل تأكيد عدم الاعتراف بأنه ومنذ السنة الماضية، انطلقت الاستفزازات من إسطانبول، وبأن محمد علي بر بكل وفاء بالوعد الذي قطعه لنا بعدم البدء بالعدوان».

ويرسل في الوقت نفسه ضابطي خدمة إلى الإسكندرية وإسطانبول وهما كيلي وفولتز ليبلغا الطرفين المتحاربين إرادة فرنسا في السلام.

وخص نائب الملك القبطان كيلي بمقابلتين في الخامس عشر والسادس عشر من شهر حزيران، ونقل له رغبات سولت حيث يرجو من محمد علي أن يوقف الحرب في حال كانت قد اندلعت، ويسحب جيشه حتى حدود كوتاهيا إذا ما تجاوزتها، وأن تتموقع في وضع دفاعي حصراً. ويوضح سولت «أعلم بأن هذه الطلبات تبدو قاسية لنائب الملك، وبأنها قد تثيره في البداية، وبأنه سيعرض نفسه كضحية لاحترام نصائحي وتوصياتي السابقة، لكن روحه المعهودة فيه ستعيده سريعاً بدون شك إلى الاعتراف بأن مصلحته الحقيقية، وعلى الرغم من المظاهر المخالفة لذلك، تكمن في احترام ما أسميه بـ «الضرورة الأوروبية» عوض تجاوزها. هذه الضرورة محسوسة بقوة حد أنه سيعجب بنفسه حين يرى القوى العظمى المتفقة حول الهدف، تفترق حول الوسائل، ولن يمضي شهر دون أن يتم الاتفاق حول هذه الوسائل».

والواقع أن ردة فعل نائب اللمك كانت مثالاً على الاعتدال، إذ يكتب لابنه فوراً بألا يمضي إلى المواجهة في حال لم تبدأ بعد، ويرجو كيليي بأن يقصد سورية لإعلام إبراهيم في أسرع وقت. ويصل كيليي متأخراً جداً.

ويحرر كوشلي الذي حضر المقابلة تقريراً للمارشال سولت، ويكفي هذا المقتطف منه ليبرز خطورة المسعى الفرنسي «في الوقت الذي أعطى محمد

علي دليلاً آخر على احترام نصائحنا، في أوقات عصيبة حيث يمكن بكل سهولة الإجهاز نهائياً على الجيش التركي، قدمنا له سيدي الماريشال تعهداً أخلاقياً بأن ندعمه بشكل جدي في المفاوضات التي من المفروض أن تقر السلام في الشرق على أسس عادلة ومتينة. بالنسبة لنا الآن هذه مسألة حسن نية».

وكان محقاً تماماً، فقد تعهدت فرنسا أمام محمد علي الذي فسر الأمر كذلك.

أوسترليتز إبراهيم

إذا كانت مهمة فرنسا لدى الباشا عرفت نجاحاً، فإن مهمة فولتز لدى الآستانة لم تحرز أي شيء، بل إن السلطان يرفض حتى منح المبعوث الفرنسي الفرمانات الضرورية لرحيله إلى معسكر حافظ. وبينما كانت المفاوضات تراوح مكانها، كان الجيش الإمبراطوري التركي يواصل تقدمه تماماً مثل جيش إبراهيم.

ويقف الجيشان وجهاً لوجه في الرابع والعشرين من شهر حزيران لسنة ١٨٣٩ في سهل نصيب. لاشيء يمنع المواجهة. وستكون فظيعة.

وتناول عدد كبير من المؤرخين هذه المعركة بالوصف والتحليل، ووصل الأمر ببعض النقاد العسكريين إلى وصفها بـ «أوسترليتز نابوليون المصري»، ولربما أن المقارنة مبالغ فيها، ولكن. . . فقد تم كل شيء هنا، لأنه وبعد يوم واحد من المعركة، ستكون لمواقف القوى الغربية نتائج غير محسوبة سواء على مصير مصر والإمبراطورية العثمانية أو على مصير الغرب.

ومن ناحية القوات النظامية، كانت قوات العسكريين متكافئة، لكن حافظ باشا المساعد من قبل هيئة أركان من بروسيا، يتوفر على آلاف الجنود غير النظاميين. فالأتراك يتفوقون عدداً إذن.

ويقال بأن سليمان باشا (سيف سابقاً) يعلن إلى رؤساء ألويته مع بدء النهار قائلاً: «أيها السادة، سنلتقي بعد ثلاث ساعات في خيمة حافظ باشا، ونشرب

القهوة بها!» وستبدو نبوءته صحيحة تقريباً، فليس بعد ثلاث ساعات، ولكن بعد ساعتين فقط تم اللقاء . . .

وعند نهاية القتال، سيترك الجيش التركي أزيد من مائة مدفع في ساحة المعركة، ومعداتها وذخيرتها وكنز حرب عجيب.

واختلفت الأرقام بخصوص الخسائر في الأرواح. ويشير متوسط التقديرات إلى خمسة وأربعين ألف جندي عثماني مقتول، وثمانية آلاف وخمسمائة أسير. وفي الجانب المصري، كان العدد غير مؤكد، فقنصل ساردينيا في حلب يشير إلى ثلاثمائة وخمسين قتيل، وثمانمائة جريح بينما يتحدث القبطان بوتي وهو ضابط فرنسي ملحق بهيئة الأركان لحافظ باشا عن ثلاثة آلاف قتيل.

وعلى بعد مئات الأميال من هنا، وفي اليوم نفسه، أي في الرابع والعشرين من شهر حزيران توفيت الليدي ستانهوب «سيدة قصرلبنان»، و «ملكة تدمر»، ألد أعداء إبراهيم، في قصرها في ديجون. وقد تسبب لها داء السل في ذلك، ومضت لاهثة، يائسة من الموت دون أن تعرف نتيجة المعركة.

واحتفل الجيش المصري بنصره بالحماسة التي يمكن تخيلها. ويكتب فانتريني «كان اليوم قائظاً، وكانت كل الجباه تقطر عرقاً إلا أن الجنود المصريين لم يكونوا يفكرون في تعبهم، ذلك أنهم نالوا النصر والتتويج وهو الامتياز الذي أحسنوا تذوقه أكثر من أدخنة المجد العبثية. وكان المعسكر التركي بأكمله تحت تصرفهم. وتخلى إبراهيم لمقاتليه عن كل ثروات العثمانيين. وبدا معسكر حافظ على حالته الأولى تماماً كأنما ترك لحضور استعراض حيث الملابس والسجاجيد والأسلحة والأشياء القديمة، حتى الأدوات الأكثر تواضعاً في الاستعمالات العسكرية والغلايين، تركت في أماكنها للمنتصرين. وعهد بالخيام إلى الحكومة، واحتلها المصريون المعتادون على النوم على الأرض، ولم يحدث قط أن سكنوا أماكن بمثل تلك الفخامة. وكانت خيمة حافظ تقوم في وسط المعسكر بكل روعة مثل قصر، وقد زينت كبهو إمبراطور. وكان يعلوها العلم الإمبراطوري، وشارات القيادة. وكان

قماشها المصنوع من نسيج ناعم، أخضر فاتح مزين بأدوات زينة حمراء مقطعة ومطرزة. ولما كان حافظ يتوفر على ثروة ضخمة، فقد زين هذه الخيمة بكل عناية وأناقة وحسن تذوق للحضارة الشرقية. وعند الساعة المتفق عليها، والتي حددها سليمان باشا، تقدم الجنرالات المصريون متأثرين بلباسهم غير المنتظم، لكن بوجوه مشرقة. كانوا أبطال ذلك اليوم، والذين سيحتفظ التاريخ بأسمائهم في سجلاته، وزير الحربية أحمد مينكلي والذي مكنته مهامه الجسورة من نيل إعجاب الجميع، وسليم باشا جنرال مشاة الحرس، وأحمد باشا وهو جنرال آخر، وأحمد باي جنرال المدفعية، ، وعمران باي ووالي باي ومصطفى باي وهم جنرالات في سلاح المشاة، وعلي باي وخليل باي جنرالي الخيالة، ويتقدمهم بأربع خطوات سليمان باشا. استقبلهم إبراهيم معلناً لجنرالاته «أيها السادة، أستقبلكم في خيمة سليمان» ثم ألقى بنفسه في حضن صديقه وضمه إلى صدره، وقبل جبهته وفمه وهمس وعيناه ممتلئتين دمعاً «أقبل اليوم جندياً».

ويجلس إبراهيم في المساء نفسه إلى الطاولة التي كانت بمثابة مكتب للمنهزم، كاتباً إلى والده «أعلمكم أني هاجمت في نصيب، وفي أقل من ساعتين، أخذت من العدو مدفعيته وذخيرة الحرب، وأُخضع الجيش التركي تماماً، ولم أتوقف إلا في قونية. من أجلكم يا أبي، إستمتعوا لسبعة أيام، ثم أعلنوا هذا الخبر السار للعامة».

وفي السادس والعشرين أي بعد ثمان وأربعين ساعة، يغادر القائد العام مكان تتويجه على رأس ثلاثة ألوية، سالكاً طريق بيريدجيك. ورافقه في رحلته سرية من الخيالة وبطاريتا مدفع. ومع ظهور القوات المصرية، يغادر الأتراك المكان، مخلفين وراءهم خمساً وثلاثين قطعة من العيار الكبير».

وتحتل عينتاب في الثامن والعشرين من الشهر ذاته. ويعسكر إبراهيم في إيندا سويو. وكان يهم بالمضي قدماً في أنثلاثين عندما أعلم بوصول رسول، والذي لم يكن إلا القبطان كيليي. وبعد أن تعرف على مضامين رسالة والده، رد «سيدي، هل قرأت كتب التاريخ؟ حسناً. هل قرأت أبداً أن جنرالاً منتصراً

يتوقف عن المسير؟» ولم يجد كيليي أي شيء يعارض به هذه الحجة.

أما هناك في البوسفور، فلم يطلع السلطان محمود أبداً على هزيمته، وبينما كان مدفع نصيب يرج أركان إمبراطورية «العثمنلي» العتيقة، أمر بأن ترفع الدعوات في المساجد عند الصلوات للسلطان المحتضر. وينقل في الرابع عشر من شهر حزيران إلى تشاميلدجا. وفي الفاتح من شهر تموز لسنة ١٨٣٩، أسلم الروح إلى الله[1] تاركاً لابنه عبد المجيد المراهق في السابعة عشر من العمر، تركة إمبراطورية تغرق، وسيكون للمراهق وصي يتمثل في كل أوروبا.

وتقضي الأسطورة بأن آخر كلمات محمود كانت: محمد علي... محمد علي...

الحالات النفسية لفرنسا

في الرابع والعشرين من شهر حزيران، وفي اليوم نفسه للمعركة، اطلع مجلس النواب الفرنسي على تقرير السيد جوفري حول ضرورة منح الوزراء عشرة ملايين فرنك من أجل زيادة القوات الفرنسية في الشرق. وشُرع مناقشة الأمر في الفاتح من تموز.

وكان الدوق دو فالمي أول من أخذ الكلمة، حيث قام بمرافعة مرة حول تصرف الحكومة، فهو يقدر بأن فرنسا ورطت نفسها منذ البداية في الشرق في وضع خاطئ وملتبس، وخلقت باتفاق كوتاهيا وضعاً مؤقتاً قاتلاً، وبأنها فضلت محمد علي أكثر مما يستحق، وأنها في كلمة واحدة جرت على نفسها عداء الآستانة دون أن تحصل على صداقة القاهرة. ويقترح بأن تتم التضحية بباشا مصر لفائدة السلطان.

بالمقابل حيى نواب آخرون، ومن بينهم السيد دوكارني، في الباشا إحياؤه لعرق حكم العديدون عليه بالموت. وبحسب كارني فـ «القومية العربية» ستينع

(١) هكذا وردت في الأصل.

بفضل عناية نائب الملك. والمهم بالنسبة له إذن «ألا نراهن بين مصيره ومصير إسطانبول، ومادامت تركيا تحتضر، وبما أنها لاتستطيع أن تقف بنجاعة بين أوروبا الغربية وبين روسيا، لمَ لا يتم البحث عن تعويضها؟ يراد دوماً سلامة الإمبراطورية العثمانية، وهذه السلامة غير ممكنة بالاعتماد على العرب، وبالتالي على محمد علي» فعلى عرش الآستانة يجلس شبح «ويجب أن يجعل عليه رجل مسلح». وعدا ذلك، أليس محمد علي صديقاً لفرنسا؟ ألا تجعل مصر الخاضعة للنفوذ الفرنسي من البحر الأبيض المتوسط ما تصوره نابوليون العبقري، بحيرة فرنسية؟

أما لامارتين، فقد أعلن بالتتابع أنه ضد النظام التركي، وضد النظام الفرنسي، وتبدو له سلامة الإمبراطورية العثمانية مستحيلة مع باشا مصر مثل ما هي مستحيلة مع السلطان و «إذا كانت تركيا تهمكم مثلما تقولون، لاتنتبهوا لنجدة التمرد في سورية، ولكن هبوا لنجدة الشرعية الإمبراطورية في إسطانبول! قدموا نصائحكم ومهندسيكم وضباطكم وأسطولكم للجهود الدؤوبة لمحمود الثاني البطل في تحديث شعبه. ساعدوه للقضاء على إبراهيم وعلى استعادة مصر، وكل أجزاء إمبراطوريته التي تنفصل عنها. وعوض هذا، ماذا يقولون لكم؟ سلحوا من أجل الإبقاء على الوضع القائم، وحدوا قواكم مع قوات الإنجليز لمنع السلطان من استرداد أجود أراضيه من باشاه المتمرد. هل تعلمون ما يعني هذا؟ هذا يعني، انفقوا الذهب والدم ووقت فرنسا من أجل الإبقاء على. . . ماذا؟ تركيا أوروبا وإسطانبول تحت القبضة الروسية، وتركيا آسيا تحت سيف إبراهيم واغتصاب محمد!».

ويتسارع النقاش.

إذ يتمنى طوكفيل دون عرض رؤى خاصة ومحددة بشكل دقيق، أن «تستغل فرنسا الأحداث الهامة لتظهر مجدداً، في موقف جدير بها وقوي بطريقة تبرهن من خلالها أنه وتحت نظام ملكي حديث لم تفقد شيئاً من حسها في التعاطي مع القضايا الكبرى».

أما بيرير فيستغرب عدم معرفة الانحياز إلى السلطان أو إلى محمد علي باشا.

ولما كان أوديلون بارون مشغولاً بشكل خاص بقرب تدخل روسيا في إسطانبول، فقد ناشد الحكومة لدفع هذا الخطر بثبات جهودها وصرامة هيئتها.

وأخيراً، يلخص غويزو بهذه المصطلحات سياسة «الوضع القائم» كأنه يتبناها عندما يقول: «الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية للإبقاء على التوازن الأوروبي. وإذا ما حدثت بالصيرورة الطبيعية للأشياء وبقوتها، بعض عمليات الانفصال، وانشقت بعض الولايات، ينبغي دعم تحول هذه المحافظات إلى دول مستقلة تأخذ مكانها بين تحالف الدول. وهذا سيمكنها في يوم من الأيام في ظل وضعها الجديد، في خدمة التوازن الأوروبي الجديد. هذه هي السياسة التي تناسب فرنسا والتي اقتيدت إليها بكيفية طبيعية والتي اتبعناها».

وفي النهاية، فإن البرنامج الشرقي يلخص كتناقض، كتناقض آخر، وهو الحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية مع الإبقاء على «الوضع القائم» بمعنى الإبقاء على محمد علي في سورية.

وهذا البرنامج يعارض كلياً البرنامج الإنجليزي لكن هذا لايفاجىء أحداً، فإنجلترا كانت «مع» وحدة الإمبراطورية العثمانية «بواسطة» إعادة سورية إلى سلطان الآستانة. فضلاً عن ذلك، وإذا ما حكمنا على الأمر انطلاقاً من الرسالة التي وجهها بالمرستون في الثاني والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٣٨ إلى هنري بولوير بإسطانبول، فإن الوزير لم يفترض أنه من الممكن أن يتصور في أي لحظة من اللحظات إمكانية تقسيم الإمبراطورية التركية. «يتم الحديث دون انقطاع عن التخبط الحتمي والتدريجي للإمبراطورية العثمانية، والتي يدعون أنها سترى تسقط إلى أشلاء. بدءاً، ليس من المحتمل أن تسقط إمبراطورية مفتتة إذا ما تركت لحالها دون وجود جار طيب ليملمها، ثم إني أشك كثيراً أنه يوجد تسارع في تخبط الإمبراطورية التركية، ويمكنني أن أذهب إلى اتهام أولئك الذين يقولون بأن بلدان أوروبا الأخرى ماضية من سيء إلى أسوأ،

وعليهم أن يقولوا بأن بلدان أوروبا الأخرى أضحت سنة بعد أخرى أكثر علماً بالنقائص العديدة والبارزة لتنظيم تركيا».

فضلاً عن هذا، يعود إلى شرح وجهة النظر هذه في الفاتح من شهر أيلول لسنة ١٨٣٩، لكن الشيء المفاجئ، استعماله على وجه التحديدً الصورة التي استعملها ميترنيخ ثلاثة أشهر قبل ذلك، لإظهار العكس من ذلك تماماً «نصف الاستنتاجات الخاطئة التي يصل الناس إليها تصدر عن استخدامهم السيء والمفرط في أخذهم التشابه المشوش والخيالي على أنه الحقيقة نفسها. وهكذا، فعندما تتم مقارنة ملكية قديمة ببناء قديم أو شجرة قديمة أو رجل مسن، يرى أنه بطبيعة الأشياء، ينبغي على البناء أن يهوي أو الشجرة أن تذبل أو الرجل أن يموت، فيعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة للدولة، وبأن القوانين ذاتها التي تنطبق على المواد المتجمدة، أو الحياة الحيوانية، أو النباتية تسري على الأمم والدول. ولايمكن أن يكون هناك خطأ أكبر من هذا وأقل منطقاً، لأنه ودون عد نقاط الاختلاف الأخرى، علينا أن نتذكر بأن الأجزاء المتادخلة في البناء، أو في الشجرة أو في الرجل تبقى هي نفسها، وتتحلل لأسباب خارجية أو معدلة لتنظيمها الداخلي بواسطة تقدم الحياة، بصورة تصير معها مع مرور الوقت غير قادرة على أداء وظائفها الأصلية، بينما وعلى العكس من ذلك تماماً، فالأجزاء المتداخلة لمجتمع ما تتعرض يومياً لتجديد غير مرئي وتحسين معنوي. وهكذا، فكل ما نسمعه يقال كل يوم حول موضوع تفكك الإمبراطورية التركية وبأنها ليست إلا جسداً بلا روح، وجذع بلا نسغ إلخ... ليس أكثر من مجرد شيء سخيف».

وهو ما يمكننا أن نعتبر ميترنيخ يرد عليه بالقول «إن ما يجري على هذه الإمبراطورية العثمانية هو ما يجري عادة على كل دولة ذات التاريخ العريق، فالإمبراطوريات مثل الأفراد، تمر عليها مختلف المراحل العمرية من فتوة إلى نضج إلى شيخوخة. وتبقى الأجساد كما هي، لكن ووصولاً إلى اكتمال

تكونها، تبدأ تباعاً بالتفسخ، وإذا ما جاز لنا القول، فإنها تنطوي على ذاتها»[1](. . .)

فمن من رجلي الدولة هذين كان برؤية سليمة؟ وعلى كل حال، فبعد سنوات من ذلك، يوضح التاريخ كم كان العمل البريطاني مدروساً بشكل جيد، فمصر وسورية وفلسطين والسودان، بمعنى كل إمبراطورية محمد علي ستسقط جميعها مثل فاكهة في السلة البريطانية.

إضافة إلى هذا، فقد وقع حادث استعراضي ولعله فريد من نوعه في التاريخ، ففي التاسع من شهر تموز لسنة ١٨٣٩، أقدم الأميرال التركي الكبير أحمد فوزي باشا على تسليم كل الأسطول العثماني إلى محمد علي وقوامه ثماني بوارج، واثنتا عشرة فرقاطة، وسفينتين حربيتين. وأمل الأمير من خلال هذا العمل الحصول على إقالة الصدر الأعظم خسرو باشا الذي يتهمه بأنه باع نفسه للروس. وكان يوماً لانظير له بكل تأكيد بالنسبة لابن كافالا ذاك الذي رأى فيه الناس الذين يمكن تخيلهم حائرين ومأخوذين، الأسطول التركي يرسو جنباً إلى جنب في ميناء الإسكندرية، مع الأسطول المصري. وفي أقل من شهر، تفقد تركيا سلطانها وجيشها وأسطولها. وللمرة الثانية، كانت أبواب إسطانبول مشرعة تماماً، وما كان على إبراهيم ووالده إلا أن يتجاوزا عتباتها.

وعلى الرغم من هذا، لم تبد أي من القوى العظمى، عدا فرنسا وبأي تصرف أخرق! استعدادها للنزول عند رغبات باشا مصر في الاستقلال. ومع ذلك، ما الذي يعاب على محمد علي؟ وهل زاد على أنه دافع عن نفسه ضد اعتداء أجمع الكل على الاعتراف به؟ ولما كان منتصراً ألم يقدم دليلاً على اعتداله بأمره إبراهيم بأن يتوقف؟ ألا تستحق جيوش مصر إذن التنازلات نفسها التي حصلت عليها المقاومة في اليونان؟ وعلى عكس حركة التحرير اليونانية، لم يحتج نائب الملك إلى دعم الغرب من أجل الانتصار، فلا أحد هبّ لنجدة

---

(١) «مذكرات ميترنيخ» نشره ابنه الأمير ريتشارد دو ميترنيخ.

جيوشه؟ وما كان له الحق في أن يتمناه هو ما كانت ترغب فرنسا به مع مزيد من الاعتدال، فلتحترم معاهدة كوتاهيا التسوية التي ضمنتها كل القوى العظمى بدون استثناء.

وعوض هذا، كان كل ما يتطلع إليه بالمرستون، إلغاء الاتفاقيات التي وقعتها أوروبا. ودون أن يدرك ذلك، يسقط المارشال سولت في اللعبة الإنجليزية... «إن سولت جوهرة. ولاشيء أدعى للرضى من طريقة تعامله معنا!» كما كتب الوزير الإنجليزي إلى غرانفيل في التاسع عشر من شهر تموز لسنة ١٨٣٩.

ومهما يكن من أمر، فإنه لايمكن لبالمرستون إلا أن يكون معادياً تماماً للخطة الفرنسية التي يرى أنها ستخلق وضعاً غير مقبول. فتشكيل إمبراطورية مصرية مستقلة وقائمة على أساس متين لايمكنها أن تؤدي إلا إلى الهيمنة المباشرة لمصر في آسيا وإفريقيا وغير المباشرة لفرنسا، أي لاشيء أقل من إنهاء الحلم الاستعماري البريطاني.

بالمرستون وميترنيخ

لن ندخل في تفاصيل تعدد النقاش والجدل الدبلوماسي الذي أثاره انتصار نصيب. ومع ذلك، فهناك مراحل أساسية ينبغي الحرص عليها.

ففي الخامس من شهر تموز لسنة ١٨٣٩ أرسل الصدر الأعظم خسرو إلى مصر أحد رجاله، وهو عاكف أفندي مع رسالة تمنح لنائب الملك باسم السلطان الجديد عبد المجيد حق توريث أبنائه الحكم في مصر، وليس هناك من إشارة إلى سورية. فيرد عليها محمد علي بنبرة ودودة غير أنها صارمة.

«تشرفت بتسلم الرسالة التي أبلغني سموكم فيها بأن صاحب الجلالة الرائع جداً، والعظيم جداً، والقوي جداً، السلطان عبد المجيد خان قد تربع على العرش الإمبراطوري الذي شاء القضاء والقدر الإلهيين بأن يجعلاه شاغراً، وبأن جلالته منحني عفوه، إضافة إلى توشيحي بوسام شبيه بوسام الوزراء الآخرين،

وحق التوريث في مصر لفائدة أبنائي، وبأن معالي حافظ باشا القائد العام لجيش الشرق تلقى الأمر بالوقف الفوري لسير الجيش العثماني، وبأن عاكف أفندي سكرتير مجلس الوزراء بعث لي ليشرح مقدار دقة موقف الباب العالي، ما يجعل من الضروري وحدة الأمة الإسلامية، وكيفية إحلال الأمن الذي يتعين أن يستند عليه الاتفاق بين الطرفين.

وكانت عنايتي الأولى أن أوجه دعواتي إلى السماء بأن يحقق سيدنا الرائع جداً، والقوي جداً والمحسن، الإمبراطور، هدف رغباته، وأن يمد ظله الحامي في كل مكان. ثم إني كتبت إلى ابني إبراهيم للعودة على عقبيه إذا ما تجاوز الفرات بعد المعركة التي وقعت في سهل نصيب مع صاحب السعادة، القائد العام للجيش في الشرق.

إن سموكم يعلم، والكل يعلم ذلك أيضاً، بأني حملت في قلبي دوماً مسألة تسريع الوحدة السعيدة التي يتعلق الأمر بها، ويمنح الباب العالي أدلة على وفائي الصادق. لكن سموكم يتذكر أنه وفي عهد السلطان الراحل، أعلن لي البايلتشي صارم أفندي المرسل لي هنا في مهمة بأن السلطان يمنحني إلى الأبد مصر وصيدا وطرابلس، وبأني رفضت هذا العرض بكل تواضع، ورجوت سموه بأن يتكرم بالتنازل لي إلى الأبد وإلى ورثتي من بعدي، عن كل المناطق الواقعة تحت إدارتي.

وإني لأجرؤ أن آمل منكم، موجهاً ليس فقط بحكم الصلة القديمة بيننا، ولكن أيضاً بحكمة وسعة الرؤية اللتان تميزان سموكم، واعتباراً لدقة وضع الباب العالي، إضافة إلى ولاء خادمه الوفي، ومفكراً في الوسائل الضامنة لراحة الأمة الإسلامية، بأن يقبل بمعاملتي بطريقة تلائم متطلبات الزمن والقدر.

وبما أن رسالة سموكم لاتشير إلا إلى مصر، وبما أن عاكف أفندي أعلن لي أنه لايتوفر على تعليمات أو ترخيص بالبقية، بمعنى التخلي النهائي عن كل الولايات، فلايمكن لمثل هذا الاقتراح أن يقبل. والأفضل لهذا الموظف أن

يرحل على أن يظل عبثاً في المراسلات والتفاوض، وسيعبر لسموكم شفاهياً ما كان لي شرف سؤاله عنه في هذه الرسالة[1] ».

وفي سان بيترسبورغ، خلف العلم بمبادرة الباب العالي سعادة كبيرة، إذ أعلن الكونت دو نيسلرود إلى البارون دو بارونت سفير فرنسا بسان بيترسبورغ «كونوا واثقين من أننا سنقدم موافقتنا الكاملة لكل تسوية بين تركيا ومصر».

والتأمت ما بين الحادي والعشرين والسابع والعشرين من شهر تموز، ثلاثة مجالس ديوان في العاصمة التركية من أجل التداول في الوضع، واتخاذ القرارات الضرورية. وخلال الاجتماع الثالث تقرر أخيراً الاستجابة لدعوات محمد علي، وكان على مبعوثين وهما سعيد أفندي وتوفيق أفندي أن يقصدا الإسكندرية ابتداءً من صباح اليوم التالي لإعلام نائب الملك. وبدا أن الحل وشيك جداً.

«ويعمم محمد علي في اليوم نفسه، مذكرة على كل القناصلة العامين يشرح من خلالها أسباب رفضه لمقترحات خسرو، وهذا ما تتضمنه:

١ ـ بأن الراحل السلطان محمود وضع بين يديه في ذلك الحين، وعن طريق صارم باشا مقترحات أفضل من هذه التي أرسلها له الصدر الأعظم، مادام الأمر كان يتعلق بحق توريث مصر إضافة إلى صيدا والسنجق وطرابلس.

٢ ـ وبأنه ونظراً للظروف الحالية، فإنه يطلب حق توريث سورية وكريد.

٣ ـ وبأنه بهذا الشرط، وإذا ما تم التعامل معه بحسن نية، فإنه سيكون «الأكثر وفاءً من بين كل خدام جلالته وتابعيه، وبأن يدافع عنه متى أراد وضد أي كان».

وفي الوقت نفسه، أرسل بياناً إلى الباشوات يدين فيه خسرو واصفاً إياه بـ «المسؤول الوحيد عن كل الآلام التي حلت تباعاً على الإمبراطورية (...)

---

(١) «تاريخ محمد علي». القاهرة. ١٩١٩.

وبأنه شخص خطير مملوء بالغل». ويوضح أنه لن يعيد الأسطول إلى رجل «سيحطم قريباً ما شيّد بعناء شديد»، ويخلص إلى أنه وحفاظاً على مصالح الإمبراطورية، من الضروري تجريد الصدر الأعظم من مهامه[(١)] ».

هكذا كان الوضع عندما ظهر في الصورة ميترنيخ فجأة بعد أن علم بالمفاوضات الجارية وخشي من حصول مصر على سلام في صالحها، فأخذ القرار بالتدخل لدى الآستانة باسم أوروبا بغية منع كل تسوية مباشرة لن تحوز موافقة القوى العظمى مهما كلف ذلك من ثمن. فيستدعي المستشار سفيره في السابع والعشرين من شهر تموز، ويأمره بأن يقدم رفقة زملائه مذكرة إلى السلطان حتى «لاتؤخذ أي مبادرة من دون العودة إلى القوى العظمى».

وبالفعل، ففي يوم الثامن والعشرين تقدم المذكرة إلى السلطان، في وقت كان فيه الديوان الأعظم ينظر إلى الشروط الأخيرة التي ستقدم إلى محمد علي «إن السفراء الخمسة الموقعين، وعملاً بالتعليمات التي توصلوا بها أمس من بلاطاتهم، يهنئون أنفسهم بالإعلان إلى وزير الباب العالي بأن اتفاق القوى العظمى الخمسة المتعلقة بالقضية الشرقية أكيد، وهم يرجون الباب العالي انتظاراً لنتائج ترتيباتهم الطيبة بألا يقرر شيئاً في القضية المشار إليها أعلاه بطريقة نهائية دون مساهمتهم[(٢)] ».

وينتصر بالمرستون إذ أعادت له مذكرة ميترنيخ فريسته. أما خسرو، فقد كان سعيداً بتدخل يتيح له تأجيل كل تسوية مع خصمه ولتجديد المؤامرات ضده. وهكذا يرضخ أمام إذار القوى العظمى ويكتب إلى محمد علي هذا العمل الرائع للنفاق «كان مبعوثنا (سعيد أفندي) على وشك الرحيل على متن السفينة البخارية (إلى الإسكندرية)، عندما قدم سفراء القوى العظمى الخمسة إلى الباب العالي،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كان بونسونبي لإنجلترا، وروسان لفرنسا، وستورمر للنمسا، وكوينغسمارك لبروسيا، وبوتنييف لروسيا.

مذكرة موقعة من قبلهم، والتي توجد ترجمتها مرفقة بهذه الرسالة (. . .) ومباشرة بعد تقديم هذه المذكرة، عقد كبار المسؤولين في الباب العالي مجلساً جديداً، اتفقوا فيه على أن التدخل الأجنبي بين السيد والتابع أمراً غير ملائم، لكن واعتباراً إلى أن القوى العظمى الخمسة تدخلت في خلافات سابقة، فإن رفض وساطتهم سيكون أمراً مزعجاً لها، ويمكنه أن يجر الكثير من الجرح والاضطراب على الأمة الإسلامية (. . .) هذا وقد قدر كل المسؤولين الكبار المجمعين على عدم اللجوء إلى الأجانب، أنه من غير المناسب ونظراً للظروف الحالية رد الطلب غير المتوقع للسفراء الخمسة، وأن يمنحوهم قبولهم». ومنذ هذا اليوم، ذهبت عبثاً كل جهود باشا مصر من أجل الوصول إلى اتفاق مباشر مع الباب العالي.

ولما كان ميترنيخ في موقع قوة لنجاح مبادرته للسابع والعشرين من شهر يوليو، سارع منذ اليوم السابع من شهر غشت إلى بعث مراسلة إلى البعثات النمساوية في باريس ولندن وسان بيترسبورغ وبرلين، ضمنها أمنيته بحصر الاعتراف بحق التوريث بالنسبة لمحمد علي على باشوية مصر وحدها. وفي الوقت نفسه، كرس جهده على جمع مؤتمر في لندن أو في فيينا حتى يصلوا إلى اتفاق حول قضية الشرق.

ويحيي بالمرستون المبادرة النمساوية التي لم تعارضها روسيا. فماذا ستفقد فيها؟

لكن مذكرة السابع والعشرين من شهر تموز كانت جديرة بأن توقظ فرنسا. فتحت ضغط الرأي العام يقرر لويس فيليب أن يعدل سياسته. ولما كانت الحكومة الفرنسية ملتزمة معنوياً أمام مصر، ولما خاب ظنها بلندن، بدأت تشعر بأن في هذا مساساً بكرامة فرنسا. فيتخذ القرار إذن بإلغاء التحالف مع الإنجليز، وأن تقف إلى جانب محمد علي. فقد قر في نفوس الوزراء الفرنسيون بدون وعي، وبصورة تدريجية أنهم بدعمهم لنائب الملك، كانوا يدعمون قضية عادلة ونبيلة، وأيضاً لمنح فرصة حياة لبلد يريد الآخرون وضع

شاهدة الموت عليه. فاجتمعت كل العناصر اللازمة لدغدغة مشاعر العظمة والمثالية الفرنسية.

ولسوء الحظ، فإن انقلاب لويس فيليب أتى متأخراً جداً. فقد نجح بالمرستون منذ مدة طويلة في الحصول على دعم قوي من الحكومات الأوروبية.

وبدءاً من شهر أيلول لسنة ١٨٣٩، أضحت لندن مركزاً للنشاط الأوروبي. وخلافاً لفرنسا، كانت إنجلترا تستمد قوة سياستها من اتحاد الرؤية بالعمل. ويوماً بعد يوم، يقوم بالمرستون بصبر بكل ما يستطيع من أجل إبعاد الحكومة الفرنسية من ساحة الأحداث. وفي منتصف شهر أيلول، يقترح عليها بأن تفرض على محمد علي بغطرسة، بأن يعيد الأسطول التركي، وإذا ما رفض، يؤخذ منه الأسطول المصري. فيرفض الوزراء الفرنسيون بكل صرامة هذا المقترح.

غير أن ذلك لم يثني عزم بالمرستون، إذ يصر على ضرورة تبني بعض التدابير الجبرية القادرة على تحطيم مقاومة نائب الملك عند الحاجة. حتى إنه يضع تفاصيل لبرنامجه، كمنع المواصلات البحرية بين سورية ومصر، ومحاصرة الموانئ، وحجز كل السفن المبحرة تحت العلم المصري.

وفي غضون ذلك، كانت روسيا التي تتوقع وشوك القطيعة بين فرنسا وإنجلترا، تحاول التقرب من حكومة سان جيمس، وذلك باقتراح دعم آراء بالمرستون. وفي ظل هذه الأجواء يقدم الروس عن طريق البارون برينو لبالمرستون خطة أقل ما يمكن أن توصف به أنها ميكيافيلية. ففي حال استعادة إبراهيم لمسيره نحو إسطانبول، تتكفل روسيا بحماية السلطان المهدد، بينما تتحرك أساطيل الحلفاء في الشواطئ المصرية. وقد تم إدراك المغزى من وراء هذا المسعى، وهو امنحونا إسطانبول، نمنحكم الإسكندرية. ومهما كان الاتفاق وحشياً فقد قبل الوزير الإنجليزي، إلا أنه وما إن علمت فرنسا بذلك حتى احتجت بكل قوة. ويكتب المارشال سولت إلى سفيره في لندن في العشرين من شهر أيلول «لن يظهر أبداً أسطول حربي أمام إسطانبول من دون

موافقتنا، دون أن يظهر أسطولنا بها! [1] » من جانبهم، يرفض زملاء بالمرستون الأقل حماسة منه من دون شك، أن يساقوا إلى المشروع الروسي، إلا أن بوادر التقارب الإنجليزي الروسي أخذت تلوح في الأفق.

وهكذا يعين السيد دو بونطوا سفيراً لفرنسا في إسطانبول خلفاً للأميرال روسان، المعروف بعدائه لنائب الملك، وفي الحادي والعشرين من شهر كانون الأول لسنة ١٨٣٩ تعرض الحكومة الفرنسية مشروعها على أوروبا، والقاضي بـ «منح حق التوريث لمحمد علي على مصر وسورية والجزيرة العربية وجزيرة كريد مدى الحياة». ومرة أخرى، فات الآوان.

ويعرض بالمرستون مقترحاً مضاداً، وذلك بمنح محمد علي حق التوريث على مصر، وباشوية عكا من دون المدينة نفسها مدى الحياة. فترفض الوزراة الفرنسية معتبرة أن الفرق كبير بين الطلبات المصرية وما وافق عليه الإنجليز، وهو حكم خاطئ ستكون له نتائج مشؤومة. فبالنظر إلى صعوبة الوضع، ورجحان الكفة البريطانية، كان يلزم اهتبال الفرصة في الحين، ذلك أن اتفاق القوى العظمى كان سيتحقق على الفور، وسيحصل الباشا على الكثير الذي لن يستطيع الحفاظ عليه في الأخير. ويرد بالمرستون بكل برود على الرفض الفرنسي «سحبت الموافقة».

وينبغي التوضيح بأن الوزير الإنجليزي لم يكن يشعر تجاه لويس فيليب إلا بالاحتقار، ومتى سمحت له الفرصة، يجد متعة في الإعلان بأن ملك الفرنسيين لايقرر أبداً قراراً ذا شأن، وأنه مادام مثل هذا الملك يدير شؤون بلده، فلا يمكن لأحد أن يجرؤ على شيء.

ولم يتوقف التقارب الإنجليزي الروسي على التقدم، فقد أعيد النظر في الخطة المقترحة من قبل البارون دو برينو، وصحح. ويقرر نيقولاس الأول

---

(١) برقية من الماريشال سولت إلى سيباستياني في العشرين من شهر أيلول ١٨٣٩. شارل رو (فرانسوا). «تييرس ومحمد علي» باريس ١٩٥١.

ونيسلرود تقريب وجهات نظرهما من وجهات نظر الحكومة الإنجليزية، بمعنى «تحديد مصير محمد علي، وإقرار تدابير جبرية لفرضها عليه». ويقترح برينو أن تبرم معاهدة بهذا الخصوص. ولم يرفض بالمرستون هذا المقترح، لكنه لايوافق عليه أيضاً. إذ أنه غير مرتاح من اتباع الروس في طريق يعلم أن الفرنسيين لن يتبعوه فيها. ويبقى أن الموافقة الروسية على التصور البريطاني أضحت بين أيديهم.

وهناك، في وادي النيل، كان محمد علي خلال كل هذه الشهور، قد ارتكن إلى موقف حاسم تجاه القوى العظمى، لكنه حر ومستعد للمصالحة مع الباب العالي.

وأخيراً، ولما أدرك أنه لا جدوى من جهوده السلمية، عمد إلى إقامة تحصينات وتجنيد قوات جديدة، كما لو أنه يتوقع أن عليه أن يحارب مجدداً.

وفي الوقت نفسه، كان الباب العالي يتسلح أيضاً. وأخذت قواته في مالاطيا تتلقى تعزيزات هامة تمثلت في العديد من الألوية ومائة مدفع من عيار٢٤ وخراطيش بأعداد كبيرة. وحتى في إسطانوبل، بلغ عدد الحامية إلى ستة وعشرين ألف جندي.

واستقبل الكولونيل هودجز في السادس عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٤٠، والذي كان يقوم بمساع جديدة لدى الباشا، استقبالاً لاذعاً «يريدون دفعي إلى أقصى نقطة؟ حسناً، أنا أقبل التحدي. يريدون الحرب؟ سأخوضها بكل ما أستطيع. فلربما يندمون على دفعي إلى هذا الحد!» وعندما عاد كوشلي في اليوم الموالي ليقوم بالشيء ذاته، لم يتغير تصميم نائب الملك قيد أنملة «يجبرونني على إطلاق المدفع؟ فيلقرر المدفع. لن أتخلى عن نخلة واحدة من سورية!».

ويستبدل في الخامس من شهر شباط لسنة ١٨٤٠ الجنرال سيباستياني الذي لم يكن بأقل معارضة من الأميرال روسان لمطالب محمد علي، بغيزو. وللأسف، فإن روسيا في أثناء ذلك، أرست أسس اتفاق شامل مع إنجلترا، وتم بذلك إتمام عزل فرنسا. وانطلاقاً من هذه الساعة، أضحت بروسيا

والنمسا وروسيا وإنجلترا كتلة متجانسة لايمكن تجاوزها. ومكنتهم وحدتهم بأن يعملوا من دون فرنسا، وأن يفرضوا سلام بالمرستون، بمعنى سلام السلاح.

ويدرك محمد علي أنه بصدد مواجهة جديدة. ويكتب إلى خسرو باشا في الثالث والعشرين من شهر شباط رسالة في منتهى الوضوح محذراً إياه من نوايا القوى العظمى «أعلم أنهم يقنعون الديوان باللجوء إلى القوى الأجنبية لطردي من سورية، لكن كيف لاترون أن هذه القوى نفسها تريد تمزيق الإمبراطورية العثمانية، وأنهم يريدون من خلالي القضاء على «قوة» هذه الإمبراطورية؟ أخاطبكم يا صاحب السمو بكل صراحة وولاء. أبلغ من العمر سبعين سنة وليس لدي من طموح. لكن لدي عائلة ومن واجبي ضمان مستقبلها. فليتقبل جلالته بمنحي الجزيرة العربية، وسأستمر في تقديم الخدمات نفسها لديني ولوطني التي كنت سعيداً بتقديمها إلى هذا اليوم، وإلا فإني سأقاوم. ولن أمكن أعداء هذه الإمبراطورية ممن يريدون إضعافها ليقتسموا فيما بعد أجزاءها، من شيء. وإذا لم يتم الفكير في مخططات عدائية ضدي، أخبرني إذن لمَ يراد سلبي جبال طوروس وهي الحدود الطبيعية لحكمي. إن حكمتكم العالية وطيبتكم اللتان برهنتم عليها تجاهي في كل الظروف، تجعلاني أتمنى أن تقبلوا طلبي قبولاً حسناً، وسأحتمي في حضنكم كما لو كان منفى مقدساً، وسيطمئن سموكم إلى سعادته في هذه الدنيا وفي الآخرة».

هذا ما يؤكد بأنه لم تكن هناك من أوهام لدى نائب الملك بخصوص اتحاد القوى العظمى، وأقل حول دعم فرنسا. ولم يكن يخفي خيبة أمله لكل الرجال الذين كانوا ينصحونه بعدم استباق الأحداث إذ كان يقول «اعتقدت دوماً بأن أوروبا تريد الخير لي، أنصت للوم وكلائها ووثقت بكلامهم، وكنت مخطئاً. لاأسمع شيئاً الآن. لقد عدت لأصير تركياً. وأقوم بسياسة تركية. وسأموت كتركي. ولن أستطيع أن أحيا بعد دمار بلدي التي يبحثون على تقسيمها بحجج خادعة. لن أتحمل أبداً أن تصير مصر إنجليزية، وتركيا روسية. أردت أن أكون

السند القوي للسلطان، لكن لم يفهمني أحد. سأدعو الشعوب الإسلامية وسأخوض الحرب المقدسة. أدرك أني لاأستطيع مقاومة قوة القوى العظمى الأوروبية التي ستهاجمني. سأقضي مع أهلي في النضال، لكني سأموت بشرف!»[1].

(١) أنكيري. (مصدر ذكر سابقاً).

[28]

تلعثم تييرس (١٨٤٠)

في نهاية شهر شباط من سنة ١٨٤٠، يجبر المارشال سولت الذي ألفى نفسه في أقلية برلمانية بعد قضية لاعلاقة لها بالوضع الخارجي، على تقديم استقالته إلى لويس فيليب. وفي الفاتح من شهر آذار يقع الاختيار في خلافته على أدولف تييرس بينما يعين غيزو سفيراً لفرنسا لدى لندن. وهو مركز بالغ الأهمية في هذا الوقت تحديداً. ومن الآن فصاعداً، يقع على عاتق هذا الثنائي مصير محمد علي، ومآل القضية الشرقية.

ومنذ السابع من الشهر ذاته، يكتب ديزاج مدير الشؤون السياسية إلى كوشلي قنصل فرنسا في الإسكندرية «شكلت الحكومة الجديدة منذ أيام قليلة فقط، حد أننا لم نستطع أن نكتب لكم رسمياً عن طريق السفينة التي كانت ستسافر قريباً. وعليكم إذن أن تظلوا معطلين حتى إشعار آخر. فضلاً عن هذا، كل شيء ما يزال معلقاً في لندن. ولم يحسم المجلس بعد في قضايا الشرق. ومن وجهة نظري، فإن الأمور بين باريس ولندن ستزداد طولاً. فالحكومة الإنجليزية في أعماقها أقل حدة عن ذي قبل، لكن وإذا ما قبلنا آراء بعض الأشخاص الذين يظنون أنها مستعدة للتراجع، غير أنها محتاجة للوسائل لفعل ذلك بشرف. وكما تعلمون دون شك، فإن رئيسنا الجديد (تييرس) لايحمل أي عداء لنائب الملك. ومع ذلك، لاينبغي أخذ كل ما قاله وهو معارض كقاعدة غير قابلة

للتغيير لسلوكه كوزير، فاعتبروا أنه من أجل تدبيركم، بأنه ومن مصلحة الباشا نفسه، علينا الحفاظ على بعض علاقات الود مع إنجلترا لأننا لانريد أن نتسرع معها، وبالتالي فكل هذا سيأخذ وقتاً وسيمد «الوضع القائم» إلا أذا، وهذا ما سيلائمني كثيراً، توافق الباشا مع الباب العالي[1] ».

والواقع أن سياسة تييرس تقوم» على اللعب المزدوج، فإذا ما استمر من جهة في التفاوض لتخدير القوى العظمى، فقد دفع السلطان من جهة ثانية إلى تقديم تنازلات لمحمد علي، لكنه لايضع في حسبانه التصميم الإنجليزي، والذي لم يكن مستتراً عند إجراء المباحثات بين غيزو الذي كان ما يزال سفيراً لفرنسا في لندن وبالمرستون.

ـ سيدي، لماذا تضعون سلام الشرق وأمن الباب العالي وأوروبا أمام العديد من المخاطر؟ هل من أجل رفض حق التوريث لشيخ في الحادية والسبعين من العمر؟ ما هو التوريث إذن في الشرق يا سيدي، حيث مجتمع عنيف ومضطرب، وفي هذه العائلات كثيرة العدد، وغير المتحدة؟ وقصة محمد علي ليست حدثاً جديداً في الإمبراطورية العثمانية، فقد ثار أكثر من باشا قبله، وقاموا بفتوحات، وأضحوا أقوياء، وشبه مستقلين، فماذا فعل الباب العالي؟ أخذ ينتظر، فمات الباشوات وانقسم أبناؤهم، واستعادت الآستانة أراضيها وحكمها، وهذا بالنسبة لها الأوفر حظاً والسلوك الأكثر حذراً.

ـ هناك شيء من الصحة فيما قلتم هنا. وقد لايكون للتوريث قيمة كبيرة بيد أن إبراهيم باشا قائد ماهر، محبوب من قبل جنوده. وهو أفضل إدارة من أبيه، ولنقل بأنه يوجد ضباط فرنسيون أكفاء كثر بجانبه. نحن نقول كل شيء بصراحة، أليس كذلك؟ ألن تكون فرنسا سعيدة بأن ترى إقامة دولة جديدة ومستقلة في مصر وسورية والتي ستكون صنيعتها تقريباً، وستمسي حليفتها بطبيعة الحال؟ لديكم الوصاية على الجزائر. ماذا بينكم وبين حليفتكم مصر؟

---

(١) شارل رو. (مصدر ذكر سابقاً).

لاشيء تقريباً إلا الدولتين الفقيرتين تونس وطرابلس، وكل الشاطئ الأفريقي وجزء من الساحل الآسيوي على البحر الأبيض المتوسط، أي من المغرب وحتى خليج الإسكندرية سيكون تحت سلطتكم، وتحت تأثير نفوذكم، وهذا لايمكنه أن يناسبنا[1].»

ولم تخف أهمية هذا الاعتراف على غيزو مادام أنه أعاده حرفياً في تقريره إلى الوزارة. ولم يكن تيرس أقل تأثراً مادام أنه يستشهد بأقوال بالمرستون من دون أن يذكر اسمه، من منصة الجمعية الوطنية. كيف لم يخلص أي منهما من ذلك الحين إلى حتمية أن وزيراً من قيمة بالمرستون لن يقدم أي تنازل، حتى من أجل الحفاظ على التحالف الفرنسي الإنجليزي؟

وخلال شهر آذار من سنة ١٨٤٠ حدث تعديل وزاري في إسطانبول، فيعهد بوزارة الشؤون الخارجية إلى رشيد باشا المعروف بولائه للإنجليز. كيف لايكون كذلك بينما السياسة التي تطري عليها إنجلترا تخدم مصالح بلاده أكثر من السياسة التي تدافع عنها فرنسا؟ والواقع، ألا يبدو أن الاستراتيجية الإنجليزية ترمي إلى تحرير الآستانة من «الحماية الروسية» التي لجأ إليها السلطان الراحل كحيلة وكعمل يائس؟ ألم تكن تبحث من جملة ما تبحث عنه، عن فرض تحكيم أوروبي بين الباب العالي وتابعه العنيد، والذي تحاول جعله قدر الإمكان لصالح الباب العالي؟

فلنلخص رؤى السياسة الإنجليزية:

١ ـ نعلم أن بالمرستون لايعارض حصول محمد علي على حق توريث الحكم في مصر، ليس من باب الضعف، ولكن بكل بساطة لأن أي تراخي في العلاقة القانونية بين هذا البلد وبين تركيا لن يمكن في المستقبل من سهولة أي تدخل إنجليزي في وادي النيل.

---

(١) غيزو في كتاب باللغة الفرنسية بعنوان «مذكرات لصالح تاريخ عصرنا». باريس ١٨٦١.

٢ ـ لماذا يصر بالمرستون على إبقاء سورية بين يدي السلطان؟ لقد قالها دون مراوغة لغيزو، لأن إنجلترا لايمكنها أن ترضى بأن تظل سورية بين يدي أحد الموالين لفرنسا.

والحالة هذه، إلى ماذا ستسلم تركيا إن لم يكن للتنازل المحتمل عن التوريث شريطة استعادة ولايتها السورية. ومنذ ذلك الحين، هل هناك من شك بأن صوت حكومة سان جيمس سيجد له آذاناً في إسطانبول أكثر من الصوت الفرنسي؟

والخطأ الآخر الذي ارتكبه تييرس هو استمراره في الاعتقاد بأن اتفاقاً بين الباب العالي ومحمد علي ما يزال ممكناً، بينما ومنذ مذكرة السابع والعشرين من شهر تموز لاأحد يمكنه تجاهل درجة معارضة بالمرستون وميترنيخ لذلك.

إضافة إلى هذا، لا يهم خسرو من جانبه أن يفتح أذنيه لمطالب خصمه القديم، ما مصلحته في ذلك؟ لا شيء، مثلما سيكتب بكل فظاظة إلى محمد علي في الثامن والعشرين من شهر آذار لسنة ١٨٤٠ «فموقفنا إزاء القوى العظمى الأوروبية يسمح لنا بانتظار الأحداث بهدوء تام وبكل أمن».

وبعد ستة أسابيع من ممارسته لسلطته، يكتب تييرس في الثامن عشر من شهر نيسان ليعرض رؤيته لقضية الشرق، فيوجه رسالة خاصة إلى كوشلي، نعرضها هنا في مجملها تقريباً، لأنها تبدو لنا بالغة الأهمية لفهم ما سيلي من أحداث، موضحة في الوقت نفسه شخصية من وصفه «هيغو» بأنه «كاتب بواب وجد له قراء من البوابين».

«أنا مهتم بكل تأكيد كثيراً بقضية نائب الملك. ولست بذلك إلا مشاركاً في شعور عام جداً في فرنسا. لكن ومع ذلك، لاينبغي على نائب الملك أن يخدع بوضعه ليعتقد بأنه أفضل مما هو عليه في الحقيقة. ومن المؤكد أن يكون اهتمام فرنسا لصالحه، وسيجنبه هذا الاهتمام مقتضيات قاسية جداً من لدن القوى العظمى الأوروبية، وسيمنحه بضعة أشهر من الراحة كوسيلة مفاوضات

مدارة جيداً بشكل أو بآخر. لكن عاجلاً أو آجلاً، يمكن للقوى العظمى الأربعة أن تتحالف ضده لتنتزع منه التنازلات التي لايريد اليوم أن يقدمها.

إن إنجلترا عنيدة جداً إزاء نائب الملك. ولاترفض روسيا شيئاً لإنجلترا من أجل قبول مقترحات السيد دو برينو، في حين تتبع النمسا وبروسيا، روسيا وإنجلترا. وستتردد جميعها طويلاً قبل توقيع اتفاق من دون فرنسا، لكن ستنتهي ربما إلى توقيعه من دونها. وإذا ما تم ذلك، فلن نعلم كثيراً الوجهة التي ستتخذها الأحداث.

أعلم جيداً بأن نائب الملك ضعيف جداً حين يتجاوز جبال طوروس ليدخل إلى آسيا الصغرى، وقوي جداً عندما يتحصن في مصر وسورية، وبأن الصعوبات ستتغلب على أولئك الذين يريدون عبور طوروس ضده، غير أني أخشى عليه بعض المفاجآت. وهكذا على سبيل المثال، ألن يؤدي إعلان القوى الأربعة المدعمة بالأسطول الإنجليزي إلى إثارة سورية ضد المصريين؟ وهذه نتيجة ممكنة، ولربما محتملة. وسيقوم الباشا بجهود كبيرة من أجل احتواء سورية، لكن هل ينجح في ذلك؟ فلنفترض أنه نجح فلن يكون ذلك إلابداية. ألن تنتهي القوى العظمى الأربعة بعد أن تفشل طويلاً إلى أن تغضب من عجزها، لتأخذ تدابير عنيفة ضد مصر؟ ولست أخشى على نائب الملك من الجيش الإنجليزي، لأنه ما من جندي إنجليزي واحد جاهز، لكني أخشى أكثر قليلاً لكن ليس أكثر كثيراً، جيشاً نمساوياً ينقل بواسطة سفن إنجليزية. لكن وفي بعض الحالات، سأخشى أكثر جيشاً روسياً يتجاوز طوروس ويأتي لينتزع من المصريين ولاية سهلة الإثارة.

ولست أخشى نتيجة مماثلة في بداية الحرب على نائب الملك. لا، في البداية سيصدرون التصريحات، وسيكتفون بإظهار العلم البريطاني، لكن وبعد فترة من الانتظار، أخشى حب الذات المثار لدى القوى العظمى وإرهاق موارد نائب الملك الذي لن يتمكن من تحمل النفقات التي يقوم بها اليوم، طويلاً.

يقال كثيراً في فيينا وبرلين ولندن بأنه ينبغي التفكير طويلاً قبل توقيع اتفاق، لكن

ما إن يوقع حتى يتعين تنفيذه مهما كلف ذلك من ثمن حتى لاتظهر هذه الدول عاجزة أمام باشا مصر.

لهذا، على محمد علي ألا يعيش على الأوهام، وألا يتصور بأن مقاومة فرنسا ستجنبه تحالف القوى العظمى الأربعة. يمكن لفرنسا أن تؤخر هذا التحالف لكنها لاتضمن نجاح منعه. وعندما سيشكل هذا الحلف، فإن كرامة القوى العظمى الأربعة يمكنها أن تقودها إلى حلول شديدة التطرف. أما فرنسا فمستعدة بأن تقوم قومة رجل واحد من أجل مصلحة على الرين أو الألب، لكنها لن تبدي الحماسة نفسها من أجل أحداث تقع على النيل. ولاينبغي للباشا أن يعتقد بأن حرباً عامة يمكنها أن تنشأ من أجل قضيته. ولست أتفق مع أحد فيما أقوله لكم هنا. أقول بأنه لايمكن لأحد أن يهزم الباشا. أعلن ملء صوتي، ومن على المنصة، عن الدعم الذي تنوي فرنسا أن تقدمه له، لكن هذا يقال لأوروبا. أما في قرارة نفسي، فإني أخشى أن يكون الباشا ضعيف في سورية، ولاأعتقد أن الدبلوماسية الفرنسية ستنجح دوماً في منع اتفاق بين روسيا وإنجلترا والنمسا وبروسيا. وعليه، ينبغي على الباشا أن يؤمن بالاتصالات المتواضعة التي يقيمها في باريس، وأن يرى الأشياء كما هي. لايمكنه تجنب أخطار وضعيته إلا إذا أظهر الكثير من الحكمة والاعتدال. أرى أنه يتراجع عن المطالبة بأضنة، وكانت على وشك أن تقبل. أرى أنه مخطئ، وهو يجعل كل اتفاق ودي مستحيلاً، وأشك في أن يرضوا بمنحه حق التوريث في مصر وسورية، وسيكون نجاح كبير الحصول عليه، لكننا لن نحصل عليه في كل الأحوال، إلا بشرط التخلي عن كاندي وأضنة والمدن المقدسة. وهناك اتفاق آخر ممكن، وهو منح نائب الملك حق التوريث في مصر وحدها، مع امتلاك الباقي مدى الحياة أي سورية وأضنة وكاندي والجزيرة العربية. وأنا أميل إلى هذا الحل الأخير أكثر. لكني لا آمل فيه إلا قليلاً. أما «الوضع القائم» بمعنى استمرار الوضع السابق لمعركة نصيب فيبدو الفرصة الثالثة الممكنة. لكن لن ينجم إلا بعد تعب المفاوضين الأوروبيين، بيد أنهم أخذوا حذرهم في

بيترسبورغ ضد التعب. أرادوا أن يمنحوا لأنفسهم الوقت، ومن أجل هذا تم تعيين السيد دو برينو وزيراً في لندن. وعلى كل حال، فالوضع خطير. وما أنصح به نائب الملك، هو أن يعد نفسه لتضحيات معقولة وأن يسلم أمره لنا.

فإذا ما منحت له مصر وسورية على سبيل التوريث، وأقل كاندي وأضنة والمدن المقدسة، فعليه أن يقبل. وإذا ما منحت له مصر وحدها على سبيل التوريث وسورية وأضنة وكاندي مدى الحياة، فعليه أن يقبل أيضاً. وبخصوصنا، فإننا نعتقد أننا قمنا في هذه الحالة أو في تلك بكل ما يقتضيه الوضع. وينبغي إعلامه أنه إذا ما أراد مقاومة التنازلات المعقولة فإننا لن نستطيع دعمه، وأننا لن نغامر بتحالفنا مع إنجلترا لدعم أطماعه المفرطة.

لست أعلم ماذا سيحدث في هذه القضية الكبيرة جداً والتي تم تناولها بشكل سيء للغاية، لكنه ينبغي تحطيم كل الأوهام التي يرتكن إليها الباشا، وينبغي على الخصوص أن نعيد إخباره بأنه وفي ظل الوضعية الحالية عليه ألا يكون صعب المراس بل على العكس من ذلك تماماً، عليه أن يتحلى باليسر والسهولة، وأن يترك أمره لنا في الباقي، ويمكنه أن ينظر إلينا كأصدقاء أوفياء موثوقين وبلا أطماع. ولن نتخلى عنه أبداً، إذا ما فهم وضعه وعرف كيف يكيف عليه سلوكه.

(. . .) إضافة إلى هذا، لاتقدموا أي اقتراح للباشا، واكتفوا بإعداد روحه للاعتدال، واقضوا على الأوهام الكبيرة التي يمكن أن يتصورها دون إنقاص من ثقته بنا، ودون تثبيط عزيمته لأنه لربما يحتاج الكثير من الشجاعة والقوة[1] ».

هو ذا تيرس إذن لايخفي كثيراً خطورة الموقف الذي جعل سياسته تلخص في. . . منح الاعتدال، لكنه يخدع فقط في تقدير التنازلات التي ينوي

---

(١) شارل رو. (مصدر ذكر سابقاً).

بالمرستون فرضها على محمد علي. فلم يكن هناك من حظ لتقبل حكومة سان جيمس بأي من تصوراته.

ويرد محمد علي على كل الضغوطات التي فرضتها عليه أوروبا بمضاعفة نشاطه العسكري وذلك بإنشاء تحصينات في الإسكندرية وعلى السواحل المصرية، وإنشاء حرس وطني في المدن الرئيسية، فهدفه واضح، وهو عرض مقاومة حيوية في حال هجوم أجنبي.

ومن هنا يأتي هذا التعليق الجديد لتييرس «سيكون من العبث أن يهنئ الباشا نفسه بما يفرضه على أوروبا بصدى استعداداته، وبإخفاء حرج موقفه الحقيقي. وهذا الحرج معروف اليوم من قبل الجميع، فلا أحد يجهل بأن سورية المتذمرة في الخفاء ليست محتوية إلا لوجود القوات المصرية، وبأن تمرداً يمكنه أن يندلع بها بين لحظة وأخرى. وذيوع مثل هذا الأمر يشجع القوى العظمى الأكثر عداء لنائب الملك أكثر من أي وقت آخر، وفي حال إذا ما أصر على رفض الشروط الوحيدة التي يرون أنها القادرة على الحفاظ على السلام العام، أخشى أنه لم يعد ممكناً بالنسبة لنا منعها (القوى العظمى) من اتخاذ تدابير حتى من دون مشاركتنا، ضده، والتي ليس هناك من شك أنها ستنجح إن عاجلاً أو آجلاً.

ومن المؤكد أنه لايفكر بأننا ننوي عندما ستصل الأمور إلى هذه الدرجة بأن نقطع علاقتنا مع إنجلترا من أجل هدف وحيد وهو مساعدته على دعم نظام سياسي أدناه سلفاً[1] ».

أماني بالمرستون السورية

إن التمرد السوري المشار إليه سلفاً، أمر يتمناه بالمرستون من كل قلبه. لو أن الحظ يمكنه من ذلك! لكنه ليس بالرجل الذي يكتفي بأن يأمل في الحظ،

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

بل إنه يجبر الحظ على أن يتحقق. فعلى امتداد شهور المفاوضات هذه، يكرس السيد وود المستشرق اللامع والملحق بالسفارة الإنجليزية بإسطانبول كمترجم، نفسه لإثارة الاضطراب الذي يتمناه وزيره بشدة. فأسفاره إلى سورية لاتعد ولاتحصى، غير أنه ليس الوحيد الذي يدبر المكائد هناك، فله شريكان وهما قنصل النمسا وقنصل ساردينيا وحتى البطريق اليوناني ورجال الدين في دمشق.

ومنذ بداية شهر آذار من سنة ١٨٤٠ تظهر الأعراض الأولى لحركة تمرد جديدة في سورية. وأنشئت جمعية في لبنان من أجل «الدفاع عن الجبل». فاجتمع المسيحيون والدروز واليهود بهدف الحفاظ على المزايا الخاصة والمعاهدة الموقعة لهذا الغرض تضم أربعة بنود رئيسية:

١ ـ ألا تعاد إلى الحكومة المصرية الستة عشر ألف بندقية التي وزعت على المسيحين سنة ١٨٣٨ إبان التمرد الدرزي.

٢ ـ ألا يوفر لمصر جنوداً سواء أكانوا من الموارنة أم من الدروز أم من اليهود.

٣ ـ يعارض تسليم أي لاجئ بالجبل اللبناني، حتى لو كان فاراً من الجيش المصري.

٤ ـ ينشأ صندوق على كل واحد من السكان أن يساهم فيه شهرياً ما بين عشرين بارة إلى ثلاثة قروش لضمان الدفاع عن استقلال لبنان[١].

ويقرر أعضاء هذا المجلس في الخامس من شهر أيار لسنة ١٨٤٠ إطلاق حركة تمرد واسعة، ويقدمون إلى الأمير بشير عريضة يناشدونه فيها بدعم مطالبهم والتي جاء فيه: «كمكافأة لتضحياتنا، كنا عرضة للاعتداءات والمذلة، ومع ذلك، فقد قمنا بكل ما نستطيعه لدعم السلطات المصرية. ذلك أننا ساهمنا في قمع حركات التمرد، وأملنا بالمقابل أن يكون لنا الحق بأن نعامل

---

(١) أنظر في الملحق نص المعاهدة الكامل.

بقسوة أقل، غير أن الظلم والعنف تصاعدا علينا، فكل منتوجاتنا تصادر، ونحرم من أبنائنا الذين يؤخذون إلى معسكرات بعيدة عن بلدهم، فإذا حصل سموكم على وقف هذا النظام، فإن أمانينا ستكون قد تحققت وإلا فستثور».

ولما كان إبراهيم في واجهة أجواء العصيان هذه، فقد أصدر أمره إلى الحكام بتجريد كل الناس من سلاحهم على الفور.

وتندلع الثورة اللبنانية في بداية شهر حزيران، وتحققت أماني بالمرستون.

وفي السابع من شهر حزيران لسنة ١٨٤٠ يأتي حدث آخر ينهي سعادته الكبيرة، ذلك أن الوزارة ستسحب من خسرو باشا. والواضح أن ميل الصدر الأعظم الكبير إلى روسيا تسبب في زوال حظوته المفاجئ. وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فذلك لايهم، فقد كان لبالمرستون ما يدعوه للفرح، ذلك أن المجال قد فسح أمام رجل ثقته، رشيد باشا.

وكان هناك شخص آخر سعيد أيضاً بزوال حظوة خسرو باشا، محمد علي، ولكن لأسباب أخرى. فما إن علم بالخبر حتى لم يعد يساوره الشك بأنه سيصيب هدفه. وفي غمرة فرحه، تخيل أنه سيصل أخيراً إلى اتفاق مباشر مع السلطان. ودون انتظار، يسارع إلى إرسال كاتبه الأول إلى إسطانبول، سامي باي، المكلف بحمل الهدايا إلى السلطان، وإلى السلطانة الأم، وبعض الوزراء النافذين. لكن وللأسف، فقد استشهد رشيد باي بوساطة القوى العظمى فرفض بكل وضوح أي تسوية مباشرة. غير أن هذا الوسيط لم يمر دون أن يسبب القلق للحظة لميترنيخ وبالمرستون. لكن وما إن مر الإنذار حتى ضاعف الإثنان من نشاطهما لإنهاء الأمر إنهاءً تاماً. وما كان لهذا الوضع أن يستمر سيما وأنه شرع في العاصمة التركية في الإعراب عن فقدان الصبر.

فرنسا الجريحة

وفي الخامس عشر من شهر تموز لسنة ١٨٤٠، وبناءً على اقتراح البارون ستورمر ورشيد باشا، عرض مشروع على إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا،

وتم تبنيه، وهذه مواده الأكثر أهمية:

المادة الأولى: «يعد صاحب الجلالة السلطان بمنح محمد علي ولورثته المباشرين إدارة باشوية مصر، ويعد جلالته إضافة إلى هذا منحه مدى الحياة، لقب باشا عكا، وقيادة حصن عكا، وإدارة القسم الجنوبي من سورية والتي تتعين حدوده بالخط الحدودي التالي[1] (. . .).

بيد أن السلطان يضع شرطاً مصاحباً لعرضه هذا، وهو أن يقبل محمد علي به في غضون عشرة أيام بدءاً من يوم إعلامه به في الإسكندرية عن طريق وكيل جلالته، وأن يضع محمد علي بين يدي هذا الأخير التعليمات الضرورية إلى قواد قواته البرية والبحرية بالانسحاب الفوري من الجزيرة العربية وكل المدن المقدسة المتواجدة بها، ومن جزيرة كانديي، ومنطقة أضنة وكل الأجزاء التابعة للإمبراطورية العثمانية غير الخاضعة لحدود مصر وحدود باشوية عكا على نحو ما أشير إليه أعلاه.

المادة الثانية: إذا لم يقبل محمد علي في غضون عشرة أيام المحددة أعلاه التسوية المشار إليها، يسحب السلطان إذن عرضه المتعلق بإدارة باشوية عكا مدى الحياة، ولكن جلالته يبقى موافقاً على منح محمد علي وورثته المباشرين إدارة باشوية مصر شريطة أن يقبل هذا العرض في غضون عشرة أيام قادمة بمعنى في أجل عشرين يوماً اعتباراً من يوم التبليغ.

المادة الرابعة: من المتفق عليه أن محمد علي في الحالة الأولى كما في الثانية ملزم (قبل انقضاء الأجل المحدد في العشرة أيام أو في العشرين يوماً) بإعادة الأسطول التركي بكل طواقمه وأسلحته إلى الموفد التركي المكلف بتسلمه».

---

(١) بمعنى خط يبدأ من رأس الناقورة في البحرالأبيض المتوسط، ويمتد حتى فتحة نهر السيسبان في أقصى الطرف الشمالي من بحيرة طبريا على طول الشاطئ الغربي للبحر الميت ويمتد حتى البحر الأحمر وصولاً إلى خليج العقبة ثم الشاطئ الغربي من الخليج وشاطئه الشرقي حتى السويس.

ويشترط الاتفاق أيضاً «أنه إذا رفض الباشا قبول التسوية آنفة الذكر التي أخبر بها بواسطة السلطان، ويساهمة أصحاب الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك هنغاريا وبوهيميا وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا، فإن جلالتهم يتعهدون باتخاذ تدابير يتم التشاور بخصوصها فيما بينهم من أجل تنفيذ هذه التسوية».

ويفرك بالمرستون يديه. ففرنسا لم تُعلم ولم تُستشر. ولم تخبر إلا بعد اثني عشر يوماً، أي في السابع والعشرين من شهر تموز. وعلى الرغم من جهل غيزو بتفاصيل هذه القضية حتى الآن، فمن الممكن جداً أن يكون وصله بأن شيئاً ما كان يحضر لكن من دون أن يصل إلى يقين. فيحذر تييرس لكن من دون مده بتوضيحات. وكان أحد الكتاب الأخلاقيين قد كتب «يعلم الناس أنهم سيموتون لكنهم لايؤمنون بذلك». وتجد هذه الفكرة تطبيقاً لها في السياسة، فقد علم تييرس جيداً أن القوى العظمى الأربعة ستنتهي بالاتفاق من دونه، ومن دون شك أنه رفض دوماً تصديق ذلك. أما ميترنيخ فلم يتوقف أبداً عن الإيمان بذلك إذ يكتب في الرابع من شهر آب اللاحق إلى مبعوثه في باريس الكونت أبونيي «أعلنت الحكومة الفرنسية بأنه يستحيل عليها المشاركة في أي عمل مادي ضد باشا مصر. أما البلاطات الأربعة الأخرى من جانبها، فإن لديها شعور بأنه لو ترك السلطان إلى ضعف عرشه وحده فإن إمبراطوريته ستهلك. فاتفقت منذ ذلك الحين على أساس عمل مشترك. هذه هي قصة مفاوضات لندن والتي ينبغي أن يستخلص منها أن هناك اختلاف بين فرنسا من جهة، والبلاطات الأربعة من جهة ثانية حول إمكانية القيام بعمل ما. وعلى هذا، فلن ينتج عن هذا شتيمة لأحد. ويمكن أن ينتج عنه حرج سياسي، لكن وفي قضايا هذا العالم، هل هناك من قضية لاتنطوي على هذا؟ (. . .) سيكون محمد علي وخلفاؤه بالوراثة في الواقع سادة على أزيد من نصف التراب العثماني، وسيتحكمون بموارد متى اجتمعت في يد واحدة ستتجاوز بما يفوق العد. تلك التي كانت بيد السلطان».

وما إن تسلم سفير فرنسا بيان بالمرستون حتى صعق. وعلى الفور يرسله غيزو إلى باريس حيث ستحدث الوثيقة ردود فعل متشابهة، فقد ثارت ثائرة لويس فيليب، وكان تييرس «مجروحاً بعمق، ومستاءً من الإهانة التي لحقت بفرنسا». أما لدى الرأي العام، فقد أدى ذلك إلى انفجار للشعور الوطني. وتمت المطالبة برد فوري، وباستثناء أنصار الشرعية، توحد كل الفرنسيين حول العلم ثلاثي الألوان، وتحت كلمة واحدة «الحرب ضد ألبيون الغدارة»[(١)].

ولم يكن الرد الأول لتييرس على معاهدة الخامس عشر من تموز بالسعيد، بل كان يلزمه الكثير لذلك، ففي معرض رده على مذكرة بالمرستون، ينتقد الحلول التي توصل إليها الموقعون بأنها «التدابير التي لاتعكس وسائل التطبيق». وهذا اعتراض سخيف ولاقيمة له لدى بالمرستون الذي أضحى يرى بكل وضوح بأن تييرس هو القوة الفعلية للباشا. وحقيقة الأمر أن تييرس يظل مقتنعاً بأن القوة العسكرية المصرية لاتمس. وقد أخطأ في هذا، إذ أنه لما كان جيش محمد علي المتناثر بين كريد والجزيرة العربية والسودان وسورية، والمتأثرة عناصره نفسياً بشكل رهيب، فإنه لم يعد قادراً على احتمال اصطدام جديد آخر. فكيف إذن أمكن لتييرس أن يراهن على عجز القوى العظمى على القضاء على باشا مصر بالقوة؟

ويخبر كوشلي محمد علي في السادس من شهر آب بخبر المعاهدة. وعلى نحو مستغرب، يظل الباشا هادئاً. وبحسب قنصل فرنسا، أنه حتى لم يبد منكسراً. وكان أول ما قاله هو إعلانه بأنه سيعطي لابنه الأمر بالسير إلى آسيا الصغرى. ويقوم كوشلي بكل شيء ليمنعه من ذلك. وكما يلاحظ، ففرنسا تصر مثلما فعلت من قبل معاهدة لندن، على ثني نائب الملك عن تجاوز طوروس، مفتاح الشرق. والسبب واضح، فهي تخشى أن تنقاد خلفه إلى أقصى نقطة.

---

(١) إنجلترا قديماً.

ويعطي الأمر لجيش الحجاز بالعودة إلى مصر. ويظل الجزء الكبير من جيش سورية على حدود طوروس، وتسحب القوات المستعجلة في قمع التمرد اللبناني إلى الساحل السوري. وأراد الباشا أن يكون متفائلاً. فهو يقدر مثل تييرس بلا ريب، بألا شيء قد تم، بينما كان كل شيء قد ضاع.

[29]

محمد علي وابن نابوليون (١٨٤٠)

في مساء السابع والعشرين من شهر تموز لسنة ١٨٤٠، يرجو تييرس الكونت ولينسكي بأن يلتحق بسرعة بوزارة الخارجية. وكان من أصل بولوني، وبجنسية فرنسية، وهو ابن علاقة حب بين نابوليون والكونتيسة واليفسكا، وكان آخر ورقة للحكومة. وتتضمن المهمة التي كلفه بها تييرس بأن ينال من محمد علي تفويضاً لتخلصه من هذا المأزق، وأن يترك لها عناية التفاوض نيابة عنه لدى السلطان. غير أنه يلزم قبل كل شيء ثني الباشا عن أن تتجاوز قواته طوروس، ويجعل الإسكندرية في حالة دفاع، وبألا يغادر أسطوله ميناءها، وبإخماد التمرد الذي يربض بسورية، ومنع اندلاعه وذلك بمنح الأهالي هناك بعض الامتيازات بضمان فرنسا.

وخلف هذه التدابير، يمكن ملاحظة السياسة الغريبة التي ينهجها رئيس الوزراء. ويمكن أن نتساءل إذا ما كان قرأ رسائل كوشلي التي يعرض فيها للماريشال سولت بأن الفرصة الوحيدة لمحمد علي لتقبل مطالبه من قبل الباب العالي هي غزو آسيا الصغرى «تماماً» وأنه بالمقابل «عاجز» عن مقاومة هجوم تركي أوروبي في سورية أو في مصر.

وفي رسالة بتاريخ السادس من شهر آب، يكتب كوشلي تقريراً عن المحادثة التي جمعته بنائب الملك حول تحالف القوى الأربعة، مؤكداً ثقته القليلة في

قدرات مقاومة نائب الملك. وفي منتصف الشهر ذاته، يرسل له نسخة من رسالة من إسطانبول إلى إبراهيم باشا تؤكد أن الهجوم هو أفضل الأوراق المصرية، وفيها «يمكن لمحمد علي أن يستفيد من الظروف للنجاح في مشاريعه. ولايتعلق الأمر إلا به لقلب الوزارة، وتغيير سياسة الحكومة العثمانية. لكني أقولها لكم صراحة، فليس بإبقاء جيشه عاطلاً عن استخدام سلاحه أو إرسال مبعوثين من وقت لآخر أو رسائل إلى الوزراء الأتراك سيحقق هدفه. فسير إبراهيم باشا إلى العاصمة ضروري جداً. فلن تجدوا تركياً واحداً في إسطانبول ليس مناصراً لنائب الملك، وكذلك الحال في سائر مناطق الإمبراطورية العثمانية» وخلاصة القول أن الآراء تتطابق، فالقوات المصرية ستكون عاجزة عن التصدي لهجوم أوروبي، ليس في مصر وأقل من ذلك في سورية، والطريقة الوحيدة للدفاع عن أراضيها هي حمل الحرب إلى آسيا الصغرى.

فالنظام الذي يتصوره تييرس إذن غير متناسق، ومخالف للوقائع التي تنقل إليه من كل مكان. فهو يحذر على محمد علي الهجوم والذي يعد الاستراتيجية الفعالة الوحيدة بالنظر إلى الوضع، ويوصي بالدفاع المحكوم عليه سلباً بالفشل، ويحكم على القوات التي لم تتحرك منذ أزيد من سنة بالإحباط المعنوي. ويميل إلى أن يمر فصل الصيف المساعد على اجتياز جبال طوروس دون استغلاله، ويستبعد الوسيلة الوحيدة للحصول على مفاوضات مع الباب العالي الذي باستثناء أن يجبر عليها بالضرورة، لن يكون بكل تأكيد مستعداً وضداً على رغبة حلفاء الخامس عشر من تموز الأربعة، بأن يتفاوض عن طريق الحكومة الفرنسية، وأقل من ذلك مع محمد علي شخصياً. من جهة أخرى، هل من اللائق دعوة محمد علي إلى طلب الحماية رسمياً من فرنسا؟ أليس في هذا ما يمنح الفرصة لخصوم السياسة الفرنسية؟ لكن تييرس المنخرط في نهجه لم يعد بإمكانه الإفلات منه، وسيستمر فيه حتى يثبت خطؤه بشكل تام.

وفي الثامن والعشرين من شهر تموز يبدأ واليفسكي في رحلته. وفي السابع

من شهر آب يركب البحر من نيس على متن السفينة البخارية «الترتار»، ويصل ميناء الإسكندرية في الرابع عشر من الشهر ذاته، حيث تتقاطع أمام ناظريه «أربعون سفينة حربية، وأربعون سفينة ضخمة مرتفعة من الجوانب، تحمل غابة من الصواري، والقوارب والحبال». وما يصفه هنا هو مجموع الأسطولين التركي والمصري معاً.

وعندما اختار تييرس واليفسكي لهذه المهمة، فلربما راهن على شعور المداهنة الذي يحمله محمد علي لنابوليون. أما افتراض أن الباشا سيسر بسماع الابن الطبيعي لقاهر الأهرامات ينقل له نصائح وزير لويس فيليب ففيه بعض المكر، والواقع أن «السحر» سيبدو ناجعاً نسبياً.

فقبل يومين من الاستقبال الذي خصص لواليفسكي في السادس عشر من شهر آب، كان الباشا قد سمع عن طريق مبعوث الباب العالي رفعت باي، وبواسطة القناصل العامين للقوى العظمى الأربعة، شروط معاهدة لندن فرفضها بتعال. وأخذت المهلة الأولى لعشرة أيام والتي ستلغى من بعدها باشوية عكا مدى الحياة تمر...

ويضاعف والينسكي من نشاطه لدى نائب الملك في الفترة ما بين السادس عشر والثلاثين من شهر آب، ويبالغ في مدح تصور تييرس ويحصل على موافقات جديدة بمنحه الوراثة في مصر، وسورية وأضنة وكاندي مدى الحياة، مع العلم بأنه يمكن لفرنسا عن طريق التفاوض منحه أضنه وكاندي.

أما فيما يتعلق بتشجيع محمد علي على المقاومة، فسرعان ما يدرك والفسكي بأن هذا مثالي، فيسارع إلى إبلاغ حكومته بوضع نائب الملك الذي لايحسد عليه، ويعبر عن شكوكه في إمكانية دفاع ناجع، ويلح بالخصوص على ضرورة إرسال إمدادات مباشرة للباشا عسكرية أو على الأقل مالية. وقد خاب مسعاه هذا، إذ سيترك تييرس محمد علي يتدبر أمره وحيداً، وسيكتفي بتشجيعه بالكلام والوعود الفارغة. وفي باريس سيكرس الملك لويس فيليب وأعضاء حكومته جهودهم في مظاهرات صاخبة لاتستند للأسف إلى أي معطى

ملموس. ويعلن الملك لسفراء القوى العظمى في المقابلة الأولى التي يمنحها لهم بعد توقيع المعاهدة «أنتم ناكرون للجميل!» وذلك بعد أن ذكرهم بكل ما غامر به من أجل الحفاظ على السلم «لكن لاتعتقدوا هذه المرة بأني سأنفصل عن حكومتي وعن شعبي! تريدون الحرب ستجدونها، وإذا ما لزم الأمر، سأزيل الكمامة عن النمر، فهو يعرفني، وأنا أعرف كيف ألاعبه، وسنرى إن كان سيحترمكم مثلي!»

غير أن ميترنيخ وبالمرستون لايردان على هذه الحركات الصبيانية، وما يشبه صرخات الحرب إلا بحسابات باردة، مثلما يكتب ميترنيخ إلى أبونيي في الرابع من شهر آب «تحلوا بالكثير من الهدوء إزاء تييرس». وإلى فريدريك غيوم الرابع لبروسيا بتاريخ التاسع من شهر تشرين الأول وبسخرية واضحة هذه المرة إذ يكتب «سيأتي يوم سيتعين فيه أن يطلب من هذا السيد الكبير (تييرس) مع من ينوي خوض الحرب. إذا كانت ألمانيا، فعليه أن يقول لماذا يريد أن يحاربها، لأنه لايكفي سعادة أن تكون جار لفرنسا بأن تدير لها ظهرك، وتتلقى الضربات التي ستتكرم بإعطائها أو أن تفتح خزائنك لملئها بالمساهمات التي ستتفضل بطلبها. وإذا لم يرد الاعتراف بهذا، يلزم تفسير صمته بالمعنى السيء، لأن جسداً سياسياً كبيراً لايمكنه أن يكتفي بالصمت فقط».

ولم يكن بالمرستون بأقل تهكماً مع غرانفيل في الحادي عشر من شهر آب الماضي «فليقولوا ما يشاؤون، فلا يمكن للفرنسيين أن يخوضوا حرباً ضد القوى العظمى الأربعة لمساندة محمد علي. هل يريدون المجازفة في حرب بحرية من أجل موضوع مماثل؟ أين سيجدون السفن القادرة على الدخول في مواجهة مع البحرية الإنجليزية دون الحديث عن البحرية الروسية التي ستنضم إلينا في وضع مشابه؟»

ويسافر والفسكي إلى إسطانبول في الثلاثين من شهر آب لسنة ١٨٤٠ بنية تسريع وتيرة الأمور. وفي غضون ذلك، أي في السادس والعشرين من شهر آب تنتهي المهلة الأولى المحددة لمحمد علي، إذ سيعود مبعوث الباب العالي

رفعت باي، ودوماً مرفوقاً بالقناصلة العامين الأربعة، لاستلام رده من محمد علي الذي أجاب بمهارة بأنه يقبل مستنداً إلى كرم السلطان في الرخص الأخرى، ومن دون شك بأن هذا الرد المتفق عليه مع والفسكي كان ليفسر لدى الباب العالي كقبول، وكان سيمكّن من إنهاء القضية لولا أن الدبلوماسية فرضت على رفعت باي بأن يفسره كرفض. وهكذا بدأت المهلة الثانية لعشرة أيام. . .

وهكذا، وبينما كان فصل الصيف يقترب من نهايته، لم تترك القوى العظمى لمحمد علي إلا أياماً قليلة ليحافظ على مصر بالوراثة، وإلا فإنه سيجازف بأن يسحب منه كل شيء برضاه أو بالقوة. والمخرج الوحيد لهذا يمكنه أن يكون دوماً توافقاً مباشراً مع تركيا. غير أنه وللأسف، لم يحقق مسعى والفسكي أي شيء، ذلك أن الأتراك الخاضعين تحت مظلة سفراء القوى العظمى الأربعة، يصرون على التطبيق الصارم لمعاهدة لندن.

الحلم المحطم

ويحاول نائب الملك عندئذ شخصياً، ومرة أخرى أن يعيد التفاوض مع السلطان، ويكتب مجدداً إلى الصدر الأعظم أحمد فتحي بلهجة خاضعة معلناً قبوله كل شروط معاهدة لندن، ومكتفياً بالإعلان عن أمله على أكبر قدر من عطف جلالته و«متوسلاً إلى القوى العظمى بإضافة الإنصاف إلى العدل الذي يميزها دون إغفال الحقوق المكتسبة بواسطة خدماته».

وكان على كل هذا الاتزان أن يؤدي من دون شك إلى التوصل إلى اتفاق. ويبلغ تيرس بولوير القائم بالأعمال الإنجليزية في باريس في الثامن عشر من شهر أيلول، ويخلص إلى القول «إذا كانت هذه الامتيازات المتوصل إليها بفضل تأثير فرنسا على نائب الملك لم تقبل، فإن فرنسا ستكون ملزمة لمده بدعمها». وتنقل الرسالة إلى بالمرستون، بيد أنه وفي الثالث والعشرين من الشهر ذاته، كان أسطول الحفاء يظهر على الشواطئ السورية.

وعقدت في لندن ثلاثة اجتماعات وزارية في الرابع والعشرين من شهر أيلول

والفاتح من شهر تشرين الأول والثاني منه، من أجل مناقشة تراخيص الباشا. وأعلن الموالون لسياسة سلمية أنها قابلة بأن تؤسس لاتفاق، ويطالبون ببعض الانفتاح على فرنسا بهذا الشأن. غير أن بالمرستون الذي لايعرف التراجع أبداً لم يقبل. فيعلن أن «المعاهدة تنفذ، وستنفذ بكل سهولة، فكيف نتراجع عنها من دون إهانة إنجلترا وأوروبا؟[1]».

والواقع أنه كان يعلم أنه انتصر، لكن باقي العالم يجهل ذلك. ولم تصل أخبار الشرق إلى أوروبا إلا في الثالث من شهر تشرين الأول التاريخ الذي أعلن فيه الباب العالي عن عزل نائب الملك وتعويضه بعزت باشا.

وأخذت سفن الحلفاء بالعمل، فقصفت بيروت. وبعد يومين من ذلك، أي في الخامس من شهر تشرين الأول تم إنزال ألف وخمسمائة بحار إنجليزي وما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف تركي الذين احتلوا نقطتين في الساحل وأقاموا معسكرهم بين جونية ونهر الكلب، حوالي عشرين كيلومتر شمال بيروت.

وأنذر الكومودور نابيي والأميرال ستوبفورد قائد الأسطول الإنجليزي، عباس باشا حفيد محمد علي بإعادة القوات التركية التي انتقلت إلى الخدمة تحت العلم المصري منذ سنة ١٨٣٣ والبنادق المنتزعة من اللبنانيين، وأعلنا له بأنه ما دامت سورية قد صارت في ملكية السلطان مجدداً فليس له من مبرر للتواجد في المقاطعة.

وخلال ذلك، دخل وود مترجم القنصلية الإنجليزية في اتصالات مع بشير، وأخذ تعهداً باسم الحكومة البريطانية بخصوص استقلال وامتيازات الدروز والموارنة. ويصل بشير في الحادي عشر من شهر تشرين الأول إلى صيدا ومنها يتوجه إلى بيروت حيث سيخير بين إنجلترا ومالطا كمنفى، فيختار مالطا. وهكذا تنتهي الحياة السياسية لمن كان بكل تأكيد أميراً عظيماً، والأول من بين أمراء الجبل اللبناني الذي تصور فكرة الوحدة والإصلاح.

---

(١) غيزو. (مصدر ذكر سابقاً).

وعهد إبراهيم إلى سيف مهمة الدفاع عن الشاطئ، في حين احتفظ لنفسه بمهمة إغاثة النقاط المهددة. وكان المخطط المشترك للرجلين يقضي بالمقاومة حتى فصل الشتاء، حيث ستضطر السفن الإنجليزية إلى الانسحاب من الشواطئ، وسيكون بإمكانهما آنذاك مضايقة القوات التي أنزلت إلى البر. ومن الواضح أن الحظ تخلى عن المعسكر المصري، فلن تسمح لهما قوات الحلفاء في أي وقت من الأوقات الوقت الضروري لتنفيذ مشروعهما.

وفي العاشر من شهر تشرين الأول، تُحتل بيروت بعد أن هجرتها الحامية التي كانت تتواجد بها قبل ذلك بيوم واحد. وفي اليوم نفسه سيتجرأ الكومودور نابيي على مواجهة إبراهيم قبل أن يمكن هذا الأخير من الوقت لتجميع قوات أكبر، وكانت معركة حامية الوطيس حول قلعة ميدان، وكان النصر أخيراً حليفاً للإنجليز.

ويكتب البارون دو ستومر وزير البابا في النمسا، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول «كنا قريبين جداً حد أنه كان بإمكان الجميع تمييز وجه إبراهيم باشا، المتميز جداً بقامته الهائلة، وأمامه ينظم الجنود صفوفهم في كل مرة يظهر فيها. أما علمه الذي تم الاستيلاء عليه في آخر المعركة، فيوجد لدى اللورد بونسونبي، وهو مصنوع من قماش التفتة الأبيض، وتوجد في وسطه حروف من الذهب، مشكلة سطرين حيث كتب في الأول «علي، أسد الله» وفي الثاني رمز الإيمان في الإسلام «لاإله إلا الله محمد رسول الله».

وهكذا تنتهي المواجهة الوحيدة التي خاضها المنتصر في نصيب ضد الحلفاء».

وتحتل طرابلس في التاسع عشر من شهر تشرين الأول، وفي العشرين منه اللاذقية. وفي الثاني من شهر تشرين الثاني تسقط حصون مدينة عكا الشهيرة. وقبل متم الشهر، كان يمكن اعتبار سورية قد فقدت. ويكتب الأميرال روسان «تعطلت القوة العسكرية المصرية، كما لو أن ذلك تم بفعل السحر. وسقطت المدن كحبات سبحة».

وأثارت هذه الهزيمة السريعة الكثير من التفكير، وحاول العديد من الخبراء الاستراتيجيين والمؤرخين تفسيرها. هل كانت لغياب الانسجام أم لانعدام المبادرة؟ هل كانت نتيجة للتفرق الكبير للقوات أم للعجز عن القتال ضد الجيوش الأوروبية؟ ويتساءل مورييز «كيف أمكن للمدفعية التي حددت مصير معركة نصيب أن تفقد صوتها فجأة؟ لم يطلق المصريون أي طلقة مدفعية في كل مواجهاتهم مع العدو».

يمكننا إنهاء الحديث عن الموضوع، غير أن شيئاً يبدو لنا بديهياً، وهو الوتيرة المتسارعة للفرار من الجندية، وموجة الإحباط النفسي إضافة إلى أزيد من سنة من التوقف، وهي عوامل ساعدت جميعها على الانهيار المريع. وينبغي التوضيح أيضاً على أن الجنود المصريين لم يتلقوا رواتبهم منذ مدة طويلة، فرواتب الألوية القادمة من الحجاز تأخرت بثمان وأربعين شهراً، وثمانية عشر شهراً بالنسبة لألوية الفرسان ولسلاح امدفعية الذي كان يتواجد في سورية.

ويكتب والفسكي الذي قدم هذه الأرقام، إلى تييرس في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول يخبره بأن إبراهيم في وضع لايحسد عليه، ويقدر إذن بأن الوسيلة الوحيدة تبقى بأن يشرع ابن محمد علي في التقدم إلى آسيا الصغرى، لكنه يضيف «أضحى من الضروري منحه المال، أو ضمان استدانة، وإذا لم يستطع محمد علي في غضون بضعة أسابيع الحصول على موارد مالية، فإني لاأظن أني أبالغ إذا ما قلت لكم بأن وجوده السياسي سيمسي معرضاً للتهديد. خلاصة القول سيدي رئيس الوزراء، أدعو عنايتكم بضرورة الحسم السريع للعمليات في سورية[1] ».

وسيظل طلبه حبراً على ورق، زد على ذلك صعوبة التدخل عسكرياً إلى جانبه في مصر، إلا أن غياب الدعم المالي غير مفهوم خاصة من رجل أعلن

---

(١) فرانسوا شارل رو. (مصدر ذكر سابقاً).

من قبل أنه «مجروح بعمق، ومستاء من الإهانة التي لحقت بفرنسا». فهل يجب الاستشهاد هنا بألفونس كار عندما يكتب «يلعب السيد تييرس بمصير فرنسا لعبة ملك وكتابة، والقطعة النقدية في الهواء». أما لويس فيليب فمن المحتمل أنه كان يخشى على عرشه.

عند سقوط عكا دقت أجراس الحزن، فبدأ إبراهيم وفقاً لأوامر والده وبحسب ما يقتضيه الوضع، في انسحابه إلى مصر. ويتم ذلك بطريقة مأساوية. وكان الأمر أشبه بالبريزينا[1] تحت شمس الشرق.

وبحسب تعليمات تييرس المؤرخة بالسابع عشر من شهر أيلول، فإن كوشلي كان ما يزال يبحث في الثاني من شهر تشرين الأول لثني محمد علي ليس فقط عن إخراج أسطوله من ميناء الإسكندرية، ولكن أيضاً على تجاوز قواته لجبال طوروس في الوقت الذي كانت فيه سورية بأكملها تحت وقع المدافع الإنجليزية، وحيث كان إبراهيم ينزف دماً. ولم يفت موريبز أن يلاحظ «أن يقال لإبراهيم بألا يتجاوز جيشه طوروس في الوقت الذي يوجد فيه فريسة لكل الكوارث، أشبه بأن يقال له ألا يمضي حتى سان بيترسبورغ!».

فضلاً عن هذا، فإن محمد علي وبعد أن أحس بما يشبه خيانة الغرب له وخاصة فرنسا، لم يعد إلا رجلاً محطماً يستشعر غصة مرارة وعاجز عن أن يكون صارماً أو أن يتخذ القرارات.

ومهما يكن الأمر، فقد أثارت الأخطاء المتكررة لرئيس الوزراء، ملك الفرنسيين مادام أنه في العشرين من شهر تشرين الأول سيفرض على تييرس تقديم استقالته، ويعين الماريشال سولت لتعويضه، ويعهد بوزارة الشؤون الخارجية إلى غيزو.

---

(١) إسم معركة دارت من السادس والعشرين إلى التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨١٢ قرب نهر البريزينا، وجمعت بين نابوليون وثلاثة جيوش روسية. (المترجم).

وعندما يأتي ميترنيخ على ذكر هذه الفوضى لأبونيي في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول لايجد إلا كلمات لاذعة «لم تقدم أوروبا أبداً مثل هذا العرض! ففي مركزها تنتحب دولة عظيمة، وتعان أنها في خطر. من أين ستأتيها هذه الأخطار؟ أين هم الأعداء المستعدون لمهاجمتها؟ ليس هناك أي جندي خارج حدود هذه الدولة حتى في الاتجاهات الأكثر بعداً، يتحرك. وما من ترسانة تعمل. وما من فكرة حرب استولت على النفوس! أين هو العدو إذن؟ هو البلد الذي يطلق صرخات الحرب، والذي يتعثر بالجنود، والذي يستدعي الأفكار الحربية، وهو الذي يحتج في الوقت نفسه على نواياه السلمية! إن هذا البلد يقول إنه شُتم. لكن من قبل من، وعبر أي طريق بلغته هذه الشتيمة؟ (. . .) لاتفهم أوروبا سيدي السفير أي شيء من هذا، وأنا أكثر جهلاً من أوروبا! إن ما أتهم به السيد تييرس جرأته غير المحسوبة ووهم السلطة الذي لا ولن تكون له أي قيمة إلا ما هي عليه من وهم. وهذا السلوك بالارتكان إلى وهم السلطة. ألا توجد ملخصة في القاعدة التي تقول بأن «الملك يسود لكنه لايحكم»؟ وهي القاعدة التي يدفعها الحس السليم والتي تنحصر فيها وحدها أسباب القلق الذي تشعره فرنسا، مثل ما تحسه أوروبا (. . .) أراد السيد تييرس أن يحدث جلبة، وقد فعل أكثر من ذلك، لقد أراد إثبات قوته فألفى نفسه مواجهاً لضعفه. إنه بلا وزن ويظن نفسه وازناً. وأخيراً فهو هذه النتيجة «القليل من الأشياء لفعل الخير، وقوة فعلية في أرض الشر» ».

وبصورة مناقضة، فخلال لقائه في التاسع من شهر تشرين الأول الماضي لملك بروسيا، لم يكن أكثر لطفاً عندما أدان عناد بالمرستون تجاه محمد علي المهزوم «نجد أنفسنا في وضع خاص جداً، وقد أذهب للقول بأنه وضع سخيف، فخصومنا سخيفون، وفي معسكرنا هناك العديد من السخافات. وهناك شخصيتان تتميزان هاهنا، السيد تييرس واللورد بالمرستون، فالأول بطل في الميدان حيث أنه وفي عصر آخر، كان المرحوم الأسقف برادت

سيكتشف جيبتر سكابان آخر[1]. أما الثاني، الذي اعترف مرة بأن مساره في الويغ[2]. كان حقاً سليماً، غير أنه يريد الانتظار بطريقة اللاعبين الذين يزعمون بأنهم سيصيرون المنتصرين على طول الخط».

ويرجو بالمرستون في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني ستوبفورد بأن يرسل ضابطاً إنجليزياً إلى الإسكندرية لإبلاغ محمد علي بأن القوى العظمى الأربعة قررت نصح الباب العالي بمنحه مصر إذا ما أرسل من فوره الأسطول التركي إلى إسطانبول، وأن يخلي كل الأراضي الأخرى. وكان على محمد علي أن يرد على هذا العرض برسالة مفتوحة يحملها ضابط إنجليزي إلى إسطانبول. وفي اليوم نفسه، يعلم الباب العالي بمسعى الأميرال. وكذلك الشأن بالنسبة لغيزو مادام أنه أعلم كوشلي منذ التاسع عشر من شهر تشرين الثاني. ويكتب له مجدداً بعد عشرة أيام طالباً منه أن يضغط على محمد علي ليقبل العرض فوراً. لكن وقبل أن يتوفر الوقت لستوبفورد لتنفيذ تعليماته، أخذ نابيي على عاتقه بأن يسبقه، إذ قام الكومودور بالفعل بمراسلة ملحة مع بوغوص باي انتهت بحمد علي أخيراً إلى قبول إعادة الأسطول التركي، والجلاء عن سورية والاكتفاء بمصر وراثية. وقد اتبع نائب الملك نصائح المحيطين به من قناصلة وتجار أجانب وأتراك وعرب. . . وقد دفع إلى ذلك مخافة قصف الإسكندرية، وإثارة الجنود والشعب ضده. وهكذا أقام حداده على سورية، وأعلن للمقربين منه بأنه ومنذ هذه اللحظة، سيحل كل شيء بشكل ودي، مادام أنه وفي كل الأحوال مثلما يضيف «عندما يغادر الناس هذا العالم، لن يأخذوا معهم شيئاً».

ومن هنا جاءت الاتفاقية التالية الموقعة في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني في الإسكندرية مع نابيي:

---

(١) لقب أطلقه الأسقف برادت على نابوليون بونابارت (المترجم).

(٢) حزب بريطاني عرف سنة ١٦٨٠ بمحاولة إبعاد دوق يورك الذي سيعرف فيما بعد بجاك الثاني عن العرش (المترجم).

«بين الكومودور نابيي، قائد القوات البحرية لجلالة الملكة البريطانية قرب الإسكندرية من جهة، وبين سعادة بوغوص يوسوفيان باي وزير الشؤون الخارجية لصاحب السمو نائب الملك في مصر (. . .)

المادة الأولى: إن الكومودور نابيي وبصفته المذكورة أعلاه، حمل إلى علم صاحب السمو محمد علي بأن القوى العظمى أوصت الباب العالي بإعادته إلى الحكم وراثياً في مصر، وبأن سموه رأى في هذا مناسبة ملائمة لوضع حد لكارثة الحرب، ويتعهد بأن يأمر ابنه إبراهيم باشا بالبدء في الجلاء فوراً عن سورية. إضافة إلى هذا، يتعهد سموه بإعادة الأسطول العثماني في حال توصله بالمذكرة الرسمية التي يمنحه الباب العالي من خلالها الحكم الوراثي في مصر، وهو التفويض المضمون والذي سيظل كذلك من طرف القوى العظمى.

المادة الثانية: سيضع الكومودور نابيي تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة بخارية تحمل الضابط المعين من قبل سموه إلى سورية لأمر القائد الأعلى للجيش المصري من أجل الجلاء عن سورية، وسيعين السير ستوبفورد قائد القوات البريطانية من جانبه، ضابطاً من أجل الإشراف على تنفيذ هذا القرار.

المادة الثالثة: اعتباراً لما سبق، فإن الكومودور نابيي يتعهد بوقف القوات البريطانية لأعمالها ضد الإسكندرية، وضد كل جزء آخر من التراب المصري، وسيرخص في الوقت نفسه لكل السفن المخصصة لنقل الجرحى والمرضى، وكل أجزاء الجيش المصري التي ترغب الحكومة المصرية في إعادتها إلى هذا البلد عن طريق البحر.

المادة الرابعة: من المتفق عليه أن الجيش المصري له الصلاحية بأن ينسحب من سورية مع مدافعه، وأسلحته وأحصنته وذخيرته ومتاعه، وبصفة عامة كل ما يشكل عتاداً عسكرياً».

نُسخ في ورقتين أصليتين. شارل نابيي وبوغوص يوسوفيان باي.

إلا أنه وما إن يتناهى إلى علم الأميرال ستوبفورد خبر هذا الاتفاق حتى يرفض التصديق عليه، ويتبرأ من نابيي، على الرغم من أن المواد أعلاه تكرس

في كل النقاط، تنفيذ معاهدة لندن. فيكتب ستوبفورد مباشرة إلى محمد علي ليعلمه معارضته:

«على متن «الأميرة شارلوت» في خليج سان جورج بيروت الثاني من شهر كانون الأول لسنة ١٨٤٠

أجدني مضطراً إلى استهجان الكومودور نابيي في الاتفاق الذي أبرمه مع سموكم فيما يتعلق بالجلاء عن سورية بواسطة القوات المصرية.

ولم يكن أبداً مرخصاً لعقد اتفاق مماثل، والذي في كل الأحوال، لن أوقع عليه (. . .) أتمنى ألا يُسبب هذا الاتفاق الذي أبرم على عجل وبدون إذن، أي حرج لسموكم، على الرغم من أن الكومودور لم يكن على علم بشؤون سورية، لكن هذا لايقلل في شيء من رغبتي القوية التي دفعتني إلى سرعة تبني تدابير تهدف إلى تجديد هذه الصداقة، وهذه المشاعر الطيبة التي أتمنى إقامتها بين إنجلترا وسموكم.»

وما إن علم بالمرستون بالأمر حتى وافق على ما قام به ستوبفورد، ورفض الاتفاق بدوره. ومن الممكن أن الاتفاق لم يمثل في نظره مظهر الإكراه، أو لربما لم يبد له مهيناً بما يكفي. وهكذا فإن الإجراء المحدد في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني من قبل بالمرستون، ومن قبله وحده، هو من سيدخل حيز التنفيذ في الأيام التالية، والذي سيحل محل اتفاق نابيي الملغى، وهذا الإجراء سيعرف تماماً هذه المرة في الرسالة الموجهة من طرف ستوبفورد بعد أربعة أيام من ذلك «على متن السفينة «الأميرة شارلوت» قرب قبرص، في السادس من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٤٠.

أتشرف بأن أنقل إلى سموكم عن طريق الملازم فلانشاو، الملازم في سفينتي، الترخيص الرسمي للحكومة البريطانية، وباسم القوى العظمى الأربعة بالاحتفاظ بباشوية مصر، شريطة قبولكم في أجل ثلاثة أيام بعد تسلمكم هذه المراسلة من الملازم فلانشاو، إعادة الأسطول إلى السلطان، والجلاء بصفة

نهائية عن سورية. وليسمح لي سموكم بأن أرجوه بأن يأخذ هذه الشروط مأخذاً جاداً.

وإني لأصلي إلى الله القادر على كل شيء بأن تعلم يا صاحب السمو أي خير ستمتعون به بلدكم التعيس بمنحكم الموافقة على قرار القوى العظمى الأربعة.

أجل «ثلاثة أيام»، الجلاء «النهائي» عن سورية، بلدكم «التعيس». . . هل بواسطة هذه الكلمات المنمقة يستطيع بالمرستون أن يروي ظمأ عقابه للباشا. . .؟

ويخضع محمد علي في العاشر من شهر كانون الأول إلى كل الشروط، ويسلم فلانشاو رسالة مفتوحة يؤكد فيها إلى الصدر الأعظم قبوله.

انتهى الحلم. فمنذ هذه اللحظة، سقطت إمبراطورية الفرعون الأخير. ولم يبق له إلا مصر. وكانت مصر «قصبة» مكسورة».

[30]

إخراج أسرة حاكمة من الرمال (١٨٤١ ـ ١٨٤٦)

ويكتب السلطان في الثالث عشر من شهر آذار لسنة ١٨٤١ «خطي شريف» يمنح فيه الوراثة إلى المهزوم. وتحمل طريقة كتابته دون نقاش بصمة اللورد بونسونبي وبالمرستون. فكلاهما يرى أنه من الضروري تضييق هذه الوراثة بشروط خاصة تسجن مصر في حدود ضيقة من الاستقلال الداخلي والخارجي. ومجمل القول، بأن الأمر يتعلق بطوق تم تصوره على قياس عنق محمد علي.

١ ـ عندما يفرغ عرش مصر، يصعد إليه أحد الأبناء الذكور الذي يفضله ويختاره السلطان، وبحسب مبدأ خلافة يطبق أبداً، وفي حال عدم وجود خلفاء ذكوراً فإن الباب العالي يمنح حكومة مصر لمن يشاء.

٢ ـ لايعطى امتياز وراثة الحكم الممنوح لحاكم مصر أي حق من حقوق غير ما للباشوات الآخرين. ومعاهدات وقوانين الإمبراطوية تطبق في مصر كما في باقي الباشويات، فالشكل واللقب والقيمة النقدية هي نفسها كما في تركيا.

٣ ـ يعود ربع دخل مصر الخام من الآن فصاعداً إلى السلطان من أجل الحاجات العامة للإمبراطورية[1]. أما الأرباع الثلاثة المتبقية فتبقى لسد نفقات

---

(١) بخصوص هذه النقطة، كتب اللورد بونسونبي إلى السلطان بتاريخ الفاتح من شهر شباط «إذا ما=

التحصيل والإدارة، إضافة إلى دفع قيمة القمح الذي يتعين على مصر إرساله كل سنة إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وتجبى كل الضرائب باسم السلطان حتى لايتعرض الأهالي للابتزاز، وإلى جبايات غير نظامية.

٤ ـ لايمكن لمصر بناء منشآت حربية إلا بإذن السلطان، ولاينبغي لجيشها أن يتجاوز عشرين ألف رجل يقيم ألفان منهم في إسطانبول. أما اللباس الموحد والشارات فإنها مطابقة تماماً لمثيلاتها لدى قوات الإمبراطورية، في حين أن تعيين ضباط البر والبحر حتى درجة مقدم يعود إلى الحكومة المصرية، أما الضباط الأعلى رتبة فيكونون من اختيار السلطان.

ومادام امتياز التوريث لحكومة مصر خاضعاً للشروط المعلن عنها أعلاه، فإن عدم تنفيذ أياً منها يدفع إلى سحب هذا الامتياز.

ويرسل مبعوث من الباب العالي في العشرين من شهر شباط ويدعى سعيد مهيب أفندي، ويكلف بحمل «خطي شريف» إلى باشا مصر. ويرفض نائب الملك من فوره الخضوع له معلناً بصرامة «هل يريدون إنكار ابني إبراهيم، فهو يقود الآن جيشاً مهماً، وهو رجل ممن يطالبون بحقوقهم والسلاح في أيديهم. زد على ذلك، ومهما كانت تربية أبنائي لامعة، فإنهم لن يرضوا أبداً الامتثال لغير أكبرهم سناً. فسعيد بحار ممتاز، ويتحدث العديد من اللغات، وله مواهب متميزة لكن ما من أحد من إخوته سيمتثل له على حساب إبراهيم. كلا، يلزم أن تسوى الخلافة بشكل أكيد، وبحسب نظام الأكبر سناً، وبدون هذا، ليس هناك من توريث ممكن. أما بخصوص حق اختيار ضباط جيشي الذي يريد الباب العالي انتزاعه مني، فإنه لايقوم بذلك إلا بهدف إهانتي، وما يفرضه بخصوص شكل ولون الزي الموحد فإنه سخيف، فإذا ما خضعت له

= تركت تحصيل العائدات بين يدي محمد علي، ستتأكد بلا شك عن طريق دراسة الميزانية المصرية المبلغ الكبير الذي سيترك تحت تصرفه، ولاأحد يجهل بأن المال هو السلاح الفعال الذي يمكنه أن يستخدمه ضد السلطان، وسيستعمله». صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

فإني سأصير محتقراً من لدن أتباعي.» ويضيف بالقول: «عشرون ألف رجل. أتساءل كيف يمكن حكم مصر بمثل هذا العدد القليل. بفضل الله لم يعد هناك في مصر أي نوع من أنواع الاضطراب، لكن كيف يمكن تقدير بأن هذا العدد من القوات كاف للدفاع عن البلد! حسناً! ألا يرون أن هذا البلد هو مفتاح إفريقيا ولربما مفتاح إسطانبول؟ وأخيراً فإن اقتطاع الربع من مداخيل مصر يعد حرمانها من الوسائل الضرورية لحفظ بقائها وإدارتها المدنية والعسكرية، بل إنه سلبها وجودها! [1]».

وبالفعل، فإن الشروط المفروضة من قبل السلطان تحت التأثير البريطاني كانت مكرهة جداً حد أن الكومودور نابيي الذي كان مايزال بالإسكندرية وجدها غير مقبولة. وحتى في لندن نفسها فإن النواب سيثيرون المسألة في مجلس العموم، ويعلنون عن استهجانهم لموقف بالمرستون.

وعلى أي، فقد لزم أزيد من أربعة أشهر لتذليل العقبات التي خلقها بونسونبي لإعلان ولنشر «خطي شريف» جديد، الذي سن في الفاتح من شهر حزيران وعدل في بعض النقاط:

١ ـ يمنح التوريث بحسب قانون الأكبر سناً، بمعنى أن العرش يعود إلى الذكر الأكبر سناً من أسرة محمد علي.

٢ ـ لنائب الملك حق تعيين ضباط الجيش حتى رتبة عقيد حصراً.

٣ ـ تحدد الضريبة وعوض حسابتها بنسبة عائدات مصر، بمبلغ نهائي وهو أربعون مليون قرش.

غير أنه وعلى الرغم من هذا التخفيف فإن الوثيقة أبقت مصر على درجة كبيرة من التبعية للباب العالي، فهي تفرض على كل نائب جديد للملك أن يذهب إلى إسطانبول ليتسلم مرسوم تنصيبه، وينحني أمام سيده. ويظل عدد

---

(١) صبري. (مصدر ذكر سابقاً).

عناصر الجيش المصري محصوراً في ثمانية عشر ألف رجل، إلا في حالة الحرب، وبإذن عاجل من السلطان. إضافة إلى ذلك، يمنع على مصر إنشاء أية منشأة بحرية. وخلاصة القول، فقد أضحى ينظر إلى محمد علي مثل أي باشا آخر من باشوات الإمبراطورية العاديين، وظل وادي النيل ولاية عثمانية. والامتياز الوحيد الذي لايستهان به وهو أنه وبدءاً من هذا اليوم، ستحكم مصر عائلة، ومن هنا تنشأ قضية استقلالها.

ويقبوله بهذه الشروط النهائية، فإن محمد علي وضع حداً لفصل من أعقد فصول، ومن دون شك، ومن أكثرها مأساوية، في قضية الشرق، والتي سترى النور مجدداً تحت ظل ظروف جديدة. . .)

ومن اليوم، ستنكمش مصر على نفسها، ويرثي محمد علي أحلامه بالعظمة. وأضحت مصر بعد كل ما حدث، ما كانت عليه دوماً، فتحاً عثمانياً، ولن يكون لها سياسة داخلية بعد الآن إلا السياسة التي تحدد بالإكراهات التركية، أما سياستها الخارجية فقد أخرس لسانها.

لم يبق للفرعون المسن في ربيع سنة ١٨٤١ هذه، إلا ثمان سنوات من عمره. وهي سنوات ستمضي من دون طعم، ومن دون شغف، ومن دون حرارة. صحيح أن المصالح الإنجليزية الفرنسية استمرت في التعارض، لكن وإذا ما ارتدى صراعهما أقنعة أخرى، فإن الرهان ظل بكل قسوة كما هو، التحكم في طرق الاتصال مع آسيا وطريق الهند.

وعاد السلام بسرعة، وفي أثناء ذلك، ظهر مشروعان كانا يرقدان في الخفاء. الأول فرنسي، ويتعلق بالحلم القديم بالوصل بين البحرين أي قناة السويس القادمة. والثاني إنجليزي، وكان يعتمد على إنشاء خط سكة حديد، يصل القاهرة بالسويس والقاهرة بالإسكندرية. وبطبيعة الحال، فكل طرف كان يقوم بكل ما يستطيعه من أجل إفشال مشروع الخصم.

وتضع الحكومة الإنجليزية سنة ١٨٤٤، وبتحريض من الضابط السابق في

جيش الهند طوماس واغورن[1]، وعن طريق المهندس غالوي، مخططها لطريق السكة الحديدية التي ستنشأ تحت إدارة السيد ستيفانسن والسيد برينيل.

ويشرح واغورن بأن «الوقت قد حان لتشق الحكومة الإنجليزية أقصر طريق في اتجاه الشرق، وينبغي لهذه الطريق أن تمر عبر هذا البلد، لأن مصر مركز، وطريق كبير بين الصين والشرق، وأمريكا والغرب».

ومن أجل تمويل المشروع، يقترح الإنجليز على محمد علي خدمات أكبر رجال المال في أوروبا، ممثلين في شركة الإخوة روتشيلد، فيرفض محمد علي رفضاً قاطعاً، لأنه كان يشعر من دون شك بأن قرضاً مالياً قد يتحول في رمشة عين إلى قرض سياسي. وهذا ما لم يكن يريده مهما كلفه ذلك من ثمن.

تبقى قناة السويس إذن. فقد خاض فيرديناند دو ليسيبس الذي كان يومذاك قنصلاً بالإسكندرية هذه الحرب بكل ما أوتي من وسائل بغية إقناع الباشا الشيخ بأهمية مشروع مماثل. وهنا أيضاً، يقف محمد علي موقفاً حازماً، فهو يريد هذه القناة، لكن «بشروطه» هو. ويقتنع بحس نبوئي بأنه ما إن ينفذ المشروع من قبل العبقري الفرنسي حتى تحقق من ورائه إنجلترا أكبر فائدة. وتعزى له هذه الكلمات الجديرة برجل بعيد النظر «إذا ما حفرت فرنسا ومصر سرير قناة السويس، فإن إنجلترا هي التي سترقد عليه». وسواء أصحت نسبة هذا القول إليه أم كان محط شك، فإن هذه الكلمات تترجم في كل الأحوال المبرر الذي

---

(1) لما كان فاغورن مقتنعاً دوماً بإمكانية إقامة طريق برية جديدة حتى بومباي أو كلكوتا، وأنها ستكون أقصر من الطريق البحرية، فقد بذل جهداً كبيراً، وعبثاً في إقناع السلطات البريطانية بصحة رؤاه، ولما كان مدفوعاً بشغفه الذي يميز المغامرين العباقرة، فقد قصد مقر الشركة الهندية في لندن، وحصل على الرسائل التي ترسل عادة عن طريق البحر مروراً برأس الرجاء الصالح، وبعد أن أعلم رجال الأعمال الذين يقيمون علاقات تجارية مع القارة الهندية، ركب البحر من فرمونت عن طريق سفينة بخارية تؤمن الاتصال بمالطا. ومنها قصد الإسكندرية. وعند وصوله إلى الميناء المصري، تابع رحلته حتى السويس، فقطع البحر الأحمر في أربعين يوماً منذ انطلاقه من إنجلترا حتى وصوله إلى بومباي. أربعون يوماً عوض سبعة إلى ثمانية أشهر. وهكذا قدم عرضه.

قدم للسيبس، إذ كان يخشى أنه ما إن يفتح المضيق حتى تزداد رغبة إنجلترا في الاستيلاء على مصر، ومتى تحققت لها هذه الرغبة فإنه لن يستطيع التصدي لها عسكرياً. ثم إنه قال إلى ليسيبس دون مواربة بأنه يحتاج وقبل إعطاء موافقته على شق القناة إلى ضمانات من أوروبا لصيانة مصر ضد أي اعتداء أجنبي. وبطريقة أخرى، فإنه كان يلح على حيادية القناة. وبحسبه، فإن فتح قناة تواصل من هذا النوع بين بحرين لن يتم إلا شريطة تعهد القوى العظمى بضمان الانتفاع به عن طريق عقد جماعي رسمي. ولتجنيب مصر الأخطار الممكن أن تحدق بها في حال الشروع في شق القناة، يطالب بتعهد دولي. واستعارة لجملة إسماعيل حفيده، فقد كان يرغب «بأن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة». وباختصار فقد كان يظن، وهو محق في ذلك، بأن تحقيق هذا المشروع سيمنح احتلال مصر دافعاً أكبر، وأن إنجلترا ستستفيد من أول أزمة لتقوم بذلك، وهو ما سيحدث فعلاً.

وعلى الرغم من حالته الصحية المتقلبة التي بدأت تلم به، فإن محمد علي البالغ من العمر حوالي ثمانين عاماً، برهن دوماً على صفاء ذهني عجيب إزاء الأخطار المحدقة بالأرض التي نجح في الحفاظ عليها لما يقرب من نصف قرن.

وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٤٤، سيتأثر بدرجة كبيرة بموت أحد أكثر خدامه وفاءً، بوغوص يوسوفيان باي، فقد أجمع كل الشهود بأن هذا الغياب سبب له صدمة حقيقية. وعندما علم بأنه لم توجد في بيته إلا تسع عشرة قطعة من فئة خمسة قروش، صاح «مستحيل، لقد سُرق! كان يجب أن توجد لديه ماسة من سبعة عشر قيراط أودعتها عنده. وإذا لم توجد هذه الماسة، فلأنها سُرقت مثل كل الثروة التي خلفها بوغوص وراءه!».

وأتى أمر من القاهرة، فشرع منذ اليوم الموالي بحفر بيت الوزير الهالك، بإشراف من زكي أفندي حاكم الإسكندرية، ورئيس الجمارك راتب باي. ويكتب نوبار باشا ابن أخ بوغوص في مذكراته «لو أنهم لم يجدوا الماسة، فأي

تهمة كانت ستنزل على أهل بيته؟ والوحيدون الذين كان باستطاعتهم دخول غرفة المريض كانوا، كاتبه الشركسي سليمان أفندي، وأنا وخادم عمي. وفجأة، رأيت سليمان أفندي يكاد يغمى عليه وهو يمد ظرفاً كان يمسكه بقوة بين أصابعه. كانت ماسة نائب الملك. لم تحدث إذن أي سرقة. إضافة إلى هذا، اكتشفنا في الأوراق الشخصية لعمي ستة أوراق موقعة على بياض تحمل توقيع نائب الملك، أعطاها محمد علي إلى بوغوص لحظة سفره إلى السودان ليستخدمها عند الاقتضاء. وقد سلمت الأوراق والماسة إلى زكي أفندي. والملاحظ أن بوغوص باي، وبعد أن احتل في مصر موقعاً استثنائياً لمدة أربعين سنة، مات فقيراً، بل إنه ترك بعض الديون عليه».

وعندما أعلم نائب الملك بالأمر، أعلن بالقول «لو أني علمت أن بوغوص لم يخلف وراءه شيئاً لخبأت مائة ألف تالاري تحت سريره حتى لايقال إن محمد علي يهمل خدّامه».

ويواصل نوبار كلامه: «في يوم الدفن، وعندما حان وقت حمل الجثمان، تم عبثاً انتظار العسكريين، ولم يكن هناك من يمشي في جنازته إلا سكان الإسكندرية والأوروبيون. وبعد ثلاثة أيام، وجه نائب الملك أمراً إلى قائد الألوية في الإسكندرية أنقله هنا حرفياً «إلى السيد وافر الحظ الجنرال عثمان باشا. أنت حمار! أنت حيوان! كيف يموت الرجل الذي اشتراك ورباك، دون أن ترافقه أنت ورجالك إلى المقبرة! عندما تصلك هذه الرسالة، عليك التوجه إلى الكنيسة الأرمينية مرافقاً بضباط الحامية في الإسكندرية، وليخرج جسد بوغوص، وليعاد دفنه من جديد، وستقدمون له تحية الشرف العسكرية. إحذر أن تخالف هذا الأمر!» وتمت إطاعة أمره حرفياً بخصوص إخراجه من قبره، وقدمت له مراسيم تشييع جنائزية حضرتها عناصر الجيش.

وبدأت أولى أعراض الاضطراب العقلي تظهر على سلوكات الباشا. ومنذ السادس والعشرين من شهر تموز لسنة ١٨٤٤ أشار القنصل اليوناني بالإسكندرية إلى بعض التصرفات الغريبة «استفاق الباشا هذا الصباح غاضباً،

فقصد حديقة محرم باي الذي لاتبعد سكناه عن المدينة»[1]. وكان انتقاله غير المنتظر هذا قد أعقب الإعلان عن رحيله إلى القاهرة، وهي الرحلة التي لم يشر لها أبداً في اليوم السابق. وما إن دخل الحديقة، حتى سجن نفسه في غرفة رافضاً استقبال أي كان. وقد بعث هذا السلوك الاضطراب لدى المحيطين به ولدى وزرائه. والواضح أنها نشأت عن بعض الاستياء ألم بسموه...»

وفي اليوم الموالي، كتب الدبلوماسي نفسه «أعلن سموه بأنه سيغادر إلى مكة. ولم يكن أيا من المحيطين به حاضراً وقت صعوده السفينة، لأن سموه أعلمهم بأنه لايريد رؤيتهم أو سماعهم. ولم يأخذ سموه معه إلا صيدليه، وبعض خدمه».

والواقع أن محمد علي لم يقم بهذه الرحلة، فساعات بعد ذلك، يعلن إلى إبراهيم أنه وعوض ذهابه إلى مكة، سيسافر إلى القاهرة.

وفي الثامن والعشرين من شهر تموز، يستقبل القناصلة في قصر القلعة، فيطمئنهم نائب الملك معلناً لهم بأنه تعرض «لأزمة عابرة»، ولكنه يشعر الآن بأنه سيد نفسه. ويمر الإنذار. غير أن الأمر مجرد تحسن بسيط.

إبراهيم في الأنفاليد[2]

وبعد سنة من ذلك، يقرر محمد علي الراغب في استئناف الروابط مع الغرب، إرسال إبراهيم إلى أوروبا، بيد أن إبراهيم مريض. ذلك أن الحياة العسكرية استنزفته. فقد اتضحت هشاشته الصحية منذ عودته من موريي. وفي شهر آب هذا من سنة ١٨٤٥، أنهك حرفياً بالزحار الذي كان قد أصيب به في

---

(١) بخصوص هذا البيت، كتب شامبوليون بتاريه الرابع عشر من شهر أيلول لسنة ١٨٢٩ «يعيش البلد المجاور في كآبة مميتة، والمكان الذي شيد عليه المنزل الريفي لمحرم باي، صهر الباشا وحاكم الإسكندرية لايمنح انطباعاً بالفرح، على الرغم من بعض النخلات المزروعة التي يسمونها (بستان)».

(٢) كنيسة حولت إلى مقبرة لنابوليون وابنه الذي مات في الحادي والعشرين من عمره. (المترجم).

السودان[1]. فنصحه أطباؤه ببضعة أيام في حمامات سان غايتانو قرب بيزا. ويقال إنها حمامات ملكية رائعة ضد «آلام الأمعاء». فالجولة الأوروبية التي فرضها عليه والده ستمكنه في الوقت نفسه من العلاج.

وهكذا، يقيم شهري شتنبر وأكتوبر في بيزا حيث يستضيفه الدوق الكبير، والذي يضع تحت تصرفه جناحاً في قصره. غير أن العلاج المتبع في سان غايتانو يبدو غير مجد. فيقرر إبراهيم التوجه إلى فرنسا، ويستغل فرصة تواجده فيها لاستشارة أشهر أطبائها. وفي بداية شهر تشرين الثاني يقصد طولون، ومنها إلى فيرني ليبان في جبال البيرني، حيث مياهها القادرة على الشفاء باعتراف أطباء بيزا أنفسهم. ويستقبل في فيرني بقوس النصر، نصب على شرفه وكتب عليه «إلى المنتصر في قونيه ونصيب». وكانت هناك حزمة من الأعلم المصرية والفرنسية تزين طريقين واسعتين من شجر ضرابة الراعي، والتي تقود إلى قوس يحمل هذه الكلمات «إلى ابن محمد علي الكفء. إلى رجل حضارة الشرق. إلى صديق الفرنسيين. إلى بطل مصر».

ويستمر علاجه بها حتى شهر نيسان من سنة ١٨٤٦، ولم يكن جواره إلا سليمان باشا. وفي منتصف شهر نيسان، يعلن الدكتور لالمون بأن الأمير قد تعافى، وبأنه يستطيع السفر إلى باريس من دون مخاوف.

وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان، وبعد توقف في بوردو وآخر في تور، يصل إبراهيم أخيراً إلى باريس حيث يستقبل بحماسة وألق تجاوزا ما عرفه حتى الآن. ويستغرق موكبه ساعتين ليعبر المسافة بين المحطة وقصر الإيليزيه بوروبون. وتعد له في الطابق الأول الغرف التي كان نابوليون قد شغلها من قبل، وكأنها غمزة من عين القدر، فقد نام المنتصر في معركة نصيب في هذه الليلة على سرير المنتصر في معركة أوسترليتز، غير أن الإرهاق يبدو عليه مجدداً، فينصحه الأطباء ببضعة أيام من الراحة.

---

(١) يشير كلو باي أيضاً إلى إصابة بالبروستات عالجها الدكتوران بروني وكاسطانوني.

وهكذا لم يتم استقباله في قصر التويلري إلا في الثامن والعشرين من شهر نيسان، وقد أحيط لويس فيليب والملكة على شرفه بكل من دوقة أورليونز، والأميرة أدلاييد، ودوق ودوقة نيمور، وأمير وأميرة جوانفيل، ودوقة أومال، ودوق مونبونسيي. وكان سولت وغيزو من بين الحضور أيضاً.

ويزور الأنفاليد في اليوم الموالي مرافقاً بدوق مونبونسيي وسليمان باشا ومساعديه. وبعد أن انحنى أمام قبر الإمبراطور، استقبله الحاكم العسكري الدوق ريجيو، وقدمت له التحية العسكرية من قبل ألفي من المحاربين السابقين في المعارك النابوليونية، احتشدوا جميعاً في الساحة الرئيسية.

ويقام حفل في اللوكسمبورغ على شرفه في الثلاثين من الشهر نفسه. وكانت تتربع البهو لوحة هوراس الشهيرة عن مذبحة المماليك. ويتأمل إبراهيم اللوحة طويلاً قبل أن يهمس «كلا، هذا ليس وجه والدي. إنه وجه آخر».

أما بقية إقامته في العاصمة، فلن تكون إلا تعاقب للاستقبالات والحفلات الموسيقية، في حين أن التعظيم الأكبر سيدور في شون دو مارس في الخامس والعشرين من شهر أيار. ويكتب إدوارد غوين الشاهد عليه «لم تستخدم شون دو مارس أبداً منذ أيام نابوليون كمسرح لعرض بمثل ذلك الألق. إذ شارك فيه ثمانية أمراء، وست أميرات، وهيئة أركان من ستين ضابطاً عاماً وقائداً. حتى إن الشمس بدت وكأنها ارتدت ثوب الاحتفال لتحية المنتصر في معركة نصيب، أحد أبنائها. فقد كان الخامس والعشرين أجمل يوم لأجمل شهر لأجمل فصل من سنة ١٨٤٦».

وبعد فرنسا، جاء الدور على إنجلترا بناءً على دعوة رسمية من الملكة فيكتوريا، فيقصد إبراهيم لندن حيث يستقبل في باكينغهام كما يليق به، بواسطة الملكة ثم من قبل الكومودور نابيي وبالمرستون نفسه ورجال الدولة الرسميون. وفي مساء الثالث عشر من شهر تموز يقيم اللورد بالمرستون مأدبة عشاء فخمة على شرف الأمير. وعندما حانت ساعة النخب، ألقى كل وزير كلمته، وكان بالمرستون آخر المتحدثين، وأنهى كلمته المقتضبة بهذه الكلمات «على مصر

أن تضع في اعتبارها هذه الساعة بأنه ليس لها من صديق أكثر صدقاً من بريطانيا العظمى». «لاتعليق!».

وفي اليوم الموالي، يركب إبراهيم البحر على متن الفرقاطة البخارية «الآفنجر». ويصل لشبونة في الثالث والعشرين من شهر تموز. وفي الثالث من شهر آب عاد إلى الإسكندرية.

وفي أثناء ذلك، كان محمد علي في القاهرة، يكرس كل طاقته لإقامة التوازن في الخزينة المتأثرة بكل سنوات الحروب تلك. وعلى الرغم من أن المنتوجات المصرية فقدت الكثير من قيمتها التجارية سنة ١٨٤٣، فالقطن مثلاً الذي كان يقدم سواء في السنة الجيدة أو في السنة السيئة مبلغاً صافياً يقدر بثلاثين مليون فرنك، فإنه لم يعد يقدم إلا ثلث هذه القيمة، إلا أن نائب الملك كان ينظر إلى الوضع بتفاؤل. فأنشأ مصرفاً تابعاً للدولة كانت مهمته الرئيسية وضع حد للمضاربة غير المشروعة في السوق النقدية وفي سوق القيم وعلى البضائع، وتسهيل أداء رواتب الموظفين. ويبدو أن هذه المؤسسة أعطت بعض النتائج الحسنة.

وفي سنة ١٨٤٦، السنة الوحيدة التي نتوفر على معطيات مالية حولها يمكن اعتمادها والثقة بها، كانت الوضعية المالية تقدم إشارات أفضل. فقد قدرت المداخيل بثمانمائة وأربعين ألفاً وأربعمائة وستين بورصة، والنفقات بأربعمائة وتسعة آلاف بورصة.

ويقرر الباشا الشيخ في سنة ١٨٤٤ أن يستجيب لدعوة سيده، ويسافر إلى إسطانبول حيث يصلها بحراً في العاشر من شهر تموز أي حوالي شهر قبل عودة إبراهيم. وقد أحيطت زيارته بكل الروعة الشرقية، وذلك بلا ريب رغبة في طي صفحة صراعات الماضي، ومحو الخصامات السابقة والتي ظلت تفصل بين البلدين.

ويستقبل عبد المجيد تابعه بعظمة واهتمام، غير أنه وعند رؤية هذا الشيخ الهزيل والمنحني نتيجة لتقدمه في السن، يختفي حماسه بشرعة. ويمد محمد

علي من مدة إقامته في البوسفور من دون جدوى، ومن المحزن والمحبط أن يركب البحر إلى مقدونيا حيث ينتظره المرفأ الصغير لطفولته: كافالا.

وليس هناك من شاهد عيان مدنا بتفاصيل هذا الحج، لكن يمكننا تخيله بكل سهولة. تاجر تبغ غير معروف، وأمي هز أركان الإمبراطورية العثمانية القوية. وكان البوسفور تحت رحمته، وفتح إمبراطورية ضخمة، وأخرج وادي النيل من الظلام، وأسر أنظار أوروبا. كان محمد علي يفكر في كل هذا عندما وقف في صمت في مقبرة كافالا المتواضعة، أمام قبر والده...

[31]
المعركة النهائية (١٨٤٦ ـ ١٨٤٩)

منذ عودة محمد علي إلى مصر في الرابع والعشرين من شهر آب لسنة ١٨٤٦، ولما كانت أحواله الصحية هشة، فقد أخذت في الانهيار شيئاً فشيئاً لتجبره على التزام السرير. وبحسب كلو، فإن مرضه في تلك الفترة يحمل بعض أعراض التيفويد.

ومن المحتمل أن بدايات الصراع بين الباشا وابنه ستظهر في هذه الفترة. والواضح أن إبراهيم كان يغلي، ويكاد صبره ينفد عند أقدام العرش. ولم يفهم لمَ لايتخلى له والده المريض جداً عن مكانه. من جهة أخرى، بدا أن الأمير كان متلهفاً للقيام بإصلاحات في الميدان الفلاحي، وهي الإصلاحات التي كان يعارضها محمد علي بشدة. ولم تعرف موجة التوتر المتزايدة بينهما إلا هدوءاً مشوشاً في التاسع من شهر نيسان لسنة ١٨٤٧، تاريخ وضع اللبنة الأولى لمجموعة من القناطر أطلق عليها «القناطر الخيرية».

وبدأت صحة إبراهيم في شهر أيلول في التدهور، وشرع مجدداً الحديث عن الزحار، وتوالت عيادة الأطباء. ومرة أخرى، يُنصح الأمير بالسفر إلى مالطا، ثم إلى إيطاليا.

وكان على الرجل الذي كانت تهتز له كل أرجاء رأس التين، أن يُحمل في التاسع من شهر تشرين الأول على متن السفينة البخارية «القاهرة»، مادام أنه كان

شديد الضعف. وبصورة غريبة، يستعيد كل طاقته فور وصوله إلى مالطا، حد أنه يخبر أطباءه بلاجدوى مواصلة الرحلة، لكنه يوافق على مواصلة رحلة استشفائه إلى إيطاليا أمام شدة إلحاحهم. وهكذا يصل إلى بيزا في العشرين من شهر تشرين الأول، ويستقر بها حتى نهاية شهر كانون الثاني لسنة ١٨٤٨.

وبحسب كاتبه حينها الذي لم يكن إلا نوبار باشا، فإن إبراهيم كان مضطرباً وقلقاً ومترقباً دوماً لسماع ومعرفة الأخبار القادمة من الإسكندرية.

«فلربما بدأ يجد الوقت طويلاً، وبأن والده تأخر كثيراً في التنحي له عن منصبه. إضافة إلى ذلك، فقد أخذ يعتقد بتخلصه من النبوءة الشائعة، والتي تقول بأن «محمد علي سيعيش بعد إبراهيم» لأن قريبه ويدعى إبراهيم أيضاً، قد توفي قبل مدة قريبة، فقد تحققت النبوءة إذن، إذ أن إبراهيم ما قد مات قبل محمد علي. وهكذا تم إرضاء القدر».

ويتوجه في شهر شباط من سنة ١٨٤٨ وهو معافى تماماً، ظاهرياً على الأقل، إلى نابولي حيث من المفترض به أن يلتقي والده الذي نُصح أيضاً بالسفر إلى أوروبا. وفي الحادي عشر من شهر شباط، يسلك محمد علي النيل من شبرا إلى الإسكندرية التي يمضي بها ثماني وأربعين ساعة، قبل أن يصعد على متن السفينة البخارية «الإسكندر» التي وضعت تحت تصرفه من قبل بارو، قنصل فرنسا في مصر.

وبعد خمسة أيام من الإبحار، ولما لم تتحسن حالة نائب الملك، قدر المحيطون به أنه من الحذر أن يتوقفوا في مالطا، حيث كان على محمد علي أن يمضي بها اثنا عشر يوماً من العزل الصحي، غير أن الطقس في الجزيرة قُدر بأنه غير مناسب، فتم الرحيل إلى نابولي[1]. ويصر الدكتور كلو الذي كان

---

(١) بحسب نوبار، فقد لجأ أطباء نائب الملك إلى علاج مستخرج أساساً من نترات الفضة. والأمر مقبول، ذلك أن ملح الفضة يحمل ملامح تطهيرية ويسهل التئام الجروح. بالمقابل، يعزو له نوبار الاضطرابات العقلية لمحمد علي، والذي لايبدو مقبولاً لأن أعراض الخلل العقلي ظهرت قبل بدء أخذه هذا العلاج (شهر تموز من سنة ١٨٤٤). غير أنه يمكن أن تكون هذه النترات قد =

ضمن طاقم الرحلة على ود الباشا الثابت ولطفه إزاء الجميع ورعايته المفعمة، حد أنه وعلى الرغم من تعبه الكبير، لم ينس أبداً بأنه وعد طبيبه بتسعة دكاكين، فأوصاه بأن يطلب إنشاءها من الوزير المختص سامي باشا.

وفي السادس من شهر آذار، وبعد توقف دام ست ساعات في سيراكوزة، وصلت «الإسكندر» إلى نابولي حيث استقبل محمد علي من لدن الأمير أكيلا، أخ ملك الصقيليين، ومن قبل إبراهيم. وينقل نوبار باشا بالقول «بأي قلق كان ينظر إبراهيم إلى أبيه! لايمكن القول بأن الملك قد جنّ، لأنه من حين إلى آخر كان واعياً بحالته. فقد كان يراقب نفسه، وعندما يشعر بأن عقله، أو بالأحرى ذاكرته، تفلت منه، فإنه يرتكن إلى صمت مطبق، ويبذل جهداً كبيراً للإمساك بحبل أفكاره. وسواء تمكن من ذلك أم لم يستطع، فإن سيماء وجهه وطريقة تعامله لم تتغير، فقد حافظ على مظهره الحسن، وهذه النظافة المقصودة التي تصل حد الأناقة. وكانت نظرته نافذة بها شعلة حياة لا تخبو، فإذا ما جلس تنثني ركبتاه نصف ثنية. ودوماً سيفه على مقربة من يده. وما أشد اختلافه في هذا مع إبراهيم الواقف أمامه، وهو يضع سترة شعبية، برأسه المنحنية، ويديه المتشابكتين على صدره علامة على الاحترام، منتظراً أمراً أو إذناً بالكلام! وكان يتأمل والده متسائلاً إن كان مرضه خدعة أم حقيقة».

وسيعلم محمد علي في نابولي بالأحداث التي كانت فرنسا مسرحاً لها، والمتعلقة بثورة شباط، وإعلان الجمهورية. فقد أدى تنازل لويس فيليب عن عرشه إلى إلقائه في حالة من الذهول الشديد. ويبدو أنه كان متعلقاً بقلبه وروحه بشدة بالملك المخلوع. فالاضطراب الذي أحسه زاد من هشاشته، وأحدث الفوضى والتخبط في عقله. فكان يُسمع يكاد ينفجر غضباً ضد «الأشقياء الذين

= عززت أو سرعت من وتيرة الضعف الدماغي للمريض لأنه في حال تجاوز الجرعات المحددة سلفاً، فإنها لاتؤت نتائج عكسية للآثار المنتظرة فحسب، ولكنها تتسبب أيضاً في الإسهال والقيء، وإصابة الأغشية المخاطية والتدهور القلبي والوعائي.

تجرؤوا على المس بشخص وعرش ملك عظيم». ثم يمر إلى التهديد إذ أنه سيعود إلى مصر، ويجهز جيشاً ثم ينزل في الشواطئ الفرنسية من أجل إعادة الملكية. . . ! ومنذ ذلك الحين، ستتدهور قواه العقلية بشكل مأساوي، إذ أنه وبعد ثلاثة أيام يصف كلو حالته بأنها جنون.

ويستدعى الأخصائيون الأكثر شهرة لعيادة الرجل الطاعن في السن. وكانت النتائج التي خلصوا إليها حاسمة، وهي أن الفرعون الذي حكم الشرق لم يعد إلا طفلاً. والحل الوحيد يكمن في إعادته إلى مصر. وسرعان ما أُصدر الأمر بإعادته، وفي الثلاثين من شهر آذار لسنة ١٨٤٨ كانت «الإسكندر» تبحر في اتجاه الإسكندرية. من جانبه، يعود إبراهيم على متن فرقاطة إنجليزية، ويسبق أباه في وصوله إلى الميناء المصري بخمس ساعات.

الوصاية الوهمية

بعد أيام من ذلك، يلمح وزراء الملك إلى فكرة إنشاء مجلس للوصاية يرأسه إبراهيم الذي يرفض الفكرة تماماً. وإذا ما صدقنا نوبار، فإنه كان يرغب في السلطة الفعلية، غير أن فكرة أن يتعافى والده فيجعله «يدفع حياته ثمناً لهذا الذي يعتبر كاغتصاب» جعلته يصاب بالذعر. زد على ذلك، أنه فكر في أن إنشاء مجلس للوصاية يفرض مصادقة الباب العالي عليه، فهل سيوافق الباب العالي على ذلك؟ وفي حال فعل، ألن يعقبها بشروط تضعف سلطة الوصي؟

مهما يكن الأمر، فإن تردد إبراهيم لم يدم طويلاً، مادام أن المجلس شرع في تأدية وظائفه منذ الخامس عشر من شهر نيسان، إذ كانت الأوامر والقرارات تصدر باسم محمد علي، لكن إبراهيم هو من أصبح يحكم.

ويصل في العشرين من شهر تموز مبعوث فوق العادة من قبل الباب العالي حاملاً فرماناً يعترف من خلاله هذا الأخير بأن ابن محمد علي هو نائب الملك الجديد في مصر. ولم يتبق لإبراهيم إذن إلا أن يقصد إسطانبول ليتلقى تعيينه الرسمي. ولما كان مهووساً بفكرة أن يُشفى والده إذا ما شك في الأسباب

الحقيقية لسفره، فقد انتظر أزيد من شهر قبل أن يرحل إلى البوسفور. وأخيراً يمنحه وباء الكوليرا الذريعة المطلوبة لذلك. وأخذ على عاتقه إيهام الآخرين بان سفره لم يكن مدفوعاً إلا بالخوف من الوباء، فيرسل ابنه مصطفى، وأخاه الأصغر محمد علي على متن سفينة تلقت الأمر بأن تقف بين رودس والإسكندرية حتى يعود من إسطانبول، ثم أعد السفينة الحربية الوحيدة المتبقية في الأسطول المنشأ من قبل نائب الملك، ويرحل بدوره عن الإسكندرية. وهكذا أنقذته المظاهر.

ويصل في الخامس والعشرين من شهر آب لسنة ١٨٤٨ إلى الميناء العثماني، ويُصطحب في اليوم الموالي إلى القصر حيث يُتلى عليه فرمان التعيين بصوت مرتفع بحضور عبد المجيد.

وتمتد إقامته هناك حتى التاسع والعشرين من شهر آب، وفي الثلاثين منه، ترغمه أزمتان من مرض نفث الدم على ملازمة السرير. ويركب البحر في اليوم الثالث من شهر أيلول في حالة يرثى لها. ويكتب نوبار «كنت وحيداً على الجسر حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، حين التحق بي أحد مماليك إبراهيم، فقال لي «لقد فقد عقله، إنه يبحث عن كالوست (رجل أعماله في إسطانبول)، ويقول إنه خدعه في صفقة تتعلق بالفرو، فيُرد عليه أن كالوست بقي في العاصمة التركية بناءً على أوامره، فيرفض أن يصدق ذلك، ويدعي بأنه يختبئ في قاع السفينة، وهو يريد أن يتم البحث عنه، وأن يلقى في البحر». وبعد أن أعطاني هذه المعلومات، ابتعد المملوك. أقلقني هذا الخبر. فمن المؤكد أن إبراهيم كان يعاني من حمى ساخنة شديدة. وعند شخص مثله، فالأمر خطير. إذ أنه يمكنه بدم بارد أن يرتكب بعض الجرائم في السر، لكن وعندما يفقد عقله، كان قادراً على فعل كل شيء. كنت على معرفة تامة بحالته النفسية، فقد كان يخشى على حياته. وكان لديه كهف رئوي وكان الدم ياتيه من الفم[1]. وفي إسطانبول،

---

(١) من المؤكد أن إبراهيم كان مصاباً بالسل الدرني.

تعرض لأوقات شديدة القلق. ومن حسن الحظ أنه خرج من وكر الزنابير الذي ألقى نفسه فيه. لكن وإذا ما نجا من هذا الخطر، فإن خطراً آخر كان يرتسم في الأفق. وكان أشد خطورة من الأول، وهو يسكنه منذ طفولته، رعبه من أبيه. أجل، ولو أنه حين عودته إلى الإسكندرية، ألفينا الباشا قد شفي تماماً، ماذا كان سيكون مصيره؟ ولم يكن متوهماً لمشاعر الخوف أو الكراهية التي يشعر بها، وكان يدرك أنه في هذه الحالة، كان سيهلك بكل تأكيد. فلا التعيين ولاالفرمان كانا ليمثلا أي قيمة، وسواء أكانت هذه المخاوف مبالغ فيها أم لا، فقد أحسست أنها كانت متواجدة في رأس إبراهيم، وبأنها تتمثل في روحه الضعيفة والمنهكة بالتأثر ليس مثل أحلام، ولكن مثل وقائع».

وعند وصوله إلى القاهرة، يستقر إبراهيم في القلعة في غرف الحريم، لكنه سرعان ما وجد نفسه ينسحب إلى غرف النساء. وهكذا يقرر أن يكتب إلى الدكتور لالمون. غير أنه مهووس دائماً كما رأينا، بمسألة أجر الطبيب، فيكتفي بتذكيره بوعده بأن يزور مصر في يوم من الأيام.

وفي العاشر من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٤٨، وحوالي منتصف الليل، كانت خطورة مرضه قد بلغت درجة اللاعودة. وكان هناك ستة أشخاص متحلقين حول سريره. ابنه مصطفى، وأخ نوبار باشا، ونوبار نفسه، والقبطان باي، والطبيبين. ويجول إبراهيم بناظريه للحظة في الحضور. وعند رؤيته لابنه يغمض عينيه كما لو أن رؤيته جرحته، ثم ينظر إلى القبطان باي، ومنه إلى نوبار(١). وبناءً على نصائح الطبيبين ينسحبون تاركين المتصر في معركة نصيب إلى العناية العليا لأخته ولنساء الحريم. وعند الساعة الثانية صباحاً، تنطلق صرخات قوية. هي النهاية إذن. وبينما كانت مصر ترقب موت محمد علي، يصلها خبر موت ابنه.

ويكتب نوبار بأنه عند الساعة الثامنة صباحاً، كانت قاعة القصر ممتلئة عن

---

(١) نوبار باشا. (مصدر ذكر سابقاً).

آخرها، ويضيف هذه النقطة المخيفة «أي ارتياح كان على الوجوه، وكم كانت الأحاديث تدور بأصوات مرتفعة كما لو أنهم كانوا في ساحة عامة!».

وفي اليوم نفسه، وبحسب القاعدة المفروضة بواسطة «خطي شريف» للفاتح من شهر حزيران لسنة ١٨٤١، والتي للتذكير تمنح العرش للابن البكر لنائب الملك، فإن السلطة انتقلت إلى يدي ابن أخيه، وحفيد محمد علي عباس ابن طوسون.

ولم يوضح التاريخ أي مصيبة كانت أكثر مأساوية، هل هو الموت السابق لأوانه وغير المتوقع لإبراهيم أم اعتلاء عباس للعرش. وكان يمنح صورة أمير محدود وكسول، وطائش ومتعطش للترف والمتعة، ومعاد للغرب وللحضارة الغربية، ومحتقر للتطور وللإصلاحات. ولم يحمل العاهل الجديد لوادي النيل إلا السخف واللاجدوى. وكان أول عمل قام به فور تسلمه السلطة، إعادة الأوروبيين «هؤلاء المسيحيون الذين يكرههم» إلى بلدانهم. ويقفل مستشفى القاهرة، والمؤسسات الملحقة بها، ومدرسة الطب ومستشفى الولادة، ومدرسة المولدات والمستوصفات. فأباد بضربة واحدة كل العناء الذي تكبده كلو. أما التعليم العمومي، فعمد إلى تطهيره. وهكذا أقفلت العديد من المؤسسات أبوابها، وشرع في تقليص أعدادها. ويوماً بعد يوم، أخذ يجهد نفسه ليكون الصورة المناقضة تماماً لجده، ولتدمير كل منجزاته السابقة.

غير أنه وبينما كان الحفيد يحرق إرث محمد علي، كان هذا الأخير يموت في قصره برأس التين. وكان وضعه قد بلغ حدوداً لايمكن تحملها، نتيجة للتقرحات التي أصيب بها، وأضحى بالكاد يتمكن من أن ينام ساعة أو اثنتين. ويقال إنه عندما أُخبر بموت إبراهيم قال «كنت أعلم ذلك، لقد حبسني. وكان قاسياً معي كما كان مع الجميع. إن الله قد عاقبه. لقد أخذ روحه. لكن وبما أني والده، علي أن أتوسل إلى العلي القدير بأن يرحمه».

وفي يوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٨٤٨، وعندما أتى حفيده عباس ليقبل يده قبل أن يغادر إلى إسطانبول ليتلقى تعيينه، قال له «العنت

إبراهيم لأنه سجنني فأخذ الله روحه. لاتتصرف معي مثله، إذا أردت ألا ألعنك أيضاً». فهدّأ عباس من روعه مطمئناً إياه بالقول «كنت وستبقى دوماً سيدنا».

إلا أن هذا الصفاء النصفي سيختفي شيئاً فشيئاً، إذ سيؤكد أحد المماليك المكلف بحراسة غرفته إلى نوبار باشا بأن نائب الملك كان ضحية للأوهام، حيث يرى نفسه على رأس جيشه، فحيناً مجبراً قوات القيصر على التراجع تحت أسوار إسطانبول، وأحياناً أخرى معيداً لويس فيليب إلى عرشه.

وبعد تسعة أشهر من ذلك، أي عند منتصف يوم الثاني من شهر آب لسنة ١٨٤٩، يطرق الموت باب الفرعون.

وينقل جثمانه إلى القاهرة على متن سفينة بخارية تسلك قناة المحمودية التي حُفرت بناءً على أوامره قبل حوالي ثلاثين سنة من ذلك، ثم تأخذ طريقها عبر النيل.

وفي الرابع من شهر آب، يوضع نعش محمد علي في مسجد القلعة الكبير حيث حدد شخصياً قبره. ومن دون أي طلقة مدفعية، ومن دون موكب، ومن دون تشريفات عسكرية. كانت تلك إرادة عباس.

خاتمة

في الثاني من شهر آب لسنة ١٨٨٢ ، تحتل فرقة من البحرية الإنجليزية السويس دون أن تطلق أية رصاصة.

وعند نهاية شهر أيلول من سنة ١٨٨٢ ، تحتل مصر كلها، ولن يغادرها آخر جندي بريطاني إلا في الثامن عشر من شهر حزيران لسنة ١٩٥٦ .

وفي سنة ١٨٨٥ احتل السودان بدوره من قبل الإنجليز، ولن يعرف استقلاله إلا في الفاتح من شهر كانون الأول لسنة ١٩٥٦ .

وفي يوم التاسع من شهر تشرين الثاني لسنة ١٩١٧ تدخل قوات الجنرال ألنبي إلى القدس، ثم تستولي على كل فلسطين، ولن يغادروها إلا في الخامس عشر من شهر أيار لسنة ١٩٤٨ .

ملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم

تتشرف أسرة محمد علي الملكية بأن تحيطكم علماً بزواج صاحب السمو الملكي الأمير فؤاد الثاني من الآنسة فضيلة فرانس بيكار.

وتم الاحتفال بصورة حميمية جداً يوم الخامس من شهر تشرين الأول لسنة ١٩٧٧ في قصر أصحاب السمو الملكي أمراء موناكو في إمارة موناكو تحت الإدارة العليا لصاحب السعادة السي حمزة بوبكر عميد المؤسسة الإسلامية لجامع باريس، والعضو المراسل للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة.

٨٢ شارع فوش. باريس ١٦ فرنسا

وجهت بطاقة الدعوة هذه من قبل الأمير

فؤاد إلى السيدة

ديروش نوبلكور والتي نشكرها على

تفضلها بإرسالها لنا

[1]

أسرة محمد علي المالكة

ـ عباس حلمي الأول (تشرين الثاني سنة ١٨٤٨ ـ تموز سنة ١٨٥٤) ابن طوسون.

بعد حكم كارثي تميز بالنزعة الرجعية ومن دون فوائد، اغتيل في الثالث عشر من شهر تموز بواسطة أحد عبيده.

ـ محمد سعيد (تموز سنة ١٨٥٤ ـ حزيران ١٨٦٣) ابن محمد علي.

كان بثقافة غربية، كريماً ومتحرراً، منح «معلمه» القديم فردينان دو ليسيبس الترخيص بشق قناة السويس التي رفضها له محمد علي.

وتحسب له ثلاثة إصلاحات مهمة، إلغاء العبودية في مصر والسودان، ومنح المصريين إمكانية الوصول إلى أعلى الرتب في الجيش، وفي سنة ١٨٥٨ تحرير نظام «الالتزام» الذي أدخل مفهوم الملكية الخاصة.

عند وفاته، وصل مبلغ الدين الخارجي تقريباً إلى مائتين وخمسين مليون فرنك.

ـ إسماعيل (كانون الثاني سنة ١٨٦٣ ـ حزيران سنة ١٨٧٩) ابن إبراهيم.

زاد من قيمة الضريبة المدفوعة إلى السلطان، فحصل على حق توريث الملك لأبنائه المباشرين مع اللقب الفارسي «الخديوي» والذي يعني «العاهل»، وسيلغي هذا اللقب الخضوع الذي يتضمنه لقب نائب الملك. كان شديد البخل

في الأمور البسيطة، مبالغاً في الكرم في الأمور الكبيرة. دشن قناة السويس في السابع عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ في ليلة كأنها أشبه بألف ليلة وليلة.

حصل على قروض بشروط سيئة جداً وبفوائد كبيرة جداً. وتفادياً للكارثة المالية، باع سنة ١٨٧٤ لديسرايلي رئيس الوزراء البريطاني الحصص المصرية في قناة السويس. وسنتين بعد ذلك، وبعدما حاصره الإفلاس، أرغمته القوى العظمى الأوروبية على قبول إقامة جهاز مالي في القاهرة عرف باسم «صندوق الدين العام» أو «الكوندومينيوم»، الملكف بمراقبة عائدات البلد واقتطاع أجزاء منه لتحصيل الديون.

وإلى جانب التدخل الأجنبي في الشؤون المالية الوطنية، انضاف سنة ١٨٧٧ التدخل في الإدارة عن طريق «مجلس وزراء» ضم ثلاثة وزراء، فرنسي وإنجليزي ومصري نتج عنه احتقان وطني أخذ في السنة الموالية شكل انتفاضة الجيش قادها العقيد عرابي أحمد، وهو من أوائل الضباط المصريين الكبار، ارتقى إبان الإصلاحات التي قام بها سعيد. وطرد الخديوي المساند بالرأي العام الوطني الوزيرين الأجنبين، غير أن الباب العالي الواقع تحت ضغط بريطانيا العظمى، أجبر على التنازل عن العرش في الخامس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨٧٩.

ـ محمد توفيق (حزيران سنة ١٨٧٩ ـ كانون الأول ١٨٩٢) ابن إسماعيل.

جرت سنة ١٨٨١ انتخابات حرة بضغط من العقيد عرابي أحمد، فآلت نتيجتها إلى الحزب الوطني. ولما صار عرابي وزيراً للحربية، طالب بإلغاء «الكوندومينيوم» الفرنسي الإنجليزي، فرد الإنجليز على ذلك في الثاني من شهر آب لسنة ١٨٨٢ باحتلال مصر. وبعد سنة من ذلك، وضعت إنجلترا حداً للكوندومينيوم، لتبقى المتحكم الوحيد في الشؤون السياسية المصرية. وأضحت القوات البريطانية تعمل على حفظ النظام في حين أخذ القنصل الإنجليزي يدير البلد بشكل حيادي.

وفي السابع من شهر كانون الثاني لسنة ١٨٩٢، توفي توفيق ليخلفه ابنه عباس الثاني.

ـ عباس حلمي الثاني (كانون الثاني سنة ١٨٩٢ ـ كانون الأول ١٩١٤) ابن محمد توفيق.

اعتلى العرش في سن السابع عشرة. استغل الإنجليز في الثامن عشر من شهر كانون الأول لسنة ١٩١٤ الحرب العالمية الثانية والوجود التركي في المعسكر المنافس لتقدم بشكل رسمي على فرض الحماية على مصر. ومنذ اليوم الموالي، خلعوا عباس الذي بدا متعاطفاً مع المعارضة الوطنية وعوضوه بعمه حسين كمال.

ـ حسين كمال الأول (كانون الأول سنة ١٩١٤ ـ تشرين الأول سنة ١٩١٧) عم عباس حلمي.

تبنى لقب السلطان ليعلن نهاية التبعية إلى الباب العالي. عند وفاته سنة ١٩١٧ خلفه أخوه فؤاد. والواقع أن السلطة الفعلية كانت بيد مفوض بريطاني سامي، وربطت العملة المصرية بالجنيه الإسترليني.

ـ فؤاد الأول (تشرين الأول سنة ١٩١٤٧ ـ نيسان ١٩٣٦) أخ حسين كمال.

شكل الوطنيون بقيادة سعد زغلول منذ سنة ١٩١٩ وفداً في لندن للتفاوض حول الاستقلال، ورفضت الحكومة الإنجليزية استقبالهم، وقبضت على سعد زغلول ونفته إلى السيشل، فلم تتأخر ردة فعل الوطنيين إذ اندلعت المواجهات على كل التراب المصري ما دفع إنجلترا إلى اتخاذ قرار بالتراجع عن نظام الحماية مع إبقائها على أربع «أولويات» تمثلت في ضمان طرق مواصلاتها مع الإمبراطورية، والدفاع العسكري عن مصر، وحماية الأجانب وأقليات البلد والسودان. والواقع أن الاحتلال العسكري استمر، وظل المفوض البريطاني السامي قوياً جداً.

وتخلى فؤاد سنة ١٩٢٢ عن لقب السلطان لفائدة لقب ملك، وأعلن رسمياً سنة ١٩٢٣ عن دستور استخدمه الوطنيون لتعزيز معارضتهم، فألغاه سنة

١٩٣٠، وحل البرلمان وأقام النظام العرفي. ونتيجة لضغط أنصار سعد زغلول أجبر على العدول عنه سنة ١٩٣٥. تميزت فترة حكمه على امتدادها بصراعه مع الوفد. توفي في شهر نيسان من سنة ١٩٣٦ ليخلفه ابنه الفاروق.

ـ فاروق الأول (نيسان سنة ١٩٣٦ ـ حزيران سنة ١٩٥٢) إبن فؤاد.

عندما اعتلى العرش كان بالكاد يبلغ من العمر ست عشرة سنة. في الثامن من شهر أيار لسنة ١٩٣٧، وقعت اتفاقات جديدة مع بريطانيا، واضعة حداً لنظام الامتيازات السابق الذي كان يستفيد منه الأجانب، غير أن التنازلات الإنجليزية ظلت محدودة جداً. وبقيت القوات البريطانية في مصر، مركزة في منطقة قناة السويس مع حرية احتلال كافة التراب المصري في حال نشوب أزمة عالمية.

وتدخل القوات المصرية في الخامس عشر من شهر أيار لسنة ١٩٤٨ المتوحدة مع قوات البلدان العربية، إلى فلسطين من أجل التصدي لقيام دولة إسرائيل. ولم ينظر إلى هزيمة القوات المصرية هناك كإذلال بل كخيانة من قبل حكام القاهرة.

واعتبر الملك الذي وجهت له انتقادات كبيرة لنظام حياته كمسؤول عن الهزيمة، فعم الهيجان في مصر، واندلعت الحرائق في القاهرة في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ١٩٥٢. وفي الثالث والعشرين من شهر تموز قام ضباط يطلقون على أنفسهم «الضباط الأحرار» ومن بينهم جمال عبد الناصر وأنور السادات، بالاستيلاء على السلطة، وأجبروا فاروق على التنحي عن العرش. (سيموت في منفاه في روما في الثامن عشر من شهر آذار لسنة ١٩٦٥). وفرضت هذه «الثورة المصرية» النظام الجمهوري، ووضعت حداً لحكم أسرة من كان الفرعون الأخير.

[2]
السان سيمونيون ومصر

ولد كلود هنري دو روفروي في باريس سنة ١٧٦٠ ، كونت سان سيمون، وقريب بعيد لكاتب السيَر لويس دو برفروي، دوق سان سيمون. بدا كأنه أول اشتراكي فرنسي في العصر الصناعي. وكان رجل «صناعة» أيضاً، على الأقل بالمعنى السان سيموني للكلمة، بمعنى أنه كان دائم الانطلاق نحو الحياة النشيطة، وكان «يقدم على المشاريع»، فيفلس، ثم يصيب الغنى ثم يفلس مجدداً. ليعيش في النهاية على الأدب. وكان رجلاً واسع المعرفة، وعالم اقتصاد، وعالماً بالعلوم الإنسانية، ونبياً ومخلصاً في العصر الصناعي الذي عرف انطلاقته.

«مازال الإنسان إلى الآن يستغل الإنسان، فهناك السادة والعبيد، والنبلاء والعامة، والعظماء والرقيق، والملاكون والفلاحون، والخاملون والعاملون. غير أن المشاركة العالمية هي مستقبلنا (. . .) فالإنسان لن يستغل الإنسان أبداً، لكن الإنسان المشارك للإنسان، سيستغل العالم الراضخ لقوته (. . .) تتجه أنظار كل منظرينا السياسيين إلى الماضي (. . .) ويقولون لنا بأن الإبن يرث دائماً من والده (. . .) لكن البشرية أعلنتها عن طريق المسيح: لاعبودية! وبواسطة سان سيمون تكتب «لكلّ حسب قدرته، ولكل قدرة حسب أعمالها، ولاإرث»[1] ».

---

(١) هنري دالمان في كتابه باللغة الفرنسية بعنوان «السان سيمونيون». باريس ١٩٣٠ .

وعندما توفي كونت سان سيمون سنة ١٨٢٥، لم يكن مذهبه قد أثر إلا في عدد قليل من الأتباع، وكثيراً ما كانوا من اليهود مثل أورلاند رودريغيز، وليون هاليفي. وبين سنتي ١٨٢٥ و١٨٣٠ كسبت الحركة أنصاراً من النخبة، وخاصة من طلاب معهد الهندسة. وكان الأكثر تميزاً من بين هؤلاء الأتباع، بروسبير أنفانتان بروحه الواسعة ومساعداً بسحر شخصية مؤثرة، وأوغيست كونت، وأرمون كاريل، وسان أمون بازار، والأقل موهبة لكنه مصدر ثقة شارل دو فيريي، ومهندس المناجم المتميز فورنيل، وميشيل شوفاليي، والأخوان طالابو والموسيقي فيليسيان دافيد، وبيير لورو، وتيرسون، وإدوارد شارتون وغوسطاف ديشتال، وكان الكثير من هؤلاء من الليبراليين السابقين مثل بازار الذي كان أحد مؤسسي صناعة الفحم الفرنسية.

وهكذا، وبوجود السان سيمونيين تكونت في فرنسا ما يشبه حركة «اجتماعية» قبل ثورة ١٩٣٠، وفي ظل الأجواء التي أعقبت الثورة، ستمتد مبادئ السان سيمونية في باريس والضواحي.

وسرعان ما يتم تجاوز التوجيهات الروحية للمعلم، لتبشر بإقامة «عقيدة جديدة» تؤثر في الخيال الشعبي من غير أن تصل إلى غايتها دائماً. وهكذا يثير الدير السان سيموني في المينيلمونتون، السخرية أو الفضيحة قبل أن يندثر سنة ١٨٣٢ نتيجة لحكم قضائي.

وتستقطب الحركة على وجه الخصوص، أناساً من أصحاب المهن الحرة، إضافة إلى عناصر من الجيش والقليل من أوساط العمال لكنها لاتصل أبداً إلى الجماهير العريضة على الرغم من كثرة الخطابات التي ألقيت عليهم. وتتبنى يومية لوغلوب (العالم) الليبرالية مبادئ السان سيمونية، وأخذت هذه الطائفة تنشر أدباً دعائياً وبكثافة أحياناً، واحتلت الأغنية مكانة متميزة في دعايتها. ومع ذلك، فإن الحركة لم تنجح أبداً في أن تكون حركة شعبية، ولم تستقطب إلا أعداداً قليلة وتجمعات سرعان ما تتلاشى.

وبطريقة غير محسوسة، تصير أشبه بكنيسة بتراتبية معينة، وفي أعياد الميلاد

لسنة ١٨٢٩، اختار تجمع الأعضاء القدامى أنفانتان وبازار كرئيسين للكنيسة، وكأبوين للعائلة التي أضحت تضم سنة ١٨٣١ بغض النظر عن المنتسبين الجدد، حوالي ثمانين من الأتباع، من بينهم بعض النساء مثل أوجيني نيبوايي، وسوزان فوالكان، وصوفي لومبير.

وكانت الحكومة غير متحمسة لحركة تزعزع النظام القائم، وتطلب من لويس فيليب التخلي عن العرش، وأثارت جرأة لباس السان سيمونيين أحياناً ردة فعل معادية من الطبقات الشعبية، غير أن الصعوبات الحقيقية للحركة نشأت من داخلها، ذلك أنها كانت مهددة بالانشقاقات والمزايدات شأنها في ذلك شأن كل الأديان. وكان بازار قلقاً من مبالغات أنفانتان ولم يكن يقبل سلوكه الجنسي وإدانته للزواج، وأبى ذوو العقول السليمة القبول بفكرة أن «المسيح بعث في أنفانتان»، وبأن هذا الأخير «مسيح الأمم». وتلى انشقاق بازار، انشقاق رودريغيز. وظهرت في الوقت نفسه، الصعوبات المالية، فكان يلزم أن تقفل قاعة شارع طيبو، وحجبت لوغلوب عن الظهور بسبب شح الموارد. وأدين أنفانتان وشوفاليي ودوفو بريي بسنة سجناً نافذاً وبغرامة مائة فرنك ورودريغيز وبارو بخمسين فرنك.

وغداة الحكم، أصابت الحيرة السان سيمونيين، ذلك أن بعضهم انخرط في البحث عن «المرأة المخلصة». وينشئ بارو في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٣٣ رفاق المرأة. «يجب المضي إلى المرأة مثلما يمضي النهر إلى البحر، والنسر إلى النور». وسيبحث البعض عن هذه المرأة في إسطانبول، والبعض الآخر في القاهرة.

ويسمع الأب أنفانتان في أعماق سجنه في سان بيلاجي «الشرق الذي ينادي الغرب النائم». وخلال ستة أشهر من سجنه، كان لديه الوقت الكافي ليفكر في مصر، وفي... قناة البحرين. وخلص إلى ضرورة قيام وحدة يكون البحر الأبيض المتوسط مركزها، وذلك بأن يمنح الغرب تقنيته، والشرق مخزونه من الإيمان.

وهكذا تصل إلى مصر مجموعة أولى من السان سيمونيين سنة ١٨٣٣ لتطبق فيها أفكار السان سيمونيين وخاصة لتحقيق الحلم الكبير، خلق رابط بين البحرين عن طريق قناة ستصير «مركز حياتهم المضنية». وكان كلود هنري دو روفروي نفسه قد اقترح سنة ١٧٨٣ على نائب الملك في المكسيك، حفر مضيق باناما، واقترح على إسبانيا سنة ١٧٨٧ ربط مدريد بالمحيط الأطلسي عن طريق إشبيلية باستخدام الواد الكبير. ويرى أنفانتان بأن «حفر مضيق السويس لن يكون منجزاً تقنياً وحسب، بل سيلبي حاجة دينية، ذلك أن حفر هذا الخط الأزرق في خريطة العالم سيكون بمثابة إشارة سلام ووئام وحب بين القارتين».

وليس مستغرباً إذن أن يفكر السان سيمونيون في مصر، فقد أغرتهم بالقصص العجيبة لماضيها، ووعود مستقبلها المجسدة في شخص محمد علي. وبالنسبة لهم، وبطريقة ما، لم تكن سياسة نائب الملك بعيدة كثيراً عن العقيدة السان سيمونية، كما كتب فيليب ريني «من جانب، يبدو أن الباشا يحقق بطريقة عجيبة عقيدتهم، وذلك بتركيز ملكية الأرض والعقار والصناعة بين أيدي الأكثر كفاءة على تحسينها (بيد العاهل شخصياً)، وتجنيد الشعب حول الأشغال الكبرى ذات النفع العام، وتكوين مهندسي دولة، إلخ... [(١)] ».

ويعلمون أيضاً بلغتهم الجريئة على تخصيب العرق الأسود، العرق «الأنثوي والعاطفي» بخصائص «الذكور ورجال العلم» للعرق الأبيض[(٢)].

وتصل حوالي الرابع عشر من شهر أيار لسنة ١٨٣٣ «الكلوراند» حاملة على متنها أوائل الواصلين إلى الإسكندرية. وكان البعض قد أتى قبل هذا التاريخ منذ الثلاثين من شهر نيسان، وكان من بينهم كايول، وبارو وألريك، وفيليسيان دافيد، وديشارم وغرانال وريغو وإيربان.

---

(١) فيليب ريني وأمين عبد النور «السان سيمونيون في مصر» القاهرة ١٩٨٩.

(٢) كان أنفانتان المهووس بالمرأة يأمل أيضاً بأن يجد في مصر «المختارة» التي يطلق عليها اسم «الأم». فقد كان للغرب الأب، وكان يعتقد أن على الشرق أن يأتي بالأم.

وحاولوا عبثاً مرتين مقابلة محمد علي مستعينين بسيريسي، إلا أن محمد علي كان نائماً في المرة الأولى، أما في الثانية فكان مترجموه غائبين.

وفي الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول، وصل بروسبير أنفانتان بدوره.

ولما استقبلوا من قبل ميمو الذي كان وقتها قنصلاً، أحاطوه علماً بمشاريعهم في مصر، والمتمثلة في إنشاء خط سكة حديدية بين القاهرة والسويس والتي أعدوا لها مخططاً سلفاً، وقابلوا فيما بعد لينان دو بيلفون فأعجب بفلسفتهم غير أنه لم ينتمي قط إلى مجموعتهم.

وأخيراً، وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٣٤ يحظى فورنيل «وحده» بمقابلة نائب الملك، وتم الاستقبال في يوم الثالث عشر منه على الساعة التاسعة ليلاً، فأثيرت قضية مناجم سورية والسكة الحديدية، لكن ما من كلمة قط حول السان سيمونية حتى بطريقة غير مباشرة. وكذلك الشأن بالنسبة للقناة «كما لو أن الباشا أراد أن يقطع الأمر من أقصر السبل... [١]». ولأسباب سياسية محضة، يمنح محمد علي الترخيص للإنجليزي غالوي، غير أن شيئاً من ذلك لم ير النور. بالمقابل، تشارك المجموعة بطريقة فعلية في إنشاء سد الدلتا المبرمج سلفاً. وبهذا الخصوص، يقدم أنفانتان بعض المقترحات للحكومة المصرية، فيقترح منع توظيف عمال تزيد أعمارهم عن أربعين سنة، وذوي العاهات[٢].

واقترح مستلهماً بالمبادئ العسكرية، بأن ينظم العمال في ثماني عشرة كتيبة تقسم إلى سرايا، تقسم بدورها إلى خمس فرق. ويتم اختيار ستة عمال من كل كتيبة كمعلمين براتب شهري يصل إلى خمسة وعشرين قرشاً. وتتطلع أيضاً إلى تخصيص وجبة طعام موحدة لكل العمال دون تمييز لرتبهم، وغطاء، إضافة

---

(١) ريني. مصدر ذكر سابقاً.

(٢) كان يعتقد أن إجبار الفلاحين على العمل في ورش سينتهي إلى تثبيط عزيمتهم، فيعمدون إلى تشويه أجسادهم فراراً من تجنيدهم للقيام بذلك.

إلى زي موحد مكون من ثوب رسمي من الصوف، وحزام جلدي وقبعة تقي الرأس من الشمس. ويمكن للعمال أن يجلبوا زوجاتهم وأبناءهم قربهم، ويمكن لهؤلاء أن يعملوا مقابل أجر عن كل عمل يقومون به لفائدة المشروع. ومن غير المجدي هنا أن نقول بأن أياً من هذه الاقتراحات لم تقبل من طرف نائب الملك. لكن، وقد رأينا هذا في الفصل المخصص ببناء هذا السد، فلا شيء كان قد عد من قبل سواء مأوى أو مأكل العمال.

ويرفض فورنيل الانخراط في بناء هذا السد، فيرحل إلى سورية معتقداً من دون شك، بأن مشروع بناء القناة، هو وحده من يستحق عناء بذل الجهد.

وسرعان ما تؤثر الصراعات الناجمة عن سوء التدبير الشخصي لرئيس السان سيمونيين في إدارة المشروع، وسوء سلوك أتباعه، إضافة إلى المخاوف المالية والعسكرية لنائب الملك على سير الأعمال. وينضاف إلى كل هذا، وباء الطاعون الفتاك في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٣٥ الذي قلل من عدد العمال بشكل كبير. ومنذ تلك اللحظة، أخذ السان سيمونيون ينسحبون الواحد تلو الآخر من مصر. وكان لومبير واحداً من القلة التي فضلت البقاء في مصر، وأنشأ مدرسة الهندسة في بولاق.

غير أن أنفانتان، وحين عاد إلى فرنسا، تابع مشروع حفر القناة، وهكذا تأسست في شهر تشرين الثاني من سنة ١٨٤٧ شركة اهتمت بالقيام بدراسات لقناة السويس، وهي شركة عالمية برأس مال يصل إلى مائة وخمسين ألف فرنك. وتشكل مجلس إدارتها من النمساوي لويس نيغريلي وهو مستشار لميترنيخ، وإنجليزيين هما روبرت ستيفنسن ابن مخترع الحركة البخارية الشهير جورج ستيفنسن، والمهندس إدوارد سترابروك، وبروسيين وهما فيرونس وسيليي، وفرنسيين وهم إدمون وليون طالابو، وأرليس ديفور، و. . . أنفانتان. ومن ضمن ما شمله دفتر التحملات:

١ ـ أن تكون القناة محايدة، بمعنى تخلي الباب العالي عن كل حق السيادة أو الملكية، والتصريح الواضح بأنها ليست ملكاً لأية دولة.

٢ ـ لنائب الملك الحق في النظر مع الشركة في الشروط التي يراها مناسبة لتمكين الشركة المذكورة من أرض القناة التي أعلن أنها محايدة.

٣ ـ يمنع بصفة مطلقة بأن تمر عبر القناة أية سفينة حربية، أو أية قوة عسكرية مهما كانت ذريعتها، وسواء فعلت ذلك بشكل ظاهر أم بشكل خفي. وكنتيجة لهذا المنع، للشركة الحق في تفتيش أي حمولة لأي سفينة تشك في أنها تخفي ذخيرة حرب أو جنوداً.

وكانت هذه البنود تستجيب لآمال محمد علي، غير أنه ما من حكومة غربية قبلتها، وستذهب كل جهود أنفانتان لتحقيق مشروعه أدراج الرياح.

وأخيراً، سيمنح الترخيص لفردينان دو ليسيبس المعلم السابق لأصغر أبناء محمد علي، سعيد. فما إن يتسلم هذا الأخير زمام الحكم في مصر في الرابع عشر من شهر تموز لسنة ١٨٥٤ حتى يمنحه إياه. ومنذ هذه اللحظة، ستتصاعد وتيرة الخلافات بين ليسيبس والسان سيمونيين لينتهي الأمر بين الطرفين بالقطيعة النهائية.

وفي السابع عشر من شهر تشرين الأول لسنة ١٨٦٩، دشنت قناة البحرين في حفلة ما تزال تذكرها ضفافهما حتى اليوم...

[3]

وثائق دبلوماسية

معاهدة إنكيار سكيليسي

قرر صاحب الجلالة الإمبراطور السامي والعظيم إمبراطور روسيا، والحاكم المطلق لها، وصاحب الجلالة السامي والقوي إمبراطور العثمانيين، المدفوعين بالرغبة الصادقة للحفاظ على نظام السلم والتوافق الموجود لحسن الحظ، بين الإمبراطورين، لمد وتعزيز أواصر الصداقة والثقة القائمة بينهما، بعقد معاهدة للتحالف الدفاعي.

وعليه، اختار صاحبا الجلالة وعينا مفوضين مطلقي الصلاحية. ويمثل إمبراطور كل روسيا، صاحبي السعادة المحترمين السيد أليكسيس كونت أورلوف، وزيره فوق العادة لدى الباب العالي العثماني... إلخ إلخ

والسيد أبولينير بوتينييف، مبعوثه فوق العادة للباب العالي العثماني... إلخ

ويمثل صاحب الجلالة سلطان العثمانيين، صاحب السعادة، أقدم وزرائه خسرو باشا، سيراكسييه والقائد العام للقوات النظامية والحاكم العام للقسطنطينية... إلخ، وصاحبي السعادة المحترمين، أحمد باشا قائد حرس جلالته... إلخ، والحاج محمد عاكف أفندي... إلخ

وبعد أن تبادلوا التعريف بسلطهم، والتحقق من وثائقهم قرروا ووقعوا المواد التالية:

المادة الأولى:

يسود السلام والصداقة والتحالف أبداً بين صاحب الجلالة إمبراطور كل روسيا، وصاحب الجلالة إمبراطور العثمانيين، وبين إمبراطوريتيهما ورعاياهما سواء في البر أو في البحر. ويشمل هذا التحالف فقط، الدفاع المشترك عن دولتيهما ضد كل اعتداء. ويعد صاحبا الجلالة على الاتفاق من دون تحفظ على كل المواضيع المتعلقة بهدوء الدولتين وأمنهما، وبالتالي، تبادل المساعدات المادية والعون الناجع.

المادة الثانية:

تؤكد معاهدة التحالف الدفاعي هذه، معاهدة السلام المعقودة في أندرينوبل في الثاني من شهر أيلول لسنة ١٨٢٩، إضافة إلى المعاهدات الأخرى المتعلقة بها، والاتفاق الموقع في سان بيترسبورغ في الرابع عشر من شهر نيسان لسنة ١٨٣٠، التسوية المبرمة في القسطنطينية في التاسع (الحادي والعشرين) من شهر تموز لسنة ١٨٣٣، المتعلقة باليونان، في كل ما اشتملت عليه هذه المعاهدة، كما لو أن المعاهدات المذكورة أدخلت فيها كلمة كلمة.

المادة الثالثة:

نتيجة لمبدأ المحافظة والدفاع المتبادل الذي يعتبر أساس معاهدة التحالف هذه، وتبعاً للرغبة الصادقة في ضمان استمراره والمحافظة على الاستقلال التام لصاحب الجلالة الباب العالي، فإن إمبراطور كل روسيا في حال وجود أو ظهور ظروف قد تدفع الباب العالي مجدداً إلى طلب دعم روسيا المعنوي والعسكري، مع أن هذا غير متوقع إن شاء الله، يعد بتقديم قوات سواء برية أو بحرية بالدرجة التي يرى فيها الطرفان أنها ضرورية. وعليه، من المتفق عليه في هذه الحالة أن القوات البرية أو البحرية التي يطلب الباب العالي نجدتها ملزمة بأن توضع تحت تصرفه.

المادة الرابعة:

بحسب ما جاء أعلاه، وفي حال طلبت إحدى القوتين دعماً من الأخرى، فإن نفقات التموين بالنسبة للقوات البرية والبحرية تقع على عاتق القوة التي طلبت الدعم.

المادة الخامسة:

ومع أن القوتين العظيمتين المتعاقدتين ترغبان بصدق في الإبقاء على هذا التعاقد إلى أطول فترة، كما يمكن أن تفرض الظروف لاحقاً بأن تدخل بعض التعديلات على هذه المعاهدة، فقد تم الاتفاق على أن تحدد مدته في ثماني سنوات بدءاً من يوم التصديق الإمبراطوري عليها، وقبل انتهاء المدة، سيتشاور الطرفان لتجديد هذه المعاهدة وفقاً لأوضاع تلك الفترة.

المادة السادسة:

تتم المصادقة على معاهدة حلف الدفاع هذه من قبل الطرفين الساميين المتعاقدين، ويتم تبادل التوقيع والمصادقة في القسطنطينية في أجل شهرين، وقبل ذلك إن أمكن.

إن هذه الوثيقة التي تضم ست مواد، والتي سيضع كل طرف ختمه عليها، قد توصلنا لها نحن ووقعنا عليها، وذيلناها كل بخاتمه بحكم سلطاتنا الكاملة، والمفوضة بنسخة طبق الأصل توضع بين يدي مفوضي الباب العالي العثماني.

وحرر في القسطنطينية في السادس والعشرين من شهر حزيران لسنة ١٨٣٣.

الكونت أليكسيس أورلوف

أبولينير بوتينييف.

مادة منفصلة وسرية لمعاهدة التحالف السابقة

بحكم أحد بنود المادة الأولى للمعاهدة الراعية للتحالف النهائي بين الباب العالي والبلاط الإمبراطوري الروسي، يلتزم الطرفان المتعاقدان بتبادل الدعم المادي والمساعدة الأكثر نجاعة لضمان أمن الدولتين معاً. ومع ذلك، ولما أراد صاحب الجلالة إمبراطور كل روسيا أن يعفي الباب العالي العثماني من تبعات والإحراج الذي سينتج عن طلبه لدعم مادي، ولن يطلب هذا الدعم إذا كانت الظروف تضع الباب العالي أمام حتمية تقديمه، ويتوجب على الباب العالي العثماني وعوض الدعم الذي عليه أن يقدمه عند الاقتضاء، وفقاً لمبدأ التبادل المنصوص عليه في المعاهدة، أن يجعل عمله مقتصراً في صالح البلاط الإمبراطوري الروسي في غلق مضيق الدردنيل، بمعنى عدم السماح لأية سفينة حربية أجنبية دخوله تحت أية ذريعة.

لهذه المادة المنفصلة والسرية القوة نفسها والقيمة ذاتها كما لو أنها أدخلت في معاهدة التحالف النهائية لهذا اليوم كلمة كلمة.

وحرر في القسطنطينية في السادس والعشرين
من شهر حزيران لسنة ١٨٣٣
الكونت أليكسيس أورلوف
أبولينير بوتينييف

معاهدة لندن

عقدت في الخامس عشر من شهر تموز بين بلاطات بريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا من جهة، والباب العالي العثماني من جهة أخرى من أجل إحلال السلام في الشرق، ووقعت في لندن في الخامس عشر من شهر تموز لسنة ١٨٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما استعان صاحب الجلالة السلطان بأصحاب الجلالة ملكة المملكة

المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا، من أجل طلب دعمهم ومساعدتهم في خضم الصعوبات التي وجد نفسه إزاءها نتيجة للسلوك المعادي لمحمد علي باشا مصر، وهي الصعوبات التي تهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان، فقد اجتمع أصحاب الجلالة المذكورين أعلاه، وفقاً لمشاعر الصداقة التي تجمعهم مع السلطان، ومدفوعين بالرغبة في السهر على الحفاظ على وحدة واستقلال الإمبراطورية العثمانية، ومن أجل تأكيد السلام في أوروبا، ووفاءً بالتعهد الذي اتفقوا عليه من خلال المذكرة المقدمة للباب العالي عن طريق ممثليهم في القسطنطينية في السابع والعشرين من شهر تموز لسنة ١٨٣٩، ورغبة في حقن الدماء، نتيجة لاستمرار الأعمال المعادية التي اندلعت أخيراً في سورية بين سلطات الباشا ورعايا جلالته، فإن أصحاب الجلالة، وصاحب الجلالة السلطان خلصوا إلى إبرام اتفاق بينهم من أجل إدراك الهدف المذكور أعلاه، وعينوا لهذه الغاية كممثلين لهم بصلاحيات مطلقة، وهكذا:

فعن صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، صاحب السعادة هنري جين فيكونت بالمرستون بارون تامبل، وعضو مجلس اللوردات في إيرلندا، ومستشار صاحبة الجلالة في مجلسها الخاص، وفارس الصليب الأكبر لمقام بين العظيم، وعضو البرلمان، وكاتب الدولة الأول القائم على الشؤون الخارجية.

وعن صاحب الجلالة إمبراطور النمسا، وملك هنغاريا وبوهيميا، السيد فيليب، وبارون نيومان، وقائد مجلس ليوبولد للنمسا المقلد بوسام صليب الاستحقاق المدني، وقائد ألوية البرج والسيف بالبرتغال، وصليب جنوب البرازيل، وفارس الصليب الأكبر للواء سان ستانيسلاس من الدرجة الثانية لروسيا، والمستشار المفوض لدى جلالته.

وعن صاحب الجلالة ملك بروسيا، السيد هنري غيوم، البارون دوبولو،

وفارس مجمع النسر الأحمر من الدرجة الأولى لروسيا، والصليب الأكبر لمجمع ليوبولد للنمسا ولغولف هانوفر، وفارس الصليب الأكبر لمجمع سان ستانيسلاس من الدرجة الثانية، وسان فلاديمير من الدرجة الرابعة لروسيا، وقائد مجمع الصقر لساكس فيمار، ومستشاره الخاص الحالي، ومبعوثه فوق العادى ووزيره المفوض لدى جلالته.

وعن صاحب الجلالة إمبراطور كل روسيا السيد فيليب، بارون دو برونو، فارس مجمع سانت آن من الدرجة الأولى، وسان ستانيسلاس من الدرجة الأولى، وسان فلاديمير من الدرجة الثالثة، وقائد مجمع سانت إيتيان لهنغاريا، وفارس مجمع النسر الأحمر وسان جين للقدس، ومستشاره الخاص ومبعوثه فوق العادة والوزير المفوض لدى جلالته.

وعن صاحب المعالي والعظمة، السلطان عبد المجيد إمبراطور كل العثمانيين، شكيب أفندي الحامل لنيشان الافتخار من الدرجة الأولى، بيفكدجي في الديوان الإمبراطوري، والمستشار الشرفي في وزارة الشؤون الخارجية، والسفير فوق العادة لصاحب الجلالة.

وبعد أن تبادلوا التعريف بسلطهم، والتحقق من وثائقهم قرروا ووقعوا المواد التالية:

المادة الأولى:

بعد أن اتفق صاحب الجلالة السلطان مع أصحاب الجلالة، ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا حول شروط التسوية التي ينوي صاحب الجلالة تقديمها لمحمد علي المحددة في العقد الملحق، يتعهد أصحاب الجلالة بالتحرك بتوافق وتوحيد جهودهم لحمل محمد علي على القبول بهذه التسوية، ويلتزم كل طرف سامي من المتعاقدين على التعاون من أجل هذه الغاية بحسب وسائل العمل التي يتوفر عليها كل طرف.

المادة الثانية:

إذا رفض باشا مصر القبول بالتسوية المشار إليها أعلاه والتي سيبلغه السلطان بها بإشراف أصحاب الجلالة المذكورين أعلاه، يتعهدون وبناءً على أمر رسمي من السلطان، بأخذ التدابير المتفق عليها بينهم من أجل تنفيذ هذه التسوية، في أثناء ذلك، وما دام السلطان قد دعى حلفاءه إلى الانضمام له من أجل قطع الاتصال البحري بين مصر وسورية، ومنع إرسال القوات والخيول والأسلحة والذخيرة ومؤن الحرب من مختلف الأنواع من مقاطعة إلى مقاطعة أخرى من مقاطعاته، يتعهد أصحاب الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا، بإصدار الأوامر الضرورية على الفور، إلى قواد قواتهم البحرية في البحر الأبيض المتوسط، ويعد أصحاب الجلالة المذكورين أعلاه، بأن قوات أساطيلهم وبحسب الوسائل التي تتوفر عليها، ستقدم باسم الحلفاء كل الدعم والمساندة الممكنة لقواد رعايا السلطان الذين يظهرون وفاءهم وطاعتهم لملكهم.

المادة الثالثة:

إذا ما وجه محمد علي قواته البرية أو البحرية إلى القسطنطينية بعد أن يرفض الخضوع لشروط التسوية المشار إليها أعلاه، تتفق الأطراف السامية المتعاقدة وبناءً على طلب رسمي من السلطان إلى ممثليهم في القسطنطينية بالاستجابة لدعوة هذا العاهل بالعمل على الدفاع عن عرشه بوسائل التعاون المشترك المتفق عليها بهدف جعل مضيقي البوسفور والدردنيل إضافة إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية في مأمن من كل اعتداء. ومن المتفق عليه أيضاً بأن القوات التي ستتلقى الوجهات المحددة أعلاه في حال قيام هجوم مماثل، ستبقى بها طويلاً مادام السلطان يريد ذلك، وعندما يقدر جلالته بأن حضورها لم يعد ضرورياً، تنسحب القوات المذكورة وتعود إلى البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط.

المادة الرابعة:

من المتفق عليه بأن التعاون المشار إليه في المادة السابقة، يهدف إلى جعل مضيقي الدردنيل والبوسفور والعاصمة العثمانية تحت الحماية المؤقتة للأطراف العليا المتعاقدة، ضد أي اعتداء لمحمد علي، وأنها لن تعتبر إلا تدبيراً استثنائياً يتم تبنيه بناءً على الطلب المستعجل للسلطان، وفقط من أجل الدفاع عنه، وفي الحالة المشار إليها أعلاه. لكن من المتفق عليه بأن هذا التدبير لن يخالف في شيء القاعدة السابقة للإمبراطورية العثمانية والتي بموجبها يحظر دوماً دخول أية أساطيل للقوى الأجنبية إلى مضيقي الدردنيل أو البوسفور. ويعلن السلطان من جهة، من خلال هذا العقد بأنه باستثناء الاحتمال المشار إليه أعلاه، يظل حريصاً على إبقاء هذا المبدأ غير متغير في المستقبل كقاعدة سابقة للإمبراطورية، وأنه مادام الباب العالي في حالة سلام، لن يقبل أي أسطول حربي أجنبي في مضيقي البوسفور أو الدردنيل. ومن جهة أخرى، يتعهد أصحاب الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا، باحترام عزم السلطان هذا، والقبول بالمبدأ المشار إليه.

المادة الخامسة:

يوقع هذا الاتفاق، ويتم تبادل التصديقات في لندن في أجل شهرين أو أقل من ذلك إن أمكن.

وتبعاً لهذا، يوقع المفوضون أصحاب الصلاحيات المطلقة، ويضعون أختامهم عليه.

وحرر في لندن في الخامس عشر من شهر
تموز لسنة ١٨٤٠
بالمرستون، نيومان
بولو، برونو، شكيب

عقد

عقد منفصل وملحق بالاتفاق الموقع في لندن في الخامس عشر من شهر تموز بين بلاطات بريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا وروسيا من جهة، وبين الباب العالي العثماني من جهة ثانية.

لصاحب الجلالة السلطان النية في منح محمد علي وتعديل الشروط التسوية أدناه:

المادة الأولى:

يعد صاحب الجلالة بمنح محمد علي شخصياً ولورثته المباشرين إدارة باشوية مصر، ويعد صاحب الجلالة أيضاً منح محمد علي لقب باشا عكا مدى الحياة، وقيادة حصن سان جون عكا، وإدارة القسم الجنوبي لسورية والذي تعين حدوده في الخط الفاصل الآتي، انطلاقاً من رأس الناقورة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ويمتد مباشرة حتى فوهة نهر السيسبان أي الطرف الشمالي من بحيرة طبريا، ويمتد حتى الشاطئ الغربي من البحر الميت ومنه مباشرة حتى البحر الأحمر وصولاً إلى الطرف الشمالي لخليج العقبة، ويمتد حتى الشاطئ الغربي لخليج العقبة والشاطئ الشرقي لخليج السويس حتى السويس.

ومع ذلك، يشترط السلطان بتقديمه هذه العروض، أن يقبلها محمد علي في أجل عشرة أيام بعد إعلانها في الإسكندرية عن طريق أحد موظفي جلالته، وفي الوقت نفسه، يضع محمد علي بين يدي هذا الموظف التعليمات الضرورية لقواد قواته البرية والبحرية للانسحاب الفوري من الجزيرة العربية ومن كل المدن المقدسة الموجودة بها، ومن جزيرة كاندي ومن مقاطعة أضنة، ومن كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية التي لاتتواجد في حدود مصر وباشوية عكا مثلما تم تحديده أعلاه.

المادة الثانية:

إذا لم يقبل محمد علي في أجل عشرة أيام المحدد أعلاه، التسوية

المذكورة، يسحب السلطان عرضه بإدارة باشوية عكا مدى الحياة، لكن جلالته يقبل دوماً منح محمد علي شخصياً وورثته المباشرين إدارة باشوية مصر شريطة أن يقبل هذا العرض في ظرف العشرة أيام القادمة، بمعنى في أجل عشرين يوماً بدءاً من يوم إعلامه به شريطة أن يضع أيضاً بين يدي موظف السلطان التعليمات الضرورية لقواد قواته البرية والبحرية للانسحاب الفوري إلى داخل حدود باشوية مصر وموانئها.

المادة الثالثة:

تحدد الضريبة السنوية التي سيدفعها محمد علي إلى السلطان بنسب الأراضي التي سيديرها الأول، بحسب الإنذار الأول أو الثاني.

المادة الرابعة:

من المتفق عليه أنه سواء في الحالة الأولى أو في الحالة الثانية، يتعين على محمد علي وقبل الأجل المحدد في العشرة أيام أو العشرين يوماً بأن يسلم الأسطول التركي مع كل طاقمه وسلاحه إلى مبعوث تركي مكلف بتسلمه، وسيشرف قواد أساطيل الحلفاء على عملية التسليم.

ومن المتفق عليه أنه لاينبغي لمحمد علي بأي حال من الأحوال أن يرجع نفقة إصلاح الأسطول العثماني إلى السلطان أو أن يقتطعها من الضريبة المفروضة للسلطان طيلة فترة تواجدها في الموانئ المصرية.

المادة الخامسة:

كل معاهدات وقوانين الإمبراطورية العثمانية تسري على مصر وعلى باشوية عكا، كما أشير إلى ذلك أعلاه، مثل كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية، لكن السلطان يقبل شريطة الأداء المنتظم للضريبة المحددة أعلاه من قبل محمد علي وورثته التي يحصلونها باسم السلطان كمندوبين لجلالته في المناطق المدنية التي يديرونها، ومن المتفق عليه أيضاً أن محمد علي وورثته وعن طريق

تحصيل الرسوم والضرائب المعلن عنها أعلاه، يؤمنون كل مصاريف الإدارة المدنية والعسكرية للمناطق المشار إليها أعلاه.

المادة السادسة:

تعتبر القوات البرية والبحرية التي يقيمها باشا مصر وعكا والتي هي جزء من قوات الإمبراطورية العثمانية، دوماً مقامة من أجل خدمة الدولة.

المادة السابعة:

للعقد المنفصل القوة نفسها والقيمة ذاتها كما لو أنه أدخل كلمة كلمة في معاهدة هذا اليوم. ويوقع، ويتم تبادل التصديقات في لندن في الوقت نفسه للمعاهدة سالفة الذكر.

وبناءً عليه، يوقعه المفوضون أصحاب الصلاحيات المطلقة ويضعون عليه أختامهم.

وحرر بلندن في الخامس عشر من شهر تموز
لسنة ١٨٤٠
بالمرستون، نيومان، بولو، برونو، شكيب

البروتوكول الأول

وقع في لندن من قبل مفوضي أصحاب الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا، في الخامس عشر من شهر تموز لسنة ١٨٤٠.

وبتوقيع مفوض الباب العالي المطلق الصلاحية الاتفاق المبرم هذا اليوم، صرح:

عملاً بمقتضيات المادة الرابعة من الاتفاق المشار إليه، فإن الباب العالي، وتفعيلاً للقاعدة السابقة للإمبراطورية العثمانية والتي بموجبها يحظر على كل السفن الحربية الأجنبية دخول مضيقي الدردنيل والبوسفور، يحفظ لنفسه كما في

الماضي، حق إعطاء فرمانات للسفن الخفيفة المنضوية تحت لواء الأساطيل الحربية، والتي تستعمل عادة في مراسلات البعثات والمفوضيات للقوى الصديقة.

وأحيط علماً مفوضو البلاطات ذوو الصلاحيات المطلقة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطورية النمسا، ومملكة بلغاريا وبوهيميا، ومملكة بروسيا، والإمبراطورية الروسية، بهذا التصريح لينقلوه إلى بلاطاتهم.

بالمرستون، نيومان

بولو، برونو

البروتوكول الثاني

بروتوكول خاص، وقع بلندن في الخامس عشر من شهر تموز لسنة ١٨٤٠ من قبل المفوضين ذوي الصلاحيات المطلقة لبلاطات بريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطور النمسا، وملك بلغاريا وبوهيميا، وملك بروسيا، وإمبراطور كل روسيا.

توصل مفوضو البلاطات ذوو الصلاحيات المطلقة لكل من بريطانيا العظمى وإيرلندا، وإمبراطورية النمسا، ومملكة بلغاريا وبوهيميا، ومملكة بروسيا، والإمبراطورية الروسية إلى اتفاق ودي، ووقعوه في هذا اليوم عملاً بالسلط الممنوحة لهم، نيابة عن ملوكهم من أجل إحلال السلام في الشرق.

وبالنظر إلى بعد المسافة التي تفصل بين عواصمهم، ما يجعل بعض الوقت يمر قبل تبادل المصادقة على المعاهدة المشار إليها، وما يمكن أن يصدر من أوامر بموجب هذا الاتفاق لجعلها قيد التطبيق.

ولما كان المفوضون مطلقو الصلاحية المذكورين أعلاه، مقتنعين بالنظر إلى الوضع الراهن في سورية والمصالح الإنسانية إضافة إلى الاعتبارات السياسية الأوروبية الخطيرة والتي تشكل موضوع الملتمسات المشتركة للقوى الموقعة على هذه المعاهدة، فإنهم يعلنون بكل حزم ضرورة تجنب أي تأخير، إذا أمكن، في إتمام عملية السلام والتي تهدف إليها المعاهدة المشار إليها. واتفق

المفوضون مطلقو الصلاحية المذكورين أعلاه فيما بينهم، وبمقتضى السلط المخولة لهم، وعملاً بمقتضيات المادة الثانية، بأنهم مجمعون برضى كل بلاطاتهم على التطبيق الفوري لهذا الإجراء.

من المتفق عليه أيضاً بين المفوضين مطلقي الصلاحية بأن صاحب الجلالة السلطان سيتوجه إلى محمد علي بخطاب يضمنه العروض المشار إليها في العقد المنفصل الملحق بالمعاهدة الموقعة هذا اليوم.

إضافة إلى ذلك، من المتفق عليه بأن قناصلة بريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا وروسيا سيتصلون بالمبعوث الذي سيرسله السلطان إلى محمد علي من أجل إبلاغ هذا الأخير بالعروض المشار إليها أعلاه، وبأن يقدم هؤلاء القناصلة إلى هذا المبعوث كل دعمهم ومساعدتهم طبقاً للسلط المخولة لهم، وبأن يستخدموا كل سلطهم من أجل التأثير على محمد علي من أجل القبول بالتسوية التي ستقترح عليه بأمر من صاحب الجلالة السلطان.

وسيتلقى أميرالات أساطيل البحر الأبيض المتوسط التعليمات الضرورية، ليتصلوا مع القناصلة المذكورين أعلاه حول هذا الموضوع.

بالمرستون، نيومان

بولو، برونو

مذكرة

مذكرة موجهة إلى الفيكونت بالمرستون من قبل السيد غيزو في الرابع والعشرين من شهر تموز.

رغبت فرنسا دوماً في تعاطيها مع قضية الشرق أن تكون متوافقة مع بريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا وروسيا. وأبداً لم تقم بأي عمل إلا خدمة للسلام، ولم تحكم على المقترحات التي قدمت لها إلا من وجهة نظر عامة، وليس من وجهة نظر مصالحها الخاصة، لأنه ما من قوة غير مهتمة مثلها فيما يخص الشرق. وعليه، فإنها تعتبر أن المخططات الهادفة إلى انتزاع محمد علي بقوة

السلاح من بعض أجزاء الإمبراطورية التركية التي يحتلها حالياً غير سليم.

ففرنسا تعتقد أن في هذا خير للسلطان، لأنه يمدها هنا ويمنح مناطق لايستطيع إدارتها أو الحفاظ عليها، كما لاتعتقد أن في هذا خير لتركيا أيضاً، ولحفظ التوازن الأوروبي، لأنه يتم إضعاف تابع يمكنه أن يساهم بكل قوة في الدفاع عن الإمبراطورية، وهذا ما لايخدم مصلحة السيد. ومع ذلك، فالأمر يتعلق هنا بنظام تفكير معين يحتمل أن يحمل العديد من الآراء المختلفة. إلا أن فرنسا أعلنت على الخصوص بأنها تعارض كل مشروع يتم تبنيه اعتماداً على استخدام القوة، لأنها لاتتصور بشكل واضح الوسائل التي يمكن للقوى العظمى الخمس أن تتوفر عليها لذلك، فهذه الوسائل تبدو لها غير كافية، بل أكثر بؤساً من الوضع الذي يراد علاجه.

فما اعتقدته فرنسا حول هذا الموضوع، وهي تعتقد ذلك دوماً، ولديها الأسباب لتعتقد بأنها ليست الوحيدة صاحبة هذا الرأي.

مهما يكن من ذلك، فخلال الظروف الأخيرة لم يتقدم لها أحد بأي مقترح يمكنها من خلاله أن تدلي برأيها فيه. وعليه، لايمكن تحميلها رفضاً لم تمنح الفرصة لتعبر عنه بالنظر إلى إصرار إنجلترا التي تقوم بذلك من دون شك باسم القوى العظمى الأربع.

وأكثر من ذلك، ودون الإلحاح على الطريقة التي تم التعامل بها معها، فإن فرنسا تعلن مرة أخرى بأن هذا الأمر لم يدرس بشكل جيد، وأنه من غير الحذر الوصول إلى قرارات تعوزها وسائل التنفيذ أو أن تنفذ بوسائل غير كافية أو خطيرة.

فتمرد بعض أهالي لبنان يمثل من دون شك الفرصة التي يراد استغلالها لإيجاد وسائل التنفيذ التي لم تظهر لحد الآن. هل يشكل ذلك وسيلة يمكن الاعتراف بها، وخاصة صالحة للإمبراطورية التركية، وذلك بالتصرف بهذه الطريقة مع نائب الملك؟ هناك إرادة إحلال بعض النظام والطاعة في كل مناطق الإمبراطورية، وتشجع بها أعمال التمرد! هل تضاف فوضى جديدة إلى الفوضى العامة التي تأسف لها القوى العظمى لمصلحة السلام؟ وهؤلاء

الأهالي، هل سيتم النجاح في إخضاعهم للباب العالي بعد أن يستثاروا على نائب الملك؟ كل هذه القضايا لم تحل بعد. لكن، وإذا ما تم قمع هذا التمرد، وإذا ما عاد نائب الملك المالك المتحكم في سورية، وإذا لم يزده ذلك إلا غضباً وأضحى عصياً على الإقناع، وإذا ما رد على هذه الإنذارات برفض إيجابي، ما هي الوسائل المتاحة للقوى العظمى؟ بكل تأكيد، أنه وبعد سنة من البحث عنها، سيكتشف بأنها كانت موجودة. ذلك أنه يتم خلق خطر جديد، الأخطر من بين كل ما سبق، إذ سيثور نائب الملك بالوسائل المستخدمة ضده، ويمكن لنائب الملك الذي ساهمت فرنسا في ضبطه أن يتجاوز طوروس ويهدد القسطنطينية مجدداً.

ما الذي ستقوم به القوى الأربع مجدداً؟ ما هي الطريقة التي ستدخل بها إلى الإمبراطورية لنجدة السلطان؟ تعتقد فرنسا بأنه ومن أجل استقلال الإمبراطورية العثمانية والسلم العام، خلق خطر أكبر من أطماع نائب الملك. وإذا لم يتم تصور كل هذه الاحتمالات التي ستنتج عن السلوك المتبع، فإن القوى العظمى الأربع تكون قد انخرطت في مسار غامض وكثير الأخطار. وعلى العكس من ذلك، وإذا ما تم تصورها، وإذا ما هيئت وسائل تنفيذها، فيتعين على القوى الأربع العظمى أن تعلم أوروبا بذلك، وخاصة فرنسا التي انخرطت دوماً في الهدف المشترك، فرنسا التي يطلب منها اليوم المساهمة المعنوية والتي يراد منها استخدام نفوذها في الإسكندرية.

والدعم المعنوي لفرنسا لسلوك مشترك هو واجب من جهة، لكنه لم يعد كذلك في الوضع الجديد الذي تريد القوى الانخراط فيه، ولن تتحرك فرنسا من اليوم فصاعداً إلا بحكم واجبها تجاه السلام وتجاه نفسها. والسلوك الذي ستنهجه في الظروف الخطيرة التي وضعت فيها القوى الأربع العظمى أوروبا، سيتعلق بالحل الذي يقدم لكل هذه الأسئلة التي أشارت إليها الآن.

ستضع فرنسا السلام وحفظ التوازن الحالي بين دول أوروبا نصب عينيها. وستكرس كل وسائلها من أجل هذا الهدف المزدوج.

مذكرة

مذكرة موجهة من اللورد بالمرستون إلى السيد غيزو

تشرف الموقع أدناه في السابع عشر من شهر تموز بإعلام صاحب السعادة السيد غيزو، بأن معاهدة تتعلق بالشؤون التركية قد وقعت في يوم الخامس عشر من الشهر ذاته من قبل المفوضين أصحاب الصلاحية المطلقة لكل من النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا من جهة، ومن قبل مفوض الباب العالي العثماني مطلق الصلاحية من جهة ثانية، وبأنه تم تبادل التصديقات على هذه المعاهدة. ويتشرف الموقع أدناه بمد صاحب السعادة السيد غيزو بنسخة من المعاهدة المشار إليها وملاحقها لإطلاع الحكومة الفرنسية عليها. وبمراسلة الموقع أدناه صاحب السعادة السيد غيزو، لايستطيع إلا أن يجدد أسف حكومة صاحبة الجلالة الصادق. وقد شكل نفور الحكومة الفرنسية من المشاركة في التدابير المتعلقة بهذه المعاهدة، عقبة منعت فرنسا من أن تكون جزءاً من هذه المعاهدة. لكن حكومة صاحبة الجلالة مقتنعة بأن مجلس التويلري سيرى في مواد هذه المعاهدة أدلة لايمكن دحضها.

١ ـ بأن القوى الأربع العظمى ويفرضها على نفسها المقتضيات التي تتضمنها، كانت مدفوعة برغبة لامشروطة في الحفاظ على مبادئ سياستها إزاء تركيا والتي أعلنت فرنسا في أكثر من مناسبة وبكل وضوح وحزم بأنها مبادئها أيضاً.

٢ ـ بأنها لاتبحث في الحصول على امتيازات حصرية لها عن طريق التسويات المتوصل إليها، وبأن الموضوع الأساسي لها، حفظ التوازن السياسي الأوروبي، وإبعاد الأحداث التي تهدد السلم العام.

وزارة الخارجية في السادس عشر من شهر
أيلول ١٨٤٠
بالمرستون

مذكرة

من السيد رئيس مجلس الوزراء إلى السيد غيزو سفير فرنسا في لندن.

سيدي السفير، اتخذت القضية الخطيرة التي تستحوذ على الاهتمام العام وجهاً جديداً منذ رد الباب العالي على الرخص المقدمة إلى نائب الملك في مصر.

لقد أعلن محمد علي في معرض رده على إنذار السلطان بأنه سيخضع لإرادة سلطانه العظيم، وبأنه يقبل اقتراح التوريث في مصر، وبأنه يخضع خضوعاً تاماً للسلطان في باقي الأراضي التي يحتلها. وأعلمنا مجلس الوزراء الإنجليزي التأويل الذي يحمله هذا التصرف. ومع أن محمد علي لم يقبل أن يحدد مباشرة مدى التنازلات التي اضطر إلى تقديمها عن طريق التوصيات الفرنسية الملحة، أخذنا على عاتقنا مسألة التعريف بها، فأعلنا بأن نائب الملك يكتفي بضرورة قبول السيادة الوراثية في مصر، وحيازة سورية مدى الحياة، والقبول بالتخلي مباشرة عن كاندي وأضنة والمدن المقدسة. ونضيف بأنه لو أن الباب العالي قبل بهذه التسوية لكنا قبلنا ضمان تنفيذها بالاتفاق مع القوى التي تعمل حالياً على تحديد الوضع المستقبلي للإمبراطورية العثمانية.

لقد أصابت الدهشة كل ذي عقل راجح لوفاء فرنسا التي وعلى الرغم من أنها أجبرت على المضي في طريق منفصلة، لم تكف بالمقابل ولو للحظة واحدة عن استخدام نفوذها بغية التوصل إلى اتفاق سلمي ومعتدل لقضية الشرق. وسيقدر كل ذوي العقول المستنيرة في أوروبا الحكمة التي دفعت نائب الملك للإنصات للنصائح بالتزام الحذر والاعتدال. وكرد على هذه التنازلات، فإن الباب العالي الذي يعمل بطريقة عفوية أو لربما كان محركاً بواسطة نصائح غير سليمة ومتسرعة قدمت في التو والمكان نفسه، أكرر بأن الباب العالي وقبل أي لجوء إلى حلف القوى العظمى الذي شكل مؤخراً، رد على إعلان خضوع نائب الملك بإعلان عزله. وذهب هذا التصرف غير المتوقع بقدر ما هو مهين

أبعد من روح معاهدة الخامس عشر من شهر تموز، وهو يتجاوز النتائج الأكثر غرابة التي يمكن توقعها من خلال نشر هذه الوثيقة. وهذه المعاهدة التي لايمكن لفرنسا أن تستشهد بها، ما دامت لاتوافق عليها ولاتعترف بها، لكنها تشير اليوم إليها لتبرهن على السرعة التي دفعت الأطراف الموقعة عليها إلى نتائج خطيرة. هذه المعاهدة، وفي حال رفض نائب الملك رفضاً مطلقاً القبول بها كلها أو بجزء من شروطها، تمنح الباب العالي إمكانية سحب اقتراحاته الأولى والتصرف وفق ما يراه مناسباً لمصالحه، وطبقاً لنصائح القوى المتحالفة. ومع ذلك، فهناك خيار افتراضي مزدوج في هذه المعاهدة يتمثل في الرفض القاطع والمطلق من قبل نائب الملك إزاء كل النقاط المتضمنة لها والتي تتعلق به، واللجوء فيما بعد إلى القوى الأربع لطلب نصائحها.

وما من شيء مشابه قد تم، فنائب الملك لم يرفض بشكل مطلق، والسلطان لم يمنح لنفسه الوقت للتشاور مع حلفائه حول رد معين، فرد عن طريق العزل مقابل تنازلات غير مقبولة.

ولايمكن للقوى الأربع أن توافق على تصرف مماثل، ونعلم أن العديد منها أعربت عن استيائها بخصوص هذا الموضوع. ذلك أن اللورد بالمرستون راسل مجلس وزرائنا معلناً أنه لايجب اعتبار هذا التصرف إلا أنه تهديد من دون تبعات أو امتداد فعلي. وأخبرني الكونت دابونيي في لقاء جمعني به حول هذا الموضوع، بأن حكومته تشارك هذا الرأي بخصوص العزل، وسارعت إلى الإحاطة علماً بهذا الرأي الحكيم. واغتنمنا الفرصة لإبداء نوايا فرنسا في هذا الموضوع، وأعلنت فرنسا بأنها تريد استخدام كافة الوسائل المتوفرة لديها من أجل حفظ السلام والتوازن في أوروبا. وقد حان الوقت لتشرح بوضوح معنى إعلانها.

ولما قبلت فرنسا بإخلاص مقدس بوضع أوروبا المحدد بالمعاهدات الموجودة، أدركت منذ السلام العام الذي تم لحسن الحظ سنة ١٨١٥، بأن هذا الوضع لايمكنه أن يتغير لمصلحة قوة أو على حساب أية قوة موجودة.

وأعلنت وفقاً لهذا الانطباع بأنها مع حفظ وحدة الإمبراطورية العثمانية. ويستحق الشعب التركي بسبب مزاياه الوطنية، أن يتم احترام استقلال هذه المملكة.

وبغض النظر عن هذا الاعتبار، فإن المصالح العليا الأوروبية مرتبطة باستمرار وجود تركيا. وهذه الإمبراطورية الماضية إلى الانحدار، لايمكنها إلا أن تخدم مشاريع امتداد لجيرانها على حساب التوازن العام. وإذا ما سقطت، فإن هذا سيحدث تغييراً على التوزيع الجغرافي الحالي للقوى العظمى، وسيعدل وجه العالم كله. وأدركت فرنسا ومعها باقي القوى، هذه النتيجة حد أنها إلى جانب حلفائها، عملت دوماً وبتفان على الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، مهما تفاوتت مصالحهم في حال بقاء هذه المملكة أو زوالها. غير أن مناطق وحدة الإمبراطورية العثمانية تمتد حتى ضفاف البحر الأسود وضفاف البحر الأحمر، ومن المهم أيضاً ضمان استقلال مصر وسورية بالقدر نفسه لاستقلال الدردنيل والبوسفور. وتمكن أمير تابع (أمير تابع!)، من إقامة حكومة حازمة في ولايتين لم يستطع السلطان أن يتحكم فيهما لمدة طويلة.

سيأتي باشوات غيره، وسيعصون أسيادهم، وسيخضعون لكل التأثيرات الأجنبية. وفي كلمة واحدة، سيجد جزء من الإمبراطورية العثمانية نفسه عرضة للخطر، وفي الوقت نفسه، سيكون التوازن العام في خطر. وفي نظر فرنسا، فوجود نائب الملك في الولايات التي يحكمها والبحرين اللذين يمد سلطته عليهما، أساسي لضمان بقاء الأوضاع كما هي عليه الآن بين مختلف الأطراف في العالم. وبهذه القناعة، تهتم فرنسا أيضاً بقضية الشرق مع القوى الأربع التي وقعت بروتوكول السابع عشر من شهر أيلول، وتعتقد أنه من الضروري أن تعلن أنه إذا ما استمر عزل الملك أو (إقالته)، فسيكون في رأيها ضربة للتوازن العام.

أما المشكلة المتعلقة بالحدود التي يتعين إقامتها في سورية لفصل ممتلكات السلطان عن ممتلكات نائب الملك، فيمكن من دون خطر أن تترك لحظوظ

الحرب المفتوحة في هذه الأيام. بيد أن فرنسا لاتستطيع أن تتخلى عن فرصة مماثلة لمحمد علي كأمير تابع للإمبراطورية.

ولئن لم يستطع هذا الأمير التابع إدخال المظاهر الإنسانية إلى البلاد التي يحكمها، وتلك الصورة المميزة للحضارة الأوروبية والتي لاتتوافق ربما مع عادات البلاد الخاضعة له، إلا أنه تمكن على الأقل من إدخال الكثير من النظام والانتظام، المفقودين في أية منطقة أخرى من مناطق الإمبراطورية العثمانية.

ووجد إمكانية لرفع القوة العمومية، ووحد القوات، وأقام أسطولاً، ورفع من عزة الشعب التركي، وأعاد له جزءاً من ثقته بنفسه، الثقة الواجب توفرها لدى أية أمة لتتمكن من الدفاع عن نفسها والحفاظ على استقلالها. وفي رأينا، أضحى هذا الأمير التابع جزءاً أساسياً وضرورياً في الإمبراطورية العثمانية.

وإذا حدث انقلاب على نائب الملك وأسقط، فإن الإمبراطورية لن تجد أيضاً الوسائل التي كانت تفتقر إليها من قبل ليتمكن السلطان من حكم مصر وسورية، وسيفقد الباب العالي تابعاً يعد الآن أحد أقوى حصونه.

أما الحدود الجغرافية التي يمكنها أن تفصل نهائياً بين القوتين عن طريق الحرب، فهي ضرورية بالنسبة لأوروبا، ولايمكن لفرنسا أن تقبل إقصاء هذه أو تلك، وهي مستعدة دوماً للمشاركة في كل تسوية مقبولة يكون أساسها الضمان المزدوج لوجود السلطان ونائب الملك في مصر، وستكتفي الآن بالإعلان بأنه لايسعها قبول تنفيذ مرسوم العزل الصادر من القسطنطينية. ومن نواح أخرى، تدل المظاهر العفوية للقوى العظمى الموقعة على معاهدة الخامس عشر من شهر تموز بأننا نتفق تماماً على «توازن أوروبا»، وبأن وجهات نظرنا غير مختلفة، لكننا لانستطيع أن نحيد عن هذه الطريقة في تصور الأمور، وضمان الحفاظ على هذا التوازن.

وتأمل فرنسا أن تقدر أوروبا الأسباب التي دفعتها للخروج عن صمتها الذي التزمت به لحد الآن.

ويمكننا أن نعتمد على حبها للسلام، لأن هذه العاطفة كانت محركها دوماً

على الرغم من الإجراءات التي تعتقد أن عليها الشكوى منها. هل يمكننا أيضاً أن نعتمد على لامبالاتها لأنه من المستحيل أيضاً اتهامها بالسعي إلى ضم أراض في الشرق، وهي ترغب في الحفاظ على التوازن في أوروبا، وهو أيضاً مسعى القوى العظمى، ويجب أن يكون سبب مجدها وطموحها.

برقية:

موجهة من بالمرستون وزير الشؤون الخارجية إلى اللورد بونسونبي سفير بريطانيا في القسطنطينية.

سيدي، استدعت حكومة صاحبة الجلالة الآخذة بعين الاعتبار قيام السلطان بنزع باشوية مصر من محمد علي، وتأثير هذا الإجراء على القضايا المعلقة، وما يتعين القيام به لتتبع هذا الأمر، سفراء النمسا وبروسيا وروسيا إلى مجلس سان جيمس، وعرضت على حكوماتهم من خلالهم بأنه لاجدال في أن هناك أسباب قوية بحسب تقارير سعادتكم، دفعت السلطان إلى القيام باتخاذ هذا التدبير، والذي إذا كان لايمنع السلطان أبداً من إعادة محمد علي من جهة إذا ما خضع سريعاً لعاهله، فإنه من جهة أخرى، يمارس تأثيراً معنوياً كبيراً على محمد علي بإفهامه أنه إذا ما استمر القتال بينه وبين عاهله، وإذا ما خسر هذا القتال، فسيفقد كل شيء عن طريق مقاومته العنيدة.

ومن أجل هذه الغاية، حيث هذا الإجراء الذي اعتقد السلطان أنه يسرع به حل قضية الشرق، تعتقد حكومة صاحبة الجلالة بأنه من المناسب أن يتلقى ممثلو القوى الأربع الأوامر بالتوجه إلى الوزير التركي، وأن يعلنوا له، وطبقاً للمادة السابعة للعقد الملحق بمعاهدة الخامس عشر من شهر تموز، والذي يدعو السلطان بكل وضوح أنه وفي حال مسارعة محمد علي إلى إعلان خضوعه وقبوله إعادة الأسطول وسحب قواته من سورية وأضنة وكاندي والمدن المقدسة، بألا يكتفي بإعادة محمد علي إلى باشوية مصر فقط، بل أن يمنحه أيضاً حق التوريث في هذه الباشوية طبقاً للشروط المحددة في معاهدة الخامس

عشر من شهر تموز، وأن يهدد بسحبها منه في حال أخل محمد علي أو ورثته بهذه الشروط.

ولحكومة صاحب الجلالة أسباب قوية تجعلها تعتقد بأن هذه الفكرة تضمن مشاركة حكومات روسيا وبروسيا والنمسا، وستقوم سعادتكم بكل التدابير الضرورية ما إن يتلقى زملاؤكم التعليمات اللازمة من حكوماتهم. وإذا ما رأى السلطان بأنه من المناسب العمل وفقاً لهذا الرأي المقدم له من قبل حلفائه الربعة، من اللائق أن يتخذ تدابير فورية ليفهم محمد علي نواياه الطيبة بهذا الخصوص. وفي هذه الحالة، ستقدم سعادتكم والسير روبرت ستوبفورد إلى الحكومة التركية كل التسهيلات التي يمكن أن تطلبها في هذا الشأن.

[4]

معجم الكلمات العربية والتركية

أشراف: ج. شريف. لقب يطلق على الذين تتحدر أصولهم إلى الرسول.

آغا: موظف عثماني سام في مصر في عهد الإمبراطورية العثمانية، وهو لقب يحمله الملوك الذين يتبعون للسلطان أو من قبل بعض الموظفين الأتراك الكبار، ويطلق عليهم أيضاً لقب بك.

بايلر باي: حاكم.

بمباشي أو بنباشي: قائد ورئيس كتيبة.

قبطان باي: قائد سفينة.

قواس: حارس. جندي. شرطي.

دفتردار: مراقب المالية.

دير باي: سيد الوادي، مالك لأراض شاسعة.

جرم: سفينة لنقل البضائع.

دروغمان: مترجم.

فرمان: أمر إمبراطوري مكتوب.

حريم: جناح النساء.

كاشف: ج. كشاف. ممثل الحكومة في المحافظات وهو بمثابة مفوض محلي.

قائم مقام: حاكم القاهرة بشكل مؤقت.

قبطان باشا: أميرال كبير.

كتخوذا: مساعد.

خزندار: أمين الخزينة.

خديوي: سيد.

كوتشوك إمبروكر: فارس. حامل السلاح.

ميري: ينتمي إلى الخزينة الإمبراطورية.

أوياك: ميليشيا.

عهدة: أرض زراعية.

السلملك: مقر استقبال الرجال.

سليكدار. فارس. حامل السلاح.

سيراسكيي: وزير الحربية. قائد عام.

جفلك: أرض زراعية.

[5]

المعجم البحري للفترة ما بين سنتي ١٨٠٠ و١٨٣٥

ـ مراكب شراعية مسلحة: يتراوح طولها ما بين عشرة أمتار وإثنين وعشرين متراً، وعرضها ما بين سبعة أمتار وتسعة أمتار ونصف، بحمولة حوالي عشرين مدفع متوسط. وبالنسبة للتجارية منها، بستة إلى ثمانية مدافع، وبصاريين فقط وصارية مائلة في مقدمة السفينة.

ـ حراقة: سفينة بين الفرقاطة والمركب الشراعي المسلح، بحمولة ما بين عشرين وست وعشرين قطعة من العيار المتوسط.

ـ كوتير أو كتر: سفينة صغيرة بصار واحد وآخر مائل بشدة إلى الخلف. لها من ستة إلى ثمانية مدافع ضعيفة جداً. ويصل طولها إلى حوالي عشرين متراً وعرضها ستة أمتار.

ـ الفرقاطة: مركب بأبعاد ومدافع مختلفة جداً، بثلاث صواري، وهي بين الحراقة والسفينة الحربية. يتراوح طولها ما بين أربعين وخمسين متراً، وعرضها ما بين عشرة واثني عشر متراً، وتضم ما بين ثلاثين وستين مدفعاً. سهلة التحريك وسريعة إذ تتراوح سرعتها ما بين عشر عقد واثنتي عشرة عقدة، أي ما يقارب العشرين كيلومتراً في الساعة.

ـ المركب ذو الصاريين: مركب خفيف بصاريين (الصاري المقدم،

والصاري الكبير)، وأشرعة مثلثة الشكل أو رباعية من غير تماثل زواياها.

ـ السفينة الحربية: تتميز بعدد مدافعها الذي يتراوح ما بين السبعين والمائة والعشرين، وطول يترواح ما بين الأربعة والخمسين متراً والأربعة والستين متراً، وعرض ما بين أربعة عشر متراً وستة عشر متراً. تسحب الماء من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار. تتراوح حمولتها ما بين ثلاثة آلاف طن وخمسة آلاف طن، وتتميز بثلاثة مدافع مغطاة، ومدفعين مغطيين. وتصل سرعتها من سبعة عقد إلى ثماني عقد، أي حوالي ستة عشر كيلومتراً في الساعة، ويصل سمك مدافع جوانبها إلى ستتمتر إضافة إلى تجاوز ضلوعها وأغطيتها للمتر الواحد. وأفضل نوع منها ذات المدفعين المغطيين، وبثمانين مدفع إلى تسعين مدفع، وهي سهلة التحريك في كل الأوقات ومهما بلغ سوء عملية الإبحار، ويمكنها مضاهاة فرقاطة تقريباً في جمعها بين القوة والسرعة.

ـ مدافع البوارج: عيار ستة وثلاثون في المدفعية المنخفضة، وأربعة وعشرون وثمانية عشر في المدفعية الأخرى (الوزن بالرطل لكل قنبلة مقذوفة). ومن الناحية النظرية، لم تعد هناك منذ سنة ١٨٢٤ إلا تلك من عيار ثلاثين في كل مكان بقطع طويلة أو قصيرة بحسب أماكن تواجدها.

ـ الطواقم: يزيد عدد الرجال في البوارج من عشرة رجال لكل مدفع، مع إضافة بالنسبة للخدمات العامة. ويمكن لسفينة ثلاثة مدافع مغطاة والتي تضم مائة وعشرين مدفعاً، أن تحمل على متنها أزيد من ألف وثلاثمائة رجل. وكلما قل العيار انخفض عدد الرجال العاملين على المدفع. وتضم الفرقاطات من ثلاثمائة رجل إلى خمسمائة رجل، والمراكب الشراعية المسلحة والحراقات من مائة وخمسين رجلاً إلى مائتين وخمسين رجلاً.

[6]

تعريف بالعملات والأوزان والقياسات

العملات

يعود الفضل إلى نابوليون بونابارت في إقامة تعريفة نقدية مصرية، ففي الخامس من شهر تموز من سنة ١٧٩٨ سنّ سعر صرف العملات الفرنسية والأجنبية والمصرية.

العملات الذهبية	البارة (ربع مليم)
الليرة الفرنسية المضاعفة	١٣٤٤
الليرة العادية	٦٧٢
السيكان البندقي	٣٤٠
السيكان الهنغاري	٣٠٠
سيكان زير محبوب	١٨٠
السيكان القسطنطيني	٢٠٠

العملات الفضية	البارة (ربع مليم)
دينار ست ليرات الفرنسية	١٦٨
دينار خمس ليرات من فئة سولا فرنسية	١٤٢
دينار ثلاث ليرات فرنسية	٨٤

قطعة الثلاثين سولا ٤٢

قطعة الثمانين سولا فرنسية ٣٣

يسجل بأن الحكومة المصرية لم تعتمد في الأساس عملة شرقية معينة مثل البارة (ربع مليم) أو القرش التركي أو السيكان القسطنطيني أو سيكان القاهرة. فهذه القطع المتغيرة جداً سواء بأصلها أو بتسميتها كانت قيمتها ضعيفة جداً لتشكل تعرفة نقدية. وهكذا، تم اختيار الثالير الجرماني المقيّم تقييماً عالياً في العالم الإسلامي.

بورصة: ٢٥٠٠٠ بارة.

الفندقي: ٨٠ بارة.

الفلس الجديد: قطع نحاسية.

الفندقلي: من ١٣٤ بارة إلى ١٤٦ بارة سنة ١٧٣٦.

الليرة: ١٠٠ قرش.

البارة: استعملت طيلة الفترة العثمانية. وأصل البارة الفضية المصرية، القطعة الفضية المملوكية التي كان يطلق عليها «المؤيدي» لنصف درهم. وفي سنوات حكم سليمان الأول (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) كانت البارة تزن ١ . ٢٨٩ غراماً أي خمسة دراهم، وبعد قرنين لم تعد تزن إلا ٠ . ٢٢٥ غراماً.

باتاك: ٩٠ بارة.

القرش: من ٣٠ إلى ٤٥ بارة.

التالاري: ٢٠ قرشاً أو خمس ليرة.

وكانت المعاملة التجارية تتم أساساً عن طريق العملات الأجنبية. أما المعاملات المحلية فكانت تعتمد العملات المحلية والتي تشكل ضعف قيمتها، ظاهرة غريبة، وكانت بنتائج سيئة جداً على الحياة الاقتصادية المصرية في القرنين الأخيرين للسيطرة العثمانية[1].

---

(١) أنظر أندري رايمون. دمشق ١٩٧٣.

الأردب: لتحديد وزن الحبوب، وبخصوص القمح يقدره إدوارد لين بخمسة بوشيلات أي حوالي ١٨٢ لتراً.

الذراع: يتغير بحسب المنتوج المقصود من ٥٧.٥٧ سنتمتراً إلى ٣.٦٧ سنتمتراً.

الفدان: لقياس المساحة الفلاحية، ويصل إلى حوالي أربعة آلاف ومائتي متر مربع.

القنطار: ٣٣.٤٤ كيلوغرام، مقسم إلى ٣٦ أوقية و١٠٠ رطل (٤٤٣.٠ كيلوغرام).

[7]

كرونولوجيا الأحداث

١٧٩٨ : ـ الفاتح من شهر تموز: وصول الحملة الفرنسية إلى الشواطئ المصرية.

١٨٠١ : ـ الثامن من شهر آذار: الوصول الإنجليزي العثماني إلى أبو قير.

محمد علي ينتمي إلى هذه القوات، ورقي إلى رتبة بنباشي.

ـ الثاني والعشرين من شهر حزيران: استسلام مينو.

ـ التاسع من شهر آب: رحيل آخر جندي فرنسي عن مصر.

ـ يعين خسرو باشا نائباً للملك في مصر.

ـ يعين خورشيد باشا حاكماً للإسكندرية.

ـ الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول: مذبحة بايات المماليك.

١٨٠٣ : ـ الحادي عشر من شهر آذار: رحيل الإنجليز عن مصر.

ـ الثاني عشر من شهر نيسان: عزل خسرو وتعويضه بطاهر باشا.

ـ السابع والعشرين من شهر أيار: اغتيال طاهر باشا.

ـ الثامن من شهر تموز لسنة ١٨٠٣ : وصول الجزائري إلى ميناء الإسكندرية لتعويض خسرو.

ـ شهر تموز: اغتيال الجزائري، والبرديسي السيد المفترض لمصر.

١٨٠٤ : ـ شهر شباط: عودة الألفي باياً إلى مصر.

ـ منتصف شهر شباط: هروب الألفي إلى مصر العليا.
ـ شهر أيار: إعلان بونابارت إمبراطوراً لفرنسا.
ـ شهر كانون الأول: تتويج نابوليون الأول.
١٨٠٥: ـ شهر شباط: إعادة خسرو على رأس مصر من قبل محمد علي.
ـ منتصف شهر شباط: يرحل خسرو المعزول بحراً إلى إسطانبول.
ـ نهاية شهر شباط: تعيين خورشيد باشا نائباً للملك.
ـ بداية شهر أيار: تعيين محمد علي باشا جدة.
ـ ليلة من الثاني عشر إلى الثالث عشر من شهر أيار: إعلان العلماء عن اختيار الشعب لمحمد علي.
ـ الثامن عشر من شهر حزيران: يكلف محمد علي رسمياً من قبل الباب العالي.
ـ نهاية شهر آب: وصول إبراهيم وطوسون إلى مصر.
ـ الثامن والعشرون من شهر تشرين الأول: رحيل خورشيد إلى إسطانبول.
ـ الثاني من شهر كانون الأول: معركة الأسترليتز.
١٨٠٦: ـ شهر تموز: محاولة الباب العالي عزل محمد علي، مقابل باشوية سالونيك.
ـ شهر تشرين الأول: وفاة البرديسي.
١٨٠٧: ـ معاهدة تيلسيت.
ـ شهر كانون الثاني: وفاة الألفي.
ـ السابع عشر من شهر آذار: وصول الإنجليز إلى الموانئ المصرية.
ـ الحادي والعشرون من شهر آذار: هزيمة الإنجليز في الرشيد.
ـ الخامس والعشرون من شهر أيلول: انطلاق الحملة الإنجليزية.
١٨٠٨: ـ حرب إسبانيا.
ـ شهر كانون الثاني: محمد علي يضع يده على الأوقاف.

ـ شهر أيار: انقلاب في إسطانبول، وسليم الثالث يعوض بمحمود الثاني.
ـ محمد علي يأمم كل الأراضي الزراعية.
١٨٠٩ : ـ شهر أيار: وصول زوجة محمد علي وباقي أفراد أسرته إلى مصر.
ـ شهر تموز: معركة فاغرام.
١٨١٠ : ـ شهر نيسان: زواج نابوليون من ماري لويز النمساوية.
١٨١١ : ـ الفاتح من شهر آذار: مذبحة المماليك في القلعة.
ـ شهر تشرين الأول: بداية حملة طوسون في الجزيرة العربية.
١٨١٢ : ـ الحملة الروسية.
ـ شهر تشرين الثاني: احتلال المدينة.
١٨١٣ : ـ هزيمة ليبزيغ.
ـ شهر كانون الثاني: احتلال مكة.
ـ شهر أيلول: حملة محمد علي على الجزيرة العربية.
١٨١٤ : ـ الحملة الفرنسية.
ـ العشرون من شهر كانون الثاني: انتصار بيزل.
١٨١٥ : ـ المائة يوم.
ـ التاسع عشر من شهر حزيران: عودة محمد علي إلى القاهرة.
ـ الثامن عشر من شهر حزيران: واترلو، وعودة لويس الثامن عشر إلى العرش.
١٨١٦ : ـ حل المجلس المساند للملكية.
ـ الدوق دو روشليو رئيساً للحكومة.
ـ الثالث والعشرون من شهر أيلول: بداية حملة إبراهيم في الجزيرة العربية.
١٨١٨ : ـ يدكاز يعوض دو روشليو.
ـ الخامس عشر من شهر أيلول: احتلال الديرية.

١٨١٩ : ـ شهر تموز: يصل جوزيف سيف الملقب بأنثيلم إلى مصر والذي سيغدو فيها سليمان باشا.

١٨٢٠ : ـ انتصار انتخابي للمتطرفين.

ـ جورج الرابع يخلف والده جورج الثالث الذي أصيب بالجنون.

ـ شهر حزيران: بداية الحملة في السودان.

ـ قطن جوميل.

١٨٢١ : ـ شهر شباط: تدشين قناة المحمودية.

ـ الخامس والعشرون من شهر آذار: الثورة الوطنية اليونانية ضد العثمانيين.

ـ الخامس من شهر أيار: وفاة نابوليون في سانت هيلين.

ـ انسحاب روشليو من الحكومة، وتعويضه بفيليل.

ـ السابع والعشرون من شهر أيار: وصول إسماعيل إلى أم درمان. (الخرطوم فيما بعد).

ـ تعيين ميترنيخ مستشاراً للنمسا.

ـ شهر أيلول: وصول إبراهيم إلى السودان.

١٨٢٢ : ـ شهر تشرين الأول: اغتيال إسماعيل في شندي، وتأسيس الخرطوم.

١٨٢٣ : ـ شهر نيسان: محمد علي يقضي على تمرد كريد.

١٨٢٤ : ـ شهر تموز: بداية الحملة على موريي.

ـ السادس عشر من شهر أيلول: وفاة لويس الثامن عشر، ويعتلي العرش بعده أخوه تحت لقب شارل العاشر.

١٨٢٥ : ـ الثاني من شهر آذار: إبراهيم في مودون.

ـ الثامن عشر من شهر أيار: احتلال نافارين.

ـ التاسع والعشرون من شهر أيار: تتويج شارل العاشر في ريمس.

ـ شهر كانون الأول: وصول الدكتور كلو إلى مصر.

١٨٢٦ : ـ البعثة الأولى للطلاب المصريين في باريس.

- الثالث والعشرون من شهر نيسان: احتلال ميسولونغي.
- تنفيذ محمود الثاني لمجزرة في حق الانكشارية.

١٨٢٧ : - العشرون من شهر تشرين الأول: هزيمة نافارين.

١٨٢٨ : - الليبرالي مارتينياك يعوض فيليل.
- السادس والعشرون من شهر نيسان: إعلان روسيا الحرب على تركيا.
- إبراهيم يخلي موريي.
- الثامن عشر من شهر آب: دروفيتي يستقبل شامبوليون في الإسكندرية.
- الرابع والعشرون من شهر آب: محمد علي يستقبل شامبوليون.

١٨٢٩ : - الثامن من شهر آب: المتطرف بولينياك يعوض مارتينياك.
- الرابع عشر من شهر أيلول: سلام أندرينوبل.

١٨٣٠ : - اللورد بالمرستون على رأس وزارة الخارجية.
- غيوم الرابع ملكاً لإنجلترا.
- الخامس من شهر تموز: احتلال الجزائر.
- من السابع والعشرين إلى التاسع والعشرين من شهر تموز: ثورة تموز، ثورة «الثلاثة الأيام المجيدة».
- الحادي والثلاثين من شهر تموز: تخلي شارل العاشر عن العرش.
- السابع من شهر آب: لويس فيليب، دوق أورليانز ملكاً لفرنسا.
- السابع من شهر آب: الباب العالي يمنح محمد علي باشوية كاندي.

١٨٣١ : - السادس والعشرون من شهر كانون الثاني: شامبوليون يغادر مصر.
- الثالث عشر من شهر آذار: وزارة كازيمير بيريي.
- الخامس عشر من شهر نيسان: تحرك «الأقصر» باتجاه مصر.
- شهر تشرين الأول: بداية الحملة على سورية.

١٨٣٢ : - شهر آذار: وفاة كازيمير بيريي.

ـ الرابع من شهر آذار: وفاة شامبوليون.
ـ السابع والعشرون من شهر أيار: احتلال عكا.
ـ الثامن من شهر تموز: «هزيمة الباشوات».
ـ الرابع عشر من شهر آب: احتلال حلب.
ـ الحادي والعشرون من شهر كانون الأول: انتصار قونية.

١٨٣٣: ـ السادس من شهر كانون الثاني: فردينان دو ليسيبس مساعداً لقنصل
ـ فرنسا في الإسكندرية.
ـ العشرون من شهر شباط: الأسطول الروسي يرسو في البوسفور.
ـ الخامس والعشرون من شهر آذار: مقابلة لويس فيليب للدكتور كلو.
ـ شهر نيسان: مهمة بوالوكونت.
ـ الرابع عشر من شهر أيار: وصول أوائل السان السيمونيين إلى مصر.
ـ الثامن شهر تموز: معاهدة إنكيار سكيليسي.
ـ محمد علي على رأس باشوية عكا، والقدس، ونابلس، وطرابلس، ودمشق، وحلب، ومقاطعة أضنة.
ـ الثالث والعشرون من شهر كانون الأول: إقامة مسلة الأقصر في ساحة الكونكورد.

١٨٣٤: ـ تيبرس وزيراً للشؤون الخارجية.
ـ شهر أيار: بداية التمرد في فلسطين.
ـ الثامن والعشرون من شهر حزيران: محمد علي يترك مصر قاصداً سورية.
ـ التاسع والعشرون من شهر تموز: عودة محمد علي إلى القاهرة.

١٨٣٦: ـ شهر أيلول: استقالة تيبرس. ومولي رئيساً للمجلس، ووزيراً للشؤون الخارجية.
ـ السادس من شهر تشرين الثاني: وفاة شارل العاشر.

١٨٣٧ : ـ فيكتوريا ملكة لإنجلترا.

١٨٣٨ : ـ تحركات من أجل الاستقلال، ومعارضة القوى العظمى.

ـ الخامس عشر من شهر تشرين الأول: الرحيل المفاجئ لمحمد علي نحو السودان.

١٨٣٩ : ـ الرابع عشر من شهر آذار: عودة محمد علي إلى القاهرة.

ـ الرابع والعشرون من شهر حزيران: انتصار النصيب.

ـ الفاتح من شهر تموز: وفاة محمود الثاني، وعبد المجيد يخلفه.

ـ التاسع من شهر تموز: السطول العثماني يقدم إلى محمد علي.

١٨٤٠ : ـ شهر شباط: سقوط مولي، وعودة تييرس إلى رئاسة المجلس.

ـ شهر آذار: تمرد سوري جديد.

ـ السابع من شهر حزيران: إقالة خسرو.

ـ الخامس عشر من شهر تموز: معاهدة لندن.

ـ شهر تموز: مهمة وليفسكي.

ـ السادس عشر من شهر غشت: إبلاغ محمد علي بشروط معاهدة لندن.

ـ شهر أيلول: أسطول التحالف يتجه صوب الشواطئ سورية.

ـ شهر تشرين الأول: قذف بيروت.

ـ التاسع عشر من شهر تشرين الأول: قوات التحالف تحتل طرابلس.

ـ التاسع والعشرون من شهر تشرين الأول: وزارة سولت وغيزو.

ـ شهر تشرين الأول: الملك يسحب ثقته من تييرس فيضطر هذا الأخير إلى الاستقالة.

ـ السابع والعشرون من شهر تشرين الثاني: اتفاق نابيي.

١٨٤١ : ـ الثالث عشر من شهر شباط: صدور فرمان يمنح حق التوريث إلى محمد علي في مصر.

١٨٤٤ : ـ وفاة بوغوص يوسوفيان باي.

ـ شهر تموز: الإشارات الأولى للاضطراب العقلي لمحمد علي.

١٨٤٦ : ـ كانون الثاني: إبراهيم في فيرني لي بان.

ـ الثاني والعشرون من شهر نيسان: وصول إبراهيم إلى باريس.

ـ الثامن والعشرون من شهر نيسان: حفل استقبال في التويلري.

ـ الخامس والعشرون من شهر أيار: شان دو مارس.

ـ العاشر من شهر تموز: محمد علي يقابل السلطان عبد المجيد في إسطانبول.

ـ الثالث عشر من شهر تموز: إبراهيم يحضر في لندن إلى حفل العشاء الذي أقامه على شرفه اللورد بالمرستون.

ـ الثالث من شهر آب: عودة إبراهيم إلى مصر.

ـ الرابع والعشرون من شهر آب: عودة محمد علي إلى الإسكندرية.

١٨٤٧ : ـ غيزو رئيساً للمجلس.

ـ التاسع من شهر نيسان: وضع الحجر الأساس لمشروع «القناطر الخيرية».

ـ العشرون من شهر تشرين الأول: من جديد إبراهيم في بيزا، وحالته الصحية تتدهور بسرعة.

١٨٤٨ : ـ الحادي عشر من شهر شباط: تدهور الحالة الجسدية والعقلية لمحمد علي. وبناءً على نصائح الدكتور كلو، يرحل إلى أوروبا.

ـ الرابع والعشرون من شهر شباط: سقوط لويس فيليب.

ـ الخامس والعشرون من شهر شباط: إعلان الجمهورية.

ـ السادس من شهر آذار: إبراهيم يستقبل محمد علي في نابولي.

ـ الثلاثون من شهر آذار: عودة إبراهيم ومحمد علي إلى مصر.

ـ الخامس عشر من شهر نيسان: إبراهيم، نائب الملك الجديد في مصر «افتراضاً».

ـ الخامس والعشرون من شهر آب: إبراهيم يتلقى تعيينه في

إسطانبول.

ـ الثالث من شهر أيلول: عودة إبراهيم إلى القاهرة، حالته تزداد سوءاً.

ـ العاشر من شهر تشرين الثاني: وفاة إبراهيم، وعباس الأول نائباً للملك في مصر.

ـ العاشر من شهر كانون الأول: انتخاب لويس نابوليون رئيساً للجمهورية.

١٨٤٩ : ـ الثاني من شهر آب: وفاة محمد علي.

شكر

تدين بعض مقاطع هذا الكتاب كثيراً إلى أعمال كل من السيد صبري، وعفاف لطفي السيد مرسو، وغابرييل غييمار، وغاستون فييت، وأندري رايمون وأيضاً لغابرييل هانوتو، فأبحاثهم التي سبقت بحثنا هذا، تجعل من غير المناسب أن ندعي التجديد. فكتابة هذا العمل استلهمت أساساً من الرغبة في تجميع، وتنظيم بحسب ما يقتضيه الوقت والمساحة، أهم ما كتب حتى يومنا هذا حول محمد علي باشا.

وماكان لهذا الكتاب أن يوجد أبداً لولا دعم السيد يافس مابان نائب مدير سياسة الكتاب والمكتبات في وزارة الشؤون الخارجية.

شكراً لروجي كاميل الذي أودعنا بكرم كبير هذه الكنوز من الوثائق، التي جمعت بكل صبر وأناة طيلة سنوات.

شكراً أيضاً لآني رالو، وماري ماريي (في باريس)، وكريستيان حمامجيان (في القاهرة) اللواتي لعبن طيلة شهور دور موظفي المحفوظات والأرشيف، والذين لايشكرون دوماً. وأشكر ماجدة غريش سيداروس على إضاءاتها في الترجمة.

دون أن أغفل عن الأب مارتان، الحارس الوفي لمكتبة اليسوعيين في القاهرة.

شكراً إلى إيفلين بيزويان، لصبرها في إعادة القراءة.

إلى جون سولا، الذي أتى ليساعدني في المسار الشاق «جداً»، لأعمال التحقق والتصحيح.

إلى زوجتي دانييل، والتي برهنت على نكران ذات أقرب ما يكون إلى القداسة حين تحملت لسنوات عديدة الحضور الدائم لنائب الملك.

وعرفاني في الأخير إلى السيدة ديروش نوبلكور لدعمها المتميز التي قدمته للمؤرخ في الشؤون العقدية.

المحتويات

هذا الكتاب

بدأ كل شيء قبل زمن طويل، في القرن الثالث عشر الذي تزامن وحكم آخر سلطان أيوبي لمصر وكان يدعى الصالح.

ذلك أن الصالح المعرض للتهديدات المتزايدة من هجمات المغول التي كان يقودها أبناء جنكيز خان، قرر أن يرفع من عدد العبيد الذين يُجلبون إلى مصر، كيما يشكل بهم جيشاً قوياً يدافع به عن دولته. وبنهجه هذا، كان يقتدي بسياسة اتبعها السلطان أحمد ابن طولون قبل ثلاثة قرون.

ومضى بسلوكه ذاك الذي لم يكن يؤشر ظاهرياً على شيء، إلى تأسيس دولة جديدة هي دولة المماليك.

